

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ..﴾ [يوسف: ١١١]

قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ

تأليفَ المرحوم

عبد الوهاب النجار

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين
و ناظر مدرسة المرحوم عثمان ماهر باشا (سابقاً)

الطبعة الثالثة

منقحة وبها زيادات هامة

مستورات

محمد رحيم بيغوت

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مستشارات محاميه بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved ©
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite
et exposerait le contrevenant à des poursuites
judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف - شارع البحري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohatory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohatory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4073-6



9 782745 140739

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لِنَهْتَدِيَ لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ الذي قصَّ الله عليه أحسن القصص في كتابه الكريم وعلى إخوانه من الرُّسل والأنبياء أهل القدر العظيم.

وبعد؛ فقد وجَّهت مشيخة قسم التخصص بالأزهر الشريف إلى هذا العبد الضعيف أن يُلقِيَ دروساً على طلبة قسم الوعظ والإرشاد في قَصَص الأنبياء الأطهار الذين وَرَدَ ذكرهم في القرآن الكريم وكان ذلك في سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ الدراسية.

لم أجد بُدّاً من امتثال الأمر وقد قمتُ من هذه المهنة الكبيرة بما وصل إليه الإمكان على وَجْهِ أرجو أن يكون مَرْضِيّاً عند الناس، مقبولاً عند الله. ولا بُدَّ لي من بيان الطريق الذي سلكته ليكون القارئ على بَيِّنَةٍ من الأمور واقفاً على المغزى الذي عينته:

١ - أخذت نفسي بأن أبدأ باسم النبي الذي أريد الكلام في شأنه وأبين كم مرة ورد ذكره في القرآن الكريم، وأدل على رقم الآيات التي ذكر فيها من السور المختلفة، وقد استعنت على ذلك بالقاموس أو الفهرس الذي عمله الدكتور «فلوجل» العالم الألماني غير أنني جعلت الأرقام على مقتضى المصحف الكريم الذي طبعته الحكومة المصرية في سنة ١٣٤٢ هجرية.

٢ - أُقَسِّم قَصَص النبي من الأنبياء إلى عدّة مواقف، أستوفي في كل موقف شأنه فيه، ثم أتبع ذلك الآيات الكريمة التي تدل عليه مع ذكر رقم كل آية بعدها غالباً.

٣ - يَغْلِبُ أن أذكر ذلك الموقف إن كان له ذِكْرٌ في كتب العهد القديم «التوراة» أو العهد الجديد «الإنجيل» وهو أحياناً يوافق القرآن وأحياناً يخالفه. ولا يعزب عن فكر القارئ الكريم أن القرآن جاء مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه؛ فما جاء به هو الحق الذي لا مرأى فيه، وكل ما يخالفه لا مَعُول عليه.

٤ - أن أُبين أوجه العظة والعبرة التي في القصة على وجه الاختصار.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أُنبِّه القارئ إلى أن كتب العهدين «القديم والجديد» ليس لهما سند متصل ولم تخل من تحريف المحرِّفين خطأً أو عمدًا، ولكنني بذلك أنبه الطالب الذي سيكون عرضةً للاتصال بأهل الكتابين بحكم مهمته وبصدد أن ترد عليه النصوص منهما في الموضوعات المختلفة ليكون على استعداد للإجابة عما يُسأل عنه وتكون عنده فكرة عنهما، وليأخذ منهما ما يساعده على أدلته وبراهينه، وليبطل ببعض نصوصها ما يمكن إبطاله من الدعاوى التي قد يدعيها أهل الكتابين.

ولا يعزب عن فطنة القارئ أنني في تلخيص القصة وإيراد آي القرآن لا أقصد إلى تحليل الكلمات وبيان إعجاز الآيات والإضافة في بيان ما فيها من إطناب وإيجاز أو قصر أو تأخير أو نحو ذلك مما يعمد إليه المفسرون، وإنما أقصد إلى تلخيصها تلخيصاً يجمع أطرافها ويحيط بمغزاها.

وإذا وقفتُ على رأي مفسر أو مفسرين لا يلتئم مع ما أفهم من القصة أوردته وأتبع ذلك بالرد عليه مبيناً الوجه الوجه الذي إليه قصدت وإياه عنيت، وأورد ما قد يساعطني على ما قد ذهبت إليه من أقوال ثقات المفسرين الآخرين.

أما الكتب التي رجعت إليها في هذا الموضوع الشريف فهي:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - صحيح البخاري.
- ٣ - تفسير البيضاوي.
- ٤ - تفسير الألوسي.
- ٥ - تفسير الطبري.
- ٦ - تفسير الفخر الرازي.
- ٧ - تفسير ابن كثير.
- ٨ - تفسير المنار.
- ٩ - الأجوبة الفاخرة: للقرافي [نشرته مؤخراً دار الكتب العلمية - بيروت].
- ١٠ - تاريخ الطبري.
- ١١ - تاريخ ابن الأثير وهو الكامل في التاريخ.
- ١٢ - دائرة المعارف: للبستاني.
- ١٣ - إظهار الحق: لرحمة الله الهندي.

١٤ - الفارق بين المخلوق والخالق.

١٥ - القاموس المحيط : للفيروز أبادي.

١٦ - تاج العروس.

١٧ - لسان العرب : لابن منظور.

١٨ - كتب العهد القديم والعهد الجديد.

١٩ - قاموس الكتاب المقدس.

وإني في هذا المقام أشكر لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الأزهر الشريف ورئيس مجلس الأزهر الأعلى، والأستاذ الكبير صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية ورئيس قسم التخصص - حُسِّنَ ظَنُّهُمَا بشخصي الضعيف وتقدير أنني أُفيد الطلبة فيما أُسْنِدُ إليَّ. وأشكر طلبة القسم «قسم التخصص» أن كانوا يناقشونني في الموضوعات التي آتيهم بها مناقشة تحمل على الدرس والمراجعة وتحقيق الحق الواجب الاتباع.

والذي أرجوه من كل مُطَّلِع على هذه الكلمات أن يتفضل بأن يرسل إليَّ ما يَعرَن له من الملاحظات أو يقف عليه من خطأ أو زلل، لأثبت له رأيه إذا أذن الله بطبع هذه الكلمات كتاباً مرة أخرى.

والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الطُّول والإنعام. والصلاة والسلام على خاتم النبيين والرُّسُل الكرام. (وبعد) فهذا كتابٌ في قَصَص الأنبياء الأطهار والمرسلين الأخيار، الذين اختصهم الله بالمعجزات والآيات الباهرات وأقام بهم الدينَ الذي اصطفاه لهم، فهدى بهم من الضلالة، وأنقذ بهم من الجهالة، وجعلهم أدلاءً على الهدى لمن استهداهم ممن قَصَّ في القرآن الكريم.

ولقد نظرتُ في الكتب المؤلفة في سِيرِ أنبياء الله الأطهار ورُسُلِهِ الأبرار، فوجدتُ مؤلفيها يجمعون الحق والباطل، ويقرنون إلى الصواب الخطأ، وينظمون العقود من الدرِّ والخزف، لا يرجعون في تلك القصص إلى تحقيق يَتَبَيَّن به الرائج عن الزائف. وجُلُّ ما يعتمدون عليه إسرائيليات وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان؛ فأردت أن يكون كتابي هذا عَلَمًا يُهْتَدَى به إلى الصواب مع التنبيه على ما يكون في تلك السَّيَر أو الروايات من الخطأ، نُصْحًا مِنِّي لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم. وتطهيراً لذمتي واستبراء لضميري. فإذا أصبْتُ شاكلة الصواب فذلك بتوفيق الله تعالى وتسديده، وإذا فَرَطَ مِنِّي خطأ في فِكْر أو تقرير حادثة فلي أجزُ من اجتهد فأخطأ ولي من حسن القصد شافع لا يُرَدُّ.

وإني أسأل الله أن ينفع به قارئه وأن يُجَنِّبني الخطأ والخَطْل والزلل، إنه وليُّ التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

كيف قابل الناس كتاب قصص الأنبياء حين ظهرت الطبعة الأولى

كان الناس في كتاب قصص الأنبياء فريقين: -

أما الفريق الأول، فهم خريجو المدارس العالية والمستنيرون والمثقفون وأعلام الهداية حَبَّبَ الله إليهم الإيمان وزَيَّنَهُ في قلوبهم وكرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون من أعلام الأزهر الشريف الذين لا يشتهون سوى الحق طَلِيبَةً، ولا ييغون آيات الله عوجاً ومن يلتقطون الحكمة أنَّى وجَدوها.

هذا الفريق قد اغتبط بذلك الكتاب أيَّما اغتباط ووجدوه الضالة التي كانت أنفسهم تشتتهي أن تجدها، أو هو مثل شعر ابن أبي ربيعة الذي بكت الشعراء من أجله الديار وندبت في نشدانه الأطلال والآثار فأخطأهم الظفر به ووقع عليه المغيري - وكان فرحهم به فرح المشوق بلقاء الحبيب في غفلة من الرقيب، أو فرح الأديب بالأديب، أو العليل بالطبيب.

ولقد قال لي فاضلٌ من نظار المدارس بعد إهداء الكتاب إليه: «إذا كان في الكتاب من عيب، فهو أنه ألهى زوجتي عن كل عمل في بيتها وعن كل مصلحة لأولادها، لجِدِّها في البلوغ إلى نهايته».

وأما الفريق الثاني: فهم الذين لم يحصلوا من العلم إلا على قشور لا تُسَمِّنُ وَلَا تُغْنِي من جوع. لهم عقول ولكنها معقولة عن التفكير، ولهم عيون ولكنهم لا يبصرون بها ضوء الصبح المسفر، فهم يَعْشَوْنَ عن الحق وهو إنصاف، ويلمحون الباطل وهو مستتر خاف. ولهم قلوب لا تفقه الرشد وهو واضح جلي، ولا يفوتها الغي وهو مُوبِقٌ وَبِي. ولهم آذان، ولكن بها وَقَرٌّ عن الهدى لائحة أعلامه متلبية لكل نبأة من الغي خفي جرسها. ومنهم أُمِّيُونَ لا يعلمون الكتاب إلا أمانِيَّ وإن هم إلا يظنون. عندهم التفكير في الحق جريمة لا تمحوها تَوْبَةٌ. وإجالة الفكر في المعقولات حَوْبَةٌ وأَيُّ حوبة، والويل كل الويل لمن تدبر آيات الله بعقله، والشبور كل الشبور لمن فهم كلام الله بغير ما فهمه الأولون، أو عقل كلام الله على غير النمط الذي خطه الآباء الأقدمون. قد حصر الواحد منهم نفسه في

دائرة من الخرافات لا يفهم سواها، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ظهر الكتاب فرأوا نوراً لم يعتادوا رؤيته، وضياء لا عهد لهم بمثله، فأذاهم ذلك النور، وأنكرت أعينهم ذلك الضياء.

قد تُنكر العينُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكَرُ الفُؤُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمٍ
فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وإنني مع ذلك أرحمهم؛ فلم يخلقوا كما يشتهون وليس لهم يد في ضيق تلك العقول، وإنني لأعذرهم أيضاً في إنكار ما أنكروا؛ فقد جاءهم من الحق ما يجهلون ومن الصدق ما لا يستطيعون، والناس أعداء ما جهلوا.

ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

وَأَرْحَمُ أَقْوَاماً مِنَ الْعِيِّ وَالْغَبَا وَأَعْذِرُ فِي بُغْضِي لَأَنَّهُمْ ضِدُّ
ولهؤلاء أوصي وصيةً ناصح مُشْفِقُ بآلا يقرأوا كتابي ولا يفتحوا له غلافاً، وعليهم أن يتعدوا عنه ابتعاد النون من البیداء، والصب من الدماء، فلم أضغه لهم ولم أقصدهم به، وليلعلموا أن هذا الكتاب فتنة يُضِلُّ الله به كثيراً وَيَهْدِي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين، وقديماً قال موسى كليم الله لربه في آية من آياته وهي حق لا ريب فيه: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. والله تعالى يبلى الناس ويفتنهم بالخير كما يبلىهم بالشر ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولو أن بيدي مفاتيح الهدى لأَقْضُتْ عليهم من الهداية ما تتسع به عقولهم وتستضيء به بصائرهم وتُشْرِقُ به بواطنهم، ولأَقْمَتُهُمْ على الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

رَبِّ إِنْ الِهُدَى هَذَاكَ وَإِيَّا تَكْ نَوْرٌ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

اللهم إنني قد أنذرت وحذرت، ومن أنذر فقد أعذر، ومن حذر فكمّن بشر.

ومن هذا الفريق جماعة رأوا الكتاب فتعاووا وتغاووا وحرّشوا أنيابهم وحرّكوا أذنانهم، وأشلوا بي واحداً منهم يمرّ بالمجتمعات وبعض الخوانيت ويقول: إن الكتاب يخالف روحه الدّين، وأن عبد الوهاب النجار وكتابه أضرّ على الإسلام من المبشرين - وقد ترامت إليّ أقواله فقلت:

تَعَالَى اللهُ مَوْلَايَ وَزَادَ اللهُ إِيْمَانِي

إن قائل هذا القول لم يكن له وجود في هذه الحياة الدنيا يوم كنت أنافح عن الدين

الإسلامي بلساني وقلمي في أول العقد العاشر من القرن الماضي الميلادي، ولقد حَمَلَنِي هذا القول منهم على سرد حوادث ما كنت أؤثر سردها، وإيراد وقائع ما كنت أريد إيرادها.

كنت في سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف والسنة التي بعدها طالباً صغيراً بالجامع الأحمدي، وكان بطنطا قسيس بروتستانتني اسمه «أبو راشد» وكان يرسل باعتراضات له على الإسلام والقرآن، فجاء بعد ذلك إلى المرحوم الشيخ محمد الوكيل من علماء الجامع الأحمدي، وكان رحمه الله صديقاً لوالدي، فطلبت منه أن أكون المجيب للقسيس، فسمح بذلك. وكانت مساجلات شفهية بعد ذلك بيني أنا والمرحوم الشيخ مجاهد بركات من أعرق الأسر بطنطا من جهة، وبين القسيس من جهة أخرى في مسائل الدين. وكنا نجتمع في بعض الأوقات بإحدى المقاهي بشارع البورصة بطنطا ويحضر معنا بعض مواطني القسيس اللبنانيين. فكان صدى تلك المجادلات الدينية ينقل إلى القاهرة ثم إلى لندن، فتضجّ التايمز والجرائد الإنجليزية وتجأر بالشكوى من التعصب الديني في مصر مُبرِّقة مُرْعدة مهددة منادية بالويل والثبور، فتنتقل تلك الأقوال في بعض الجرائد المصرية، وتنبري جرائد أخرى لتكذيب ما تقوله التايمز، منادية بأن الأقباط بمصر لا يُقلق راحتهم أحد ولا تُوجد من أحدهم شكوى.

ولقد زار السير «فان بارنغ» المرحوم السيد «محمد توفيق البكري» في إحدى ليالي رمضان بسراري الخرنفش. فسأله السيد عن ضججات التايمز والجرائد الإنجليزية وما تقول به من وجود التعصب الديني في مصر مع أنه لا يوجد شيء من ذلك في القطر المصري! فقال جناب السير: إن التعصب الديني موجود. وأقدر أن أسمى لك مدينة طنطا. وهو لا يعني بذلك سواي وصديقي الشيخ مجاهد رحمه الله، وكنا حينئذ طالبين صغيرين ضعيفين.

وقد مرّ بنا بطنطا المرحوم «محمد أفندي يحيى» وكيل السيد البكري وأخبرنا بما كان وأشار علينا بالابتعاد عن القسيس.

وفي ختام ذلك القرن جاءت البعثة التبشيرية الانجليزية مكفولة بحماية اللورد كرومر مَرْعِيّة برعايته ملحوظة بعين عنايته، واتخذت مقرّها المدرسة الإنجليزية، وكانت موجودة بباب الخلق بشارع محمد علي قبالة دار الكتب المصرية. وكان ذلك في سنة ١٨٩٩. وكنت وقتئذ مدرّساً بمدرسة عابدين الأميرية وكان القسوس من المبشرين يدعون المسلمين إلى دخول الدين المسيحي. فذهبت إليهم ومعني زميلاي وصديقاَي المرحوم

«أحمد أفندي صقر» والأستاذ الشيخ «أحمد راشد» المدرس بدار العلوم سابقاً ودخلنا إلى دار التبشير وجادلت المبشرين وناقشتهم في دينهم حتى أفحمتهم، ثم انبريت لهم أدعواهم إلى الدخول في الإسلام، وبيّنتُ لهم عقائده ومحاسنه: فأنا أول مبشّر بدين الإسلام بمشّر القسوس الذين يدعون إلى النصرانية.

تكرّر مني هذا الأمر حتى برّموا بي وضجّوا بالشكوى إلى جهات الحكومة، حتى أرسلت المحافظة الجند مشاة وفرساناً لمنعي من الدخول إلى مكانهم الذي يدعون الناس إليه دعوة عامة.

ويذكر الذين شاهدوني في تلك الليلة وقد وقفت في مكان دار الكتب المصرية - وكانت لما تُبَنّ إلى ذلك اليوم - وأنا أنادي جماهير المسلمين قائلاً: إني عبادة الله. فلما أحاطوا بي صرت أخطبهم وأبين محاسن الإسلام وأزهدهم فيما يدعون إليه، إلى أن جاء البوليس وفزق ذلك الجمع بالقوة.

بلغ صناعي هذا المرحوم الشيخ «محمد زكي الدين سند» فاستدعاني وقال لي: ما حاجتنا إلى الذهاب إلى هؤلاء القوم؟ وخير لنا أن ننشئ جمعية نسميها «مكارم الأخلاق» وأن ندعو الناس إلى الحضور إليها ليسمعوا العظات الدينية والنصائح. وبذلك ينصرفون عن هؤلاء القوم؛ فاتفق رأينا على ذلك. وكوّنت الجمعية في سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م، وكان الشيخ «محمد زكي الدين سند» رئيساً لها، وكنت أنا وكيلا والأستاذ «محمد رشدي» القاضي الآن: سكرتيراً لها.

وأقبل الناس عليها إقبالاً عظيماً. وأنشأت هذه الجمعية «مجلة مكارم الأخلاق الإسلامية» وأنشأت فروعاً لها؛ وكان من أعضائها الواضعين لقانونها حضرة صاحب المعالي «محمد حلمي عيسى باشا» وزير المعارف سابقاً. وكان طالباً بمدرسة الحقوق. أين كانت هذه المخلوقات - التي تخطيء إذا جئت في استفهامها بمن - حتى يقول قائلاً إن كتاب «قصص الأنبياء» ومؤلف هذا الكتاب أضّر على الإسلام من المبشرين؟! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

كان من عواقب استمراري على خدمة الإسلام وبذل النصيح للمسلمين أن تبرّم بمكاني من لهم أسماء المسلمين وألقاب الموحّدين في نظارة المعارف، فعاقبوني بإبعادي إلى أسوان مدرساً بمدرستها - فأبيت أن أذهب وقدمت استقالتني من خدمة نظارة المعارف لأشتغل حرّاً لا أتقيد بشيء سوى ديني وضميري ووجداني، وكان من شأن هذه الاستقالة ما كان، ومن شاء المزيد فليرجع إلى صفحات اللواء في سنة ١٩٠٠.

وقد وقفت قلبي ومجهودي على خدمة الإسلام بكل ما أوتيت من قوة مذ عقدت يداي إزارى . فلم يحتج الإسلام إلى الذود عن عقيدته أو بيان محاسنه إلا كنت سباقاً إلى تلك الغاية بخطبي في المحافل والمجامع وبما يخطه يراعى .
وعُمرت في الإسلام فازددت بهجة ونوراً، والحمد لله على منته فهو المنعم المتفضل .

واني لأقول لمن يبحثون لي عن هفوة أو كبوة :

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرْمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَيْمِي أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

وقد كتب جماعة من حضرات أصحاب الفضيلة العلماء نقداً لكتابي، وقد أتيت على هذا النقد بما ينقضه ويأتي على بنيانه من القواعد؛ وسيقف القارئ على تقديمه ونقضه عند كل موضع وجهوا إليّ النقد فيه، والله ولي التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل، ومنه العون وإليه المصير .

وليعلم القارئ الكريم أنني حين شرعت في كتابي «قصص الأنبياء» كانت ماثلة أمامي قواعد سرت على ضوءها . وإن كانت غير منصوصة كلها في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وإنما تركتها اعتماداً على ذهن القارئ وكلها يكاد يكون معلوماً من الدين بالضرورة .

وهأنذا أنصها لتكون نبزاً يهتدي به المطلع على ردي على تقرير حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وهي :

١ - أن العقل ركن المعتقدات الأول : فما أوجبه كان واجباً، وما أحاله كان مُحَالاً، وما أجازته كان جائزاً .

٢ - أن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قطعيّ الثبوت والدلالة فهو حجة قاطعة على ما تضمنه، وذلك يشتمل شيئين : الكتاب الكريم، والخبر المتواتر .

٣ - إذا عارض الخبر العقل، وجب تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض .

٤ - الخبر إذا كان رواه أحاداً فلا يصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقادية؛ لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظنيّ الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع .

٥ - ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية : فما كان منقولاً بطريق الآحاد

سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود؛ لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء.

- ٦ - ما نقل مما يُشعر بكذب أحد الأنبياء أو معصيته وكان النقل متواتراً، فما يمكن صرفه عن ظاهره صُرف إن أمكن، وإلا فيُحْمَل على أنه ترك الأولى، أو قبل البعثة.
- ٧ - المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد؛ لأنَّ المطلوب فيها اليقين. وخبر الآحاد لا يقين فيه.

٨ - إنكارُ المعجزة الثابتة بنص قطعيّ الثبوت والدلالة كُفِّر.

٩ - الإسرائيليات لا حرج في مخالفتها ولا في إنكارها جملة وتفصيلاً.

١٠ - كتب العهد القديم والجديد: ما كان منها موافقاً للقرآن فهو حق، وما كان منها مخالفاً للقرآن فهو باطل. وما كان القرآن ساكتاً عنه فلا نقطع بصدقه ولا بكذبه. ويجوز نقله والاستئناس به.

١١ - أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه، بل هي أوجه كما يجوز حمل عبارة القرآن عليها، يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها. ولا مؤاخذه على مَنْ خالفها.

١٢ - القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تَنفَدُ غرائبُه؛ فلكل امرئ أن يتدبره بعقله ويفهمه على الوجه الذي يستقر في اعتقاده، بشرط أن يكون ذلك جارياً على مقتضى العربية غير مُخَلِّ بفصاحته ولا مُخَلِّ بشيء من مقاصد الدين.

ملاحظات

- ١ - قال الإمام أحمد: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي» وعندي أيضاً أنه متى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض.
- ٢ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما نقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين» وكل ذلك فيما يتعلق بأمر يحتاج فيه إلى اليقين.

آدم عليه السلام

عدد مرات ذكره في القرآن - خلقه من طين - أمر الملائكة بالسجود له بعد نفخ الروح فيه - إباء إبليس عن السجود له تكبراً - محاجة إبليس لخالقه - طرد إبليس من الجنة وإنظاره إلى يوم العرض - استخلاف الله آدم في الأرض - قول الملائكة أتجعل فيها الخ - تعليم الله آدم الأسماء - خلق حواء وإسكان الله آدم وزوجه الجنة - إغراء إبليس آدم وزوجه على الأكل من الشجرة المحرمة - عقاب الله لآدم وإخراجه من الجنة - مسائل .

ذكر اسم آدم في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة في خمس وعشرين آية، وهاكم الآيات التي ذكر فيها :-

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٢	البقرة	٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧
٣	آل عمران	٣٣ ، ٥٩
٥	المائدة	٢٧
٧	الأعراف	١١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٧٢
١٧	الإسراء	٦١ ، ٧٠
١٨	الكهف	٥٠
١٩	مريم	٥٨
٢٠	طه	١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١
٣٦	يس	٦٠

أول من قص الله تعالى علينا قصصهم في القرآن الكريم من الأنبياء «آدم» أبو البشر عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت قصته في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الإسراء، وفي سورة الكهف، وفي سورة «طه» باسمه وصفته، وفي سورة الحجر، وفي سورة ص بصفته فقط، وكلها بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط. وذلك مما يدل على إعجاز القرآن الكريم؛ فإن أكتب الكاتبين وأبلغ البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المثانة في الأسلوب والبلاغة في التعبير كما في القرآن الكريم.

خلق آدم من طين

وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس عن السجود تكبراً

تتلخص قصة آدم في أن الله تعالى أخبر ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين، وأمرهم إن سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين، سجدوا تكريماً بالطبع لا سجدوا عبادة، لأن الله لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى سواه وبعبارة أخرى كان ذلك احتفالاً بتمام تكوين آدم بشراً سوياً.

سوى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون - متغير - حتى إذا صار ذلك الطين صلصالاً - يصل إذا ضرب - كالفخار، نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي من لحم ودم وعظم وعصب يتحرك بإرادته ويدرك، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، وأبى أن يسجد استكباراً، ونسب إلى الله الظلم في أمره بالسجود لآدم وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فطرده الله من الجنة. اقرأ قوله تعالى: -

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ .

سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ .

والمعنى: خلقنا أصلكم الذي نسلكم وكنتم من أبنائه. فخلقنا له خلقاً لكم . وتصويرنا له تصوير لكم .

سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَالْبَآنَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ فإذا

سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ﴿٦١﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٦٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٣﴾ .

سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ .

محااجة إبليس لله في مخالفته عن أمره بالسجود

سأل الله تعالى إبليس - وهو أعلم - عن السبب الذي منعه من السجود إذ أمره، فاحتج بأنه أفضل من آدم الذي خلقه من طين من صلصال من حمأ مسنون، وإن من الظلم أن يخلق هو من عنصر النار الذي هو أشرف من الطين ثم يؤمر بالسجود لتلك الكتلة، ونسب الله تعالى إلى الظلم وأبدى غاية التكبر، فأعلمه الله بأنه من أهل النار لاستكباره، وبأنه مطرود من الجنة لذلك السبب وهو الكبر ونسبة الظلم إلى الله.

إنظار إبليس إلى يوم الدين

طلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم الدين، وتوعد آدم الذي طرد بسببه من الجنة بأن يغوي ذريته ويفسدهم على الله، وأن يسعى في أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله، إلا عباد الله المخلصين، فوعده الله هو وكل من أطاعه من ذرية آدم بالنار.

أقرأ قوله تعالى: في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا لَمَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ .

وفي سورة الحجر: ﴿قَالَ يَبْنَائِلِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ

الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أُنْعَمَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٣﴾ .

وفي سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٣١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنَنَنَّكَ دُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٣٣﴾ وَاسْتَغْفِرُ مِنْ أَسْطَغَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَجَاجِلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٣٥﴾ .

وفي سورة ص: ﴿قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ .

استخلاف الله آدم في الأرض

أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة في الأرض فقالوا ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وتدعنا نسبح بحمدك ونقدس لك ولا نعصي أوامرك ولا نفعل شيئاً من نواهيك، فأخبرهم الله تعالى أنه يعلم في هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون، ويعلم ما يبدون وما يكتُمون، وأنهم غير عالمين بالسرف في استخلافه آدم، وأنه اختصه بعلم ما لا يعلمون.

ومعنى الخلافة عن الله في الأرض: أنه سيكون له سلطان عليها متصرفاً في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته.

في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

قد يظن القارئ لهذا السؤال أن الملائكة قاموا بمظاهرة أمام الله واحتجوا عليه استخلافه آدم في الأرض فيقول: كيف يكون هذا منهم وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؟

والذي أفهمه أن شيئاً من ذلك لم يحصل ولكن خواطر خطرت بأنفسهم وهي تشوقهم لمعرفة الحكمة في استخلاف ذلك المخلوق الذي من شأنه تلك الأشياء، ومعرفة السر في تركهم من هذا الأمر وهم المجبولون على تسبيحه وتقديسه؛ فأراد الله أن يعلمهم بالعمل أنه أودع فيه من السر والقدرة على وضع أسماء الأشياء ما لم يودعه فيهم.

تعليم الله آدم أسماء المسميات التي تقع تحت حسه

أراد الله أن يحقق للملائكة بالفعل ويكشف لهم بالعمل ما غاب عنهم، ويبين أن آدم الذي استحققه أولئك الملائكة محل لعناية الله وإيثاره بما لم يعطه لهم؛ فعلم الله آدم الأسماء كلها.

والذي أفهمه أنه علمه جميع الأشياء التي في جنة عدن وألهمه وأقדרه على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأجزائها، وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى وجميع الأوعية والأدوات التي هناك، وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه لاحتياجه إليها.

ومعلوم أن معرفة آدم لهذه الأشياء في طعامه وشرابه وسائر ما يتلذذ في تلك الدار أمر طبيعي، بخلاف الملائكة فإنهم لا يحتاجون إلى شيء من ذلك لأنهم لا يحتاجون إلى طعام ولا إلى شراب ولا يباشرون شيئاً من هذه الأشياء، فكان علمه بها أمراً معقولاً صحيحاً، إذ الحاجة تفتق الحيلة، ويشهد لما ذهب إليه: قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَنِ يُؤْمِنُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ (٣١) والإشارة للمرئي الحاضر وتكلف أنه صور له ما كان وما يكون وأشار إليه: تحميل للآية ما لا تحتمله.

ثم إن الله تعالى عرض على الملائكة المسميات وطالبهم بأسمائهم، فلم يعلموا ما يجيبون وقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (٣٢) فقال تعالى: ﴿يَكَادُمْ أَنِّي تُهْمُ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (٣٣) ففعل، وقال للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٤).

اقرأ قوله تعالى: في سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنِ يُؤْمِنُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٥) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٦) قَالَ يَكَادُمْ أَنِّي تُهْمُ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٧).

يبالغ بعض الناس فيزعم أن الله تعالى علم آدم كل شيء كان ويكون، وعرض صور

هذه الأشياء ما كان موجوداً وما سيوجد، وأن آدم سمي كل شيء باسمه، وهذه مبالغة غير مقبولة لا أميل إليها، بل أميل إلى أنه سمي الأشياء التي وقع عليها حسه ومنها الطيور والبهائم وكل أنواع الحيوان الموجودة هناك.

ولا يخفى أن استخلاف آدم في الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الإلهية التي خفيت عن الملائكة؛ فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض لما عرفت أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة؛ فإن الملائكة ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض إذ هم على وصف يخالف وصف الإنسان، فما كانت السفن لتصنع ولا تزرع الأرض بمختلف الزروع والغراس، وما وجد منها لا يهتم أحد بمعالجته واستخراج خباياه، فلا تعرف الأطياب ولا خواص الأشياء ولا المركبات الكيماوية ولا الفوائد الطبيعية ولا الفلكية ولا المستحدثات الطبية ولا الطبائع النفسية ولا شيء من هذه العلوم الكثيرة التي تفتى السنون ولا يدرك الإنسان لعلم منها نهاية، فسبحانه وتعالى من عزيز حكيم.

سكنى آدم وزوجته الجنة

وخرجهما منها بسبب إغواء إبليس لهما

أمر الله آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء يسكن إليها، وأباح لهما كل شيء في الجنة إلا شجرة عينها لهما، ولكن إبليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بأنواع المغريات وقال لهما: إن ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو تكونان خالدين، ولا يقرب الموت والفناء ساحتكما، وقال لآدم: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ مِّن لَّدُنِّي﴾ ولم يزل يفتله في الذروة والغارب ويمنيه معسول الأمانى ويرفؤه بالقول اللين، حتى نسي آدم أنه عدوه الذي أبى السجود له، وأن الله حذره منه أشد الحذر بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ فأكل آدم وحواء من الشجرة ﴿فَبَدَّتْ لَحْمًا سَوِيًّا نَّهُمَا وَطِفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِمَا مِن رَّرِ الْجَنَّةِ﴾ ﴿١٨﴾ ليسترا عورتيهما ويجعلان ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر، وعاتب الله آدم على مخالفته أمره والأكل من الشجرة، فندم آدم وأخذ يعتذر، فطرده هو وحواء من الجنة، وطرده إبليس قائلاً: ﴿أَفْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٢١﴾ فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾ وهداه واجتبهه وبقي في الأرض هو وبنوه الذين أتى بهم من حواء في الأرض، اقرأوا قوله تعالى:

سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ ۝٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيْهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوۤا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعْ اِلٰى حِينٍ ۝٣٦﴾ فَلَقِيَ اٰدَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ اِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ۝٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوۤا مِنْهَا جَمِيْعًا فَاِذَا يٰۤاٰدَمُ مَنِ الْهٰدِي فَمَنْ تَبِعَ هٰدَاۤى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ۝٣٨﴾.

وفي سورة الأعراف: ﴿وَبَعَادُمْ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ ۝١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطٰنُ يَسِيْرًا لَهَا مَا وُرِيَّ عَنْهَا مِنْ سَوَءٍ لِّهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ اِلَّا اَنْ تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ اَوْ تَكُوْنَا مِنَ الْخٰلِدِيْنَ ۝٢٥﴾ وَقَاسَمَهُمَا اِنِّي لَكُمَا لِنٰصِيْعٌ ۝٢٦﴾ فَذَلَّلَهُمَا يَفْرِطٍ قَلَمًا اِذَا فَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَءُئُهَا وَطَُوْقًا يَخْصِفٰنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رَبُّهُمَا اَلَّا يَنْهَكُمَا عَنْ يَتْلُمَا الشَّجَرَةَ وَقُلَّ لَكُمَا اِنَّ الشَّيْطٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ۝٢٧﴾ فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَاِنْ لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ۝٢٨﴾ قَالَ اهْبِطُوۤا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعْ اِلٰى حِينٍ ۝٢٩﴾ قَالَ فِيهَا تَحِيُوۡنَ وَفِيهَا تَمُوْتُوْنَ وَمِنْهَا تَخْرَجُوْنَ ۝٣٥﴾.

وفي سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰى اٰدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَفِىْ وَلَمْ يَجِدْ لَهٗ عَزْمًا ۝١١٥﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوۤا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوۤا اِلَّا اِبْلِيسَ اَبٰى ۝١١٦﴾ فَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرَٔوْجِكَ فَلَا تَخْرِجْكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ۝١١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلَّا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرِى ۝١١٨﴾ وَاَنَّكَ لَا تَظْمَؤُنَّ فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ۝١١٩﴾ فَوَسَّسَ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ قَالَ يٰۤاٰدَمُ هَلْ اَدْرٰكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلٰدِ وَمَلَٰٓئِكُ لَا يَبۡلٰى ۝١٢٥﴾ فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهَا سَوَءُئُهَا وَطَُوْقًا يَخْصِفٰنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰى اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى ۝١٢٦﴾ ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى ۝١٢٧﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِذَا يٰۤاٰدَمُ اٰلِئِنَّكُمْ مَنِ الْهٰدِي فَمَنِ اتَّبَعَ هٰدَاۤى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقٰى ۝١٢٨﴾.

مسائل: نحب أن نعرض لها في هذه القصة ونجيب عنها

الأولى: أن إبليس لم يكن من الملائكة فهو غير مأمور بالسجود لآدم، فكيف يعاقب على مخالفته أمراً لم يوجه إليه؟

والجواب: أن إبليس لو لم يكن مأموراً لقال الله: إنك لم تأمرني حين قال الله له ﴿مَا مَعَكَ اِلَّا سَجَدَ اِذْ اَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] ولكنه أظهر التكبر ولم ينف الأمر، ففهمنا أنه كان مأموراً، وأنه وإن كان من غير الملائكة، ولكن الله تعالى كان قد أمر الشاهدين لنفخ الروح

في آدم بالسجود وإبليس كان حاضراً، وإنما عبر الله تعالى بالملائكة لأنهم كانوا الجمهور الأعظم في الحاضرين. ووجود فرد من غيرهم لا يضر في صدور الأمر على هذه الصورة، فهو كان من الحاضرين المأمورين حقيقة وإن كان غير ملك، وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه.

وهناك رأي آخر: هو أن في الملائكة صنفاً يقال لهم الجن، فلفظ الملائكة يشملهم. الثانية: نعلم أن إبليس طرد من الجنة عقب إبائه السجود، فكيف وصل إلى آدم في الجنة حتى أغواه ودلاه وزوجه بغروره؟

والجواب: أن طرده من الجنة لا يجعل دخولها مستحيلاً عليه، وأنه قد دخلها عاصياً أثماً لإغواء من حسده من أول يوم. على أن إبليس تصل وسوسته إلى النفس وإن كان بعيداً، كما يصل تأثير السحر إلى الغائب والبعيد، وكما يصل صوت البعيد بوساطة التليفون اللاسلكي، فلا مانع من أن يصل تأثير وسوسته إلى آدم من خارج الجنة إلى داخلها. وإني أميل إلى أنه دخلها أثماً وعاصياً أمر ربه، بدليل قوله تعالى: ﴿أَهْبِطُ مِنْهَا بَعِثُكُم بِعَصُوكُمْ لِيَعْلَمَ عَدُوُّكُمْ﴾ [طه: ١٢٣].

الثالثة: من أي شيء خلقت حواء؟

والجواب: أن الله تعالى قال ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] هذه العبارة محتملة لأن يكون الله قد أخذ ضلعاً من أضلاع آدم وخلق من ذلك الضلع حواء، وقد قال بذلك كثير من العلماء وهي بعينها عبارة التكوين^(١).

ومن الجائز أن يكون الله خلقها كما خلق آدم، وأن يكون قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي من جنسها وعلى صورتها، وحينئذ تكون المادة التي أخذت منها المرأة غير متعرض لها والرأى الأول النفس إليه أميل.

أين توجد الجنة؟

الرابعة: أين توجد الجنة التي كان فيها آدم وطرد منها؟

والجواب: اختلف العلماء في الجنة التي أسكن الله بها آدم وحواء وأخرجهما الله منها، أهى جنة المأوى التي وعد الله المتقين أن يدخلوها في الآخرة؟ أم هي جنة من

(١) فأوقع الإله الرب سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً (٢٢) وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت - من الإصحاح الثاني - تكوين.

جنات الأرض؟ والجمهور على أنها جنة المأوى أخذاً بظواهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وحديث مسلم عن أبي هريرة: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم» قال ابن كثير في البداية والنهاية: وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى. وليست تخلو عن نظر.

وقال فريق من العلماء: إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ولغا آدم وعصى ربه فيها، وهذا ينافي أنها جنة المأوى.

وقد حكى هذا القول عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان ابن عيينة، واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره، وأفرد له مؤلفاً على حدة، وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رضي الله عنهم، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية. وقد حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل وغيره.

وحاصل الخلاف فيها على أقوال:

- ١ - أنها جنة المأوى.
 - ٢ - أنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء.
 - ٣ - أنها جنة من جنات الأرض.
 - ٤ - التوقف في أمرها.
- ومن أراد فضل بيان في هذا الموضوع فليرجع إلى ص ٧٥ وما بعدها ج ١ من كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

ومن رأيي تفويض أمر تلك الجنة إلى علم الله تعالى فهو الذي يعلم إن كانت في السماء أو في الأرض وهذا لا يمنعني أن أقول إني أميل إلى أنها من جنات الأرض.

نكتة ظريفة

يعترض القائلون بأن الجنة التي وجد فيها آدم كانت من جنات الدنيا فيقولون: لو أن آدم كان في جنة الخلد فكيف يبحث عن شجرة الخلد ليأكل منها، وما فائدة ذلك؟

والآخرون يعارضونهم بالمثليين: إذا كان آدم في جنة من جنات الدنيا كما تقولون، فكيف يبحث عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها؟
وقال بعض المفسرين: إن الجنة التي كان فيها آدم هي جنة اخترعها الله في السماء فليست دار الخلد ولا جنة من جنات الدنيا.

يقول الباحثون في شأن البحار وأعماقها وما فيها من وهاد ونجاد وسلاسل وجبال: إن الجنة التي وجد فيها آدم كانت في قارة غير هذه القارات المعروفة الآن، بل هي قارة في جوف المحيط الآن ويسمونها قارة «مو» ويقولون إنها غرقت بحوادث زلزالية، واستقرت بسهولها وجبالها وما كان عليها من حيوان وشجر وزرع في أعماق المحيط الهندي، وقد مات بسبب غرقها نحو ٦٠ مليوناً من الناس. وكل هذه أمور لا نقطع فيها بشيء.

وقد جاء وصف تلك الجنة في الإصحاح الثاني من سفر التكوين بما يفيد أنها عند منابع دجلة والفرات^(١).

الخامسة: هل آدم نبي ورسول؟

والجواب: أن نبوة آدم قد أخذت دوراً مهماً من عدة سنوات إذ ظهر بمدينة «دمنهور» رجل أنكر أن يكون آدم نبياً، وقد رفعت عليه الدعوى بالمحكمة الشرعية وصدر الحكم عليه بالتفريق بينه وبين زوجته لردته بذلك الإنكار، ولما استأنف الحكم إلى محكمة الاسكندرية كان كلامه أمامها: أنه لم ير لفظاً في القرآن يذكر آدم بالنبوة وأنه يعتقد نبوته، فصدر حكمها بإلغاء الحكم الأول وأعيدت إليه زوجته.

أقول أيضاً: إن القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء كإسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو كل معاني النبوة، فمن هذه الناحية نقول إنه نبي وتطمئن أنفسنا بذلك.

(١) ٨ - وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله (٩) وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١٠) وكان هنا نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة من هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس (١١) اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب (١٢) وذهب تلك الأرض جيد وهناك المقل وحجر الجزع (١٣) واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرق أشور (دجلة) والنهر الرابع الفرات.

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى؛ على أني رأيت في حديث أبي هريرة في الشفاعة الوارد في صحيح مسلم أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون له: أنت أول رسل الله إلى الأرض؛ فلو كان آدم رسولاً لما ساغ هذا القول. والعلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، وهو تأويل متكلف.

السادسة: إذا كان نبياً فكيف عصى والأنبياء معصومون من المعصية؟

والجواب عن ذلك من وجوه: -

(الأول) أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان، وإنما سمي ما أتاه ناسياً خطيئة ومعصية وغواية لأن النبي ﷺ لما كان ليس كأحد الناس التنبيه والحذر من مخالفة الله لازماً له، فإذا نسي عد ذلك خطيئة في حقه وإن كان غير خطيئة إذا صدر من غيره، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

(الثاني) أنه تأول فيما فعل، إذ فهم أن الأمر والنهي ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة، بل فهمه أمر إرشاد فقط ونهي إرشاد، وما كان من هذا القبيل لا يحرم مخالفته، كما حمل الفقهاء الأمر بكتابة الدين على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه.

(الثالث) أن ما حصل من الذنب صغيرة وهذا لا يتأتى إلا على رأي من يقول إن الأنبياء غير معصومين من الصغائر.

(الرابع) أن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية، وهو جواب حسن لولا أنه وقع بعد صدور الأمر والنهي إليه بلا واسطة وهو ما جعلناه من أمارات نبوته.

(الخامس) أن آدم تأول في أكله من الشجرة، لأن الله أراه الشجرة التي نهاه عن الأكل منها فتأول أنه نهاه عن عينها ولم ينهه عن جنسها، فأكل من شجرة أخرى من جنسها.

السابعة: هل آدم هذا هو أول البشر ولم يكن أحد قبله من جنسه؟

والجواب: أن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم هذا، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الذي نعرفه أبا البشر، فالقول بوجود غيره مجازفة بلا برهان، وقد وجد من البشر في الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم كأهل الهند - وقد كانوا في الزمان السابق يدعون أن آدم كان عبداً من عبيدهم هرب إلى الغرب وجاء بأولاده، وإلى هذا يشير المعري بقوله:

تقول الهند آدم كان قنّاً لنا فسعى إليه محبوبه

وإلى القول بوجود أودم سوى آدم يشير بقوله:

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

وقوله:

وما آدم في مذهب العقل واحداً
ويقول: ولكنه عند القياس أوادم

قال قوم - ولا أدين بما قا
جهل الناس من أبوه على الذهب
في حديث رواه قوم لقوم
ويقول:

قالوا: وأدم مثل أوبر وابئه
وهناك فريق من الناس يرجح أنه ليس أول نوعه ويستأنسون لذلك بقول الملائكة:
﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ويقول: إن الملائكة لم يقولوا ذلك
إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وأن آدم إنما كان
خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا.

وكل هذه الأقوال لا تستند إلى نص قطعي الثبوت والدلالة.

إن الذين يقولون أن آدم ليس أول نوعه، بل وجدت قبله أوادم كثيرة سواء،
ويستأنسون لذلك بقوله تعالى للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعتقدون
أن آدم إنما خلف غيره وهم الأمة التي كانت تسكن الأرض قبله في عمران هذه الأرض،
يعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام
الآدميين الموجودين الآن، ويرجع تاريخ وجودها إلى أزمان كثيرة تعد بعشرات الآلاف
ومئات الآلاف من السنين.

والجيولوجيون يسمون الأمة التي كانت قبل هذا الجنس الآدمي مباشرة بالإنسان
«لتياندر تالي» ويقولون إنه كان موجوداً من نحو ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف سنة وأن الجنس
الآدمي الموجود اليوم لا يمت إليه بقربة. وأن ذلك الجنس قد باد عن وجه الأرض -
راجع مقالة بشأن هذا في البلاغ المخصوص ١٥ من مايو سنة ١٩٣٤ .

وعلى أية حال؛ فالمسألة لا تعنينا ولا يترتب عليها نفع ولا ضرر، والله لم ينص
على شيء منها في الكتب السماوية فوجب السكوت عنها.

الثامنة - ظهر رأي في البلاد الأوروبية وقبله كثير من علمائهم: وهو أن الإنسان
أصله فرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هذا الإنسان. وذلك يبطل أن يكون أصل
الإنسان آدم، فما الرأي؟

والجواب: أن هذه النظرية لم تزل موضع بحث، للأخذ والرد فيها مجال، ولها أنصار مؤيدون كما أن لها خصوماً يطلونها. وعندنا القرآن الكريم يدل بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان آدم ولم يكن قرداً تحول ولا شيئاً آخر ترقى وهو الثقة؛ فإذا وصل أصحاب النظرية إلى الأدلة القاطعة التي تجعل هذه القضية بديهية تساوي في بدايتها «كل عدد زوجي ينقسم إلى قسمين متساويين» و «السماء فوقنا والأرض تحتنا» كان لزاماً علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هي القاعدة القائلة: إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله.

ذلك أن القرآن إنما خاطب العقلاء بما عندهم من العقل ويلجأ إلى العقل فيما خالف الناس فيه مقاصد القرآن.

وقد ذكر العقل ومشتقاته في القرآن الكريم نحو ﴿ما عقلوه .. ويعقلون .. وتعقلون .. لو كنا نسمع أو نعقل .. وما يعقلها إلا العالمون﴾ تسعاً وأربعين مرة، وهاكم جدولاً بأرقامها وسورها: -

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات	رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
	(عقلوه)			(يعقلون)	
٢	البقرة	٧٥	٢٩	العنكبوت	٤٣
	(يعقلون)			(تعقلون)	
٢	البقرة	١٦٤، ١٧٠	٢	البقرة	٤٤، ٧٣، ٧٦
		١٧١			٢٤٢
٥	المائدة	١٠٣، ٥٨	٣	آل عمران	٦٥، ١١٨
٨	الأنفال	٢٢	٦	الأنعام	٣٢، ١٥١
١٠	يونس	٤٢، ١٠٠	٧	الأعراف	١٦٩
١٣	الرعد	٤	١٠	يونس	١٦
١٦	النحل	١٢، ٦٧	١١	هود	٥١
٢٠	الحج	٤٦	١٢	يوسف	٢، ١٠٩
٢٥	الفرقان	٤٤	٢١	الأنبياء	١٠، ٦٧

(تعلقون)			(يعقلون)		
المؤمنون	٨٠	٢٣	٦٣، ٣٥	العنكبوت	٢٩
النور	٦١	٢٤	٢٨، ٢٤	الروم	٣٠
الشعراء	٢٨	٢٦	٦٨	يس	٣٦
القصص	٦٠	٢٨	٤٣	الزمر	٣٩
يس	٦٢	٣٦	٥	الجاثية	٤٥
الصفافات	١٣٨	٦٧	٤	الحجرات	٤٩
غافر	٦٧	٤٠	١٤	الحشر	٥١
الزخرف	٣	٤٣	(نעقل)		
الحديد	١٧	٥٧	١٠	الملك	٦٧

فالدین الذی یعتمد علی العقل فی إقامة براهینه وبسط حججه لا یمکن أن یجانب العقل وینافیہ، فإذا أثبت العلماء نظریاتہم إثباتاً قاطعاً وجب علینا أن نؤول ظاہر القرآن تأویلاً یتفق مع ما أثبتہ العلم وقطع العقل بأنه الحق الذی لا محیص عنہ .

أتذکر أنه قبیل الحرب العظمی کان أحد العلماء الأمریکان أرسل إلى الطیب الذکر «جورجی زیدان بک» کتاباً یرجوه فیہ أن یأخذ جواب علماء المسلمین فی مصر من الأزهر وغیره عن أسئلة وجه بها إلیهم - منها :

ما هو رأي العلماء المسلمین فی نظریة «دارون»؟ وهل تجد نجاحاً؟ وما هو مقدار الإقبال علیها؟ وما رأي علماء الأزهر فیها؟

وقد کان لی الشرف بأن وجهت إلیّ هذه الأسئلة کما وجهت إلى کثیرین غیری؛ ولكن لم یجب علیها أحد سواي فیما أعلم، وجاءنی خطاب شکر من السائل وأنه سینشر جوابي «مترجماً بالإنجليزية طبعاً» - وصورتي، وقد مرّت الأعوام ولم ینشر الکتاب الذی کان یرید أن یجعله معرضاً عاماً لآراء العلماء فی نظریة «دارون» وتوفي جورجی بک زیدان ولم أعلم بشيء عن هذا الشأن إلى الیوم .

وجوابی یتلخص فی أن علماء الإسلام إنما یأخذون عقیدتهم عن العقل : یوجبون ما أوجبه ویحیلون ما أحاله ویجیزون ما أجاز . ومن صریح القرآن فیما لا یعارض العقل ولا یصادمه؛ فإذا كانت عبارة القرآن تخالف مقطوعاً به عقلاً وجب تأویل نص القرآن لیطابق

العقل، وقد جاء القرآن بأن الله قد خلق شخصاً اسمه «آدم» وزوجه «حواء» وأنهما أصل النوع الإنساني، وأنه خلق آدم من الطين ونفخ فيه من روحه وجعله بشراً: فهذا القول عندنا صريح لا يعدل عنه إلى تأويله إلا إذا قامت الأدلة التي لا ترد على نظرية «دارون» وأن الإنسان ليس أصلاً بنفسه بل جنس أو نوع مشتق من غيره. إذا صارت أدلة «دارون» بديهية في حكم «السماء فوقنا والأرض تحتنا» وجب أن نسلم بها وأن نلجأ إلى تأويل نصوص القرآن بما لا يخالف الواقع.

ولكن نظرية «دارون» لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمراً قطعياً ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

والمسلم الحقيقي لا يترك الساق إلا ممسكاً ساقاً أقوى منها وأمتن؛ فليس من المعقول أن يترك الاعتقاد المتين الذي تلقاه من القرآن إلى نظرية لم تثبت^(١). وقد كان علماء الأزهر في ذلك الحين بعيدين عن العناية بأمثال هذه المباحث، فلم يسمع لهم صوت في هذا الأمر ولم يأبهوا بشيء من هذا.

وهذه أمريكا عاقبت أحد المدرسين في إحدى الجامعات لأنه أظهر لطلبته صحة قول «دارون» وأتباعه وأبطل ما تضمنته التوراة في شأن آدم. وأظن أن من الجرأة أن يكتب إنسان صكاً على نفسه يقطع فيه بأن نساء الجنس البشري قد أعقمن أن يلدن أعظم من «دارون» وأقدر على إثبات عكس نظريته.

بقي أن أقول لكم: إن عالماً في ألمانيا يقول إن القرد إنسان متقهقر وليس الإنسان قرداً مرتقياً ونظريته التي يقول بها عكس نظرية «دارون» وأتباعه، وقد جعل أدلة دارون وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته.

وعلى الجملة؛ فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب فإنها لا تكون حجة ملزمة لأحد أصلاً.

هبوا أن الطبيعة غضبت على هذه الأرض فهزتها هزاً عنيفاً بغير شفقة وزلزلتها زلزالاً شديداً فدكّت كل بناء شامخ، وانهار كل صرح باذخ، وألحقت القصور بالأكواخ، وأزالت معالم الناس ودورهم ومصانعهم وسككهم الحديدية وكل شيء للإنسان فيه صناعة، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل الذي يسمونه إنساناً.

(١) أنا لا أنكر على العلماء والباحثين جهودهم، بل أقبل ما قام البرهان القاطع على صحته، وأحمد إليهم ما يبذلونه من جهود قعدنا عنها، وهم في أبحاثهم قراء صحيفة الكون.

فهل يتصور أن الغورلا والشمبانزي وسائر الفصيلة القردية تهب لعمران الأرض كما عمرها الإنسان ويكون بينها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون ويقوم من بينها أمثال أفلاطون وسقراط وأبيكورس وبقرات وجالينوس وأرسطوطاليس وأرشميدس وابن سينا والفارابي وابن رشد ونيوتن ولبلاس وغاليلي وكوبرنيك وبونزن ولوكلائش وواط واستيفن وزبلن وأديسون ومركوني ومورس وهنري مريون وكوري ومدام كوري، ويرسمون الكرة الأرضية مسطحة ومجسمة ويبنون في الخرائط خطوط الطول وخطوط العرض وخط الاستواء ومدار السرطان ومدار الجدي وتيارات البحار ويبنون سببها ونتيجتها، ويخترعون الآلات الهندسية من النظارات والبلانسيطة والبلانومتر والمساطر التي تبين النسب، ويوجدون اللوغاريتمات والنسب والمتواليات العددية والهندسية وحساب المثلثات وقواعد الجبر، ويخترعون نظارة العبور والتودوليت والنظارة النجمية والساعات على اختلاف أنواعها ودقة صنعها، ويعرفون الصعود والمطالع المستقيمة والمزاو والتلسكوب والسبكتر سكوب والسموجراف والترمومتر والبارومتر والأريومتر والراديو والتليفون والتليفون اللاسلكي والتليفزيون «التليفون المصور» والطائرات والغواصات والمناطيد ويكتشفون القارات والعناصر الأولية للمادة والمركبات الدوائية وسائر ما تكلم عنه الإنسان في المادة الطبية، ويسمون الكواكب الثابتة والسيارة، ويحللون ألوان الضوء ويعرفون الطيف ويستخدمون الأشعة المختلفة كأشعة رونتجن وأشعة إكس والأشعة الحمراء والبنفسجية وفوق الحمراء في العلاجات، ويضعون لها الأسماء ويميزون الدائرة الكسوفية ومنطقة فلك البروج وغيرها، ويعرفون أن النجم أوفافا في مجموعات قنطاريس أقرب الثوابت إلى الأرض وأن ضوءه يصل إلى الأرض في سنتين ضوئيتين وأن بتالجس «باط الجوزاء» في صورة الجبار عملاق النجوم وأن ضوءه يصل إلى الأرض في مليوني سنة ضوئية، وأن الجدي^(١) في الدب الأصغر غير الجدي الذي بين القوس والدلو ويسمون قيفاوس والمرأة المسلسلة وبرشاوش، ويفرقون بين الفرس الأكبر والفرس الأصغر، ويضعون أساطير لبروشاوش ورأس الغول والشعرين وسهيل والدبران والثريا، وكيف هم أربد أن ينهش الجبار في رجله فرفعها جزعاً، ويخترعون الصواريخ لمحاولة الخروج من جذب الأرض، ويعلمون أن الخسوف يحصل من دخول القمر في المخروط الظلي للأرض وكسوف الشمس من توسط جرم القمر بينها وبين الأرض إلى غير ذلك.

أقول إنني كلما فكرت في ذلك جزمت بأن ذلك محال، وقطعت بأن القرد لا بد أن يبقى قرداً مدى الدهر وأن القردة لا تلد إلا قردة^(١).

قصة آدم في سفر التكوين

وقد ذكرت قصة آدم في الإصحاحين الثاني والثالث في سفر التكوين وهي لا تخالف ما جاء في القرآن إلا مخالفة بسيطة فإنها لم تذكر مسألة السجود لآدم ولا مخالفة إبليس وتكبره وطرده من الجنة ولم تذكر الحوار بين الله تعالى وملائكته، وجعلت المغري لآدم وزوجه على الأكل من الشجرة «الحية» وهأنذا أنقل لكم ذلك مع ما قد نقلته فيما قبل^(٢).

(١) راجعوا مقالة (اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق) المنشورة بملحق العدد الصادر في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ من جريدة السياسة فإنكم واجدون أن فطاحل العلماء مثل هلدان واللورد رزفورد قد هدموا المذهب الذي بنى عليه دارون نظريته والمقالة بقلم أحمد خيرى سعيد أفندي وهي قيمة فليرجع إليها.

(٢) (من الإصحاح الثاني تكوين) ٧ - وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية (٨) وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله (٩) وأنبث الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١٠) وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس (١١) اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب (١٢) وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع (١٣) واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش (١٤) واسم النهر الثالث حدائق وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات (١٥) وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعلمها ويحفظها (١٦) وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة أكلأ تأكل (١٧) وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت (١٨) وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فاصنع له معيناً نظيره (١٩) وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذا نفس حية فهو اسمها (١٠) فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره (٢١) فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً (٢٢) وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأةً لأنها من امرئ أخذت (٢٤) لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً (٢٥) وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

(الإصحاح الثالث) وكانت الحية أحيل حيوانات البرية التي عملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلأ من كل شجر الجنة (٢) فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل (٣) وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلأ منها لئلا تموتا (٤) فقالت الحية للمرأة لن تموتا (٥) بل الله عالم يوم تأكلان منه تفتتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر (٦) فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهيجة اللون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأعطت رجلها أيضاً معها =

بقي مسألتان: - الأولى: من هم الملائكة؟

والجواب - أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم . واعتقاد وجودهم واجب وهو من الأمور السمعية التي لا يوجبها العقل . ولكن المعصوم ﷺ أخبر بوجودهم - وجاء في الكتاب الكريم وفي الكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا وجودهم لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة .

وأن المعصوم أخبر بوجودهم فأعلمنا بهم ، وقد أخبر الله تعالى عنهم في القرآن أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْخَرُونَ مِنْ الْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٦، ٢٧] وأنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] .

ويفهم من فحوى الخطاب بينهم وبين الله تعالى أنهم مجبولون على الطاعة منزهون عن المعصية وذلك في قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

وقد اختلفت كلمة العلماء في شأنهم . ففريق يقول إنهم أفضل من البشر كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِي أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] فإنه مناهما بالأكل من الشجرة أن يرتقيا إلى مرتبة أعلى وهي مرتبة الملائكة . وكما يدل عليه قوله تعالى عن صواحب يوسف ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] .

وقال آخرون إن النوع الآدمي أفضل من الملائكة لأن إطاعة الملائكة بالجبلة ولم

= فأكل فانفتح أعينهما وعلما أنهما عريانان فخطا من أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاخْتَبَأَ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة (٧) فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت (٨) فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخْتَبَأْتُ (٩) قال من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي وصيتك ألا تأكل منها (١٠) فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت (١١) فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت ، فقالت المرأة: الحية أغوتني فأكلت (١٢) فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين . وتراباً تأكلين كل أيام حياتك (١٣) وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه (١٤) وقال للمرأة كثيراً أكثر أتعاب حياتك بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك (١٥) وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك (١٦) وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل (١٧) بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود (١٨) ودعا اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي (١٩) وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصاً من جلد وألبسهما .

تركب فيهم الشهوة، فلا فضل لهم في العصمة. وأما الآدمي فإنه يجاهد شهواته وميوله.
وقال آخرون: إن عموم الملك أفضل من عموم البشر، ولكن خواص البشر وهم
الأنبياء أفضل من خواص الملائكة.

ومن رأيي أن الدخول في مسألة التفضيل دخول في مجهول وأن الأسلم الإمساك.
وأن وضع كل في مرتبته بيد من يعلم سرهم ونجواهم.

وقد ذكر لفظ الملك والملائكة ٨٨ مرة في ست وثمانين آية من القرآن الكريم،
وهاكم جدولاً بالآيات التي ذكر فيها:

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات	رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٢	البقرة	٣٠، ٣١، ٣٤	٢١	الأنبياء	١٠٣
		٩٨، ١٠٢، ١٦١	٢٢	الحج	٧٥
		١٧٧، ٢١٠، ٢٤٨	٢٣	المؤمنون	٢٤
		٢٨٥	٢٥	الفرقان	٧، ٢١، ٢٢، ٢٥
٣	آل عمران	١٨، ٣٩، ٤٢	٣٢	السجدة	١١
		٤٥، ٨٠، ٨٧	٣٣	الأحزاب	٤٣، ٥٦
		١٢٤، ١٢٥	٣٤	سبا	٤٠
٤	النساء	٩٧، ١٣٦	٣٥	فاطر	١
		١٦٦، ١٧٢	٣٧	الصفافات	١٤٩
٦	الأنعام	٨، ٩، ٥٠، ٩٣	٣٨	ص	٧١، ٧٣
		١١١، ١٩٨	٣٩	الزمر	٧٥
٧	الأعراف	١١، ٢٠	٤١	فصلت	١٤
٨	الأنفال	٩، ١٢، ٥٠	٤٢	الشورى	٥
١١	هود	١٢، ١٣	٤٣	الزخرف	١٩، ٥٣، ٦٠
١٢	يوسف	٣١	٤٧	محمد	٢٧
١٣	الرعد	١٣، ٢٣	٥٣	النجم	٢٦، ٢٧
١٥	الحجر	٧، ٨، ٢٨، ٣٠	٦٦	التحريم	٤، ٦
١٦	النحل	٢، ٢٨، ٣٢	٦٩	الحاقة	١٧
		٣٣، ٤٩	٧٠	المعارج	٤
١٧	الإسراء	٤٠، ٦١، ٩٢	٧٤	المدثر	٣١
		٩٥	٧٨	النبأ	٣٨
١٨	الكهف	٥٠	٨٩	الفجر	٢٢
٢٠	طه	١١٦	٩٧	القدر	٤

وقد جاء ذكر الملائكة في الكتب السماوية القديمة كثيراً نورد هنا بعضه^(١).

الثانية: من هم الجن: -

الجواب: أن الجن خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم، قال تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَنكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] والاعتقاد بهم واجب وهو من الأمور السمعية التي أخبر بها المعصوم ﷺ بنص قاطع الثبوت والدلالة، ولولا أن الله ذكرهم في القرآن ما علمنا بوجودهم ولا سلمنا.

وهم يتوالدون ويتناسلون؛ لقوله تعالى ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] ومنهم البار والفاجر؛ لقوله تعالى حكاية عنهم ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] ولم يقل أحد أنهم أفضل من البشر.

وقد ذكر لفظ الجن والعجان والجنة ٣٢ مرة في إحدى وثلاثين آية من القرآن الكريم، وهاكم جدولاً بهذه الآيات.

(١) ص ١٦ تكوين (٧) فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية (٩) فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك.

(١٠) وقال لها ملاك الرب كثيراً أكثر نسلك ص ١٩ تكوين.

ص ٢١ تكوين (٩) فجاء الملاك إلى سدوم (١٥) ولما طلع الفجر كان الملاك يعجلان لوطاً.

ص ٢١ تكوين (١٧) فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء.

ولو أردنا أن نتبع كل ما في الكتب الخمسة وكتب الأنبياء لطلال بنا المطال فلنعمد إلى الإنجيل لننقل لكم بعضه.

ص ١ متى (٢) وفيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم (٢١) فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب.

ص ٢: (١٣) وبعدها انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم.

ص ٤ متى (٦) وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أن الله يوصي ملائكته بك (١١) ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.

ص ٢٨ متى (٢) وإذا زلزلة عظيمة قد حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء (٥) فاجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا.

ص ١ مرقس: كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك.

السورة	رقمها	أرقام الآيات	السورة	رقمها	أرقام الآيات
الأنعام	٦	١١٢، ١٠٠	سبا	٢٤	٤١، ١٤، ١٢
			الصفات	٣٧	١٥٨
الأعراف	٧	١٧٩، ٣٨	فصلت	٤١	٢٩، ٢٥
هود	١١	١١٩	الأحقاف	٤٦	٢٩، ١٨
الحجر	١٥	٢٧	الذاريات	٥١	٥٦
الإسراء	١٧	٨٨	الرحمن	٥٥	٣٩، ٣٣، ١٥
الكهف	١٨	٥٠			٧٤، ٥٦
النمل	٢٧	٣٩، ١٧	الجن	٧٢	٦، ٥، ١
السجدة	٣٢	١٣	الناس	١١٤	٦

وقد ذكر الجن في كتب الأنبياء، وفي الإنجيل بلفظ جن وجان وإبليس وشيطان وشياطين. وهأنذا أورد لكم بعض ذلك^(١).

- (١) ص ٩ لاويين (٣١) لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم أنا الرب إلهكم.
ص ٤ متى (١) ثم أوصد يسوع إلى البرية من الروح ليحرب من إبليس (٥) ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة (١٠) حيثئذ قال يسوع اذهب يا شيطان (١١) ثم تركه إبليس.
ص ٨ متى (٣١) فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذن لنا نذهب إلى قطع الخنازير.
ص ٦ متى (٣٣) فلما أخرج الشيطان تكلم الآخرس (٣٤) أما الفريسيون فقالوا برئيس الشياطين يخرج الشياطين.
ص ١٠ متى (٨) أشفوا مرضى طهروا برصاً أقيموا موتى أخرجوا شياطين.
ص ١٧ متى (٢٨) فانتهزه يسوع فخرج منه الشيطان فشفي الغلام من تلك الساعة.
ص ٢٨ صمويل الأول (٧) فقال شاول فئتوا لي على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها فقال له عبيده هو ذا امرأة صاحبة جان في عين دور (٨) فتنكر شاول ولبس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلاً وقال اعرفي لي بالجان واصعدي لي من أقول لك.

ينكر بعض الناس وجود أحياء من الملائكة والجن، فيؤول الكلمات الدالة على وجود هذين الصنفين من العوالم بأن الملائكة هي قوى النظام والنواميس الخاضع لها العالم، وأن الجن والشيطان وإبليس إنما تدل على الناس ذوي الشر المتمردين وروح الإفساد.

هذا الفريق من الناس يرى رأي الماديين الذين لا يثبتون إلا ما وقع تحت حسهم ولا يقرون بشيء وراء المادة، فحذا حذوهم ليقال إنه راق مثلهم وعمد إلى صريح القرآن يؤوله حتى يجمع بين الإيمان بالله والقرآن وجحد الملائكة والجن.

والذي أقوله: أن ذلك التأويل ليس ضرورياً بل لا ينبغي؛ فإن الملائكة والجن ليس وجودهم من المستحيل في شيء حتى يكون ذكرهم مضاداً للعقل فلجأ إلى التأويل حتى لا يتعارض المعقول والمنقول، بل وجودهم في دائرة الإمكان العقلي وعدم رؤيتنا للفريقين لا يستلزم عدم وجودهما، فقد كانت كل الميكروبات وسائر ما لا يرى إلا بالآلات المكبرة غائبة عن حس أهل هذا العالم زمناً طويلاً فلم يوجب عدم رؤيتها الحكم بعدم وجودها، بل كانت في كل هذه الآماد العظيمة موجودة تكبر وتنمو وتتكاثر ولا علم لنا بوجودها، وأي مانع يمنع من القول بأن الله تعالى لو ركب حواسنا تركيباً آخر لانكشف لنا عالم الملائكة وعالم الجن وعوالم الجن وعوالم أخرى لم نخبر بها ولا خطر في فكر أي إنسان هاجس عنها؛ فالالتجاء إلى تأويل لفظ الجن ولفظ الملائكة على النحو الذي ذهب إليه لا ضرورة إليه وما نجعل حقيقته كثير في جنب ما نعلم.

توجد أمور كثيرة لا نراها ولا نعلم حقيقته، وإنما نحس آثارها كالكهرياء والمغناطيسية والجاذبية والضوء، ومع ذلك فإننا نقول بها.

والطبيعة موجود فيها أمور كثيرة وقوى خاصة ربما أظهرها العلم في المستقبل، فهل من حقنا أن ننكرها لأن أبصارنا وحواسنا لا تقع عليها؟ كلا؛ فإن الناس مع كثرة الاختراع والابتداع منذ وجد الناس إلى اليوم لم يقفوا من أسرار الكون على جزء من مليون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد يكون هؤلاء المنكرون للملائكة قد غرهم ما كتبه أستاذنا الإمام في تفسيره من تأويل الملائكة على وجه لم ينكره الماديون ومن نزع منزعهم؛ فإن الإمام رحمه الله لم ينكر الملائكة كما ينكرون. وإنما يعمد إلى التأويل لمن ينكر عالم الغيب ويجحد الملائكة، وقد أورده على أنه مذهب آخر لبعض المفسرين في فهم معنى الملائكة، وذلك لتقريب المعنى من أذهان الجاحدين من الماديين وغيرهم.

وعلى الجملة: فإني أرى أن فهمهم على الوجه الذي بينت هو ما يجب على المؤمن

اعتقاده؛ فإذا وجد منكر لهم قربنا له المعنى على الوجه الذي أورده الأستاذ الإمام رحمه الله (راجع ص ٢٧٤ من الجزء الأول من تفسير المنار).

العظة في قصة آدم

١ - أن الله تعالى قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه إليه كما حجب حكمة استخلاف آدم في الأرض عن الملائكة حتى تحيروا واشتاقوا إلى معرفة الحكمة من هذا الاختيار.

٢ - أن عناية الله تعالى إذا وجهت إلى الشيء الحقيق خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيماً. كما توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذي جبل منه آدم فصيرته بشراً سوياً وجعلته مظهراً لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع، فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه.

٣ - أن الإنسان مهما أوتي من التجلة والكرامة ففي طبعة الضعف. فهو عرضة لأن ينسى ويأتي ما لا يتفق مع إجلال الله له كما في نسيان آدم وصية الله تعالى، فأطاع إبليس الذي هو أعدى أعدائه. وأصغى إليه وأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها.

٤ - أن رحمة الله تعالى لا يأس منها من عصاه وخالف عن أمره؛ فإن آدم قد تاب الله عليه واجتبه مع ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصية الله.

فعلى العبد إذا قارف معصية أن يلجأ إلى الله بالندم والاستغفار والإقلاع عن الذنب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَكِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قابيل وهابيل

ولدا آدم

ذكرت قصة ابني آدم في القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما، وإنما ذكر اسمهما في التوراة «قايين ، وهابيل» .

قال الله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي خَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلُكَ وَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ : سورة المائدة .

ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل ان يستأثر بها على أخيه . وأمره آدم عليه السلام ان يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قرباناً، فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ا هـ - من البداية والنهاية ببعض نقص في العبارة .

وقد اختلف في كيفية قتله . فقال بعضهم : ضربه بحديدة فقتله - ويرد عليه أن الحديد لم يكن معروفاً في الأزمان القديمة . وقال آخرون : رمى على رأسه صخرة وهو نائم فشدخته . وقيل : بل كان يخنقه ويعضه إلى أن مات .

وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل » .

ويجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير - غير الحافظ - أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابته إلى ذلك وصدقته رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان كل يوم خميس.

قال الحافظ ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية: وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي، والله أعلم.

وقد ذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزناً شديداً وأنه قال شعراً؛ وقوله الشعر كلام غير مسلم. وأما حزنه على ابنه فأمر طبيعي^(١).

(١) قد ذكرت قصة قابيل وهابيل في التوراة وهي لا تخالف ما جاء في القرآن تقريباً.

إدريس عليه السلام

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام. واسمه في التوراة العبرية «خنوخ» وفي الترجمة العربية «اخنوخ».

قال الله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿مريم: ٥٦-٥٧﴾

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم و شيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين.

وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: «إنه كان نبي يخط فممن وافق خطه فذاك».

ويقول الحافظ ابن كثير أيضاً: ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه: هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقد جاء الصحيحين في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرَّ به في السماء الرابعة.

وروى ابن جرير الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى في إدريس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم، فأحب أن يزداد عملي، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له: إن الله أوحى إلي كذا وكذا فكلّم ملك الموت حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً، فكلّم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو على ظهري، فقال ملك الموت: فالعجب، بعثت وقيل لي، اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك. فذلك قول الله عز وجل ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

[مريم: ٥٧] ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها: وعنده فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر. قال الحافظ ابن كثير وهذا من الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة.

أقول: الأسلم تفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

وقال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال: مرحباً بالأخ الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالوا له. وقال الحافظ ابن كثير بعد أن نقل ذلك: وهذا لا يدل ولا بد، لأنه قد لا يكون الراوي حفظ جيداً، أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتسب له في مقام الأبوة كما انتسب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ونقل ابن كثير: زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل، وقضية قوله «زعم بعضهم» أن هذا الزعم لا يعول عليه.

وأما عند أهل الكتاب فلا يوجد شيء سوى قولهم «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» ص ٥: ٢٤ تكوين.

جاء في كتاب تاريخ الحكماء - وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء - لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ما نصه: -

إدريس - قد ذكر أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير من أخباره ما أنا في غنى عن إعادته، وأنا ذاكر ما قاله الحكماء خاصة:

اختلف الحكماء في مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة. فقالت فرقة: ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف. وقالوا هو باليونانية «أرميس» وعرب بهرمس، ومعنى «أرميس» عطار. وقال آخرون: اسمه باليونانية «طرميس» وهو عند العبرانيين «خلوخ» وعرب «أخنوخ». وسماه الله عز وجل في كتابه العربي المبين «إدريس». وقال هؤلاء إن معلمه اسمه الغوثاذيمون، وقيل اغثاذيمون المصري، ولم يذكروا من كان هذا الرجل، إلا أنهم قالوا: كان أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين، وسموه أيضاً

«أورين الثاني» وإدريس عندهم «أورين الثالث». وتفسير «غوثاذيمون» السعيد الجد وقالوا: وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها، ثم عاد إليها ورفع الله إليه بها، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أخرى: إن إدريس ولد ببابل وبها نشأ وأنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه لأنه إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث. قال الشهرستاني: إن أغثاذيمون هو شيث. ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلمهم وخالفه جلهم، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم، فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل، وبابل بالسريرية النهر وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات. فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره، فخرج وخرجوا، وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي بابليون، فرأوا النيل ورأوه واديا خالياً من ساكن، فوقف على النيل وسبح لله وقال لجماعته بابليون، واختلف في تفسيره، ف قيل: نهر كنهر، وقيل: نهر كنهركم، وقيل: نهر مبارك. وقيل: إن يون في السيرية مثل أفعول التي للمبالغة في كلام العرب، وكأن معناه «نهر أكبر» فسمي الإقليم عند جميع الأمم «بابليون» وسائر فرق الأمم على ذلك إلا العرب فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان. والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل. وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً، وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانهم، ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها، فكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة مدينة وثمانيا وثمانين، أصغرها الرها، وعلمهم العلوم. هو أول من استخراج الحكمة وعلم النجوم؛ فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب، ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقراؤها إلى ذلك، وأقام للأمم سنناً في كل إقليم سنة تليق بأهله، وقسم الأرض أربعة أرباع، وجعل على كل ربع ملكاً يسوس أمر المعمور من ذلك الربع، وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها.

وأسماء أربعة الملوك الذين ملكوا: الأول «إيلاوس» وتفسيره الرحيم. والثاني «زوس» والثالث «اسقليبيوس» والرابع «زوس أمون» وقيل: إيلاوس أمون. وقيل: بسيلوخس، وهو أمون الملك.

ذكر بعض ما سنه لقومه المطيعين له

دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا. وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل، وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها. وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب^(١). وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد، وجعل لهم أعياداً كثيرة في أوقات معروفة وقربانات: منها لدخول الشمس رؤوس البروج، ومنها لرؤية الهلال، وكلما صارت الكواكب في بيوتها وشرفها وناظرت كواكب آخر.

ذكر ما أمر به من القرابين

أمر بتقريب ثلاثة أشياء: البخور، والذبائح، والخمر، وتقريب كل باكورة؛ فمن الرياحين: الورد. ومن الحبوب: الحنطة. ومن الفواكه: العنب.

ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده عدة، وعرفهم صفة النبي فقال: يكون بريئاً من المذمات والآفات كلها، كاملاً في الفضائل الممدوحات لا يقصر عن مسألة يسأل عنها مما في الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

ولما ملك أوريس الأرض رتب الناس ثلاث طبقات: كهنة وملوكاً ورعية، وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك؛ لأن الكاهن يسأل الله في نفسه وفي الملك وفي الرعية. وليس للملك أن يسأل الله إلا في ملكه وفي الرعية، وماله أن يسأله في الكاهن، لأن الكاهن أقرب إلى الله منه، فقد نقصت منزلة الملك بهذا عن منزلة الكاهن؛ وليس للرعية أن تسأل الله في شيء إلا في أنفسها؛ لأن الملك أجل منزلة منها عند الله الذي ملكه على الرعية؛ فنقصوا بذلك مرتبة عن الملك، ومرتين عن الكاهن.

فلم يزالوا على هذه القاعدة من الفعل في العبادة وأدب الائتمار بهذه الشريعة إلى أن رفع الله إدريس إليه وخلفه أصحابه على شريعته.

وكان أقوى الملوك عزماً من الأربعة «اسقليوس» فإنه اجتهد لحفظ الكلمة وقوانين الشريعة الإدريسية وحزن لرفع إدريس من بين أظهرهم، وصور صورته في الهياكل وصورة رفعه.

(١) لعلها: «الخنزير والكلب».

وكان «اسقليبيوس» ملكاً في الجهة التي ملكتها يونان بعد الطوفان، فوجدوا صورة إدريس ورفعوه، وعلموا علو قدر اسقليبيوس وتدوينه الحكم لهم في الهياكل التي يفسدها الطوفان، فظنوا أن اسقليبيوس هو الذي ارتفع إلى السماء، وغلطوا في ذلك غلطاً بيناً لأنهم أخذوه بالحد^(١).

وشريعته أعني إدريس في المملكة الحقيقية وتعرف في ملة الصابئين بالقيمة، وطبقت المعمور من الأرض، وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار.

صورة هرمس الهرامسة وهو «إدريس»

قيل إنه كان رجلاً آدم تام القامة، أجلح، حسن الوجه، كث اللحية، مليح الشماثل والتخاطيط، تام الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم، براق العينين أكحلهما، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، به عبة، وإذا اغتاظ احتد، يحرك سبابته إذا تكلم. وكانت مدة مقامه في الأرض اثنتين وثمانين سنة.

وكان على فص خاتمه «الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر» وعلى المنطقة التي يلبسها «الأعياد في حفظ الفروض والشرعية من تمام الدين، وتمام الدين كمال المروءة» وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت «السعيد من نظر لنفسه؛ وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة».

وكانت له مواعظ وآداب استخرجتها كل فرقة بلسانها تجري مجرى الأمثال والرموز. فأذكر بعضها إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك قوله: (لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه). وقال (من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيء العمل، كما ترى الصانع الذي يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة، فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبداً). وقال: (خير الدنيا حسرة وشرها ندم).

وقال: (إذا دعوتكم الله سبحانه فأخلصوا النية، وكذا الصيام والصلوات فافعلوا).

وقال: (لا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله سبحانه باليمين، ولا تحلفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم).

(١) لعلها: «بالحدس».

وقال: (تجنبوا المكاسب الدنيئة).

وقال: (أطيعوا لملوككم، واخضعوا لأكابركم، واملأوا أفواهكم بحمد الله).

وقال: (حياة النفس الحكمة).

وقال: (لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ فإن استمتعهم به قليل).

وقال: (من تجاوز الكفاف لم يغه شيء).

وجاء في صفحة ٣٤٨ في ترجمة هرمس الثالث من كتاب تاريخ الحكماء ما يأتي: -
وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن
هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون: خنوخ النبي ﷺ على ما تقدم ذكره في
بن مهلائيل بن قينان بن أفوش بن شيث بن آدم، وهو إدريس النبي ﷺ على ما تقدم ذكره في
أول الكتاب. وقالوا إنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية. وأول من بنى
الهيكل ومجد الله فيها. وأول من نظر في علم الطب. وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في
الأشياء الأرضية والسمائية. وقالوا: إنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلتحف
الأرض من الماء والنار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام والبرابي في صعيد
مصر الأعلى، وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم حرصاً منه
على تخليدها لمن بعده خيفة أن يذهب رسمها من العالم، والله أعلم.

فأنتم ترون أن ما جاء عن إدريس في ذلك الكتاب أخبار لم تؤيد بفعل صحيح ولم
يعضدها نص قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه إدريس عليه الصلاة
والسلام، وكلها أقوال مما قمشت وضم جبل الحاطب. فهي أقوال لا بأس بالاطلاع عليها
كما يطلع المرء على غيرها من السير التي هي أشبه بالخرافات، والباحثون في العاديات
وأهل التاريخ القديم لا يجدون في بحوثهم ما يؤيد هذه الأخبار، بل هم يجدون ما
يناقضها من العلم بأسماء بناء الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة في مصر من مينا
وخوفو ومنقرع وغيرهم الذين شيّدوا المعابد وحفروا البرابي ونقشوا عليها ما هو مائل
اليوم، وذلك كله بخطوط خاصة يقرؤونها ويفسرونها.

أما أهل التوراة فليس عندهم من العلم بشأنه إلا أن خنوخ ولد له ولده وهو ابن
خمس وستين سنة، وعاش بعد ذلك ثلثمائة سنة، ولم يوجد بعد لأن الله أخذه، فالله
تعالى أعلم بشأنه.

نُوح عَلَيْهِ السَّلَام

قوم نوح - إرسال الله نوحاً إلى قومه - اجتهد نوح في دعوته - يأس نوح من قومه - نوح يصنع الفلك - إتمام نوح السفينة - استشفاع نوح في ابنه - قصة نوح في التوراة. مسائل - قصة الطوفان في الوثنية الهندية - عمر نوح.

هو النبي الثاني ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام. والأول بعد آدم هو جده الأكبر إدريس عليه الصلاة والسلام. وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة في صحيح مسلم: «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» وبعضهم يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وإدريس.

وهو نوح بن لامك بن متوشالch بن أخنوخ: وهو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر.

هذا هو الذي ورد في كتب التاريخ وفي التوراة في سفر التكوين وإن كنت أشك كثيراً في نسق هذا النسب لأنني أعتقد أن بين نوح وادم أكثر من ذلك. وسأتيكم بالمدة بين خلق آدم وولادة نوح حسب ما في ترجمة التوراة العبرية.

واعلموا أنه يوجد تفاوت بين ترجمة التوراة العبرية والتوراة السامرية وترجمة التوراة اليونانية، فليرجع إليها من شاء في كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله أفندي الهندي. وهاكم الجدول الموعود به:

عمر آدم حين ولد له شيث	١٣٠ سنة
المدة التي أقامها شيث قبل أن يولد ابنه أنوش	١٠٥ سنوات
المدة التي أقامها أنوش قبل أن يولد ابنه قينان	٩٠ سنة
المدة التي أقامها قينان قبل أن يولد ابنه مهلائيل	٧٠ سنة
المدة التي أقامها مهلائيل قبل أن يولد ابنه يارد	٦٥ سنة
المدة التي أقامها يارد قبل أن يولد ابنه أخنوخ	١٦٢ سنة
المدة التي أقامها أخنوخ قبل أن يولد ابنه متوشالch	٦٥ سنة

المدة التي أقامها متوشالغ قبل أن يولد ابنه لامك
 ١٨٧ سنة
 المدة التي أقامها لامك قبل أن يولد ابنه نوح
 ١٨٢ سنة
 المدة بين خلق آدم وولادة نوح
 ١٠٥٦ سنة
 عمر آدم إلى وفاته على ما في التوراة
 ٩٣٠ سنة
 ما بين وفاة آدم وولادة نوح
 ١٢٦ سنة
 وورد ذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم وهاكم جدولاً بالآيات
 التي ورد ذكره فيها:

رقم السورة	السورة	أرقام الآيات	رقم السورة	السورة	أرقام الآيات
٣	آل عمران	٢٣	٢٥	الفرقان	٣٧
٤	النساء	١٦٣	٢٦	الشعراء	١١٦، ١٠٦، ١٠٥
٦	الأنعام	٨٤	٢٩	العنكبوت	١٤
٧	الأعراف	٦٩، ٥٩	٣٣	الأحزاب	٧
٩	التوبة	٧٠	٣٧	الصفات	٧٩، ٧٥
١٠	يونس	٧١	٣٨	ص	١٢
١١	هود	٣٦، ٣٢، ٢٥	٤٠	غافر	٣١، ٥
		٤٦، ٤٥، ٤٢	٤٢	الشورى	١٣
		٨٩، ٤٨	٥٠	ق	١٢
١٤	إبراهيم	٩	٥١	الذاريات	٤٦
١٧	الإسراء	١٧، ٣	٥٣	النجم	٥٢
١٩	مريم	٥٨	٥٤	القمر	٩
٢١	الأنبياء	٧٦	٥٧	الحديد	٢٦
٢٢	الحج	٤٢	٦٦	التحریم	١٠
٢٣	المؤمنون	٢٣	٧١	نوح	٢٦، ٢١، ١

ذكرت قصة نوح مفصلة في القرآن الكريم في سورة الأعراف وسورة هود وسورة المؤمنون وسورة الشعراء وسورة القمر وسورة نوح وهي مختلفة اللفظ بحسب ما تكون العناية موجهة نحوه من البيان .

وهي تلخص بحسب نصوص القرآن فيما يأتي :

(١) قوم نوح

كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير الله تعالى واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دونه .

(٢) إرسال الله نوحاً إلى قومه

اختار الله تعالى نوحاً من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله إذا تمادوا في غيهم وضلالهم، فعتوا عن أمر ربهم، واجتمع ملاؤ قومه وكبرائهم وأهل الثراء منهم على تكذيبه واحتقاره هو ومن اتبعه، واستبعدوا أن يكون واحد منهم - لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء - يأتي لهدايتهم دون أن يكون ملكاً أو يمتاز عليهم بفضل من الغنى والثروة، وأنفوا أن يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحاً من الضعفاء . وزعموا أنهم إنما اتبعوه من غير روية ولا إحكام رأي، وطلبوا إليه أن يطرد الذين آمنوا به تقززاً من أن يجتمعوا معهم في دين . فأبى عليهم خوفاً من الله تعالى وبين لهم أنه إذا طردهم لا يجد ناصرأ يدفع عنه عقاب الله تعالى . وبين لهم أنه إنما جاءهم بالهداية ولم يكن رجل مال قد مكنه الله من خزائنه وأطلعه على غيبه فهو حفي يعلم الغيب - ولم يدع أنه ملك وإنما هو بشر اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمر الله تعالى، وأن أتباعه من المؤمنين الذين تزدريهم أعينهم ويدعون أنهم لا يمكن أن يدركوا خيراً أو يحصلوا على سعادة : أمرهم إلى الله الذي هو أعلم بسرائرهم ؛ لأن إدراك السعادة والهداية إلى الحق لا يكونان بالبزة والرواء الرائق للعيون، وإنما يكون ذلك باطمئنان النفس وركونها إلى الهدى مع استيقانه . والرضا به . وبين أنه لا يطلب بدعوته إياهم أجراً من جاه أو مال، وإنما يطلب أجره من الله تعالى، وهذا كله معنى قوله في سورة هود :

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَبَّلَكُ إِلَّا بِشِرَارٍ مِثْلَنَا وَمَا تَرَبَّلَكُ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيً الرَّأْيِ وَمَا زَيَّ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَسْتَرٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْتُمْ مِّنْ عِندِهِ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ لَهَا كَرِهْتُمْ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالٌ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ

وَلَكَيْفَ أَنْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يُضَرِّبُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

(٣) اجتهد نوح في دعوته

بذل نوح منتهى وسعه واجتهد بغاية إمكانه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله تعالى وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام. وطال الزمن وهو يغادبهم بالنصح ويرأوهم بالعظة سراً وعلانية وهم لا يزدادون إلا إعراضاً ونأياً عن طريقته مع بيان المسرات المترتبة على الإيمان والنعم التي تنتظرهم في عاجل حياتهم من إرسال المطر لسقيهم وسقيا أرضهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية.

ويضرب لهم الأمثال ويوجه نظرهم إلى صنع الله تعالى بخلقهم أطواراً مختلفة وعنايته بهم في أدوار حياتهم الجينية وحياتهم في الدنيا وخلقهم السموات والأرض وأن من بدأهم قادر على إعادتهم ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها قادر على إعادتهم ومجازاتهم.

وكانوا يتبرمون به وينالونه بالأذى، فعصوه واتبعوا بعض كبرائهم الذين لا يزيدهم إلا خساراً ومكروا فيما بينهم مكراً عظيماً إلى أن نفذت حيلته ويش من صلاحهم وبيتوا فيما بينهم ألا يذروا عبادة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. وقالوا في تبرم وأنفة: إنك قد أكثرت الجدل، وإنا لن نترك ما نحن عليه، فأتانا بالعذاب الذي تخوفنا نزوله بنا. فرد عليهم بأن أمر عذابهم بيد الله الذي أرسله لا بيده.

اقرأوا إن شئتم قوله تعالى في سورة نوح:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقُولُونَ لَا تُبْدِ لَنَا آيَاتِكَ إِنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ وَأَنفِقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا شِيَابَهُمْ ﴿٦﴾ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَصْلَحْتُ لَهُمْ وَأَنتَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ

خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّزِيذَةٌ مَّالَةٍ وَلَوْلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ .

وفي عجبهم أن يكون الرسول بشراً منهم: نزل قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿أَرَأَيْتُمْ أَن جَاءَكُمُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ .

ومن خُفْقهم وتبرُّمهم بنوح وبُعدهم عن استعمال العقل وارتياح ما هو أنفع لهم أنهم:

﴿قَالُوا يَبْنُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا فَاتِنَا بِمَا تُعِدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ هود .

فرد عليهم نوح بما قصه الله تعالى في قوله:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُجْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ هود .

(٤) يأس نوح من هداية قومه

ولما بلغ نوح درجة اليأس من إيمان قومه بعد خمسين وتسعمائة سنة - على ما نصه القرآن - أقامها فيهم يدعوهم ولا يألوهم نصحاً: كان ما قصه الله بقوله:

﴿وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ هود .

﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُلْغُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا﴾ ﴿٣٧﴾ نوح .

(٥) نوح يصنع السفينة

أمره الله تعالى بعمل الفلك لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق العتيد أن يأتي على القوم؛ فصاروا إذا مروا عليه سخرؤا منه ومن عمله، ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه أن علموا أنه يعمل تلك السفينة لينجو بها ومن معه من العذاب النازل بهم استبعاداً منهم لوقوعه؛ فكان هو أيضاً يسخر منهم ومن غفلتهم عن الحق وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتنجية أنفسهم، وصار يتهدهم بذلك العذاب .

(٦) إتمام نوح سفينته

فلما أتم نوح عدته وجاء الموعد ورأى الأمانة التي بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان وهو أن يفور تنور أهله^(١) الذي يعملون فيه الخبز بأن ينبثق الماء فيه . أمره الله تعالى أن يحمل في السفينة أهله ويدخل فيها من كل حيوان وطيور ووحش زوجين اثنين وأهله إلا زوجته . وأن يأخذ معه من آمن من قومه وكانوا قليلاً ، قيل كانوا ستة . وقال بعضهم كانوا أربعين رجلاً وامرأة ، فلما استوا على ظهر السفينة حلت عزاليها السماء ، وانفجرت عيون الأرض ، وحملت المياه السفينة ومن فيها ، ومكثت ما شاء الله أن تمكث إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان ، ثم استقرت السفينة على الجودي من جبال أراط .

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه وكان في معزل عنه وقال ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] فأبى أن يلبي نداء والده المشفق لأنه لا يثق بصدق والده من أن كل من كان خارجاً عن السفينة هالك . ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] فهلك ذلك الولد .

(٧) استشفاع نوح في ابنه

وأراد نوح أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله فقال ﴿رَبِّ إِنِّي أَنِّي مِنَ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] فرد الله عليه بأنه ليس من أهله . وعاتبه في أن يسأله ما ليس له به علم إذ كان من حق نوح أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم ، فاعتذر نوح عن ذلك وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه إلى أن تمت المدة التي لم يكن للسفينة أن تقر فيها على الأرض ، واستوت السفينة على جبل الجودي من «ديار بكر» وخرج من في السفينة وبارك الله فيهم ، فكثروا وملأوا الأرض . ولم ينسل من كان مع نوح من غير أبنائه . قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] .

اقرأوا قوله تعالى في سورة هود:

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ يَاعَيْنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٣٧) وَيَصْنَعُ

(١) كتب الأستاذ العلامة موسى جاد الله يقول: لماذا لا يكون تنور السفينة؟ وإني أجيبه مع الشكر بأن الماء لا يبلغ تنور السفينة إلا إذا أشرفت على الغرق ، وأما تنور أهله فيفور إذا جبلت الأرض بالماء وأوشك أن يتفجر في الأمكنة الكثيرة .

أَفْلَاكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا بَنِيهَا وَنِسْهَا إِنَّا رَفَعْنَاهُ رَجِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهُوَ يَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوَاءٌ إِلَيَّ جِبَلِي يَعْصِيَنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَاَرَضُ آبَايَ مَاءُكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلِي وَيَغِيضُ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ عَلَى الْيَهُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنِيْهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِبْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أُعْطِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتِلَّكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَبْنِيْهِ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ .

مسائل

الأولى: هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية.

والجواب: أن بعض العلماء يميل إلى عموميه. ويقول بعض علماء الجيولوجيا: إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء: وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف في عمر هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد عمَّ. ويستأنس لذلك بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هَرَّةً أَبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاماً بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم. وأنتم تعلمون أنني غير واثق من التاريخ الذي قدره التوراة؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعداً يشمل ما يدعيه أهل الهند.

وعلى كل حال؛ فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحاً ومن معه في الفلك وجعل ذريته الباقين؛ فالعموم محتمل والخصوص محتمل.

والذي أميل إليه أن يكون خاصاً وأن النوع الإنساني لم يكن منتشراً في جميع الكرة بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته.

الثانية: ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الآثمين من آبائهم وأمهاتهم؟

والجواب: أن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بأن النعمة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وفي علم الظالمين بهلاك أولادهم معهم زيادة تعذيب ونكال لهم؛ على أننا في كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها. لكن ذلك من باب وجود المسبب عند وجود سببه. وتلك الأسباب هي الأمراض والعلل التي هي جند الله ﴿وَمَا يَعْزُّ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدرثر: ٣١] وبهذا لا نحتاج إلى ما تكلفه بعض العلماء والمفسرين: من أن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يولد لهم في تلك المدة مولود، وبذلك اشترك جميع قومه في الإثم وهم مكلفون بحق عليهم العذاب وحاق بهم الهلاك.

على أننا نرى الزلازل تعمل عملها في الناس بلا تمييز بين البار والفاجر وتخسف الأرض بسكانها كما حصل في سان فرنسيسكو بأمريكا في زلزالها المشهور وقد وقع في زماننا، وكما حصل في زلزال اليابان سنة ١٩٢٣ وهو قريب العهد منا جداً وكما يحصل في إيطاليا بسبب بركان «فيزوف» فقد تغطي حممه فتغطي البلاد القريبة منه فلا يشعر أهل القرية إلا بالحمم البركانية يسيل سيلها في طرق بلدتهم فتهلكهم وتغطيها. وهذا حاصل كثيراً^(١).

وهذه الطيارات التي تسقط من الجو بأسباب مختلفة لا يهلك من هلك فيها بآثامهم ولا ينجو فيها الناجون ببرهم. ولكن أحاط قسمت وجدود. وما حادثة المنطاد الانجليزي (١٠١) سنة ١٩٣٠ منا ببعيدة، وكذلك البواخر الجبارة العظيمة الحجم والقوة «كتايتانك» التي غرقت منذ عشرين عاماً والباخرة «لويزيتانيا» التي غرقت في أيام الحرب العظمى وكان

(١) من ذلك زلزال الهند في العام الماضي فقد غير وجه الأرض في إقليم واسع. وزلزالها في هذا العام سنة ١٩٣٥، فقد غير معالم الأرض أيضاً في إقليم واسع وهلك بسبب ذلك مئات الألوف من الناس والدواب والأنعام ومن الشيوخ والعجائز والأطفال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

في كليهما من العلماء والكتاب والأغنياء والمهندسين والمخترعين عدد عظيم، فقد هلكوا بأجلهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

الثالثة: أين الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح؟

والجواب: جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة، وهو يتصل ببجبال أرمينية قال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة «أراراط»^(١).

الرابعة: ما حجم سفينة نوح؟

والجواب: أن حجمها وأبعادها لم ينص عليها في القرآن، وإنما وصفت بأنها ﴿الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩] وبأنها ﴿ذَاتِ أُلُوجٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] أي مسامير. وإنما ذكر حجمها في التوراة^(٢).

الخامسة: ما هي مسألة نوح في ابنه وهل كان ابنه حقيقة؟

والجواب: أما كونه ابنه فظاهر القرآن أنه ابنه حقيقة، وإنما نفى كونه من أهل نوح لأن النجاة إنما تكون للمؤمن، فأخذ نوح بظاهر قوله تعالى ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] وغفل عن شرط النجاة وهو الإيمان بنبوة نوح وما جاء به من الحق، وأن الأهلية الحقيقية تكون معدومة الثمرة مع الكفر ومجانبة الإيمان ومخالفة الداعي إليه؛ فهي وسيلة لاغية وسبب متقضب، وهو الرأي الذي أميل إليه.

وقال آخرون: إنه كان ابن امرأته من غيره ولم يكن أبداً حقيقياً له، بل كان ربيباً نشأ على أن يناديه نوح بلفظ ابنه، وكان كافراً وظن نوح أن وجوده في حجره يدخله في أهله الذين وعد من الله بنجاتهم.

وقال غيرهم: إنه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَثَرٌ صَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٦] وبقوله تعالى ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ

(١) بما نقلته من القاموس تعلم جهة علمي بذلك الجبل، وفي ذلك جواب ما كتب به إلي الأستاذ العلامة موسى جاد الله إذ قال لي: من أين علمت ذلك؟.

(٢) ص ٦ تكوين (١٤) اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل وخارج بالنار. (١٥) وهكذا تصنعه ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه.

(١٦) وتصنع كواً للفلك وتكمله إلى مد ذراع من فوق وتضع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجمله.

كَفَرُوا أَمَرَاتِ نُوحٍ وَأَمَرَاتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَدْنٍ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ ﴿١٠﴾ التحريم: والذين يخالفونهم يستعبدونه ويعدون كثيراً أن تكون امرأة أحد الأنبياء زانية؛ لما في ذلك من الهجنة على النبي. وقد فات هؤلاء أن الكفر أشد ذنباً من الزنا وامرأة نوح قد ضربها الله مثلاً في الكفر؛ ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه أن يأتي بما هو أصغر منه. وإن كنت لا أقول إنه من الزنا، وإنما أنا أناقش مبدأ عصمة نساء الأنبياء فقط. وما كان من الأمر فالمناقشة غير مجدية ولا يخلص منها إلى رأي قاطع في الموضوع، وإنما هي احتمالات. وقد علمتم ميلي إلى الرأي الأول وهو أنه ابنه حقيقة^(١).

(١) أريد أن يقف القارئ معي وقفة صغيرة أذكر له فيها أنه قد تألفت لجنة لبحث كتابي قصص الأنبياء وبيان ما فيه، ثم ألفت لجنة ثانية بأمر الشيخ الجليل شيخ كلية أصول الدين وقدمتا نقداً قاسياً لذلك الكتاب وقد رددت عليه رداً مستفيضاً.

ولتمام الفائدة أقدم لقراء هذا الكتاب مقدمة ردي لذلك النقد - وكلما وصلت إلى موضع نقد في كتابي أثبت نقدهم وأتبعته بردي عليه وفي ذكاء القراء وإنصافهم مقنع - وهذه هي مقدمة الرد.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين. تلقيت بيد الامتنان من يد فضيلتكم التقرير الذي كتبه لجنة ألفتها من بعض العلماء وهم (أصحاب الفضيلة المشايخ محمد أحمد بدوي. ومحمد العزبي رزق. وعيسى منون) والأخيران من مدرسي كلية أصول الدين للنظر في كتابي (قصص الأنبياء) بعد أن بحثوه حسب أمر فضيلتكم بخطاب مؤرخ في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكذلك التقرير الصادر من لجنة أخرى لبحث التقرير الأول قوامها أصحاب الفضيلة الأساتذة (الشيخ عيسى منون. والشيخ محمد العزبي رزق. والشيخ محمود أبي دقبة. والشيخ إبراهيم الجبالي رئيس اللجنة) لم يذكر له تاريخ وهو صادر إليهم من فضيلتكم.

والذي ألاحظه على عمل اللجنتين بدءاً من بدايته ويبدو لعين الناظر إلى عملهما بمجرد النظر البسيط ما يأتي: أولاً - أن نقد هؤلاء الأفاضل لكتاب جرى على أسلوب لا يعرفه جهابذة النقد. ولم يصدر مثله في شأن كتاب من الكتب عن ناقد منصف يوازن بين محاسن الكتاب ومساوئه ويستقصي في ذلك الاستقصاء التام في جميع نواحيه: أسلوبه، وجمعه، واستيعابه، وورقه، وطبعه. ثم صدر حكمه بعد موازنة رائدة منها الإنصاف، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة.

بل الناظر إلى عمل اللجنتين يرى أن هذا الكتاب مجموعة من السيئات وسلسلة من الجرائم والآثام: لا يرجع واضعه إلى إثارة من عقل أو دين أو علم، وإذا نظر إلى الكتاب رأى غير ما قالوا. وعرف غير ما قرروا.

وإني أحمد الله تعالى على أن هذا التقرير لم يقع بين أيدي الأدباء والكتاب فيتناولوه بأقلام لا ذعة والسنة حداد.

ثانياً - أن التقرير الأول. يؤازره التقرير الثاني قد تفضل على شخصي الضعيف ببعض جمل تعتبر آيات بينات، دونها كل تقريظ وإطراء، مثل قولهم:

المقدمة. تخريج الآيات القرآنية على أوجه إن لم تكن باطلة فهي بعيدة جداً. وقد خالف في ذلك جميع المفسرين فيما نعلم، ومثل هذا التأويل لو اتبع في سائر ما ورد في المعجزات أدى ذلك إلى إنكار جميع المعجزات، وذلك يؤدي إلى إنكار رسالة الرسل وإنكار جميع الأديان. في الموضوع الثاني: فلأنه خالف إجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار في تفسيره لمثل هذا التعسف من التأويل وتمجه العقول - وإن هذه لتعسفات.

في الموضوع الثالث: بل أبديا احتمالاً مخترعاً في الآيتين - ونحن نرى أن هذا الاحتمال فاسد. ويقال لمؤلف هذا الكتاب: ويجوز أنك نقلته استئناساً لرأيك في فهم القرآن. وحيث ظهر فساد هذا التأويل كان القول بعدمه تكذيباً للقرآن.

في الموضوع الرابع: ونحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف الكتاب - اللهم إنا نبرأ إليك من مثل هذه الآراء.

في الموضوع الخامس: نستغفرك اللهم ونتوب إليك سبحانه هذا بهتان عظيم - وهو رأي منقول عن اليهود فكان الواجب عليه التحرز من متابعة اليهود.

في الموضوع السابع: لم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحاً. في الموضوع الثامن: ويدل على خطأ ما رآه ومال إليه ما لحقنا من الدهشة أنه لم يقف على تلك الأحاديث. وهذا الاحتمال لا يتصور أن يصدر من مثل فضيلة الأستاذ، بل لا يصح أن يصل من مسلم.

في الموضوع التاسع: لا نفهم السر في قوله. اقرأوا هذه الآية، ولا يظن إلا أنه كتب هذه الآية في هذا المقام سهواً.

في الموضوع العاشر: وإنما العجب كل العجب من قوله: ويعجبني قول الألوسي، فإن الناظر في كلامه هذا وتصرفه في النقل يعتقد أن هذا التصرف يعتبر تدليساً غير حميد.

في الموضوع الحادي عشر: أنه في هذه الفتنة أبدى وجهاً هو باطل وبعيد، وأنكر حديثاً صحيحاً واستبعد حصول مضمونه - لمثل هذه التكلفات، بل التعسفات التي ليس لها أساس. فإنه يشبه كلام المستشرقين في حق النبي ﷺ - فكيف استباح لنفسه مثل هذا الكلام.

في الموضوع الثاني عشر: باحتمالين ما أنزل الله بهما من سلطان إن لم يكونا فاسدين فهما بعيدان كل البعد - بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين في فن الكتابة.

في الموضوع الثالث عشر: فحكم بذلك بمقتضى عقله. في الموضوع الرابع عشر: جرأة غريبة لا ندري سبب الإقدام عليها. وإذا أراد الاختراع والإبداع في الآراء فليبتعد عن مقام الأنبياء.

في الموضوع السادس عشر: ولا يوجد نظيره في كلام المبتدئين فضلاً عن كلام رب العالمين (سامحهم الله).

تقرير اللجنة الثانية - على مبدأ غير مأمون العاقبة. وجعل الإنجيل والتوراة مهمين على القرآن وهو إيهام شنيع ما كان ينبغي أن يرتكب، لا يوافق عليه أحد من المسلمين فيما نعلم.

نظرت إلى حالي وإلى هذه الروائع البارة، فلم أرني أهلاً للتحلي بهذه الدرر الغوالي التي أفاضوها علي من آدابهم العالية.

= ولقد راودت نفسي على أن أكتب إليهم تحويلاً بهذه الجمل التي يفيض الأدب على جنباتها ليقبضوها لأنفسهم وافية غير منقوصة. وتكون بضاعتهم الثمينة قد ردت إليهم، ولكنني عولت على الاحتفاظ بها تذكراً ثميناً من الفضل والأدب. ولتكون ذخيرة يتنافس فيها المتنافسون من أهل الأجيال الآتية. وليعلم المتأدبون والعلماء الخلقيون شيئاً عن آداب أفاضل العلماء في هذا العصر الذي نعيش فيه. ولست أدري - ولا المنجم يدري - الباعث لحضراتهم على السماح ببذل هذه الفرائد وإفاضةها على شخصي الضعيف؟ كان في حكم الإنصاف أن يكون الجواب عن البصل ثوماً، وأن أساقبهم بالكأس التي ساقوني، وأكيل لهم بالكيل الذي كالوا لي به بل أن آخذ بمذهب أبي العلاء في الأرباء. وأن أقول لحضراتهم:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا وأن أتمثل بقول الأول:

وكننت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يال همدان ظالم غير أنني أثرت أن أترك هذا الضرب من القول، وأكبح جماح القلم وأغض من عنانه، وأن أقول قادراً غير عاجز.

عفونا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان عسى الأيام أن يرجعنا قوماً كالذي كانوا هذا ولأنني أنزه قلبي عن أن يغمس في مداد لا أرضيه، ولا أحب أن يؤثر عني إلا ما يعلي منزلي ويغلي قيمتي - والرابح في تجارة السباب خاسر. وأخرى أحب أن يعلموا أن في اللغة العربية أسلوباً سوى أسلوبهم الذي كتبوا به. وأن في أيدي غيرهم أقلاماً يرونها على غير طريقتهم.

لهذا سيجدني القارئ الكريم حافطاً من كرامتهم ما لم يحسنوا حفظه، مراعيّاً من شعورهم ما لم يقدروا على مراعاة مثله من شعوري (وكل امرئ ميسر لما خلق له).

ثالثاً - كانت الإشاعات التي أشيعت حول كتابي «قصص الأنبياء» والعثير الذي أثير حول اسمي، والإرجافات التي ملأت سمع الأرض وبصرها عني، وشرقت حتى لم تجد من مشرق، وغربت حتى لم تجد من مغرب، يعزيني عن الألم حتى لم تجد من مغرب، يعزيني عن الألم بما كنت أنتظره من تقريرهم البديع، الذي سيحوي من العلم الناضج والحجج الدامغة والآيات الباهرة والحكمة الحسنة: ما لم يره الراؤون. ولم يرو مثله الراؤون - وأنخيل أنني سأحوز من كنوز علمهم الجم ما لم يعثر النطف على بعضه، ولم تغلق خرائن قارون على مثله، ولم يشتمل صدر لقمان على معشاره، وأنتظر صدور تقرير «النقد» انتظار الظمان للماء والمريض للشفاء... وبعد لأي ظهر التقرير بعد البحث والدرس والاستقصاء، والاستعانة على الإبانة، وبعد سلخ شهور كثيرة. فلم أجد ما يشفي أو يكفي، ولم أظفر منه بما يذهب الحيرة، أو يرشد من ضلالة، أو ينفذ من جهالة، وإذا انتظاري للشفاء بهذا التقرير كان مني (ضلالاً ما أردت به ضلالاً)؟

وأصبحت من ليلى الغداة كقايض على الماء خسانته فروح الأصابع أجل، كنت أنتظر من اللجنة أن تأتي في كل ما تراه مخالفة تمس الدين بما يجهر على قلبي أو رأيي من نص قطعي الثبوت والدلالة يدل على نقيض ما نصصته من قول أو رأي، فلا يكون بعد ذلك إلا =

= الإذعان والإقرار مني بالحق الذي ليس له دافع، لا أن تضرب أقوالاً بأقوال: (ليست ينبع إذا عدت ولا غرب).

إن القول من الأقوال التي تورد في مسألة من المسائل. لا يكسر بدليل ظني. وأقوال المشايخ المتقدمين التي يوردونها ليست قولاً فصلاً يحول دون تفكير المفكرين وفهم الفاهمين في المسائل التي للفهم والتفكير فيها مجال، لأنها ليست نصاً قطعي الثبوت والدلالة.

وإني لا أريد أن أستوفي كل الكلام في هذا الموقف. بل أتركه الآن حتى إذا مر موضوع من الموضوعات التي اعتبروها مأخذ علي، أفي كل موضوع بما يناسبه - وإني أوجه نظر القارئ إلى الدستور الذي نصصته بأخر مقدمتي لهذا الكتاب.

نقد اللجنة عن هذا الموضوع

(موضوع ابن نوح)

ذكرت في صفحة ٤٧ سطر ٣ من الطبعة الأولى و صفحة ٥٤ سطر ١٠ من الطبعة الثانية ما نصه: وقال غيرهم إنه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك، إلى قلبي: لا أقول إنه من الزنا الخ.

رأي اللجنة

يكفي أن نذكر هنا ما قاله أئمة التفسير في هذا الموضوع ليعلم أن قوله: وقد فات هؤلاء الخ جراءة غريبة لا ندري سبب الإقدام عليها. قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَجْرِي يَهُرُّ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَأَنَّهُ نُوحٌ ابْنُهُ﴾ [هود: ٤٢] ما نصه: القول الثالث: أنه ولد على فراشه لغير رشدة، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط ﴿فَعَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن، أما قوله تعالى ﴿فَعَانَتَاهُمَا﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكره. قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به. ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿لَتُحْيِيَنَّ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثِثِ لِلْخَيْثِثِ وَالْطَّيِّبِ لِلطَّيِّبِ﴾ [النور: ٢٦] وأيضاً قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَّوِّبِينَ﴾ [النور: ٢٤] كلام الإمام الرازي بالحرف.

وقال العلامة الألوسي في تفسير الآية السابقة ما نصه: وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله سبحانه ﴿فَعَانَتَاهُمَا﴾ فارتكاب عزيمة لا يقادر قدرها، فإن الله تعالى قد طهر الأنبياء عليهم السلام عما هو دون ذلك من النقص بمراحل، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة في الدين، ونسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كما زعم الطبري كذب صريح اهـ المقصود منه.

وقال العلامة أبو السعود في تفسير الآية المذكورة ما نصه بالحرف: وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله (فحانتاهما) فارتكاب عزيمة لا يقادر قدرها، فإن جناب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أرفع من أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين اهـ.

وقال العلامة البيضاوي في تفسير الآية السابقة ما نصه:

= وكان لغير رشدة لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ وهو خطأ، إذ الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين اهـ.

وأما ما أُسْتُنِدَ إليه في عدم استبعاد أن تكون امرأة النبي زانية من القياس على الكفر الذي هو أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح كانت كافرة، وقد ضربها الله مثلاً في الكفر، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه الإتيان بالأصغر فواضح البطلان، لأن كفر المرأة وإن كان أكبر الكبائر لا يعود ضرره إلا عليها ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس، ولذلك أباح الله للمسلم أن يتزوج من الكتابيات الكافرات، بخلاف زناها فإنه وإن كان أصغر من الكفر لا يقصر ضرره عليها وحدها بل يلحق الزوج أيضاً بسببه عار وفضيحة بين الناس في مطرد العادة بحيث يكون بحالة لا يستطيع معها مجالسة الناس.

ونظن أن ما ذكره واضح لا يختلف فيه اثنان، فكان الواجب على فضيلة المؤلف أن يوافق الأئمة فيما قرره وإذا أراد الاختراع والإبداع في الآراء فليتعد عن مقام الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن في الحوادث التاريخية التي حدثت من أحاد الناس غير الأنبياء متسعاً للجميع، والله أعلم.

الجواب عن النقد

إني نصصت في كتابي ما نقله أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وبينت أن ابن نوح كان ابناً له حقيقة كما سماه الله ابنه ولم يكن لغير رغبة - وناقشت المبدأ الذي يستمسك به القائلون بأن نساء الأنبياء لا يمكن أن تكون إحداهن زانية قاتلاً: وقد فات هؤلاء أن الكفر أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلاً في الكفر، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه أن يأتي بما هو أصغر منه وإن كنت لا أقول أنه من الزنا. فالقارىء يراني قد أستمسك بأن ابن نوح له ولم يكن لغير رغبة، ولكنني ناقشت المبدأ فقط، ولم أقذف امرأة نوح بالجريمة، ولكنني عدت إتيانها من قبيل الممكن، ومناقشتي هذه لا تعدو أن تكون كقول الأصوليين: يجوز أن يكلف الله تعالى بالمحال ولكنه لم يقع، وكقول بعض المتكلمين: أن الكفر جائز على الأنبياء عقلاً، ولكنه غير واقع فعلاً.

ولكن أصحاب الفضيلة قد شنوا علي غارة شعواء وأجلبوا بخيلهم ورجلهم واستجاشوا علي الفخر الرازي والألوسي وأبا السعود واليضاوي حاسبين أن قولي: وقد فات هؤلاء ... الخ: جرأة غريبة. إن قليلاً من التدبر يهدي حضرات الأفاضل إلى أن الكلام الذي ساقوه عن الفخر الرازي غير موجه إلا إلى الذين قطعوا بأن ابن نوح كان لغير رشدة، وأن امرأة نوح أتت به من الزنا على فراشه وأنا لست من هذا الفريق، وإنما أنا مناقش للمبدأ فقط.

وإني مع إجلالي لموضع الفخر الرازي من العلم وتعويلي على كثير من آرائه القيمة أراه لم يصب المحز في قوله: ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿الْحَيِثُوكَ وَالْحَيِثُوكَ وَالْحَيِثُوكَ وَالْحَيِثُوكَ﴾ [النور: ٢٦]. وأيضاً قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةً أَنْ تُسْرَفَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾ [النور: ٣]. فقد كان نوح ولوط طيبين وقد تزوجا من حبيبتين. وكان فرعون خبيثاً متزوجاً من طيبة، وإنما محمل ذلك على الأمر اللائق بالطيبين أنهم لا ينكحون ولا يليق بهم إلا الطيبات، واللائق بالطيبات أنهن لا يرغبن إلا في نكاح الطيبين الخ؛ وأما الآية الثانية فقد كان ذلك في صدر الإسلام حين لم يكن ممنوعاً تزوج =

= المؤمن بالمشرقة ولا تزوج المشرقة بالمؤمن، ولا أقصر في هذا الموضع إلا على قلم الفخر الرازي نفسه ففيه البيان الشافي الكافي حيث قال في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَهِنَّ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]. قال في تفسير هذه الآية ما نصه:

قرىء «لا يَنْكِحُ» بالجزم على النهي وقرىء «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» بفتح الحاء، ثم إن في الآية سؤالين:

السؤال الأول - قوله ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَهِنَّ﴾ ظاهره خبر، ثم إن الأمر ليس كما يشعر به هذا الظاهر، لأننا نرى أن الزاني قد يَنْكِحُ المؤمنة العفيفة. والزانية قد يَنْكِحُها المؤمن العفيف.

السؤال الثاني - أنه قال ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس كذلك، فإن المؤمن يحل له الزواج بالمرأة الزانية - والجواب:

اعلم أن المفسرين لأجل هذين السؤالين ذكروا وجوهاً وأحسنها ما قاله القفال وهو:

أن اللفظ وإن كان عاماً لكن المراد منه الأعم الأغلب، ذلك لأن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصالحات من النساء، وإنما في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين، فهذا على الأعم الأغلب، كما يقال «لا يفعل الخير إلا الرجل التقى» وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا ههنا. وأما قوله ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والجواب من وجهين: أحدهما - أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفساق وحضوره موضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه. والغيبة ومخالطة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والفجار!

الثاني - وهو أن صرف الرغبة بالكلية إلى الزواني، وترك الرغبة في الصالحات: محرم على المؤمنين، لأن قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ﴾ معناه أن الزاني لا يرغب إلا في الزانية. فهذا الحصر محرم على المؤمنين. ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية، فهذا هو المعتمد في تفسير الآية.

وإني لأقتصر من نقل كلام الإمام الرازي على ذلك وأقول: كان بودي أن يسأل حضرات أعضاء اللجنة تلاميذهم من قضاة المحاكم الشرعية عن هذا الحكم، ليعلموا أن المحاكم الشرعية تلغي النكاح بين مؤمنة زانية ومشرک، كما تلغيه بين مشركة عفيفة ومؤمن زان، وأنها تجيز نكاح المؤمنة العفيفة للمؤمن الزاني وبالعكس.

قال حضرات أعضاء اللجنة والمفسرون ما معناه أن كفر المرأة ضرره عائد عليها وحدها وأما زناها فضرره لاحق بزوجه لأنه يكون عاراً عليه وهجنة.

أقول: إن عار زنا المرأة والهجنة على زوجها منه لا يكون إلا إذا اشتهر ذلك منها وعلم به زوجها وأبقاها في عصمته دون أن يفارقها، فأما حصول ذلك من المرأة فلتة أو في حال خفية بحيث لا يعلم بذلك أحد ولا يعلم به وهو، فأی هجنة عليه في ذلك؟ وأقول كما قال حضراتهم: إن ذلك بدیهي لا يختلف فيه اثنان.

ولعمري لقد أثبت حضرات أعضاء اللجنة وكل من يقول بقولهم العصمة عن الزنا لنساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون أن يكون بيدهم دليل قطعي على ذلك. وإثبات العصمة لمن لم يثبت الله له العصمة عن شيء: لا يليق ممن يستبرئ لدينه، وهو كإنكار عصمة من أثبت الله له العصمة. وبعد هذا فهل كان القائلون بعصمة نساء الأنبياء عن الزنا أعلم من رسول الله ﷺ بذلك الحكم حتى علموه هم وجهله رسول الله محمد ﷺ.

رمت عائشة الصديقية رضي الله عنها بالزنا مرجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، وتحدث الناس بهذا الإفك، وتغير رسول الله ﷺ لعائشة، ولو كان رسول الله ﷺ يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا لبادر بإعلام الناس ذلك ولم يبق الناس في أمر مريح شهراً تقريباً. قالت عائشة: «وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي ولا يذكران لي منه شيئاً، إلا أنني أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه، فكان إذا دخل على أُمي تمرضني يقول: كيف تيكَم، لا يزيد على ذلك».

أقول - لعمري لم تغير رسول الله ﷺ لعائشة ولم يظهر لها البشاشة التي كانت قد تعودتها منه إذا كان يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا؟

قالت «وقد استمر الأمر بين الناس حتى تشاوروا وكاد يكون بينهم شر، ونزل رسول الله ﷺ ودعا علي بن أبي طالب وأسامه بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأننى خيراً، وأما علي فقال: إن النساء كثير وسل الخادم تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة يسألها، فقام إليها علي فضربها ضرباً شديداً وهو يقول: اصدقي رسول الله. فقالت والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب عليها إلا أنها كانت تنام عن عجينها فيأتي الداجن فيأكله، ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعند أبيي وامرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي، فمحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فإن كنت قارفت سوءاً فتوبي إلى الله».

فهل طلب رسول الله ﷺ من عائشة أن تتوب إلى الله إن كانت قد قارفت ذنباً وهو يعلم أن نساء الأنبياء معصومات من الزنا؟ - من ذلك كله استبان أن زوجات الأنبياء غير معصومات من الزنا، وأقول أيضاً ليس كل غير معصوم عن معصية يأتيها.

قالوا: فكان الواجب على فضيلة المؤلف أن يوافق الأئمة فيما قرروه - يريدون المفسرين.

أقول - بأي كتاب أم بأية سنة ألغي عقلي وفهمي وأفني شخصيتي في متابعة قوم اجتهدوا فأخطأوا وقد بان لي وجه الصواب في أن أسلك حسب ما هداني إليه التفكير الصحيح، مستهدياً بهدي الله تعالى وكتابه وسنة رسوله؟

قالوا - وإذا أراد الاختراع والإبداع في الآراء فليبتعد عن مقام الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أقول - إن حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة يشبهون في كتابهم من يدعي أنه يملك أنبياء الله تعالى ورسله بوضع اليد ويحتكر محبتهم والدفاع عنهم دون خلق الله تعالى.

دعاوى أناس توجب الشك فيهم فإن لزموا دعواهم فالزم الدفعا

إن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما أرسلهم الله لهداية البشر وجعلهم أئمة الأمم وقادة الشعوب إلى الخير والأدلاء على الله تعالى بأمره، ومحبتهم فرض على المؤمن.

= واعتقاد الخير فيهم واجب، والخروج بهم عن أطوارهم التي لهم بما هم أئمة ورسل وإطراؤهم إطرأ لم يأذن به الله مضر بالمعتقد كالنزول بهم عن مراتبهم والخط من كرامتهم، فلا يحسن الكلام في شأنهم إلا من عرف منزلتهم من الله ولم يجاوز بهم أقدارهم ولم ينزل بهم عن مكانتهم منه تعالى.

قالوا - فإن في الحوادث التاريخية التي حدثت من آحاد الناس غير الأنبياء متسعاً للجميع.

أقول - كلا - ليس في حوادث التاريخ متسع للجميع كما تقولون لأن التاريخ باب لا يلجّه إلا أهل الفطر السليمة والفطن المنزهة عن شوائب الخرافات والأنفس التي سبّرت أحوال الأمم وخبرت الأخلاق، ولا يدرك وطره من هذا العلم إلا من بحث ودرس ولم ينتقل من التحديق إلا إلى التحقيق وأحاط بما تمكن الإحاطة به من سنن العمران البشري، وفاض في أعماق العلوم، وبرع أمثاله في الكياسة، واستدل على ما جهل بما علم، وقايس بين الأشباه والأمثال، وأمسك بيده مصباحاً من الماضي يضيء المستقبل حتى صار: * الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً * وحاصل المسألة بيني وبين أعضاء اللجنة المحترمين أنني لا أقول بعصمة نساء الأنبياء عن اقتراف جريمة الزنا، ولا أقطع بأن زوجة واحد منهم قد اقترفت هذه الجريمة، وأقرر ما قرره الله تعالى من أن ابن نوح الذي كان من المغرقيين هو ابنه كما هو ظاهر القرآن الكريم ولا أقارف زوجة ذلك النبي الكريم بأنها أتت به على فراشه لغير رشدة، ولا أقارف زوجة غيره.

أما حضرات أصحاب الفضيلة فيقولون بعصمة نساء الأنبياء من الزنا.

والخلاصة أن نساء الأنبياء غير معصومات. وما قالوه من الهجنة التي تلحق النبي لا تكون إلا إذا عرف ذلك عن زوجته أو علمه الناس وعلم هو به وأمسكها ولم يفارقها، فكلام حضراتهم وكلام المفسرين في فرض غير موجود في مسألتنا.

وبعد ذلك أقول لحضرات الناقدین: أنتم أعلم أم الله؟ فإن الله تعالى يقول لنساء النبي ﷺ: يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين - وما وضع الله تعالى تلك العقوبة المضاعفة إلا وهو يعلم أن الذنب الذي تترتب عليه هذه العقوبة المغلظة ولا شك في أن الزنا فاحشة، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَن تَفْجِسُوا عَلَىٰ غُرَابٍ وَلَسَٰئِلًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فهذه آيات الكتاب ناطقة بما ذهب إليه، فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون؟

فقد يقولون: أن الفاحشة في الآية يراد منها شيء غير الزنا، لأن الأنبياء معصومون من أن تزني نساؤهم كما قال المفسرون ذلك.

أقول: يمنع من ذلك أمور: (أولها) أنكم متهافتون في قولكم الأنبياء معصومون من أن تزني نساؤهم لأن الشخص إنما يعصم عن عمل يعمل ولا يعصم من أن يعمل غيره، فهذه الصيغة الظاهرة التعسف لا تنحل إلا إلى عصمة نساء الأنبياء من ذلك.

(ثانيها): أن الآية ظاهرة في أن العذاب على تلك الفاحشة يكون مضاعفاً، وعلى ذلك فالعذاب الذي يستحقه غيرهن على تلك الفاحشة محدود معلوم، والفاحشة التي عذابها معلوم هي الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] فأروني أية فاحشة يفعلها الإنسان وجزاؤها عذاب محدود سوى الزنا؟ (ثالثها): أن الله سمى جزاء الفاحشة عذاباً ولم يسم عقوبة من العقوبات التي تنال الإنسان على فعل فاحشة عذاباً سوى الزنا ﴿وَلَسَنَٰهَ عَذَابَهَا طَٰغِيَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] - ففي إنصاف القارئ ما يبين به العاطل من الحالي.

ولعل الذين يريدون إبعاد ابن نوح الهالك عنه يرون عظيماً أن يكون ابن النبي المرسل كافراً. فهم يريدون إبعاده عنه بكل وسيلة. أما أنا فلا أرى بعداً في ذلك ولا غضاضة منه على النبي وأي فرق بين أن يكون ابنه كافراً وبين أن يكون أبوه كافراً. وقد كان إبراهيم نبياً مرسلأ وأبوه كافراً يعبد الأصنام وينحتها ويبيعها من عبادها وهؤلاء اليهود أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قد كفر بعضهم ولعنهم الله وهم بنو الأنبياء ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ذكرت قصة نوح وطوفانه في التوراة بعبارة واسعة، وهي تخالف ما جاء في القرآن الكريم مخالفة سلبية، بمعنى أنها سكنت عن بعض الأشياء المذكورة في القرآن فلم تتعرض لها وهي:

(١) مسألة ابن نوح واسمه «كنعان» كما يقول بعض المفسرين؛ فإن القرآن تعرض لها وذكرها. والتوراة لم تذكر أنه كان له من الأولاد سوى: سام، وحام، وياث.

(٢) مسألة زوج نوح: لم تذكر أن نوحاً كانت زوجته كافرة وهلكت مع قومه الهالكين؛ بل ذكرت أنه أمر أن يدخل زوجته السفينة مع من دخلها من المؤمنين، فدخلت ونجت؛ وهذا ليس دليلاً على أن نوحاً لم تكن له زوجة كافرة، لاحتمال أنه كان له زوجتان: إحداها كافرة هلكت، والأخرى كانت مؤمنة نجت.

(٣) بقيت مسألة الثالثة: وهي أن القرآن لم يتعرض لعموم كل الأرض بالطوفان، والتوراة تعرضت لذلك ونصت على أن الأرض قد علاها الماء خمس عشرة ذراعاً، وباد كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير ودبابات على وجه الأرض؛ والقرآن لم يذكر إلا إغراق قوم نوح وامراته.

وأنه جعل ذريته هم الباقين، ولم يذكر عموم الأرض ولا ارتفاع الماء خمسة عشر ذراعاً فوق الجبال، وهذه الآيات التي ذكرت في التوراة.

قصة نوح في التوراة

لا أريد أن أطيل بنقل الكلام في أهل الأرض وفسادهم وكفرانهم نعمة الله عليهم، وأمر نوح بعمل الفلك وما يأخذه من الناس والحيوان والطير، ولكني أعمد إلى المقصود وهو ما أذكره بهامش هذه القصة^(١).

(١) ص ٧ تكوين (١١) في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفجرت طاقات السماء (١٢) وكان المطر على الأرض أربعين يوماً =

ملاحظة

يميل بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿وَفَارَ الْكُتُورُ﴾ [هود: ٤٠] يشير إلى أن سفينة نوح كانت بخارية مستديلاً بقوله ﴿وَفَارَ الْكُتُورُ﴾ [هود: ٤٠]. وأن قوم نوح كانوا قد بلغوا في المدينة شأواً بعيداً فاستخدموا البخار وأجروا به السفن. ولست أميل إلى هذا لأنه يقتضي أن التنور يفور من نفسه، بل الذي أفهمه أن الأرض لما هيأ الله الطوفان كانت ممتلئة بالماء من تحتها إشارة إلى قربها، ففار تنور أهله الذي يخبزون فيه.

تنبيه

وإلى القراء مسألة لم لأحد من المفسرين كلاماً في شأنها: ذلك أن المتأمل في الكتاب الكريم يرى أن ابن نوح قد هلك بدعوة أبيه نوح عليه السلام؛ فإنه لما دعا على

= وأربعين ليلة (١٣) في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام وياث بنو نوح وامرأة نوح وثلث نساء بنيه معهم إلى الفلك (١٤) هم وكل الوحوش كأجناسها، وكل البهائم كأجناسها، وكل الدبابات التي تدب على وجه الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذي جناح (١٥) ودخلت مع نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة (١٦) والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليه (١٧) وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض وتكاثر المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض (١٨) وتعاضمت وتكاثرت جدّاً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه (١٩) وتعاضمت المياه كثيراً جدّاً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل الماء (٢٠) خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع فتغطت فتخطت الجبال (٢١) فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس (٢٢) كل ما في أنفه نسمة حياة من كل في اليابسة مات (٢٣) فمحا الله كل قائم على وجه الأرض الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط (٢٤) وتعاضمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً.

ص ٨ تكوين (٣) ورجعت المياه على وجه الأرض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوماً فنقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع من اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراط (٥) وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال، (١٣) وكان في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأول أن المياه قد نشفت على الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف (١٤) وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض (١٥) وكلم الله نوحاً قائلاً (١٦) أخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك (١٧) وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد. الطيور والبهائم وكل الدبابات التي ندب على الأرض أخرجها معك ولتولد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض.

وهذا معنى قوله تعالى في القرآن الكريم ﴿قِيلَ يَنْتُحُ أَقِطْ إِسْلِمَ يَنَّا وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَكَانَ أَمْرٌ مِّنْ مَّعْلُومٍ﴾ [هود: ٤٨].

وعلى ذلك يكون نوح والذين معه في الفلك قد أقاموا بها سنة تامة وعشرة أيام.

قومه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] لم يستثن ابنه وقد كان كافراً، فدخل في عموم من دعا عليهم نوح بالهلاك: هذا أولاً. وثانياً: أن نوحاً دعا ربه فقال رب اغفر لي ومن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات لم تشمل هذه الدعوة ابن نوح، فإنه وإن كان قد دخل بيته فلم يكن مؤمناً؛ فكأنه مستثنى من هذه الدعوة. ثالثاً: أنه قال بعد ذلك ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ [نوح: ٢٨] فكان ابنه داخلاً في عداد الظالمين، لأنه كان كافراً والظلم هو الكفر.

قصة الطوفان في أساطير الثقافة الوثنية الهندية

نقلا عن «تاريخ الأدب الهندي» الجزء الأول المختص بالثقافة الوثنية الهندية للسيد أبي النصر أحمد الحسيني البهوبالي الهندي (مخطوط) صفحة ٤٢ و ٤٣ .

قال في الباب الخامس وعنوانه «برهمانا وأوبانبشاء»:

ومما يلفت النظر في «ساتا بانا برهمانا» قصة الطوفان التي بينت في ضمن بيان الضحايا. والقصة وإن اختلفت من وجوه كثيرة عما في القرآن والتوراة وإن لم يوجد شواهد قاطعة تربط القصة الهندية مع السامية. توجب الاهتمام؛ ففي هذه القصة البرهمانية يقوم «مانو» بدور سيدنا نوح في القرآن وفي التوراة و «مانو» اسم نال التقديس والاحترام في أدب الثقافة بأسره من الوثنيين، فهو ابن الله ومصدر جميع الناس وجدهم الأسطوري. وخلاصة القصة أنه بينما كان «مانو» يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ومما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت إنقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم. والخطر العظيم المحقق الذي أنبأت به السمكة كان طوفاناً سيجرف جميع المخلوقات، وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في المرتبان فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على «مانو» أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طغيان الماء قائلة «أنا أنقذك من الطوفان» فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر، ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة وحين دخل «مانو» السفينة عامت السمكة إليه، فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشمالية، وهنا ربط «مانو» السفينة بشجرة. وعندما تراجع الماء وخف بقي «مانو» بوحدته.

هذه هي قصة الطوفان وأهميتها الحقيقية ليست في الاتصال الموعز في كلمات مانو، والسفينة والطوفان إلى نوح، والسفينة والطوفان بل في النور الذي ترميه القصة في كشف

التاريخ الابتدائي لطقوس القربان، وهو يرى في الخطوة التي يتخطى بها «مانو» لنيل القوة الخارقة لإيجاد الخلق، ففي بادىء الأمر «مانو» المتمني للخلف انهمك في العبادة والمجاهدة. ثم قام بضحيته المسماة «باكا» ومن ثم خلقت المرأة بعد سنة، فالمرأة أخبرت «مانو» أنها بنته لأنها خلقت من ضحيته وقالت له: أنا بركة استعملني في القربان وأنت تصبح غنياً في الأخلاق والمواشي، فمانو على ذلك استمر في العبادة والمجاهدة مع المرأة. وبواسطتها هو أنتج هذه الذرية، فهي ذرية مانو، وأي نعمة طلب مانو بواسطتها أعطيت له.

عمر نوح

ذكر الكتاب الكريم أن نوحاً مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وذكرت التوراة أن آدم عمّر ثلاثين وتسعمائة سنة وذكرت أيضاً أن الطوفان ابتدأ في السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه السلام وذكرت كثيراً من الأنبياء وغيرهم وأنهم عمروا عمراً طويلاً - ونحن لا نجد معمرأ يعمر مثل هذا العمر أو نصفه أو رבעه من زمن طويل، وهؤلاء الفراعنة في مصر نجد أجسامهم كأجسام أهل هذه الأيام، وأعمارهم لا تختلف عن أعمارنا، وقد مر لهم أربعون قرناً أو أكثر، فكيف يكون ذلك؟

والذي أراه أنه لا مانع من أن يعمر آدم ومن قرب منه أعماراً طويلة، لأن النوع الإنساني كان في بدء نشأته لم يحمل هموماً ولم تعتوره الأمراض المختلفة ولم تنهك قوته الأطعمة التي لا يقدر على هضمها، فكان من المعقول أن يعيش طويلاً. وأما نحن وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرناً فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الإنساني الأمراض وطحنته الأدوية؛ فالواحد منا عصارة لآلاف الأمراض التي انتابت آباءه وأمهاته، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل.

وعند العلماء بالطب والأحوال الاجتماعية أن الإنسان قواه محدودة والحياة العريضة تستنفدها بسرعة بخلاف الحياة الضيقة، فإنها تكون طويلة لقلّة ما يستنفذ من قوى الأجسام بتلك الحياة؛ فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة التي كان يعيشها آدم ومن قرب منه، بل نتفنن في أنواع الطعام ولذائد المعيشة بما ينهك قوانا؛ فلا غرابة أن تكون أعمارنا قصيرة، وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة والتبسيط في العيش. ويقول بعض الأطباء الألمان: إن إنسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتبع نظاماً خاصاً.

وهنا رأي آخر: وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاماً؛ فإذا قالوا ألفا ومائتي سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا. وقد أشار إلى ذلك المعري بقوله:

وَرَوَوْا لِلْمَعْمُرِينَ أُمُورًا لست أدري ما هُنَّ في المشهور
 أَتْرَاهُمْ فِيمَا تَقْضَى مِنْ الأَيَّامِ عَدُّوا سَنِيَهُمْ بِالشُّهُورِ
 كَلِمًا لَاحَ لِلْعَيُونِ هَلَالٌ كَانَ عَامًا لَدِيهِمُوا فِي الدَّهْوَرِ
 هَكَذَا يَنْبَغِي وَإِلَّا فِإِنْ أَلْ عَقْلُ يَشْنَى فِي حَالَةِ الْمَبْهُورِ
 وَلَكِنِّي مَتَمَسِّكٌ بِرَأْيِي وَهُوَ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَطْبَاءِ يَرَى الْإِصَابَةَ بِالْأَمْرَاضِ
 تَوَرَّثَ نَسْلُهُمْ مَنَاعَةً

قَبِيلَتَا عَادَ وَثَمُودَ

لَمَّا كَانَتْ قَبِيلَةُ عَادَ قَوْمَ هُودَ مِنْ أَقْدَمِ الْأُمَمِ وَجُودًا وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى
 ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وَلَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يَكُونُوا أَقْدَمَ
 مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ قَوْمُ ثَمُودَ يَتَلَوْنَ قَوْمَ عَادَ فِي الْوُجُودِ وَالظُّهُورِ بَيْنَ الْأُمَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى
 عَلَى لِسَانِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]
 أَحَبَبْتُ أَنْ أَذْكَرَ قَوْمَ عَادَ ثُمَّ أَثْنِيَ بِثَمُودَ، ثُمَّ أَذْكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ عَقْبِهِ
 لِيَكُونَ ذِكْرُهُمْ فِي نَسَقٍ. مُخَالَفًا فِي ذَلِكَ التَّرْتِيبَ الَّذِي رَتَبْتَهُ فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَى لِأَنِّي بِهِذَا
 التَّرْتِيبَ أَوْثَقُ وَإِلَيْهِ أَمِيلُ.

هود عليه السلام

وشأنه مع قبيلة عاد

عدد مرات ذكر هود في القرآن - نسبه - مساكن عاد - عبادتهم - هلاك عاد - العبرة من قصة هود مع قومه .

ذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات . فذكر في سورة الأعراف في الآية ٦٥ وفي سورة هود في الآيات ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ وفي سورة الشعراء في الآية ١٢٤ .

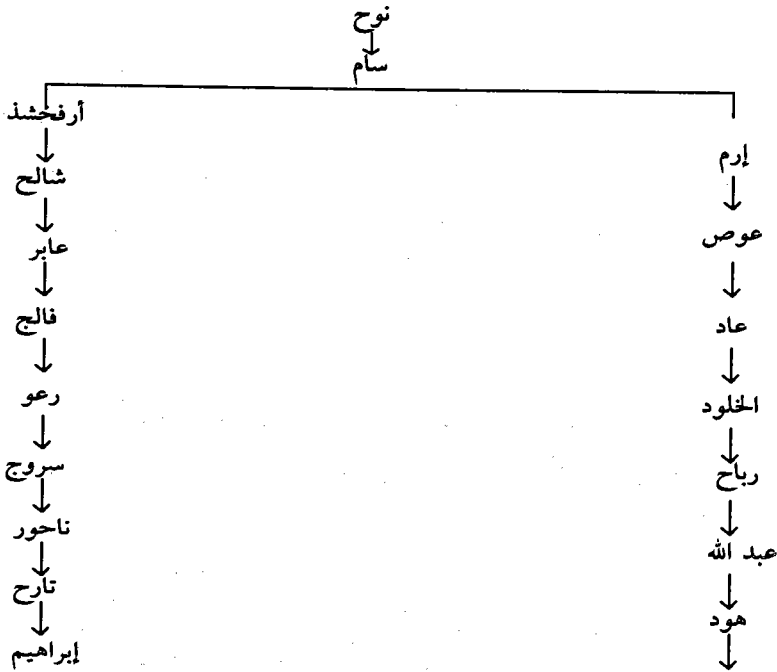
واعلموا - وفقني الله وإياكم - أن عاداً لم تذكر في كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم؛ وليس بيد أحد من الناس من أخبارهم ما يوثق به ويصح التعويل عليه، سوى القرآن وحده، فقد ذكر مساكنهم وأحوالهم وجسامه أجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش، وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم في الأرض وتماديهم في الاستمسك بعبادتهم الباطلة وما بذل هود في سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم، وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء إلى أن يأذن الله بهلاكهم .

فعلى ضوء ما جاء في القرآن الكريم نقص قصصهم مع هود رسول الله ﷺ . وما جاء في أثناء القصة مما لا يدل عليه القرآن الكريم فليس يبلغ الشيء القطعي ولا الشيء المؤرخ المأخوذ عن المصادر ذات القيمة التي سجلها التاريخ؛ وإنما هي آثار أثرت عن بعض أهل العلم . هي دون التاريخ .

أما «عاد» فهو اسم لأبي القبيلة وقد اشتهر أنه اسم عربي، ويقول سيبويه: أنه أعجمي، إذ يقال أن أول من نطق بالعربية «يعرب» . وعن ابن عباس أن هوداً أول من نطق بالعربية؛ ولكننا إذا قدرنا صحة ما يقال من أن العرب إنما سموا عرباً لأنهم سكنوا غربي الفرات، فكانوا بادية الآراميين، وأن الأمم التي أطلقت عليها اسم «عرب» إنما تنطق الغين المعجمة عيناً مهملة، وأن قبيلة عاد وغيرهم من العمالة وسواهم هم الذين ينطبق عليهم هذا الاسم حكمنا بأنه عربي كما هو المشهور^(١) .

(١) يرى صاحبنا الدكتور إسرائيل ولفسون أن لفظ عبري وعربي شيء واحد من العبور وهو الارتحال حصل فيه قلب مكاني فصار لفظ «عبري» عربي .

ويقال إن هوداً هو ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وعلى هذا الرأي محمد بن إسحق وبعض القائلين بهذا يقولون إن هود ابن عم أبي عاد، وقيل ابن عوص بن إرم ابن سام بن نوح، وقيل عبد الله بن رباح بن الخلود بن عوص بن أرم بن سام. وهاكم عمود النسب لكل من هود وإبراهيم عليهما السلام:



وإذا قارنا بين نسب هود وإبراهيم عليهما السلام وجدنا هذا النسب أقرب إلى القبول من غيره؛ إذ بين هود وسام ستة أشخاص على عمود النسب، وبين إبراهيم وسام ثمانية أشخاص على عمود النسب. والمشهور من أقوال من يتعرضون للكلام عن عاد أنهم بادوا بعد وجود إبراهيم وبناء البيت بمكة. ومن المحتمل أن عاداً كانوا أطول أعماراً كما كانوا أكبر أجساماً. وأما من يقول إن هوداً هو ابن عوص بن أرم فقد أبعد في الشطط؛ إذ في هذه الفترة القصيرة من الزمن يبعد كل البعد أن يتوالد لأرم قبيلة كبيرة ضخمة تعمر الأرض وتعز بقوتها بالحال التي كانت عليها عاد؛ فقد كانوا أهل زرع وضرع وعمروا البلاد وأذلوا العباد؛ كما يشهد بذلك قول هود لهم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَانْقُؤُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَانْقُؤُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَخَنَزِيرٍ وَعِجُونٍ (الشعراء: ١٢٨ - ١٣٤).

مساكن عاد

كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف، وهي تقع في شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها عمان، وموضوع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، ولم يتعرض أحد من الأوروبيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم والتنقيب في أرضهم؛ ولعل تحت الرمال من الثورة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة في عالم الآثار وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان. وقد أخبرني السيد عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوي من أهل حضرموت أنه قام في جماعة إلى إحدى المدن البائدة في شمال حضرموت ونقب فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسماري؛ ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له وإثقال كاهله بالمطالب المالية^(١).

عبادتهم

كان قوم هود أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى: ضاهوا في عبادتها قوم نوح حين عبدوا وداً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً. وفي أثر مروي عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنماً يقال له الهتار؛ فبعث الله إليهم هوداً. وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود، وكان من أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً، وكان في مثل أجسادهم أبيض بادي العنفقة طويل اللحية، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ٤٩٧ ج ٨ تفسير المنار.

كان هود عليه الصلاة والسلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم: إذ زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضاً تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذي يعيشون منه، وتنبت الكلاء الذي ترعى فيه ماشيتهم، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم، وأن الذي يضر وينفع إنما هو الله تعالى الذي أغدق عليهم نعمه، وهو الذي خلقهم وبهدهم مآلاتهم؛ وأن الواجب عليهم أن يتقوه ويتوبوا إليه، وأن يستغفروه لما فرط منهم من إشراك غيره معه في العبادة، وأنهم إذا تابوا إليه

(١) في ص ٣٣٣ ج ٥ من القسطلاني ما نصه: وكان قوم هود يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن. وهذا يخالف ما هو معروف؛ فإن الأحقاف في شمال حضرموت وهو يجعلها في جنوبها على المحيط الهندي.

واستغفروه لما أسلفوا من آثام فإنه يرسل المطر عليهم متتابعاً من غير أن يصحب نزوله ضرر، ويزيدهم عزا إلى عزهم.

وكان هود يبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجراً يأخذه منهم، أو رياسة يتزعم بها بينهم، وأنه لا يطلب الأجر على ذلك إلا من الله تعالى. ومن كان كذلك يكون أبعد عن التهمة، إذ هو لا يجبر لنفسه من وراء ذلك نفعاً ولا يبغي لها فائدة من أتاة يفرضها أو زعامة يتولاها.

كان في ملأ عاد ناس قد عتوا ورأوا كبيراً على أنفسهم أن يصدوا عن أي مراد يريدونه، كما كان منهم مؤمنون، إلا أن شقوة أهل الكفر والعتو قد غلبت عليهم وكانوا الجمهور الأعظم، فسفهاوا هوداً وكذبوه، وتجاهلوا الحجج الناصعة والبراهين القاطعة التي أقامها على صدقه. وقالوا له: ﴿يَكُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] أنك مرسل من الله وأن آلهتنا التي تنهانا عن عبادتها لا تشفع لنا عند الله، ورموه بالسفاهة والخروج عن السبيل السوي بابتداع ما ابتدع مع الدعوة إلى ترك الأصنام وإفراد الله تعالى بالعبادة، وذلك غير ما ورثوه عن الآباء من عبادتها والاستشفاع بها.

راجعهم هود بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من رب العالمين ليلبغهم رسالة ربهم، وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع بها. وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ترقى قوم هود في تكذيبه واتهموه في عقله وقالوا: إننا لا نقول إلا أنك لما عبت آلِهتنا وحاولت صرفنا عن عبادتها، قد اعتراك بعضها بسوء فالحق بك الخبال والجنون، فأنت عندنا في حكم أهل العتة والجنون. وقد ظنوا أنهم باتهامهم إياه عليه السلام بالجنون ينصرف الناس عن الإصغاء إليه والاعتداد بكلامه.

سمع هود ذلك فأشهد الله تعالى وأشهدهم أنه بريء من تلك الآلهة التي يزعمون لها القدرة على أن تمسه بسوء، وتحداهم وآلهتهم أن يكيدوه إذا كان ذلك في قدرتهم وأن يسرعوا إلى ذلك مبادرين دون أن ينظروه؛ فإنه واثق من إلهه الذي بيده نواصي كل ما على الأرض من دابة أنه سينصره ويمنعه أن يصلوا إلى مسه بأذى، وإنما خص الناصية لأن الحيوان إذا أمسك بشعر ناصيته انقاد وصار الممسك بناصرته مسيطراً عليه، وكانت العرب تجز ناصية الأسير ليعلم أن ناصيته ملكت وجزت.

وأعلمهم هود عليه السلام بأنهم إذا تولوا معرضين عن قوله ولم يستمعوا لنصيحته،

فإنه قد قام بواجبه الذي كلف به من ربه وأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوماً غيرهم، وأن هذا لا يضر الله شيئاً لأنه حافظ ومستول على كل شيء في قبضة قدرته.

لم يزل هود يحضهم النصيح ويعلمهم أنه ناصح لهم خالص النية في العمل بكل ما ينفعهم، أمين على ما يقوله لهم عن الله تعالى، فهو لا يدعوهم إلا إلى ما فيه سعادتهم وحسن حالهم، وأنه لا ينبغي لهم أن يعجبوا لأنه جاءهم رجل منهم لينذرهم، لأن ذلك من سنة الله تعالى أن يجعل الرسول إلى القوم منهم ليكونوا أشد فهماً لما يلقيه إليهم ولأنهم اعلم بحقيقته وأمانته وما هو عليه من خلق حسن.

راجعهم قومه متعجبين مما يطلبه منهم من عبادة الله وحده وترك ما وجدوا آباءهم يعبدونه من الأصنام، إذ في ذلك تحقير للآباء وامتهانهم يرميهم بالكفر، وفيه أيضاً تحقير أوليائهم وشفعاتهم عند الله بترك التوجه بهم إليه تعالى وهم وسيلتهم إليه وهم المقصودون بالتعظيم لصورهم وتمثيلهم: ثم ترقوا إلى تحديه قائلين ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُ﴾ [هود: ٣٢] - من العذاب - ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] في إنذارك بقولك ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦].

حينئذ أنذرهم هود بأن الله تعالى سيحل بهم عذاباً قريباً بقوله ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١] أي عذاب وغضب، ومعنى ذلك أنه قد قرب الانتقام المحتم، وإنما عبر بـ «وقع» لأنه محقق الوقوع، ثم وبخهم قائلاً ﴿أَتَجِدُلُونِي فِي سَمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١] ثم قال لهم: انتظروا حلول العذاب بكم، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التي أقامها هود على صدقه في أنه مرسل من ربه واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة في إنذارهم، أحل الله بهم نقمته في الدنيا بأن أمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا، وكان كلما نزل بهم الجهد ذكرهم هود بدعوته وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه، فكان ذلك يزيدهم عتواً إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم: سلطها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام حسوماً، فاهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ونجى الله تعالى هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ.

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى. وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع وقيل: هم ثمود.

ويقول أهل حضرموت: إن هوداً عليه الصلاة والسلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت. وقد أثر عن علي كرم الله وجهه أنه مدفون في كتيب أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت، وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبراً ويعملون له في كل سنة مولداً. وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهي الأحقاف دون فلسطين.

وفي تفسير الألوسي: قيل كانوا أربعة آلاف، وقيل ثلاثة آلاف.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوِيَّ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٦٦﴾ قَالَ يَبْقَوِيَّ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٧﴾ أُنِيعْكُمْ رَسُولِي فَإِنِّي أَنَا نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ أَنْجِدُونِي فَمَ أَسْمَؤُا سَمِعْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ٧١﴾ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقُطْعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾.

سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوِيَّ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ٥٠﴾ يَبْقَوِيَّ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٥١﴾ وَيَبْقَوِيَّ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرْزُكُم قُوَّةً إِلَىٰ قُرُونِكُمْ وَلَا تَتْلُوا تَجْرِيمَ ٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤﴾ مِّن دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّن عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادُ

جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَبِعَمِّ الْقِيَمَةِ آلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ .

سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٦١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿٦٢﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ لِيَئَاكُزْ إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٦٥﴾ أَيْدِيكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَكْثَرُ تُخْرَجُونَ ﴿٦٥﴾ هِيَآتْ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٦٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٦٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٧٠﴾ فَلَاخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٧٢﴾ .

سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابِيَةً تَبْنُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَسْخَدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وَحْشَتٍ وَعِيبُونِ ﴿١٣١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٧﴾ .

سورة فصلت: ﴿فَإِنَّمَا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنَّا أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْفِعَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ .

سورة الأحقاف: ﴿وَأَذْكُرْ لِمَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الشُّدْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ آلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ قَالُوا آجِنَا إِنَّا فَوَّكْنَا عَنْ الْمَرْتِنَا قَالُوا بِمَا نَعُدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُنْفِئُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّثْمِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ .

سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ ﴿٤٢﴾﴾ .

سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحِيسُ مُسْتَعِيرٍ ﴿١٩﴾ تَنَزَّعَ النَّاسُ كَانْتَهُمُ أَعْجَارُ تَحَلَّى مُثَقَرٍ ﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢٦﴾﴾ .

سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينَةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَذَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانْتَهُمُ أَعْجَارُ تَحَلَّى خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ .

سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ ﴿٨﴾﴾ .

العبرة من قصة هود مع قوم عاد

القارئ لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيّل إليه أنه يرى إنساناً وقوراً رزيناً يزن الكلام قبل إلقائه يتجلى الإخلاص وحسن النية على قسّمات وجهه، وهو:

١ - لا يقابل الشر بمثله بل لا يفارقه استعمال اللين في كلامه مع قومه .

انظروا إلى قولهم له ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ثم ماذا كان جوابه؟ كان جوابه أن قال لهم ﴿يَقْوَرُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦٧] أُلْفَعُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٨] فمن تأمل في هذا الجواب وجده غاية في دماثة الأخلاق والتلطف في إسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أية منفعة .

٢ - تلمّظه بذكر نعم الله تعالى عليهم وترغيبهم في الإيمان وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حسن حالهم وتذكيرهم بما أنعم الله عليهم به من أموال وبنين وجنات وعيون وأنه زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وأن إيمانهم يستتبع رضا الله تعالى فيرسل السماء عليهم مدرارا لسقي زروعهم وإنبات الكلا لماشيتهم وأنه تعالى يزيدهم عزّاً إلى عزهم .

فكان جواب قومه له التعجب من شأنه وشأن رسالته إذ جاءهم ليعبدوا الله وحده وأن يذروا ما كان يعبد آباؤهم من قبلهم. واتهموه بأن بعض آلهتهم مسه بالجنون الذي أفقده صوابه عقاباً له على الخوض في حقهم والتقليل من سلطتهم.

أقول: ولقد جاء سقراط إلى قومه بدون ما أتى به هود، إذ أراد التقليل من سلطة الآلهة فحكم عليه أن يتجرع السم بيده ونفذ الحكم.

٣ - أنه مع مشاكستهم له وافترائهم عليه ورميهم له بالجنون الذي اعتراه به بعض آلهتهم لا كلهم لم يزد في جوابه على أن يقال لهم ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٤ - ٥٦﴾.

٤ - أن الذي يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ينبغي أن يكون آخذاً أخذ هود عليه السلام في سعة الصدر وعدم مقابلة الشر بمثله ويحتمل صلف المدعوين وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم، وأن يكون جوابه عند اليأس بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ [هود: ٥٧].

صالح عليه السلام

عدد مرات ذكر صالح في القرآن - نسب صالح وثمرود - مساكن ثمود - دين أهل ثمود - جعل الناقة آية لهم - عقربهم للناقة - هلاكهم بالصاعقة .
ذكر اسم صالح في القرآن تسع مرات، في سورة الأعراف في الآيات ٧٣، ٧٥، ٧٧، وفي سورة هود في الآيات ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩ وفي سورة الشعراء في الآية ١٤٢ .

نسب صالح وثمرود

اختلف في نسبه فقال الحافظ البغوي أنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وعن وهب أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود.
وأما ثمود فهي القبيلة التي منها صالح، سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن أرم بن سام. وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن أرم. قال الألوسي: هو المنقول عن الثعلبي.

مساكن ثمود

كانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء - وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم. وقد زارها بعض أصحابي ودخل بيت الملك وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة وهو منقور في الصخر. والمكان الذي فيه ديارهم يعرف إلى اليوم بـ «فج الناقة» - ويقول المسعودي: ورممهم باقية وأثارهم بادية في طريق من ورد من الشام. وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين وهي مصابغة لخليج العقبة. وقد كان يقال لعاد: عاد إرم، إلى أن هلكوا فقالوا: ثمود إرم.

وقد اختلف الباحثون من المستشرقين في أوروبا في أصل ثمود وزمن وجودهم، فقال فريق: إنهم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين، وهذا القول لا يعدو أن يكون ظناً لا أثر فيه للتحقيق؛ إذ القرآن ناطق بأنهم قد انقضى أمرهم وعرت ديارهم من كل ديار قبل خروج موسى من مصر ببني إسرائيل، وهذا مؤمن آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمرود والذين من بعدهم.

وقال آخرون - أي من المستشرقين: إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات. ويظن آخرون أنهم من العماليق الذين طردهم أحمر ملك مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر؛ نحتوا لهم بيوتاً بعضها نقر في الصخر وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التي تتخذ من الصخر. وقال بعض المؤرخين: إنهم بقية من عاد، وهذا أقرب إلى المعقول، ويدعي أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من مستعمرات عاد، وهذا القول لا يخالف ما قبله، وقد يؤيده قول صالح الآتي لقومه ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

أما زمن وجود ثمود فلم يعلم بالضبط، غير أنني أقول إنهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى، وأما وجود الكتابة الآرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء وكون تلك الكتابة مؤرخة بتاريخ قريب من زمن الميلاد فلا يدل إلا على أن ناساً أخذوا الخط الآرامي يخلدون به آثارهم قد نزلوا في تلك الناحية وكتبوا على مقابرهم ونحوها.

قال جورج زيدان في كتابه «العرب قبل الإسلام»:

أما الثابت من قراءة الآثار: أن مدائن صالح «الحجر» دخلت قبل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان بطرة الآتي ذكرهم. والأطلال المشار إليها زارها غير واحد من المستشرقين كما ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب، ودرسوا بقاياها، وهي منقوشة في الصخر أهمها أنقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا، والقلعة، والبرج.

وقرأوا ما عليها من نقوش نبطية، فإذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور.

هذا مثال منها وجدوه في الحجر بالحرف النبطي وتاريخه حوالي الميلاد:

«هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلية ابنتها لأنفسهن وذريتهن في أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعمرى ذو الشري وعرشه (؟) واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضواً أو يدفن فيه أحداً غير كمكم وابنتها وذريتها - ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشري وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها ألف درهم حارثي إلا من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كلية ابنتها بشأن هذا القبر، والتصريح المذكور يجب أن يكون صحيحاً صنع ذلك وهب اللات ابن عبد عبادة».

ولعل المراد بالساحر: الكاتب.

دين أهل ثمود

كانت قبيلة ثمود تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله في العبادة، فأرسل الله إليهم صالحاً واعظاً لهم ومذكراً لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده وأنه لا شريك له، وأقام لهم الأدلة القاطعة والبينة الواضحة على ضلالهم في عبادتهم وعلى أن الله هو الذي يجب إفراده بالعبادة دون سواه.

وقد جاء في تفسير المنار (٥٠٢ ج ٨) مانصه:

«قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام وحوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال. وقد حكى لنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها عقب تبليغ الدعوة وفي قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وقصر تصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة الشعراء طلبهم الآية منه. وكل ذلك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد» اهـ.

ولكن ما هي هذه الآية التي جاء بها؟ لم يبين الله له آية سوى الناقة ولا مانع من أن يكون جعلها آية صدقه بأنهم سيقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يعتروها بسوء ولم يمسوها بأذى؛ فإذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته^(١) ويحتمل

(١) نقد اللجنة

الموضوع الثالث عشر

(ناقة صالح عليه السلام)

في صفحة ٢٨٠ سطر ١١ (من الطبعة الأولى)

ولكن ما هي هذه الآية التي جاءهم بها؟ لم يبين الله لهم آية سوى الناقة ولا مانع من أن يكون جعلها آية صدقه بأنهم سيقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يعتروها بسوء ولم يمسوها بأذى، فإذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته اهـ هذا نفس كلامه.

(رأي اللجنة)

لم نستطع أن نفهم لهذا الكلام وجهاً معقولاً، وذلك أن الله تعالى يقول في سورة الأعراف ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ الآية. فلو كان الله تعالى قد جعل الناقة آية صدقه بأنهم سيقون سالمين على حال حسنة ما دامت الناقة مسلمة لم يعتروها بسوء ولم يمسوها بأذى، فإذا خالفوا غير الله ما بهم وأحل بهم نقمته اهـ هذا نفس كلامه.

ويؤخذ من قصة صالح عليه السلام في سورة الشعراء أنها جاءتهم بعد أن طلبوها.

= ومن الواضح جداً أنه لا معنى لكون الناقة آية ومعجزة مقارنة لدعوة صالح إياهم إلى الإيمان إلا أنها مشتملة على أمر خارق للعادة يدل على صدقه في دعوى الرسالة لهم كما أنه من الواضح أنه لا بد أن يعلموا ذلك الأمر الخارق للعادة في حال حياتهم واطمئنانهم حتى يجب عليهم الإيمان وحتى يكون تركهم للإيمان بعد علمهم بهذه الآية الدالة على صدقه إنما هو على سبيل العناد والاستكبار وحينئذ يستحقون العذاب الشديد.

فهل يعقل أن يكون وجه أن الناقة آية أنه جعلها آية صدقه بأنهم إن تركوها سلموا وإن مسوها بسوء حل بهم العذاب مع أنهم على هذا لا يظهر لهم صدقه إلا بعد أن يظهر لهم أنه قد حقت عليهم كلمة العذاب حينما مسوها بسوء؟

وهل مثل هذا يعتبر معجزة لهم يجب عليهم بمقتضاها أن يصدقوه ويؤمنوا به مع أنه لا يظهر أنه أمر خارق للعادة بعد موتهم إلا بعد حلول العذاب.

نحن لا ندري السر في العدول عما قرره المفسرون فإنهم ذكروا في كون الناقة آية أربعة أقوال:

الأول - وعليه الجمهور: أنها كانت آية بسبب خروجها من الصخرة.

الثاني - أنها كانت آية بسبب أنه كان لها شرب يوم واستيفاء ناقة شرب أمة عجيب.

الثالث - أنهم كانوا يحلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم.

الرابع - أن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها الماء تمتنع من الورود على الماء وكانت يوم امتناعها تأتي (أي جميع الحيوانات) الماء.

قال الإمام الرازي: واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية، فأما ذكر أنها كانت آية من أي الوجوه فهو غير مذكور، والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه ١ هـ.

ونحن نقول: لا بد أن يكون الأمر الخارق للعادة الذي اشتملت عليه الناقة متحققاً فيها قبل أن يمسوها بسوء والله أعلم.

في صفحة ٢٨٤ بعد أن قال: وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة المعبر عنها تارة بالرجفة وتارة بالصيحة وتارة بالطاغية قال ما نصه:

والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب إلى آخر ما ذكره من بيان الأسباب العادية المنتجة للصواعق، وقال في آخر ما نصه:

فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق.

(رأي اللجنة)

من أين جاء له أن الصاعقة التي دمر الله بها قوم صالح هي استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين... الخ، هل ورد بذلك خبر عن رسول الله ﷺ أو جاء بذلك أثر عن بعض أصحابه، أو استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة فحكم بذلك بمقتضى عقله وجزم بأن هلاك ثمود كان ظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق؟

فالذي نراه أنه لا ينبغي الجزم بكيفية خاصة بدون دليل يثبتها، مع أن الأقرب في مثل هذه الأمور أن تكون بغير أسباب عادية، والله أعلم بحقيقة الأمر.

جواب المؤلف على نقد اللجنة

في هذا الموضوع

(ناقة صالح عليه السلام)

نصصت في كتابي ما نقله حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة، وقد عابوا علي أنني اقتصرصت على أن الناقة آية لثمود ولم أثبت غيرها مع أن كون الناقة آية لهم هو نص القرآن الكريم وأن الله تعالى لم يذكر من أي وجه، فحملت ذلك على أنها ما بقيت مسلمة منهم لا يمسونها بسوء فهي آية بقائهم، وقلت لا مانع من ذلك. أما حضراتهم فصالوا وجالوا، ومما استدلوا به على بطلان ذلك الوجه قول الإمام الرازي «واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية. فأما ذكر أنها كانت من أي الوجوه فهو غير مذكور والعلم حاصل أنها كانت معجزة من وجه» وأنا مقر بما قال ولم أذكر ما يناقضه. وأما قولهم «ونحن نقول لابد أن يكون الأمر الخارق للعادة الذي اشتملت عليه الناقة متحققا فيها قبل أن يمسوها بسوء».

فأقول: إني أسير مع النص والله لم ينص على قولكم هذا. بل أنا أقول إن الذي قاله المفسرون من أن آيتها كانت الخروج من الصخرة أمر ممكن وليس به نص، وكذلك بقية الأقوال كاستيفائها شرب الأمة في يومها وأنهم كانوا يحلبون ما يقوم مقام الماء امتناع جميع الحيوان من قربان الماء يوم شربها: كل واحد من هذه الأشياء أو جميعها يحتمل أن يكون في الناقة ولكن ليس على ذلك نص تجب به الحجة.

والذي تبين لي من أقوال حضراتهم في تقريرهم من أوله إلى هذا الموضوع أنني لا ألتقي مع حضراتهم. فإني لا أجزم بالمعجزة ولا بالخارق للعادة من أمور الأنبياء إلا إذا ورد بذلك نص قطعي الثبوت والدلالة، ودائرة الإثبات لذلك لدى حضراتهم أوسع منها لدي، فهم يشبونها بما أثبتها أنا به ويزيدون أموراً:

(١) الحديث المروي رواية آحاد.

(٢) الأقوال التي يقولها المفسرون والآراء التي يوردونها.

(٣) الإسرائيليات التي ينصها مسلمة أهل الكتاب.

وإني لأعيد الأمة الإسلامية من أن تحقق هذه الأشياء بأقوال ظنية فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، وأربأ بها أن يتحقق فيها قول المعري:

مالي أرى كل الأنعام لجهلهم بالدين أشباه النعم أو النعم
لو قال سيد غضى بعثت بملة من عند ربي قال بعضهم نعم

(شيء آخر)

أخذ أصحاب الفضيلة على أمراً عدوه ذنباً هائلاً تنهار له جوانب الإيمان ويخر منه الدين وذلك أنني شرحت الصاعقة بأنها استفراغ كهربائي إلخ ثم قلت: فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق... فوجهوا إلي أسئلة متدركة متتالية: أورد كل سؤال منها ثم أجيب عنه: قالوا:

(١) من أين جاء له أن الصاعقة التي دمر الله بها قوم صالح هي استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين إلخ؟

= الجواب - أن هذا الذي ذكرته هو التعريف العلمي للصواعق عند علماء الطبيعة - أستغفر الله من الكفر . ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذلك كفر عند أهل الملة بل أقول عند العلماء بسنن الله الكونية، وهذا من أوليات هذا العلم في الفرع الخاص بالكهرباء، وكان يكفي حضراتهم أن يسألوا أي طالب في القسم الثانوي بالأزهر ليشرح لهم ذلك فيعلموا أنني على حق فيما أقول .

(٢) هل ورد بذلك خبر عن رسول الله ﷺ؟

الجواب - لم يرد بما قلته خبر عن رسول الله ﷺ، ولكنه علم تعلمته ودرسته دراسة صحيحة وكنت متميزاً فيه بين إخواني . وامتحنت فيه وأخذت عليه درجات . ومن شاء الوقوف على ذلك فليسأل وزارة المعارف أو مدرسة دار العلوم . أو فضيلة الشيخ أحمد إبراهيم بك وكيل كلية الحقوق . وليس في قدرتي أن أحول علمي جهلاً ومعرفتي غباوة وحيرة - وشأنني في هذا العلم شأن حضراتهم في العلوم من النحو والصرف والمعاني والبيان والبدیع؛ فإن قواعد تلك العلوم وضوابطها لم تنص في الكتاب الكريم ولم يرد بها حديث صحيح أو غير صحيح ولكنها علوم استحدثت في الملة بعد رسول الله ﷺ وأقدمها علم النحو استحدثت بعضه في أخريات خلافة علي كرم الله وجهه، وقد عاش الصحابة وتوفوا وهم لم يتحدثوا في استعارة مكنية أو تبعية ولم يتكلموا في توشيح أو تدبيح .

(٣) قالوا أو استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة فحكم بذلك بمقتضى عقله وجزم بأن هلاك ثمود كان بظاهرة من تلك الظواهر المنتجة للصواعق؟

الجواب - أني لا أستبعد على قدرة الله خلق أي شيء مما لا أعلمه ولكنه تعالى عبر بأنه أهلكتهم بالصاعقة التي أعلم علمها ولو كان اخترع شيئاً لإهلاكهم به يعمل عمل الصاعقة لأخبر بأنه من جنس غير الجنس الذي نعلمه وسماه باسم خاص، وما الله بمسبوق على أن يخلق ما لا نعلم وأن يسميه بالاسم الخاص حتى لا يخلط عباده بين ما يعلمون وما لا يعلمون وما كان لمؤمن على شريعة من العلم أن يدع العلم الذي يثق به ويصحه إلى ما لم يعلم فيكون كمن يترك ساقاً متمسكاً بها من دوحة عالية دون أن يستمسك بساق أقوى منها فيهوي، ويكون قد ألقى بيده إلى التهلكة .

وكان من حق العلم على حضرات الأفاضل : أن يذهبوا أولاً إلى مشيخة الأزهر ويقترحوا عليها أن تأمر مدرسي السنن الكونية أن يكتبوا تعريف الصاعقة بغير التعريف العلمي الذي يدرس في جميع أنحاء العالم وأن يصوغوه بالتعريف الذي يروق لحضرات أعضاء اللجنة وأن تأمر مشيخة الأزهر بذلك وتحتم على جميع المدارس الثانوية في الحكومة المصرية أن تأخذ بنظرية حضرات أعضاء اللجنة وتتبع ذلك في المدارس الطبية على اختلاف أنواعها وفي الجامعة المصرية، ثم تعقد مؤتمراً بالقاهرة تجمع إليه أساطين العلوم وجهابذة الفنون في العالم وتحتم على أعضاء المؤتمر أن يكون التعريف الذي اختاره حضرات الأعضاء للصواعق هو المتبع - وإني من مكاني هذا أصيح بحضرات أعضاء المجلس الأعلى للمعاهد الدينية أن يفعلوا ذلك وأحذرهم عاقبة التواني وأقول لهم: ألا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير .

وأما أقوال المفسرين؛ فقد قالوا: الرعد ملك موكل بالسحاب معه كر من حديد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله، فكلما خالف سحاب صاح فزجره؛ فالذي يسمع صوت الملك . وقد اختلفوا في حجم الملك وقد قال بعضهم إنه في حجم الذبابة .

أنه جاءهم بآية سوى الناقة أو كانت في الناقة آية أخرى أو عدة من الآيات ليست في غيرها .
والذي يظهر من قصة صالح أنها تتلخص في أن القوم كانوا عاكفين على عبادتهم
الباطلة .

وكانوا أهل خصب ورفاهة حال؛ لما كان لهم من الماشية الكثيرة والجنات الوافرة
الجنى والعيون التي يستقون منها هم وماشيتهم وزروعهم، بدليل قوله لقومه ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا
هَهُنَا ءَامِنِينَ ﴾ (١٤٦) فِي جَنَّتٍ وَعَيْوِينَ ﴿ ١٤٧ ﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَٰهْنَا ﴿ ١٤٨ ﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
يُوتًا فَتَرَاهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩] .

= وقال الزمخشري في تفسيره - الرعد: الذي يسمع من السحاب كان أجرام السحاب تضطرب وتنتفض
إذ حملتها الرياح فتصوت عند ذلك .

وأما البرق فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه ضرب الملك الذي هو الرعد للسحاب
بمخراق من حديد، وروي عن مجاهد أن الله عز وجل وكل بالسحاب ملكاً فالرعد قعقة صوته
والبرق سوطه .

وقال الزمخشري في تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد تنقض معها شقة من نار .

وقالوا: إنها تنفدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت
عليه إلا أنها مع حداثتها سريعة الخمود، على أنها متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها .
وقال صاحب مناهج الفكر ومناهج العبر :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس ولا تحرق الكيس، وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما
ذاب فيه وسال: قال وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسه ونفذته، وإذا سقطت في بحر غاصت
فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه، وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس . فتكون منها
أجرام حجرية أو حديدية أو نحاسية، وربما طبعت الحديد سيوفاً لا يقوم لها شيء اه من نهاية
الأرب .

وقال القرطبي في أحكامه: الصواعق جمع صاعقة . وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا اشتد
غضب الرعد الذي هو الملك طار النار من فيه وهي الصواعق . وكذا قال الخليل قال: هي الواقعة
الشديدة من صوت الرعد يكون أحياناً قطعة من نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد: الصاعقة نار
من السماء في رعد شديد .

فأنتم ترون أن أقوال المفسرين في الصاعقة والبرق والرعد ينكرها العلماء بسنن الله الكونية، ولا
يقيمون لها وزناً بعد أن ترقى العلم هذا الرقي الذي نراه اليوم، وبعد أن عرفت خواص الكهرباء
واخترعت مانعات الصواعق على المصانع الكبيرة والعمارات الشامخة اتقاء لضررها .

و يظهر أنني لو اقتصرنا على ما قاله المفسرون مما لا يقيم له العلم وزناً اليوم لكنت حللت من
حضراتهم بمنزلة المحب المكرم .

وحيث أن ما جاءوا به من القول لم يصب شاكلة الصواب ولا يعبأ به العلم ولا يعتد به العلماء،
فيكون اعتراضهم لا معول عليه، وإنني أقول لحضراتهم: لم تحتاجون فيما ليس لكم به علم، والله
يعلم وأنتم لا تعلمون .

جاء إليهم صالح ومحضهم نصيحته وذكرهم أنواع التذكير وخوفهم بأس الله، فآمن له المستضعفون من قومه، وكفر الملا منهم ولم يؤمنوا له، وقد أبان لهم أنه لا يسألهم أجراً على الهداية التي يسديها إليهم وإنما يطلب أجره من الله، ومن كان شأنه كذلك يكون أبعد من تهمة جر النفع إلى نفسه بريئاً من اتخاذ الدعوة طريقاً للكسب أو الرياسة، وألح على جمهورهم أن يطيعوه ولا يتبعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، لأن الإصلاح يفوت عليهم المنافع التي يجرونها لأنفسهم؛ فقال المستكبرون من قومه ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] استبعاداً لأن ينال الخير أحد سواهم واستكباراً عن متابعة رجل منهم لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء، وقالوا لمن استضعف منهم: ﴿أَتَقْلَمُونَ أَنْتَ صَاحِبًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] فأجاب الذين استكبروا ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] وطلبوا آية على صدقه فاتاهم بالناقة كما قدمنا وقال لهم ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وأمرهم ألا يمسوها بسوء وعليهم أن يذروها تأكل في أرض الله، فإن سلامتهم بسلامتها من إيدائهم.

ولم يثبت ثبوتاً قطعياً أنه أتى لهم بالناقة حسب اقتراحهم من الصخرة وأن الصخرة تمخضت عنها فخرجت منها سوداء الحديق حمراء الوبر خلفها فصيلها وأنها كانت إذا شربت أتت على الماء في يومها ثم تتجف لهم ويأخذون من لبنها ما يشاءون؛ لأن ذلك زائد عما في الكتاب الكريم.

ظلوا على ذلك مدة غير طويلة لم تحدد في الكتاب الكريم إلى أن خانوا بعهدهم وعقروا الناقة.

ورد في القرآن الكريم نسبة الناقة التي أوتي بها صالح إلى الله في قول صالح لهم ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذه الإضافة ذكرت تعظيماً لشانها. وقيل: لأنه خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها لم يخلق في الإبل سواها ناقة تختص بالشرب يوماً وأهل ذلك الماء يوماً آخر وتعرف يومها الخاص بها ولا تقرب الماء في يوم أهلها، كما قال تعالى: ﴿وَبَيَّنَّهٖمُ أَنَّ الْمَاءَ فِيسَٔ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ [القم: ٢٨] وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ومجموع آيات القرآن الواردة في شأن الناقة تدل على أن آية الله تعالى في الناقة ألا يتعرض أحد من ثمود بسوء لها في نفسها ولا في أكلها ولا في شربها في الماء الخاص

الذي كان قسمة بينهم وبين الناقة وأن الوعيد بالعذاب يحل بهم متى اعتدوا عليها في أحد هذه الأشياء. ولا مانع من أن تكون فيها آية أو آيات من وجه آخر.

وإني على قدم الاستعداد للإقرار بالوجه الذي يكون فيها متى جاء بنص قطعي وأضرب برأيي عرض الحائط.

بذل صالح الجهد في تذكير القوم بنعم الله تعالى عليهم ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين بعبادة غير الله تعالى والتكبر في الأرض.

أما الملاء المستكبرون من قومه وكانوا ذوي عناد ولهم الزعامة في الأمة فقد رأوا كبيراً عليهم أن يطيعوا رجلاً منهم ويصيروا سوقة مرؤوسين، لأن صالحاً سيصير بحكم هدايته إياهم إلى الله تعالى رئيساً يفزعون إليه في كل شأن، ويكون واسطة بينهم وبين ربهم ودالاً لهم على ما يقربهم إليه وناهياً لهم عما يبعدهم عنه؛ فذهب أولئك السادة إلى المستضعفين من قوم صالح وسألوهم متهمكين: (أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟) فكان جواب المستضعفين بالإيجاب قائلين: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. فقال المستكبرون: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] كما قدمنا.

يقول الألوسي في روح المعاني: وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو ابن لبيد والحجاب صاحب أوثانهم ورباب بن صُعر كاهنهم. ثم قال: ولم يزلوا في سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا جاء الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حره وجذبه وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجذب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء من الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، فأجمعوا على عقرها.

وأن امرأتين ذواتي مال وإبل يقال لإحدهما صدوق عرضت نفسها على رجل يقال له مصدع إن قتل الناقة؛ فأجاب، واسم الأخرى عزيزة لها بنات حسان عرضت إحدى بناتها على قدار بن سالف فأجاب: واستغويا سبعة رجال فكانوا تسعة، فأما مصدع فرمى الناقة بالسهم، وأما قدار فأنحى إليها بسيفه فكشط عن عرقوبها ثم نحرها، وذهب السبعة وراء سقبها، ففر منهم إلى الجبل ورغا ثلاثاً. وعن ابن إسحق أنه تبع السقب أربعة من التسعة فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله ووضعوا لحمه على لحم أمه واقتسم أهل البلد لحم الناقة وسقبها، فأنذرهم صالح بأن العذاب يحل بهم بعد ثلاث لما انتهكوا من حرمة الله، فكانوا يهزؤون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب، وأنذرهم بأنهم

يصبحون وجوههم مصفرة، وفي اليوم الثاني تكون وجوههم محمرة، وفي اليوم الثالث تكون وجوههم مسودة: آية هلاكهم، ثم يصبحهم العذاب اه من الألوسي باختصار.

أما أولئك الذين اقترفوا عقر الناقة وأعانوا عليه فقد تقاسموا بالله ليبتن صالحاً ويقتلونه وأهله ثم يقولون لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنهم لصادقون فيما يزعمون.

فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا إلى صالح يرصدون الفرصة للايقاع به وأهله فأهلكهم الله. قيل: إن الملائكة دمغتهم بالحجارة فأهلكتهم وأراد قومهم قتل صالح لأنهم اتهموه بقتلهم فمنعه قومه.

وقال البيضاوي: روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه - فقالوا - زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث ففرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمت، وهلك الباقيون في أما كنهم بالصيحة، كما أشار إليه قوله ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة، وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة. وكلٌ صحيح لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال، وقد تكون في مكان ويطنى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر.

والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب. فإذا دنا جسم مكهرب كهربائية موجبة من جسم مكهرب كهربائية سالبة اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق؛ فيحصل عن ذلك البرق الشديد ثم الرعد بسبب اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الاستفراغ وذلك هو الصيحة. وإذا كان الاستفراغ حصل من دون سحابة مكهربة كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل الكهربائية السالبة التي في الأرض بالكهربائية الموجبة التي في السحابة، ويكون الاستفراغ أو الاتحاد في جسم مما على الأرض؛ فيصهر إذا كان معدنياً لا سن فيه، ويحترق إذا كان شجراً أو إنساناً، ويفتت إن كان صخراً أو بناء. ومبلغ ما تدمره منوط بمقدار كمية الاستفراغ ومبلغ قوة الكهربائيتين، وعن ذلك تكون الرجفة وهولها.

وإذا حصل الاستفراغ بين سحابتين مكهربتين بكهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب حصل البرق أولاً ثم الرعد ثم المطر.

وسبب اختلاف الكهربائيتين في السحاب أن الجو مكهرب كهربائية موجبة وهو مشحون بها، والأرض مكهربة كهربائية سالبة. فإذا تكونت السحابة في مكان مرتفع في أعالي الجو كانت كهربائيتها موجبة. وإذا تكونت في مكان سافل قرب الأرض كانت كهربائيتها سالبة. فإذا دنت كل من السحابتين إلى الأخرى فبمقتضى الناموس المودع في الكهربائية من ميل كل من الكهربائيتين للاتحاد بالأخرى يكون التفاعل الذي هو بالاتحاد - وأما السحابتان اللتان كهربائيتاهما موجبة أو سالبة فإن الكهربائية فيهما تميل إلى الابتعاد عن الأخرى.

فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق^(١).

أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب الذي أدرَكهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين.

ويشبه قوله هذا في خطابه لقومه بعد هلاكهم ما يكون من الواحد منا إذا هلك له إنسان متصل به وقد حذره ذلك السبب الذي هلك به بأن يقول له: ألم أحذرك ما وقعت فيه؟ - وكذلك ما قال رسول الله ﷺ لأهل بدر أصحاب القليب إذ قال لهم «يا فلان بن فلان وفلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» وقد قالوا إن الله أحياهم حتى أسمعهم. قال العلماء: ومثل هذا إنما خص الله به أنبياءه.

وقد قال بعض المفسرين: إن صالحاً والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين. ويقول أهل حضرموت: إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية. أو هي فصيلة من أهل الأحقاف وهناك قبر يزعمون أنه لصالح.

وقال آخرون: أنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم وآخرون، أنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربي الكعبة.

وأقرب الأقوال عندي إلى التصديق أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحي فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم والعربي إنما يطلب الكلاً لرعي ماشيته والأرض ذات الماء. وفي الألوسي: أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين، أما الهالكون فكانوا أهل خمسة آلاف بيت.

(١) راجع ما كتب عن ذلك في النقد والرد بهامش صفحة ٥٦ وما بعدها

اقرأوا هذه الآيات :

سورة الأعراف: ﴿وإلى ثمود آحاهم صليحاً قال ينقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيري قد جاءكم بآية من ربكم هذيه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴿٧٣﴾ وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تنذرت من سهولها قصوراً وتنحشون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا نغوا في الأرض مفسدين ﴿٧٤﴾ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أن آمنوا بآية من ربهم قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴿٧٥﴾ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كفرون ﴿٧٦﴾ ففعلوا الناقة وعكوا عن أمر ربهم وقالوا يصليح أثنتا بما نعدنا إن كنت من المرسلين ﴿٧٧﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جثيم ﴿٧٨﴾ فتولى عنهم وقال ينقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي وصححت لكم ولكن لا تحبون الصريح ﴿٧٩﴾﴾.

سورة هود: ﴿وإلى ثمود آحاهم صليحاً قال ينقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيري هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴿١١﴾ قالوا يصليح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أن نتنبأ ما يعبد آبائنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴿١٢﴾ قال ينقوم أنه يشتر إن كنت على بينة من ربي وآتيني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيتكم فما تريدونني غير تحسير ﴿١٣﴾ وينقوم هذيه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴿١٤﴾ ففعلوها فقال تمتعوا في داركم ثلثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴿١٥﴾ فلما جاء أمرنا نجينا صليحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ﴿١٦﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جثيم ﴿١٧﴾ كان لم يبقوا فيها آلا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بداراً لهم ﴿١٨﴾﴾.

سورة الحجر: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر الحجر المرسلين ﴿٨١﴾ وآلنهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴿٨٢﴾ وكانوا ينحشون من الجبال بيوتاً آمين ﴿٨٣﴾ فأخذتهم الصيحة مصحين ﴿٨٤﴾ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٨٥﴾﴾.

سورة الشعراء: ﴿كذبت ثمود المرسلين ﴿١٤١﴾ إذ قال لهم أخوهم صليح ألا لنقوم ﴿١٤٢﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٤٣﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٤٤﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجي إلا على ربي

الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَهِئْنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنُونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِئْ بِآيَاتِكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَارُ اللَّهِ الَّتِي شَرَبْنَا وَلَكُم مِّزٌّ يَوْمَ مَقْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ تَأْخُذُكُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَقْرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ .

سورة النمل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَلْ وَبَيْنَ مَعْكَ قَالَ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ رَّهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَكَرَّوْا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِبَةً يَبَا طَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَاجْنَبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا بِتَقْوَتِ ﴿٥٣﴾ .

سورة فصلت : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَاجْنَبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا بِتَقْوَتِ ﴿٨﴾ .

سورة الذاريات : ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَمُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴿٤٥﴾ .

سورة النجم : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ .

سورة القمر : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٢﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِّثْنَا وَجِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَىٰ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٣﴾ أُنْمِلْ لِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٤﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٦﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شِرْبٌ مُّخْتَصِرٌ ﴿٢٧﴾ فَادَّوَّا صَاجِبَ فَمَطَىٰ فَمَقَرَّ ﴿٢٨﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٢٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْحَظِيرِ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣١﴾ .

سورة الحاقة : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢﴾ .

سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ .

كلمة أخيرة

الذي أقوله: إن صالحاً نصح لقومه وذكرهم بآيات الله وأقام لهم من الأدلة على صدقه في دعوته ما على مثله آمن الناس؛ ولكن قومه أبدوا غاية الجحود وقالوا له ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وكما قال الله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] ولا يكون قد هداهم الله إلا بأن أقام لهم الأعلام البينة على صدق صالح، فلما جحدوا بآيات ربهم وعصوا الرسول أُرسل الله إليهم الناقة آية؛ ولكنها لم تكن آية صدق صالح في دعواه ولا بد ولكنها آية فتنة وابتلاء كما قال تعالى ﴿إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَطِعْ﴾ [القمر: ٢٧] ولما كانت آية فتنة وابتلاء صح أن تكون آية مقارنة، لأن الله تعالى قد فرغ من أدلة صدق رسوله صالح. على أنني لا أمتنع أن يكون فيها آية أو آيات من وجوه أخرى والله أعلم.

إبراهيم عليه السلام

عدد مرات ذكره في القرآن - قصته - تبينه الشر للأصنام -
 المحاكمة - محاجته للملك - مواقفه - إخفاقه في هداية قومه -
 رحلاته - رحلته إلى مصر - دخوله بهاجر - ولادة إسماعيل من
 هاجر - الختان .

هو إبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح
 ابن أرفكشاذ بن نوح عليه السلام .

هذا هو نسبه الموجود في التوراة والتواريخ . . .

وقد جاء في الكتاب الكريم قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا
 ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] .

اختلف المفسرون في اسم أبي إبراهيم - فقال بعضهم إن لفظ «آزر» في الآية بدل من لفظ
 «أب» في «أبيه» ويكون مقول القول ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] إلخ وقال آخرون اسمه
 «تارح» وأن لفظ «آزر» كلمة ذم في لغته ومعناه «أعرج» قاله السهيلي في التكملة .

وقال آخرون أن معناه الخاطيء والخرف وفي التكملة «يا مخطيء يا خرف» وقيل
 معناه «يا شيخ» أو هي كلمة زجر عن الباطل «راجع ص ١٢ ج ٣ تاج العروس» .

أقول: بعيد في نظري أن يكون إبراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير
 أو عيب أو زجر كأعرج وخرف ومخطيء لأن والد إبراهيم عليه السلام لما هدده بقوله
 ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سريم: ٤٦] لم يكن له
 جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ
 سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي خَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] .

وقال آخرون: إن تارح اسمه العلم، وإن آزر وصف له كما قال البيضاوي .

أقول: إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي واسم وصفي، يكون معناه القوي
 أو الناصر أو المعين؛ لأن لفظ آزر من الأزر أي القوة والنصر والعون ومنه الوزير أي
 المعين «تاج العروس ص ١١ ج ٣» وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم،

ومن ذلك عازر وعزير وعازر في العبرية. فإن هذه المادة تفيد التقوية والنصرة والإعانة في تلك اللغة كما هي في اللغة العربية. قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] . . إلخ ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد.

وفي أسماء ملوك الآشوريين «أسر حدون» ولفظاً «أسر» و«آزر» في غاية القرب. وفيهم أيضاً «توخلات ابال ازار» وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ في اللغات السامية.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه: «آزر» اسم أبي إبراهيم في القرآن - سورة الأنعام الآية ٧٤ - ويظهر أن هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقاً على أنه أبو إبراهيم في غير هذا الموضع. كما أن تارخ أو تارخ قد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضاً؛ ولذلك لجأوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين ولكن هذا التحايل لا قيمة له.

ويقول مراتشي Prodrani Maracci، (ج٤ - ص ٩٠) أن صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة Agae التي وردت في تاريخ الكنيسة ليوز بيوس؛ إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التي ورد فيها هذا الاسم. أضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر في مواضع متعددة، ومهما يكن من شيء فإن ما ذهب إليه مراتشي بعيد الاحتمال.

ولمعرفة حياة آزر وابنه إبراهيم نحيل القارئ إلى مقال «إبراهيم» (ج ١ - ص ٢٥) الذي ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضوع أيضاً اه فنسك.

وقد علق على هذه النبذة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولي «مساعد أستاذ بالجامعة المصرية» في دائرة المعارف الإسلامية بما يأتي:

١- إطلاق القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم في هذه الآية غير صحيح، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمة «آزر» باختلاف إعرابها. وفي بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسماً لأبي إبراهيم. وفي بعضها يحتمل ذلك. وإليك طرفاً من بيان هذه القراءات والأعاريب:

كتبت الكلمة في المصحف هكذا «آزر» أتخذ أصناماً . . وقرئت «أزرأ» بالنصب مع التنوين و «آزر» بالنصب بلا تنوين و «آزر» بالضم. ففي القراءة الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة، والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري، والمعنى لأجل القوة تتخذ أصناماً؟ (كقوله تعالى) ﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩] وإن فسرت «آزر» في هذه القراءة باسم علم لم يقل إنه أبو إبراهيم. وعلى قراءة النصب بلا تنوين، قد تعرب نعتاً فلا

تكون «أزر» علماً بل صفة، فليست كذلك اسم أبي إبراهيم. وقد تعرب بدلاً أو عطف بيان فيحتمل أن تكون اسماً له. وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه؛ فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات - على نظر في بعضها - يتعين في اثنين منها ألا يكون «أزر» اسم أبي إبراهيم ويحتمل في اثنين؛ فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن «أزر» اسم أبي إبراهيم.

٢ - التسليم بأن أكثر الأوجه التي ذكرها من تصدوا للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين في اسم أبي إبراهيم لا تقع عندي موقعاً. فإني ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين:

أ- إطلاق القول بأنهم لجأوا إلى التحايل للتوفيق. مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف إجماعهم؛ لأنه إجماع ينتهي إلى خبر واحد أو اثنين منهم. فلم يتكلف التوفيق لا في تحايل ولا في غير تحايل. وقد نقل هذا الرأي في كثير من كتب التفسير المتداولة، فالإطلاق غير صحيح وكان الحق أن يقول منهم من وفق أو تصدى للتوفيق ومنهم من رد الرواية التاريخية.

ب - استعمال لفظ الحيلة والتحايل في وصف عمل المفسرين، فإن هذه الكلمات النازلة والتي يتصدى فيها للحكم الخاطيء على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين يتقنون بل هي من عبارات غيرهم.

٣ - من الإنصاف الصادق للعلم أن يعرف القارىء أن مراتشي قسيس إيطالي عاش في القرن السابع عشر. وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها إلا بعد إلحاق معارضات القرآن بها، وقد قدم لها بحث في القرآن والإسلام انتهى فيه إلى الحكم للمسيحية على الإسلام ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان «عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبد الله...» جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم.

وبعد: فإني ألاحظ - دون مجاوزة حدود النقد العلمي النزيه - أن المادة لم يكتب فيها شيء.

النقول الإسلامية غير محررة وفرض مراتشي مردود. فالواجب الحق في درس الآية أن نستوفي القول في كلمة «أزر» أو «أزر» هذه واستعمالها العربي وأصلها اللغوي والتاريخي على نحو علمي عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا «إن علم التفسير لم ينضج» ونحن أهل الواجب الأول في ذلك اه. كلام الأستاذ أمين الخولي.

أقول: ذهب فريق من المفسرين إلى أن «آزر» اسم صنم كان يعبد تارح والد إبراهيم وكان سادناً له.

قال السيد المرتضى الزبيدي في «ص ١٢ ج ٣ تاج العروس»: وروي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام: ٧٤] قال لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال: «وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلهاً أي أتتخذ أصناماً آلهة».

وقال الصغاني: التقدير أتتخذ آزر إلهاً، ولم ينتصب «أتتخذ» الذي بعده لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ولأنه قد استوفى مفعوله. ١ هـ.

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عبارة تاج العروس السابقة في أول كتابه «تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبي».

وهذا القول الذي قاله مجاهد أولى الأقوال عندي بالقبول. وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي في القرآن الكريم. ومما يستأنس له بأن «آزر» اسم إله أننا نجد في الآلهة القديمة عند المصريين الإله «أزوريس» ومعناه الإله القوي المعين. وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً في أسماء الآلهة.

وهذا جدول مواليد نوح إلى إبراهيم على عمود النسب: -

حام	ولد من أبيه	نوح	وهو ابن	٥٠٠ سنة
أرفكشاذ	ولد من أبيه	سام	وهو ابن	١٠٠ سنة
شالح	ولد من أبيه	أرفكشاذ	وهو ابن	١٣٥ سنة
عابر	ولد من أبيه	شالح	وهو ابن	٣٠ سنة
فالج	ولد من أبيه	عابر	وهو ابن	٣٤ سنة
رعو	ولد من أبيه	فالج	وهو ابن	٣٠ سنة
سروج	ولد من أبيه	رعو	وهو ابن	٣٢ سنة
ناحور	ولد من أبيه	سروج	وهو ابن	٣٠ سنة
تارح	ولد من أبيه	ناحور	وهو ابن	٢٩ سنة
إبرام	ولد من أبيه	تارح	وهو ابن	٧٠ سنة

المجموع ٨٩٠ سنة

وقد رأيتم الجدول الذي بين عمر كل واحد من نوح وأبنائه على عمود نسب إبراهيم - حين ولد ولده المذكور بعده كما ذكر في التوراة - ومن جميعها ترون أن بين ولادة إبراهيم وولادة نوح ٨٩٠ سنة. فإذا قلنا بما قالته التوراة من أن عمر نوح كله قبل الطوفان وبعده ٩٥٠ سنة كان إبراهيم قد عاصر نوحاً ستين سنة.

وفي اعتقادي أن اليهود في العصور الأولى دونوا ما كانوا يسمعون من الحكايات بدون ضبط ولا مراعاة للأزمان.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية «ص ٢٧ من المجلد الأول» ما يأتي نقلاً عن فنسك: - كان شبرنجر «ج ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها» أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم - كما في القرآن - مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة.

وجاء سنوك هجرونييه «ص ٢٠ وما بعدها» بعد ذلك بزمان فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال: إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي «الذاريات آية ٧٤ وما بعدها. الحجر آية ٥٠ وما بعدها. الصافات آية ٨٢ وما بعدها. الأنعام آية ٧٤ وما بعدها. هود آية ٧٢ وما بعدها. مريم آية ٤٢ وما بعدها. الأنبياء آية ٥٢ وما بعدها. العنكبوت آية ١٥ وما بعدها» هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل. ولم تذكر لإسماعيل صلة به وإلى جانب هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيراً «السجدة آية ٢٠ سبأ آية ٤٣. يس آية ٦» ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت. ولا أنه أول المسلمين.

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلماً وهو واضع ملة إبراهيم ورفع مع اسماعيل قواعد بيتها المحرم - الكعبة - «البقرة آية ١١٨ وما بعدها. آل عمران آية ٦٠، ٨٤. إلخ» وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عدا؛ فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصراً هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب «إبراهيم» وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس اه فنسك.

١ - والذي أقوله: إن هجرونييه وفنسك كغيرهما من أكثر المستشرقين الذين نصبوا أنفسهم لحرب الإسلام والصاق النقص به والعيب على القرآن الكريم وستر محاسنه ليظهره بمظهر لا يمتاز عن كتب النصارى المقدسة؛ فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

فالذي يعزوه كل من هجرونييه وفنسنك - ومن على شاكلتهما - أن يقولوا إن الإسلام في مكة غير الإسلام في المدينة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام.

فإن إبراهيم في مكة أو في القرآن المكي لم تكن له صلة بالعرب فليس أباً لهم، ولم يكن باني البيت، ولا صلة له بإسماعيل ولا بالعرب.

٢ - أن النبي لما جاء إلى المدينة كان يحمل أكبر الآمال في أن يؤمن به اليهود ويظاهروه على أمره. فلما أخلفوه ما أمله وكذبوه أراد أن يتصل بهم عن طريق إبراهيم، وعبر عن ذلك بـ «يهودية إبراهيم» وهم في ذلك كله على ضلال مبين.

(أما عن الأول) فقد أخطأ خطأ ظاهراً. فإني ألاحظ أن المستشرق فنسنك يقول: لم تذكر في السور المكية أية صلة لإسماعيل بإبراهيم. وذلك ترويحاً لفكرته التي يريد أن يصل إليها وهي: أن محمداً ظل بعيداً عن صلة العرب بإبراهيم وإسماعيل إلى أن هاجر إلى المدينة، فبدت له فكرة هي أن يصل حبل العرب الذين هو منهم باليهود عن طريق إسماعيل وإبراهيم، مع أنه لا صلة بينهم وبين إبراهيم وإسماعيل. وهذه الفكرة تهدم التوراة قبل أن تهدم القرآن لأنها ذكرت صلة إبراهيم بإسماعيل وأنه جد عدة قبائل في بلاد العرب. وحين عد السور المكية عمد إلى التي يذكر فيها إبراهيم مجرداً عن الصلة بإسماعيل والعرب؛ لذلك تخطى سورة إبراهيم وهي مكية وقد شهدت بعكس ما يقول، وآياتها شاهدة بأن إبراهيم وإسماعيل بניה البيت، وأنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية وأن يجنبه وبنه عبادة الأصنام. وإبراهيم يذكر أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، ويدعو الله أن يرزقهم من الثمرات، ويحمد الله أن وهب له إسماعيل وإسحق. واقرأوا قوله تعالى: في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتَتْهُ مِنْ دُونِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ٤١﴾.

ولا يمكن أن يمر بخاطري أنه لم يعرف هذه الآيات ولم يلتفت إليها؛ بل أكبر اعتقادي أنه تخطاها عمداً غاضاً النظر عما تقضي به الأمانة في سبيل تأييد نظريته.

(وأما عن الأمر الثاني) فإن النبي ما أمل أن يعتز باليهود، ولكن لما كانوا أهل توحيد ويجانبون الأصنام ويعادون أهلها، والنبي له ذكر عندهم في كتبهم لم تزل آثاره إلى اليوم ناطقة تنادي عليهم بأنهم يكتمون ما أنزل الله - كان يتوقع أن يؤمنوا فلما جحدوا كانوا عنده بمثابة غيرهم فقط. ومعلوم أن القرآن يرفض أن يكون إبراهيم يهودياً لأن اليهود هم أبناء إسرائيل وإسرائيل إنما هو ولد إسحق بن إبراهيم، وغريب أن يكون المتقدم معزوا وتابعا لولد ولده الذي لم يره ولم يعاصره ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] سورة آل عمران.

بقي أمر ثالث يعزوه هؤلاء المستشرقون: وهو أنهم ينكرون أن يكون إبراهيم أو إسماعيل رسولاً إلى العرب مستندين إلى قوله تعالى ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ لَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] وأشباهاها إذ لو كان إبراهيم قد دعا العرب إلى دينه أو إسماعيل قد دعا العرب إلى دين إبراهيم لما صح ذلك القول.

والجواب على هذا: أن المفسرين يقولون إن معنى ذلك أن الموجودين من هؤلاء القوم لم يباشرهم رسول يبلغهم دين الله ويهديهم إلى الدين الحق - فلا تناقض - لأن تبليغ إسماعيل أو إبراهيم إنما كان لأبائهم.

أما أنا فأجيب بأن العرب كان دين كثير منهم عبادة الأوثان وكان لهم قرايين يقدمونها إليها، وقد سيبوا السوائب ويحروا البحائر ووصلوا الوصيلة، وستوا لهم قواعد ما أنزل الله بها من سلطان. فجاء محمد لينذر هؤلاء القوم الذين يدعون أنهم على دين وأن الله قد أمرهم بما هم عليه مع أن الله ما أرسل إليهم نذيراً شرع لهم هذه الشرائع الباطلة، لأنهم كانوا إذا ظلموا أنفسهم بشرائعهم الباطلة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. وقد ناقشهم الله في ذلك ورد عليه في غير موضع من القرآن كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ففي سورة الصافات بعد أن ذكر دعاوى الوثنيين بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا

نَذْكُرُونَ ﴿[الصفات: ١٤٩ - ١٥٥] ففي هذه الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقوالهم والتضعيف لعقولهم واتهامهم مع استهزاء بهم وفي قوله ﴿قَاتُوا بِكَيْبِكُمْ﴾ [الصفات: ١٥٧] أي الناطق بصحة دعوكم والأمر فيه للتعجيز وإضافة الكتاب إليهم للتهكم.

وفي قوله ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الصفات: ١٥٦] إضراب انتقالي من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً أي بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي وهو لا يوجد عندهم .

فالمعنى في هذه الآيات مثله في قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ﴾ [الأحقاف: ٤] تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي، فهو من جملة القول أي اثبوني بكتاب إلهي كان ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ [الأحقاف: ٤] الكتاب أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿أَوْ أَتُكْرَرُونَ مِنْ عَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] أي بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة، وهكذا كل آية وردت في المعنى .

وتدل العبارة التي نقلها «فنسنك» عن «هجروني» بفحواها على أن إبراهيم لم يذكر بأنه حنيف إلا في السور المدنية، وهو خطأ أيضاً، لأنه ذكر بأنه كان حنيفاً في سورة الأنعام مرتين وفي سورة النحل كذلك وهما مكيان.

سورة الأنعام مكية: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾﴾ .

سورة النحل مكية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَآ تَنَزَّلَتْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣] . من ذلك كله يتبين القارئ المنصف فساد ما يقوله المستشرقون غير المنصفين .

وهاكم بيان السور والآيات التي ذكر فيها اسم «إبراهيم» في القرآن:

السورة	رقمها	أرقام الآيات
البقرة	٢	١٣٣، ١٣٢، ١٣٠، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤
		٢٦٠، ٢٥٨، ١٤٠، ١٣٦، ١٣٥
آل عمران	٣	٩٧، ٩٥، ٨٤، ٦٨، ٦٧، ٣٥، ٣٣
النساء	٤	١٦٣، ١٢٥، ٥٤
الأنعام	٦	١٥١، ٨٣، ٧٥، ٧٤
التوبة	٩	١١٤، ٧٠
هود	١١	٧٦، ٧٥، ٧٤، ٦٩
يوسف	١٢	٣٨، ٦
إبراهيم	١٤	٣٦
الحجر	١٥	٥٢
النحل	١٦	١٢٣، ١٢٠
مريم	١٩	٥٨، ٤٦، ٤١
الأنبياء	٢١	٦٩، ٦٢، ٦٠، ٥١
الحج	٢٢	٧٨، ٤٣، ٢٦
الشعراء	٢٦	٦٩
العنكبوت	٢٩	٣١، ١٦
الأحزاب	٣٣	٧
الصفافات	٣٧	١٠٩، ١٠٤، ٨٣
ص	٣٨	٤٥
الشورى	٤٢	١٣
الزخرف	٤٣	٢٦
الذاريات	٥١	٢٤
النجم	٥٣	٣٧
الحديد	٥٧	٣٦
الممتحنة	٦٠	٤
الأعلى	٨٧	١٩

واعلموا أن قصة إبراهيم ترتبط بها قصص أخرى كقصة لوط؛ لأن إبراهيم ولوطاً كانا متعاصرين ولوطاً ابن أخ لإبراهيم. قد آمن لوط بعمه إبراهيم كما قال: ﴿فَقَامَ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] وإسماعيل كذلك رزق به إبراهيم وهو ابن ست وثمانين سنة^(١).

(١) على ما في الآية ١٦ من الإصحاح ١٦ - تكوين.

وقد عاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة^(١).

فيكون إسماعيل قد عاصر إبراهيم تسعاً وثمانين سنة، واسحق ولد لإبراهيم وهو ابن مائة سنة؛ فيكون قد عاصر أباه خمساً وسبعين سنة^(٢).

أما لوط فقد ذكر في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة.

وهاكم أرقام الآيات في السور التي ذكر فيها:

السورة	رقمها	أرقام الآيات
الأنعام	٦	٨٦
الأعراف	٧	٨٠
هود	١١	٨٩، ٨٢، ٧٧، ٧٤، ٧٠
الحجر	١٥	٥٨، ٥٧
الأنبياء	٢١	٧٤، ٧١
الحج	٢٢	٤٣
الشعراء	٢٦	١٦٧، ١٦١، ١٦٠
النمل	٢٧	٥٦، ٥٤
العنكبوت	٢٩	٣٣، ٣٢، ٢٨، ٢٦
الصافات	٣٧	١٢٣
ص	٣٨	١٣
ق	٥٠	١٢
القمر	٥٤	٣٤، ٣٢
التحريم	٦٦	١٠

وإسحاق ذكر ست عشرة مرة في القرآن الكريم. وإليك أرقام الآيات في السور التي ذكر فيها:

السورة	رقمها	أرقام الآيات
البقرة	٢	١٤٠، ١٣٦، ١٣٣
آل عمران	٣	٨٤
النساء	٤	١٦٣
الأنعام	٦	٨٦
إبراهيم	١٤	٣٩
مريم	١٩	٥٤
الأنبياء	٢١	٨٥
ص	٣٨	٤٨

(١) كما في الآية السابعة من الإصحاح الخامس والعشرين - تكوين.

(٢) راجعوا آية ٥ من الإصحاح الحادي والعشرين - تكوين.

وذكرت قصة إبراهيم في عدة مواضع من القرآن، تارة باختصار، وتارة بالتطويل، وتارة بذكر شأن من شؤونه في سورة، ثم شأن آخر من شؤونه في سورة أخرى ومثل ذلك في شأن لوط وإسماعيل.

قصة إبراهيم

تتلخص في أنه كان فتى من أهل «فدان آرام» بالعراق^(١) وكان قومه أهل أوثان. وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها ممن يعبدها - كما نص على ذلك في إنجيل برنابا - وأن إبراهيم كان قد أنار الله بصيرته وهداه إلى الرشد؛ فعلم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر، ولا تسمع نداء ولا تجيب دعاء، ولا تضر ولا تنفع، وأنها لا تباين بنات صنفها من سائر الخشب، وأن أباه هو الذي يصنعها.

اقرأوا قوله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ عَاجِبُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبْدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

تبئيت إبراهيم الشر للأصنام

وأن إبراهيم نوى الشر في نفسه لهذه الآلهة التي جمدوا على عبادتها ولم تفدهم موعظة ولا برهان عن الغواية بها، فأقسم في نفسه أن يلحق بها الأذى.

وهذه طريقة أراد بها أن يفهم القوم مركز آلهتهم. ويقيم لهم الحجة عملاً على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها، أو تكسبهم خيراً إذا عبدوها؛ لأن البرهان العملي أوقع في النفس وأرجى أن يحرز القبول.

فقال في نفسه:

سورة الأنبياء: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا

(١) كما في التوراة.

كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّمَا لِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ .

المحاكمة

سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آغْيٍ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَتَتْ فَكَلَتْ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمُ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ .

حينئذ ظهرت حجة إبراهيم واضحة. ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم الحجة. قال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ .

فلما أعييتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً: عمدوا إلى ما يلجأ إليه القوي الجبار الذي لا حق معه بإزاء المحق الضعيف.

سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ .

وتوجد طريقة أخرى في احتجاج إبراهيم لدينه وتزييف دين قومه أتى بها على سبيل التدرج في الإلزام، ويرى فريق من الناس أنها تدرج في تكوين العقيدة. ذلك أن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما. فأراد أن يلزمهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة. وإنما الإله هو الذي خلقهن وخلق السموات والأرض. وبيده ملكوت كل ما فيهما. وأن التماس الصحة والعافية والرزق من غيره تعالى باطل.

اقرأوا قوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَادَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ يَلْعَنُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَرْضَ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ رَبِّي يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي

هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَفْقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَيْتَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَنتُمْ أَفْرَاقُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

وهناك رأي آخر: وهو أنه حين التفت إلى النظر في المعبودات لم ترقه الأصنام فظن
النجم هو الإله فلما أفل لم يعجبه فانتقل إلى القمر، فلما أفل انتقل إلى الشمس، فلما
أفلت علم أن الإله سوى هذه كلها. وقد قصها برنابا في إنجيله عن المسيح عليه السلام.
اقرأوا قصة إبراهيم كاملة في الآية ٢٥ من الفصل ٢٣ إلى آخر ٢٥ من برنابا.

محااجة إبراهيم للملك

تشعرنا قصة إبراهيم المحكية في القرآن أن هؤلاء القوم كانوا يعبدون ملوكهم مع
آلهتهم.

يدل على ذلك المحااجة التي كانت بين إبراهيم وبين الملك فأحب الملك أن يرجع
إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه وأن يعبده وآلهته.

وقد قص الله ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَأُمِّيْتُ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ فَاِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

تعدد مواقف إبراهيم

وقد كانت مواقف إبراهيم مع قومه متعددة، فتارة يحاج والده وتارة يحاج الجمهور،
وتارة يحاج الملك، وتارة يفعل ما يستفزهم به إلى محااجته كتكسير الأصنام ليكلموه في
شأنها إلى أن أوقدوا النار لتحريقه؛ فنجاته منها بعد أن ألقي فيها؛ فهجرته. انظروا إلى
قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُنَّ آلِهَةٌ دُونُ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَلَوْلَا عَنْتُ مُذْرِبِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَهُ الْهَيْمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ حَرًّا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَنْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ اتَّعَبُودُونَ مَا لَنْتَحُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَالْقَوْهُ فِي الْجَعِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ *

وهذه الآيات أيضاً تدل على أنهم كانوا يأتون بالطعام إلى آلهتهم ولعل السدنة كانوا يأخذونه ويوهمونهم أن آلهتهم رضى عنهم فأكلت طعامهم.

اقرأوا قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْصُرُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجْزِيهِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَفْنِي بِالْصَّلَاحِ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّ لَئِيْلٍ كَانُ مِنَ الْغَائِلِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ *

قصة إبراهيم في القرآن تدل على أنه كان حليماً رقيق القلب عطوفاً رؤوفاً باراً بوالده مع فسوته عليه. وإنه كلما باعد والده بينه وبينه تلطّف هو في المقاربة وترفّق في دعوته وهدايته وتحذيره. ولكن ذلك كله لم يقدّر لغلبة الشقاء عليه.

سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَكَّنَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيْثُيَا ﴿٤٧﴾ وَأَعْرَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ *

إخفاق إبراهيم في هداية قومه

إن إبراهيم صلوات الله عليه بعد أن جهد الجهد كله في سبيل هداية قومه وبعد أن

حاول أن يقنعهم بكل وسائل الإقناع؛ لم يحل من قومه بطائل، وجفاه قومه وألقوه في النار فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً عليه. وهدده أبوه بأن يرجمه إذا استمر على جحد الأصنام. ولم يؤمن له من قومه سوى زوجه سارة ولوط بن هاران بن تارح.

رحلته إلى أور الكلدانيين ثم حاران أو «حران»

تبرأ إبراهيم من أبيه. ولم يطب له المقام بين أهله وقومه. فذهب إلى أور الكلدانيين^(١) ثم حاران. وكان إبراهيم قد ظفر من أبيه بعدة: هي أنه سيؤمن به فاستغفر الله له. ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه فتبرأ إبراهيم منه.

يدل على ذلك قوله تعالى في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَتْ آسِئَةً لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤).

رحلته إلى فلسطين

رحل إبراهيم بعد ذلك إلى فلسطين غربياً ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط، ومع لوط زوجه كما قال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿فَقَامَ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْحٍ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦).

وقد ورد أن عثمان لما هاجر بزوجه رقية بنت رسول الله إلى الحبشة قال النبي ﷺ: «إن عثمان أول مهاجر بأهله بعد لوط» وسكن إبراهيم ولوط في تلك الأنحاء وكانت أرض الكنعانيين. وأقام في «شكيم» وهي مدينة «نابلس» ولكنه لم يطل به المقام؛ بل كان ينتقل نحو الجنوب كما تدل على ذلك عبارات التوراة في رحلته إلى مصر ثم إلى أرض أبي مالك.

رحلته إلى مصر

حدث جذب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميه الرومان «هكسوس» فأظهر أن التي معه أخته. وأراد الملك أخذها زوجة له فأري في نومه أنها ذات بعل فعاتب إبراهيم وأعطاه أموالاً وماشية وجواري وعبيداً، وعاد إبراهيم كما بدأ وأنا أستبعد ما نصته التوراة في ذلك^(٢) وأحذر كل مؤمن أن يصدق

(١) مدينة كانت قرب الشاطئ الغربي للفرات.

(٢) نقد اللجنة (الموضوع الثامن)

قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام والسيدة سارة زوجته مع الجبار.

قال في صفحة ٦٣ «رحلته إلى مصر»: -

= حدث جذب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميه الرومان «هكسوس» فظهر أن التي معه أخته وأراد الملك أخذها زوجة له، فأري في منامه أنها ذات بعل فعاتب إبراهيم وأعطاه أموالاً وماشية وجوازي وعبيداً، وعاد إبراهيم كما بدأ، وكان لوط مع إبراهيم .. الخ ثم قال: يراجع الإصحاحات ١٢ و ١٣ - تكوين.

وقال في صفحة ٧٥ ما نصه «مسألان» - أي من الطبعة الأولى -

الأولى: إن كان صحيحاً ما جاء في عبارة التوراة من أن إبراهيم اتفق مع سارة على أن يقول «إنها أختي» وتقول هي إنه أخي» وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحریم الأخت على أخيها، وهذا هو الذي أميل إليه، وحينئذ لا حاجة إلى قول (أنها أخته في الدين) لأن أولئك المتأولين ما دعاهم إلى التأويل إلا اعتقادهم أن الشريعة التي كان عليها إبراهيم كانت كشرعية موسى ﷺ من تحریم الأقارب ديناً كالأخت والعمة، ثم أيد ذلك بأن موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب - إسرائيل الله - كان متزوجاً عمته كما في الإصحاح ٢٦ من سفر العدد.

وقال في صفحة ٤٠١ ما نصه «تنبيهات» إلى أن قال: -

الثاني: قدما ما ذكرته التوراة من أن إبراهيم حين تغرب في مصر قال عن سارة إنها أخته، فأخذها الملك وقبل أن يقربها ضويق في منامه بسببها، وأنه عاتب إبراهيم لأنه قال إنها أختي ولم يقل هي زوجتي، وفعلًا مثل ذلك مع أبي مالك (ملك جرار) واشتد في عتاب إبراهيم.

وقد تأملت في المسألتين فوجدتهما بعيدتي الحصول، لأن سارة ذهبت إلى مصر مع إبراهيم وسنها نحو سبعين سنة، ومن كانت في مثل تلك السن لا يطعم فيها طامع، وعندما كانا في جرار كانت سنهما تسعين سنة، وقبل ذلك بسنة قد قالت عن نفسها «عَوْرٌ عَقِيمٌ» [الذاريات: ٢٩] وقالت «إِنَّكَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا» [هود: ٧٢] وبعيد في مجرى العادة أن يطعم ملك مترف في بنت تسعين!

(رأي اللجنة)

هذا ما ذكره في هذه القصة. وقد اعتمد في بيانها على التوراة، واستبعد حصولها من أجل أن سارة كانت سنها إذ ذاك نحو سبعين سنة، ومثلها لا يطعم فيها طامع، وقرر أنه يميل - على فرض صحة هذه القصة - إلى أن قول إبراهيم (أنها أختي) محمول على الحقيقة فإنهما كانا أخوين حقيقة، وكان زواج الأخت جائزاً إذ ذاك فلا داعي إلى التأويل بأنها أخته في الإسلام.

وأنا نلاحظ عليه اعتماده في هذه القصة على التوراة مع أنها ذكرت ووردت في الأحاديث الصحيحة سيأتي مخالف لسياق التوراة، وهذه الأحاديث تثبت وقوعها وتدل على خطأ ما رواه ومال إليه من أن سارة كانت أخت إبراهيم حقيقة.

وقبل أن نورد تلك الأحاديث ونبين من خرجها من أئمة الحديث - رأينا أن نبدي ما لحقنا من الدهشة لعدم الإشارة لتلك الأحاديث المتعلقة بهذه القصة في مثل هذا الكتاب الذي يدرس لعلماء التخصص في فرق الوعظ والإرشاد - ولذلك أخذنا نلتبس الحكمة في تركه الإشارة لتلك الأحاديث ونطلب المعاذير فاجتمع لدينا احتمالات أربعة نذكرها ونبدي رأينا في كل احتمال منها.

الأول: أنه لم يقف على تلك الأحاديث التي وردت في هذه القصة. ونرى أنه احتمال بعيد، إذ يستبعد جداً من أستاذ فاضل متخصص في التاريخ نصب نفسه لتأليف كتاب في قصص الأنبياء ليدرس للعلماء =

= المتخصصين في الوعظ والإرشاد ألا يقف على تلك الأحاديث، خصوصاً وأنه جعل صحيح البخاري من الكتب التي رجع إليها وقت التأليف وهي مذكورة فيه، وأيضاً فإن كتب التاريخ المشهورة كتاريخ ابن الأثير، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير، ذكرت هذه القصة على نحو ما وردت به الأحاديث، بل صرح ابن كثير بالنقل عن البخاري، وأيضاً قد استدلل المؤلف نفسه بحديث الشفاعة في قصة نوح.

الثاني: أنه وقف على تلك الأحاديث ورأى فيها مطعناً أخرجها عن دائرة الاحتجاج بها في الحوادث التاريخية، وهو بعيد أيضاً، لأنه لو كان كذلك لذكرها ونبه على ضعفها، وكان ذلك خيراً من اعتماده على التوراة المعلوم أمرها من حيث المقبول والرد، وأفيد من الوجهة العلمية.

الثالث: أنه وقف على تلك الأحاديث ولم يعلم فيها مطعناً، ولكنه يرى أن الأحاديث - وإن صحت لا تصح مصدراً للحوادث التاريخية. وهذا الاحتمال لا يتصور أن يصدر من مثل فضيلة الأستاذ بل لا يصح أن يصدر من مسلم.

الرابع: أنه يعلم تلك الأحاديث ويعلم أنه لا مطعن فيها، ويعتقد أن الأحاديث الصحيحة أهم مصدر بعد كتاب الله للحوادث التاريخية؛ إلا أنه حين تدوينه لهذه القصة سها عن تلك الأحاديث. وهذا الاحتمال هو الذي نميل إليه والله أعلم بحقيقة الحال.

وإننا نورد تلك الأحاديث ونبين من خرجها:

الأول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله: قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري، فلما دخل أرضه. رآها بعض أهل الجبار فاتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتى بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها ادعي الله أن يطلق بيدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين فقال ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطتها هاجر «قال» فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها مهيم فقال خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً» قال أبو هريرة فتلك أمكم يابني ماء السماء.

هذا الحديث أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من طريقين: مرفوعاً وموقوفاً. وقال الحافظ ابن حجر: إن ابن سيرين كان غالباً لا يصرح برفع كثير من حديثه.

وأخرجه أيضاً مرفوعاً من طريقين في كتاب النكاح، وأخرجه أيضاً من طريق في كتاب البيع. وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً. واللفظ الذي ذكرناه له. وأخرجه أحمد بسياق مخصوص. قال الحافظ ابن كثير: وقال ابن حاتم حدثنا أبي حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد. قال قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث... إلخ.

الثاني حديث الشفاعة في فصل القضاء يوم القيامة: هو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم. وفيه «أنه حينما يأتون إبراهيم عليه السلام =

يطلبون منه ذلك يقول لست هناكم إني كذبت ثلاث كذبات: قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لامراته أخبريه أنني أخوك».

أخرج هذا الحديث البخاري من عدة طرق في أبواب متعددة - أخرج في تفسير سورة البقرة عن أنس، وفي تفسير سورة بني إسرائيل عن أبي هريرة، وفي كتاب الرقاق عن أنس، وفي التوحيد عن أنس من طريقين. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة. ورواه أحمد عن أنس من طريقين، وعن ابن عباس من طريقين، وأخرجه ابن خزيمة عن أنس. وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود والطبراني من حديث عباد بن الصامت. وأخرجه ابن أبي شيبة من حديث سلمان الفارسي. وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة. وأخرجه أبو عوانة من رواية حذيفة عن أبي بكر الصديق.

ثم إنه روي مطولاً ومختصراً، فإن في بعضها الاختصار على القول بأن كل رسول يذكر خطيئته، وفي بعضها التصريح بالخطيئة بأن يقول إبراهيم كذبت ثلاث كذبات وفي بعضها يبين الكذبات الثلاث كما ذكرناه أولاً، وفي بعضها زيادة قول النبي ﷺ «ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله»، وما حل: كجادل، وزناً ومعنى.

هذا ما وقفنا عليه من الأحاديث الصحيحة المثبتة للقصة، والدالة بصريح العبارة على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم حقيقة. وهي كما ترى تكاد تكون القدر المشترك المثبت لأصل القصة والدال على أن سارة لم تكن أخت إبراهيم عليه السلام حقيقة يكون متواتراً، فلسنا في حاجة إلى أن ندعي كما ادعى ابن الصلاح من أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم قطعي الثبوت لتلقي الأمة لكتابتهمما بالقبول، خصوصاً وأن الأكثرين لم يوافقوه على دعوى القطعية. والمحققون منهم فصلوا تفصيلاً حسناً يعلم من محله ولا حاجة لنا في بيانه.

بل نحن ننزلنا إلى أبعد حد ممكن، فراجعنا الأحاديث التي انتقدت على البخاري من قبل بعض الحفاظ كحافظ عصره الدارقطني - على الرغم من الإجابة عن معظمها - فلم نجد هذه الأحاديث التي ذكرناها لإثبات هذه القصة من ضمن الأحاديث المنتقدة، فلم يبق شك في صحتها ولا مجال للظن فيها.

لا يقال إن في هذه الأحاديث نسبة الكذب إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد قرر علماء التوحيد: أن ما ورد وفيه نسبة المعصية إلى نبي من الأنبياء - فإن كان مقطوعاً به وجب تأويله، وإن كان منقولاً بأحد وجب رده. وقال الإمام الرازي في تفسيره في شأن الحديثين اللذين ذكرناهما ما نصه: فلأن يضاف الكذب إلى الرواة أولى من أن يضاف إلى الأنبياء.

لأننا نقول هذا من قبيل المعارض، وهو نوع من البدع. وإبراهيم عليه السلام قد صرح بذلك إذ قال «فإنك أختي في الإسلام» وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه. وأما كلام الإمام الرازي فمردود، وقد رد عليه العلماء وخطأوه وأثبتوا صحة الأحاديث، وهو نفسه قال: فإن صح فهو محمول على المعارض.

ومن راجع ما سبق لنا من بيان من خرج هذه الأحاديث قطع بصحتها، بل تواتر القدر المشترك فيها والله أعلم.

ولا يقال: إذا كان الصادر من إبراهيم عليه السلام ومن غيره من باقي الرسل المذكورين في حديث الشفاعة ليس بخطيئة، فلم امتنعوا من الإقدام على الشفاعة وأظهروا حالة الخوف من الله تعالى =

= لصدور ما ذكروه عنهم؟ لأننا نقول: لأن ما صدر عنهم وإن لم يكن خطيئة في الواقع فهو صورة خطيئة. وعدم صدوره بالنسبة لمقام الأنبياء أولى من صدوره «من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين» فلم يروا في أنفسهم بالنسبة إلى ذلك أهلية الشفاعة العظمى التي هي من خصائص سيد الخلق على الإطلاق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

أما ما ذكره في وجه الاستبعاد من أن سن سارة إذ ذاك كانت سبعين، فلم يثبت ذلك من طريق صحيح. وإنما الثابت قطعاً أنها قامت حينما بشر إبراهيم عليه السلام بإسحاق ﴿يَكُونَنَّ لَهُ الْإِثْنَانُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] واختلفوا في سنّها إذ ذاك فقيل تسعون وقيل غير ذلك.

وذكر ابن كثير في تاريخه نقلاً عن أهل الكتاب: أنه لما كان لإبراهيم بيلاد بيت المقدس عشرون سنة وهبت السيدة سارة له هاجر ودخل بها وجاءت بإسماعيل عليه السلام، وذكر أيضاً أن ولادة إسماعيل كانت قبل ولادة إسحاق بثلاث عشرة سنة.

ومعلوم أن هاجر أم إسماعيل هي التي قدمها الجبار خادمة لسارة. فإذا صح ما ذكرناه وكان مكث إبراهيم في بيت المقدس المدة الموضحة بعد خروجه من مصر مباشرة لم يتخللها مدة أخرى تكون سنّها حينما كانت عند الجبار سبعاً وخمسين سنة.

وعلى تسليم أن سنّها كانت إذا ذاك سبعين - لا وجه للاستبعاد. لأن مثل هذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التي كانت في تلك الأيام تعتبر سن شباب لا سن شيخوخة، خصوصاً بالنسبة للسيدة سارة التي أعطيت حظاً كبيراً من الحسن والجمال - كما هو نص الحديث الأول - ولأنّها أعطيت حظاً كبيراً من التقوى وعدم الميل إلى الشهوات ولا يخفى ما في هذا من حفظ القوى. وكما ذكره الحافظ ابن حجر: أعطي يوسف وأمه شطر الحسن يعني سارة.

هذا ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه في نسب سارة - ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة - فقال «قيل إنها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمّه هاران، ومن قال إنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن العبسي فقد أبعد النجعة وقال بلا علم ومن ادعى أن ذلك كان مشروعاً فليس له على ذلك دليل. ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لاتعاطاه...» اهـ. والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

ذكرت في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما ذكرته التوراة إلى آخر ما نصه أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة، وقد رابهم من شأني أنني تركت الأحاديث ونصصت ما قالته التوراة، وأبدوا احتمالات أربعة:

١ - أنني لم أقف على تلك الأحاديث التي وردت في هذه القصة واستبعدوا ذلك.

٢ - أنني وقفت على تلك الأحاديث ورأيت فيها مطعناً أخرجها عن دائرة الاحتجاج... الخ واستبعدوا ذلك أيضاً.

٣ - أنني وقفت على تلك الأحاديث ولم أعلم فيها مطعناً ولكني لا أراها تصلح مصدراً للحوادث التاريخية.

٤ - أنني أعلمها وأعلم أن لا مطعن فيها وأنها أهم مصدر بعد كتاب الله تعالى للحوادث التاريخية إلا أنني سهوت عنها. ثم كان من عطفهم وحسن ظنهم أن مالوا إلى هذا الفرض وهو حسن ظن بي أشكر حضراتهم عليه.

بعد ذلك سردوا حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري في حديث الأنبياء مرفوعاً وموقوفاً وأخرجه أيضاً مرفوعاً من طريقين في كتاب النكاح، وأخرجه من طريق في كتاب البيع، وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً. وأخرجه أحمد بسياق مخصوص على شرط الصحيح؛ وأخرجه النسائي والبراز وابن حبان، إلى آخره. ما نصوا، ثم حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري من عدة طرق وأخرجه مسلم وغيره إلى آخر ما قالوا وكلها تثبت كذب إبراهيم بقوله: أختي... إلخ. والذي أجيب به حضراتهم أنني أعلم هذه الأحاديث، وأعلم أنها من الأحاديث التي صح إسنادها، ولكنها ترمي إلى إسناد الكذب إلى إبراهيم، فهي تنص على وجوب اعتقاد الكذب في جانب إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والأحاديث وإن كانت صحيحة الإسناد لا يمكن أن تكون برهاناً على إثبات أمر اعتقادي.

نقل صاحب الفتح - ج ٨ ص ٤٣١ - قول العلماء «الأحاديث إذا كانت في مسائل عملية يكفي في الأخذ بها بعد صحتها إفادتها الظن، أما إذا كانت في العقائد فلا يكفي فيها إلا ما يفيد القطع: متناً وسنداً».

وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم لوجه: -

١ - أن إبراهيم هو كريم ومن أخص الصفات الواجبة للأنبياء الصدق. اللهم إلا أن يكون من يريد إثبات الكذب واتصاف إبراهيم به ممن يجوز على أنبياء الله الكذب ولست منهم.

٢ - أن الله تعالى يقول ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مریم: ٤١] - فقد رأيت أن الله في هذه الآية لم يكتف بإسناد الصدق إليه، بل عبر عن ذلك بصيغة المبالغة، والصدق من خلقه الصدق وجري ذلك منه مجرى الأمور الطبيعية التي لا تتغير.

٣ - قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وما كنت لأسمح لنفسني أن أنظم إبراهيم في سلك الذين لا يؤمنون بآيات الله بنسبة الكذب إليه - ولو على سبيل الصورة - لأن أقل ما فيها أن أسيء الأدب في حقه بنسبته إلى ذلك الوصف الدنيء ولو صورة.

٤ - قال الله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٢] شاكراً لَأَتَمِّمَ أَجْرَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].

وما كان الله ليحتج كذاباً، ولا من الهداية إلى الصراط المستقيم أن يكون المهدي كذاباً. ٥ - يقول الله لمحمد ﷺ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وما كان الله ليأمر خاتم أنبيائه باتباع ملة رجل كذاب.

٦ - أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يقول للزارين عليه أنه هدى إلى ملة إبراهيم بقوله ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٧ - قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. وليس من رشد الرجل في شيء أن يكون كذاباً.

٨ - بعد أن ذكر الله تعالى إبراهيم وما حاج به قومه وذكر معه سبعة عشر نبياً قال لرسوله محمد ﷺ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْسَدُ﴾ [الأنعام: ٩٠] فهل كان الله تعالى يأمره بالافتداء برجل كذاب؟ =

٩ - قال الله تعالى في إبراهيم ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الْفَالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].
 قال البيضاوي في تفسير هذه الآية بأن الله حبه إلى الناس حتى أن أرباب الملل يتولونه ويشنون عليه.
 ١٠ - وقال تعالى ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣، ٨٤]: قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: أي وفقني للكمال في العمل لأنظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذي لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

١١ - قال الله في إبراهيم ﴿وَرَزَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨] أي أبقينا له دعاء الناس في الزمن الباقي وتسليمهم عليه أمة بعد أمة وسلامهم الحسن وثناءهم عليه، فأني ثناء حسن يبقى لرجل ينبر بأنه كذاب قارف الكذب ثلاث مرات أوسئاً في الدنيا، والكذب ينتظره أيضاً يوم القيامة وقد قال المفسرون في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨] إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل بين الأمم.

١٢ - سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال «نعم» قيل: أيكون بخيلاً؟ قال «نعم» قيل: أيكون كذاباً؟ قال «لا» والكذاب جريء على الله جبان أمام الناس فهو يستخفي من الناس بكذبه ويجابه الله بلا حياة، وما كنت بالذي يصم إبراهيم بذلك.
 هذا وقد نص العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته آحاداً وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء يرد، وقد أورد ذلك حضراتهم.

ففي شرح العصام على العقائد النسفية بعد أن ذكر وجوب إنصاف الأنبياء بالصدق ما نصه:
 إذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية. فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود وما كان بطريق التواتر فمصرّوف عن ظاهره إن أمكن. وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة.

وجاء في الحاشية عليه (قوله فما كان منقولاً بطريق الآحاد) سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء. وما كان بطريق التواتر فقسمان أما يمكن حمل خصوصياتها على أمر يخرجها عن كونها ذنباً كحمل قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] على إني سقيم فيما بعد فيحمل عليه إن أمكن وإلا فيحمل لفظ الذنب الواقع فيه على ترك الأولى... الخ - راجع صفحة ٤٦٨.

وجاء في شرح عبد الحكيم السالكوني على العقائد العضدية ما نصه: (وإذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يشعر بمعصية أو كذب، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصرّوف عن ظاهره إن أمكن، وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ص ٢٠٣).

نظرت إلى ذلك وإلى الأحاديث التي فيها رمي إبراهيم بالكذب وهي أحاديث آحاد - فتركها وصرفت النظر عنها لقد افترضت أنها منقولة نقل تواتر. وإني أشرع في تأويلها على وجه ملائم إن أمكن، ولكنني وجدت قراء كتابي سوف لا يكونون من صنف واحد، ومتى سمعوا الأحاديث وفيها كذب إبراهيم ثلاث كذبات يعلق ذلك في أنفسهم، ولا ضمان على اقتلاع ذلك من عقولهم بالحمل والتأويل فيكون ذلك سبباً لضلالهم.

وقد نظرت أيضاً ما نصه الفخر الرازي «ج ٦ صفحة ١٢ الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤» في تفسيره سورة =

= الأنبياء فوجدته يقول: **فَإِنْ قِيلَ قَوْلُهُ «بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُكُمْ» [الأنبياء: ٦٣] كَذِبٌ: والجواب: للناس فيه قولان، أحدهما وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب وذكروا في الاعتذار عنه وجوهاً. ثم أطل في تلك الوجوه وبعد ذلك قال:**

القول الثاني: وهو قول طائفة من أهل الحكايات: أن ذلك كذب. واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى قوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا؛ وقوله لسارة هي أختي». وفي خبر آخر: أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة. قال إني كذبت ثلاث كذبات. ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا: الكذب ليس قبيحاً لذاته فإن النبي عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه، وإذا كان كذلك فأبي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو. واعلم أن هذا القول مرغوب عنه:

أما الخبر الأول: وهو الذي ردوه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنيجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه: وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها. ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعارض على ما قاله عليه السلام «أن في المعارض لمدوحة عن الكذب».

فأما قوله تعالى «إني سقيم» فلعله كان به سقم قليل، واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه وأما قوله «بل فعله كبيرهم» فقد ظهر الجواب عنه - أي في كلام الفخر. أما قوله لسارة: إنها أختي، فالمراد أنها أخته في الدين. وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق «سورة يوسف» من الفخر الرازي ج ٥ ص ١١٩.

وأعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال «ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات» فقلت الأولى ألا تقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار: فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة. فقلت له: يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام، وإن رددناه لزمنا تكذيب الرواة. ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

لذلك كله نحيت الحديث أو تنحيت عن طريقه، حتى لا يشهد الجمهور اصطدام الحديث بآيات الكتاب الكريم وتركت تكذيب الفخر الرازي وغيره لسند ذلك الحديث وإجابة المجيبين وتوجيه الموجهين، لأن الجمهور لا خير له في الوقوف على هذا الضرب من الكر والفِر.

وقد نظرت إلى التوراة فوجدتها إذا تتبعته كانت سن سارة زوج إبراهيم نحو سبعين سنة حين كانت في مصر ووجدت أمرها مع ملك مصر محكياً فيها. وهو أن إبراهيم اتفق معها أن تقول عنه أخي وهو يقول أختي لئلا يقتل. وأن الملك أخذها وأنه ضويق في منامه وأخبر بأنها ذات بعل فعاتب إبراهيم على ما كان منه ثم أحسن إليها وإليه. وقد وقع في نفسي أن ملكاً مترفاً يبعد أن تشره نفسه إلى من كانت تناهز السبعين فقلت ذلك.

ورأيت أن التوراة تذكر أن مثل هذه الحادثة تماماً حصلت لإبراهيم وسارة في أرض أبي مالك، بعد أن بشرت بإسحاق وصكت وجهها وضحكت وقالت عجوز عقيم. أي بعد أن بلغت أكثر من تسعين سنة، كما هو نص التوراة - فاستبعدت ذلك أيضاً.

جاء حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة وخفصوا العمر الذي بلغته سارة حين كانت في مصر إلى سبع وخمسين سنة، بناء على ما نقله الحافظ ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية، من أن إبراهيم دخل بهاجر بعد خروجه من مصر بعشرين سنة.

أقول: إنني نقلت من كتب أهل الكتاب ما قلته كما نقل ابن كثير وهي تقول «تكوين - ص ١٦ - ٣١» فأخذت ساراي امرأة إبراهيم هاجر المصرية جاريته من بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم في أرض كنعان وأعطتها لإبراهيم رجلها زوجة له. وقد راجعت نسخ التوراة بالعبرية والعربية وراجعت كتاب إظهار الحق لعله يكون قد أخذ هذا الموضع على أهل الكتاب - حين عد تخالف النسخ العبرية والسامرية واليونانية - فلم أجد لذلك أثراً فلعل العشرة حرفت إلى العشرين من خطأ نساخ كتاب: البداية والنهاية، أو أن الله رمى بالبركة في العشرة فصارت عشرين.

ثم إنهم فهموا أن السنوات العشر ابتداءها من حين خروج إبراهيم من مصر إلى بلاد كنعان، وليس على ذلك دليل، والأقرب إلى الحقيقة أن ابتداءها من نزوله من حران إلى كنعان، وفي أثناء السنوات العشر كان تغربه في مصر وعوده إلى أرض كنعان.

لهذا أقول إن سارة كان لها من العمر نحو سبعين سنة حين كانت في مصر.

أما الحديث فلم يبين كم كان عمرها فإذا سلمنا جديلاً أن إبراهيم قد كذب وكان من ضمن كذبه - أجله الله عن ذلك ونزعه - هذه الفعلة، فلا يرد عليه الإيراد الذي أوردته على التوراة ولكني كنت أناقش شيئاً وضعته أمامي وهو محط الاستبعاد وليس الحديث أمامي وهو لم يعين سناً ولا يأتي عليه ذلك الاعتراض. وأعجب شيء أنهم يشتدون في المدافعة عن التوراة كأنها نص قرآني عندهم. أما قول حضراتهم «وعلى تسليم أن سنها كانت إذ ذاك سبعين لا وجه له ... الخ».

فأقول: ذلكم ليس إلى حضراتكم. فإنكم تفترضون للمرأة التي رمت خلفها سبعين هلالاً من أهلة الأعوام أنها لم تنزل حافظة لنضارة الشباب يرى الملوك المترفون أنها من آراهم؛ فلكم ما شئتم، وليس لكم ولا في قدرتكم أن تزيلوا الاستبعاد من نفسي. فإني أتمشى مع سنة الوجود ومع المألوف المعروف، ومع طبيعة الملوك وأهل الترف الذين لا يرون التمتع إلا مع من كانت غير بعيدة العهد بأول الحياة وأما من قدمتها السن إلى الشاطئ الثاني للحياة فلا يرون التمتع بها غنيمة.

أنا لا أمانع في أن سارة كانت وضيئة، ولكن وضاء وجهها ما كانت لتحول دون ظهور أمارات الكبر عليها، وما كانت لتكف يد الدهر عن أن ترسم على جبينها وفي وجنتاتها وعند فمها الخطوط المنبئة على قدم ميلادها الشاهدة بما حملت من أعباء الأعوام، بحيث لا تكون موضع طماعية المترفين من الملوك.

ولعل حضرات أصحاب الفضيلة اقتدوا بقول القائل:

تعشقت لها شمعطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب

لينظر القارئ الكريم معي إلى لفظ الحديث الذي يعزونه إلى رسول الله ﷺ فإنه واجد قول إبراهيم لسارة. «إن هذا الجبار أن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي ... الخ» =

فالمناطق المعقول يقتضي أنها إذا كانت امرأته يتركها لأنها مشغولة، وإذا كانت أخته فإنه يأخذها لأنها غير مشغولة ببيع.

ولكن المفسرين قالوا: إن السياسة كانت على أن القوم كانوا لا يتعرضون لغير ذات البعل، وإنما كانوا يتعرضون لذات البعل ويأخذونها قهراً. أقول: سلمنا جدلاً أن السياسة كانت كذلك، فما بالكم ناقضتم أنفسكم ونقضتم ما أبرمتم وقتلتم إن الجبار أخذها؟ وما هو الحامل للجبار على مخالفة القاعدة التي زعمتم أنها كانت متبعة مرعية بين أولئك الأقوام، وبعد هذا فأين النقل الصحيح لذلك؟ على أن حضرات أصحاب الفضيلة لو تحروا الحق في شأن إبراهيم وكان كاذباً حاشاه كما يقولون لو وجدوه قد كذب ست كذبات وهي: ١ - قوله إني سقيم ٢ - قوله بل فعله كبيرهم هذا ٣ - قوله عن زوجه إنها أختي ٤ - قوله هذا ربي حين رأى كوكباً ٥ - قوله هذا ربي حين رأى القمر ٦ - قوله هذا ربي حين رأى الشمس. فهذه ست كذبات ينتظره كذبات غيرهن يوم القيامة حين يهرع الناس إليه طالبين أن يشفع لهم في فصل الخطاب إذ يقول لهم لست هناك «إني كذبت ثلاث كذبات» مع أنهم ست، وهكذا يجعلونه كذاباً في الدنيا كذاباً في الآخرة.

ولم يفهم تلك السبع من الكذبات حتى يتأولوا فيهن، فتكون نتيجة التأول أنه احتال على الناس وصرهم عن إجابة طلبهم إلى الشفاعة في الموقف بما ليس عذراً حقيقياً، إذ كذباته ليست مما يوجب عقاباً، فإجابته إنما هي تملص من طلبهم الذي افتدى منه بالصاق الكذب بنفسه، وهو اعتذار لا يحسن لأن كذبه لا تبعة عليه فيه. فهل هذا لسان الصدق الذي جعله الله لإبراهيم؟ اللهم اشهد علي أنت وملائكته أنني أشهد أن إبراهيم لم يكن كاذباً ولا مفترياً.

بقي أن أقول إن رد الفخر الرازي للحديث الذي ينز فيه إبراهيم بالكذب هو الصواب الذي لا يشوبه خطأ، والحق الصريح الموافق لأصول الإسلام، لأنه حديث آحاد يلصق بأحد الأنبياء، بل بأبي الأنبياء من بعده وهو خليل الله إبراهيم نقيصة شنيعة وهي الكذب والتهاون في العرض، وقد مر بك أيها القارئ الكريم أن مثله يرد طبقاً لما جاء في العقائد النفسية وشرحها، والرسالة العضدية، وحاشية عبد الحكيم السيالكوتي عليها، وما نقلناه عن ابن حجر في فتح الباري.

كتب أصحاب الفضيلة في الرد على ما ذهب إليه الفخر الرازي من عدم قبول الأحاديث الدالة على كذب إبراهيم ﷺ فأجابوا عن شق وقالوا لقد رد عليه العلماء. ومع كونهم هم ومن ردوا على الفخر الرازي لم يصيبوا المحز ولم يطبقوا المفصل، لأنهم لم ينقضوا الأصل الذي رمى إليه، وقد اجتمعت عليه كلمة المتكلمين وأهل الحديث، فقد تركوا ما أورده من القطع بأن الله تعالى لا يرخص لأحد من أنبيائه في الكذب، لأن ذلك يرفع الثقة من الأوامر الإلهية والنواهي لاحتمال أنها مما رخص الله فيه لهم بالكذب.

وبعد هذا: فهل ما حصل من إبراهيم هو كذب أو صورة كذب كما يدعون؟

والجواب: كلا! فإن قوله: إني سقيم، يحتمل أنه كان به سقم خفيف، أو أنه كان سقيم الباطن والضمير، قلق الخاطر مألوماً في نفسه ولرؤية قومه يعبدون غير الله، ولا يصغون لعظة ولا نصيحة.

وأما قوله: بل فعله كبيرهم هذا، فإن الجواب عليه يحتاج إلى أن نشرح ما هو الكذب فنقول: الكذب: الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه في الواقع، مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع. قاصداً بذلك خديعة السامع لخبره وإيهامه أن الشيء على ما أخبر به، ابتغاء إضلاله عن الحق مع إمكان أن يقع كلامه من المسماع موقع الصدق.

= فإذا كان الكلام لا يمكن أن يفيد ذلك لم يكن هناك كذب في الخبر.

فهل كان إبراهيم يضلّل قومه. ليعتقدوا أن الصنم الأكبر قد حطم سائر الأصنام؟

كلا، فإن الذي يعتقد أن الصنم المصنوع من خشب أو غيره - من حجر أو معدن - يأخذه الغيظ من أمثاله فيعمد إلى تحطيمهم لا يكون عنده ذرة من عقل. وما كان القوم بهذا المقدار من الغباء! بل مثله في ذلك الأخبار مثل من يأتي إلى مصحف قد كتبه بخط بدیع، فيقول لك: أنت كتبه؟ فتقول له - وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب - بل أنت كتبه! على سبيل التهكم والاستهزاء به. فإنك لا تريد أن تضله عن الحق وتجعله يعتقد أن الكتابة الجميلة من صنع يده، ومتى خرج الخبر إلى التهكم خرج عن الخبرية إلى الإنشاء ولم يكن محتملاً للصدق والكذب أصلاً، فإبراهيم إنما قال لهم ما قاله على سبيل الاستهزاء بهم، وليجرهم إلى إقامة حجته واضحة جلية، ومعلوم أنه لا كذب في ذلك.

وأما قوله عن زوجه: أختي؛ فإنه إذا كان قد وقع منه ذلك فيحتمل أن تكون أخته حقيقة، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه، وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة، ويحتمل أن تكون بعيدة منه وأنه يريد أختي في الدين؟ كل محتمل ولا كذب فيه.

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب.

بقي أن أقول: أن لي سلفاً في رد الأحاديث الناطقة بكذب إبراهيم - نزهه الله عن ذلك - وهو الفخر الرازي، وقد حاول حضراتهم الحط من هذا القول، لأنهم متى زيفوا الفخر الرازي فقد زيفوا قولي. وأكبر ظني أنهم لو لم يجدوا كلام الفخر الرازي مطابقاً لما أورده لما خطر ببالهم هذا الخاطر لأنني أنا المقصود بذلك دون غيري. وآية ذلك أنهم يعلمون أن الفخر الرازي قال ذلك قبل أن يصدر كتابي ومع ذلك فلم تنشط بأحد منهم همته إلى الرد عليه وأن يعلنوا للأمة حتى لا تضل بقول الفخر الرازي.

وبعد هذا: فهل يظن حضراتهم أن قولهم ومن ردوا على الفخر الرازي، أولى عندي بالقبول من قوله؟ أو أن ثقتي بعلم الرادين وصحة فكرهم في كتاب الله وثقوب ذهنهم أكبر عندي من الثقة بالفخر الرازي في ذلك كله؟ إذا كان أحد قد أخبرهم بذلك فقد افترى إثمًا عظيمًا ولم يصدقهم سن بكرة! على أنني لو كان حتماً عليّ أن ألغي عقلي ولم يكن لي بد من أن أقلد، فإني لا أختار حضراتهم ومن ردوا على الفخر الرازي، أن أكون تابعاً لخطواتهم سائراً على نهجهم. بل إنني أختار الفخر الرازي ومن كانوا على سبيله أن أقندي بهم إذا كان لا بد من الاقتداء، فإني لم أعهد إلا قولاً للحق غير متجانف عن سبيل الرشd ولا محكم هواه ولا حاطب في حبل غيره، وهو مأجور على ما يبدي من رأي أو فهم أصاب أو أخطأ لأنه مجتهد في تحصيل الحق على كل حال.

قال أصحاب الفضيلة: «هذا ولنختم هذا الموضوع بما ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه في نسب سارة ليعلم منه خطأ القول بأنها أخته حقيقة، قيل إنها ابنة ملك حران، والمشهور أنها ابنة عمه هاران، قال: ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن العبسي فقد أبعد النجعة وقال بلا علم. ومن ادعى أن ذلك كان مشروعاً فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول من الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه» اهـ.

والذي أقوله: إنني لم أجزم بأن سارة كانت أختاً لإبراهيم حقيقة. بل قلت «إذا صح أنها كانت أخته حقيقة وصح أنه قال إنها أختي كما قالت التوراة... الخ» فإياهمهم أنني جزمت في كلامي بأنها أخته =

ما جاء بها من ذلك فإنها توهم أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها «إن كانت في ذلك الوقت على حال جمال» استغلالاً شائناً معيباً. فهي تذكر أنه اتفق معها على أن تقول إنه أخي وهو يقول أختي لئلا يقتلوه، ويكون له خير من ذلك. وأنا أعيد إبراهيم من هذا النقص الشائن وأقول: إن سارة لما كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر!

وكان لوط مع إبراهيم، وكان الرجلان لهما أموال كثيرة. وكان الرعاة يزدهمون على الأسامة والورد فاتفق رأيهما على أن يفترقا في الإقامة حفظاً لعلاقة المودة والرحم.

= غير صحيح. وقولي: «هو الذي أميل إليه» ليس قطعاً مني بذلك، بل هو الذي أميل إليه إذا تحققت الفروض السابقة.

ووجهة نظري في ذلك: أنني أعلم كما يعلم حضرات أصحاب الفضيلة أن الأصل في الأشياء الإباحة، إلى أن يأتي الشرع بالحظر كما في شرب الخمر، فإنه كان مباحاً إلى أن أتى دين الإسلام بالحظر. ونعلم ويعلمون أن آدم كان يزوج أبناءه من بناته. فهذا الأصل: وهو الإباحة، يستصحب إلى أن يأتي أمر الشارع بالمنع. وبعد هذا نقول: يحتمل أن تكون سارة أختاً لإبراهيم كما يحتمل أن تكون أجنبية منه أو قريبة له قرابة بعيدة أو قريبة. وأنا على أتم الاستعداد للقول بأنها غير أخته قطعاً متى أوقفني حضراتهم على نص من عندنا معشر المسلمين يقطع بأنها ليست أختاً له.

هذا وقد سبق أن جزم بأنها أخته العلامة رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق» وهو أعظم كتاب وجد في مكافحة أهل الكتاب ورد افتراءاتهم على دين الإسلام، وفي إثبات تحريف أهل الكتاب لكتبهم خطأ وعمداً.

وأما قول الحافظ ابن كثير: والمشهور أنها ابنة عمه هاران. فإني أقول: يحتمل أن يكون لإبراهيم عم اسمه هاران ولكنني لم أقف على ذلك، ولم أدر من أين أخذه. ولو صح ذلك كان إطلاقه لفظ الأخت على بنت العم سائفاً لجريان العرف بذلك. فلعلهم كانوا مثلنا في ذلك.

وأما قوله: فإن الأنبياء لا تتعاطاه فهذه الدعوى ينقصها الدليل. وعلى ذلك فيبقى الأمر محتملاً كما قدمت.

إن الضجة التي أثارها أصحاب الفضيلة حول هذه المسألة التي ربوها - حتى صار أمرها أمراً وشبت عن الطوق - كانت سبباً في إطلاق السنة المستهزئين والخلفاء في إبراهيم، ونسبته إلى ما أنزه إبراهيم عنه وأنزه لساني عن أن ينطق به وقلمي عن أن يخطه، حتى أن بعضهم شبه موقفني مع حضراتهم بموقف عبد الرحمن بن الحكم مع معاوية.

أما كان الأجدر بحضراتهم أن يطووا هذا الأمر كما طويته، وأن يربوا بأنفسهم عن أن يكونوا سبباً في قالة السوء عن نبي كريم، وإطلاق السنة من يساوي ومن لا يساوي في حقه؟ أأمنتم أن يلاقيكم إبراهيم في الآخرة وأن يعاتبكم على ما كان منكم من جعله عرضة لقالة مكروهة أو متديلاً يمسح به أعداء الله ورسله مفاذيرهم؟ أليكون اعتذارهم بأنهم قد عز عليهم أن تكون ساحته بريئة من الكذب فأحبوا أن يكملوا نقصه؟

«ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

فذهب لوط إلى سادوم وعامورة في دائرة الأردن وأقام إبراهيم حيث كان^(١).

دخول إبراهيم بهاجر

كانت سارة زوج إبراهيم عاقراً لم تلد وكان ملك مصر قد أعطى سارة على ما تقول التوراة جارية مصرية وتألّمت سارة إذ لم تجد لإبراهيم نسلًا - وهي قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أما - فأتمرت مع إبراهيم . وكان عاقبة ذلك أن دخل إبراهيم على هاجر فأنت منه بغلام هو إسماعيل عليه السلام.

ولادة إسماعيل بن إبراهيم من هاجر

لم تفصل قصة ولادة إسماعيل ورزق والده به في القرآن الكريم . وإنما ذكرت في سفر التكوين مفصلة - وأما التي ذكرت في القرآن الكريم . فلم يذكر فيها إسماعيل . وسنذكرها عند موقفه في ذبح إبراهيم ولده^(٢).

(١) يراجع الإصحاحان ١٢ و١٣ - تكوين .

(٢) وأما عبارة التكوين فهي في الإصحاح ١٦ هكذا:

- ١ - وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له . وكانت لها جارية مصرية : هاجر .
- ٢ - فقالت ساراي لابرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ، أدخل على جاريتي لعلّي أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي .
- ٣ - فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريته من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في أرض كنعان وأعطتها لإبرام زوجة له .
- ٤ - فدخل على هاجر فحبلت . ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينها .
- ٥ - فقالت ساراي لإبرام ظلمي عليك ! أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينها . يقضي الرب بيني وبينك .
- ٦ - فقال إبرام لساراي . هو ذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينك . فأذلته ساراي فهربت من وجهها .
- ٧ - فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية ، على العين التي في طريق شور .
- ٨ - وقال : يا هاجر جارية ساراي . من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت . أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي .
- ٩ - فقال لها ملاك الرب : ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها .
- ١٠ - وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة .
- ١١ - وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلتي فتلدن ابناً اسمه إسماعيل . لأن الرب قد سمع لذلك .
- ١٢ - وأنه يكون إنساناً وحشياً^(*) يده على كل واحد ويد كل واحد عليه .

* عبارات التوراة العبرية هكذا وهي بهي «قرء آدم» فغيروها بقولهم «إنه يكون إنساناً قوياً» ولكنهم لم يجدوا أسوأ من كلمة «وحشي» ليصفوا بها إسماعيل .

سنة الختان

وقد عهد الله إلى إبراهيم بالختان وكانت سنه إذ ذاك تسعاً وتسعين سنة. وكان إسماعيل قد بلغ ثلاث عشرة سنة، فاختنن إبراهيم وإسماعيل وكل من كان لإبراهيم من العبيد^(١) وفي إنجيل برنابا أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضواً إذا تاب الله عليه فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنذره احتار ماذا يصنع؟ فدلّه جبريل على هذا الموضع فقطعه. ولعل أبناءه تركوا هذه السنة حتى أمر الله إبراهيم بإحيائها.

إبراهيم والملائكة

ومن مواقف إبراهيم عليه السلام أنه رأى ثلاثة رجال في البرية فاستقبلهم - وكان إبراهيم يحب قرى الأضياف - فمالوا إليه - فصنع لهم طعاماً وعمد إلى عجل سمين فذبحه وسواه في النار وجاء به حينئذاً، قد أثرت فيه النار وجعلت لونه الحمرة، وقربه إليهم. فلم تمتد إلى طعامه أيديهم، فارتاب في شأنهم وأوجس منهم خيفة. فخاطبهم في هذا الشأن فعلم أنهم ملائكة أرسلهم الله للانتقام من أهل سادوم وعامورة، وهم المعبر عنهم بقوم لوط. وكانت سادوم وعامورة في مكان البحر الميت المعروف اليوم ببحر لوط. ويقال إنه ظهرت بشاطئه بعض آثارهما.

دفاع إبراهيم عن لوط ابن أخيه

خاف إبراهيم من هذا العذاب النازل أن يمس ابن أخيه فقال لهم: إن فيها لوطاً؟ فقالوا له نحن أعلم بمن فيها وأنه وأهله من الناجين.

مجادلة إبراهيم عن قوم لوط

كان إبراهيم عليه السلام رجلاً رقيق القلب، فلما علم أن قوم لوط هالكون وأن الملائكة قادمون لإنفاذ الأمر فيهم، أخذته الشفقة عليهم؛ فأخذ يجادل في شأن قوم لوط ويستنزل الرحمة بهم - رجاء أن ينظر الله إليهم نظر رحمة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ

= ١٣ - فدعت اسم الرب الذي تكلم معها «أنت أيل رثي» لأنها قالت: أها هنا أيضاً رأيت بعد رؤية.

١٤ - لذلك دعيت البئر «بئر لحي رثي» ها هي بين قادش وبارد.

١٥ - فولدت هاجر لإبراهيم إبناً. ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته هاجر: إسماعيل.

١٦ - وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبراهيم.

(١) كما في الإصحاح ١٧ - تكوين.

إِبْرَاهِيمَ الرُّوحَ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ [هود: ٧٤، ٧٥] - وهذه المجادلة عنهم لم تفصل في القرآن الكريم ^(١).

البشرى بإسحاق

والبشرى التي بشر بها إبراهيم هي أن الملائكة قالوا له إننا جئنا لنبشرك بغلام عليم؛ فراجعهم قائلًا: أبشرتُموني على أن مسني الكبر وصار لا يرجى لمن كان مثلي ان يلد وامرأتي عاقر قد بلغت سن اليأس. وكانت سارة تسمع كلام الملائكة لإبراهيم فضحكت من هذه البشرى العجيبة، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً؟! وأبدت غاية الاستغراب! فأحال الملائكة الأمر على قدرة الله الذي لا يعجزه شيء، وأفتوا وقتاً لهذا الأمر. ثم فصلوا عن إبراهيم إلى سدوم وعامورة.

اقرأوا هذه الآيات في سورة هود:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ

(١) ولكنها فصلت في سفر التكوين ص ١٨ هكذا:

٢٢ - وانصرف الرجال «الملائكة» من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب.

٢٣ - فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم.

٢٤ - عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟

٢٥ - حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك. أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟

٢٦ - فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإنني أصفح عن المكان كله من أجلهم.

٢٧ - فأجاب إبراهيم وقال: إني شرعت: أكلّم المولى وأنا تراب ورماد.

٢٨ - ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين.

٢٩ - فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال لا أفعل من أجل الأربعين.

٣٠ - فقال: لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد ثلاثون، فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين.

٣١ - فقال إني شرعت أكلّم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون فقال: لا أهلك من أجل العشرين.

٣٢ - فقال لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة فقال لا أهلك من أجل العشرة.

٣٣ - وذهب الرب عندما ما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

(٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَجَّكَتْ فَنَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ (٧١) قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ أَدُلُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَمْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ بَجِدِّ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِلْجَنَّةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٍ (٧٦) .

وفي سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَبِإٍ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرَمِينَ﴾ (٧٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٧٥) فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٧٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٧٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنَلِيمٍ عَلِيمٍ (٧٨) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَفٍ (١) فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) .

حب الاستطلاع في إبراهيم

كان إبراهيم عليه السلام محباً للاستطلاع شغوفاً بأن يرى الشيء الذي يقع عنده موقع الغرابة. وقد أوحى إليه أن الله سيحيي الموتى ويحشرهم ليوم لا ريب فيه، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فأحب أن يرى ميتاً عاد حياً، فسأل الله ذلك فقال الله له: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي. فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيقتلها ويفرق أجزاءها على الجبال، ثم يدعوها فإنه سيجدها آتية إليه، وحينئذ يكون قد رأى الميت قد عاد حياً، ففعل ودعا الطيور فعادت إليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعماً (٢).

(١) أي في شدة من الكرب.

(٢) وهذا الشأن من شؤون إبراهيم قد ذكر في سفر التكوين في الإصحاح الخامس عشر على غير هذا الوجه، بل على وجه أن إبراهيم أراد أن يعلم أنه سيرت الأرض التي وعده الله أن تكون لنسله وذريته، فأراد الله أن يعلمه ذلك، وأمره أن يأخذ عجلة ثلاثية وعنزاً ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة، فأخذها وشق ما عدا الحمامة واليمامة وجعل كل شق مقابل صاحبه، فنزل الجوارح على الجثث، وعند الغروب وقع سبات على إبراهيم وظلمة ورعب. وفي تلك الحال قال الله لإبراهيم أن =

اقرأوا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتُ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦١﴾ .

والقرآن نزل مصداقاً لما بين يديه ومهيماً عليه فهو الواجب التصديق دوماً خالداً.

= نسلك سيستعبدون في أرض الغربا ويذلون أربعمئة سنة ثم يخرجون في الجيل الرابع يرجعون إلى هذه الأرض ويملكونها. ولما غابت الشمس أنزل الله تنور دخان ومصباح نار جازا بين القطع، وقطع الله العهد لإبراهيم أن أولاده يأخذون هذه الأرض ويطردون منها أهلها.

الإصحاح الخامس عشر تكوين: ٧ - وقال له أنا الرب الذي أخرجك من «أور» الكلدانيين (*) لأعطيك هذه الأرض لثريها:

٨ - فقال إبراهيم: أيها السيد الرب بماذا أعلم أنني أرضها.

٩ - فقال له: خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ويمامة وحمامة.

١٠ - فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه.

١١ - وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبراهيم يزجرها.

١٢ - ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبراهيم سبات وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه.

١٣ - فقال لإبراهيم: أعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة (**).

١٤ - فالأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها وبعد ذلك يخرجون بأمالك جزيلة.

١٥ - وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيعة صالحة.

١٦ - وفي الجيل الرابع يرجعون إلى هنا لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً.

١٧ - ثم غابت الشمس فصارت العتمة وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع.

١٨ - وفي ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير؛ نهر الفرات.

١٩ - الفينيقيين والقانزيين والقدمونيين.

٢٠ - والحيشيين والفرزيين والرفائيين:

٢١ - والأموريين والكنعانيين والجرجشيين واليبوسيين.

*بلد كان قرب الشاطئ الغربي للفرات كما تقدم.

*ليعلم القارئ أن الأربعمئة السنة تحسب من وقت الميثاق لا أنها مدة بقائهم في أرض الغربا فإن المحققين على أن مدة غربة بني إسرائيل في مصر (٢١٥ سنة).

إسحاق عليه السلام

رزق أبيه به

قدمنا أن الملائكة بشروا إبراهيم بابنه إسحاق، وأن سارة ضحكت من هذه البشري عجباً من أن يكون نسل بين شيخ وامرأة عاقر قد بلغت من الكبر عتياً، وأن الملائكة قالوا لها: إن هذا وعد من الله القادر ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣].

لم يحل الحول على سارة وهي بنت تسعين سنة حتى حملت بإسحاق، ولما ولدته أسمته «يضحق» وترجمتها «يضحك» تريد أن كل من سمع بولادة هذا الولد من أبويه هذين يضحك لما في هذه الولادة من الغرابة، وقد آل أمره إلى أن يكون نبياً لقوله تعالى ﴿وَيَسِّرْهُ يَسْخَقَ يَبِئْسَ مَا الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] وقوله ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] ^(١).

تغرب إبراهيم في أرض أبي مالك .. «ملك جرار»

قبل أن يرزق إبراهيم بابنه إسحاق كان قد انتقل إلى الجنوب وتغرب في جرار، وسكن بين قادس وشور.

(١) وقد جاء في التوراة قصة رزق إبراهيم وزوجه بولدهما إسحاق هكذا في سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرين.

- ١ - وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم.
- ٢ - فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه.
- ٣ - ودعا إبراهيم اسم المولود له الذي ولدته سارة «إسحاق».
- ٤ - وختن إبراهيم إسحاق وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله.
- ٥ - وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه.
- ٦ - فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت كل من يسمع يضحك لي.
- ٧ - وقالت من قال لإبراهيم سارة ترضع بنين حتى ولدت ابناً في شيخوخته، فكبر الولد وعظم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق.

وشور هذه هي الطريق الذي يسلكه من خرج من مصر يريد بلاد العراق، ولما كان في جرار خاف الملك أن يهلكه إذا علم أنه زوج لسارة حتى تخلص له، فقال حين سئل عنها: إنها أختي. وكانت وضيئة، فأرسل الملك فأخذها، وقبل أن يقترب الملك إلى سارة أري في منامه ما أفزع، وأنذر أنه ميت بسبب المرأة التي أخذها وهي متزوجة؛ فاحتج في نومه بأنه بريء لا يستحق ما يهدد به من القتل، لأنه قال عنها أختي وهي قالت عنه أخي، وأنه لم يعمل إلا بسلامة قلبه ونقاوة يده ولم يقترب إنثماً، فأمر برد المرأة إلى زوجها لأنه نبي، وأنه يدعو له فلا يموت بهذا السبب، وأنه إذا لم يردها فإنه يموت.

فلما هب الملك من نومه أخبر عبيده وخاصته، وأرسل إلى إبراهيم وعاتبه فيما صنع معه حتى كاد يجلب عليه وعلى شعبه غضب الله وأنه بقوله «أختي» عمل معه ما لا يعمل، وأطال في عتاب إبراهيم؛ فما كان جواب إبراهيم إلا اعتذار بخوفه من أن يقتلوه لأجل امرأته، وما يظن أن أحداً في هذه الأرض يخاف الله. ثم ترقى في الاعتذار بأنه لم يكذب لأنها أخته حقيقة لأبيه ولم تكن أخته لأمه فلم يقل إلا حقاً.

فأخذ الملك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم ورد عليه سارة، وأباح له أرضه يتبوأ منها حيث يشاء، وقال لسارة: إني أعطيت أخاك ألفاً من الفضة إكراماً لك؛ فدعا له إبراهيم فشفي الملك وجواريه ونساؤه من كل ما كان الله قد ابتلى به الملك ونساءه وجواريه، لأنه كان قد أعقم أرحامهم وفي تلك الجهة كانت ولادة إسحاق. وقصة ارتحال إبراهيم إلى آخرها لم تذكر في القرآن وإنما ذكرت في التوراة - وقد أعادوا لنا بها القصة التي وقعت في مصر، وأنا أستبعد حصولها لأن سارة أيام كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة، وحين كانت في أرض أبي مالك كانت سنها إحدى وتسعين سنة، وليس من المستساغ أن يطمع ملك مترف في بنت سبعين أو تسعين^(١).

(١) ١- وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار.

٢- وقال إبراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل أبو مالك جرار وأخذ سارة.

٣- فجاء الله إلى أبي مالك في حلم الليل قال له: ها أنت ميت لأجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل.

٤- ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها فقال: يا سيد أمة تقتل بأمره؟

٥- ألم يقل هو لي أنها أختي، وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا.

٦- فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضاً أمسكتك من أن تخطيء إلي، لذلك لم أدعك تمسها.

٧ - فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا، وإن كنت لست ترددها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

مسالتان

الأولى: إن كان صحيحاً ما جاء في عبارة التوراة من أن إبراهيم اتفق مع سارة على أن يقول إنها أختي وتقول هي إنه أخي، وكانا أخوين حقيقة يكون ذلك قبل تشريع تحریم الأخت على أخيها. وهذا هو الذي أميل إليه إن كان ذلك حقاً، وحينئذ لا حاجة إلى قول «أنها أخته في الدين» لأن أولئك المتأولين ما دعاهم إلى التأويل إلا اعتقادهم أن الشريعة التي كان عليها إبراهيم كانت كشريعة موسى ﷺ من تحریم الأقارب ديناً كالأخت والعمة، وهذا ما ليس فيه نص قطعي. هذا موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب - إسرائيل الله - وأمه يوكابد بنت لاوي؛ فيكون عمران متزوجاً بعمته - كما تدل عليه عبارة الآيات ٥٧، ٥٨، ٥٩ من الإصحاح السادس والعشرين من سفر العدد، وهو من الأسفار الخمسة التي يعزونها إلى موسى - وقد رأيت في تاريخ القضاعي أنه مر بمسألة إخوة سارة ولم يذكرها أصلاً، وحسناً فعل. وأنتم تعلمون أنني أشك فيها شكاً قوياً. وفيه أيضاً كانت ابنة عمه.

الثانية: لا شك أن إبراهيم كان عالماً بأنه متى قال عن زوجه أنها أختي، فإن الملك أو غيره من الأمراد سيأخذها زوجة أو جارية له ويفترشها افتراش الزوجة أو الأمة - فكيف تسمح نفس إبراهيم بهذا العمل يؤتى إلى زوجته؟ والرجولة والمروءة تبيان مثل هذا العمل؛ بل الموت في هذا السبيل فخر وذكر.

وليس لنا جواب بإزاء هذا إلا أن نقول - إذا صح وقوع شيء من ذلك - أن إبراهيم لا يمكن أن يأتي هذا العمل إلا بسابق وعد من الله تعالى أن يحفظها ممن يريد أن يمسها؛ فأتيا هذا الأمر وفي يد إبراهيم وثيقة من إله القادر بحفظه فيها وحياطتها من كل من يريد أن يقترب إليها بسوء، وعاقبة ذلك كله الخير لإبراهيم بما يدره الملك عليه وعلى زوجه - كما حصل في هذه الدفعة وفي مصر وهي تشبه هذه تماماً - على أنني أشك في ذلك كما قدمت.

-
- ٨ - فبكر أبو مالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جداً.
- ٩ - ثم دعا أبو مالك إبراهيم قال له: ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطيئة عظيمة؟ أعمالاً لا تعمل عملت في.
- ١٠ - وقال أبو مالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء.
- ١١ - فقال إبراهيم إني قلت: ليس في هذا الموضع خوف الله ألبتة فيقتلونني لأجل امرأتى.
- ١٢ - والحقيقة أيضاً: هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة.
- ١٣ - وحدث - لما أتاهني الله من بنت أبي - إني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان تأتي إليه قولي عني هو أخي.
- ١٤ - فأخذ أبو مالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاهم لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته.
- ١٥ - وقال أبو مالك: هو ذا أرضي قدامك أسكن فيما حسن في عينك.

إسماعيل عليه السلام

واقdam أبيه على ذبحه

هنا ذكر قصة إسماعيل لقصرها، ولأنها على التحقيق جزء من قصة إبراهيم، فليس غريباً أن تذكر في خلالها.

سورة مريم: ﴿وَأُذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾.

وجاء في القرآن قصة ذبح إبراهيم لولده وهمه بذلك إلى أن نودي بالكف عن ذبحه، وأنه فدي بكبش يذبح عوضاً عنه.

كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة الوحي والأمر المباشر. وقد رأى إبراهيم في منامه أنه أمر أن يقدم ابنه قرباناً لله ويحرقه كما تقدم القرابين وتحرق، وكان ذلك الولد إسماعيل - على ما نذكر فيما بعد - فصعد إبراهيم بذلك الأمر الصادر إليه في المنام، وعرض الأمر على ولده فتقبل القضاء بالرضا وقال ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَوَّيْنِ﴾ [الصفات: ١٠٢]. ويقول بعض المفسرين أنه رأى في منامه أنه يذبح ذلك الولد عملاً، فقص ذلك على ولده فشجعه ابنه على أن يحقق منامه. فلما حقق العمل وأهوى بالمدية إلى ذبحه ناداه الله بالكف، وأن هذا العمل منه يكفي تصديقاً للرؤيا. ورأى إبراهيم كبشاً قريباً منه فذبحه فدية عن ولده والآيات الخاصة بهذه الحادثة لم تذكر اسم ذلك الولد. ولكن سياق الكلام وذكر تبشير إبراهيم بإسحاق بعدها لا يكاد يبغي شكاً في أن الذبيح إسماعيل.

اقرأوا قوله تعالى:

سورة الصفات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحْهُ ٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ١٠٢﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٤﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَرَاهُمُ ١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٦﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ

أَبْلَتُوا أَلْمِئِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَرْتَهُ بِذَنبِ عَاطِمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَرْتَهُ يَاسْحَقُ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴿١﴾.

ولا شك أن الضمير في «عليه» راجع إلى الذبيح. فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه، وعود الضمير إلى

(١) قصة الذبح في التوراة - الإصحاح الثاني والعشرين.

- ١ - وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم، فقال: ها أناذا.
- ٢ - فقال الرب: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه «إسحاق» واذهب إلى أرض الموريا (*) وأصعده محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك.
- ٣ - فبكى إبراهيم صباحاً وشد على حماره وأخذ اثنين من غلماناه معه وإسحق ابنه، وشقق حطباً لمحرقة، وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله.
- ٤ - وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد.
- ٥ - فقال إبراهيم لغلاميه أجلسا أنتما مع الحمار، وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما.
- ٦ - فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضع على إسحاق ابنه؛ وأخذ بيده النار والسكين.
- ٧ - فذهب كلاهما معاً وكلم إسحاق إبراهيم أباه وقال: يا أبي، فقال: ها أنا يا إبنى. فقال: هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟
- ٨ - فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا إبنى. فذهبا كلاهما معاً.
- ٩ - فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب.
- ١٠ - ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه.
- ١١ - فناداه ملاك الرب من السماء وقال: يا إبراهيم فقال: ها أناذا.
- ١٢ - فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك إبنك وحيدك عني (**).
- ١٣ - فرفع إبراهيم عينيه ونظر، وإذا كبش وراءه ممسك في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه.
- ١٤ - فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يراه» حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.

(*) كما في التوراة سليم.

(**) وفي رأيي أن مسألة الذبح كانت قبل ولادة إسحق، وأن إبراهيم أسكن إسماعيل وأمه مكان مكة قبل مسألة الذبح وأنها حصلت بنواحي مكة لا في جبل الموريا.

وتحريف أهل التوراة لثوراتهم أمر معلوم كثير الوقوع، ومن شاء شيئاً عن ذلك فليراجع «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي. راجع صفحات ١٢٦ إلى ١٩٦ من الجزء الأول من كتاب إظهار الحق.

الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق معه صريحاً؛ يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق. ومعنى «تله» صرعه وألقاه على عنقه وخذه.

أما هذه القصة في التوراة فبطلها عند اليهود إسحاق. وفي اعتقادي أن لفظ إسحاق حشر حشراً في غضون القصة، وذلك حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره.

ودليلي على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها. أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد - أي الذي ليس له سواه إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في منام؛ أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله. وهذا هو الإسلام بعينه. إذ الإسلام هو الطاعة والامتثال، وهو دين الله في الأولين والآخرين، وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجد له وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد لإسماعيل نحو أربع عشرة سنة - كما هو صريح التوراة - وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وأيضاً فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل. وستعلمون فيما يأتي أن مسألة الذبح وقعت في مكة، لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً - كما في حديث البخاري الآتي.

رحلة إسماعيل وهاجر إلى وادي مكة

رحلة إسماعيل وهاجر إلى مكة لم تفصل في الكتاب الكريم، ولم يذكر منها فيه سوى قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ويظهر لي أن إبراهيم دعا هذا الدعاء بعد بناء البيت. والوادي الذي لا زرع فيه هو الوادي الذي به مكة اليوم.

ولم يبين بمكة شيء بعد البيت إلا في القرن الثاني قبل الإسلام، في عهد قصي بن كلاب، فإنه بنى دار الندوة وتبعته قريش تبني حول المسجد. وكان المسجد ساحة فبنوا حوله وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام - راجع صبح الأعشى صفحة ٢٥٠ جزء رابع - ومكة والحرم الذي حولها لا تنبت شجراً يثمر سوى شجر البادية. ففي صفحة ٢٥٥ من الجزء الرابع من صبح الأعشى قال ابن حوقل: وليس بمكة والحرم شجر يثمر^(١) إلا شجر البادية. أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار. ولقد فصلت مسألة ذهاب

(١) في رأيي أن ذلك مبالغة فقد رأيت بجياد نخلتين.

إسماعيل عن بلاد أبيه إلى فاران في التكوين، ونحن أولاً نسوقها هنا في الهامش^(١).

(١) الإصحاح الحادي والعشرين تكوين:

- ٩ - ورأت سارة ابن هاجر الذي ولدته من إبراهيم يمزح.
- ١٠ - فقال لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق.
- ١١ - فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه.
- ١٢ - فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل.
- ١٣ - وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك.
- ١٤ - فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر، واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في بيرة بئر سبع.
- ١٥ - ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار.
- ١٦ - ومضت وجلست مقابلة بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجعلت مقابلة ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو.
- ١٧ - قومي احملني الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة.
- ١٨ - وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام.
- ١٩ - وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس.
- ٢٠ - وسكن في بيرة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

والذي ألاحظه:

أولاً: أن مؤلف كتاب التكوين أراد أن يوجد لسارة عذراً في طلبها طرد هاجر وابنها، فأتى بالآية الأولى من الإصحاح الحادي والعشرين، ولكن الآية الثانية ناطقة بأن الحامل لها على طلب تغريب إسماعيل إنما هو غيرتها منه وأثرتها، وحبها أن يرث ابنها وحده إبراهيم دون إسماعيل. وقد قدمت أن هجرة إسماعيل وأمه أو إيعادهما كان قبل وجود إسحق، وأنهما وجدا بتهامة الحجاز قبل ذلك. وفي حديث البخاري: أن إسماعيل كان رضيعاً حين أبعد هو وأمه إلى مكة. ومحال أن يكون من رضيع مزح ولا غيره، وإنما هي غيرتها من أن يكون لإبراهيم ولد من غيرها تراه معها في البيت. وتحريف اليهود لكتابتهم أشهر من نار على علم.

ثانياً: أن عبارة الآية ١٤ تفيد أن البلاد التي سكنها إسماعيل وأمه إنما هي بيرة بئر سبع، ثم ذهب إلى فاران ولم يذكر الوادي الذي هو مكة اليوم.

ثم قال في الآية: وسكن في بيرة فاران. وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة - كما قال في لسان العرب - ونص عبارته: وفي الحديث ذكر فاران وهو اسم عبراني لجبال مكة - شرفها الله - ذكر في أعلام النبوة.

ويدل على أن إسماعيل سكن مكة الآية ١٨ من الإصحاح ٢٥ تكوين. ونصها في الترجمة العربية: وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر، حينما تجيء نحو أشور، أمام جميع إخوته نزل. وحويلة: هي خولان. وخولان: قبيلة يمانية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز وهذا دليل على أن مكة تشملها مساكن إسماعيل وبنيه.

وفي البخاري: عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال «أول من اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء»، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها؛ فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت إذاً لا يضيعنا ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت. ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. حتى بلغ «يشكرون». وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه. فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها؛ فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ «فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت قد أسمعت إن كان عندك غوث؛ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً. وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه. وأن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين عن طريق كداء. فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاثفاً فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء. فأقبلوا» قال «وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا نعم» قال ابن عباس: قال النبي ﷺ «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب

الأنس» فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وثب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل. يطالع تركته فلم يجد إسماعيل. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سأل عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال هل جاءكم من أحد؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته؛ وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال فهل أوصاك بشيء؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك، قال ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها وتزوج أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغي لنا، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله، فقال ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال فما شربكم؟ قالت الماء، قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء» قال النبي ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال «فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه» قال «فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت نعم، أنا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير، قال فأوصاك بشيء؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبكي نبلاً له قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل؛ إن الله أمرني بأمر، قال فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعيني؟ قال: وأعينك، قال فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها» قال «فعندك ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني. حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال «فجعلوا بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] اهـ. وقد قرأت في كتاب من الأدب العبري قريباً من ذلك.

بناء البيت

لما ترك إبراهيم إسماعيل وهاجر بالوادي الذي به مكة اليوم، كان يزور ولده

إسماعيل - الحين بعد الحين - ففي إحدى هذه الزيارات أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة. ولما تم بناؤها أمره الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتاً لعبادة الله تعالى وأن عليهم أن يقصدوه للنسك. وطلب إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى أن يريهما المناسك التي ينسكانها. وبقي إبراهيم بعد ذلك زمناً طويلاً حياً.

والكعبة أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى، في حين أن بقية الشعوب والقبائل في سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتمائيل.

كان أهل مصر يعبدون آلهة متعددة، تارة في وقت واحد، وتارة في أوقات متعددة. فمن عبادة الشمس، إلى عبادة الثور، إلى عبادة الآلهة الثلاثة: أزوريس وإيزيس وابنهما حوريس. وكانوا يرمزون بذلك إلى صفات الله تعالى، ويصنعون التماثيل لتلك الرموز. وكان الآشوريون يعبدون بعل شמוש أي الإله الشمس ويصنعون له صنماً على نحو أبي الهول له رأس إنسان وجسم أسد وله أجنحة.

وكان الكنعانيون يعبدون البعل، وهو على وصف بعل شמוש بدون أجنحة، وقد رأيت مشوهاً في معبد بعلبك - المعروف الآن بقلعة بعلبك - وكان أهل نواحي غزة يعبدون داجون^(١) ويصورونه إنساناً له جسم سمكة: والعمونيون وأهل باشان كانوا يعبدون بعل فغور. وآخرون كانوا يعبدون العشتارون - أي القمر - صنم على هيئة أنثى.

اقرأوا قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْتِغِ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

(١) هذا الاسم مأخوذ من كلمة (دج) العبرية ومعناها سمك.

وفي سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٦ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧﴾.

وفي سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَنْبَاءِ مَقْلُوبَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فُكِّلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَهُمْ وَلِيَبْطَرُوا إِلَيْكَ الْغَنِيِّ ٢٩ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتَلَكَّ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٣٠ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ٣١ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِلهَ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥ وَالْبَدَنَاتِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجِلَتْ جُوبُهَا فُكِّلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَافِ وَالْمُعْذَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِئَالِهِ النَّفْسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾.

استطراد

يريد بعض الناس أن ينفي العرب عن إبراهيم وإسماعيل، فيتذرع إلى ذلك بنفي وجود إبراهيم وإسماعيل تاريخياً، بمعنى أنه لم يكن في ذلك الوقت الذي يدعي لهما من يدون التاريخ ويسطر أحواله. ومعلوم أن عدم وجود مؤرخ يكتب عن إبراهيم وإسماعيل لا ينفي أنهما وردا سجل الحياة، فإن الجد الذي يكمل العشرة من أجدادي، لم أعلم اسمه، ولم يسجله تاريخ، فهل معنى ذلك أن ليس لي جد عاشر؟

وعلى النافي أن يثبت أن حوادث عصرهما مسجلة - كبيرها وصغيرها - بيد مؤرخين كانوا في تلك الأمكنة، فتركها محدث للربية، على أن إبراهيم وإسماعيل قد ورد الخبر عنهما متواتراً والتواتر حجة قطعية.

يقولون: إن وجود إبراهيم وإسماعيل إنما هو أمر اخترعه اليهود بعد الهجرة ليتقربوا إلى العرب المسلمين، وهذا القول حجة داحضة، لأنه يقتضي أن ذكر إسماعيل وأنه أبو العرب المستعربة شيء اخترع زمن البعثة، بعد الهجرة اخترعه اليهود ليوجدوا صلة بينهم وبين العرب، وفي حين أن مسألة إسماعيل موجودة في سفر التكوين من أسفار التوراة! وقد ترجم في نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد من العبرية إلى اليونانية، في عصر بطليموس فيلادلف - وهو بطليموس الثاني - في الترجمة المشهورة بالسبعينية التي قام على ترجمتها بالإسكندرية سبعون حبراً من أحبار اليهود، وذلك قبل هجرة محمد ﷺ بتسعة قرون، وهو دليل مؤرخ معروف في التاريخ، وتلك دعوى لا دليل عليها. رجعوا بعد ذلك يقولون: إن إبراهيم لم يبن البيت، وإسماعيل لم يكن ولم يوجد بمكة، وإنه ربما كان هناك بلدة أخرى اسمها بكة خارج بلاد العرب وهي غير مكة، وجد بها ذلك البيت الذي أخبر الله أنه أول بيت وضع للناس، وقد أعياهم أن يجدوا ذلك.

ومعلوم أن لفظ «مكة» عربي والعربية إحدى اللغات السامية، وقد قال جورج زيدان بك في كتابه العرب قبل الإسلام: أن لفظ «بيك» معناه البيت، وعزا ذلك إلى لغة سامية، ومعلوم إن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميماً وبالعكس. ومن القبائل التي تفعل ذلك مازن، فيقولون في بكر مكر، وفي مكان بكان. وعندنا في بلاد الصعيد وغيرها أثر من ذلك إلى اليوم. وفي بلاد العرب كذلك كما نص عليه صديقنا البحاثة الرحالة محمد لبيب البتنوني بك في رحلته الحجازية فمكة هي عين بكة، ومعناها البيت أطلق على ما جاوره توسعاً وهذه كلمة «بعل بك» مركبة من كلمتين «بعل» ومعناه الإله و «بك» ومعناه البيت؛ أي بيت البعل، اسم للمعبد الذي أقيم باسم البعل ووضع به صنمه، وهو به إلى اليوم مشوه الوجه كما رأيته في سنة ١٩٠٨، وقد أطلق هذا الاسم على المدينة التي فيها بيت البعل - كما هو الواقع بمكة.

هذا وأما وصف الكعبة والحرم ومكة وتاريخ مكة والبيت فقد وفاه صديقنا البحاثة محمد لبيب البتنوني بك في كتابه الرحلة الحجازية.

أولاد إسماعيل

وقد ذكر في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين أولاد إسماعيل الذكور

وهم اثنا عشر ولداً رؤساء قبائل^(١).

عمر إسماعيل ووفاته

وفيها أن إسماعيل عاش مائة وسبعاً وثلاثين سنة. وفيها أيضاً ما يشير إلى أنه مات بفلسطين ولكن ما عليه مؤرخو العرب أنه بمكة. ويظن أنه دفن بالحجر الذي بجوار البيت هو وأمه.

بقية أولاد إبراهيم غير إسماعيل وإسحاق

هؤلاء الذين نذكرهم لم يبينوا في القرآن، ولم يذكر أحد منهم في معرض أنه من أولاد إبراهيم ولكن هذه الأمور ذكرت في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين، ونص عبارته كافٍ عن الشرح وهو.

١- عاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا.

وفاة إبراهيم

لم يجر لوفاته ذكر في القرآن، ولكن ذلك ورد في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين، من أول الآية السابعة إلى آخر الآية العاشرة، وملخصها أن إبراهيم عاش مائة وخمساً وسبعين سنة، ولما مات دفنه إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صرصر الحثي، وفيها دفنت سارة من قبل، وهو الموضع الذي عليه مقام الخليل في حبرون، وتسمى مدينة الخليل، وكان إسمها في الأصل «قرية أربع».

قصة إسحاق

قدمنا ما كان من تبشير الملائكة إبراهيم وزوجه سارة بولدهما، وأنها أسمته إسحاق. ولم يذكر في القرآن الكريم من قصصه إلا البشارة، وأنه غلام عليم، وأنه نبي من

(١) وهذا نص العبارة:

١٢ - وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم

١٣ - وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حيث توليدهم:

١ - نبايوت بكر إسماعيل ٢ - وقيدار ٣ - وادئيل ٤ - ومبسام ٥ - ومشماع ٦ - ودومة ٧ - ومسا ٨ - وحدار ٩ - وتيما ١٠ - ويطور ١١ - ونافيش ١٢ - وقدمه.

١٦ - هؤلاء بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم؛ إثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم.

الصالحين، وأن الله بارك عليه. وقدمنا أن اليهود والنصارى يدعون أنه الذبيح مع تكذيب التوراة لهذه الدعوى أيضاً ودليلهم هو الإصحاح الثاني والعشرون. وتقدم في قصة إسماعيل.

زواج إسحاق

ومما لم يقصه القرآن من أمر إسحاق. زواجه من ابنة بتوئيل بن ناحور. وإنما قصته التوراة في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين، وملخصها أن إبراهيم لما شاخ أتى بعبد المستولي على بيته «لعازر» وأحلفه على أنه لا يأخذ لابنه إسحاق زوجة من بنات الكنعانيين الموجودين في فلسطين، بل يأخذ له زوجة من عشيرته وبني أبيه. وأنه لا يرد ابنه إلى الأرض التي خرج هو منها إذا تأبت عليه الزوجة وامتنعت من الانتقال. فذهب ذلك العبد وهياً ما يصلح أن يكون هدية للزوجة، وأخذ من الجمال والأموال ما أحب، وذهب إلى آرام وأناخ جماله خارج المدينة التي بها أسرة ناحور - أخي إبراهيم - وإذا هو بفتاة حسنة المنظر خرجت من المدينة وجرتها على كتفها، فملأت الجرة فقال لها العبد: اسقيني! فأنزلت الجرة وأعطته إياها ليشرب، وقالت: استقي لجمالك أيضاً، فتفرس فيها إلى أن فرغت من سقي الجمال، وحلى أنفها بخزامة من ذهب ويديها بسوارين من الذهب وسألها: بنت من هي؟ وهل عند أبيها مكان لمبيتها وجماله فأخبرته بأنها بنت بتوئيل بن ناحور وأن عندهم مبيتاً وعلفاً لماشيته وأسرعت إلى البيت وأخبرت بما رأت، وكان اسم الفتاة «رفقة» وقام لابان بن بتوئيل في الحال إلى حيث عبد إبراهيم وأضافه وأكرم مثواه. وفي الحال أخبرهم عبد إبراهيم بما جاء لأجله، وأنه يريد «رفقة» لابن سيده فأجابوه إلى ما طلب وأعطاها آنية من ذهب وفضة وثيابها وتحفاً لأخيها وأمها. ثم طلب إليهم أن ينصرف سريعا، ووافقت «رفقة» على التعجيل بالمسير. فذهب بها إلى ديار سيده.

وكانت عزاء لإسحاق بعد موت أمه. ثم إن رفقة ولدت توأمين هما: عيسو ويعقوب، وكان خروجهما من بطنها بهذا الترتيب.

وكان عيسو في كبره مغرمًا بالصيد، ويعقوب وادعاً، فأحب إسحاق عيسو، وأجبت رفقة يعقوب. وكان في ذلك الزمن للبكر امتياز على غيره في الميراث بحق البكورية. فجاء عيسو يوماً تعباً لم يظفر بصيد. وقد هياً يعقوب طعامه من عدس فأراد عيسو أن يأكل منه، فأبى عليه ذلك إلا أن ينزل له عن حق البكورية ففعل.

وأن إسحاق - لما كبر - أراد أن يدعو لولده عيسو ويبارك عليه. وطلب إليه أن يصيد صيداً ويهيئه للأكل، حتى إذا أكل منه خصه بدعوته. وسمعت رفقة فأجبت أن

تكون البركة ليعقوب، فأمرته فصنع طعاماً من جدي ذبحه وقربه إلى والده، وأوهمه أنه عيسو، وكان إسحاق قد كبر وساعدته أمه على ذلك، فأكل ودعا له، فحقدها عليه عيسو فهرب إلى خاله «لابان» في فدان آرام وخدمه وتزوج ابنته: ليثة وراحيل. وجاريتيهما: زلفا وبلها.

تغرب إسحاق

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذي كان ذكر في القرآن: أنه حصل جوع في الأرض - كما حصل في عهد إبراهيم - وتغرب في جرار عند أبي مالك. وقالت رفقة عن زوجها إسحاق إنه أخي وهو أيضاً قال أختي. ورأى الرجل إسحاق يلاعبها فعلم أنها زوجته، فعاتب إسحاق. وحصل ما حصل في شأن إبراهيم وسارة.

وأنا أستبعد أن يكون أبو مالك الذي كان في عهد إسحاق هو الذي كان في عهد إبراهيم، كما هو المتبادر من عبارة الإصحاح السادس والعشرين تكوين. لأن ذلك كان رجلاً كبيراً قبل أن تحمل سارة بإسحاق وإسحاق كان قد جاوز الأربعين في تغربه.

ومما ذكر أيضاً أن إسحاق قد كثرت أمواله وعبيده وحفر آباراً، وكلما حفر بئراً نازعه عليها أهل جرار فتركها لهم ويحفر بئراً أخرى. وأن الملك ورؤساء جنده صالحوا إسحاق أخيراً وعقدوا معه صلحاً.

موت إسحاق

وفيها أن إسحاق عاش مائة وثمانين سنة، ودفن في حبرون - وهي مدينة الخليل اليوم - بمغارة المكفيلة.

لُوطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

هو لوط بن هاران - أخي إبراهيم - بن تارح. آمن بإبراهيم واهتدى بهديه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] . . الخ وتبع إبراهيم عمه في رحلاته فكان معه بمصر وأغدق عليه ملك مصر كما أغدق على إبراهيم فكثر ماله ومواشيه. ثم افترق من إبراهيم عن تراض لأن الأرض لم تتسع لمواشيها ونزل إلى سدوم في دائرة الأردن.

أهل سدوم

كان أهل سدوم ذوي أخلاق رديئة لا يستحون من منكر ولا يتعففون عن معصية يأتونها على رؤوس الأشهاد. كما قال تعالى على لسان لوط وهو يعظهم وينهاهم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

قرأت في كتاب من كتب الأدب العبري وصفاً لهم وهو أنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل أوب، ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئاً قليلاً حتى لا يبقى في يده شيء. فإذا جلس حزينا وجأ بالشكوى. يأتي الواحد منهم ويقول كل هذا لأنني أخذت هذا الشيء اليسير؟ دونكه؛ فيقول: ما عسى أن ينفعني ما جئت به بعد أن ذهبت بضاعتي. اذهب عني بهذا الذي جئت به. فإذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه يريد وده عليه، فيتركه الرجل لزهادة ما أتى به وينصرف. وهكذا يخسر الرجل بضاعته بتفرقها في الأيدي الكثيرة. فهم كما قال تعالى: ﴿وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وفي ذلك الكتاب من دلائل ظلمهم واستغراقهم فيه: إن سارة زوج إبراهيم أرسلت إلى لعازر كبير عبيد إبراهيم ليأتيها بسلامة لوط. فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد إلى لعازر بحجر ضربه به في رأسه فأسال منه دماً كثيراً. ثم تعلق به قائلاً: إن هذا الدم لو بقي لأضرَّ بك، فأعطني أجري. ثم آل الأمر بينهما إلى الترافع إلى قاضي سدوم. فلما سمع للخصمين حكم على لعازر بأن يعطي للسدومي أجر ما ضربه بالحجر وأسال دمه، فلما رأى لعازر الجور من القاضي والخصم في أمره، عمد إلى حجر ضرب

به رأس القاضي فأسال دمه وقال له: الأجر الذي وجب لي عليك بإسالة دمك - عليك أن تعطيه لضاربي السدومي جزاء ضربه إياي وإسالة دمي.
ولقد كنت اقرأ قول المعري:

وأي امرئ في الناس ألقى قاضيا ولم يعض أحكاماً لحكم سدوم
فلم أفهم ما يعزوه بهذا البيت، ولم أعرف ما سدوم حتى قرأت هذه القصة ففهمت
معنى البيت. هذه الحكاية - مع احتمال وضعها - تفيدنا معرفة الكفر العام في أحوال
هؤلاء الناس وأنهم من الشر بحيث يصلحون أن تسند إليهم أمثالها.

قدما في قصة إبراهيم أن الملائكة أخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين
هم أهل سدوم وعامورة. وأن إبراهيم خاف أن يمس لوط بأذى، فأخبر بأنه ناج هو ومن آمن
معه ثم أخبر في آخر القصة بأن وقوع العذاب بالقوم أمر محتم، لا تقبل فيه شفاعاة ولا يغني
جدال ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِعٌ عَذَابٌ عَرِيزٌ﴾ [هود: ٧٦].

ذكرت قصة لوط بتمامها في عدة سور باختلاف يسير. وبعضها يكمل بعضاً
وتتلخص في أن قوم لوط كانوا من الشر بمكان، وأنهم كانوا يقطعون الطريق على
السابلة، وقد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقبحون قبيحاً ولا يرغبون في حسن. كما
قال الله تعالى حكاية عن لوط ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وكانوا قد
ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله. وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران
من العالمين شهوة من دون النساء يستعلنون بذلك ولا يستترون ولا يرون في ذلك سوءاً
أو قبحاً. وأن لوطاً قد وعظهم ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم
يرتدعوا. فلما ألح عليهم بالعظات والإنذار هددوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج من بينهم.
إلى أن جاء إلى لوط الملائكة - الذين مر ذكرهم في إبراهيم وبشروه بإبنة إسحاق - وقد
جاءوا إلى لوط بهيئة غلمان مرد حسان الوجوه، فجاء أهل القرية إلى لوط طالبين ضيوفه
ليفعلوا فيهم الفاحشة. وقد جهد لوط في ردهم وبالع في ذلك حتى طلب إليهم أن يأخذوا
بناته فلم يصغوا إليه. حينئذ إلتفت لوط إلى الملائكة وقال ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ
رَبِّيَ شَدِيدٌ﴾ [هود: ٨٠] أي لجاهدتهم بكم وأوقعت بهم ما يستحقون، وكان لا يعلم أنهم
ملائكة إلى ذلك الحين، وحينئذ أعلمه الملائكة بحقيقة أمرهم، وأنهم جاءوا للتنكيل
بأولئك القوم. ولما حاول أهل القرية أخذ أولئك المردان بالقوة وهجموا على بيت لوط؛
طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا إلى مكان يقتحمون منه عليه وعلى من معه. ثم
أخرج الملائكة لوطاً وابنتيه وزوجه من القرية وأمروهم ألا يلتفت منهم أحد وأن يحضروا

حيث يؤمرون، فصدعوا بالأمر إلا امرأته فإنها التفتت إلى القرية لترى ما يحل بها، وكان هواها في أهل القرية دون لوط فحل بها من السخط والعذاب ما حل بهم، وكانت كافرة غير مؤمنة، فأمر الله عليهم حجارة من سجيل، وقلبت ديار القوم وجعل عاليها سافلها.

وأعتقد أن البحر الميت - المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط - لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر وقد جاءت الأخبار في السنتين الماضيتين بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت. انظروا إلى قوله في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ (٨٢) فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا كَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

ثم في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَمْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَجَارِكُنَّ مَا تَرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رَكُنٌ شَدِيدٌ (٨٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُؤْسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ (٨٣)﴾.

وفي سورة الحجر: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (١١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (١٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (١٣) وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (١٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنْ دَابرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِينَ (١٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (١٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (١٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (١٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٢٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٢١) لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَكَاِبُونَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَكْرَتٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْتَمِدُونَ (٢٢) فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّبْحَةَ مَشْرِقِينَ (٢٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٢٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَنْ تَوَسَّيْنَ (٢٥)﴾.

وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٦) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبِّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥).

وفي سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِضُونَ (٥٤) أَنْفُسَكُمْ لِتَأْتُوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلَا لُوطُ مِنْ قَرْنَيْكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ (٥٦) فَاجْنَبْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَةً قَدَرْنَا مِنْ الْأَنْفُسِ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)﴾.

وفي سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمْرَأَتَ نُوحٍ وَأُمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ (١٠)﴾.

مسألة

كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبي معصوم من المعصية كما هو معتقد جمهور المسلمين في عصمة الأنبياء؟ وهذه المسألة لها عدة أجوبة:

(أولها) أن لوطاً لم يعرض عليهم بناته الصليبات، وإنما عرض عليهم بنات القرية وهن أزواجهن، لأن كل نبي أرسل إلى قوم فأولادهم أبناءه ونسأؤهم بناته - مجازاً - وهذا جواب سخيّف إذ كيف يكون لوط أباً لهؤلاء الكافرات غير المؤمنات؟ وكيف يعبر عنهن ببناتي وهن يابن أبوته ويكفرنه ويجحدون نبوته ورسالته؟ فهذا الجواب لا أَرْضَاهُ ولا تَطْمَنُّ لَهُ نَفْسِي.

(ثانيها) أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة. ولا يعقل أن يكون كل واحد من أهل القرية - الذين جاءوا إليه يزفون - يأمل أن ينال حاجته منهم، وأهل القرية يبلغون ألفاً أو يزيدون ولكن المعقول أنه كان هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة في القوم - وهم الذين يطلبون الملائكة - وإنما عبر بأهل القرية لمظاهرتهم لهم حتى يتم مرادهم،

فعرض لوط على القوم بنتيه الصليبتين ليأخذوهما بطريق التزوج لا على سبيل الزنا. وهذا الجواب قابل لأن يحوز مكان القبول. ولكن الذي سأشرحه فيما يأتي أولى منه بالقبول. فقد نص على هذا الجواب أبو السعود في سورة هود.

(ثالثها) أن لوطاً عرض على القوم بناته عرضاً سابرياً^(١) - أي عرضاً غير مؤكد - لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا. ولكن عرض بنتيه اعتماداً على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزائته في ضيفه - كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه: دعه واضربني أنا. لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لا يضربك. ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة - وهذا القول قد أورده كثير من المفسرين كأبي السعود والفخر الرازي والأصفهاني وغيرهم. وهذا الذي أراضاه وأختاره.

ذكرت قصة لوط في التوراة على النحو الذي ورد في القرآن، ولا تخالفه إلا في شيء واحد وهو أنها لم تذكر عرض بناته على القوم. وذكرت أن زوج لوط وهي سائرة للابتعاد من المدينة التفتت فصارت عمود ملح، وأن لوطاً التجأ إلى قرية تسمى صوعر - أي الصغيرة - ونجا هو وابنتاه ولم تمس صوعر بضرر.

مسألة أخرى

ما هو مرجع كاف الخطاب في قوله ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [الأعراف: ٨٠]؟

- الجواب: أنه قومه الذين جاءوا يهرعون إليه. والمعنى لو أجد قوة تمكيني من صدكم وإحلال النكاح بكم. وهذا الجواب لا أميل إليه. وخير منه أن يقال إن مرجع الخطاب هم الملائكة. وعلى ذلك فإن لوطاً تمنى لو كان عدد ضيفه كثيراً ليجد بهم قوة على مجاهدة قومه وكفهم والإيقاع بهم. ولذلك ردوا عليه بقولهم ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٨١].

مكان العبرة في قصة إبراهيم وما معها

١ - أن العقيدة الحقة إذا تغلغت في النفوس وأشربتها القلوب استولت على فكر الإنسان واستغرقت كل خطرات قلبه وملكت عليه مشاعره ووجدانه، فهو يستهين بالنار يلقي فيها وكل عذاب يحل به دون أن يرجع أو يتقهقر، والمثل الأعلى في ذلك: إبراهيم: الذي كان أول من ضرب المثل للأمم والأجيال بعده.

(١) السابري وهو بَرّ صفيق النسيج متلاحم، وبائعه لا يلح في عرضه ولا يزينه للمشتري.

٢ - أن ثورة إبراهيم على الأصنام وعبادتها لم تكن ثورة كلامية، بل كانت ثورة عملية. إذ جعل أصنامهم جذاذاً إلا كبيراً لهم، وجعل عمله وسيلة لم حاجتهم حتى أفحمهم. فلجأوا إلى مخاشسته وإلقائه في النار فكانت عليه برداً وسلاماً.

٣ - أن إبراهيم لم يدخر وسعاً في ابتكار أساليب الدعاية إلى ما رآه من الحق. فتارة يلجأ إلى النجوم عله يجد فيها إلهاً، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لا يصح فيها آلهة جهر بأمره قائلاً ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فلم يتبرأ من آلهتهم لأول وهلة وباديء الرأي، بل بعد ما جرهم إلى امتحان الآلهة واحداً بعد آخر وأبان عجزها وعدم صلاحيتها لأن يكون واحداً منها إلهاً.

٤ - أن إبراهيم كان جديراً بما قال الله فيه ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٤٧] فقد كان يجادل الملك ويحاجه غير متنتع ولا وجل، حتى ألزمه الحجة وألبسه الخزي.

واقروا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَبُعِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة.

٥ - أن إبراهيم كان رقيق القلب. يتجلى ذلك في جوابه لأبيه إذ قال له ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فأجابه بقوله ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقوله ﴿وَإَغْفِرْ لِي إِنِّي إِنَّهُمْ كَأَنُ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] وقوله ﴿فَمَنْ يَبْعُنْ فَإِنَّهُ مُتَى وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وهكذا ينبغي أن يكون الداعي إلى الحق حليماً واسع الصدر عظيم الأناة طويل البال.

٦ - أن الإيمان الحق إذا اطمأن به قلب أورثه الطاعة التي لا معصية معها، حتى أن إبراهيم لما طلب منه في المنام أن يقدم ابنه الذي ليس له سواه امثل ذلك الأمر، مقدماً رضا الله تعالى على رضا نفسه، وقام بكل استعداد. لتقديم ابنه قرباناً لله إلى أن فداه الله بذبح عظيم.

٧ - أن إبراهيم كان مضيافاً ولا يرضى لأضيافه بما يقيم أودهم، بل كان يكثر لهم من القرى. لأن ثلاثة أضياف لا يقدر على التهام عجل سمين، بل هو يفضل عنهم،

وكان يكفيهم عناق صغير أو بعض الفطير يقدم إليهم. ولكنه أظهر حفاوة هونت عليه أن يبذل من ماله كل كريم. ولا يفعل ذلك إلا الكريم.

وهأنذا أستطرد لكم حكاية قرأتها في بعض الكتب العبرية الأدبية. وهي أن إبراهيم نظر إلى البرية يوماً فرأى رجلاً قد بلغ من الكبر عتياً يمشي وفي يده عكازته. فقام واستقبله وأضافه وقدم له طعاماً؛ فلما طعم الرجل مع إبراهيم قال إبراهيم: هلم نشكر الله الذي أطعمنا ورزقنا هذه النعم.

ولكن الرجل أبى وقال: لا أعرف الله الذي تقوله، وإنما أشكر إلهي الذي في بيتي - يعني صنمه - فغضب إبراهيم وطرد الرجل. فلما ولى الرجل عنه رجع إبراهيم باللائمة على نفسه قائلاً: إن الله سبحانه قد خلق هذا الشيخ وحباه بجلال النعم. وأطال عمره وقد مضى عليه الآن مائة سنة يكفر بالله ويجحده ولا يؤدي شكر شيء من نعمه عليه. ومع إصراره على الكفر وتماديه في الضلال لم يقطع الله عنه نعمة من نعمه المتواصلة، وأنا لأنني أطعمته مرة واحدة وخالف مشورتي في عبادة الله أطرده. وأسف لذلك أسفا شديداً.

فخلق الكرم في إبراهيم كان بالغاً حده الأعلى.

٨ - كان إبراهيم ذا نفس طلعة يحب استكنائه الأشياء والوقوف على دقائق صنع الله تعالى. ولذلك طلب من الله أن يريه إحياء الموتى ليطمئن قلبه. وقد قدمنا موقفه في ذلك في القرآن والتوراة.

٩ - كان إبراهيم قائماً على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر الله تعالى، فيما أحب أو كره دون تبرم ولا تذمر، متحلياً بالتقوى والطاعة والشكر والصبر. وهي مزايا بارعة قل من الناس من يجمعها وما اجتمعت هذه الخصال في شخص إلا برع أهل جيله وفضلهم.

أنظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ آلِئِلَهِينَ ﴿١٣﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

ذلك أن كثيراً من الناس يدعون إلى الخير الذي لم يعهده فتكون منهم نبوة عنه لأول وهلة وتوقف عن الإجابة ريثما تطمئن النفس وتأنس بهذا الشيء الغريب الذي لا ألف لها به. ولكن إبراهيم لم يكن منه شيء من ذلك. بل كانت نفسه مستشرفة للهداية متلبية للدخول في الطاعة، فلم تكن منه هفوة ولا نبوة كما قال ﷺ: ما معناه «ما دعوت أحداً من أصحابي إلى الإسلام إلا كانت منه هفوة إلا أبا بكر» وأما صبره على المكارة وإيثاره رضا الله تعالى عنه فيتجلى في تقديمه ولده الواحد «إسماعيل» ليقبله بيده ويقربه قرباناً لله

تعالى، ويحرق جثمانه بيده فأقدم على ذلك صابراً غير مكابر ولا متضجر.

١٠ - أن إسماعيل كان عبداً مخلصاً من صغره وقبل أن يبلغ حد التكليف صابراً على المكاره، فإن أباه أخبره أنه رأى في المنام إنه أمر بذبحه فأجاب إلى ذلك صابراً غير متألم ولا متبرم. ولم يعارض في ذلك ولم يحل على أن ذلك أضغاث أحلام بل قال له: ﴿يَتَابِتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

١١ - أن إسماعيل كان إذا وعد صدق، فقد وعد والده الصبر على أن يكون قرباناً، ووفى بوعده وصدق فيما قال. كما قال تعالى فيه ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] وأي صبر لغلام لم يبلغ الحلم - وللغلمان آمال كبار في الحياة - يقدم لينحر على الحطب كما تنحر الشاة فيقبل ذلك راضية نفسه ويطلق أماله. ويعتق الآلهة. كل ذلك كثير وصاحبه جدير بالثناء وحقيق بكل وصف كريم.

١٢ - ويدل ما تقدم في قصة لوط على كرم محتد كريم واستمسك بالذمام ورعاية للجار والنزول. فقد أراد قومه سوءاً بضيفه فقام يذب عنهم ويدافع أهل بلده دونهم: وعرض بناته فدية لهم كراهة أن يخزوه في ضيفه.

قال أبو السعود في تفسيره لسورة هود: فإنه إذا أخزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل، وذلك من عراقاة الكرم وأصالة المروءة. وظلم الجار إذلال المجير.

١٣ - تدل قصة لوط على أنه كان عظيم الإيمان مطمئن القلب به، حتى أنه لم يحتاج من عمه إلى معالجة وأنه في سبيل الإيمان بالله تعالى قد رضي بأنه يهاجر من وطنه ويتعد عن قومه مع علمه بأن الجلا سباً والنقلة مثلة. قال الله تعالى فيه ﴿فَأَمِنْ لَّهِ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

يعقوب عليه السّلام

أولاد يعقوب عليه السلام - يوسف عند أبيه - يوسف عند سيده -
 محنة يوسف - يوسف وامرأة العزيز - شيوخ الخبر في المدينة وتحدث
 النساء به - دعوة امرأة العزيز للوائمها - يوسف في السجن يدعو لدينه
 - الفرج ليوسف - يوسف بحضرة الملك - أخوة يوسف في مصر
 يمتارون - أخوة يوسف عند أبيهم - حيلة يوسف في إبقاء بنيامين عنده
 - يوسف يتعرف إلى إخوته - الأخلاق التي تستفاد من قصة يوسف
 وإخوته - فضيلة الشكر - العظة البالغة .

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام من (رفقة بنت بتوئيل) أخي إبراهيم .
 كان يعقوب أثيراً عند أمه . فلما دعا إسحاق ليعقوب وهو يظنه عيسو - وجاء عيسو
 وقد علم بذلك أخذ منه الغيظ مأخذه ، وخشيت رفقة على يعقوب أن يبطش به عيسو .
 فأشارت عليه أن يذهب إلى خاله «لابان» فذهب إلى فدان آرام ، وأقام عند خاله يخدمه في
 نظير تزويجه بابنته راحيل . ولكن خاله أدخله على ابنته ليئة التي لا يريدتها يعقوب . فكلم
 خاله في ذلك فقال له اخدمني عشر سنين أخرى لأزوجك راحيل ففعل وتزوج أيضاً من
 جاريتيهما : زلفا وبلها ، ومنهن كان أولاده وقد ولد له أولاده جميعاً في آرام إلا «بنيامين»
 ثم جاء إلى فلسطين بمال كثير ونعم جلييلة وأهدى إلى أخيه بعضها وهو خائف أن يبطش
 به . ولكن عيسو قابله بمقابلة حسنة^(١) .

يوسف عليه السّلام

هو يوسف بن يعقوب - إسرائيل الله - بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . إن قصة
 يوسف عليه السلام تتصل بقصة يعقوب عليه السلام . وقد مر بعضها في قصة إسحاق لتدخلها
 فيها . وسيمر بنا في قصة يوسف عليه السلام قدر وافر من قصص يعقوب عليه السلام .

(١) هذه الحكاية لم تذكر في القرآن . ولكن هذا ملخص صغير لما في التوراة .

أولاد يعقوب عليه السلام

كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولداً ذكراً وهم (١) رأو بين: بكر يعقوب (٢) شمعون (٣) لاوي (٤) يهوذا (٥) ويساكر (٦) زبولون - من ليثة بنت خاله لابان (٧) يوسف (٨) بنيامين - من راحيل بنت خاله لابان (٩) دان (١٠) نفتالي - من بلها جارية راحيل (١١) جاد (١٢) أشير - من زلفا جارية ليثة.

وهؤلاء الأولاد ولدوا له وهو في فدان آرام يرعى غنم خاله لابان في نظير تزوجه ابنته ليثة وراحيل. وعاد بهما بعد انقضاء الأجل - وبعد أن أخذ من غنم خاله نتاج سنة - إلى أرض كنعان إلا بنيامين فقد ولد في كنعان.

يوسف عند أبيه

كان يوسف جميل الصورة أثيراً عند أبيه يخصه بقسط عظيم من محبته. وكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه وسبباً في محنته التي كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القرية من مصر، وعلى مصر.

ذكر اسم يوسف في ٢٦ آية من الكتاب الكريم: ٢٤ آية في سورة يوسف، وآية في الأنعام وآية في سورة غافر.

وها هي ذي أرقام الآيات التي ذكر فيها: في سورة يوسف ٤، ٧، ١٠، ١١، ١٧، ٢١، ٢٩، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٦١، ٦٦، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٤، ٩٩ - وفي سورة الأنعام آية ٨٤ - وفي سورة غافر آية ٣٤ - وقد ذكرت قصة يوسف مطولة في سورة يوسف.

وسبب نزول هذه السورة في القرآن الكريم أن كفار مكة لقي بعض اليهود وتباحثوا في ذكر محمد ﷺ. فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف فنزلت «٥١ النسفي».

والقصة أن يوسف كان صغيراً. وتقول التوراة كانت سنه سبع عشرة سنة «ومن كان في هذه السن يبعد أن يصنع معه ما صنع إلى يوسف» فرأى في منامه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له. والذي في القرآن الكريم يفيد أن قصة هذه الرؤيا على والده كان في غيبة إخوته. وأن أباه قال له «قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلٰى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيْكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَاْوِيلِ الْاَحَادِيثِ

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٥ - ٦﴾.

وتفيد عبارة التوراة أن ذلك كان بحضرة إخوته وأن أباه انتهره على هذا القول.
وقال: لعلنا نسجد لك أنا وأهلك وإخواتك! متهمكماً. وما في القرآن هو حق.

رأى أبناء يعقوب من إيثار أبيهم ليوسف وحده عليه ما لم يكن منه لواحد منهم فغاضهم ذلك. وهم في سن الشباب وطيش الحداثة فأضمرُوا له الشر فقالوا لأبيهم ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ ﴿يوسف: ١١ - ١٢﴾ وكان يعقوب قد أحس الشر الذي يضمه بنوه لأخيهم ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم فقال ﴿إِنِّي لَخَشِئْتُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣] ثم ترقى في تعليل ضنه به قائلاً ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب.

لم يعي أبناء يعقوب بجواب، بل أجابوه جواباً لا يبغي له علة يتشبث بها، فقالوا ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاشِئُونَ﴾ [يوسف: ١٤] وهنا تخالف التوراة القرآن في هذه القصة وتقول إن يعقوب هو الذي أرسل يوسف إلى أخوته من تلقاء نفسه ليذهب إليهم في المرعى ثم يعود ويطالعه بأحوالهم. وكانوا قد أبعدا فلما جاء وعليه قميص مخطط - قد حباه به والده - قالوا: قد جاء صاحب الأحلام لابس البجاد المخطط، ثم ائتمروا به ما يصنعون؟ ثم انتهوا إلى أن يلقوه في الجب بعد أن يعرفوه من قميصه ولا يسفكوا دمه، وأن يخبروا أباهم بأن مفترساً افترسه.

والقرآن على أنهم تسلموه من يد أبيه ﴿ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٥] ثم ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٦ - ١٧] أي في النضال بالسهام ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]

ولما كان المريب يشعر من نفسه بالتهمة ويتخيل أن كل واحد قد اطلع على خبيثة أمره قالوا لوالدهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] فلم يخف عليه شأنهم، وكان كمهرة المحققين في القضايا في هذه الأيام، فأخذ القميص، ولما لم يجد به تمزيقاً ولا قط قال لهم متهمكماً: ما أحلم هذا الذئب الذي افترس ولدي ولم يمزق عليه قميصه ولم يعمل في قميصه ناباً ولا ظفراً، وقال لهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

بعد أن ترك يوسف في الجب «البئر» وكانت قليلة الماء جاءت سيارة «قافلة» فأرسلوا

واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا غلام وسيم تعلق بها فاستبشر الرجل وقال ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف: ١٩] ويقول المفسرون: إن الذين كانوا على الماء ادعوا في القافلة أنهم اشتروه من سادته وأسرّوه بضاعة حتى وردوا إلى مصر. وشروه أي باعوه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين. وكثير من الناس حتى بعض العلماء يقولون: إن إخوته هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه للسيارة، وعبرة التوراة لا تساعدكم ونظم القرآن لا يساعد على ذلك، لأنه ذكر السيارة وواردهم ولم يعد إلى ذكر إخوة يوسف في هذا المقام.

والذي في التوراة أن إخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب جاسوا للطعام. ورأوا قافلة من الإسماعيليين تقصد مصر ومعهم الكثيرون والبلسان والطيب. وجاءت قافلة أخرى من المديانيين فسحبوا يوسف من الجب وباعوه للإسماعيليين. وأن يهوذا أشار على إخوته ألا يتركوا يوسف في الجب وأن يبيعوه، ولما جاء رأوبين إلى الجب لم يجد يوسف فمزق ثيابه وبكى. وهذا كله ينفي ما اشتهر من أنهم باعوه، والمفسرون يخطئون في هذا كثيراً. وباع الإسماعيليون يوسف في مصر وكان من رأي رأوبين من الأول عدم إهلاك يوسف، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في الجب لكي يخالفهم إليه ويأتي به إلى أبيه.

يوسف عند سيده

بيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر ولم يعين البلد الذي كان عاصمة الملك في البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنه مدينة «سان» ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة. وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول إبراهيم، وكان منهم الملك الذي أكرم مثنى إبراهيم وأعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة، التي منها «أحمس» الذي طرد العمالقة من مصر.

ولما حصل يوسف عند سيده ألقى الله على سيده محبته فقال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوِيَّ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنِيَ أَوْ نَتَخَدُّمَ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] وكان سيده رئيس شرطة المدينة وأسمه «فوطيفار» ويعبر عن منصبه في العبرية بـ«سرها طباحيم» أي رئيس الشرطة. فكان يوسف أثيراً لديه فجعله صاحب أمره ونهيه، والرئيس على خدمه والمتصرف في بيته بحيث لم يكن لأحد ممن في الدار كلمة أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته.

وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق وعلمه من لدنه علماً عظيماً. كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ

أَمْرُو. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿يوسف: ٢١، ٢٢﴾.

محنة يوسف

كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمناً لمحتته. ومحتته مكمناً للمنة العظيمة عليه وعلى آله وعلى أهل مصر وجميع الأمم التي تقرب من مصر. كما قال ابن عطاء الله السكندري: «ربما كمنت المنن في المحن» وكانت تلك المحن أن امرأة العزيز نظرت إلى يوسف وما هو عليه من الخلق السوي والجمال المفرط فأشعل ذلك في نفسها جذوة الحب.

وصار ذلك يزداد بتكرر رؤيتها له إلى أن غلبها الحب على حيائها. فأخذت تداعب يوسف وهو يعرض عنها لعاملين يكفي كل واحد منهما لعزوفه عما تريد:

أولهما: إيمانه بالله وامتناله وأوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية تلك الطهارة التي وجد عليها أباه وجدته وجد أبيه.

ثانيهما: أن بعلمها سيده الذي حذب عليه، وأكرم مثواه، ومكن له في بيته، وجعله المتصرف في أمواله وخدمه، ووثق به ثقة ليس لها حد. فلا ينبغي أن يقابل نعمته بالكفران. فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافياً لحفظ سيده في أهله، والبعد عن تدنيس فراشه.

كان ذلك دأب يوسف معها، إلى أن هاج بها هائج الغرام، واعتزمت على شفاء ما في نفسها من الصباية فصارحته القول، ودعته إلى نفسها دعوة لا هوادة معها. واحتاطت للأمر وأخذت عدتها له. وغلّقت الأبواب. وقالت ليوسف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] فأبى وقال ﴿إِنَّهُ﴾ أي بعلمها ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَوَاطِئَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] وفي هذا الموقف العنيف: شاب في ريعان شبابه وغضارة الفتوة تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها فيغلبه دينه ويعصمه رعي الذمام لسيده. ثم يولي وجهه شطر الباب يطلب النجاة من شيطان غوايتها. وهي تجاذبه ثوبه وهو العصي حتى تمزق من خلفه. إلى أن يغلبها ويفلت من يدها فيستبقان الباب. هو يريد فتح مغلقة وهي تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهي من الإفلات من يدها دون قضاء لباتنها. وحينئذ يجد أن بعلمها عند الباب^(١).

(١) ساقط التوراة هذه القصة في سفر التكوين في الإصحاح ٣٩ وهي لا تختلف عن القرآن إلا في شيء =

تدبروا واقرأوا قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤَى وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهَا مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَايَ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

وللعلماء في تفسير هذه الآية آراء : فقوم يقولون إن امرأة العزيز قد همت بيوسف ليضاجعها وهو هم بها وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته. فلما لم يبق شيء دون إتمام ما قصده وقصده جاء جبريل وأخبره بأنه سيكون نبياً. وهذا العمل لا يليق من الأنبياء فكف عنها وهذا: برهان ربه، ومعنى الآية لولا أن رأى برهان ربه لفعل.

وقال آخرون: إن البرهان الذي رآه وهو على هذه الحال أن نظر فرأى وجه أبيه وهو يؤنبه على هذا العمل عاصياً على أنامله.

وقال آخرون: إن يوسف وهو في تلك الحال نودي من الله: يا يوسف إنك مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. إلى غير ذلك من الأقوال الباردة. والقائلون بذلك لم يفقهوا قول الله تعالى في تلك الآية ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤَى وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فكيف يكون قد صرف عنه السوء وهو قد تهيأ لفعل الفاحشة وأصغى إلى شيطان الغواية؟ ولم يرجع كما يقولون إلا بعد أن رأى من الزواجر والروادع ما يكفي لصرف أعظم الفسقة والمستهترين عن الغي ومتابعة الشهوة! وكيف يوصف بأنه من المخلصين من كان انصرافه على هذا الوجه؟

وأغرق هذه الأوجه في البعد قول من يعتذر عن هم يوسف بأن ذلك كان قبل النبوة - أي فعل المعصية في هذا الدور غير ممتنع على الأنبياء - فإن صاحب هذا القول غافل عن قوله تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فإن الرسالة إنما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية ولا يختار الله رسله من أهل الفسق. وهو تعالى يرشحهم لما يضطلعون به من رسالته فهو يعصمهم عن الخسائس وسائر ما يعير به الناس، وأي عار أكبر من أن يذهب الشخص إلى المعصية ثم لا يرجع إلا بعد الزجر والنهي؟

= واحد، وهو أنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها، فنادت الخدم وأخبرتهم بأن بعلمها جاء برجل عبراني يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خالياً طلب أن يضاجعها فأبت وصرخت بصوت عظيم، وكان قد خلع ثوبه استعداداً للأمر فخاف حين استغاثت وهرب وترك عندها قميصه.

ويقول آخرون: إنه هم، هم الطبيعة وهو أمر لا اختيار للمرء فيه. وهؤلاء أخف قولاً مما تقدم.

ويقول آخرون: إنه هم، هم ترك ولست أطمئن إلى هذا القول وأنه وجد منه هم على حال. وتكلف آخرون فقالوا: إنه هم ليضر بها.

والقول الذي لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْنَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ ومع قوله في الآية نفسها ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أن همه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بأداب آبائه وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، وأن قوله ﴿وهم بها﴾ لا يصلح جواباً لأن (لولا) لها الصدارة. لأننا لا نقول إن هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب. قوله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا ۚ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] لأن (لولا) حرف امتناع لوجود البرهان. وامتنع إبداء أم موسى بما في نفسها على ابنها لوجود ربطنا على قلبها. والجواب محذوف تقدم دليله على (لولا).

يوسف وامرأة العزيز

يوجد في الأمثال «ضربني وبكى وسبقني واشتكى» ذلكم المثل هو امرأة العزيز مع يوسف، ذلك أنها لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول - وكان معه ابن عمها - أرادت أن تشفي غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به، وتوقعه في الشر جزاء إيبائه عن مطاوعتها.

تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة ﴿مَا جَرَأَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وأفهمته أنه راودها عن نفسها وأنها أبت عليه.

وأما يوسف فقد وجد نفسه في مأزق حرج وأن الصدق سبيل نجاته. وأنه اللائق بمقابلة العزيز بما صنع معه من جميل وما أسدى إليه من المكرمة. فقال ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها إلى أن نازعني ثوبي.

وهنا ظهرت فراسة ابن عمها في تحقيق الحق من قولهما. فقال ﴿إِن كَانَتْ قِيمَتُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِن كَانَتْ قِيمَتُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) [يوسف: ٢٧] لأن الهاجم على المرأة وهي تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها في مقدمة قميصه. والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك من الخلف، لأن يكون مستديراً لها وهي تجاذبه من خلف فظهر حق يوسف وكذب امرأة العزيز بأن رأوا قميصه

قَدْ مِنْ دُبُرٍ. فعاد الشاهد أو العزيز على امرأته باللوم وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبيها وصرح بأنها مخطئة فيما صنعت.

اقرأوا قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

لطيفة

للإمام الفخر الرازي كلمة قديمة أوردها في تفسيره. خلاصتها: أن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وشهد الشيطان ببراءته بقوله ﴿وَلَا غُورِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: ٣٩ - ٤٠] وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز إذ قال ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) [يوسف: ٢٧ - ٢٩] وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها ﴿الْقَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] فالذي يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف فلا مفر له من الإقرار بالحق على أي حال، وهو براءة يوسف من الهم بها.

شيوخ الخبر في المدينة وتحدث النساء به

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة، ولاкте أفواه النساء لاثمات لها على هذا الغرام، وشرعن يضللنها ويلمنها بفادح اللوم. ودوى صدى هذا القول في أذن امرأة العزيز فأخذت في الكيد لهن ليعذرنها ولا يعزلنها، فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها العاذلات وأعتدت لهن مكاناً يجلسن فيه، وقدمت إليهن طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وآتت كل واحدة منهن سكيناً. وفي تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن، فبهرن جماله، وألهاهن عن أن يحسن قطع الفاكهة التي بأيديهن فصرن يقطعن

أيديهن. وشغلن بمطالعة محاسن خلقه والتأمل في جماله واللذة في ذلك تغمر ألم جراحهن بأيديهن فأعلن إكبارهن لذلك الجمال، وقلن ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

حينئذ أباحت امرأة العزيز لهن بما يعجنه فؤادهن من اللوعة وقالت لهن كما يشكو العاشق بلواه لعاشق مثله: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْضَّالِّينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتبت أمرها حتى صادتهن وأوقعتهن في شبك غرامه وصرن كلهن في الهوى سواء. ثم باحت لهن بذات نفسها آمنة النميمة عليها ومن هذا القبيل قول القائل:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق

وأنتم ترون أيضاً أن عشقها فضحها في المرة الأولى وكذبت لتتخلص من العار ولتتشفى من ذلك الرجل الذي وصل حبه إلى شفاف قلبها وأنضح فؤادها بنار هواه، فلم تحسن التخلص ولم يكن كذبها منجياً لها من اللوم. وكان من حقها أن ترتدع، ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية فتوعدته بأن يصدع بأمرها وإلا كان مأواه السجن ولقاء الصغار بدخوله.

ولما فشّت القالة بذلك، رأى العزيز وحسن له مشيروه أمراً هو أنه لا يخلصهم من العار ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلا زجه في السجن، ليخيلوا للناس أنه ما زج في السجن إلا لأنه آثم كاذب في ادعاء البراءة. وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به. وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَآيَاتٍ لِّيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وإني ألفت نظركم إلى لفظ ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَآيَاتٍ﴾ [يوسف: ٣٥] الدالة على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز - فيما حاولت أن تلصقه به من عار الخيانة لسيده - كان ظاهراً واضحاً. وكان من حق العزيز أن يوقع بها العقاب على ما اجترحته، ويكرم يوسف ويظهر للناس براءته ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. بل عمد هو وآله إلى الإساءة إلى من أحسن عمله وحفظه بالغيب في زوجه. ورعى له حق السيادة والإكرام. فجزاه جزاء سنمار، وعمد إلى المسيئة الكاذبة المستهينة بكرامتها وكرامة زوجها، والتي عرضت عفافها بضاعة مزجاة في سوق الفسوق فلم يمسها بأذى، بل قدم يوسف البريء التقي الطاهر فدية عن سمعتها، فكانت كأنها الدنيا تحب على كثرة أذاها ويرغب فيها مع إساءتها.

يسيء امرؤ فيبغض دائماً ودنياك ما زالت تسيء وتومق

والآية تشير من طرف خفي إلى أن القوم استعانوا بالقوة القضائية على الكيد ليوسف وزجه في السجن، لأن رؤية الآيات على براءته إنما تكون أمام القضاء، وهو إما رسمي أو عرفي، ولعل القضاء الأخير هو الذي استعملوه وهو قضاء خير منه الاستبداد لأن الاستبداد يجور فاعله على أن عمله جور - سافر غير مقنع - ولكن القضاء الذي يجور ويلبس ثوب العدل هو شر أنواع القضاء.

يوسف في السجن يدعو لدينه

أدخل يوسف السجن على غير جريمة أتاها. ودخل معه السجن فتيان، أحدهما: رئيس الخبازين عند الملك، والثاني: رئيس سقاته. فبعد يوم أتاه صاحب شراب الملك وأخبره أنه رأى في منامه أنه يعصر في كأس الملك الخمر، يتناول العنقود من العنب ويعصره في كأس الملك. وجاء الخباز وقال له: إني رأيت فوق رأسي طبقاً من الخبز والطير تأكل من ذلك الخبز. وطلبا إليه أن ينبيء كل واحد منهما بتأويل ما رأى في منامه.

انتهاز يوسف هذه الفرصة ليعلم لهم دينه ويدعوهم إليه، وقام فيهم خطيباً ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا، وأنه لا يأتيهما طعام إلا نباهما بتأويله قبل أن يأتيهما، وأن ذلك مما علمه الله تعالى إياه بتركه ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وذلك كله من فضل الله عليه وعلى ذويه وعلى الناس وسأل صاحبيه: ﴿أَرَبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] الذي أمر ألا يعبد الناس رياً سواه. وأن ذلك هو الدين القويم. وأن جهلة الناس لا يعلمون وبعد أن فرغ من دعوتهم إلى دينه وانتهى من خطبته الوعظية قال: ﴿يَصْحَجِي السَّجَنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ [يوسف: ٤١] الساقى ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] وفي تلك الحال أمل يوسف أن يجد الفرج لما هو فيه من الضيق على يد الذي ظن أنه ناج منهما. وقال له ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّيهِ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] وتحقق تأويل المنام كما قال.

الفرج ليوسف

بعد تلك السنين أراد الله أن يعجل بالفرج ليوسف فهياً لذلك الأسباب، وذلك أن الملك رأى سبع بقرات جميلات طالعة من النهر فارتعت البقرات في روضة. ثم رأى سبع بقرات أخرى قبيحة المنظر عجافاً خرجت من النهر وأكلت البقرات الأولى السمينة. ثم استيقظ من منامه. ثم عاد فرعون إلى رقاذه فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة في

ساق واحدة، وإذا سيع يابسات خلفها قد لفحتهن الريح الشرقية قد عدت على السنابل الخضر فأكلتها.

أصبح فرعون منزعجاً لهذين المنامين فدعا بالسحرة وكل من له علم، يسألهم عن تأويل هذا المنام فلم يجد عند أحد منهم جواباً بل ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

في ذلك الوقت انتبه رئيس سقاة الملك إلى الأمر. وتذكر ما قدم بما حدث، ومراً على خاطره منامه الذي رآه في السجن، ويوسف الذي عبره له تعبيراً كأنه يشاهد أمراً واقعاً. فعرض الأمر على الملك، واقتصر عليه حلمه وحلم رئيس الخبازين، وأن غلاماً عبرانياً في السجن - لرئيس الشرطة - قد عبر لهما رؤياهما، فكان الأمر كما قال، وطلب أن يرسله إلى السجن ليأتي بالتعبير الذي لا مرأى فيه من يوسف، فأرسله إليه.

فلما التقى بيوسف قال له: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦] تأكل الخضر فأخبره يوسف بتأويل ذلك. وهو أن مصر يأتي عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوفرة، ثم سبع سنين مجدبة تأتي على المخزون من السنين السبع التي تقدمتها. ثم بعد ذلك تأتي أعوام الخصب والرغد، وأن عليهم أن يقتصدوا في سني الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن القوت في سنبله. حتى إذا حل الجذب وجدوا في أهرائهم ومخازنهم ما يسد الرمق ويمسك الحوبة إلى أن يأتي الخصب.

عاد رئيس السقاة إلى الملك بتأويل رؤياه فسر بها، وعلم أنه تأويل مناسب متفق مع الرؤيا. فقال الملك اثنوني بيوسف فلما أرادوه على ذلك أبى أن يخرج من السجن حتى يعرف أمره على حقيقته، وطلب إلى الرسول أن يعود إلى الملك ويسأل عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولا بد أن يكون قد سماهن له بأسمائهن، فلما أحضرهن الملك وسألهن عن شأن يوسف، قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء، وأنكرن أن يكن سمعن شيئاً عن شأنه وشأن امرأة العزيز.

وهذه هي الآيات المتعلقة بهذا الموقف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِیْ اتَّبَعَتْهُ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْ بِكُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ لَقَدْ كَانَ حَشَشٌ لِّلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْصَصُ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥٠-٥١].

في الكلام إيجاز كما هو شأن القرآن من عدم ذكر الأشياء التي تكون معلومة من

المقام وفي الكلام وشواهد تدل عليها. والذي يفهمه من الآيات كل من له عقل أن يوسف كبر عليه أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين المحدثين الخائنين ليقف أمام الملك. فأراد ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة مرفوع الرأس أبيض الصحيفة. فذكر الحادثة على وجهها وأنه بريء منها وأن الجانية إنما هي زوجة العزيز التي بهتته في وجهه. وأن الإشاعة في البلد كانت أن امرأة العزيز راودته عن نفسها. وآية ذلك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإنها لما سمعت أنهن لائمات لها دعتهن إلى دارها - وسماهن طبعاً - وأنهن لما رأيته قطعن أيديهن، وراودته عن نفسه أيضاً لها ولأنفسهن^(١) وأن امرأة العزيز أقرت أمامهن قائلة ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَّتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُوْا لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُوْنَا مِنَ الصّٰغِرِيْنَ﴾ [يوسف: ٣٢] قالت ذلك على ملامنهن وأنها نفذت وعيدها بإلقائه في السجن وهو بريء مما يوجب سجنه، وشهادتهن بما سمعته من امرأة العزيز برهان براءته وتثبيت لقوله. والذي قلته مفهوم من أساليب القرآن، وأن الملك أحضرهن وسألهن عن شأنهن في ذلك اليوم الذي راودن فيه يوسف عن نفسه فكان جوابهن ﴿حَسْبُ لِلّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

يمكن أن يفهم قولهن هذا على أنهن لم يسمعن عن يوسف شيئاً ولم يعلمن عليه سوءاً، أو يكون قد وقع منهن مراودات.

وحينئذ يكنّ قد أنكرن الشهادة ولم يؤدبن ما طلب يوسف منهن: وهو الشهادة بما سمعته من امرأة العزيز وتوعدها يوسف بالسجن إذا لم يصدع بأمرها. وذلك الموافق لقولهن ﴿حَسْبُ لِلّٰهِ﴾ [يوسف: ٥١] لأنه إنكار لما سئلن عنه.

وحينئذ يكنّ قد خيبن أمل يوسف فيهن، وأردن أنهن لا يتهمنه بسوء، وفي الوقت نفسه يكتمن على امرأة العزيز ما باحت به أمامهن من مراودتها إياه واستعصامه، وأن نجاته من السجن رهينة بموافقتها على مرادها الذي أرادته عليه من قبل.

وحينئذ يكون يوسف قد اغتر بما أظهرن له من الإكبار والمحبة حتى دعه كل واحدة إلى نفسها، وظن أن ذلك يدعوهم إلى أن يقلن الكلام الذي حصل على وجهه الحق وفي ذلك براءته، فلم يقلن، بل قلن شيئاً لم يدعين لأجله وهو قولهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ﴾ [يوسف: ٥١] فإن عدم علمهن بالسوء عليه لا يجعله بريئاً في الواقع. وهذه شهادة على النفي لا تثبت بها الوقائع المعينة التي أراد يوسف إثباتها.

(١) ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ويحتمل أن يكون ما رواه القرآن من قولهن ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ عبارة عن خلاصة لما رويته عنه مما يقتضي براءته. وأنهن أتبن بالشهادة على وجهها، وملخصها براءته من السوء، وهذا أولى الاحتمالين عندي. وأقول إن إتيانهن بالشهادة على وجهها هو الذي أخرج مركز امرأة العزيز، وسد في وجهها المسالك، فلم تجد للإنكار سبيلا فقالت ﴿الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] الخ.

سأقت التوراة حكاية السجن وحلم رئيس السقاة ورئيس الخبازين إلخ كما قصها القرآن الكريم. ولم تذكر المراودة بين يوسف والملك في شأن براءته، ولم تذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولا أي شيء عن شأنهن. وذكرت التوراة أيضا أن يوسف ارتفع شأنه في السجن وصار كشخص رئيسه وله الأمر والنهي في كل النازلين في بيت السجن. أضيف إلى ما تقدم من شهادة النسوة ليوسف بما يبرئ ساحته: أن امرأة العزيز لما رأت أن يوسف الذي زجت به في السجن ظلماً قد أكرمه الله تعالى حتى صار من هم الملك أن يأتي به ليستخلصه لنفسه، وأن تماديها في اتهامه بما لم يقترب لا يجديها نفعاً ولا يلحق بيوسف ضرراً؛ وطدت نفسها على الصدق في شأن يوسف لأول مرة. بعد أن بهتته في وجهه ورمته بما هو منه براء وظلت مصرة على باطلها السنين الطوال. فأقرت بما لا تقر به المرأة إلا مغلوبة على نفسها وباحت بما كتمته عن زوجها وآلها سنين عدة فقالت ﴿الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣].

بهذا الإقرار الصريح - الدال على صدق يوسف وبرأته مما قرف به ظلماً، ذلك الإقرار الذي ما كان يوسف يظن أنه يصدر من امرأة العزيز الجانية عليه الموقعة له في السجن - لم يعد يومئذ في حاجة إلى جمع الأدلة وتصيد البراهين على براءته وإقامة الحجج على أنه حبس ظلماً وعدواناً، وقدم فدية عن عرض امرأة العزيز وذبيحة بيد مكرها وقسوتها.

(ملاحظة) يجعل بعض المفسرين قوله تعالى ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣] الآية من كلام يوسف وهو خطأ لأن نظم الآيات وروح الموضوع يأبيان ذلك، وإنما هو من قول امرأة العزيز لأن ذلك صدر ويوسف في السجن قبل أن يقول الملك ﴿أَتُؤْنِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

يوسف بحضرة الملك

لما ظهرت براءة يوسف لفرعون هذا الظهور، وخرج يوسف واضح الحجة مستقيم

المحجة، قال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي. وحينئذ رأى يوسف أنه لاعلة له، فجاء الملك وكلمه فسر الملك به وأعجبه عقله وحسن تعبيره الرؤيا؛ وسأله أي عمل يرضاه لنفسه ويكون فيه سروره؟ فقال يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥] وما يخرج منها من الغلات والخيرات ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٥].

اقرأوا قوله تعالى في سورة يوسف ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

هذا الموقف ذكر في التوراة في الإصحاح الحادي والأربعين من سفر التكوين، وهي لم تذكر إباءه الخروج من السجن حتى تظهر براءته. بل ذكرت أن رئيس السقاة أخبر فرعون بأن يوسف قادر على تعبير الرؤيا وأنه عبر له - على النحو الذي قدمناه - وقال لهم: لا بد من ادخار خمس غلة الأرض في السنوات الخصبة، حتى إذا جاءت سنوات القحط كانت البلاد مستعدة لمكافحة الجوع، وأن يقوم على ذلك نظار في أرجاء البلاد. فقال فرعون لجنوده: هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟!

ثم التفت إلى يوسف وقال له: بعد ما أعلمك الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك، أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك. وقال له أيضاً: قد جعلتك على كل أرض مصر، وخلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا على الناس أمامه بالركوع له وجعله على كل أرض مصر وصاحب الأمر والنهي والأمر المطاع والكلمة النافذة، وسمي يوسف «صفنات فعنيح» وأعطاه «أسنات بنت فوطى فارع» كاهن أور زوجة. وكان يوسف ابن ثلاثين سنة حين كان هذا الحادث فخرج يوسف وارتحل في كل أرض مصر لتفقد الأحوال وتهيئة الأعمال اللازمة لمقاومة الجوع في البلاد.

إخوة يوسف في مصر يمتارون

مرت السبع المخصصة وأعد يوسف عدته فيها، واتخذ الخزائن والأهراء وخزن الغلات في غلفها. ثم جاءت السبع المجذبة واشتد الجذب في جميع أنحاء الأرض. فأما المصريون فذهبوا إلى فرعون يطلبون القوت فأحالهم على «صفنات فعنيح» يوسف، ففتح المخازن وباع لهم من الطعام ما يكفيهم. وأحس أهل فلسطين الجوع وعلموا أن الطعام بمصر، فأرسل يعقوب أولاده ومعهم الجمال والحمير لحمل الطعام وأعطاهم الثمن،

فقدموا إلى مصر لشراء قوت لأهلهم. فلما قدموا إلى مصر رآهم يوسف فعرفهم ولم يعرفوه.

وذلك طبعي لأنه فارقهم أمرد غض الإهاب وقد ناهز اليوم الأربعين من عمره، وقد كسسته أبهة الملك مهابة تغض عنه عين الناظرين إليه. وأما هم فعلى حالهم في ملابسهم ولغتهم ومنظرهم.

لما جهز يوسف إخوته بالطعام الذي اشتروه: قال لهم ائتوني بأخ لكم من أبيكم أعاملكم مرة أخرى فإذا لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تأتوا إلي. وذلك أنه رأى إخوته جميعاً إلا أخاه لأمه «بنيامين» وهو أصغر منه. فأخذ في استدراجهم حتى علم منهم حياته وأنه عند أبيه لم يسمح بمفارقتة، فأعطاهم الطعام بلا ثمن في الواقع ليأتوه بأخيهم دون أن يعلموا أنه رد عليهم الثمن فقالوا له: سنراود عنه أباه، وكان يوسف قد أكرمهم وأظهر لهم السماحة وقال لفتيانہ اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعام في أوعيتهم فإنهم يعودون بها إلينا. لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم. وقد جعل يوسف ذلك شركاً لهم ليعودوا إليه.

إخوة يوسف عند أبيهم

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه أن «وزير التموين والتجارة» منعهم الشراء من الطعام فيما بعد حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم، فتذكر يعقوب قديم أمرهم بحديثه وعادته لوعته على يوسف فقال لهم ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤].

فتح إخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذي أتوا به من مصر، فوجدوا فضتهم بحالها لم تمس، فكان ذلك مما شدد عزائمهم في الكلام مع أبيهم وقالوا له: يا أبانا ما نبغي! هذه بضاعتنا ردت إلينا! فإذا سمحت بأخيها يذهب فإننا نمير أهلنا ونحفظ أخاننا ونزداد كيل بغير وهو شيء يسير عند الملك الذي طلب أخاناً!

والظاهر أن القحط كان شديداً جعل يعقوب يسمح بسفر ابنه تحت شروط اشترطها على أولاده فقال لهم: لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتيني به إلا أن يحاط بكم. أي إلا أن تغلبوا على أمركم. فأعطوه موثقهم على الوفاء بما اشترطه. وحينئذ قال: الله على ما نقول وكيل. وأوصى بنيه أنهم إذا أتوا مصر لا يدخلون من باب واحد بل يدخلون من أبواب متفرقة.

ويقول المفسرون: إن ذلك لخوفه عليهم من الحسد. والذي أميل إليه أن ذلك كان منه لئلا يلتفتوا نظر الناس. وذلك يدعو إلى التحدث بشأنهم والحدث في مقصدهم. فيظن

بهم أنهم جواسيس أو رواد لمن وراءهم ممن يريد الإغارة على البلاد من الأقوام التي عضها الجوع.

ومهما كان من الأمر فقد عاد إخوة يوسف إلى مصر في طلب الميرة ولم يبق عند أبيهم أحد منهم ومعهم البضاعة التي وردت إليهم.

هذا الموضوع ذكر في التوراة. وليس بينه وبين ما في القرآن كبير اختلاف.

فقد ذكر في الإصحاح ٤٢ تكوين: أن إخوة يوسف لما جاءوا إليه تنكر لهم وتكلم معهم بجفاء وقال لهم: من أين جئتم؟ فقالوا: من أرض كنعان لنشتري طعاماً! فقال لهم: إنكم جواسيس جئتم لتعرفوا أرضنا ومدخلها ومخارجها وعورتها. فقالوا له في عرض تبرئتهم لأنفسهم بأننا لسنا جواسيس. عبيدك اثنا عشر أخاً بنو رجل واحد، الصغير منا عند أبينا، وواحد مفقود. أي ولا يعقل أن عشرة من الرجال هم إخوة لأب واحد يكونون جواسيس. فأظهر أنه يريد منهم البراءة من الجاسوسية. ولا دليل على براءتهم إلا أن يأتوه بأخيهم الصغير، وحبسهم ثلاثة أيام وفي اليوم الثالث أتى بهم وقال لهم: إني خائف الله في أمركم فإن كنتم أمناء ولستم جواسيس فليحبس واحد منكم. وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لإمساك رمق أهليكم وأحضروا أخاكم الصغير إليّ لأعلم صدقكم.

وكان إخوة يوسف قد تذكروا حرج مركزهم أمام وزير التموين والتجارة وما هم فيه من الضيق، فعادوا باللوم على أنفسهم إذ رأوا أخاهم يوسف وهو في حال شدة حين هموا بقتله ثم ألقوه في الجب وهو يستغيث بهم فلم يغيثوه فندموا. وأيقنوا أن هذا الموقف الذي وقفوه جزاء من الله تعالى لهم على قسوتهم على أخيهم وقال بعضهم لبعض: حقاً إننا مدينون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فقال لهم رأوبين: ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا فهو ذا دمه يطلب؟ ولم يكن القوم يعلمون أن يوسف فاهم لحوارهم. لأنه إنما كان يكلمهم بواسطة ترجمان، فتحول يوسف عنهم وبكى ثم أمر أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد منهم إلى عدله، وأن يعطوا زاداً للطريق فرأى واحد منهم فضته في عدله فتكذبوا وخافوا. وكان يوسف قد استبقى شمعون عنده رهناً على وفائهم.

ولما عادوا إلى أبيهم وأوقفوه على حقيقة أمرهم نفر من هذا الأمر فقال: أعدمتومني يوسف فهو مفقود. وشمعون - الذي تركوه في مصر - مفقود وتأخذون بنيامين؟ فإن حصل له أمر في الطريق أهلك من الحزن! فقال له رأوبين: سلمه لي أردته إليك فإن لم أفعل فاقتل ابني، فأبى «ص ٤٣».

ولما اشتد الجوع طلب يعقوب إلى بنيه أن يذهبوا لأرض مصر ويتاعوا منها طعاماً، فقال يهوذا له: إن الرجل قد أشهد علينا قائلاً: لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم فلامهم على إخبارهم إياه بأن لهم أخاً تخلف. فقالوا: عذرنا أن الرجل اتهمنا بالجاسوسية وسألناك هل أبوكم حي؟ هل لكم أخ؟ وما كانوا يحسبون أنه سيطلبه منهم. وألح يهوذا على أبيه وضمنه له فسمح بذلك. وأمرهم أن يأخذوا هدية للرجل الذي يبيعهم الطعام تكون من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن واللوز والفسق. ويردوا له الفضة، ويأخذوا فضة أخرى ثمناً للطعام الجديد.

نزل إخوة يوسف بعد ذلك إلى مصر، فلما رأى يوسف إخوته ومعهم بنيامين أمر غلمانه بإضافتهم وأن يذبحوا لهم ويهيئوا طعاماً لأكله معهم وقت الظهر.

ولما فعل رجال يوسف ما أمروا به جاءوا بإخوة يوسف إلى بيته، فلما علموا أنهم داخلون إلى البيت خافوا على أنفسهم وقالوا فيما يناجى به بعضهم بعضاً: إن إدخالنا إلى البيت إنما هو بسبب الفضة التي وجدناها في أعدالنا وأنه سيهجم علينا ويأخذ حميرنا ويجعلنا عبيداً له. فكلّموا خادماً من خدم يوسف وقصوا عليه قصتهم ورجوع الفضة معهم وهم لا يعلمون، وأنهم عادوا بها وبفضة أخرى لشراء القمح فهدأ الرجل روعهم، وأدخل إليهم أخاهم شمعون الذي كان رهينة في يد يوسف، وأدخلهم إلى دار يوسف للغداء.

ولما جاء يوسف وقت الغداء قدموا إليه الهدايا، ونظر إلى بنيامين وقال: أهذا أخوكم الصغير الذي قلت لي عنه؟ ودعا قائلاً: الله ينعم عليك يا بني! ولم يطق يوسف الجلوس معهم لما حضره من الحنين إلى أخيه فذهب إلى مكان منفرد وبكى ثم عاد وسألهم عن أبيه وسلامته. ثم قدم إليهم الطعام، وأكل هو وحده والمصريون وحدهم.

لأن المصريين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة. ولعل عدم أكله مع إخوته لثلاً ينتقد المصريون عليه ذلك. وقد أجلس إخوته بحسب ترتيبهم في السن فبهتوا لأن عمله صادف الواقع الذي يعرفونه وأغدق على بنيامين الطعام. ١ هـ.

حيلة يوسف في إبقاء بنيامين عنده

أمر يوسف بتجهيز إخوته فملاً لهم الأعدال طعاماً، وأمر أن توضع فضة كل واحد في عدله، وأن توضع طاسة في عدل الصغير - وهي الطاس التي كان يشرب فيها - فساروا غير بعيد فلم يفاجئهم إلا وكيل يوسف يناديهم ويوبخهم على ما صنعوا وأنهم قابلوا الإحسان بالكفر، وأنهم سرقوا سقاية الملك «يوسف» فأظهروا البراءة من هذا

العمل وقالوا: من وجدت سقاية الملك في رحله يؤخذ عبداً للملك. ففتش أعدالهم - مبتدئاً بالكبير منتهياً بالصغير - فوجد السقاية في عدل بنيامين، فرجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين، ولامهم يوسف على ما صنعوا، فراودوه على أن يأخذ أحدهم عبداً مكان أخيهم، فأبى وقال: إن الذي وجد الطاس في رحله يستعد لي، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم، وأبى يوسف - بعد الاستعطاف وبيانهم أن أباه متعلق به، وأنه سلوته عن أخيه المفقود - أن يطلقه. فقالوا بحضرة يوسف وقد ملثوا غيظاً على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل! فأسرهم يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، وقال لهم: أنتم شر مكان من هذا السارق، والله أعلم بما تصفون.

وكانوا يعنون يوسف، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير فكفلته عمته وتعلقت نفسها به. فلما اشتد قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فضنت به وألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سرقت منها وبحث عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به.

يئس أخوة يوسف من أخذ أخيهم - بطريق المبادلة - فقال كبيرهم «رأوبين» إن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله برد أخيكم، ومن قبل ذلك كان تفريطكم في يوسف، وعلى ذلك لن أبرح الأرض «مصر» حتى يأذن لي أبي في القدوم، أو يحكم الله في شأني وهو خير الحاكمين. وأشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم وإخباره بما كان من أمر أخيهم ومن الملك «يوسف» وأن ابنه صار عبداً للملك بسبب سرقة طاسة. وأن ظهور السرقة كان عن ملأ منهم ومن أهل العير التي كانوا فيها وأنهم صادقون فيما أخبروا به.

عاد إخوة يوسف - عدا أكبرهم وأصغرهم - إلى أبيهم وأخبروه بالأمر على جليلة فلم يدخل عليه هذا القول. وأحاله على أمر دبروه له كما دبروا لأخيه من قبل، وزاد به الحزن حتى ابيضت عيناه وعاوده من الوجد ما عاوده فقال: يا أسفاً على يوسف! فلما هم أولاده على ذكر يوسف وقد انقضى أمره ثم إن يعقوب رد أولاده الذين وردوا عليه إلى مصر ليشتروا طعاماً وليتحسسوا شأن يوسف وأخيه. وأمرهم بعدم اليأس من روح الله، فإن ذلك شأن الكفار فذهبوا كما أمرهم أبوهم.

اقرأوا قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِيقُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٨﴾ قَالُوا

فَقَدِّ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا نَأْتِيهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ أُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطْلُمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنْ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَنَسِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمَرُ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عَلَيْهِ مِنْ الْخُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ .

من المقارنة بين هذا الموقف من القصة في القرآن وبينه في التوراة نجد الخلاف قليلاً. فإن القرآن يجعل أخذ الموثق على جميع أولاد إسرائيل العشرة. والتوراة تجعله على يهوذا خاصة، ولعله كان متكلماً عنهم وكلمته كلمتهم وعهده عهدهم والقرآن يذكر أن يوسف أوى إليه أخاه وقال (إني أنا أخوك) والتوراة تجعل يوسف مجهولاً من بنيامين إلى أن أخبرهم جميعاً بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس. والقرآن ذكر قولهم ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] والتوراة لم تذكرها والقرآن يذكر عودة إخوة يوسف إلى أبيهم وإخباره بأن ابنه قد سرق واستعبد في مصر، والتوراة لم تذكره.

يوسف يتعرف إلى إخوته

جاء إخوة يوسف وقالوا ﴿يَتَأْتِيَ الْعَزِيزُ مَسَنًا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ﴾ «من الجوع» ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ﴾ «لقلتها» ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ «وإن كان الثمن لا يوجب ذلك» ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ «بإطلاق أخي» من عبوديتك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] فقال لهم يوسف مذكراً بما كان منهم من الإساءة ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] إذ فرقتم بينهما وألهبتم صدورهما بنار البعد. ولعله إنما كلمهم بلغتهم لأول مرة. فعرفوا أنه يوسف، لذلك ﴿قَالُوا إِيَّاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا نَأْتِيكَ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ وَإِن كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ إِيَّيَّاتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٠ - ٩٣].

فلما فصلت غيرهم من مصر كانت نفس يعقوب مستشرقة لتغيير ما به من حال ولم يدب اليأس إلى نفسه، بل هو يتوقع الفرج بقاء يوسف الذي طال حزنه عليه، فقال لمن حوله من جماعته: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]! أي لأخبرتكم بأني أتوقع لقاءه. فقالوا له ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْعَمِيَّةِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي خطئك القديم في اعتقادك أن يوسف باق إلى اليوم! ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه. وألقي قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيرا وقرت عينه. وبشر نفسه باللقاء فقال للآحين له ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

ولا بد أن يعقوب لم يقل هذا القول إلا وقد أعلمه الله بحياة يوسف وأنه سيلاقيه. شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم إلى مصر فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف فأوى إليه أبويه أي يعقوب وزوجه - خالة يوسف لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير - وسجد له أبوه وأمّه وإخوته الأحد عشر. وقال لأبيه يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً. وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجعلني على خزائن الأرض بيدي الحل والعقد وإليّ الأمر والنهي. وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي وهذا كله من لطف الله بي وبكم إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

في هذا الموقف الباهر والإكرام العظيم الذي أكرم الله به يوسف بعد ملاقة الأحوال التي يلين لها الحجر الصلد، من ائتمار إخوته به، فطمه، ولكمه، ولكزه، فسلبه ثيابه،

فإلقائه في الجب عارياً فريداً لا أنيس ولا معين، فأخراج السيارة له وبيعه بيع الرقيق في مصر فمحتته بامرأة تدبر له الكيد وتمعن في الإساءة إليه جزاء له على تفويته غايات سافلة لها، فسجنه السنين الطوال.

كل ذلك وهو مستمسك بدينه وبشرفه وكرامته ووفائه وذمته ودائب على الدعاء إلى الله فخروجه من السجن، فتوليته على خزائن الأرض، فقدوم إخوته مستجدين حنانه وهم لا يعرفونه، فمداعبته إياهم، فقدوم والده إليه بعد أن ابضت عيناه من الحزن عليه وعلى أخيه ولم يزل يباضهما إلا بإلقاء قميص يوسف عليه؛ وسجود أبيه وأمه وإخوته له.

كل ذلك مر بمخيلة يوسف فجاء يشكر الله تعالى معلناً نعمته عليه وما منحه من علم وملك، داعياً الله تعالى أن يتولاه في الدنيا والآخرة، وأن يتوفاه مسلماً أي مطيعاً لله غير عاص ولا آثم، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء.

اقرأوا قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الأخلاق التي تستفاد من قصة يوسف وإخوته

هذه القصة مورد غزير المادة لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة الطاهرة، ويشرح الاستقامة على المبادئ الحققة وأثرها في النفس، وموضع درس عميق في علم النفس. ولا يكون العالم النفسي مسرفاً إذا وضع في الأخلاق وعلم النفس: كتاباً كبيراً وافياً، مرجعه فيه «سورة يوسف» وجعل أحوال يوسف وما حصل منه وله موضع تطبيقها وقبل أن ألم الإمامة خفيفة بذلك أذكر مناقشة حصلت بين أحد وزراء المعارف، في عهد الخديو السابق وبين أحد المشايخ.

ذلك أن الوزير كان من الذين تعلموا في مصر التعليم الابتدائي والثانوي، ثم ذهب إلى أوروبا فكان نسخة صحيحة من التربية الفرنسية والتفكير الفرنسي.

ذهب الوزير يفتش في مدرسة المعلمين بالقازيق، ودخل عند شيخ يدرس الأخلاق، فأعجبه تدرسه وانتهى المدرس، فسأله الوزير: من أي مرجع تستقي؟ فقال: القرآن. فقال متهمكماً: القرآن! قرآن إيه يا خويا! أتعلم الأخلاق من ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَوْتُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]؟.

فقال له الشيخ: يا سعادة الباشا، إن هذه السورة التي لم تعجبك يمكنني أن أستخرج

منها أمهات الفضائل والأخلاق فأستخرج منها العفة والفضيلة في شاب في ريعان شبابه محفوف بالمغريات وموجبات الصبوة، فلم يكثرث لذلك واستمسك بمبدئه ولقد لقي الأهوال وعانى الصعوبات في سبيل استمساكه بالفضيلة، فلم يغير مبدأه السجن والإذلال مع أنه لو أجاب لكان منعماً مرفهاً منظوراً إليه بعين الإكبار، وإن الاستمساك بالدين أصل لكل فضيلة فاستمساكه بدينه جعله يستهين بالأخطار. وإن الحق وإن استتر زمناً بثوب من التضليل لا بد أن يظهر ولو بعد حين.

ولما انتهى الشيخ إلى هذا الحد قال له البابا «سي الشيخ امسح وأنا امسح».

وهأنذا أبين بعضاً مما يعن لي: .

إن طيب الأصل إذا آزره طيب البيئة ووجد الإنسان في تلكم البيئة زمناً كافياً، فإن ذلك يجعله على أكمل الأوصاف وأروع الخصال، ويصيره خيراً لا شرف فيه، والإحساس بالشرف عامل حافز على الاستمساك بالفضيلة:

١ - هذا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - وكل إذا عد الرجال مقدم - غذي بدر النبوة وارتضع أفويق الرسالة نشأ أبوه على التقوى ورشحه بالصلاح وتعهده بالأخلاق النبوية الكريمة فنشأ أصلح نشأة، وأحسن من صغره بمجد آبائه وأجداده. وأبوه يذكره بأولئك الآباء الصالحين المصطفين الأخيار، ويمنيه أن يلحق بهم ويسير على قدمهم.

انظروا حين قص يوسف على أبيه رؤياه ماذا قال له؟ قال ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَتْهَا عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ يُبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦] والأصول عليها ينبت الشجر.

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم وهكذا يكون الرجل الذي يرشح للنبوة. ويعدده الله تعالى لنشر دينه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

٢ - أن يوسف عليه السلام قد شب على أكمل الأوصاف عاملاً بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء صلوات الله عليهم.

فكفه ذلك عن اتباع الشهوات؛ بل حصر فكره وعمله في موجبات الفلاح وما يعقب رضا الله تعالى؛ لا جرم أن الله تعالى زاده علماً على علمه وفتح بصيرته وجعله ذا فطنة ثاقبة، وعلمه من تأويل الأحاديث فلا يأتيه أحد يقص عليه رؤياه إلا أنه بتأويلها على وجهه، وذلك من شدة الملاحظة وثقوب الذهن ومعرفة موارد الأمور ومصادرها مع عون

الله تعالى له، فإن ذلك كله يوجب النفوذ إلى بواطن الأشياء والتفطن للمناسبات على وجه يجعل الظن يقيناً، وذلك هو الألمعية.

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً
 ٣ - الإيمان بالمبدأ يأتي من وراء كل بلاء في سبيله.

فهو يسهل على صاحبه ملاقات الصعاب ومواجهة هوج العواصف النفسية والأخطار في سبيل تأييد ذلك المبدأ الحق.

انظروا إلى يوسف وهو الفتى الغض الإهاب المشتعل جمرة الشباب - الذي يقولون إن الجنون شعبة منه - مع فراغه وارتفاع شأنه في بيت سيده ومع الحياة الجدة التي هو فيها، والغنى الوافر الذي يتقلب في أعطافه ويرغد في أكنافه، ومعه في البيت سيدة في مثل حاله - هي سيدته والحاكمة عليه في بيئة كلها مغريات بإرضاء الشباب وشفاء غلة النفس، تدعوه إلى نفسها فيعرض، وتلح عليه فيرفض - أرادت قسره على ما فيه السعادة ظاهراً فأبى، ونازعته ثوبه فنبأ. استمسكاً بمبدأ العفاف والتقوى. وحذراً من أن يكون عار آبائه وأجداده الذين علم عنهم العزوف عن كل ما يشينهم أو يخل بأوامر دينهم ونواهيهم، وحفاظاً لسيده الذي أكرم مثواه وأحله محل الولد - ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبه ولا دأب أسرته - وهي لا تصغي لعظة ولا تسمع لنصيحة - ولا ترعوي عن غي. كل ذلك ينبىء عن نفس كريمة، وروح طاهرة، وعزيمة صماء لا تسمع رقى الغواية، ولا تجيب داعي الجهالة.

وهذا من أخلاق أولي العزم المستضيئ البصائر، المؤمنين حق الإيمان بالمبدأ الذي اعتنقوه.

٤ - الالتجاء إلى الله عند الابتلاء.

لقد اعتمد يوسف على الله تعالى عند كل ضيقة. والتجأ إليه عند كل معضلة. فإن النساء المصريات حين رأين يوسف وأكبرن حسنه وجماله، وبعد أن كن عاذلات لحيات لامرأة العزيز عدن عاذرات، وراودنه لها ولأنفسهن. وتوعدته امرأة العزيز قائلة ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] لجأ إلى ربه مستغيثاً خائفاً وجلاً قائلاً ﴿رَبِّ اَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] ففرج الله عنه ما نزل به وصرف عنه كيدهن وعملهن لموافقتهم على ما يردن من الفاحشة؛ بأن أبعدهن عنهن بالسجن وهو أهون الشرين على يوسف. وهذه ضراعة إلى الله لا تهديد.

٥ - عشق يوسف لدينه والدعوة إليه .

إن المؤمن بمبدأ من المبادئ حق الإيمان لا يترك فرصة تمر دون أن يدعو إلى مبدئه الذي تغلغل في أعماق نفسه ويبشر به . فإن يوسف اهتبل فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة إليه في تعبير رؤيا كل منهما ، فأخذ يدعوهما إلى دينه بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا . ولو كانت الرؤيا عن طعام يرزقانه لنبأهما بتأويلها قبل أن يأتيهما ذلك الطعام .

وماذا يعيب المرء في مدح نفسه إذا لم يكن في قوله بكذوب؟ ثم أخذ يبين لهما أن ذلك من تعاليم إلهه . ومجانبته ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، واتباعه ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب . ثم أخذ يبين شناعة ما عليه أهل مصر من تعديد الآلهة . وتكثير الأرباب وأن دينه دين التوحيد هو الدين القيم ولكن الناس في غفلة عنه

اقرأوا قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ يَصْدِجِي السَّجْنَ ءَأَزَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَعَتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ لَكُمُ الْإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: ٣٧ - ٤٠] .

فينبغي لكل واحد منكم أن يكون نهازاً للفرص لبث عظاته ونصائحه وإرشاده في أنفس الناس وإذا لم تعرض له فرصة خلقها .

٦ - زانة يوسف ومحافظةه على شرفه .

إن أحداً سوى يوسف إذا كان مظلوماً أو غير مظلوم وجاءه أمر الإفراج والخروج من السجن . لا بد أن يبادر إلى الخروج منه ويغتبط بذلك أيما اغتباط . ولكن يوسف كان عنده خلق الإباء والشمم . شرف نفسه وطهارتها أثر لديه من الخروج من السجن . فلم يشأ أن يقال عنه مجرم سُرَّ منه الملك فعفا عن جريمته وأخرج من السجن . بل أبى أن يخرج إلا بعد أن يثبت أنه بريء الساحة نقي الصحيفة . فأرسل إلى الملك يبسط ظلامته ويطلب إليه إعادة التحقيق في جريمته . فلما أجرى الملك التحقيق على وجهه وظهرت براءته رضي بالخروج من السجن مرفوع الرأس نقي الصحيفة . والشمم والإباء يحملان المتصف

بهما على مجانية كل ما يمس شرفه أو يندس نفسه ذلك أن نفس الإنسان أعز الأشياء عليه وأثرها لديه، فهو يحب نفسه حباً جماً.

ويقول بعض العلماء: إن الإنسان لا يحب أصدقاءه وخلانه إلا لأنه يجد فيهم لذة نفسه. يرتاح إليهم ويجد سلوته بالقرب منهم. فمحبة الأحياء أثر من آثار محبة المرء لنفسه. وإذا كانت نفس إنسان عنده بهذه المنزلة من المحبة والإكبار والإعظام. لا جرم أن غرامه بنفسه يدعوه إذا كان من أهل الكرامة إلى أن يطهرها من الأدناس ويحرص الحرص كله على أن تكون صفحة حياتها متألثة لامعة لا يشوبها شيء من النقائص والخصائص.

هكذا كان يوسف عليه السلام. وهذا هو الذي حملته على الإباء من مزيلة السجن إلى أن تنجلي عن ساحة شرفه تلك الغمامة التي كانت مخيمة على صفحة كبيرة من صفحات حياته فلما انجلت خرج من السجن خروج السيف جلاه صيقله.

٧ - خلق الصبر.

كان يوسف عليه السلام متحلياً بفضيلة الصبر. والصبر من أعظم الفضائل وأجلها قدراً. ذكر في القرآن الكريم في نيف وسبعين موضعاً. وقد رتب الله كثيراً من الخيرات والدرجات العالية على تحلي الإنسان بفضيلة الصبر، حيث لم يجعل له جزاء محدوداً ومكافأة معينة. بل جعله منوطاً بكرمه الواسع. وجوده العميم بغير وزن ولا معيار. مع أنه حد لكل مزية جزاء معيناً.

اقرأوا قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَدُّونَ بِأَثَرِهَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿وَوَكَّمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَقِيَّةِ إِسْرَائِيلَ يَمَّا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ﴿بَلَّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥] ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان» وسئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة».

الصبر: هو حبس النفس على ما تكره. وهو من خواص الإنسان التي تميز بها عن سائر الحيوان. فإن البهائم لا تحبس نفسها عن شهوة من الشهوات كالغذاء وغيره ولا تنظر في عواقب شيء من مشتيتها. بل هي تنظر شهوتها الحاضرة فقط ولا تحبس نفسها عنها أصلاً.

الصبر له أسماء تتجدد بالإضافة إلى ما عنه الصبر. فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي «عفة» وإن كان على احتمال مكروه؛ فإن كان في مصيبة سمي «صبراً» وضده الجزع والهلع - وذلك بأن يسترسل في ضرب الخدود وشق الجيوب - وإن كان الصبر في احتمال الغنى بأن يجاوره بالشكر سمي «ضبط النفس» ويقابله البطر. وإن كان الصبر

في الحروب وملاقة الأهوال سمي «شجاعة» ويضادها الجبن. وإن كان الصبر عند موجبات الغضب سمي «حلماً» ويضاده التذمر. وإن كان الصبر عند نائبة مضجرة من نوائب الزمان، سمي «سعة الصدر» ويضاده الضجر وضيق الصدر. وإن كان الصبر بإخفاء كلام يسوء غيره ظهوره، سمي «كتمان سر». وإن كان الصبر على القدر اليسير من الحظوظ سمي «قناعة» وإن كان الصبر عن فضول العيش بأن اقتصر على أقل القوت سمي «زهداً».

اقرأوا هذه الآية الجامعة لكثير من أنواع الصبر.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[البقرة: ١٧٧].

لقد ضرب يوسف للناس المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر:

١ - صبر على إيذاء إخوته له. وتجريدهم إياه من ثوبه. ولطمه ولكزه وإلقائه في الجب بقصد إهلاكه.

٢ - لا بل صبر على أعظم من هذا حيث اعتبروه شريراً جانياً؛ إذ باعه ملثقطوه بأبخس الأثمان قال تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

٣ - صبر على نعمة الله فجاورها بالشكر، وجانب البطر حين تمكن في بيت سيده وصار صاحب الأمر والنهي. فلم يسئ استعمال المال بصرفه على الشهوات، بل شكر الله ولسيده، ولم يدخر لنفسه من ذلك الغنى ولم ينل منه إلا حاجته، وكف عن الفضول فكان قانعاً.

٤ - صبر على شهوة الفرج وقد هيئت له في جيش من المغريات يحف به من كل ناحية؛ فالطالبة سيدته وربة نعمته، مع ما هي عليه من جمال ورفاعة ورغبة فيه، وهو شاب ما طرّ شاربه في إبان فيضه الحيوي. وأوان التهاب جذوة الشهوة واحتشاد الدواعي الطبيعية، وانتظار الآمال والأمني الجسم له إذا لبى، فلم يخرج من بين أولئك المغريات إلا إلى العفة متوجاً بتاج الصبر عن الشهوات، وأسقط منازعة دواعي الهوى وقهرها لباعث الدين وكرم النفس والحفاظ والوفاء، ونصر جند الرحمن على جند الشيطان:

أهان الهوى حتى تجنبه الهوى كما اجتنب الجاني الدم الطالب الدما

٥ - مسته الضراء وألقي في غيابة السجن فحالف الصبر الجميل، وسعة الصدر.

٦ - خرج من السجن ومكن الله له في الأرض وجعله على خزائنها، وصار أهل القطر المصري في وثاقه، والنفوس بين حبسه وإطلاقة، وعزرائيل بين شفّتيه، وكلمته فيها الحياة الطيبة أو الموت الزؤام. وجاء إخوته يمتارون وهم ثأره والذين أبدعوا به وأودعوا عنده إساءتهم سلفاً. فلم يجز شرهم بمثله، بل صبر وغفر. ولما قالوا له ﴿أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. فأظهروا ندمهم واعترفوا بخطئهم قائلين ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلِينَ﴾ [يوسف: ٩١] فأسبل ذيل عفوه على إساءتهم. وأجرهم وسن التجاوز وقال لهم ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

هذا قليل من كثير من المشاهد الصالحات والمواقف الكريمة التي تشهد ليوسف أنه رجل بَزَّ الرجال بصفاته الكريمة. وضرب الأمثال العالية بأخلاقه الطاهرة وحكمته ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فضيلة الشكر

كان يوسف متحلياً بفضيلة الشكر. والشكر من أخلاق الربوبية قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] والشكر: هو معرفة النعمة الحاصلة من المنعم والفرح بها والقيام بمقصود المنعم والعمل بما يحبه وهذا الخلق عزيز في الناس.

اقرأوا قول الله حكاية عن إبليس ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وهذا وإن كان قولاً لإبليس ولكن الله تعالى صدقه في قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣] وقد أمر الله به فقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقد استثنى الله تعالى في خمسة أشياء ولم يستثن الشكر. فاستثنى في الإغناء. وفي الإجابة. وفي الرزق. وفي المغفرة. وفي التوبة. فقال ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [النسوبة: ٢٨] ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]. ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥] - وأما الشكر فقال فيه ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [التوبة: ١٥]. ولم يستثن.

وهذا يوسف يتحدث بنعم الله تعالى عليه وعلى آله وهو من الشكر. فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش وخر له أبواه وإخوته سُجُداً. فقال ﴿يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿يوسف: ١٠٠﴾.

وكانت ختام قصته قوله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

العظة البالغة

إنكم ترون أن يوسف قد تقلب في الحالين بؤس ورخاء وتداولته أيدي ربيحين: زعزع ورخاء. وهو كالذهب الإبريز لا يزيد على التقلب في النار إلا صفاء أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران فبينما هو في كنف أب يؤثره بالكرامة، ويحوطه بالمحبة، ويخاف عليه من الليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إذا هو في يد إخوته يسلفونه الإهانة والمذلة. يضربونه ظالمين، ويلقونه في غيابة الجب غير نادمين، وبينما هو على هذه الحال إذا هو يشم نسيم الحياة من جديد، ولكنها حياة الرق والعبودية، ثم انتقل إلى عبودية هي أشبه بالحرية إذ صار رئيس العبيد والخدم في بيت سيده، وبينما هو في هذه النعمة التي يغبطه عليها كثير من الأحرار، إذا هو في غيابة السجن بلا ذنب اقترف، ولا جريمة اجترح، وبينما هو في هذه الحال، إذا هو في السجن مبشر ديني يدعو إلى عبادة الله، ويصد الناس عن كل ما سواه من الأرباب المتفرقين، وإذا هو يقسم الحظوظ ويخبر بالأشياء الغائبة، ثم ترفت به الحال إلى أن صار معبر منام الملك ونذيره بقحط عقب رضاء يعم كل منهما البلاد، فصيرره على خزائن الأرض واصطفاه لنفسه واستخلصه لمملكته، فصار قسيم الملك وكافل المملكة المصرية وعليه إعاشة مصر والبلاد القريبة منها فهو «وزير التموين».

وبينما هو على هذه الحال لا ينقصه إلا أن يشاهد أباه وأمه - خالته - إذا هو بإخوته قد وقعوا في شركه، فداعبهم أجمل مداعبة، وعبث بهم عبث كله جد، واحتال عليهم حتى أتوه بأخيه لأمه وأبيه، ثم أتوه بأهلهم أجمعين.

وهو في كل هذه الأطوار المختلفة مستمسك بأكمل الخصال وجميل الأخلاق.

وإن امرءاً دامت موثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم
فهذه القصة الجميلة عبرة وعظة بالغة لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر إليها ولا ينفذ إلى لبابها كل قارئ لها. ولكنها كما قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]

شعيب عليه السلام

قومه ومكانهم - تهديد شعيب والمؤمنين بإخراجهم من القرية -
موت شعيب .

ذكر شعيب في القرآن عشر مرات - في سورة الأعراف في الآيات ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ وفي سورة هود في الآيات ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ وفي الآية ١٧٧ من سورة الشعراء وفي الآية ٣٦ من سورة العنكبوت .

قومه ومكانهم

أما قومهم فهم شعب مدين بن إبراهيم عليه السلام ، ويعبر عنهم في التوراة بمديان .
وأما مكانهم فقد كانوا نزولاً في بلاد الحجاز - مما يلي الشام - على خط عرض يوافق خط عرض «قفط» في البر الإفريقي إلى الجنوب من القصير في الجهة المقابلة .

كان أهل مدين في عيش رافخ ، وهم مع ذلك أهل تجارة . وكانوا يعبدون غير الله تعالى ويفعلون الشرور ولا يكفون . فكانوا يطففون المكيال والميزان ، ويماكسون الناس في سلعهم إرادة شرائها بثمن بخس . وكان شعيب ينهاهم عن كل ذلك ويحذرهم بأس الله تعالى فأنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار وهو دائب على نصيحهم وهدايتهم .

ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومهم وبراعته في إقامة الحجة عليهم ودحض حججهم . وقد جاءهم بيينة من ربه على صدقه فيما يدعو إليه غير أن الله تعالى لم يذكر في الكتاب هذه البيينة . وقد تنوعت أقوال المفسرين فيها بما لا برهان لهم به - فالأولى التسليم لعلم الله تعالى وقد كانوا يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين ويعييون طريقته ، ويوعدون من آمن بشعيب . ويبغون سبيل الله عوجاً . ولعل البيينة الطريقة الواضحة المقبولة في العقل وهي شريعة من الله أتاهم بها .

وقد جهدوا جهدهم في إبطال دعوى شعيب فقد كانوا يقولون ﴿يَسْخَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] يحتقرون شأنه بقولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] ظناً منهم أن القوة ميزان الصدق في القول وهو ضلال منهم ثم يتهددونه بقولهم ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] .

تهديد شعيب والمؤمنين بإخراجهم من القرية

ولما أخرج شعيب قومه بدعائهم إلى ما لا يريدون من الإيمان بالله وحسن المعاملة والاستقامة على الجادة. اجتمع ملاؤ قومه وهددوه هو والذين آمنوا معه بإخراجهم من القرية إذا لم يدخلوا في دين قومهم. فراجعهم بقوله: أو لو كنا كارهين؟ إنا نكون قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ودينكم بعد إذ نجانا الله منها بالهداية إلى أقوم السبل، وأن العود إلى ملتكم ليس بملكنا، ولكن ذلك يكون إذا أراد الله خذلاننا وإبعادنا عما جئنا به من الحق، وهذا ما لا سبيل لنا إلى علمه وإنما يعلمه الله الذي وسع كل شيء علماً وهو الذي نتوكل عليه.

وقال الملاؤ من قوم شعيب يحذرون الجمهور الوقوع في دين شعيب قائلين ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] لأنه يمنعكم التطفيف في الكيل والميزان، وهذا مما يزيد في ثروتكم. وعجبوا كيف ينهاهم عن عبادة ما كان آبائهم يعبدونه؟ وكيف يأمرهم بالعدل في الكيل والميزان وينهاهم أن يفعلوا في أموالهم بحسب أهوائهم وما يشتهون؟ وعابوا عليه صلاته التي تأمره بذلك وتهكموا به قائلين: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَافِرُ الْرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وهو في كل ذلك يراجعهم ويقيم الحجة عليهم إلى أن يأذن الله بهلاكهم. فأخذتهم الرجفة وهي الزلزال فبادوا كأن لم يغنوا فيها.

وبعد أن فرغ الله من أهل مدين ونجى شعيباً والذين آمنوا معه، أرسله إلى أصحاب الأيكة - وهي غيضة تنبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين تسكنها طائفة من عباد الله. قيل كانوا بادية مدين، وكان شعيب أجنياً منهم، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين فلما نهاهم عما هم فيه قالوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦] ظناً منهم أن الله لا يرسل إلى البشر هداة منهم، جهلاً منهم بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى شعيب أن يسقط عليهم كسفاً من السماء - أي قطعة منها - إن كان من الصادقين. ولشدة جهلهم لم يطلبوا الهداية إلى الحق، فأخذهم عذاب يوم الظلة بأن سلب الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ كَانَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمُ إِذَا لَخَيْرِيرُونَ ﴿٩٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَقْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَبْقَرُوا لَقَدْ أَهْلَكْتُكُمْ رِسَالَتِي رَفِي وَصَحَّتْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسَ عَلَى قَوْمٍ كَفِيرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَبْقَرُوا أَوْثَانَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشُعَيْبُ أَصْلُكَ أَتَمْرُكُ أَنْ تَتَّكِلَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَبْقَرُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنَهَلَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَبْقَرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَبْقَرُوا أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَبْقَرُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَخَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَرَبِّهِمْ يُعْتَنُوا فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِّلَّذِينَ كَمَا بَعَدَتْ تُعُودُ ﴿٩٥﴾ .

سورة الحجر: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَارٍ مُّشِيرِينَ ﴿٧٩﴾ .

سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوْنَ ﴿١٧٧﴾ إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ .

سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٣٧﴾ .

زمن شعيب

كنت قد قرأت «في ص ١٦ ج ٤ من كتاب صبح الأعشى لأبي العباس أحمد القلقشندي» عبارة تفيد الجزم بأن شعيباً عليه الصلاة والسلام كان زمنه بعد زمن موسى بعدة قرون، وأن وجوده كان في أوائل القرن الثامن بعد موسى عليه السلام. ونص عبارته: «ثم ملك بعده - يعني يوثام - ابنه آحاز ست عشرة سنة أيضاً. وكانت الحرب بينه وبين ملك دمشق، وفي زمنه كان شعيب عليه السلام» ١ هـ.

ولكن تبين لي أن ذكر «شعيب» في كلام القلقشندي خطأ وأن الصحيح «شعيا». أما شعيب فقد كان زمنه قبل زمن موسى، فإن الله جل ذكره لما ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً قال ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣]. ومثل ذلك في سورة يونس بعد أن ذكرهم قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [يونس: ٧٥] ومثل ذلك في سورة هود وفي سورة الحج وفي سورة العنكبوت - بعد أن ذكر أمم الأنبياء وأحوالهم قال ﴿وَفَرَعُونَ وَهَارُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

ولبيان الحق وإعطاء كل ذي حق حقه أقول إن الذي وجه نظري إلى ذلك هو الشيخ عبد الفتاح خليفة.

بنو إسرائيل بمصر^(١)

نزل يعقوب إسرائيل الله بأولاده مصر في عهد يوسف عليه السلام ولم ينزل في

(١) نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر في ٣ يناير سنة ١٩٣٨ تحت عنوان «في الآثار المصرية» ما يلي: - اكتشافات جديدة في المتحف المصري - رسالة عن فتح بئر كنعانية - النظام الهجائي الهيروغليفي الصحيح.

(كان المغفور له الملك فؤاد قد أهدى مجموعة نفيسة من الجعارين إلى المتحف المصري، وقد أتيج للعالم الأثري الأستاذ ألن رو - مدير بعثات متحف جامعة بنسلفانيا إلى مصر وفلسطين - بحث هذه الجعارين، فوفق إلى اكتشافين يطلع عليهما القراء في هذا المقال الممتع الذي كتبه خصيصاً «للأهرام»):

أتاحت لي السلطات المحلية المصرية خلال الأشهر الأخيرة العمل في مجموعة «الجعلان» أو «الجعارين» التي أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى المتحف المصري في القاهرة، وقد هيا لي العمال في هذه المجموعة النفيسة، أن أدرك إدراكاً تاماً ما لها من قيمة تاريخية عظيمة تجعلها بحق أفضل مجموعة من نوعها في العالم وقد اكتشفت منها، فيما اكتشفت، رسالة تعلن فتح بئر كنعانية والنظام الهجائي على المتون الجعلية وسأشهر كليهما مع هذا المقال.

برتيفان كاهن أون

وأرى، قبل البحث في اكتشافاتي هذه، أن أصف حجراً عمودياً من معالم القبور ورد على المتحف المصري منذ عهد قريب، وترجع أهميته إلى اتصاله بعهد يوسف الصديق الوارد في التوراة اليهودية قبل عهد الحفريات العلمية في مصر وفلسطين، كانت الاكتشافات الخاصة باليهود وتاريخ إقامتهم في مصر نادرة جداً، ولكن الأعمال التي قامت بها البعثات الأثرية الحديثة، ومنها أعمال الأستاذ سليم بك حسن وغيره من الأساتذة المصريين، أخذت لحسن الحظ تبتدئ شيئاً فشيئاً ذاك الضباب القائم الذي كان مخيماً على هذا القسم المهم من رواية التوراة.

فالثابت إجمالاً، يبين أكثر الخبراء، أن العبرانيين دخلوا مصر في عهد الهكسوس وهو العهد الذي يمثل الأسرتين المصريتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة الذي بدأ حوالي سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد.

وقد كان الهكسوس، أو «الملوك الرعاة» في عرف الكتاب المحدثين، من الشعوب الآسيوية بلغت سلطتهم أوجها إلى شمال مصر وأرض كنعان من مدينة أفاريس في دلتا النيل. ثم طردهم من مصر أحسن الأول، أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، حوالي، عام ١٥٨٠ ق. م. وقد خرج العبرانيون من مصر في ذلك الوقت أو بعده بقليل. أما الملك الذي لم يعف يوسف الصديق (سفر الخروج ص ١٠ ع ٨٠) فقد كان أحسن الأول أو غيره من الملوك الذين عادوا إلى حكم مصر الشمالية بعد طرد الهكسوس منها.

أما الاسمان الواردان في تاريخ إقامة اليهود بمصر، وهما بوتيفيرا وبوتيفار - أولهما كاهن «أون» أو هليوبوليس الذي اقترن يوسف الصديق بابنته (سفر التكوين ص ٦١ ع ٤٥) والثاني رئيس خدم فرعون (سفر التكوين ص ٣٩) - فلم يكونا من نوع الأسماء المعروفة قبل الأسرة الحادية والعشرين، ولم =

يكثّر استعمال هذا النوع قبل الأسرة الثانية والعشرين، أي في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد إذ كتبت رواية إقامة اليهود في مصر بالخط الذي صرنا نعرفه الآن. وبعبارة أخرى كانت أسماء الأشخاص المعاصرين الأصلية قد ضاعت مع الأجيال فطُفِق الراوي يستعمل بدلاً منها الأسماء الشائعة في عصره، ولكن لم يكن يعرف - حتى حين استيلاء المتحف المصري على الحجر المتقدم ذكره - أن الشكل الأصلي لهذين الاسمين الذي طال البحث عنه وكان العلماء يقدرونه تقديراً - إنما هو «بدى - با - راي» الذي حرفه الكتاب من قبل فجعلوه بوتيفيرا وبوتيفار ومعناه الحرفي «الذي أنعم به «رع» إله الشمس» وهذا اسم صاحب الحجر نفسه.

«بدى - با - راي» بالهيراوغليفيّة، وهو الشكل الأصلي للاسم العبراني «بوتيفار» الذي ورد ذكره في التوراة.



ف «بدى - با - راي» هذا كان مديراً لمستودع الإله «بتاح» الذي كان معبده الرئيسي في ممفيس، وقد مثل الميت على هذا الحجر مصلياً لأوزيريس قاضي الأموات العظيم الذي يحمل لقب «رق شجرة الزيتون». وتدلنا النصوص التي وجدت على هرم الملك ونيس، أحد ملوك الأسرة الخامسة على أن شجرة الزيتون هذه كانت مقدسة في هليوبوليس. قارن بذلك المثل الوارد في سفر القضاة ص ٩ ع ٨ خطر مرة للشجر أن يختزن ملكة فقلن للزيتونة املكي علينا» وفي المزمور الثاني والخمسين ع ٨ يستدل على أن شجرة الزيتون كانت مباركة في معبد العبرانيين.

وخلف رسم بدى - با - راي على الحجر المتقدم، توجد رسوم أقربائه ويدعى أحد أبنائه «أر - هب - يوت» وتعريبه الحرفي (الإله أبيس يمنح العمر الطويل) وهذا الاسم عينه موجود على حجر آخر من بقايا الأسرة الثانية والعشرين من السيرايوم فهو إذن ذو قيمة لأنه يساعد على تعيين تاريخ حجر بدى - با - راي. وأنا أترك لعلماء التوراة أن يبحثوا في الأثر الحقيقي لاسم بدى - با - راي وتاريخ حجره على كتابة قصة يوسف الصديق في كتاب العهد القديم.



الرمز الهيراوغليفي عن «بئر الملك مرتتاح الأول»

رسالة عن فتح بئر كنعانية

لم يكد مرتتاح - أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة - يرتقي عرش مصر - حتى أمر بإعادة فتح جميع الآبار غير المستعملة والتي كان العدو قد أغلقها (كما يستدل على ذلك من النقوش التي وجدت على حجر النصر الشهير الذي أقامه هذا الملك و كتبت عليه أسماء الإسرائيليين وغيرهم من الشعوب). أما الحصون قد بقيت على حالها، وهذه الآبار هي بلا شك التي كان يستمد منها جيشه الماء اللازم له في أثناء احتلاله لأرض كنعان. وبهذه المناسبة أقول إنني لاحظت أخيراً في مجموعة الملك فؤاد حجراً لولياً أسود اللون مستطيل الشكل يشير فعلاً إلى اكتشاف بئر، وهي بالبداية بئر كنعانية تعود إلى عصر مرتتاح الأول. أما النقش الذي عليها فمعناه: «دخلت المياه في حجر بئر الملك مرتتاح الأول «أو» وجد الماء في حجر ... الخ» والحجر يعني بالطبع الصخر الذي حفرت البئر فيه.

= وليس مستحيلاً أن تكون هذه البئر هي التي أشار إليها أحد موظفي الحدود الكنعانية في يومياته الشهيرة إذ سجل أسماء الرسل الذين مروا من أرض كنعان وإليها في عهد الملك مرتتاح الأول، فقد كتب هذا الموظف السنة الثالثة، بالشهر الأول من الفصل الثالث، اليوم السابع، وصل رؤساء رماة بئر الملك مرتتاح الأول - فلتكن لهم الحياة والصحة والقوة التي في الجبال - ليتصلوا بقلعة ثارو (وهي القنطرة الحالية) ولعل قوله (التي في الجبال) يعود إلى البئر ويدل على ارتفاعها في أرض كنعان، ويظن الخبراء أنها كانت قرب أورشليم ولكن ليس على هذا من دليل.

وأنا أعتقد أن الحجر اللولبي الأسود المنقوش لم يكن إلا رسالة خالدة مرسلة إلى مرتتاح الأول في مصر تعلن له اكتشاف الماء في البئر التي سميت باسمه وعلى كل حال من جانبي الحجر اسم الملك كأنما ذلك عنوان الرسالة.

اكتشاف النظام الهجائي

في المتون الجعلية



أحد الرموز الجعلية النظام الهجائي الجديد، وقراءتها «أوزيريس»

منذ كان علم الآثار المصرية في طفولته حار العلماء في تفسير مجموعات غريبة من العلامات المنقوشة على بعض المتون من الجعلان، وقد حسبوها غالباً نقوشاً أو رموزاً مقدسة لبعض الآلهة، مثال ذلك أن منها جعلاً يحمل رسوم صولجان وسمكة وعقرب وأسد، وقيمة هذه العلامات معروفة، فالصولجان يدعى «واز» والأسد «رو» وهلم جراً.

وقد حاولت طويلاً، ولكن عبثاً، قراءة هذه العلامات بالطرق المعروفة، ثم خطر لي أن أقرأ كل مجموعة بأول حرف من أسماء مفرداتها، فالتخذت الواو فقط من «واز» أي الصولجان، والراء من «رو» أي الأسد وكان نجاحي سريعاً إذ تجلّى لي كثير من معاني هذه المجموعات على الجعلان أو الجعارين التي يمتد تاريخها من الأسرة الثامنة عشرة إلى عهد البطالسة.

وجميع المجموعات التي فسرتها حتى الآن تشتمل على أسماء آلهة، واتضح لي أن الكتابة الهيروغليفية التي اكتشفت حديثاً على الجعلان إنما كانت لإخفاء أسماء الآلهة، ولهذا المناسبة نذكر ما كتبه هيرودس المؤرخ الشهير عن عملية التحنيط المصري في (كتابه الثاني الفقرات ٨٥ إلى ٨٨) إذ قال إنه يمتنع بكل تدقيق عن ذكر اسم الإله، وهو يعني طبعاً أوزيريس، والعبرانيون. أيضاً كانوا يرون أسماء آلهتهم أقدم من أن تذكر، ومعظم ما فسرته من هذه النقوش يحوي اسم أوزيريس القاضي العظيم للأموات في الآخرة.

ولكن أهمية الاكتشاف الجديد تتجاوز قراءة النصوص المنقوشة على الجعلان والجعارين، لأنها تعني أننا وقفنا على أول استعمال حقيقي للنظام الهجائي الصحيح الذي كان منتظراً في ذلك العهد من مصر إلى سينا إلى فلسطين وسوريا.

ومما لا شك فيه أن النظام الهجائي للغة الهيروغليفية نشأ من النظام المعقد الهيروغليفي الذي انتشر =

الكتاب الكريم شيء عن بني إسرائيل وإسرائيل بمصر بعد ذلك إلى عهد ولادة موسى . ولكن التوراة ذكرت أن يعقوب وبنيه لما أقاموا في مصر خيرهم فرعون في الأرض التي ينزلون بها . فقالوا - بناء على تعليم يوسف لهم - إنهم رعاة ماشية وطلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم أرض جاسان أو جاشان وهي في شمال بلبس من بلادها سفت الحنة الآن . ويقول العلماء إنها نواحي الصالحة - وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم أنها أرض مراعى وهم رعاة ماشية .

ويلوح لي أنه إنما عمل ذلك لبعدهم عن مخالطة المصريين بقدر الإمكان ، حتى يكونوا بمنجاة من وثنيهم حرصاً منه على بقاء ذرايعهم على التوحيد ، وذلك أن المصريين كانوا يقذرون الرعاة ولا يخالطونهم لأن ذلك نجاسة لديهم ^(١) .

وتذكر التوراة أن يوسف اشترى من المصريين مواشيهم وكل ما يملكون من الأرضين لفرعون في نظير ما أعطاهم من الطعام حين اشتد الجوع في الأرض . ثم اشترى منهم أنفسهم فصاروا عبيداً لفرعون بطونهم . ونقل الناس إلى المدن لأنهم لا خير لهم في البقاء بداخلة البلاد ، إذ لا زرع ولا ضرع .

وأما الآن أطلس تاريخي لحضرة الفاضل الأستاذ محمد رفعت بك . وقد رسم أرض جاشان شمالي بلبس ومن بلادها «فكوسة» أي سفت الحنة .

وفاة يعقوب

وقد عاش يعقوب سبعاً وأربعين ومائة سنة . ومات على رأس سبع عشرة سنة من قدومه إلى مصر وبارك ابني يوسف «أفرام ومنسي» ودعا لهما . وجعلهما صاحبي نصيين كأولاد يعقوب الصليبيين في الأرض المقدسة التي يملكها بنو إسرائيل - وهي أرض فلسطين - ودعا أولاده وباركهم وتنبأ لهم بما سيلقي كل واحد منهم ونسله إجمالاً .

= في عهد الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ولكن استعماله لم يشع إلا في أواخر الأسرة الثامنة عشرة . ففي النظام الأخير أعطيت الرموز الهيروغليفية معاني مختلفة تماماً عما كان لها من قبل وقد استعمل هذا النظام في بعض النصوص الدينية وفي أسماء الملوك ، كما أن تفسير المسيو دريوتون ، المدير العام لمصلحة الآثار لهذه الرموز المعقدة ساعدني كثيراً على قراءة النظام الهجائي المحض للكتابات المنقوشة على الجعارين والجعلان .

(١) وتقول التوراة «في الآية ١١ من الإصحاح ٤٧ - تكوين» فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً في مصر في أفضل الأرض في أرض رعسيس كما أمر فرعون ١٢ - وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه ورتب الطعام على حسب الأولاد .

وأوصاهم بالاستمسك بالدين ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقد مات يعقوب بعد ما أوصى أن يدفن عند أبيه وجده. فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه فحنطوه وحمل إلى فلسطين ودفن هناك كما أوصى، أما إخوة يوسف فوقعوا على قدميه تائبين مستغفرين لسابق ذنبهم ضارعين خائفين أن يمسك يوسف عنهم سبب بره، ويزوي عنهم وجهه بشاشته بعد أن كان يكرمهم. مقدرين أنه ما كان يكرمهم إلا بسبب وجود أبيهم. وقالوا له: إن أبانا أوصانا أن نبلغك أن تصفح عن إساءتنا إليك وبخعوا له بأنفسهم بالعبودية، فبكى يوسف وسكن روعهم وعرفهم ما في إساءتهم من الخير لشعوب الأرض وأن الله فعل ذلك رحمة بعباده، وعاش يوسف إلى أن بلغت سنه عشرين ومائة سنة فحنطوه ووضعوه في تابوت وبقي محفوظاً إلى أن أخذه بنو إسرائيل في خروجهم من مصر.

وقد رأيت في الحرم الخليلي بحبرون أحد التوابيت الموضوعة قريباً من مغارة المكفيلة وهي مدفن إبراهيم وسارة ورفقة وإسحق ويعقوب. وأهل البلاد يقولون إنه تابوت يوسف وإنه دفن في المغارة، وأحسب ذلك منهم وهماً لأن يوسف دفن في أرض «أفرايم» كما تقول التوراة، وحبرون من أرض يهوذا.

وقد أخبرني حضرة الفاضل محمد نمر حسن نابلسي بأن يوسف مدفون بنابلس وله ضريح هناك. وكذلك أخبرني بذلك حضرة الفاضل أمين بك عبد الهادي من أعيان نابلس. وهذا هو المعقول لأن نابلس من أرض أفرايم واسمها في القديم «شكيم» أو «شخيم».

ثم ماذا؟

ضرب الدهر ضرباته وجاءت الأسرة الثامنة عشرة المصرية. وطرردوا ملوك الرعاة الذين كانوا في مصر وشغلوا من تاريخها نحو أربعة قرون - من الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة.

وجاء أحمر رأس تلکم الأسرة وطررد الرعاة ومزقهم كل ممزق وشردهم كل مشرد. وبنو إسرائيل في أمكتنهم. وكان بين ورودهم إلى مصر وخروجهم منها على يد موسى خمس عشرة سنة ومائتا سنة على ما حققه رحمة الله الهندي.

جاء ملك لمصر لا يعرف يوسف ولا فضله على مصر وغيرها. ورأى بني إسرائيل يكثرون. فخاف أن يكونوا إلباً «أي قوة وحزباً» لأعداء أهل مصر فأراد أن يقتل كل ذكر

من أولادهم حتى لا يكثر عددهم ويكون منهم ما يحذر على مصر والمصريين^(١). فأمر قابليتي المصريين وكان اسم إحداهما «شفرة» والثانية «فوعة» بقتل كل ذكر تلده عبرانية. وأما البنت فبقي، فلم تفعل ما أمرتا به. ولما سألهما قالتا له إن العبرانيات قويات، فهن يلدن قبل أن تأتي القابلة، وكان ذلك الملك أمر بإذلال العبرانيين وتسخيرهم في عمل اللبن والبناء وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ووكّل بهم من يتبعهم حتى لا يجدوا مس الراحة، رجاء أن يقلل ذلك من نسلهم، فلم يفد ذلك فرعون وآله فائدة. لأن العبرانيات كن يحملن كثيراً، ثم أمر فرعون جنوده والمتدخلين في الأعمال أن يلقوا كل ذكر من أولاد العبرانيين في النهر ليموت.

هذا ما ذكرته التوراة وهو عين ما ذكر في القرآن إلا في تفاصيل جزئية.

اقرأوا هذه الآيات: سورة البقرة: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩﴾.

سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٦١﴾.

سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦١﴾.

سورة القصص: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٢٥ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٢٦ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٢٧﴾.

فأنتم ترون أن قتل الأبناء واستحياء النساء بلاء لا يصبر عليه ذو عقل إلا بمعونة الله، وأن الله سبحانه وتعالى وإنما كافأ بني إسرائيل بنعمه الوافرة بما كان منهم من الصبر، وإن كانوا على أخلاق جافية وطباع شاذة في نواح أخرى من نواحي سجاياهم، من حيث ضجرهم بالخير يسدى إليهم، وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم - كما سيأتي - ومبادرتهم إلى عبادة العجل بلا روية وذلك أن أجر الصبر عند الله تعالى عظيم.

(١) يقول المفسرون: إن الكهنة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني إسرائيل فوجه همه إلى قتل أبنائهم واستحياء نسايتهم. وهذا يحتمل ولا بعد فيه.

موسى عليه السلام (١)

ولادة موسى وإرضاعه - تربيته في بيت فرعون - خروج موسى من مصر إلى أرض
مدين وسببه - أرض مدين ونزول موسى بها - قضاء موسى مدة استئجاره -
موسى بالوادي المقدس - بعثته عليه السلام - عود موسى إلى مصر ودعوته
لفرعون - تذكير فرعون موسى تربيته في بيت فرعون - موسى يحاج فرعون
في ربوبية الله تعالى - فرعون يتجاهل الله ويدعي الألوهية ويأمر ببناء صرح
يصعد به إلى السماء - معجزتا العصا واليد - تمادي فرعون وقومه - الائتمار
بموسى لقتله - فرعون يستخف بموسى ويباهي - الآيات التي أرسلها الله
تعالى على فرعون وقومه لما كذبوا موسى عليه السلام - انطلاق بني إسرائيل
- فرعون صاحب موسى رأي آخر فيه - لصوق الوثنية ببني إسرائيل - ذهاب
موسى عن بني إسرائيل - اتخاذ بني إسرائيل العجل - ما حقيقة العجل الذي
عبده بنو إسرائيل - ومن هو السامري - دخول الأرض المقدسة - نثق الجبل
فوق بني إسرائيل - بنو إسرائيل ومسألة البقرة - قصة قارون وموقف موسى
بإزائه - إيذاء بني إسرائيل لموسى - إظهار الله تعالى براءته - اختيار موسى
سبعين رجلاً - العبد الصالح صاحب موسى - ما اسم العبد الصالح - تذكير
الله تعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم - موت هارون ثم موسى - موقف بني
إسرائيل بعد موسى - ثناء الله تعالى على موسى وهارون - العظمت التي تستفاد
من قصة موسى - استطراد .

(١) نشرت جريدة الأهرام بعدها الخامس في ١٠ مايو سنة ١٩٣٩ خبراً لمراسلها في لندن جاء فيه :

موسى عليه السلام: هل كان مصرياً؟

لندن في ٩ مايو - لمراسل الأهرام الخاص - أشارت جريدة «نيوز كريكل» إلى الطبعة الألمانية التي
نشرت في أمستردام لكتاب: «موسى والتوحيد» من تأليف الأستاذ سجموند فرويد، من علماء تحليل
النفس المشهورين ومما قالته الجريدة أن من أهم أداء الأستاذ فرويد في هذا الصدد، قوله إن النبي
موسى لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع أخناتون، وهو يعتقد أن اليهودية والمسيحية اشتقتا من
عبادة أخناتون للشمس .

وستنشر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب يوم ٢٦ مايو الحالي .

ونشرت الأهرام بعدها الصادر في ١٣ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقاً على الخبر السابق للأستاذ منصور وهبة
جاء فيه :

موسى عليه السلام: هل كان مصرياً؟

نشرت «الأهرام» أخيراً برقية لمراسلها في لندن عن كتاب «للعالم النفساني» «فرويد» يقول فيه إن سيدنا موسى عليه السلام كان مصرياً وليس عبرانياً من بني إسرائيل، وإني - أي فرويد - يرى أن موسى كان من أتباع أخناتون، وأن الدين اليهودي والدين المسيحي اشتق كل منهما من عبادة أخناتون للشمس.

وفضلاً عما في هذا الرأي من تناقض تاريخي وديني ونفساني أيضاً، فإن المرء لا يسعه إلا الاستغراب من صدور هذه النظرية من علامة مثل فرويد، وذلك أن أساس الدين الإسرائيلي وهو التوحيد بالرب الواحد الأحد، قائم من أيام سيدنا إبراهيم الخليل قبل المجيء إلى مصر بزمان بعيد، وقبل أن تقوم لأخناتون قائمة. ثم إن أخناتون قد عبد الشمس، ولم يعبد الرب الواحد القهار. يضاف إلى هذا أن موسى عليه السلام لم يأت بجديد على أصول الدين الإسرائيلي سوى الوصايا العشر.

ومما يدعو إلى الدهشة أن يقال إن سيدنا موسى ليس من سلالة إبراهيم، مع أن إبراهيم جده. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمَصْطَفَيْنِ الْآخِرَ﴾ [ص: ٤٧] وقوله جل شأنه، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَلَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٨٤]، وفي آية أخرى ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦] فهذه الآيات تدل دلالة صريحة على أن الكتاب والنبوّة لم ينزلا على رجل من آل يعقوب، وأن موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل، وأظنني لست في حاجة إلى أن أستشهد بآيات التوراة والإنجيل فكلها ناطقة بأن النبوّة لم تخرج من بيت إبراهيم عليه السلام.

أما من ناحية التاريخ فلعله قد فات (فرويد) أن الإسرائيليين كانوا يعبدون الله قبل مجيئهم إلى مصر أيام الهكسوس وقبل أخناتون بزمان، وكانوا في مصر يكرهون عبادات المصريين الوثنية، ولم يختلطوا بهم قط، وظلوا محافظين على طقوسهم ودينهم ووحدتهم، بل لعل أخناتون هو الذي تأثر فأخذ فكرة مشوشة عن أمه «تاي» فتجسست في ذهنه عبادة قرص الشمس.

على أنه في أثناء ذلك العهد، ومن قبله بأزمنة بعيدة، أي من عهد إبراهيم وإسحق ويوسف. كان الإسرائيليون لا يعرفون إلا عبادة الرب الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم يذكر إنسان عاقل أن بني إسرائيل قد عبدوا قرص الشمس في أي عصر من العصور.

منصور وهبة

درجة الشرف في العلوم

ونشرت الأهرام أيضاً بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقا على الخبر أيضاً للدكتور هلال فارحي جاء فيه:

موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟

نشرت (الأهرام) لمراسلها في لندن منذ أيام أن جريدة (نيوزكرونيكل) أشارت إلى طبعة كتاب (موسى والتوحيد) الألمانية، وما جاء في هذا الكتاب من أن مؤلفه الأستاذ سيجموند فرويد من علماء تحليل النفس يعتقد أن النبي موسى عليه السلام لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع أخناتون وأن اليهودية =

ولادته وإرضاعه

في أثناء تلکم العاصفة الهوجاء التي مرت ببني إسرائيل في مصر والأهوال التي

والمسيحية اشتقتا من عبادة أختاتون للشمس.

هذا ما يقوله الأستاذ فرويد وما من شك في أنه انفراد، بين سائر العلماء والمؤرخين في العالم، بهذا الاعتقاد الغريب الشاذ. ذلك أن كتب التاريخ والكتب المنزلة تؤيد الاعتقاد السائد منذ آلاف السنين بأن موسى كان يهودياً أباً عن جد ومع أنه تربى وثقف في بلاط مصر، فقد قام مع أخيه هارون يناصر إخوانه اليهود ضد رمسيس. ثم تولى زعامة اليهود، إلى أن أخرجهم من مصر.

فقد جاء في صفحة ٦٣ من تاريخ يوسيفرس المؤرخ الشهير الذي عاش في ٣٧ - ١٠٠ م : «كان رجل اسمه عمار من أشرف العبرانيين وولد له ابن آخر بعد هارون ومريم، وبعد صدور أمر فرعون بإعدام كل مولود ذكر للعبرانيين بإلقائه في النيل. وخبأ عمار ابنه هذا ثلاثة أشهر. ثم اضطر أخيراً أن يضعه في صفت مطلي بالحمز ويلقيه في النيل. والتقطته ثرمسيس ابنة فرعون وتبنته وسمته «موريس» من «مو» ماء و «أورس» أي متشل من الماء في اللغة المصرية».

وهذه العبارات تقارب ما ورد في التوراة (خر ٢) : وذهب رجل من بيت لاوي وتزوج من بيت لاوي وولدت له ابناً . . . ودعته ابنة فرعون «موشه» «من الفعل ماشه انتشل أي منتشلاً» فلو كان موسى مصرياً لما طبق عليه فرعون بقتل المواليد الذكور ولا اضطرت والدته أن تخبئه.

ثم أننا لو بحثنا عن اسم أبيه عمار (أي شعب سام) وأجداده : فقاهاث بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم أبي اليهودي واسم أمه «يوكابد» من «كابود» أي الكرامة والاحترام، وجدناها عبرية محضاً.

وأما ما زعم فرويد، من أن موسى كان من أتباع أختاتون فهو أيضاً مناقض للحقيقة لأن موسى ثبت عقيدة جده إبراهيم بتوحيد الله . ثم جاء بالتوراة أساس الشريعة الموسوية ووصاياها من أوامر ونواه من بينها الوصايا العشر نهت عن عبادة آلهة أخرى من أي نوع كانت.

وكذلك ما زعمه فرويد أن الديانة اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أختاتون، مناقض للحقيقة. وقد سبق أن خص الأستاذ منصور وهبة فيما نشرته له «الأهرام» هذا الزعم بالأدلة والنصوص القيمة من الكتب المنزلة.

يضاف إلى هذا أن أول من آمن بوحدانية الله إبراهيم وذريته. وأنه هاجر من بلاد الكلدان، فراراً من الوثنية وزار مصر في عهد إمنحعت ٢ من الأسرة ١٢ نحو ٢٢٠٠ ق. م. وذلك قبل أختاتون بزمان طويل وهو أمينوفيس ٤ ١٣٨٥ - ١٣٧٥ ق. م. والأسرة ١٨ حموتوت عنخ آمون.

على أن كثيرين يعتقدون أن أختاتون قد أخذ توحيد الآلهة عن العبريين، فإن لفظة «أتون» أي قرص الشمس الذي اختاره معبوداً له لكونه إلهاً منظوراً مأخوذة من «أدون وأدوناي» بالعبرية أي سيد والسيد هو الله، الإله غير المنظور. وقد سمى نفسه أختاتون - أي انعكاس قرص الشمس تيمناً به - وترك طيبة وعبادة آمون وبنى معبداً لآتون في تل العمارنة ووضع أناشيد للشمس.

وقد يبدو للمطالع أن بعض آيات من مزمور ١٩ و ١٠٤ - ٢٤ وغيرها من مزامير داود، لكثرة مشابقتها لإحدى أناشيد أختاتون مثل «ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت» قد أخذت عهد أختاتون. وهذا أيضاً بعيد عن الصواب وما هو إلا توارد الخواطر لا أقل ولا أكثر.

الدكتور هلال فارحي.

يلاقونها كان رجل عبراني يقال له عمران «عمرام، بالعبري» بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام - قد تزوج من عمته يوكابد بنت لاوي - كما هو مقتضى الآية ٢٠ من الإصحاح الثاني من سفر الخروج ونصها «وأخذ عمران يوكابد زوجة له فولدت هارون وموسى» ومعلوم أن زواج العمات لم يكن قد نزل الأمر بتحريمه^(١) لأن ذلك إنما كان على يد موسى بعد خروج بني إسرائيل من مصر - ولما ولدته خباته عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل لقتل ذكرانهم، فمكث عندها ثلاثة أشهر، فلما خافت افتضاح أمرها، أعلمها الله تعالى وعلمها أن تصنع له ما يشبه الصندوق وتطليه بالحم^(٢) والزفت وتلقيه في اليم، ففعلت وناطت بأخته أن تتبع أثره وتعلم علمه، وكان الله تعالى قد أعلمها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين فلم تزل أخته تراقبه حتى علمت أنه التقط وأدخل دار فرعون، وأن عين زوجة فرعون وقعت عليه فألقى الله عليه محبتها، فاستحيته وأبقته ليكون قرة عينها وعين فرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولدأ، وهذا تدبير من الله لموسى وأمه لأنه سيعود إليها لتكون ظئراً له وتتقاضى على إرضاعه أجراً وهي آمنة كيد الكائدين وسعي الساعين.

وكيفية إعطائها إياه لترضعه أن الله تعالى زهده في المراضع فلم يقبل على ثدي إحداهن - رحمة منه تعالى بأمه - وكانت أخته تقص أثره وتتبعه أينما سير به حتى رأت إرضاعه عن الثدي، فعرضت على آل فرعون أن تدعو لهم امرأة عبرانية ترضعه وتكفله، وأنها تكون له ناصحة مشفقة تقوم له مقام الأم وكان اسم أخته مريم.

صادف قول مريم من آل فرعون أذنأ مصغية وبعثوها في طلب الظئر، فجاءت بأمها وأمه على التحقيق. فأقبل على ثديها فألقوا إليها بموسى لترضعه وهو موضع عنايتهم.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنِ أَزْضِعِيْهِ فَإِذَا خِفتْ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِيْ وَلَا تَحْزَنِيْ إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ ﴿٧﴾﴾ قَالَنْقَطْهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ

(١) قد ينكر بعض الناس صحة زواج العمات. وأنا أقول إنه ثابت تزويج آدم أولاده من بناته، فتزوج من بعد منهن من الأقارب بالأولى، وما ثبت من حل الزوج بالقريبات لا يحظر إلا بشرع جديد يأتي بعدم الإباحة العامة - ونحن أسراء النص - فمن أراد أن يثبت حرمة هذا النوع من الزواج في ذلك العهد فعليه أن يأتي بالنص القاطع على ذلك.

(٢) الحم - بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة - القطران.

لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرْنَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنِ وَنُحْدُهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمُّ مُوسَىٰ قَرِيحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِئَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوكَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُهْلِهِ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

سورة طه: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ فُؤَادًا فَأَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْسُو ﴿٤١﴾

وقد ذكرت التوراة قصص ولادة موسى وإرضاعه أولاً، ثم صنع سبط له وطلاءه بالحرر والزفت واللقاء. خرجت ابنة فرعون ومعها جواربها إلى شاطئ النهر وأنها نزلت تغتسل فعثرت على السبط الذي فيه موسى. لأنها رأيته بين الحلفاء فأمرت جواربها فأتين به إليها، فعلمت أنه عبراني وأحبته.

وللحال عرضت عليهم مريم أخت موسى أن تأتيهم بأمها لترضعه، فبعثتها في ذلك بها وناطوا بها إرضاع موسى وتربيته.

والقصة هناك ليس فيها اختلاف له شأن مع ما قصه القرآن الكريم غير أن القرآن يقول إن التي تبنته امرأة فرعون، وما في سفر الخروج يقول إنها ابنته. ولعل امرأته كانت واسطة بين بنته وأبيها، وهي التي تولت تحسين أمر استبقائه لفرعون - فالخطب هين.

وأمر آخر هو أن القرآن يذكر أن الله أمرها باللقاء التابوت في اليم - أي الماء - وأن الماء سيلقيه بالساحل. والتوراة تذكر أنها وضعت بالساحل بدءاً ذي بدء.

تربية موسى في بيت فرعون

طبيعي أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به إلى بيت فرعون وتولى البلاط الفرعوني تربيته، كما كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد بواسطة الكهنة^(١)

(تربية موسى في بيت فرعون)

في صفحة ١٤٣ ما نصه:

طبيعي أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعه قد أتت به إلى بيت فرعون وتولى البلاط الفرعوني تربيته كما كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين، بحسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام وأن يكون موسى قد تعلم تعليماً راقياً:

اقرأوا هذه الآية:

سورة القصص ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] هذا نص عبارته بالحرف.

(رأي اللجئة)

لا نفهم السر في قوله: اقرأوا هذه الآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]. هل يقصد أن ما آتاه الله في الحكم والعلم - لما بلغ أشده واستوى - هو من تعلمه التعليم الراقى في البلاط الفرعوني بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام؟

إن كان قصده هذا فعجيب جداً، فإن معنى الآية الكريمة على ما يؤخذ من الألوسي وغيره باختصار ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي المبلغ الذي لا يزيد عليه نشؤه ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أي كمل وتم تأكيد وتفسير لما قبله، وقيل هما مختلفان، وقد ذكر المفسرون لهما معاني عدة واختار الألوسي أن المعنى ولما قوي جسمه واعتدل عقله ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي بالدين والشريعة، وقيل، الحكم: السنة. والعلم: التوراة. وقيل المراد آتيانه مسيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان عليه السلام لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

ثم قال الألوسي - بعد كلام في ترجيح القول الأخير - ما نصه: ومن ذهب إلى أن هذا الإتيان كان قبل الهجرة قال يجوز أن يكون المعنى آتيانه رياسة بين قومه بني إسرائيل، بأن جعلناه ممتازاً فيما بينهم، يرجعون إليه في مهامهم، ويمثلونه إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عنه، وعلماً ينتفع به غيره. وذلك إما بمحض الإلهام أو بتوفيقه لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل إليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام، ولا بدع في أن يكون عليه السلام عالماً بما كان عليه آباؤه الأنبياء وبما كانوا يتدينون به من الشرائع بواسطة الإلهام أو بسماع ما يفيد العلم من الأخبار: اه المقصود منه.

فهل يرى فضيلة الأستاذ أن النبوة والشريعة، أو التوراة والسنة، أو سيرة الحكماء والعلماء وسمتهم، أو الامتياز على قومه والعلم الذي ينتفع به وينفع غيره - والذي حصل عليه إما بمحض الإلهام أو بتوفيق الله له لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل عن آبائه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين - قد اكتسبه موسى عليه الصلاة والسلام من الكهنة ورجال الدين في البلاط الفرعوني. لا نظن أنه يرى ذلك ولا نظن إلا أنه كتب هذه الآية في هذا المقام سهواً.

أما ما ذكره في أصل الموضوع من قوله «طبيعي . . الخ» فنقول في شأنه أن الثابت قطعاً إن موسى عليه السلام قد تربى في بيت فرعون وهو صغير بدليل قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿أَلَمْ تَرَىٰ فِيْنَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] أي صبيّاً، ثم الذي نعتقد وندين الله عليه أن الله حماه في أثناء التربية وهو صبي من الكهنة الفرعونية ورجال دينه، وأنه لم يتعلم منهم شيئاً والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة
الموضوع التاسع
(تربية موسى في بيت فرعون)

لقد كتبت في كتابي ما نصه حضرات أصحاب الفضيلة. والذي يظهر لي أنهم تملكهم الروعة والجزع حين قرأوا عبارتي، وقد ذكرت فيها أن الكهنة لا بد أن يكونوا قد تولوا تربية موسى بحسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام، وخيل إليهم أنني أقرر أن الكهنة ورجال الدين قد صبغوا موسى بالصبغة الوثنية وصيروه من عبادة الأوثان وكان الحق على حضراتهم أن يسألوا العالمين بأحوال القبط في تلك الأيام عن وظيفة الكهنة، فإني أؤكد لحضراتهم أنهم سيعلمون أن الكهنة كانوا كل شيء لكل شيء. وأنهم كانوا الأطباء ومعلمي الحساب والهيئة والأقرباديين والتاريخ والصيدلة والفلسفة ومعلمي القراءة والكتابة، وفي أيديهم وحدهم كل علوم الثقافة. وأنهم كانوا متمكنين في توحيد الله الحق، وكان ذلك سرّاً يكتُمونه عن العامة لا عن مثل موسى ولا يبوحدون به للخاصة ومن يريدون الدخول في زمريهم. وأما العامة فإنهم يلهونهم بهذه الأوثان والتماثيل ويستديمون طاعتهم بتبليغهم أوامر الآلهة وهكذا قال ابن كثير في «البداية والنهاية» وأهل مصر وإن كانوا يعبدون أصناماً إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك «ص ٢٠٤ ج ١».

وليكن في علم حضرات أصحاب الفضيلة أني أغار على دين الله وعلى أنبيائه ورسله الأطهار كغيرتهم أو أشد. وأني على أكثر من اليقين بأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يلج الكفر بالله قلبه - صغيراً ولا كبيراً - قبل النبوة. وأنه رضع عقيدة الإيمان مع لبن أمه، وأنه قد عرف وكره الذي فيه ولد وعشه الذي منه درج، وتلقن الإيمان والتوحيد من أمه وأبيه وأن مستقر اعتقاده لم يتلوث بشيء من وثنية المصريين: وذلك كله ماثل للعيان في كتاب الله الكريم. ومن شاء فلينظر إلى قوله بعد أن وكر القبطي فقصى عليه وأدركه الندم على ما فرط منه من غير قصد إلى الجريمة والمعصية: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] وكيف ضرع إلى الله قائلاً ﴿رَبِّ يَمَّا أَتَمَمْتُ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] فإنه لم يضرع إلى: آمون رع، ولا إلى آزوريس، ولا إلى إيزيس، ولا إلى حوريس، ولا إلى أبيس وغيرهن.

إذا اطمأنت أنفس حضرات أصحاب الفضيلة إلى ما قدمت. فإني أقول لهم: إن قصدي من الآية التي أتيت بها، أن موسى لم يقتصر الله في إمداده على الثقافة التي أصابها في البلاط الفرعوني، بل آزر ذلك الحكمة والعلم اللذان أمده الله تعالى بهما - حين بلغ أشده واستوى - وصار بذلك مفزع آل إسرائيل وغوثهم وغياثهم. وقد نص العلماء على أن بني إسرائيل قد خف عنهم الحيف في المدة التي كان فيها موسى في بيت فرعون من حين كبر وعرف أنه من بني إسرائيل.

بذلك يندفع ذلك التعجب وينهار كل ما بنوا عليه من الحسد والتخمين وفرض الفروض والأخذ بالرد، وأؤكد لحضراتهم أني لم أكتب هذه الآية سهواً بل عنيت بها ما قدمته والله على ما أقول شهيد وكفى بالله شهيداً.

وإني أقطع - كما قطع حضراتهم - أن موسى قد تربى في بيت فرعون صغيراً، وأزيد على ذلك أنه لم تنقطع صلته بالبيت الفرعوني كبيراً. وأدين الله كما يدينون أن الله تعالى قد حماه من كل نزعة وثنية. وأن العقيدة الوثنية لم تجد إلى قلبه سبيلاً ولم تجد إلى مستقر اعتقاده مسرباً.

وأما كون موسى لم يتعلم من الكهنة شيئاً، فإن عقلي لا يتسع إلى هذا الحد ولا أجزى في مجرى العادة أن ابن فرعون - بالتبني - ينشأ جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب ولا يتعلم حساباً، وهو الذي يرشح عند المصريين لجسام الأعمال، وربما كانوا يعبدونه ليتولى الإلهية في يوم من الأيام، إذا خلا البيت المالك عن ملك من صلب الأسرة ولم يوجد فيها من يتولى ذلك، وإذا كان حضراتهم قد حصلوا من الشجاعة على مقدار تطوع لهم أنفسهم معه أن يكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، فإني أقف عندما أعلم وأفوض علم ما وراء ذلك إلى الله تعالى، وعلي ما حملت وعليهم ما حملوا.

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملئ أم تناهى فأقصرا وبعد ذلك: فالقرآن الكريم يشهد بصريح عبارته أن موسى لم ينقطع عن البلاط الفرعوني بمجرد فطامه فرعون يقول له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا فِيكَ وَلِيْدًا﴾ [الشعراء: ١٨] قال في التاج. «الوليد» الغلام حين يستوصف قبل أن يحتلم «ص ٥٤٤ تكملة ج ٢»، ومعنى يستوصف أي يصير بهيئة الشاب لأن الوصف هو الشاب من الخدم. قال في اللسان «والخادم إن كان شاباً: وصيف» ثم أتبع فرعون ذلك بقوله ﴿وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عُمَّكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وقد قال البيضاوي: قيل مكث فيهم ثلاثين سنة، أي قبل أن يذهب إلى مدين. ومعنى ذلك أنه مكث هذه المدة في بيت فرعون. وإذا كان قد انقطع عن البيت الفرعوني منذ صغره لم يكن لفرعون أن يمن عليه بأنه مكث فيهم من عمره سنين، لأنه يكون قد مكث مع اليهود وفي اليهود. وما كان موسى بالذي يظل جاهلاً لا يتقف بثقافة عصره حتى يبلغ ثلاثين سنة.

وبعد هذا كله: فإني أهمس في أذن حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة بكلمة صغيرة فأقول لهم: إن شأنكم في كتابي أن تبحثوا عن تصريح لي يخالف نصاً قطعي الثبوت والدلالة، أو تصريح لي بمخالفة معلوم من الدين بالضرورة، فإذا لم يكن هذا ولا هذا فلا شأن لكم فإذا سوغتم لأنفسكم بأكثر من هذا. فأبرزوا لي الوثيقة التي جاءتكم من الله تعالى بأن سلطكم على عقائد عباده وضمايرهم وأباح لكم بها أن تتسوروا على وجدانهم وخلجات أنفسهم وخواطرهم لتلقوا فيها الشك وهي حرم مقدس يجب عليهم الدفاع عنها بأشد مما يدافعون عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم. وهل أدب الدين أو أدب السلوك أو أدب المروءة أن يعمد العالم من أمثالكم إلى أحد من عباد الله تعالى - لم يستحق إثماً ولم يحدث في الدين جريمة - فيوجه كلامه توجيهاً يلقي الشبهة في عقيدته الدينية، ويحيل لسامع كلام الناقد أنه مرق من الدين واتباع غير سبيل المؤمنين، لمجرد احتمال لم يدر إلا في خلد ذلك الموجه، ولا يمكن أن يمر بخاطر إنسان سواه، ليسوىء، سمعته ويشيته بين الناس بغير سلطان ولا برهان.

يا قوم لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. فقد اتهم أسامة بن زيد رجلاً بأنه أسلم ونطق بالشهادة متعوذاً. ولما جاء إلى رسول الله ﷺ وبلغه خبر فعلة أسامة وكان معرضاً عن المخبرين - فرفع رأسه إلى أسامة فقال «كيف أنت ولا إله إلا الله؟» فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً يتعوذ بها.

فقال عليه الصلاة والسلام «هل شققت عن قلبه فنظرت إليه» ثم نزلت آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا وَلَا تَوَلَّوْا لِمَنْ آَلَفَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانُهَا كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ

رجال الدين بحسب التقاليد التي كانت كذلك البيت في تلك الأيام، وأن يكون موسى قد تعلم تعليماً راقياً ويضاف إلى ذلك ما أفاضه الله عليه في كبره من الحكمة والعلم الثابت في قوله تعالى:

سورة القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد ذكرت التوراة أن أم موسى ردت إلى ابنة فرعون فاتخذته ولداً وأسّمته «موسى» وقالت إني انتشلته من الماء ولفظ «موسى» في العبري «موشى» بإمالة حركة الشين إلى الكسرة.

خروج موسى من مصر

إلى أرض مدين، وسببه

شب موسى في بيت فرعون وكان أيداً قوي البأس وافر القوة. ولم يخف عليه أنه دخیل في بيت فرعون، وأنه إسرائيلي من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله، فكان ظهيراً للعبرانيين قومه - وقد جاء في الطبري أنه من حين شب موسى وقوي كف عادية المصريين عن بني إسرائيل. ومن الأمور الطبيعية أن يعرف فيه بنو إسرائيل الظهير والنصير. وأن يلجأ إليه المظلومون منهم.

خرج موسى يوماً على حين غفلة من أهل المدينة فوجد رجلاً مصرياً يأخذ عبرانياً ليسخره في بعض عمله، فاستغاث العبراني بموسى فجاء إلى المصري على حال حرد ووكزه وكزة كانت القاضية. فواراه التراب ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبراني - الذي نصره موسى.

وندم موسى على ما فعل وقال في نفسه، هذا الذي أتيت من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين وضرع إلى الله أن يتوب عليه وألا يجعله ظهيراً للمجرمين وناصرأ لأهل الشر. فلما كان اليوم الثاني خرج إلى المدينة وهو يخاف افتضاح فعلته التي فعل - وقد ذكر الطبري - بسنده إلى ابن عباس - خبراً طويلاً في قصة ولادة موسى إلى أن ذهب إلى مدين جاء فيه: أن المصريين لما عثروا على قتيل موسى ولم يعلموا له قاتلاً سبق إلى

كَانَ يَمَّا تَقَمَّلُونَ حَبِيرًا [النساء: ٩٤]، وقد رويت في هذه الحادثة روايات أخرى بمعنى ما تقدم «ص ١٥٧ ج ٢ روح المعاني للألوسي».

وأما قول حضراتهم أن وليداً بمعنى صبي، فهو يوهم أنه انقطع عن بيت فرعون منذ صغره أيام كان لا يعي ديناً، مع أن الوليد ليس معناه الصبي مجرداً، بل هو الغلام إذا بلغ الشباب قبل أن يحتلم.

فكرهم أن بني إسرائيل هم قاتلوه. فقالوا لفرعون إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن نقضي بغير بينة ولا ثبت فطلبوا له ذلك.

فبينما هم يطوفون ولا يجدون، إذ مر موسى من الغد فوجد ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلي - وهو الذي من شيعته - على الفرعوني - الذي هو من عدوه - فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى، وغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، وفي الوقت ذاته قال للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] قال: فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف الإسرائيلي أن يكون إياه أراد بعد ما قال له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] فحاجز الإسرائيلي الفرعوني وقال لموسى: يا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قُتِلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]؟ وإنما قال له ذلك مخافة أن يكون موسى إياه أراد ليقته.

فانطلق الفرعوني فأخبر قومه. ورفعوا الأمر إلى فرعون بأن القاتل هو موسى فأرسل إليه الذباحين. في ذلكم الوقت خالف رجل شريف من آل فرعون قومه وجاء إلى موسى من أقصى المدينة مسرعاً - ليسبق الذين يطلبون موسى من طريق مختصر - وأعلمه علم القوم وما دبروا عليه. وذلك من فتون الله له. ونصح ذلك الرجل الشريف له أن ينجو بنفسه. ويفارق بلاد مصر حتى لا تمتد إليه أيديهم بسوء، فقبل منه موسى هذه النصيحة الغالية. وذهب على وجهه يريد أرض مدين - وإنما وصفت الرجل بالشرف لأمرين:

الأول - أن من الأمثال الجارية «الأطراف سكنى الأشراف» وذلك أنهم ينالون حاجاتهم من المدينة بفضل ما لهم من قوة وثروة. ويسعى إليهم أهل الحاجات بفضل ما لهم من جاه وعز.

الثاني - أن الله عبر عن نصيحته بقوله لموسى ﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] والملا القوم يملأون عين من يراهم مهابة وروعة، ولا يطلع على أسرار الملاء إلا من كان منهم، ولا يقف على ما يبيتون إلا من كان من طبقتهم ولا يحجبون عنه سرهم. ومثل هذا لا يكون إلا من أشرافهم وعليتهم.

اقرأوا هذه الآيات - سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ

لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَعَمْتُ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ .

سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿١﴾ .

أرض مدين ونزول موسى بها

هي بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين «وتقول التوراة: مديان» بن إبراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه وكانوا شاوية.

وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمان ليال، وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى على قصدها والنزول بها ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن إبراهيم وإسحق بن إبراهيم الذي من ذريته موسى.

وظاهر أن موسى خرج من مصر على عجل، فلم يتزود للطريق ولم يعد للسفر عدته، معتمداً على الله في هدايته إلى السبيل السوي. فلم يكن في قافلة أو رفقة في ذلك السفر الشاق، لأن من يطلب النجاة بخيط رقبته، لا يمكن أن يتروى في أمره أو يعد لسفره عدته.

وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن موسى لم يكن له طعام سوى ورق الشجر. وأنه خرج حافياً، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه - أي أن الجلد الملاصقة للأرض

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى «من الآية ١١ إلى آخر الآية ١٥ من الإصحاح الثاني من سفر الخروج» وهي لا تختلف عما في القرآن في شيء جوهرى غاية الأمر أنها ذكرت أن الخصمين في اليوم الثاني كانا عبرانيين، وأن موسى قال للمذنب منهما، لم تضرب صاحبك؟ فقال له: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري؟ وعبرة القرآن تشير إلى أن أحد الرجلين: صاحبه الذي نصره بالأمس، عبراني من شيعة موسى والثاني: مصري عدو لهما. ولم تذكر التوراة أن رجلاً جاء من أقصى المدينة يسعى وأنباء أن الملاء يأترون به. وأشار عليه بالخروج ومعلوم أن المعول على ما في القرآن.

من قدمه قد أضربها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت وعن ابن عباس أنه ورد ماء مدين وأن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال.

ورد موسى ماء مدين فماذا رأى؟

ورد الماء فوجد عليه جماعات كثيرة من الناس يسقون ماشيتهم. ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما عن الورد، وتحبسانهما بعيداً عن الحوض انتظاراً لأن يسقي أولو القوة من الرعاة ماشيتهم حتى إذا فرغوا من حاجتهم جاءتا واستقتا لماشيتهما.

وفي الطبري أنهما كانتا تسقيان من الحياض ومما لا خفاء به أن التقدم في ورود الماء لسقي الماشية إنما يكون لأولي القوة. وأما أهل الضعف فحظهم التأخر حتى إذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم أوردوا ماشيتهم. انظروا إلى قول الشاعر:

إذا الله جازى قوم سوء بفعلهم فجازى بني العجلان رهط بن مقبل
أولئك قوم لم يكونوا أعزة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل

يريد أنهم لضعف قوتهم وذلتهم يتأخرون عن الناس في ورود الماء. حتى إذا صدر الورد ولم تبق لأحد حاجة إلى الماء، أوردوا. وإنما يطلب أهل القوة والعزة الورد أولاً، لأن الماء في هذه الحال يكون صافياً، والذي يرد آخرأ إنما يرد بعد نضوب الماء. وحيث لا تخرج منه الدلاء إلا ماء كدرأ بما خالطه من طين البئر. قال عمرو بن كلثوم التغلبي:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرأ وطينا

موسى رجل جد وإنسان صدق رأى هذا فلم يعجبه أن يتعد النسوة. ويتقدم للورود الرجال. فسأل المرأتين عن شأنهما وجبسهما ماشيتهما عن الورد فقالتا: لا نسقي حتى يصدر هؤلاء القوم ماشيتهم لأننا إذا حاولنا التقدم عليهم أو مشاركتهم منعونا بفضل قوتهم. وليس لنا من يلزمهم انتظارنا لأن أبانا شيخ كبير لا يقدر على مباشرة شيء من أمر الرعي والسقي فحمى موسى لهما وطرده أولئك الرعاة وأقدم على البئر ينزع منها بالدلو وسقى لهما غنمهما، ولم يقدر أحد على منعه لأن الناس دائماً يحترمون الأقوياء وقد رأوا من قوة موسى وإقدامه ما ألزمهم حد الأدب معه.

ويقول بعض المفسرين: إنه وجد البئر عليها صخرة عظيمة لا يستقل بإزالتها عن فم البئر إلا جماعة من الأقوياء فتزعها وحده وسقى للمرأتين. غير أن في هذا القول غفلة عما نطقت به الآية فإنها تصرح بأنه وجد على البئر أمة من الناس يسقون فلم يكن بأحد حاجة إلى إزالة الغطاء عن البئر إن كان له غطاء إذ القوم يسقون بالفعل ولا يكون ذلك إلا إذا

كانت البئر مفتوحة لا غطاء عليها^(١).

عادت المرأتان إلى أبيهما الشيخ فأنكر منهما تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم وسألهما عن سبب ذلك فأخبرتهما بما كان من الرجل المصري الذي سقى لهما. وسنى لهما العودة مبكرتين فأرسل إحداهما إليه فوافته بمكانه قرب الماء، وقالت له والخجل يأخذ منها ﴿إِنَّكَ أَيْ يَدْعُوكَ لِجَزَيْكَ أَجَرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

رأى موسى الفرج من ناحية تلك المرأة وأبيها وعلم أن الله استجاب له دعاءه إذ قال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وابن عباس وغيره من أهل التفسير يقولون إنما طلب الطعام.

ويقول بعض المفسرين إنه أسمع المرأتين هذا القول تعريضاً حتى يكون له منهما ما يقوته وهو ليس معه درهم ولا دينار ولا ما يؤكل. فكانت دعوته كدعوة المظلوم سريعة الإجابة.

ومن جهة أخرى فإن غرس الجميل قد أثمر وآتى أكله في أقل من ساعة، والله يضاعف الحسنات لعباده المخلصين.

تبع موسى المرأة إلى منزل أبيها. وجعلها خلفه قائلاً: إنا لا ننظر إلى أدبار النساء ولكن انعتى لي الطريق وأنت خلفي. ويقول بعض المفسرين إنه إنما قال ذلك حين تبعها وضربت الريح ثوبها فكشفت عن عجيزتها فأخراها موسى وتقدم وقال لها: انعتى لي الطريق.

موسى رجل ربي على العزة في بيت فرعون. مدلاً في نعيم دائم ورفاعة وقد نزل به من الجوع ما اضطره إلى أن يرضى بأخذ أجر عمل من أعمال المروءة: والجوع يرضي الأسود بالجيف. وأحسبه لو كان في بلهنية من العيش لم يرض أن يأخذ أجراً على زكاة قوته.

جاء موسى إلى ذلك الشيخ فرحب به وأهل وسأله عن خطبه بعد أن قتل عنه سورة الجوع طبعاً، فقص عليه موسى قصصه ولعله وقفه على جليلة أمره وفعل فرعون وجنوده

(١) يريد بعض المفسرين أن يجمع بين القرآن وما قاله بعضهم من أنه كان فوق فوهة البئر صخرة رفعها موسى فقال إنها بثران إحداهما كان يستقي منها الناس والأخرى كانت عليها الصخرة فرفعها موسى وسقى لهما. وبعض المفسرين يقول رأيت هناك بثرين، وإني أسلم أنه رأى بثرين ولكن ما حجته على أنهما كانتا معاً في الوجود على عهد موسى؟ إذ من المحتمل أن إحداهما حفرت فيما بعد.

بني إسرائيل من ذبح الأطفال الذكران وترك النساء، وأنه أفلت من سفارهم بأعجوبة، وقص عليه جميع الأدوار التي لقيتها أمه في سبيله إلى أن قتل القبطي على غير عمد وأنهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم إلى أن ورد ماء مدين.

فطمأنه ذلك الشيخ قائلاً ﴿لَا تَخَفْ بَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: ٢٥] وأحسبه لم يصفهم بالظلم إلا لكفرهم أو لذبحهم أبناء الإسرائيليين واستحيائهم النساء، وإلا فأى ظلم في مؤاخذه موسى بما اجترحت يده من قتل القبطي إذا كانوا لا يجازون الجزاء الحق؟

ملاحظة: يقول بعض المفسرين إن ابنة الشيخ لما جاءت إلى موسى وأبلغته دعوة أبيها كانت تكلمه وكفاها على وجهها حياء منه وهذا الخفر أمر طبيعي في النساء اللاتي لم يخلعن نقاب الحياء ولم تكن الواحدة منهن سلفعاً ولاجة خراجة متبذلة - اقرأوا هذه الآيات:

سورة القصص: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَنَجَّاهُ إِحْدَهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ مُدْعَوَةٌ لِجَارِكِ فَجَاءَتْ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ بَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى بعبارة لا تخالف ما جاء في القرآن إلا في موضعين:

أولهما: أنها ذكرت أن النسوة كنّ سبعاً لا اثنتين.

ثانيهما: أنها ذكرت أن النسوة كن قد ملأن الحياض لسقيا غنمهن، فجاء الرعاة وطردهن وأبعدوا الغنم عن الحوض، وأخذوا في سقي ماشيتهم. فغضب موسى لهذا العمل وطرده الرعاة وسقى لهن.

والحق ما قصه القرآن.

مصاهرة موسى للشيخ

لما جاء موسى إلى الشيخ وكلمه وطمأنه قالت إحدى بنتي الشيخ - وهي التي دعت موسى: يا أبت استأجره لرعي ماشيتنا ليكفيينا مؤونة هذا العمل إن خير من استأجرت

القوي الأمين. ويذكر أصحاب التفسير أن أباهما سألها عن أمانته وقوته من أين علمتهما؟ ونص عبارة الطبري في التفسير: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في السقي منه. وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إليّ حتى بلغته رسالتك. ثم قال: إمشي خلفي وانعتي لي الطريق ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين. فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت.

نشط الشيخ لرأي ابنته وطلب إلى موسى أن يخدمه برعي غنمه ثماني سنوات في نظير أن يزوجه بإحدى ابنتيه وأشار إليها وأنه إذا أجمل معه يتم عشر سنوات فقبل موسى على أنه بالخيار في أي الاجلين. وتمت الصفقة بينهما على ذلك.

ومن ذلك الوقت صار موسى صهرًا لذلك الشيخ وراعياً لغنمه.

ويقول بعض المفسرين إنه أخرجها معه من حين العقد. ومعنى قوله ﴿فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ﴾ [الفصص: ٢٨] أي أنني إذا قضيت الأجل الأول وهو الحجج الثمان فليس لك أن تطالبني بإتمام العشر، وإذا قضيت العشر فليس لك أن تطالبني بزيادة عنها.

وأكثر المفسرين على أن اسم ابنة الشيخ التي صارت زوجاً لموسى «صفورة».

اقرأوا هذه الآيات:

سورة القصص: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجًّا فَإِنْ اتَّمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

سورة طه: ﴿فَلَيْتَ سَيْنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾

ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى، وهو لا يخالف ما في الكتاب الكريم في شيء سوى أن التوراة لم تذكر طلب ابنة الشيخ استئجار موسى، بل الذي هناك أن الشيخ طلب استئجاره ابتداء والخطب سهل جداً. وذكرت أن بنات الشيخ كن سبعاً.

وقد جمع ابن كثير بين القولين بأن المخاطبتين لموسى كانتا اثنتين وهما المباشرتان للرعي، وأن سواهما لم يباشرن الرعي

من هو صهر موسى؟

إن مفسري القرآن الكريم قد اضطربت أقوالهم في اسم صهر موسى عليه السلام

الذي استأجره. وكثير منهم يذكر أنه شعيب عليه الصلاة والسلام، وقد اشتهر ذلك اشتهاراً عظيماً وأولع به الأدباء وأصحاب السير. وهذا أبو العلاء المعري يقول مادحاً رجلاً عظيماً زفت إليه عروسه:

كنت موسى وافته بنت شعيب غير أن ليس فيكما من فقير
وآخرون يذكرون غير ذلك وهأنذا أسوق أقوالهم جميعاً:

١ - قال جماعة إن اسم والد المرأتين «يثرون» وأنه ابن أخي شعيب عليه الصلاة والسلام - قال أبو جعفر الطبري: وأما أبوهما ففي اسمه اختلاف فقال بعضهم: كان اسمه «يثرون» وحدث بسنده إلى أبي عبيدة قال: الذي استأجر موسى «يثرون» ابن أخي شعيب.

٢ - قال آخرون: بل اسمه «يثري».

وقد أورد أبو جعفر الطبري في ذلك ثلاث روايات تنتهي كلها إلى ابن عباس. في روايتين منها: الذي استأجر موسى «يثري» صاحب مدين. وفي الثالثة: اسم أبي المرأة «يثري».

وليس في الروايات الثلاث أنه شعيب أو ابن أخي شعيب.

٣ - قال جماعة: إن الذي استأجر موسى هو نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك روى الطبري بسنده إلى قرة بن خالد قال: «سمعت الحسن البصري يقول: يقولون شعيب صاحب موسى ولكنه سيد أهل الماء يومئذ» ص ٤٠ ج ٢٠. أقول: في كونه سيد أهل الماء نظراً؛ إذ لو كان سيد أهل الماء ما أخر ابنتيه عن الورد؛ ولكانتا تصدران قبل ورد الرعاء.

وقد أخذ الحافظ ابن كثير في تفسيره من قول الحسن هذا: أنه من القائلين بأن والد المرأتين هو شعيب عليه الصلاة والسلام «ص ٣٣٢ ج ٦».

والذي أميل إليه غير ذلك؛ لأن الحسن إنما قال ذلك بصيغة التبري إذ يقول «يقولون» وصيغة التبري لا تقضي أن حاكيا يلتزم ذلك القول ويجزم به.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره: أن ممن روى أن والد المرأتين هو «شعيب»: ابن أبي حاتم بسنده إلى مالك بن أنس أنه بلغه أن «شعيباً» هو الذي قص عليه موسى القصص ومعلوم أن «بلغه» لا تفيد الجزم القاطع. فقد بلغه وبلغني وبلغ غيري ذلك. بل وبلغ من قالوا إن اسمه يثرون أو يثري. ولكن هل هذا يفيد القطع؟ كلا.

٤ - قال آخرون: إن صاحب موسى والد المرأتين هو رجل مؤمن من قوم شعيب. ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره «ص ٣٣٢ ج ٦» ونص عبارته «وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب».

٥ - قال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد - وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال.

ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده - كما سنذكره قريباً إن شاء الله - اهـ «من ص ٢٣٣ ج ٦ - من تفسير الحافظ ابن كثير».

هذه أقوال خمسة بعضها قريب من بعضها الآخر وبعضها بعيد. وليس أحدها بأولى بالقبول من الآخر، لأنه لم يؤيد بنص قطعي الثبوت والدلالة ولا بحديث صحيح يرجحه على غيره.

ولقد راودت نفسي على أن أقول إن الشيخ الكبير هو شعيب النبي عليه الصلاة والسلام فتمثل لي شيخ المعرة يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى
إني أخاف عليكم أن تلتقوا
وخشيت أن يلقاني شعيب عليه الصلاة والسلام في عرصات القيامة فيلبيني إلى الله عز وجل ويقول: أي ربي سل عبدك هذا لم جعلني صاحب موسى الذي استأجره ولم أكن صاحبه ولا وجدت في زمنه؟ وليس بيدي حجة ولا برهان. وجدت الجزم بأن الشيخ الكبير هو «شعيب» قول مني على الله بما لا أعلم وهو منهي عنه بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

لذلك كله آثرت تفويض العلم باسم الشيخ الكبير إلى الله تعالى؛ إذ من المحتمل الذي لا استحالة فيه أن يكون بنفسه شعيباً عليه الصلاة والسلام، ومن المحتمل أيضاً أن يكون ابن أخيه، كما يحتمل أن يكون رجلاً صالحاً من أهل مدين. كل ذلك محتمل والله أعلم.

يوجد وجه سادس: وهو التوقف في أمر ذلك الشيخ الكبير - كما توقفت - ذكره

الإمام محمد بن جرير الطبري وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره «في صفحة ٣٣٢ ج ٦» ونص عبارة الطبري؛ قال أبو جعفر: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه اهـ «٤٠ ج ٢٠» وهذا يعنى قوله تعالى ﴿وَأَنبَاكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

هذا ولقد تكلم شيخ من أفاضل العلماء معي وناقشني في الشيخ الكبير الذي استأجر موسى. فقال لي: إن موسى نبي كريم ورسول عظيم فلا ينبغي أن يكون الذي استأجره إلا نبياً مثله أو قريباً منه في المنزلة، ولم يوجد في مدين من هو بهذه المنزلة سوى شعيب عليه الصلاة والسلام.

فقلت له: لقد انتقلت المسألة من النص إلى الاستحسان، وليس الاستحسان من البراهين التي يحتج بها في موقف يحتاج فيه إلى نص قاطع. على أن موسى لم يكن في زمن استئجاره نبياً.

وقد أورد الحافظ ابن كثير عدة أحاديث مرسلة في أي الأجلين قضى موسى؟ وكلها تدل على أن موسى عليه السلام قضى أبر الأجلين وأوفاهما. ولم يذكر في تلك المراسيل اسم الشيخ الكبير.

ثم قال: قد روي أيضاً نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جداً؛ فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال «سمعت عتبة بن المنذر يقول. إن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبرهما وأوفاهما» ثم قال النبي ﷺ «إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون. قال: فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة وليس فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا ثغول» وقال رسول الله ﷺ «إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية» هكذا أورده البزار.

وقد رواه ابن أبي حاتم بأيسر من هذا فقال: حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله ابن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ قال إن موسى عليه السلام أجر نفسه بعفة فرجه

وطعمة بطنه فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أي الأجلين؟ قال «أبرهما وأوفاهما»، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به؛ فأعطاهما ما ولدت غنمه من قالبة لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناء؛ فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسماهما من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أورها فسقاها ووقف موسى بإزاء الحوض. فما تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة» قال «فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين، ليس فيها فشوش» قال يحيى «ولا ضبوب» وقال صفوان «ولا صبوب» وقال أبو زرعة: الصواب «ظنوب» «ولا عزوز ولا ثغول ولا كميشة تفوت الكف» قال النبي ﷺ «لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية» ثم قال الحافظ ابن كثير - بعد كلام - مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم اهـ.

من هذا نعلم أنه لا يوجد حديث صحيح فيه اسم «شعيب» مصرحاً به.

«لطيفة»: جاء في تفسير الإمام البغوي «معالم التنزيل» عند قول ابنة الشيخ ﴿إِنِّي يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [الفصص: ٢٥] قال أبو حازم سلمة بن دينار: لما سمع ذلك موسى أراد ألا يذهب، ولكنه كان جائعاً، فلم يجد بداً من الذهاب، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها. فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك. فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهياً. فقال: اجلس يا شاب فتعش. فقال موسى: أعوذ بالله! فقال شعيب: ولم ذاك ألت بجائع؟ قال: بلى. ولكن أخاف أن يكون ذلك عوضاً لما سقيت لهما. وأنا أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا. فقال شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف ونطعم الطعام. فجلس موسى وأكل.

أقول: إنها حكاية جميلة لولا أن موسى كان موقناً إنه إنما دعاه ليجزيه أجر ما سقى لابنتيه، فما كان له أن يتجاهل ذلك.

بقيت مسألة: وهي أن حضرموت بها قبر يقول أهل البلاد إنه قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يقع في شمال شبام يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر إليه بوادي ابن علي، ويخلص السائر إلى سهل بعد الوادي. ليس بجانبه عمران ولا يقصد ذلك القبر إلا للزيارة. وشبام تقع في غربي مدينة سيون. وإنني أشك في أن القبر لنبي الله شعيب.

قضاء موسى مدة استئجاره

موسى بالوادي المقدس

بعثته عليه السلام

قضى موسى الأجل الذي بينه وبين صهره . والمفسرون للقرآن الكريم على أنه قضى أكبر الأجلين، أي أنه خدم صهره عشر سنين . وقد رووا في ذلك حديثاً عن رسول الله ﷺ والقرآن الكريم لم يبين عدد السنين التي أقامها بعد انقضاء الأجل . وأكثر المفسرين يتعجلون موسى ويقولون إنه بعد انقضاء الأجل أراد العودة إلى مصر وأن حماه جعل له نتاج غنمه تلك السنة فحملت الماشية كلها .

وأنا لا أظن أن موسى يتعجل العودة إلى مصر بمجرد انتهاء الأجل لأنه يعلم أن بمصر من ينتظر الظفر به ليورده موارد الردى وقد أثبت لديهم أنه مقترب الجريمة هربه منهم عقب افتضاح الأمر . ويدل على ذلك قوله ﴿ قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣] وقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤] .

أما التوراة فتقول إن عودة موسى إلى مصر بأمر ربه لإخراج بني إسرائيل من ذل العبودية كان على أثر بلوغه ثمانين سنة، وأنه على أثر مدة التيه كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وقد مات ولم يدخل الأرض المقدسة . وقد يكون ذلك صحيحاً وهو لا يعارض الكتاب الكريم .

وفي معالم التنزيل أنه أقام بعد انقضاء الأجل عشر سنين والأسلم التفويض إلى علم الله . وربما كان السبب في أن المفسرين يقولون إن موسى سار عقب انتهاء الأجل قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩] وقد فاتهم أن الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقياً . وتقول التوراة إن موسى رزق ولداً اسمه «جرشوم» وهو اسم يدل معنى الغربية أي أنه غريب المولد .

بينما موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضل الطريق في ليلة باردة، وأراد أن يوري ناراً فصلد زنده وضمن بالنار، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً من بعيد فقال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى : فأسأل من عندها عن الطريق يهدوننا . والظاهر أنه كان أبعد من مدين حتى جاء إلى سيناء . وهذا ليس بغريب فإن الراعي يتبع مواضع الكلال ومواقع المطر حيث كانت ليرعى ماشيته .

لما قرب موسى من النار وجد النار في شجرة علق، وأن النار لا تطفأ والعليقة لا

تشتعل، ولم يجد أحداً من الناس يسأله عن الطريق وحينئذ سمع صوتاً من وسط النار يناديه يا موسى إني أنا الله رب العالمين. وأمره بخلع نعله لأنه بالوادي المقدس طوى فخلعها.

وفي الحديث «كأننا من جلد حمار ميت».

وفي الطبري: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته وابتدأه فيها بنبوته وكلامه أخطأ الطريق حتى لا يدري أين يتوجه. فأخرج زنده ليقدر ناراً لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح ويعلم وجه سبيله، فصلد عليه زنده فلم يور ناراً، فقدم حتى أعياه، ولاحت له النار فرأها ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] بقبس تصطلون وهدى عن علم الطريق الذي أضللناه بنعت من خبير، فخرج نحوها فإذا هي في شجرة من العليق. بعض أهل الكتاب يقولون في عوسجة.

فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استخارها رجع عنها وأوجس في نفسه خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله: ﴿يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢] فألقاهما، ثم قال ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٧ - ١٨] أي منافع أخرى. قال ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَنَآءُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ١٩ - ٢٠] قد صار شعبتها فمها وصار محجنها عرفاً لها في ظهرها، تهتز، لها أنياب فهي كما شاء الله أن تكون. فرأى أمراً فظيعاً ﴿وَلَىٰ مُذْكَرٌ وَكَلَرٌ يُمْقُبُّ﴾ [النمل: ١٠] فناداه ربه أن ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] أي سنعيدها عصا كما كانت. قال فلماً أقبل قال: خذها ولا تخف أدخل يدك في فمها. وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه - وهو لها هائب فنودي أن ألق كملك عن يدك أدخل يدك، فألقاه عنها ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها فإذا هي عصاة في يده ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها، ومحجنها بموضعه الذي كان لا ينكر منها شيئاً. ثم قال ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] أي من غير برص - وكان عليه السلام رجلاً آدم أفتى جعداً طوالاً - فأدخل يده في جيبه ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج ثم ردها في جيبه فعادت كما كانت على لونها. ثم قال: ﴿فَلَا تَلْعَبْ بَرَهْمَانٍ مِّنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٢ - ٣٤] أي يبين لهم عنى ما أكلمتهم به فإنه يفهم عنى ما لا يفهمون: قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنَا وَمَن أَتْبَعُكُمَا أَلْفَلُكُونَ﴾ [القصص: ٣٥]

ونقل عن السدي: فأقبل موسى إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل «المرق» فنزل في جانب الدار، فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت؟ فقال: أنا موسى! فقام كل منهما إلى صاحبه فاعتنقه.

ولي هناك ملاحظة: هي أن موسى قال ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]. وقال في مرة أخرى ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨] وغيره فرعون بعدم الفصاحة فقال ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] والمفسرون يرون لحبسة موسى أو لكنته سبباً. هو أن موسى أخذه فرعون على حجره وهو صغير فمد يده إلى لحيته وتنف خصلة منها، فأراد قتله. فشفعت فيه زوج فرعون وقالت إنه لا يعقل ما يفعل. وأشارت باختباره بتمرة وجمرة، فوضعتا في طست فأخذ الجمرة ووضعها في فيه فأثرت في لسانه، فلذا نشأ موسى غير فصيح بل عنده حبسة في لسانه. وأحسب ذلك غير صحيح وأن المسألة ذات وجهين:

أولهما: أن موسى ألقته أمه في اليم. والتقطه آل فرعون. وحرم الله عليه المراضع لطفاً بأمه الوالهة إلى أن جاءوا بها فأرضعته وكفلته، والطفل عادة إذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورثه ذلك حبسة في لسانه.

وقد رأينا من أصحابنا من كان لا يكاد يبين ولا سبب لذلك إلا احتباسه عن الرضاعة مدة.

ثانيهما: أن موسى خرج من مصر من عهد بعيد. واعتقادي أنه مكث في مدين زمناً طويلاً فنسي اللغة المصرية - لغة القبط - لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه. وأما هارون فكان بين المصريين ومقيماً معهم، فهو أفصح من موسى. وحقيق بأن يشافهم بها ونحن أولاد يسافر الواحد من أبنائنا إلى البلاد الأوروبية - ولا تكون مدة إقامته أكثر من خمس أو سبع سنوات - ثم يجيء إلى مصر ناسياً كثيراً من لغة أبيه وأمّه وللناس نوادر في حكاية ألفاظهم وأحوالهم.

بقي أن يقال: إذا كان موسى قد نسي لغة المصريين فكيف يحاور أخاه هارون الذي لم يخرج من مصر؟ وجوابي على ذلك أن هارون بحكم البيئة كان يجيد القبطية، وبحكم طينته كان يجيد العبرية. ولغة أهل مدين ولغة العبرانيين متقاربة جداً لأن المديانيين إخوة للعبرانيين. أبوهم واحد هو إبراهيم. لا جرم كان هارون يفهم من موسى ما لا يفهمه عنه المصريون القبط. وإنني أميل إلى الرأي الأول. ولييان موقف موسى هذا.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَفَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢١ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا شَكُورًا ۝٢٢﴾ .

سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝٩١ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝٩٢ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ۝٩٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝٩٤ وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝٩٥ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝٩٦ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝٩٧ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝٩٨﴾ .

سورة طه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٩٩ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝١٠٠ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝١٠١ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝١٠٢ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝١٠٣ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝١٠٤ هَٰزُونَ أَجَىٰ ۝١٠٥ أَشَدُّ بِهِ ۝١٠٦ أَزْرَىٰ ۝١٠٧ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ۝١٠٨ كَيْ سَجَدَ كَثِيرًا ۝١٠٩ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ۝١١٠ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝١١١ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ۝١١٢﴾ .

سورة طه: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ۝١١٣ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَخَازِبٌ أُخْرَىٰ ۝١١٤ قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَىٰ ۝١١٥ فَالْتَمَهَا فَإِذَا هِيَ حَبَآءٌ تُسَعَّىٰ ۝١١٦ قَالَ حُذِّمُوهَا وَلَا تَحْجَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۝١١٧ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝١١٨ لِّزَيْنِكَ مِّنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۝١١٩﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَخُوكَ بِأُنَاقٍ وَلَا لَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝١٢٠ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٢١ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّئِنَّا لَعَلُّهُمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝١٢٢ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَن يَقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْعَنَىٰ ۝١٢٣ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝١٢٤ فَأُنِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝١٢٥﴾ .

سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝١٢٦ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ تَارِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝١٢٧ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قِبَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝١٢٨﴾ .

سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْغَلَامُ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَأْتِيَكُمْ بِهِ نَارًا لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَجُودٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَلِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

سورة السجدة^(١): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى

لَبَّى إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ .

سورة النازعات: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمُكُمْ إِلَيْكُمْ جَنَّاتِكُمْ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [الفصل: ٣٢] معناه أن الله تعالى يأمر موسى بأن يضم يديه إلى جنبه إذا آنس من نفسه رعباً ورهباً من فرعون، فإن الله ينزل عليه السكينة والقوة على مقاومة ذلك في هذا الحين، وهذه ليست من الآيات التي ضربها لفرعون وإنما هي تأييد خاص من الله لموسى وكأنها تكاد تكون أمراً غريباً^(١).

(١) المواقف المتقدمة في التوراة

ذكرت التوراة قصة موسى هذه فيما يلي: -

الإصحاح الثالث - خروج.

(٤) وأما موسى فكان يرعى غنم «يثرون» حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة، فنظر فإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لا تحترق العليقة. (٥) فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال: هاأنذا. فقال: لا تقرب إلى ها هنا. اخلع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.

(٦) ثم قال: أنا إله أبوك إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله.

(٧) فقال الرب إني رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، إني علمت أوجاعهم.

(٨) فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين.

(٩) والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إليّ، ورأيت أيضاً الضيقة التي يضيقهم بها المصريون. (١٠) فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر.

(١١) فقال موسى لله: من أنا حتى أذهب إلى فرعون. وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر. (١٢) فقال إني أكون معك، وهذه تكون تلك العلامة أني أرسلتك حينما تخرجون الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل.

(١٣) فقال موسى لله ها أنا آتي بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا ما اسمه فماذا أقول لهم؟

(١٤) فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه وقال أهكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم.

(١٥) وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم إله إسحاق إله =

- = يعقوب أرسلني إليكم هذا اسمي إلى الأبد، وهذا ذكري إلى دور فدور.
- (١٦) اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلاً: إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر.
- (١٧) فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً.
- (١٨) فإذا سمعوا لقولك: تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا، فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا.
- (١٩) ولكن اعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية.
- (٢٠) فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم.
- (٢١) وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين.
- (٢٢) بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين.
- الإصحاح الرابع - خروج.
- (١) فأجاب موسى وقال: ولكن ها هم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي، بل يقولون لم يظهر لك الرب.
- (٢) فقال له الرب: ما هذه في يدك؟ قال: عصا.
- (٣) فقال: اطرحها إلى الأرض فصارت حية. فهرب موسى منها.
- (٤) ثم قال الرب مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسك به فصارت عصا في يده.
- (٥) لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب.
- (٦) ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج.
- (٧) ثم قال له: رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هي قد عادت مثل جسده.
- (٨) فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة.
- (٩) ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على الياس فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دماً على الياس.
- (١٠) فقال موسى للرب: استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبك بل أنا ثقیل الفم واللسان.
- (١١) فقال له الرب: من صنع للإنسان فماً أو من صنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى أما هو أنا الرب.
- (١٢) فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به.
- (١٣) فقال: استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل.
- (١٤) فحمي غضب الرب على موسى. وقال أليس هارون اللاوي أخاك؟ أنا أعلم أنه يتكلم وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك وحينما يراك يفرح بقلبه.

عودة موسى إلى مصر ودعوته لفرعون

ذكرنا عود موسى إلى مصر عن القرآن والتوراة، وأن موسى أخبر هارون بأنه شريك له في الرسالة ومعين له على تبليغ حجة الله فامتثل أمر الله تعالى.

فأنتم ترون أنه ليس بين ما جاء في القرآن وما جاء في التوراة - خاصًا بمواقف موسى المذكورة - سوى فروق ليست بذات بال.

ويقول بعض المفسرين: أن أهمها خافت عليهما وعارضت في ذهابهما إلى فرعون خشية أن يبطش بهما فلم يصغيا لقولها ولم يكن لهما هم إلا تنفيذ أمر الله تعالى.

وبعض المفسرين يذكر أنهما دخلا على فرعون بمجرد استئذانهما عليه، وبعض آخر يقول إنهما ترددا على بابه ستتين لا يظفران بالمشول بين يديه حتى دخل عليه مضحكه

-
- = (١٥) فتكلمه وتضع الكلمات في فمه وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأنا أعلمكما ماذا تصنعان.
- (١٦) وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فمًا وأنت تكون له إلهًا.
- (١٧) وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات.
- (١٨) فمضى موسى ورجع إلى «يثرون» حميه وقال له: أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال «يثرون» لموسى اذهب بسلام.
- (١٩) وقال الرب لموسى في مديان: اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك.
- (٢٠) فأخذ موسى امرأته وابنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر، وأخذ موسى عصا الله في يده.
- (٢١) وقال الرب لموسى: عندما تذهب لترجع إلى مصر أنظر جميع العجائب التي جعلتها في يدك واصنعها قدام فرعون ولكني أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب.
- (٢٢) فتقول لفرعون هكذا يقول الرب «إسرائيل ابني البكر».
- (٢٣) فقلت لك أطلق ابني ليعبدي فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر.
- (٢٤) وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله.
- (٢٥) فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجله فقالت إنك عريس دم لي.
- (٢٦) فانفك عنه حيثذ فقالت عريس دم لي من أجل الختان.
- (٢٧) وقال الرب لهارون: اذهب إلى البرية لاستقبال موسى فذهب والتقاه في جبل الله وقبله.
- (٢٨) فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذي أرسله وبكل الآيات التي أوصاه بها.
- (٢٩) ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل.
- (٣٠) فتكلم هارون بجميع الكلام الذي كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب.
- (٣١) فأمن الشعب ولما سمعوا أن الرب افتقد بني إسرائيل وأنه نظر مذلتهم خروا وسجدوا اهـ.

وأخبره أن بالباب رجلاً مجنوناً يدعي أن له إلهاً غير فرعون، فكان ذلك حاثاً لفرعون على طلب موسى وهارون.

وأما القرآن الكريم فلم يتعرض لشيء من هذا وإنما ذكر أنهما أتيا فرعون وبلغاه رسالة الله تعالى له، أن يرسل معهما بني إسرائيل لعبادة ربهما. وفي التوراة «أطلق شعبي ليعبدوا في البرية» وبلغه موسى فيما بلغه أنه لم يقل على الله إلا الحق وأنه قد أرسل بآية منه ليرسل معه بني إسرائيل.

وجعل ترخيصه لبني إسرائيل بالذهاب مع موسى إلى البرية لعبادة ربهم نعمة يمنها فرعون على موسى.

وهذا من تطف موسى ورفقه في خطاب فرعون طبقاً لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّكُمَا يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وهذه الآيات تدل على هذا الموقف من مواقف موسى: -

سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَلْفِرُونَ مِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٥﴾﴾.

سورة الشعراء: ﴿أَن أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٧﴾﴾.

ومنها أيضاً: ﴿وَلَنَّا نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَن عِبْدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

لا تنسوا أن المفسرين يجعلون الآية الأخيرة ﴿وَلَنَّا نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٢] توبيخاً من موسى لفرعون أن جعل بني إسرائيل عبيداً وأنه يتهم به لذلك.

ولكنني أخالفهم في ذلك وأقول إنه يتلطف به غاية التلطف ليحملة على إطلاق بني إسرائيل قائلاً: إن تعبيدك بني إسرائيل أي تكريمك لهم وتمكينهم من عبادة ربهم أعده نعمة مننت بها عليّ، تضاف إلى تربيتي فيكم وليداً وإلى مكثي بينكم فيكم من عمري سنين. وما كان من شأن موسى أن يخرج الهزل في معرض الجد ولا أن يلجأ إلى المعارض والمجازات. ولكنه كان في محاوراته كلها مثال الجد والصراحة. يؤدي ما أمر به على الوجه الذي صدر له أن يؤديه. ومهمته العظمى إنقاذ بني إسرائيل من ذلك العذاب المهين الذي كانوا فيه. وهذا طلب لذلك الأمر على وجه اللطف والرفق.

قد يقول بعض الناس: إن هذا المحمل الذي حملت الآية عليه لم يوجد لمفسر، وكتب اللغة لم تذكر هذا المعنى.

والجواب: أن محور رسالة موسى والغرض الأول المقصود بها هو إطلاق بني إسرائيل، والحجة الظاهرة لهذا أنهم يريدون أن يعبدوا إلههم في البرية، يعملون له عيداً «وفي العبرية حج» فهذا هو الغرض الأصلي الذي جاء موسى لتنفيذه وجاء بالآيات لحمل فرعون وقومه عليه، وأما استعباد فرعون لبني إسرائيل فليس من النعمة أو المنة في شيء، وما كان موسى من المستهزئين أو الذين يأتون بالأمر يكون مغرياً لفرعون بالعناد والاستخفاف بمثل هذا الملك الجبار لا ينتج ما يرجو موسى. فحمل المعنى على ما قالوه لا يجعل في موسى حكمة الأنبياء الذين جملهم الله تعالى بها.

بل هذا القول إلى المشاكسة أقرب، ومن قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] أبعد. وأقرب المعاني إلى ذلك هو ما ذكرته.

ومعنى ﴿وَلَكَ نِعْمَةٌ تَنْهَى عَلَى أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي كرمتهم وتكريمهم يكون بترفيه العذاب عنهم وإطلاق الحرية لهم في عبادة ربهم وإرسالهم مع موسى لذلك. والتعبيد بمعنى التكريم وارد في اللغة العربية، فقد جاء في لسان العرب «مادة (عبد) ما نصه» والمعبد: المكرم. والمعبد: المكرم في بيت حاتم:

تقول ألا تبقي عليك فإنني أرى المال عند المكشرين معبداً
أي معظماً مخدوماً. وبغير معبد: مكرم اهـ.

وإذا عرفت هذا أيها القارئ الكريم عرفت أن الوجه الذي ذكرته أقرب إلى الغرض من إرسال موسى، وأجدد بأن تحمل الآية عليه.

تذكير فرعون موسى - تربيته في بيت فرعون

لما دخل موسى على فرعون وأدى مقالته بواسطة هارون، كان فيما قال فرعون لموسى وذكره به: أنه ربي في بيت فرعون وليداً ولبث فيهم سنين من عمره، وهذا يقتضي أن يكون حافظاً للمودة حريصاً على التباعد عن كل ما يغيب فرعون وآله، فلا يروعههم بمعتقد غريب عنهم غير معروف لهم. وهو عبادة غير فرعون وآلهته، بل عليه أن يبادر إلى عبادة فرعون. ثم ذكره بفعلته التي فعل من قتل الرجل القبطي وهربه على أثرها فمن كان آثماً إثمه لا يأتي بما هو أعظم منه وهو حملهم على ترك آلهتهم وتقديس فرعون وترك التوجه إليه بالعبادة، فرد موسى على هذه المسألة الأخيرة بقوله: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠ - ٢١].

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُنزِلْكَ فِيْنَا وَلَدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠) ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١).

موسى يحاج فرعون

في ربوبية الله تعالى

لما فرغ موسى مما قال وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا إلههم في البرية - وفرعون رجل عات تدين الأمة المصرية بعبادته وتذعن بقداسته^(١)، وقد فجأه من موسى أمر لا يقره ولا يرضاه. وهو محاولة إنزاله عن عرش الربوبية - أخذ على أثر ذلك يحاور موسى فيسأله ما رب العالمين؟ قال: رب السموات والأرض وما بينهما، خالق ذلك ومبتدعه. فالتفت فرعون إلى من حوله من ملئه مظهراً العجب قائلاً: ألا تستمعون! واستمر موسى قائلاً ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] أي حين لم يكن فرعون موجوداً ولا معبوداً فقال فرعون لملئه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] لأنه جاءنا بشيء لا نعرفه ولا نقره. فاستمر موسى قائلاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

ولما علم موسى وهارون عدم ارعواء فرعون عن غيه. وتماديه في ادعاء الربوبية وأنه مكذب لا محالة. قال له: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨] فقال لهما: فمن ربكما يا موسى؟ فأفهمه أن إلهه هو الذي أحصى كل شيء خلقه فهو الذي أعطاهم الحواس والعقول، وخلق لهم ما في الأرض جميعاً، وجعلهم فيها خلفاء، وصرفهم في خيراتها ومرافقها وما عليها من حيوان، وجعلهم مستخلفين في كل ذلك، وهداهم إلى الانتفاع بكل شيء في مصالحهم كل فيما يصلح له. فسأل فرعون عن القرون الأولى، فأحال موسى على الله الذي علم كل شيء من شؤونها، وأن ذلك في كتاب، وأن الله لا يضل عن أعمالهم ولا ينسى منها شيئاً. وسيحاسب كل إنسان بما صنع. ثم ذكر من قدرته على ما صنع ويصنع ما تجب بمثله الحجة على قدرته وحكمته

(١) كان الملوك في قديم الزمان يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس ويضعون مكانتهم في إطار من الإلهية لا جهلاً منهم بأنهم أناس لا يختلفون عن غيرهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمويهاً على العامة حتى يأمّنوا غائلة الثورات الهوج من الذين يطمعون في تبوؤ عرش الملك، مقدرين أن ذلك التقديس يحول بين النازعين إلى الثورة وبين ما يشتهون. وهذه كانت حال نمرود في عهد إبراهيم وحال الذين أتوا بعد موسى من ملوك اليونان ثم الرومان، كما كانت حال الفراعنة في مصر.

واستحقاقه للعبادة قائلاً ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَىٰ﴾ [طه: ٥٣]. أي أخرج به أنواع النبات على تعدده وأزواجه وتباين ألوانه. وسهل للإنسان ما يأكله ولماشيته ما ترعاه. وأن من كانت هذه أعماله، كانت تلك الأعمال آيات يهتدي بها ذو العقل السليم.

ثم قال: إن الأرض منبتنا الذي أنبتنا الله منه. وفيها يعود الناس إذا فنيت حياتهم. ومنها يخرجون مرة أخرى لمجازاة كل بما صنع.

اقرأوا هذه الآيات في هذا الموقف: -

سورة طه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ۖ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۖ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمْنَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ۖ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَقَىٰ ۖ ﴿٥٣﴾ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ۖ ﴿٥٤﴾ مِنَّا خَلَقْنَكُمْ وَإِنَّا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۖ ﴿٥٥﴾ ۝

سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ۖ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَن حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ۖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۖ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِن رَّبُّكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمُ لِتُخْرِجُوا لِمَجْنُونٍ ۖ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٢٨﴾ ۝

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى في الإصحاحين الخامس والسادس من سفر الخروج وهاكم نصها:

١ - وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالوا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية.

٢ - فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه.

(٣) فقالوا إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا لثلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف:

(٤) فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله. اذهبا إلى أنقالكما.

(٥) وقال فرعون هو ذا الآن شعب الأرض كثير وأنتم تريحانهم من أنقالهم.

(٦) فأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريه قائلاً:

(٧) لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبن كأمس وأول أمس. ليذهبوا هم يجمعوا تبناً لأنفسهم.

(٨) ومقدار اللبن الذي كانوا يصنعونه أمس وأول أمس تجعلونه عليهم لا تنقصوا منه فإنهم متكاسلون. لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا.

(٩) ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب.

(١٠) فخرج مسخرو الشعب ومدبروه. وكلموا الشعب قائلين هكذا. يقول فرعون لست أعطيكم تبناً:

(١١) إذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبناً من حيث تجدونه أنه لا ينتقص من عملكم شيء.

(١٢) ففترق الشعب في كل أرض مصر ليجمعوا قشاً عوضاً عن التبن.

(١٣) وكان المسخرون يعجلونهم قائلين كلموا أعمالكم أمر كل يوم بيومه كما كان حينما كان تبن.

(١٤) فضرب مدبرو بني إسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم لماذا لم تكملوا فريضتكم من صنع اللبن أمس واليوم كالأمس وأول من أمس.

(١٥) فأتى مدبرو بني إسرائيل وصرخوا إلى فرعون قائلين لماذا تفعل هكذا بعبيدك.

(١٦) التبن ليس يعطى لعبيدك واللبن يقولون لنا اصنعه، وهو ذا عبيدك مضربون. وقد أخطأ شعبك.

(١٧) فقال متكاسلون أنتم متكاسلون لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب.

(١٨) فالآن اذهبوا اعملوا. وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه.

(١٩) فرأى مدبرو بني إسرائيل أنفسهم في بلية إذ قيل لهم لا تنقصوا من لبنكم أمر كل يوم بيومه.

(٢٠) وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون.

(٢١) فقالوا لهما ينظر الرب إليكما ويقضي لأنكما أنتمتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً في أيديهم يقتلونا.

(٢٢) فرجع موسى إلى الرب وقال يا سيد لماذا أسأت إلى الشعب. لماذا أرسلتني.

(٢٣) فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت تخلص شعبك، وهذا معنى قوله تعال ﴿قَالُوا أَوْيَتَنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

الإصحاح السادس - خروج.

(١) فقال الرب لموسى الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه.

(٢) ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب.

(٣) وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب يأتي الإله القادر على كل شيء. أما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم.

(٤) وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيههم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها.

(٥) وأنا أيضاً قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي.

(٦) لذلك قل لبني إسرائيل أنا الرب: وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين. وأنقذك من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، وأنقذك لي شعباً. وأكون لكم إلهاً.

(٧) فتعلمون أنني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين.

(٨) وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وأعطيتكم إياها ميراثاً، أنا الرب.

(٩) فكلم موسى هكذا بني إسرائيل. ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية.

(١٠) ثم كلم الرب قائلًا.

(١١) ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه.

فرعون يتجاهل الله ويدعي الإلهية ويأمر ببناء صرح يصعد به إلى السماء

لما ألح موسى على فرعون بالدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وهو في ملأ قومه وذلك يكسر من هيئته ويحط من رتبته. وجه فرعون إلى القوم كلامه متجاهلاً الإله الذي يدعو إليه موسى وأنه سيتخذ الوسيلة للصعود إلى إله موسى ليصفي الحساب بينه وبينه. ولعله فهم من قول موسى رب السماء والأرض أنه موجود في السماء لأن العظيم القادر على العلو لا ينزل إلى أسفل. وأوهم القوم أن الصعود إلى السماء أمر تناله قدرته. فأصدر أمره إلى هامان أن يطبخ له الآجر ويبنى له صرحاً يأخذ في السماء صعوداً حتى ينالها ويطلع إلى إله موسى. ثم أردف ذلك بأنه يظن أن موسى كاذب في أن له إلهاً سوى فرعون.

من الناس من يذكر الفكرة عالماً بأنها مبنية على غير أساس، ثم لا يزال يخادع نفسه ونفسه تخادعه حتى يخيل إليه أن الأمر سهل الوقوع ويعلق نفسه به. شأنه في ذلك شأن أشعب المشهور بالطمع، إذ صرف عنه الأطفال بحيلة أنه يوجد عرس في بيت فلان وأنهم يفرقون على الناس الدراهم، فانصرفوا ظانين صدقه فتبعهم أملاً أن يكون ما قاله لهم حقاً. فينال من تلك الدراهم التي تفرق في ذلك العرس الوهمي.

لا أظن أن فرعون كان من الجهل بدرجة أن يأمل أن ينال السماء ببناء يصعد ولكنه أراد أن يتغفل القوم الذين معه حتى لا يخامر أنفسهم خلجة في حطه عن عرش الربوبية. فأراد أن يدخل في روعهم أنه من القدرة بحيث يقدر على منازلة كل إله ولو كان في السماء. وأنه على استعداد لمحاربة إله موسى الذي في السماء إذا كان فيها، وأنه يتهم موسى في وجود إله سواه وأنه سيأخذ في أسباب العمل في تصفية الحساب مع ذلك الإله، ولذلك أمر باتخاذ صرح يبلغ به أسباب السموات، وعهد بذلك إلى هامان. ولا يبعد أن تكون نفسه أشعبية فتخيل ثم خال.

(١٢) فتكلم موسى أمام الرب قائلاً هو ذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي. فكيف يسمعون فرعون وأنا أغلف الشفتين.

(١٣) فكلم الرب موسى وهارون وأوصى معهما إلى بني إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر في إخراج بني إسرائيل من أرضه.

(٢٨) وكان يوم كلم الرب موسى في أرض مصر.

(٢٩) أن الرب كلمه قائلاً إن الرب كلم فرعون ملك مصر بكل ما أنا أكلمك به.

(٣٠) فقال موسى أمام الرب هأنذا أغلف الشفتين فكيف يسمع لي فرعون.

سمعت من أهل السودان أن يونس الدكيم من رجال التعايشي كان أميراً على مديرية دنقلة. فلما قامت الحملة المصرية لاسترجاع السودان سنة ١٨٩٦ م جاء الخبر بأن الترك «المصريون والإنجليز» آتون في البحر «النيل» على السفن لأخذ البلاد السودانية، وكان رجلاً عاتياً قاسياً فحلف قائلاً «بتا بالله أشرب البحر» يريد بذلك أن يشرب ماء النيل حتى تقف السفن على الطين فلا تقدر على المسير، ويكتفي بذلك شر جنود الترك.

ومع علم الحاضرين بكذبه أخذوا يظهرون له أن هذا الأمر وإن كان في مقدوره ولكن البحر «النيل» يشرب منه خليفة المهدي وكل الإخوان، وبه ينمو الزرع وتشرب منه الناس والبهائم، وإذا شربه فأتت تلك المصالح وهلك الناس. فهم بذلك سلموا له بكذبه وأخذوا يترضونه حتى لا يفعل، وهم يعلمون أنه كاذب ولو خلى وما أراد ما أثر شيئاً ولكنه الملقق البارد.

وهكذا كان شأن أصحاب فرعون يعلمون كذبه ولا يجسر أحد منهم على تكذيبه أو رده.

وأخرى: أن الجيش المصري لما انتهى من وقعة كررى خارج أم درمان خرج عبد الله التعايشي مع بعض الجنود مصعداً نحو الجنوب، والجيش المصري يرسل رصاصة على ساقه جيش التعايشي. وخاف التعايشي أن يركب جواده فيصيبه الرصاص فمشى راجلاً. وكان في الجيش عثمان دقته بطل الحروب السودانية المشهور فقال له: اركب يا خليفة المهدي، فأجابه بلهجة أهل السودان «كيف؟ أركب والخضر ماش أمامي؟» فقال له عثمان دقته «فضنا من كضباتك دي يازول» أي دعنا من أكاذيبك يا رجل «نحن معردين الخضر معرديشون؟ الخضر ما هو شايف رصاص الترك في جفانا» أي نحن شاردون والخضر لأي شيء يشرد؟ ألم ير رصاص الترك يأخذ من خلفنا.

ولكن فرعون لم يجد من المصريين في ملئه من يقولون له ما قال عثمان دقته للتعايشي. بل كانوا يؤمنون على قوله.

لم يكن في ذلك الوقت رجل صادق الفراسة يقرأ لنا أفكار الملاء من قوم فرعون؟ هل كانوا يفكرون فكره ويترسمون خطواته فيما يخيّل إليهم؟ أو كانوا عالمين باستحالة ما يحاول وإنما يؤمنون على قوله مجازاة له، ومجاملة ينالون بها الحظوة عنده - وإن كان في نفوسهم كاذباً - كما هو شأن الكثير من المصريين في موافقة الحكام على آرائهم، وإن كانت مباينة لما يكونون في أنفسهم؟! وهل فعل هامان ما أمر به فرعون؟ وإلى أي حد بلغ في علو البناء؟ وإلام آل أمر ذلك البناء؟

كل ذلك لم يذكره القرآن ولم يذكر في التوراة بطريق التصريح أو الإشارة.

وإنما يذكر المفسرون أن هامان بنى له الصرح حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء. ثم صعد فرعون وصوب سهماً إلى السماء ورمى به فعاد إليه النصل مخضباً بالدم ، فقال : لقد قتلت إله موسى .

ثم ما هو هامان^(١) ؟ وما منصبه ؟ وهل لفظ «هامان» علم له أو علم منصبه الذي يشغله ؟ ليس عندنا في ذلك أثارة من علم . والذي أفهمه أنه وزير العمارات عند فرعون .

اقرأوا هذه الآيات :

سورة القصص : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَكُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ (٢٨) .

سورة غافر :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ ابْنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (٢٩) ﴿ اسْتَبَدَّ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (٣٧) .

أما التوراة فلم تذكر بناء الصرح ولا أمر هامان بذلك .

معجزة العصا واليد

اتهام موسى بالسحر - حشد فرعون السحرة - إلقاؤهم بسحرهم - تلقف العصا للسحر - إيمان السحرة برب العالمين وثباتهم على إيمانهم - غضب فرعون من السحرة وقتلهم وصلبهم .

لما أعضل موسى وأخوه بفرعون ولم يجد السبيل إلى إقارهما بأنه الإله الحق رجا أن يعجز عن الإتيان بآية تبين صدقهما فيما جاءا به عن إلههما . فطلب آية من موسى فألقى

(١) يقول الأستاذ موسى جار الله : إنه يرجح أن فرعون كان يدعو «آمون» معبود المصريين ، وأن هذا القول من قبيل الأمر . وهو معنى حسن لولا قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ كَانَتْ خُتُودُهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ ﴾ [القصص : ٨] فإن الصنم لا يوصف بالخطأ ، وإنما تدل على أنه رجل له قدر عال عند فرعون .

هذا وفي كتاب استير : أن هامان كان من وزراء الملك «احشويرس» وهو : هامان بن همدانا الأجاجي ، وكان عدواً لليهود وكان عاملاً على إبادةهم «١٠ : ١٣ سبتمبر» وعلى ذلك فهو اسم لذي وظيفة .

عصاه من يده فإذا هي ثعبان لا شك فيه يتحرك ويسعى، ووضع يده في جيبه ثم نزعها فإذا هي بيضاء للناظرين. رأى فرعون والملا من قومه ذلك فعمدوا إلى التماذي على تكذيب موسى فيما جاء به من الآيتين وأحالوا ذلك منه على السحر، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكداً أنه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم. فأدت بهم خاتمة المطاف إلى أن أشاروا على فرعون بأن يرجع موسى وأخاه حتى يأتي بالسحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما يأتي به موسى. لأن هذه الآية التي أتى بها متى كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها فقد بطلت دعواه، إذ الفرض أن يأتي بشيء لا يقدر غيره على الإتيان بمثله. وإلا فإنه لا يسمى معجزة تدل على صدقه فيما يبلغ عن ربه.

أرسل فرعون في مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسحرة - وكان للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر. يعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه. وهذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه إلى اليوم - فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة كانوا مدلين أنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف في الأعيان والعيون، وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيامهم بالسحر. فوعدهم الأجر الجزيل. والزلفى لديه وأي زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيدون ربوبيته ويثبتون عرش (ألوهيته) - وطلب السحرة الأجر يدل على أن أمور الفراعنة كانت سخرة.

راود السحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقي هو سحره أولاً؟ وكان الجمع حافلاً وفي يوم الزينة، ويظن أنه يوم وفاء النيل. فإنه كان أعظم أعيادهم فقال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون. وكان عتادهم العصي والحبال، فألقوها فامتلاً المكان حيات وثعابين، وخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى.

في تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعلية قومه، وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا، وأن موسى لا يمكنه أن يأتي بشيء أعظم من سحرهم، إذ كل في يده عصاه، فإذا قلبت حية فهي حية واحدة من مئات وآلاف قد غص بها رحب الساحة التي هم فيها.

وفي تلك اللحظة أيضاً هال موسى أمر تلك الحيات وأوجس في نفسه خيفة. فأمره الله أن يلقي عصاه، فإذا هي حية تسعى وإذا هي تبتلع حيات السحرة وتتلفها^(١). فوقع

(١) الذي في القرآن ﴿تَلَقَّفْ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]. قال في تاج العروس: وفي المحكم اللقف: سرعة الأخذ لما يرمى إليك باليد أو باللسان: وقال غيره، اللقف: أن تأخذ شيئاً فتأكله أو تبتلعه «من ٢٤٨ ج ٦ - وفي ص ٢٤٩» اللقف بالفتح الفم - يمانية.

الحق وبطل سحر السحرة ودهش آل فرعون والملا من قومه . وعلم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك . وإنما هي القوة الإلهية صنعت هذا ، فخروا ساجدين لله تعالى وآمنوا برب موسى وهارون ، مفضلين ذلك على الأجر الذي كانوا يرجونه من فرعون ، مستهينين بجزائه الذي سيوقعه بهم .

علم فرعون أنه لم يعجز موسى ولكن موسى أعجزه فأراد أن يستر عواره فقال للسحرة عن موسى : ﴿ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ إِلَيْهِ عَمَلُكُمْ السِّحْرُ ﴾ [طه : ٧١] ولهذا كان أقوى منكم وغلب سحره سحرهم قال هذا مع علمه بأن موسى لم يعرفهم . ولم يجتمع معهم من قبل بل كان ثاويًا في أهل مدين ، ولم يصل بالسحرة بأية صلة . ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يغني «ولا بد للمغلوب من بادر العذر» .

ثم أخذ يتجنى على أولئك السحرة ويقول لهم ﴿ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] موهما أنه يتصرف في وجدانهم وأنه كان على وشك أن يأذن لهم ، ولكنهم أجمروا بالإيمان قبل صدور الإذن ، وهددهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب على جذوع النخل ، فلم يشبه ذلك عن الإيمان . وقد نفذ فيهم ما هددهم به . ولقد هم فرعون أن يقتل موسى خوفاً من أن يبدل دين المصريين أو أن يظهر في أرض مصر الفساد .

ولعله إنما يعني بالفساد إطلاق بني إسرائيل من أسر العبودية ، ويفوت بذلك على فرعون وآله المنافع التي تعود عليهم من تسخير بني إسرائيل في الأعمال الشاقة . ولعل الأعمال التي كانت تؤدي إلى فرعون كانت على سبيل السخرة في الأعم الأغلب - كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

يرشد إلى هذا أن السحرة استفهموا من فرعون قائلين ﴿ إِنَّا لَنَآجِرُونَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَاعِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٣] ولو كانت الأمور سائرة بغير سخرة لما ساغ لهم هذا السؤال .

استنفذ فرعون الوسع في أن يثني موسى عن دعوته إلى الله فلم يفلح ولم يقلع ، وكلما فتح باباً - للتجنى على موسى وأخيه - حول موسى مجرى الجدال إلى شيء آخر فيه فرج .

انظروا إلى قول فرعون ﴿ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] وإلى لباقة موسى في قوله ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ٣٠] ؟ .

وكان موسى لا يترك فرصة للدعوة إلى الله سواء أمام فرعون أو غيره .

انظروا إلى قول موسى لآل فرعون لما اتهموه بالسحر ﴿وَيَلَّكُم لَا تَقْرَؤُا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجَنَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن آفَرَى﴾ [طه: ٦١] وقوله لهم ﴿أَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧٧] أي هذه المقالة ﴿لِسِحْرِ مُيِّنٍ﴾ [يونس: ٧٧]؟

كانت عسارة هذه الأحوال كلها أن فريقاً من بني إسرائيل قد آمنوا لموسى، وهم على خوف من فرعون ومن ملأ بني إسرائيل أن يفتنهم لأنه كان مسرفاً لا يبالي ما يصنع، ويظهر أنهم كانوا شباباً لقوله تعالى ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣] وكان موسى يعتقد أن طغيان فرعون ومثلته وإبائهم عن الإيمان به سببه: أن الله تعالى أعدق عليهم الأموال في الحياة الدنيا ومتعهم بلذائذ العيش فقست قلوبهم، وظنوا بقاء ذلك النعيم فتمادوا في طغيانهم ولم يصغوا إلى العظات التي يغاديهم بها موسى ويرأوهم، فحمله ما عناه من العناء في إرشادهم وما تحمل من البلاء والعنف في دعوتهم على أن يدعوا عليهم بأن يسد الله تعالى طريق هدايتهم ويقل ما بأيديهم من المال الذي هو سبب طغيانهم وإسرافهم في أمرهم، وأن يشد على قلوبهم ويبعدهم عن طريق الإيمان إلى أن يسلمهم ذلك العذاب الأليم، وقد أجاب الله تعالى دعوته.

ولما لم يفد العلاج مع فرعون، أمر الله موسى أن يتخذ لبني إسرائيل بيوتا للعبادة في مصر ويقيم فيها الصلاة لله تعالى.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِخَبَرٍ فَأَتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٦٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٦٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٦٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا أَزِجُّهُ وَآخَاهُ وَآزِيسَ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٧١﴾ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٧٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٧٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنَا ثُلُقِي وَإِنَّمَا أَنَا نَكُونُ نَحْنُ الْمُغْلِبِينَ ﴿١٧٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ ثُلُقِي مَا يَأْكُونُ ﴿١٧٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فغلبوا هُتَالِكَ وَأَنفَلَبُوا صٰغِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا ءَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا نَنفَعُ مِنَّا إِلَّا أَتَ ءَمَنَّا

يَأْتِيَتْ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾ .

سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَأْتِيَانَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ يُوْتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا السَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَكَلَّى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ مُّخِيطٌ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا سَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَادَدَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلِلْعَلَمَانِ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْفِكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ

الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِيٌّ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنْ لَمْ يَهْتَمُّ لَهُ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ ۞

سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولُو حِشْتِكَ يَشْعُرُ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّلَّانِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَنْفَعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامِنْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَّا إِنْ رَأَيْنَا مُقْبِلُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞

هذا الموقف من مواقف موسى عليه الصلاة والسلام قد ذكر في التوراة^(١).

(١) في الإصحاح السابع من سفر الخروج من أوله إلى الآية ١٤ وهذا نصها:

- ١ - فقال الرب لموسى أنظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك.
- ٢ - أنت تتكلم بكل ما أمرتك وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه.
- ٣ - ولكنني أفسى قلب فرعون وأكثر آياتي وعجايب في أرض مصر.
- ٤ - ولا يسمع لكما فرعون حتى أجعل يدي على مصر وأخرج أجنبي شعبي بني إسرائيل من أرض مصر بأحكام عظيمة.
- ٥ - فيعرف المصريون أنني أنا الرب حينما أمد يدي على مصر وأخرج بني إسرائيل من بينهم.
- ٦ - ففعل موسى وهارون كما أمرهما الرب هكذا فعلا.
- ٧ - وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون.

تمادي فرعون وقومه في إصرارهم على الكفر

عودهم لإيذاء بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم - تشجيع
موسى لقومه وأمره لهم بالصبر ووعدهم بحسن العاقبة - فرعون
يهدد موسى بالقتل.

رأى فرعون الآيات فتمادى في كفره وأصر على عناده معرضاً عن الآيات التي أتى
بها موسى، وأغراه قومه بموسى لاثمين له منكبين عليه ترك موسى وقومه يفسدون في
الأرض بالامتناع عن الأعمال التي سخروا فيها، وأن يذر فرعون وآلهته لا يعبدها ولا يعبد
فرعون. فسكن فرعون روح القوم واعدأ إياهم بأن يقتل قوم موسى ويستحيي نساءهم.
معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان. ثم أتبع القول بالعمل.

مما هو طبيعي أن يضح بنو إسرائيل بالشكوى إلى موسى مما حاق بهم من الحيف
والجور. فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل. وأن يستعينوا بالله على احتماله.
ووعدهم حسن العاقبة فلم يكفكف ذلك دموعهم وقالوا له: ﴿أَوَذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَنُؤْذِنَهُمْ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] فمناهم هلاك عدوهم وإخراجهم من الضيق إلى السعة وأن
يكونوا خلفاء في الأرض التي وعدوا بها. وأراد فرعون أن يبطش بموسى متحدئاً إلهه
حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم أو فساد في أرضهم. ولكن موسى عاذ بالله من شر
هذا المتكبر الذي لا يثمن بحساب؛ فكان عياداً.

اقرأوا في هذا الموقف الآيات الآتية:

سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَالْهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ

٨ - وكلم الرب موسى وهارون قائلاً.

٩ - إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً.

١٠ - فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه أمام فرعون
وأمام عبيده فصارت ثعباناً؛

١١ - فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة ففعل عزافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك.

١٢ - طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم.

١٣ - فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب.

أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصِرُوا إِنْ أَرْضَ اللَّهِ يُوْرُثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾
 قَالُوا أُوْرِثْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُّكُمْ
 وَنَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ .

سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ
 وَفَرَّوْنَ فَقَالُوا سَجْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْجُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي
 أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ
 مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ .

لم تذكر التوراة مسألة إعادة تقتيل أبناء العبرانيين .

الاثتمار بموسى ولقته

دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى وانتصاره لدين موسى - مخالفة
 فرعون له - رد المؤمن على الملاء من قوم فرعون ووعظه إياهم
 وتحذيرهم بأس الله - تذكيره إياهم بيوسف وما كان منهم من
 الشك فيما جاءهم به - ودعاء القوم له إلى منابذة موسى
 والاستمسك بدين آبائه وأجداده - رده عليه واستمسكه بالإيمان
 بموسى - تدبيرهم عليه ونجاة منهم ومن مكرهم .

خلص فرعون والملاء نجياً يأترون بموسى لإهلاكه . ولما كان الحق لا يعدم نصيراً
 قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى ورب موسى إلى ذلك الحين - ودافع
 عن موسى دفاعاً يشكره الله له . وأبلى في ذلك بلاء حسناً . وبين لهم أنه لا ينبغي أن
 يقتلوا رجلاً يقول «ربي الله» لأن قوله ذلك لا يصلح سبباً للقتل . وبخاصة إذا كان قد
 جاءهم بالآيات الدالة على صدقه . وأنه لو فرض أنه كاذب فيما يقول ما نالهم ضرر من
 كذبه . ولا يحملون شيئاً من إثمه . ولو فرض أنه كان صادقاً أصابهم بعض الوعيد الذي
 توعدهم به . وقد عارضه فرعون فيما رأى ووجه أقواله إلى الملاء ينتصر بهم على معارضته
 قائلاً: ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد!

عاد مؤمن آل فرعون إلى الكلام محذراً قومه بأس الله تعالى ووقعاته في أمم عاد
 وثمود وقوم نوح وغيرهم؛ ممن انتقم الله منهم جزاء وفاقاً بما صنعت أيديهم . وذكرهم
 بأن الدعوة التي جاء بها موسى اليوم ليست جديدة . فقد جاء إلى آبائهم وإليهم ضمناً

يوسف بالبينات؛ فلم ينل تصديقهم إياه حتى إذا هلك قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا. وأبان لهم أن ذلك من طبع الله على قلوبهم وإمساكه تعالى عن هدايتهم هداية موصلة بالفعل إلى المقصود. وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازي على كل شيء. وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب.

تمادى قومه وجهدوا أن يردوه إلى دين قومه فلامهم على أنه يريد بهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم، فهو يدعوهم إلى الإيمان وهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار، وأن الآلهة التي يدعونه إلى عبادتها لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة، وأن المرد إلى الله تعالى، وأنه سيأتي عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم وأنه يفوض أمره إلى الله.

ولقد هموا به كما هموا بموسى فوفاه الله سوء عملهم وكانت عاقبته السعادة وعاقبة آل فرعون النار.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَفَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ۝٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْسٍ نُوحٍ وَغَادٍ وَنَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۝٣١﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ۝٣٢﴾ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾.

وفي سورة غافر أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨﴾ يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

يَرْفُوقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَيَقُولُوا مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٤﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُصُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوَقَّهُ ^(١) اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾ .

لم تذكر التوراة ائتمار القوم بموسى لقتله ولا مسألة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى وتذكيره قومه ببيوسف؛ لأن القوم نسوا حظاً مما ذكروا به، ولعل حقدهم على فرعون وقومه صرفهم عن ذكر أحد من المصريين قد آمن بموسى.

فرعون يستخف بموسى

وبياهي بأنه ملك مصر مع ما فيها من الثروة - وينادي بأنه رب الناس الأعلى - وأن كل معبود دونه

كان من موسى بعد أن نصره الله تعالى على سحرة فرعون فأمنوا مستهينين بعذاب الدنيا - أن دأب على دعاء فرعون إلى الإيمان وإطلاقه بني إسرائيل، وتمادى فرعون في دفعه، ورأى عظيماً أن يلبي دعوة موسى ويتبع دينه، مع ما لفرعون من عزة السلطان ووافر الثروة التي تدرها عليه مصر بسبب نيلها الفياض وما له من الفروع التي تبعث الحياة الرافعة في مصر كأنها الشرايين تمد مصر بالحياة؛ إذ تسري في أرضها الدانية والقاصية فتسري فيها الثروة واليسر، وكأنه كان ينظر إلى قول الشاعر بعد عصره:

فلا تعجب فكل خليج ماء بمصر مسبب لخليج مال
زيادة أصبع في كل يوم زيادة أذرع في حسن حال

غلبت عليه نفسه المادية التي لا ترى الخير والعز إلا في وفرة المال. ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. ثم لجأ إلى الإغنيات وطلب ما هو أقل مما أتى به موسى من الآيات البينات على صدقه. وقال ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]

(١) يصلح أن يعاد الضمير على موسى: إذا كانوا يأترون به لقتله، ويمكن أن يعود على مؤمن آل فرعون.

كأن هذا الذي يطلبه لا يحال على أنه سحر كما قال عن العصا التي استحالت ثعباناً واليد التي اكتست لون البياض بلا مرض بدل لون الأدمة.

كانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه. وإطاعتهم له ميلاً منهم عن الحق وزيفاً عن طريق الهدى؛ لأنهم ألقوا الانقياد له حيث شاء وفي كل وجه أراد فأفنوا ذاتهم في ذاته، وأماتوا شخصياتهم في شخصه، وأهدروا آدميتهم ابتغاء الزلفى لديه. وجره ذلك إلى أن حشر الناس من آفاق البلاد قائلاً ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] الذي ينبغي أن تخصوه بالعبادة دون إله موسى الذي جاءنا به على غير معرفة منا به - اقرءوا هذه الآيات:

سورة الزخرف: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ اللَّيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

سورة النازعات: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْتَشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

آيات الله على فرعون وقومه

لما كذبوا موسى عليه السلام

لما أخذت فرعون العزة بالإثم وعتا عن أمر الله تعالى وتمادى في تكذيب موسى واستمر في إعنات بني إسرائيل وإيقاع ضروب الإذلال والإهانة بهم، أمر الله تعالى موسى أن يعلم فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه وامتناعهم من إطلاق بني إسرائيل فكانوا كلماً وقع بهم عذاب بعد إنباء موسى إياهم به وعدهه بالإيمان به تارة، ويارسال بني إسرائيل معه تارة أخرى إذا سأل ربه كشف ما وقع بهم من العذاب. فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم، عادوا إلى طغيانهم وغدروا بعهدهم وخاسوا بوعدهم. وهكذا إلى أن كانت الآية الكبرى والبطشة العظمى وهي إغراق فرعون في اليم ونجاة بني إسرائيل والآيات هي:

١ - (الجذب) بأن قل عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم وسنو الجذب يؤرخ بها، فيقال لعام الجذب سنة . . . ومنها أسنت القوم أي أصابتهم السنة.

٢ - (النقص من الثمرات) بسبب ما يأتي عليها من الجوائح والعاهات.

٣ - (الطوفان) ولم يقطع المفسرون بأن هذا الطوفان كان على أي وجه؟ فهل كان بطغيان النيل على الأرض وامتداد زمن بقاءه على وجه الأرض حتى عاقهم عن الزرع في الوقت المناسب؟ أو كان بتتابع المطر على أرض مصر في وقت كان فيه الزرع نامياً حتى أغرقه وأضر به؛ كل محتمل؟ وقد مال البيضاوي إلى هذا في تفسيره.

٤ - (الجراد) بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد؛ فأكل الزرع واجتاح الثمار.

٥ - (القمل) الذي أفض مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب. وفي التوراة «البعوض» بدل القمل. وفي البيضاوي قيل هو كبار القراد، وقيل صغار الجراد - قبل نبات أجنحتها - وعبرة القاموس: والقمل كسكر صغار الذر والدبا الذي لا أجنحة له أو شيء صغير بجناح أحمر، وشيء يشبه الحلم لا يأكل أكل الجراد، خبيث الرائحة. أو دواب صغار كالقردان واحدها بهاء - أو قمل الناس. وهذا القول مردود اهـ.

٦ - (الضفادع) قيل إنها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها في طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم.

٧ - (الدم) بأن استحال الماء لأهل مصر دماً. وقيل الله سلط عليهم الرعاف.

٨ - (الطمس على أموالهم) وهو محققها وإهلاكها.

٩ - (اليد) إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء.

وبعض المفسرين يعد الآيات على غير هذا الوجه. فيجعل «فلق البحر» من الآيات التسع. وآخرون يجعلون «انجاس الحجر بالماء لبني إسرائيل» من الآيات التسع.

ولا يخفى أن فلق البحر إنما كان بعد تمام الآيات: وانجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون. فلا يصح أن يكون آية له ولقومه. وأنا أعد الآيات هكذا.

(١) السنون (٢) نقص الأموال (٣) نقص الأنفس (٤) نقص الثمرات (٥) الطوفان (٦) الجراد (٧) القمل (٨) الضفادع (٩) الدم.

واعلموا أن هذه الآيات التسع وغير الآيات التي أرسل بها موسى إلى بني إسرائيل وهي المذكورة في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١] المذكورة في سورة الإسراء. فقد فسرهما البيضاوي بأنها آيات أرسل بها موسى إلى بني إسرائيل؛ وهي أحكام أمروا بالأخذ بها آيات عقاب عوقب بها فرعون وجنوده وهو أحد وجوه أوردها في هذه الآية.

وعبارته بنصها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ وَيَسْحَاقَ﴾ [الإسراء: ١٠١] هي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفجار الماء من الحجر، وفلق البحر وتلق الطور على بني إسرائيل. وقيل: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات؛ مكان الثلاث الأخيرة. وعن صفوان أن يهودياً سأل النبي ﷺ فقال: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريء لدى سلطان ليقته، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا في السبت» فقبل اليهودي يده ورجله.

فعلى هذا المراد بالآيات: الأحكام العامة للملل الثابتة في كل الشرائع.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٢) ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٣) ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيُتَسَحَّرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٤) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٢٥) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٢٦) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (١٢٧).

سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ وَيَسْحَاقَ﴾ [الإسراء: ١٠١] ﴿فَنَسِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١٠١) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبُورًا﴾ (١٠٢).

سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾ (٥١).

سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْجَرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٣).

سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢١) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٢).

سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا بَيِّنَاتُ السَّاحِرِ أَذْغَ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾﴾ .

سورة النازعات: ﴿فَارْتَبْطِئْ آلَاةُ الْكِبَرَىٰ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾﴾ .

(١) ذكرت التوراة الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملئه وجعلتها اثنتي عشرة آية. ولما كان الإتيان بنص ذلك كله يطيل المقام: أحببت ذكر تلك الآيات التي جاءت فيها مع الإشارة إلى مواضع نصوصها طلباً للاختصار، واليك ما جاء فيها: -

١ - انقلاب العصا حية؛ وقد تقدم.

٢ - انقلاب نهر النيل دماً سبعة أيام وموت السمك في النهر وبتن مائه؛ من الآية ١٤ من الإصحاح السابع خروج، إلى آية ٢٥ منه.

٣ - صعود الضفادع من النهر إلى أرض مصر ومضايقتها المصريين حتى غطت أرض مصر: من أول الإصحاح الثامن إلى الآية ١٥ منه.

٤ - كثرة البعوض بأرض مصر على الناس والبهائم - ولعله المعبر عنه بالقمل - والبعوض هو الذي يعبر الناس عنه بالبق؛ من الآية ١٦ الإصحاح ٨ إلى آخر الآية ١٩ منه.

٥ - كثرة الذباب في أرض مصر وبيوت المصريين كثرة فاحشة حتى تنفص عيشتهم: في الآية ٢٠ من الإصحاح الثامن خروج إلى آخر الآية ٢٤ منه.

٦ - تفشي الوباء في مواشي المصريين من الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم؛ من أول الإصحاح التاسع إلى الآية ٧ منه.

٧ - فشو الدماميل في الناس والبهائم؛ من الآية ٨ من الإصحاح التاسع من سفر الخروج إلى الآية ١٢ منه.

٨ - نزول البرد العظيم يهلك ما أصاب من المواشي والناس؛ من الآية ١٣ من الإصحاح التاسع خروج إلى الآية الخامسة والثلاثين منه.

٩ - وجود الجراد بكثرة وأكله الزرع والثمار، من أول الإصحاح العاشر من سفر الخروج إلى الآية ١٥ منه.

١٠ - إظلام أرض مصر ثلاثة أيام؛ من الآية ٢١ من الإصحاح العاشر إلى الآية ٢٣ منه.

١١ - موت كل بكر من الناس والبهائم في مصر؛ من أول الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج إلى الآية ٢٩ من الإصحاح الثاني عشر.

١٢ - اليد علم أمرها مما تقدم.

انطلاق بني إسرائيل

ندم فرعون وقومه - رحيل فرعون في أثرهم لردهم - انشقاق البحر
- عبور بني إسرائيل على أرض البحر - اقتحام فرعون في أثرهم -
انطباق الماء على فرعون وجنوده وغرقهم - من هو فرعون؟ - أين
موضع العبور؟

انطلق موسى بقومه بني إسرائيل من أرض مصر ذاهباً إلى أرض فلسطين كما قال تعالى ﴿وَحَيَّانَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا مَخَشًى﴾ [طه: ٧٧] فهل كان هذا الانطلاق بناء على أمر صدر له من فرعون بعد أن أمضه الله وقومه بالعذاب الشديد في الآيات التسع؟

تقول التوراة: إن ذلك كان بناء على سماح فرعون لهم بالانطلاق ليخلص من ضروب العذاب التي حاقت بقومه؛ أي أن سماح فرعون لهم بالانطلاق للتخلص من شر موسى، لا لأنه آمن برب موسى وهارون. والقرآن ساكت عن هذه النقطة.

ندم فرعون على إرسال بني إسرائيل، أو أنه رأى أنهم انطلقوا بلا إذن منه، ولعله قد بلغه ما فعلته اليهوديات بالمصريات من استعارة الحلى والزينة وعدم ردها إليهن، فأرسل في المدائن حاشرين. فجمع جنداً عظيماً واتبع بني إسرائيل ليردهم إلى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر - على خليج السويس - واطلع عليهم مع شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك وأن فرعون باطش بهم. فسكن موسى روعهم وضرب البحر - كما أمره الله تعالى - فانفلق حتى ظهرت أرضه، وأمر بني إسرائيل بالعبور فيه فعبروا من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل، فرأى طريقاً في البحر لا وعورة فيه، وبني إسرائيل بين فرقي الماء لم يمسه أذى فطمع أن يعبر في أثرهم فيردهم هو وجنوده. فاقترحوا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل. فلما جاز بنو إسرائيل البحر - ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة، وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً وغرق فرعون وجنوده ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء.

في ذلك الوقت الذي أدرك فيه فرعون الغرق قال ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]

والذي أعتقده أن فرعون أراد أن يدفع عن نفسه الغرق بهذه الكلمة التي نطق بها دون أن يعتقدها، مقدراً أنه بذلك يخدع موسى وإلهه ويمثل في هذه المرة الأدوار التي مثلها

من قبل لأنه وقومه كانوا يقولون لموسى ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] الخ. ويقولون لموسى ﴿يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] فكان الله يكشف عنهم البلاء ثم يعودون سيرتهم الأولى. فظن أنه ينجو في هذه المرة بمثل الخديعة التي كان ينجو بها أولاً. ولا يعجبني قول الجلال الدواني «أن فرعون ناج لأنه آمن» والله تعالى يقول ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ [النساء: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُولَئِكَ رَبِّكَ لَا يَقْبَعُ نَفْسًا لِّزَيْنِهَا لَرَّ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وفرعون لم يكسب في إيمانه خيراً بفرض أنه آمن.

رأي في فرعون صاحب موسى

لقد كتبت في الطبعة الأولى ما عرفته عن فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام. ونقلت ما كتبه المونسنيور لويس ملحمة في أهرام ٧ مايو سنة ١٩٣٢ عن «فرعون الاضطهاد» و «فرعون الخروج».

ولكني والآن أردت أن آتي البيوت من أبوابها، عملاً بعموم قول الله تعالى: ﴿فَتَشَاوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] فذهبت إلى دار الآثار وقابلت حضرة الفاضل أحمد يوسف أحمد أفندي المصور بدار الآثار المصرية وقد نقلت من كتاب له عنوانه «كتاب فرعون موسى - قصة الولادة والرسالة - والخروج» وهو تحت الطبع ما يأتي:

لم يبق شك في أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر في عهد الأسرة السادسة عشرة في أيام أحد ملوكها المدعو «أبابي الأول» وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم «فوتى فارع» وهو المذكور في التوراة «فوطيفار - عزيز مصر» كما استدل من بعض الآثار عن الأسرة السابعة عشرة على حدوث جذب في مصر قبل هذه الأسرة. وهو ما ذكر في القرآن والتوراة عن سني القحط.

إذن فدخل يوسف يمكن تحديده قريباً من سنة ١٦٠٠ ق م في عهد الملك إبابي المذكور. ويكون دخول بني إسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من ٢٧ عاماً؛ وهي المدة التي أقامها يوسف في بيت سيده مضموماً إليها المدة التي أقامها في السجن، يضم إلى ذلك مدة الرخاء والخصب ثم بعض مدة الجذب إلى أن قال لإخوته ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]

وإذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة فيما بين هذه الأسرة والأُسرة التاسعة عشرة لم نجد أيضاً ذكراً يثبت أي اضطهاد حدث لقوم إسرائيل . ولا أي ذكر لهم أثناء ذلك .

ولكن التوراة تذكر أن فرعون مصر الذي اضطهد بني إسرائيل . كان يستخدمهم في بناء مدينتين وهما : رعمسيس وفيثوم . وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود مدينة باسم «فيثوم» أو «بر - توم» ومعناها بيت الإله توم . ومدينة أخرى باسم «بر رعمسيس» أي بيت أو قصر رعمسيس . والأولى اكتشفت بواسطة العالم الفرنسي «نافيل» في سنة ١٨٨٣ وموضعها تل المسخوطة الآن - في مديرية الشرقية - والثانية اكتشفت بواسطة العالم المصري الأستاذ محمود حمزة في سنة ١٩٢٨ - وموضعها بلدة «قنتير» - وتسمى بالمصري القديم «خت نفر» أو الوسط الجميل . وأيضاً (بر رعمسيس) وهي التي بناها رعمسيس الثاني لتكون عاصمة لملكه في مصر في وسط الوجه البحري - ليكون بها قريباً من الحدود المصرية لتساعده على صد الأعداء - كما أنه أيضاً بنى مدينة «فيثوم» واتضح من وجود بعض آثار الجدران في المدينة أنها أيضاً كانت حصناً مصرياً . وتكون التوراة قد أخطأت في حسابها مخازن للغلال .

وإذن فرعمسيس الثاني قد يعتبر الفرعون الذي اضطهد بني إسرائيل وولد موسى في زمنه ويضاف إلى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الآسيوية التي ظل يحاربها متغيباً عن مصر زهاء تسع سنوات . وقد يكون كرهه لبني إسرائيل المقيمين في مصر مترتباً على خشيته من أن يكون حزبا ممالئاً لأعدائه المواطنين لهم من قبل . ولا سيما وقد تكاثروا في عددهم وتناسلوا حتى كانت لهم جالية تشمل جزءاً عظيماً من مديرية الشرقية .

وحيث أن الملك رعمسيس الثاني قد أشرك ابنه الملك «منفتاح» معه في الحكم قبل وفاته وكان «منفتاح» الولد الثالث عشر لرعمسيس . وقد بلغ أولاده ١٥١ وكان مسناً حين ولايته للعهد فيكون قد عاصر موسى في بيت أبيه . وبحق قال لموسى : ﴿أَلَمْ نُزَكِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَكِثَّتْ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء : ١٨] ويكون منفتاح هو فرعون الخروج . الذي أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بني إسرائيل من مصر . وتكون التوراة على صواب عندما قالت : وفي هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات .

وقد عثر العلامة فلندرس بترى على حجر من الجرانيت القاتم ورقمه في الدار «٥٩٩» وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣ أمتار و ١٤ سم وهو منقوش من الوجهين أحدهما للملك «امنحتب» الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد آمون .

أما الوجه الآخر فقد استعمل في شأن «منفتاح» ابن رعمسيس الثاني من «الأسرة ١٩» وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيها بانتصاره على اللبيين، ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم في فلسطين . وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ونصها الحرفي (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) وهذا أول نص رسمي في الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل .

وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر .

وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن «منفتاح» لم يكتبه في عهده . وإلا لكانت لهذه الحوادث الهامة التي يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون في أثر خاص . لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل .

ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره ، فيقوموا بذلك بواجب التخليد حيث لم يكن منتظراً أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التي مات بها . وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن فرعون قد سحق بني إسرائيل تمويهاً وقلباً للحقائق؛ حتى يستروا أمام الشعب المصري الذي كان يحترم ديانتهم خذلانهم وخذلان إلههم أمام موسى ، حين كان فرعون يتعقب بني إسرائيل .

ويكون العثور على جثة «منفتاح» ووجودها الآن بالمتحف المصري؛ مصداقاً لقول القرآن الكريم ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِذَنبِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] .

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث في قبر «أمنحتب الثاني» بالأقصر .

وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهياً كما يجب لدفن ملك مثله؛ لأن موته لم يكن منتظراً فلم يهياً له قبر خاص اه من الكتاب المذكور .

أما موضع العبور فلم يعلم بالضبط . والتوراة تورد أسماء أمكنة مر بها بنو إسرائيل حتى أتوا إلى مكان العبور . وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم . والبحارة في البحر الأحمر يسمون مكاناً في خليج السويس (بركة فرعون) ويقولون إن العبور كان بها وهي بعيدة عن السويس كثيراً تمر بها السفن البخارية بعد نصف الليل إذا قامت من السويس في المساء وإني لأستبعد ذلك كثيراً وأعتقد أن خليج السويس كان يمتد من تلك الأزمان إلى البحيرة المرة أو يقرب منها وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم . بعبارة أخرى أنهم عبروا مكان شمالي المكان المعروف بـ «عيون موسى» في البر الآسيوي وهي لا تبعد عن السويس كثيراً .

وبين يدي أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت «مساعد مراقب تعليم البنات في

وزارة المعارف الآن سنة ١٩٣٦» وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسم خطين يدلان على أن خليج السويس كان متصلاً بالبحيرة المرة. وأحسب أنه على صواب.

وتقول التوراة: إن الله أرسل ريحاً شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة، وعبر بنو إسرائيل فتبعهم فرعون فغرق.

وعلى كل حال؛ فالآية ظاهرة واضحة، سواء أكان ذلك بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التي شرحتها التوراة. فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل في الخليج مرة أخرى. فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما في علمه^(١).

(١) نقد اللجنة «الموضوع الأول»

(انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام)

في صفحة ٢٠٠ ما نصه: وتقول التوراة إن الله أرسل ريحاً شرقية على البحر فأزالت الماء حتى ظهرت اليابسة، وعبر بنو إسرائيل فتبعهم فرعون فغرق.

وقال بعد ذلك ما نصه: وعلى كل حال فالآية ظاهرة واضحة سواء كان ذلك بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التي شرحتها التوراة، فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل في هذا الخليج مرة أخرى فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما في علمه. انتهى بالحرف الواحد.

رأي اللجنة

والذي نراه أن مثل هذه العبارة لا ينبغي أن تصدر منه، بل يجب أن ينزه عنها قلم فضيلة المؤلف: لأنها إن لم تكن صريحة في إفادة احتمال كذب ما جاء به القرآن الكريم فهي موهمة لذلك، إذ أنه بهذه العبارة ردد في سبب فلق البحر - الذي هو معجزة لموسى عليه السلام - بين أن يكون ذلك السبب هو ضرب موسى البحر - أي كما جاء به القرآن الكريم - وبين أن يكون ذلك السبب هو هبوب الريح - أي كما جاء في التوراة - فكأنه يقول: سواء كان الواقع ما جاء به القرآن فيكون هو الصادق أو ما جاءت به التوراة فتكون هي الصادقة، ولولا أننا نعرف مقالة المؤلف شخصياً وتذكرنا ما ذكره في مقدمة كتابه في البند الثالث من «أن القرآن الكريم جاء مهيمناً على غيره من الكتب فلا يعول على ما خالفه» لأسأنا الظن! من أجل ذلك فكرنا في تأويل هذه العبارة كثيراً لتؤدي معنى يطابق العقيدة الإسلامية، فمن الاحتمالات التي خطرت في البال أن مراده منها أن المعجزة ثابتة - سواء كان ذلك بسبب ضرب موسى البحر كما هو الصحيح في الواقع ويكون الغرض من ذلك إثبات المعجزة في اعتقاد الفريقين وهذا الاحتمال وإن كان بعيداً جداً من منطوق العبارة لأنه يحتاج إلى عدة تقارير وتقييدات في عبارته فهو متعين.

لا يقال يمكن صحة ما جاء به القرآن وما جاءت به التوراة معاً؛ فتحمل عبارته على تجويز الجمع بين =

= الأمرين؛ لأن ضرب موسى البحر بعصاه ورد في التوراة أيضاً - كما يؤخذ مما ذكره بعد ذلك «صفحة ٢٠٣» في تلخيص الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج» فإنه يقول ما نصه:
فأوحى الله إليهم أنهم ناجون وأن فرعون وجنده مغرقون، وحال بين فرعون وبينهم وضرب موسى البحر فأجرى الله ريحاً شرقية قوية طول الليل حتى جعلت في البحر طريقاً يابسة، وسار فيه موسى وبنو إسرائيل على اليبس، والماء كالسور على يمينهم وشمالهم الخ اهـ.

لأننا نقول هما متنافيان حتماً فلا يمكن الحكم بصحتهما معاً؛ ومن قرأ قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فَأَنبِئُوهُمْ مُّشْرِقِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا تَرَأَتِ الْجُمُاعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٤﴾ وَزَلَّلْنَا ثُمَّ تَبَيَّنَ مِنَ الْآخَرِينَ ﴿١٥﴾ وَاجْعَلْنَا مِثْلَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٦] يتقن من غير شك أن انفلاق البحر لم يكن بسبب الريح القوية التي مكثت طول الليل حتى أزال الماء وجعلت في البحر طريقاً يابسة، بل يتقن أن سبب ذلك هو ضرب موسى البحر بعصاه كما أمره الله تعالى.

نعم ورد في القصة أنه حينما ضرب موسى البحر أرسل الله ريح الدبور فجففت الأرض من الوحل من غير أن يكون للريح دخل في انفلاق البحر وإزالة الماء. والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع الأول

(انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام)

كتب حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة في هذا الموضوع ما هو مسطر قبل هذا وقد اعتصر أعضاء اللجنة حفظهم الله من عبارة الكتاب ما يأتي:

- (١) أني أسوي بين القرآن الكريم والتوراة.
 - (٢) أن عبارتي تتضمن احتمال صدق القرآن الكريم وكذبه.
- ثم أخذت اللجنة تردد في الاحتمالات - التي عطفت علي بها لتصحيح عبارتي - ولم تجد وجهاً مناسباً إلى آخر ما نصت وشرحت ولم ينقدها من بين أمواج هذا التردد سوى التخطئة لي.
- وإني لأتألم لما نال حضرات أعضاء اللجنة من الحيرة والنصب بسبي، لمحاولة تخريج قولي على وجه صحيح ويزيد في ألمي أنها لم تظفر بحاجتها وهي أقرب إليها من جبل الوريد.
- فالذي أقوله في مقابلة ما جاءت به اللجنة الموقرة:

- (١) جاء في صفحة ٤ من كتابي ما نصه «(٣) يغلب أن أذكر ذلك الموقف إن كان له ذكر في كتب العهد القديم أو العهد الجديد، وهو أحياناً يوافق القرآن وأحياناً يخالفه، ولا يغرب عن فكر القارئ الكريم أن القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فما جاء به الحق الذي لا مرأى فيه وكل ما يخالفه لا يعول عليه».

وجاء في ص ٤ أيضاً ما نصه «إن كتب العهدين: القديم والجديد ليس لهما سند متصل ولم تخل من تحريف المحرفين خطأ أو عمداً».

لم أضع هذين النصين في الكتاب للتحلية والزينة فحسب. ولم أجعلهما مرآة ينظر فيها ولا تمس =

= ولكنني أردت أن يكون ما تضمناه دستوراً يستصحبه القارىء في أثناء قراءة الكتاب ويستفاد بهما أثناء فهمه لمضمونه.

ومعلوم أن المقدمة هي أقوال تتقدم الكلام في موضوع العلم لارتباط لها به، وانتفاع بها فيه. فإذا لم يستعمل القارىء مضمون هذين النصين في هذا الموضوع فمتى يستعملهما؟

وقد جرت عادتي - إذا نبهت على مخالفة عبارة التوراة لما جاء في القرآن الكريم - أن أنبه على أن ما جاء في القرآن هو الحق الذي لا مرية فيه إذا كان مدى الخلاف واسعاً وشقته بعيدة.

فإذا لاح لي أن الخلاف ليس من الأهمية بمكان - أو أن الجمع بينهما ممكن ولو عن بعد - وكلت حل الإشكال إلى فطنة القارىء وإلى ما قدمت من الدستور الواجب الاتباع الذي نصصته في المقدمة.

وإني أحمد الله تعالى أن جعلني أنا والآلاف الكثيرة من الناس الذين قرأوا هذا الكتاب بحيث لم تطق عقولنا السباحة في معانيه إلا في ساحله والسلامة في الساحل ولم يجعل لنا من قوة الذكاء وتوقد الذهن ما يجزئنا عن الغوص في الأعماق البعيدة الغور، فخرج من تلك الأعماق بما يحول الكعبة مباءة كفر وإلحاد، أو أن ننيخ الشرك في دار الجهاد؛ وربما كمنت المنن في المحن.

لا أريد أن أطيل الكلام في الجمع بين ما جاء في الكتاب الكريم وما جاء في التوراة، ولكنني أعرض لما جاء في كتاب اللجنة من أني سويت بين القرآن والتوراة فأقول:

إن مسلماً - ولو كان ضعيف الإيمان ضعيف العقل - لا يمكن أن يسوي بين الكتابين! فكيف بمن يعلم عن كتب أهل الكتاب وما فيها من الخلل والخطأ والتحريف ما أعلمه مما لم يتسن لكثير من أهل الإسلام أن يعلموه؟

الكتاب الذي يتضمن: أن الابن أكبر من أبيه بستين! هل يمكن أن يسوي به القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

لا بل إنني أعلم بعض المواضع التي أخطأ مترجمو كتب العهد القديم في ترجمتها. وقد اهتمت إلى ذلك بنفسي بمراجعة الأصل والترجمة. إن من يعلم ذلك لا يمكن أن يهجم في خاطره هاجس بالتسوية بينهما، ولا يمكن أن يسوي بينهما إلا من سفه نفسه!

أما التريديد الذي جعلوا حمله جملأً وحبته قبة، فأمره أبسط مما ظنوا وهو قلبي «وعلى أي حال فالآية ظاهرة واضحة» أي عند المسلمين وعند أهل الكتاب. وقلبي بعد ذلك «سواء أكان ذلك بسبب ضرب موسى البحر» أي أن موسى ضرب البحر فانفلق البحر فور ضربه كما هو ظاهر نص القرآن واعتقاد المسلمين. وقلبي «أو بهبوب الريح بالكيفية التي شرحتها التوراة» أي أن موسى ضرب البحر، فأهب الله الريح فور ضربه فأزالت الماء، كما هو ظاهر نص التوراة وكما هو اعتقاد أهل الكتاب، أي فلاحتمال موزع بين أهل الإسلام الذين يقولون على القرآن وأهل الكتاب الذين يقولون على التوراة. والفريقان يلتقيان في ثبوت المعجزة وإن كانا يختلفان بحسب ظاهر كتابيهما فيما صحب السبب وهو الضرب. هل كان عنه ريح أو لا؟

وفي حال كتابتي لهذا الموضوع كنت ألحظ أن هناك قوماً - ليسوا بمسلمين ولا بأهل كتاب - ربما تعلقوا بما في التوراة من هبوب الريح، فأنكروا الآية وزعموا أن الريح عملت هذا العمل. وهبوب الريح ليس معجزة أو عجيبة، فقلت دافعاً في صدر مقالهم «فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا =

والذي أريده من ذلك أن الآية واضحة جلية سواء نظر فيها المسلم إلى قرآنه، أو نظر فيها الكتابي إلى توراته - ولا حجة للملاحدة الذين يتعلقون بعبارة التوراة، فيقولون إن السبب هو هبوب الريح المحكى في التوراة فلا معجزة. لأننا نقول إن المعجزة حاصلة مع فرض هبوب الريح، لأنه لم يعهد أن عملت الريح ذلك في كل الدهر - سواء قبل الحادثة أو بعدها. فلم فصلت ذلك حين عبور بني إسرائيل فقط؟

ويذكر المفسرون إن الطرق كانت اثني عشر طريقاً بعدد أسباط بني إسرائيل. وعبرة القرآن ليست نصاً فيما يقولون.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿فَانقَمَتَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَهُمْ فِي الْيَمِّ بَآئِتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا آلِي بَرْكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

سورة يونس: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفِرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَالَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ ءَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

سورة الإسراء: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٣٤﴾﴾.

= العمل في هذا الخليج مرة أخرى، فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما في علمه». وفهم الكلام على هذا الوجه متعين، وقد فهمه الألوف من الناس. ولم يكتب إلي أحد أنه توهم فيه حيداً عن الحق أو جنفاً عن الصراط السوي.

ظهر أن العبارة صحيحة بكل ما قدمت، جلية لا غبار عليها. وأن ملاحظة اللجنة إنما هي تحميل اللفظ ما لا يمكن أن يحتمله، ولا يمكن أن يتوصل إلى ما قالوا إلا بتكلف.

وبخاصة إذا علمنا أن القاعدة: أن الكلام إذا كان يحتمل التأنيب من مائة وجه، ويحتمل عدم التأنيب من وجه واحد وجب أن يصار إلى الوجه الذي لا تأنيب فيه.

وفي القوانين الوضعية أن القوانين تفسر دائماً في مصلحة المتهم، ومعاقبة بريء واحد أشد جرماً من إفلات مائة مجرم أثيم.

ويكفي أن الألوف من أهل الإسلام الذين قرأوا هذا الكتاب - ومنهم علماء أعلام لهم عقول وأفهام - لم تخامرهم خلجة من الشك في هذا الموضع. وفي فهم القراء ما يغني عن الإطالة.

سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرْحَمْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسِرَّ بِعِبَادِي فَأَضْرِبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ٧٧﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ٧٨ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ٧٩﴾ .

سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسِرَّ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ٥٦﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ٥٧ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٥٨ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُونَ ٥٩ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذَرُونَ ٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٥٩﴾ فَأَتَيْنَهُمْ مُشْرِكِيهِمْ ٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣﴾ وَأَزَلْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ ٦٤﴾ وَأَجْمَعْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦٨﴾ .

سورة القصص: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانَ آلِفُكًا يَوْمَ يُنَادُوا لِلَّذِينَ هُمْ عَدُوٌّ أَعَدُّوا عَلَيْهِمْ نَفِثًا لَئِنْ دَعَوْهُمُ إِلَى الْبَيْتِ لَنَنْظُرَنَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٢٩﴾ .

سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ٥٦﴾ .

سورة الدخان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِتِّكَمُ اللَّهِ إِلَيْنَا لَكُم رُسُولٌ أَمِينٌ ٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْعِثَ سُلْطَانًا مِّنْ بَيْنِ أَعْيُنِكُمْ قَوَمٌ يُجْرِمُونَ ٩﴾ فَأَسِرَّ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ١٠﴾ وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ١١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ١٢﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ١٣﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينَ ١٤﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتْرَفِينَ ١٥﴾ .

سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٢٨﴾ فَقَوْلَىٰ بِرَبِّكَ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ جَحْنٌ ٢٩﴾ فَلَاخَذَتْهُ جُودُهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ٣٠﴾ .

طبيعي أن يفهم إن فرح بني إسرائيل كان عظيماً جداً بنجاتهم بهذه الأعجوبة وهلاك فرعون وجنوده في اليم؛ حتى صاروا سلفاً ومثلاً للآخرين على مرّ الدهور وتعاقب الحقب.

وقد ذكرت التوراة نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون «وفي الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج» ويلخص في أن بني إسرائيل ضلوا طريق فلسطين، وكان ملك الله يسير أمامهم في عمود دخان نهاراً وفي عمود نار ليلاً؛ ليضيء لهم. ثم أمرهم الله بالعودة إلى مكان خاص وغضب فرعون من انطلاقهم؛ فجمع جنوده وخيله ومركباته قاصداً رد بني إسرائيل إلى العبودية والذل. فلما رأى بنو إسرائيل فرعون وجنوده ذرعوا وفزعوا إلى موسى، فأوحى الله إليهم ناجون وأن فرعون وجنوده مغرقون. وحال بين فرعون وبينهم وضرب موسى البحر فأجرى الله تعالى ريحاً شرقية قوية طول الليل، حتى جعلت في البحر طريقاً يابسة، وسار فيها موسى وبنو إسرائيل على اليبس، والماء كالسور عن يمينهم وعن شمالهم. فساروا فيه حتى عبروا إلى الضفة الأخرى، ورآهم فرعون يسيرون على اليابسة فسار في أثرهم، فلما توسط اليم وعبر بنو إسرائيل جميعاً انطبق الماء على فرعون وجنده فأغرقوا جميعاً.

ومعلوم أنه إذا تخالف ما في التوراة والقرآن فالمعول على ما جاء في القرآن لأنه جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه.

«وفي الإصحاح الخامس عشر» فرح بنو إسرائيل وأعلنوا فرحهم مترنمين بتسبيح الله تعالى. وأخذت مريم أخت هارون الدف وخرج جميع النساء وراءها يدففن ويرقصن لنجاتهم وهلاك عدوهم.

سوء حال فرعون وقومه يوم القيامة

وما أعد الله لهم من الخزي والنكال

لا يحتاج إلى شرح ولا إلى تعليق ما جاء في الكتاب الكريم من الآيات متعلقاً بمآل فرعون وقومه، وما أعد الله تعالى لهم من سوء العذاب وأليم العقاب في الدار الآخرة. وحسبنا في ذلك أن نقول:

اقرأوا الكتاب ففيه عبرة لأولي الألباب:

سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ۖ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۚ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۚ وَيَنْسُو السُّورُ ۚ (٩٨) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ ۚ لَعْنَةُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسُو السُّورُ ۚ (٩٩)﴾ .

سورة القصص: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً بَدَعُوا إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

سورة غافر: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْيِيكُمْ رَسُولَكُمْ يَأْتِينَتْ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ .

سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُورِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلَى الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

لصوق الوثنية

بقلوب فريق من بني إسرائيل على عهد موسى

طلبهم إلى موسى أن يجعل لهم إلهاً كما للناس آلهة حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم - توبيخ موسى لهم على طلبهم إلهاً غير الله الذي أنجاهم من سوء العذاب وفضلهم على العالمين - تفجير العيون من الصخر بعدد قبائل بني إسرائيل - إنزال المن والسلوى عليهم في برية سيناء - تظليل الغمام لهم من حر الشمس - طلبهم أن يطعمهم الله تعالى القوم «الثوم» والقثاء والعدس والبصل .

كان بنو إسرائيل قد ألفوا وثنية المصريين وقلدهم في وثنتهم شأن المغلوب في تقليد الغالب ولم يؤمن بموسى وإلهه إلا ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون وشيوخ بني إسرائيل أن يفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الوثنية، كما قال تعالى ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] باعتبار الضمير «في ملتهم» راجعاً إلى قوم موسى . ولم تكن العجائب التي ضرب الله بها فرعون وقومه لترجرهم عن تلك الوثنية التي طال إلفهم لها .

ما بالكم يقوم لقوا من المصريين ألوان العذاب من الذل والإهانة، وجاءهم منقذ منهم هو موسى. وقد لقي الأمرين في إنقاذهم من العذاب الأليم، وتحمل في سبيل ذلك الإهانة والسخرية والتهديد بالقتل والتكذيب، ورمي بأنه ساحر مجنون، وألقى على فرعون وقومه الدروس القاسية بآياته البينات الدالة على صدقه، ورأوا بأعينهم انفلاق البحر لهم حتى جازوه على ييس قاعه لم تبتل أقدامهم ولا نعالهم ولم يفقدوا نقيراً ولا قطميراً - بل خدعوا نساء المصريين واستعاروا منهن الحلى من الذهب والفضة وذهبوا بذلك المال كله كما ذهب الأسير بقيده!

ولما أراد فرعون أن يدركهم ويردهم إلى عبوديته وطمع أن يعبر كما عبروا أطبق الله عليه وعلى جنوده الماء فكانوا من المغرقين!

كل ذلك يجري أمام أعينهم وموسى يتخولهم بالنصح والموعظة. ويقول لهم إن كل الأعمال التي عملها إنما هي من صنع إلههم وإله آبائهم الواحد الحي المنزه عن الشريك والمعين. ورمال البحر الرطبة لا تزال عالقة بنعالهم! مع هذا كله غلبت عليهم الوثنية اللاصقة بقلوبهم وغلبت عليهم بلادة الطبع وما ركز في طبيعتهم في السخف وما استولى على أنفسهم من الغثاثة!

أجل غلبت عليهم كل هذه الخصال الذميمة ودفعتهم إلى أن يطلبوا من موسى - وقد مروا على قوم يعبدون الأصنام - أن يتخذ لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة!

لا جرم كان جواب موسى لهم تجهيلاً ولوما وذماً على طلبهم إلهاً سوى الله الذي فعل بعدوهم العجائب المدهشة، وأنجاهم من عذابه بأعجوبة الأعاجيب وخصهم بالإكرام. وفضلهم على العالمين. وأن إلهاً هذه آياته وهذا إحسانه إليهم لا يعدل عن عبادته إلى عبادة غيره إلا من سفه نفسه وسجل عليها من الجهل عاراً لا يمحي.

ولما كان القوم قد عبروا إلى سهول شبه جزيرة سيناء والشمس فيها شديدة - ولا مساكن يكتن فيها القوم، ولا شجر يتفياؤن ظلاله - شكوا إلى موسى ما يلقون من العناء فدعا موسى ربه فساق الغمام إلى ذلك المكان ليظلمهم ويقيهم وهج الشمس ودام ذلك لهم!

ولما كان زادهم عرضة للنفاذ وتاقت أنفسهم إلى اللحم - مع خشيتهم الجوع والهلاك - أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المن والسلوى. والمن مادة تتزهر على أوراق بعض الأشجار مثل الطرفاء وغيرها، ويميل طعمها إلى الحلاوة فيها لين وهي سهلة الهضم. والسلوى طائر السماني كان يغطي الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته: وقد

أمرهم أن لا يطغوا فيه بالادخار؛ لأن ذلك من سوء الظن بالله فخالف قوم منهم وادخروا فداد ما ذخروه - كما بين ذلك في سفر الخروج.

ولما جازوا البحر وجاءوا إلى الشاطئ الشرقي لم يجدوا ماء لشربهم وسقيا دوابهم، فشكوا إلى موسى متذمرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عيناً، لكل من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها. وهذه العيون بالبر الشرقي غير بعيدة من مدينة السويس شهيرة بـ (عيون موسى) وقل اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره. ويزرع على تلك المياه بعض النخيل. والظاهر أن ضرب الحجر وانبجاسه بالماء حصل مرات.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُّصِِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحَدِّ قَادُغٍ لَّنَا رَبُّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالِ اسْتَبْدِلْ لَكَ الَّذِي هُوَ أَذْوَقُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَمِيطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۖ﴾ (١١).

سورة الأعراف: ﴿وَجَنُوزًا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَنَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يٰمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ۖ﴾ (١٣٨) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيُطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ (١٣٩) قَالِ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَيْبِيَكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۖ﴾ (١٤٥).

سورة الأعراف: ﴿وَمِن قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمِّهُ يَهُودِيٌّ يَلْحَقُ بِهِ يَدُلُّونَ ۖ﴾ (١٥٩) وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ﴾ (١٦٥).

سورة طه: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْبَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى ۖ﴾ (٨١) كَلُوا مِنْ طَيِّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۖ﴾ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۖ﴾ (٨٢).

قد يكون طلبهم البقول والعدس والبصل وأخواتها وسيلة من الله تعالى لتنبههم إلى أن طلبهم لا يكون إلا إذا نزلوا مصرًا من الأمصار تجبى إليه ثمرات ريفه. وتجلب إليه

خيرات الأرض الزراعية القريبة منه، حتى إذا علموا بذلك كان مغرباً لهم بمنازلة أعدائهم ومكائرتهم حتى يملكون عليهم مدينتهم للانتفاع بريفها والحاصلات التي تجبى إليها. ولكن ذلك لم يوقظ همتهم التي أخطأها ظلم فرعون وآله وما صب على رؤوسهم من المصائب في الأحقاب الطويلة التي جعلت الخنوع والذلة خلقاً مركزاً فيهم. وسيأتي لذلك فضل بيان عند طلب موسى إليهم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم .

ذهاب موسى عن بني إسرائيل لميقات ربه

وكتابة الله تعالى له ألواحاً متضمنة الوصايا التي يطلب إلى بني إسرائيل العمل بها أوصى الله موسى أن يصعد إلى الجبل ويمكث فيه ثلاثين ليلة، حتى إذا أتمها أعطاه الله ألواحاً وكتب له فيها الوصايا التي يأخذ بها بنو إسرائيل أنفسهم وأعقابهم من بعدهم. ذكر البيضاوي والنسفي والخطيب والألوسي - وعباراتهم متفاوتة - إن موسى وعد قومه بني إسرائيل - وهم بمصر - إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب؛ فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً وهي شهر ذي القعدة - فلما أتى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه؛ فاستاك أو أكل بعض النبات فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة.

وأخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى ربه عز وجل أراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام نهارهن ولياليهن كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى عليه السلام الذي أمره ربه به اهـ.

وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتَمٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَتُبِعُونَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]..

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون خليفة على بني إسرائيل وأكد عليه الأمر بالنظر في مصالحهم وشؤونهم واليقظة في أمرهم. وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي

مكني من رؤيتك أو تجل لي فأنظر إليك وأراك: فقال الله تعالى له: ﴿كَانَ تَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظَرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرْنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهنا مجال واسع للكلام بين أهل السنة المجوزين لرؤية الله تعالى والمعتزلة المانعين لها «وهذا مبحث يرى في موضعه لا هنا».

ويقول المفسرون: كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة؟ ويستدلون بذلك على جوازها، وإلا لما طلبها موسى، كأن موسى بمجرد نبوته صار عالماً بكل شيء. وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغي أن يعلمها. وإذا كان حاله مع العبد الصالح أن قال له لما شاء صحبتته ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] أفما كان موسى محتاجاً أن يتعلم من الله وعن الله شيئاً حتى يقال إنه يعلم أن الرؤية ممكنة ولولا ذلك ما سألهما؟

ويعجبني ما أورده الألوسي من قول المعتزلة: سلمنا أن سؤال الرؤيا ينافي العلم بالإحالة لكننا نلزم القول بعدم العلم، وهو غير قادح في نبوته عليه السلام؛ فإن النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة، أو جميع ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز بل علمه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة إلى الله تعالى وهو وحدانيته. وتكليف عباده الأوامر والنواهي تحريضاً لهم على النعيم المقيم. وليس امتناع الرؤيا من هذا القبيل^(١).

(١) نقد اللجنة «الموضوع العاشر»

(طلب موسى عليه السلام رؤية الباري تعالى)

«في صفحة ٢٠٩ سطر ١٣» ويقول المفسرون كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة؟ ويستدلون بذلك على جوازها وإلا لما طلبها موسى. كأن موسى بمجرد نبوته صار عالماً بكل شيء، وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغي أن يعلمها، وإذا كان حاله مع العبد الصالح أن قال له لما شاء صحبتته ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] أفما كان موسى محتاجاً أن يتعلم من الله شيئاً حتى يقال إنه يعلم أن الرؤية ممكنة ولولا ذلك ما سألهما؟ ويعجبني قول الألوسي: سلمنا أن سؤال الرؤية ينافي العلم بالإحالة لكننا نلزم القول بعدم العلم، وهو غير قادح في نبوته عليه السلام فإن النبوة لا تتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة أو جميع ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز. بل علمه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة إلى الله تعالى وهو وحدانيته وتكليف عباده الأوامر والنواهي تحريضاً لهم على النعيم المقيم. وليس امتناع الرؤية من هذا القبيل هـ هذا نص كلامه بالحرف.

(رأي اللجنة)

لا نعجب من أنه اختار أنه لا مانع من أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم استحالة رؤية البارئ تعالى لأن المعتزلة سبقوة بهذا الرأي، وإنما العجب كل العجب من قوله «ويعجبني قول الألوسي سلمنا إلخ ما نقلناه عنه، فإن الناظر في كلامه هذا وتصرفه في النقل يعتقد - إذا لم يطلع على كلام الألوسي من أوله إلى آخره - أنه؛ أي الألوسي، يرى هذا الرأي ويعتقد هذا الاعتقاد، مع أن الألوسي بعد أن قرر استدلال أهل السنة بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] على جواز رؤية البارئ من وجهين».

قال بعد بيانه للوجهين ما نصه: واعترض الخصوم الوجه الأول بوجوه؛ الأول... إلى أن قال: الخامس سلمنا... إلى آخر ما نقله عنه الأستاذ وبعد أن أتم ذكر جميع اعتراضات الخصوم - أي المعتزلة - أجاب عن كل واحد منها إلى أن قال: وما ذكروه في الوجه الخامس ظاهر رده من تقرير الوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما أهل السنة، وحاصله أنه يلزمهم أن يكون الكليم عليه السلام دون أحاد المعتزلة علماً ودون من حصل طرفاً من الكلام في معرفة ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز عليه. وهذه كلمه حمقاء وطريقة عوجاء لا يسلكها أحد من العقلاء فإن كون الأنبياء أعلم ممن عداهم بذاته وصفاته العلية مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان. اه كلام الألوسي في تفسيره مأخوذاً من شرح المواقف، ويكاد يكون بالحروف. وعبارة المواقف في جواب هذا الاعتراض الخامس هكذا.

والجواب: التزام أن النبي المصطفى المختار بالتكليم في معرفة الله وما يجوز عليه ويمتنع دون أحاد المعتزلة، ودون من حصل طرفاً من علم الكلام؛ هي البدعة الشنعاء والطريقة العوجاء التي لا يسلكها واحد من العقلاء ١ هـ.

فلعل الأستاذ نقل كلام الألوسي من غير أن يطلع على صدره ليعلم أنه من اعتراضات المعتزلة؟ ولا على آخره ليعلم الجواب عنه فلا يعجبه ولا تستطيع القول بأنه اطلع عليه من أوله إلى آخره وتصرف في النقل هذا التصرف الذي يعتبر تدليساً غير حميد والله أعلم!

وأما قوله في الرد على أهل السنة «وما دروا أن موسى كان عليه أمور كثيرة ينبغي أن يعلمها» فمردود فإن ذلك في غير معرفة الله تعالى، أي معرفة ما يجب في حقه ويستحيل ويجوز فإن هذه عقائد أولية مكلف بها أحاد الناس، ثم لا يخفى أن مثل هذا التعبير لا يناسب في حق موسى عليه الصلاة والسلام.

وأما قوله «وإذا كان حاله مع العبد الصالح إلخ» فيعلم جوابه مما ذكرناه أولاً ومع ذلك نزيده بياناً. قرر الأئمة أنه لا يعقل أن يطلب موسى عليه السلام من العبد الصالح أن يعلمه شيئاً من العقائد الدينية أو من الشريعة اللازمة لمن أرسل إليهم، فإن موسى من أولي العزم؛ أي ممن هم أفضل من غيرهم من الرسل، فيجب أن يكون فيما ذكرناه أعلم من العبد الصالح، وإنما طلب أن يتعلم منه شيئاً من الأسرار الكونية ومن علم الحقيقة والعلم للدني الباطني قالوا؛ ولا مانع من أن يكون العبد الصالح أعلم من موسى في هذا النوع كما أن موسى أعلم منه في النوع الأول. ولذلك رجح المحققون أن ذلك العبد الصالح وهو الخضر كان نبياً حتى لا يلزم أفضلية الولي على النبي في علم الحقيقة. أما الأنبياء فلا مانع من تفاوتهم في هذا النوع، بل لا مانع من أن يوجد في المفضول ميزة في هذا العلم لا توجد في الفاضل.

= وإن أردت زيادة تحقيق في هذا المقام فعليك بالألوسي في تفسير هذه الآية والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع العاشر

(طلب موسى رؤية الباري تعالى)

كتب أصحاب الفضيلة ما سطر قبل هذا وقد جاء فيه «لا نعجب من أنه اختار أنه لا مانع من أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم استحالة رؤية الباري تعالى؛ لأن المعتزلة سبقوه بهذا الرأي الخ» كأنهم بهذا القول ينالون مني بيفضوني إلى الناس وإلى نفسي!

وإني أقول لحضراتهم أتى لو كنت أرى رأي المعتزلة لبادرت بإظهاره دون أن أخشى لومة لائم كما فعل جار الله الزمخشري. وإذا كنت لا أخشى الله الذي برأني وسواني «في نظر اللجنة» فكيف أخشى عبيده وهم لا يملكون لي موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟

إن رسول الله ﷺ كان يقبل من المؤمن إيمانه دون أن يسأله عن أن الله تمكن رؤيته أو لا تمكن؟ وما أثار هذا الخلاف سوى سلف القدريّة، وهذا ما أخذه عليهم وأنقمه من عملهم فعليهم ما حملوا وعلى غيرهم ما حمل. ومع ذلك فلا ينقص هذا من حفظ أقدارهم التي لهم في نفسي فإني أليس كل طائفة على عيبيها ولا أنغمس فيما شذت به:

ضمنت وفائي للعشائر كلها وأمسكت لما عظموا الغار أو خمأ

ورحم الله من قال في وجوب التوسط:

لا تكن مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسط بين بينا

وقال:

وإن سألو عن مذهبي قلت خشية من الله لا طوقاً أبث ولا جبراً

وليس عليّ من حرج إذا وجدت كلاماً حسناً أن أستحسنه - كائناً ذلك القائل من كان - والمؤمن يلتقط الحكمة حيث وجدها. ومن رأيي عن الكلام في رؤية الله تعالى وإمكانها أنه بحث سابق لأوانه. وأنه تسلق على الغيب وتسور على ما لا يمكن القطع به في دار الدنيا. وأن الأسلم الإمساك عنه وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى. وسنقدم على الله يوم القيامة فنعلم.

ومن جهة أخرى أعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع إعداد الله لهم وإفاضته العلم عليهم ينقصهم كثير من المعلومات يساعفهم بها الآن بعد الآن.

أنظروا إلى موسى عليه الصلاة والسلام لما شرفه الله تعالى برسائه وبكلامه وقد حكى الله شأنه فقال في سورة الشعراء ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتْبِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمٌ فَرَعُونَ آلَا يَنْفُونَ﴾ [الشعراء: ١١] فأراد موسى أن يفر من هذه الرسالة وقال لربه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِيَاسِي فَارْمِلْنِي إِلَىٰ ذُرِّيَّتِي﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٤] فأجاب الله بقوله (كلا) الخ ولما أمره بإلقاء العصا فصارت تهتز كأنها جان ولى مدبراً. ولم يعقب فقال الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الرَّسُولِ﴾ [النمل: ١٠] أليس توليه مدبراً: كان سببه أنه لا يعلم أن المرسلين لا يخافون لدى ربه؟

وإني وأبم الله لا أدري كيف يفرض الله تعالى على موسى العلم بأحوال ذاته وصفاته كلها وبأن رؤيته =

تعالى ممكنة ثم يضمن على عبده موسى بالعلم بأنه لا يستطيع رؤيته تعالى في هذه الدار وأن الجبل إذا تجلّى له الله تعالى لا يستقر مكانه، بل يجعله دكاً وأن موسى لا يطبق ذلك حتى طلبه ورفض طلبه أما كان في علمه بأحوال ذات الله وصفاته ما ينهيه عن طلب يكون سبباً في صعقه ثم توبته منه؟

إن موسى ﷺ لا يرى كبيراً على نفسه أن يتعلم من الله أي أمر من الأمور، ولا يرى نقيصة عليه وزراية على قدره ومنصبه أن يكون متعلماً من الله تعالى في أي وقت من أوقات حياته. فلا حق لهم في أن يقولوا «إن مثل هذا التعبير لا يناسب في حق موسى» فإني أقول لحضراتهم لا تدخلوا بيني وبين رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام. وليس بيد حضراتهم توكيل عن موسى بمقاضاني على شيء كان مني في حقه، وأحسبه لو كان شاهد أمرنا اليوم لكان أكثر رضا عني!

أطال حضرات الأفاضل في الكلام على قولي «ويعجيني قول الألوسي... الخ» وقالوا إني لم أطلع على أول الكلام وآخره. وأني أسلم لهم بذلك تسليماً تاماً ولا أنازعهم، وأن هذا هو الصواب، ولكن ما قولهم - دام فضلهم - في أنني بعد أن اطلعت على تقريرهم وعلمي بأن الألوسي إنما كان يبسط وجهة نظر المعتزلة ويرد على ذلك الوجه الذي ذكروه، قد ازدادت به يقيناً وثقت بأنه ليس دليلاً قاطعاً. وأن الاحتمال الذي أوردوه لم يدفع بإجابة الألوسي ولا غيره. ولا حبا مني في مذهب المعتزلة ولكن لأنه مطابق لرأيي وتفكيري، مع العلم بأنني أفوض علم الإمكان الخاص برؤية الباري إلى علم الله تعالى وأن الكلام في ذلك سابق لأوانه.

ولم أزل أقول أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام يفتقرون إلى الله في علم ما لا يعلمون وقد أمر الله رسوله الكريم بقوله ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي جواب الله تعالى لنوح في ابنه إذ يقول ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنْهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَرِصٌ فَلَا تَسْتَلِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وغير ذلك مما يشهد لي.

ودعوى أنه علمهم في الحال وعند إفاضة النبوة كل ما يتعلق بذاته وصفاته وما يستحيل وما يجوز، حتى لا يبقى عليهم أن يسألوه المزيد في ذلك - كما هو مقتضى كلام أعضاء اللجنة وما يؤخذ من فحوى عباراتهم فأمر ينقصه الدليل القاطع وإنما حداهم على ذلك أمر حسن وهو حبههم أن يكون الأنبياء في ذروة الكمال المطلق التي لا يقرب ساحتها أي عارض إنساني أو نقص بشري ولكن محبتهم لذلك لا تحول بين الواقع المشاهد المنصوص في الكتاب الكريم في أن الله تعالى كان يتخولهم بالتعليم ويكملهم مما يلقيه إليهم من المعارف. وأني أفهم أن رسول الله محمداً ﷺ كان يوم وفاته حاصلًا على قسط مما علمه الله إياه - في الله وذاته وصفاته وحكمه المبالغة - لم يكن حاصلًا على مثله يوم جاءه الملك بالوحي في حراء ولا بعدها في ثلاث سنين. ولو كان الله تعالى قد أفرغ عليه العلم بأحوال الله وبشأنه قبل ما عاد إلى خديجة وهو في حال رعب وقال لها «لقد خشيت على نفسي» - كما في حديث عائشة في البخاري في بدء الوحي - لما كانت خديجة في احتياج إلى أن تسأل ورقة بن نوفل عما رآه ﷺ في حراء... إلى آخر الحديث.

ولو كان الأمر كما يقولون وأن الرسول من حين النبوة يعلم جميع شؤون الله؛ لقرت نفس رسول الله ﷺ بعد أن أوحى إليه في حراء، ولم يكن منه أن يعمد إلى التردى، ولا يرده إلا تبدي جبريل له ومناداته بقوله «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

جاء في البخاري ولفظه هكذا «وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي =

أعلن الله أنه لن يراه. إما لأن الرؤية غير ممكنة أصلاً كما يقول المعتزلة، وإما لأنها غير ممكنة في هذه النشأة - كما يقول بعض العلماء - أو لأنه لا يقوى على تلك الرؤية. ثم أراد الله أن يعلمه أنه إنما طلب شيئاً عظيماً لا تتحمله الجبال فتجلى الله للجبل فصار دكاً - أي غاص في الأرض أو تفتت وخر موسى مغشياً عليه، كما يخر من أخذته الصاعقة وذلك لما هاله من صوت ما عرا الجبل حين صار دكاً ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بعظمتك وجلالك.

ويقول بعض المفسرين: إن موسى مات ثم أحياه الله تعالى، وهو قول لا يساعد عليه الكتاب، لأن الإفاقة إنما تكون عن غشية، ومن حيي بعد موته لا يقال له أفاق وإنما يقال بعث. وتاب موسى من أن يطلب مثل ذلك الطلب وأمن أنه طلب ما لا يقوى على احتماله: وبأن عظمة الله بالغة الحد الذي لا يطاق وقد اختلف أهل التفسير في هل رأى موسى ربه قبل الصعق أو بعده أو لم يره؟

وأنا أريح نفسي من هذا الاختلاف ملتجئاً إلى كتاب الله إذ يقول ﴿لَنْ نَرِيكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأقول إن الرؤية لم تحصل قبل الصعق ولا بعده.

بعد أن أفاق موسى من غشيته خاطبه الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالاته «وهي أسفار التوراة» وبكلامه تعالى بأن يوحى إليه بلا واسطة ملك. بل يسمعه ما يريد أن يبلغه إليه أمره أن يأخذ ما أعطاه من شرف الاصطفاء والكلام شاكراً لله تعالى على ما أعطى.

وكتب الله تعالى ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح - في ألواح اختلف المفسرون في عددها بين عشرة واثنين، كما اختلفوا في حقيقتها بين خشب وحجر وزبرجد وياقوت. وكل هذا لا يعنيننا - وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام وتفصيل لكل شيء يهم بني إسرائيل. وأمره الله تعالى أن يأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها. أي يسيروا على أحسن وأفضل ما رسم فيها، بأن يفعلوا ما هو أدهى

= يتردى من رؤوس شواحق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن جأشه فيرجع. فإذا طالعت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك. فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك».

(بما تقدم) علم أن ما أورده ليس فيه خطأ أو زلل وليس فيه نصرة لمذهب المعتزلة، ولكنه رأيي الذي أتحمّل تبعته أمام الله تعالى، وهو أمر سائغ ولا برهان للجنة على بطلانه. ولو كان باطلاً حقاً كما يدعون لكان المعتزلة الذين استدلوا به على مذهبهم كفاراً وهو ما لم يقله أحد من المسلمين.

إلى الزلفى من الله تعالى. فإذا نص فيها على خصلتين تقربان إلى الله تعالى وإحداهما تستدعي ثواباً أعظم؛ فعليهم أن يأخذوا بالأفضل - وإن كان في كل فضل - ثم وعده الله بأن يريهم دار الفاسقين.

وقد اختلف المفسرون في دار الفاسقين ما هي؟ فقال فريق: إنها مصر عاد إليها بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنده. وهذا القول عندي ليس بشيء.

وقال الكلبي «منازل عاد وثمود» وهو كلام حاطب ليل . لأن «ديار ثمود» وإن كانت قريبة من بني إسرائيل الموجودين في شبه جزيرة سيناء ورؤيتها ممكنة لهم ؛ ولكن «ديار عاد» في جنوب بلاد العرب . ولا يعقل أن بني إسرائيل يجتازون الفياضي والقفار ليروا منازل عاد وقد طمست آثارها . ولم ينقل ناقل أنهم ذهبوا إلى بلاد الأحقاف أصلاً والأقرب ما قاله قتادة من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابة والعمالقة بالشام ولا أريد بهذه الرؤية ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنهم دخلوا بلاد الجبارين وهي الأرض التي كتب الله لهم لأن الله تعالى حرمها على الكبار من بني إسرائيل ، وموسى لم يدخلها وإنما رآها فقط . وإنما دخلها بنو إسرائيل مع يوشع بن نون فتى موسى - كما سيمر بنا ، ولعل المعنى سأري بعضكم وهم الرواد الذين دخلوا البلاد ، ثم عادوا إلى بني إسرائيل بخبر أولئك الجبارين فهال بني إسرائيل أمرهم وعصوا عن مقاتلتهم والأقرب أن يكون المراد بالبعض يوشع بن نون وكالب بن يفنه .

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأعراف: ﴿وَلَا عِذَاءَ مُوسَىٰ لَثَلِيثٍ لِّئَلَّا تَبْلُغَ بِمَا كَفَرْتَ بَعْدَ وَبْعِكَ رَبَّنَا وَقَدْ عَرِضْتَ لِلْإِثْمِ أَنْ يُدْخِلَكَ مِن دُونِ الْبَابِ عَذَابَ آخِرٍ يُعَذِّبُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْجِعْ أُنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَنِي وَلَئِنِ انْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ لَإِنِ اسْتَفْرَقَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّىٰ بَيْنَهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ قَالَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَسْطِثَةِ عَلَى الْأَنْبَاءِ يُرْسَلْنَ وَيَكْلَىٰ فُجُورًا مَّا أَتَيْتَكَ مِنْ شَيْءٍ فَخُذْهُ بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ سَاصِرُونَ عَنِ الْإِثْمِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا لَا يُؤْمِنُوا بِهِمَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِقَابِ يُسَبِّحُوهُ سُبْحَانَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه

غضب موسى على هارون - أمر الله بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ليتوب عليهم - إحراق موسى العجل ونسفه في اليم - مجازاة السامري الذي أضلهم بالعجل - إلى أي شيء ينسب السامري؟

قلنا فيما مضى أن بني إسرائيل لم تكن أنفُس أكثرهم مرتاضة بالإيمان. وأنهم كانوا ذوي جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ. والقوم عاشوا في مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس. وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل. وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنطوها - كما يحنط الآدمي بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة. تسمى «سرايوم».

كانت بساطتهم وإلفهم للوثنية مسهلة لرجل ماهر كان فيهم سماه القرآن «السامري» فجاءهم بعجل له خوار. وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى نسيه موسى هنا وذهب لملاقاته في الغيبة الطويلة.

وذلك أن موسى أخبرهم - قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوماً مع مسافة الطريق إلى جبل حوريب، وهو جبل الطور. فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام طالت غيبته عن قومه، واستبطن القوم موسى.

فانتهاز رجل يقال له السامري غيبة موسى وأخذ من بني إسرائيل بعض حليهم التي كانت نساؤهم أخذنها من المصريات قبل رحيل بني إسرائيل وألقاها في النار وسبك منها عجلاً. وجعله بحيث إنه كان له خوار؛ أي صوت الثور وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى.

وليس غريباً أن يكون رجل له علم بالهندسة والحيل يجعل تمثال الثور يخور كما يخور الثور وقد رأيت عند صديق لي تمثال بقرة من الجبس، عند سرتة سلك من الخيط، إذا جذب إلى أسفل ثم أرسل الخيط دارت آلة في داخله ولفته على جسمها، وحينئذ يحدث ما يشبه خوار العجل الصغير وبعض الناس يأخذ عظم رأس الحمار - بعد أن ييلي عنه اللحم - ثم يضع ضفدعاً داخل تجويف الرأس، ثم يقربها من الحرارة أو من دخان نار، فتتق الضفدع ويخرج نقيقها من الرأس مكبراً حتى ليخيل للسامعين أن الصوت صوت حمار.

سعى إليهم هارون وأراد ردهم عن عبادة هذا العجل. وأفهم القوم أنهم فتنوا به

وجهد أن يردهم فلم يفلح ولم يصغوا إليه وقالوا له ﴿لَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١] .

فلما قضى موسى أجل الصوم وكلم ربه وأعطاه الألواح سأل الله تعالى وهو أعلم، عما أعجله عن قومه . فقال إنهم آتون على أثري وعجلت إليك ربي طلباً لرضاك وحينئذ أخبره الله تعالى بأنهم فتنوا عن دينهم وأن السامري أضلهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان حزينا حرداً على أخيه إذ لم يردهم عن فتنهم وظن به التقصير في النصيح . فلما لقيه أخذ بلحية هارون ورأسه يجره إليه وكان موسى رجلاً أيداً فيه حدة لا يقوم لغضبه أحد . فاعتذر هارون بأنه عمل جهده، ولو قام بقتال من ارتد لكان ذلك سبباً لفرقة خشي هارون أن تكون سبباً لغضب موسى لأنه لم يرتقب رأي موسى في هذه الفتنة ولأم موسى بني إسرائيل أشد اللوم وألقى الألواح التي كتبها الله له . ويقال إنها كسرت .

بعد ذلك ذهب موسى إلى السامري وسأله عن شأنه والأسباب التي حدثت به إلى هذا العمل المنكر؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] فقال له موسى: اذهب فإن الله عاقبك بأن تقول في حياتك «لا مساس» وأن لك موعداً لن تخلفه، وأخبره أن هذا الإله الذي ظل عاكفا عليه سيحرقه موسى وينسفه في ماء البحر . وقال لبني إسرائيل ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٩٨] .

ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى أن توبة بني إسرائيل: أن يقتلوا أنفسهم بأن يقتل كل إنسان من يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك . ثم عفا الله عنهم بعد أن قتلوا من أنفسهم عدداً عظيماً . وكان اعتدار بني إسرائيل أنهم حملوا من زينة المصريين شيئاً كثيراً فقفزوه هم والسامري وكان عن ذلك العجل .

ما حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل - ومن هو السامري

ويقول المفسرون والتوراة: إنه كان عجلاً من ذهب صاغه لهم صائغه من حلي المصريين - كما قدمنا - ويقول المفسرون: إن السامري إسمه موسى وكان مولوداً من سفاح، وأن الله أمر جبريل أن يريه ويقوم بمصالحه، فكان جبريل يأتيه على فرس . وكان يلاحظ - بعد أن كبر أن فرس جبريل لا يضع حافره على شيء إلا صار حياً فأخذ من تراب أثر الحافر بعضاً، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب في فم العجل فصار له خوار .

ويقول البيضاوي: إن الذهب صار عاجلاً جسداً ذا لحم ودم له خوار - صوت البقر - وقال بعضهم: إنه كان صائغاً وقد دبره بطريقة خاصة تجعل للريح إذا مرت من دبره وخرجت من فمه صوت البقر.

والذي أراه أن حكاية السامري وجبريل ليست صحيحة، فلا جبريل جاء إلى السامري ولا السامري أخذ تراباً من أثر حافر فرسه. وأن القول بأنه صاغه بحيث إذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقر - وهو الخوار - أقرب من ذلك بل لا غرابة في هذا أصلاً.

ولو قال قائل: إن الرجل خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلي، وبصر بعجل على هيئة العجول التي تعبد في مصر - ولم يبصروا به فاشتره وجاءهم به وقال لهم ما قال؛ وأنهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل إلههم وإله موسى، وعكفوا على عبادته مع أنه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق من أبناء جلدته من البقر في شيء! ومع ذلك كله فإنهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه إلهاً وعبدوه، وظلوا عاكفين على عبادته مع نهى هارون لهم وقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فلم يلتفتوا إليه لما أشربوه في قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيداً من الصواب ولم يكن مخلاً بنظم القرآن هذا هو الذي أميل إليه ويكون السامري قد خدعهم بأخذ الحلي وإلقائه في النار ليوهمهم أن حليهم صار عاجلاً؛ وأخذ المال لنفسه. فشأن الدجالين الذين يخدعون الناس بإيهامهم الكنوز المطلسة وافتتاحها لهم ثم يجردونهم من كل شيء. فيأتون إليه بالفقر حيث يرجون الثروة والغنى^(١) - وهنا يعرض سؤال لاكه بعض المسيحيين في الجرائد وهو:

(١) نقد اللجنة «الموضوع السادس»

«حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل»

قال في صفحة ٢١٥ سطر ١٤ ما نصه:

ولو قال قائل: إن الرجل خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلي وبصر بعجل على هيئة العجول التي تعبد في مصر - لم يبصروا به - فاشتره وجاءهم به وقال لهم ما قال وإنهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل إلههم وإله موسى وعكفوا على عبادته مع أنه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق عن أبناء جلدته من البقر في شيء مع ذلك كله فإنه لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه إلهاً وعبدوه! وظلوا عاكفين على عبادته مع نهى هارون لهم وقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فلم يلتفتوا إليه لما أشربوه في قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيداً من الصواب ولم يكن مخلاً بنظم القرآن. هذا هو الذي أميل إليه ويكون السامري قد خدعهم بأخذ الحلي وإلقائه في النار ليوهمهم أن حليهم صار عاجلاً وأخذ المال لنفسه! =

= فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون الناس بإيهامهم بالكنوز المطلسة وافتتاحها لهم، ثم يجردونهم من كل شيء فيأتون إليهم بالفقر من حيث يرجون الثروة والغنى! اه بحروفه.

(رأي اللجنة)

والذي نراه أن هذا القول مخالف لما عليه جميع المفسرين - فيما نعلم - وبعيد عن الصواب ومخل بنظم القرآن وذلك أن هذا المعنى يتلخص في أن السامري خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلبي وأوهمهم أنه صاغ منها عجلا جسدا له خوار. مع أنه في الواقع جاء لهم بعجل حقيقي من نوع البقر! فالسامري هو الخادع والموهم - بكسر الهاء - وباقي قوم موسى مخدوع وموهم - بفتحها. ونحن لا ندري كيف يفهم هذا المعنى من قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورٌ أَلَّهُ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

على مقتضى أصول اللغة العربية هل يقدر في نظم الآية خدع وأوهم - بالبناء للفاعل - قوم موسى أنهم اتخذوا من الحلبي عجلا. أو يقدر خدع وأوهم - بالبناء للمفعول - أو يراد أحد المعنيين بطريق التجوز؟ ومن المعلوم أن إفادة التركيب لهذا المعنى إنما يعقل بواحد من هذه الاحتمالات. وحينئذ يقال له (أولا) إن مثل هذا التقرير أو التجوز لا دليل عليه أصلا ولا قرينة تصاحب نظم الآية لا حالية ولا مقالية، بل يعتبر الكلام بالنسبة لهذا المعنى لم يخطر على بال أحد من أرباب التأويل - سواء كانت عربيتهم باكتساب أو كانت سليقة - ولا يوجد نظيره في كلام المبتدئين؛ فضلا عن كلام رب العالمين.

(وثانياً) إن جريت على الاحتمال الأول في التقرير أو التجوز فأين الموهم - بفتح الهاء - أو المخدوع؟ فإن قوم موسى يشمل السامري وباقي القوم. وإن جريت على الاحتمال الثاني فأين الموهم - بكسر الهاء والخادع فإن قال: إنما أسند الإيهام سواء كان على جهة الفاعلية أو المفعولية للجميع مع أنه واقع من البعض وعليه على قياس إسناد الاتخاذ إلى الجميع على المعنى المشهور للآية، مع أن المتخذ واحد منهم وهو السامري؟ قلنا: إنما جاز نسبة الاتخاذ إلى الكل على المعنى المشهور، لأن الباقي وافق على عبادته فهل يمكن أن يقال ذلك في الإيهام فيسند إلى الموهم والموهم والخادع والمخدوع معا سواء كان مبنياً للفاعل أو للمفعول؟ وهل لذلك نظير في اللغة العربية؟ فإن قال: نختار الاحتمال الثاني وهو البناء للمفعول ويراد بقوم موسى ما عدا السامري. أو الاحتمال الأول وهو البناء للفاعل ويراد بقوم موسى خصوص السامري؟ قلنا: هذه إرادة بمجرد التشهي وثانياً يصير المعنى على الاحتمال الثاني هكذا: خدع قوم موسى أي ما عدا السامري إنهم اتخذوا من الحلبي؛ أي أن السامري اتخذ لهم من الحلبي عجلا، وهو كما ترى واضح البطلان. وأما الاحتمال الأول فينايه آخر الآية ﴿أَلَّهُ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٨] الخ.

(ويقال له ثالثاً) من أين جاء السامري بالعجل الذي يعبد نظيره في مصر؛ ومن أي سوق اشتراه مع أنهم جاوزوا البحر؟ فهل استصحبه السامري من مصر وعدى البحر معه أو كان على شاطئ البحر طائفة من القط يسكنون هناك؟ أو وجده عند القوم الذين أتوا عليهم يعكفون على أصنام لهم؟ (ويقال له رابعاً) يظهر من قولك «وبصر بعجل» الخ أنه فسر قوله تعالى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦] أي فبصرت بعجل لم يبصر به باقي بني إسرائيل، وحينئذ يقال له كيف يترتب على هذا =

المعنى قوله تعالى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] حتى على تأويله المذكور في صفحة ٢١٧ التابع فيه لأبي مسلم الأصفهاني وهو أن المراد فقبطت قبضة من أثر الرسول الخ ولا ينفعه تأويل أبي مسلم البعيد من منطوق الآية كما يعلم بمراجعته.

(ويقال له خامسا) إن كان الواقع كما تقول أفلا يكون الأجدر إظهار هذه الحالة والنعي على السامري بأنه اتخذ في سبيل الإخلال طرقا غير شريفة من النصب والاحتيايل وسلب الأموال؟ والنعي على باقي القوم بالغفلة الشديدة من جهة أنه نصب عليهم وأخذ الحلي منهم؟ ومن جهة أنه لا يوجد لهم أقل شبهة في عبادة هذا العجل الحقيقي المعروف أمره لهم؟

رد المؤلف على نقد اللجنة

(الموضوع السادس)

«مسألة اتخاذ بني إسرائيل العجل»

ذكرت في كتابي ما نقلته اللجنة من صفحة ٢١٥ سطر ١٤ بعد أن ذكرت في صفحة ١٣ ما ذكره المفسرون من أنه صاغ لهم عجلا من ذهب ودبره، بحيث إذا استدبرته الريح صار له خوار وعدادت ذلك أمرا ليس بالغريب.

وفى صفحة ٢١٥ طرقت الاحتمال المنصوص بها، وأشهد أن أحداً من المفسرين لم يخطر في باله هذا وأتشفّر بأنه لي وحدي.

والذي يؤلمني أن حضرات أعضاء اللجنة قد حاروا في فهم قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْبِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] حيرة لم يقع فيها ولم يبتل بها من دخل قصر «البيرات» ويقولون «فالسامري هو الخادع والموهم - بكسر الهاء - وباقي قوم موسى مخدوع وموهم - بفتحها» وأنهم لا يدرون كيف يفهم هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْبِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] الخ؟

ولو رجعوا إلى لأنقذتهم من حيرتهم وقلت لهم: إن من معاني «من» - بكسر الميم - في اللغة العربية «البدل» وقد مثل ابن هشام في المغني ١٣ ج ٢ لذلك بقوله تعالى ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] - «لجعلنا منكم الملائكة في الأرض يخلفون» [آل عمران: ١١٦] لأن الملائكة لا تكون من الإنس ﴿لَنْ تَنفَيْ عَنْهُمْ أَهْلَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١١٦] أي بدل طاعة الله أوبدل رحمة الله «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا تنفع ذاالحظ من الدنيا حظه منك أي بدل طاعتك أو بدل حظك أي بدل حظه منك. ومثلها أيضا يقول الشاعر: «ولم تدق من البقول الفستقا» أي بدل البقول اه.

وعلى ذلك يتمشى قوله الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْبِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي اتخذوا بدل حليهم عجلا جسدا له خوار، بأن بدلوا الحلي وأخذوا العجل جسدا له خوار. وكما تقول اتخذت من جواهري دارا؛ أي بدلها.

وأما الية الذي اختطوه «بخدع وخادع ومخدوع، وموهم، وموهم، والتساؤل عن البناء للفاعل والبناء للمفعول، واستجداء التجوز، والبحث بالميكروسكوب عن القرينة الحالية والمقالية» فأمر لا لزوم لها.

بذلك يعلم حضراتهم أنهم أتعبوا أنفسهم بدون موجب لهذا التعب، وأطالوا الكلام في غير طائل. وأن التردد في هذه الاحتمالات التي قدروها لي لم تخطر لي ببال ولم يكونوا في احتياج إليها! أما قول حضراتهم «بل يعتبر الكلام بالنسبة لهذا المعنى من المعميات الشبيهة بالألغاز» فإنه شنشنة أعرفها من أخزم. وكل امرئ يجري على أعراقه.

فهنيئاً لحضراتهم من عرضي ما يستحلون ومن عراي ما يحلون!

وظريف جداً قولهم «ويقال له ثالثاً من أين جاء السامري بالعجل»؟ فإن هذا منهم يشعر أنهم يفهمون أن هذا العجل له سلالة مقدسة لا توجد إلا في مصر. ولو أنهم سألوا علماء الآثار والخبراء بتاريخ المصريين وعبادتهم لعلموا أن عجل المصريين ليس له سلالة خاصة يختار منها! وإنما يختار على الشيات التي توجد في جلده. ومثل هذا يوجد في بعض الأحياء في عجاجيل بني إسرائيل والعرب - الضاربين في شبه جزيرة سيناء - والعماليق الذين في تلك الأصقاع.

وإذا أصروا على معرفة القوم البائعين له، والمكان الذي وجد فيه ذلك العجل؛ فيصبروا وموعدا عرصات القيامة إن شاء الله إلى أن يلاقوا السامري، فإنه هو الذي يعلم أين وجده وممن أخذه؟ ولعمري ما الذي يفيد حضراتهم من معرفة المكان الذي وجد فيه؟

(قالوا) ويقال له رابعاً: يظهر من قولك «ويصر بعجل» الخ أنه فسر قوله تعالى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦] أي فبصرت بعجل لم يبصر به باقي بني إسرائيل. وحيث يقال له: كيف يترتب على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] حتى على تأويله المذكور في صفحة ٢١٧ التابع فيه لأبي مسلم الأصفهاني، وهو أن المراد فقبطت قبضة من أثر موسى الرسول ... إلى آخره - ولا ينفعه تأويل أبي مسلم البعيد من منطوق الآية كما يعلم بمراجعتها اهـ.

والجواب على ذلك سهل جداً وهو أن السامري بصر بعجل لم يبصر به بنو إسرائيل؛ فسولت له نفسه أن يطرح ما علمه من موسى؛ من أن الإله واحد هو الله وأنه لا يعبد سواه وأنه ليس كمثله شيء. فنبتذ تلك القبضة من التعاليم وهي أثر من آثار موسى، ورأى الفرصة سانحة للعب بعقول بني إسرائيل، وأخذ الحلي الذي كان عندهم، فدعاهم إلى أن يأتوه به فجاءوا به، وأوهمهم أنه سيأتيهم بإله موسى. وكذلك سولت له نفسه وهو كلام سائح مشهور لا غبار عليه.

(وأما ما قالوه) خامساً: فقد كفانا الله مؤنة الرد عليه بقوله عز شأنه ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [طه: ٨٩ - ٩٠] وكفى بذلك تجهيلاً وتوبيخاً لهم.

(وأما قولهم) والنعي على السامري .. الخ فأقول: إن الذنب الذي أتاه السامري أكبر من النعي وأربى من التوبيخ! بل اللائق في مثل أمره إحلال العقاب إذ لا يعاتب إلا الأديم ذو البشرة. وقد عاقبه الله بتعذيبه في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخرى.

بقي أن أصحاب الفضيلة - حفظهم الله - قالوا في صدر إبداء رأيهم «والذي نراه أن هذا القول مخالف لما عليه جميع المفسرين فيما نعلم، وبعيد عن الصواب ومخل بنظم القرآن» ولكنهم بعد رحلتهم الطويلة لم يقولوا لنا ما رأوه صواباً من وجوه تفسير هذه الحادثة، وهذا لا يليق.

وأني أقر وأعترف إقراراً واعترافاً لا ثنيا فيها أن هذا الرأي لي ولم أقف عليه لأحد غيري فهل في ذلك ذنب علي؟ أو أني ارتكب بذلك إثماً؟

كيف يكون السامري هو الذي أضل بني إسرائيل بالعجل مع أن السامري نسبة إلى سامرة - والسامرة بلد من فلسطين لم توجد في زمن موسى! وإنما اشتراها «عمري» وهو الرابع من ملوك إسرائيل بعد أن انشقت مملكة اليهود إلى قسمين: قسم هو سبط يهوذا ومقره أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان وكان أول ملوك إسرائيل «يربعام بن ناباط» ورابعهم «عمري» اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر مملكة إسرائيل. وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة؟ والجواب على ذلك أن السامري ليس منسوباً إلى «سامرة» بل إلى «شامر» بالشين في اللغة العبرية.

ويغلب أن تكون «الشين» في العبرية «سيناً» في العربية فهو سامر - كما ينطقها أيضاً سبط أفرايم بن يوسف وقد كان رجال سبط يهوذا في بعض الحروب يمتحنون الرجل ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو أفرايمي؟ بأن يأمره بأن ينطق «شبولت» - سنبلة - فإذا قال «سبولت» علم أنه أفرايمي ومعنى شامر أو سامر كما هو النطق العربي والأفرايمي «حارس» فالسامري نسبة إلى سامر ونطقها في العبرية «شومير» من مادة: شمر؛ أي حرس.

راجعوا الآية ٩ من الإصحاح الرابع من سفر التكوين ونصها: فقال الرب لقايل أين هابيل أخوك فقال لا أعلم (ه شومير أحى انواخي؟) وترجمتها «أحارس أنا لأخي؟».

وقد كان مصير العجل الذي عبده بنو إسرائيل أن أحرق وذري في الماء. أما قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَبَدَّثُهَا﴾ [طه: ٩٦] فمعناها

= وما أشبه قول حضراتهم هنا بما كان يقوله أعضاء محكمة التفتيش البابوية لمن فهم من الإنجيل معنى من المعاني: إن هذا المعنى لم تأمر به الكنيسة ولم تفهمه؟ فهل يريد التاريخ أن يعيد نفسه؟ يا قوم إن الحجر على العقول أن تعقل، وعلى الأفهام أن تفهم، وعلى المدارك أن تدرك؛ ليس من أحكام الإسلام الذي خاطب العقول ورفع قدرها وأمر الناس بالرجوع إليها فيما هو من اختصاصها.

أما ما قاله المفسرون فمختلف، فقاتل أنه صاغ العجل من الحلي ووضع فيه تراباً من أثر حافر فرس جبريل، وقاتل أنه صاغه ودبره بطريقة تجعل له خواراً إذا استدبرته الريح. وقاتل أنه بعد أن صاغه من الحلي استحال جسداً لحمياً ودماً. فأي هذه الأقوال يرضي حضراتهم؟

فإذا قالوا: إن هذه الأقوال كلها ترضيهم لأن المفسرين قالوا بها؟ قلت لهم: محال أن تكون كلها صحيحة بل كل منها محتمل لأن يكون صحيحاً.

(بما تقدم كله) يتبين القاريء أن المحمل الذي أوردته سائغ، وكلام الله تعالى يحتمله، وأنه لا بعد فيه. وهو ما غزوته من إيراده، وأنا لا أنكر أن أقوال المفسرين التي أوردتها كل منها محتمل أيضاً. والوجه الذي أوردته أكثر مناسبة لقوله تعالى حكاية عن موسى ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرِّقَهُ ثُمَّ لَتَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] إذ الذهب لا يحترق ولا ينسف.

على ما اخترت: إنه قبض قبضة من أثر الرسول؛ أي تعليمه وأحكام التوحيد التي جاء بها الرسول - وهو موسى - فنبتتها؛ أي ألقيتها وأهملتها وكذلك سولت لي نفسي.

كان عقاب السامري في الدنيا عقاباً بديناً، وهو أن يتألم من مس أي إنسان له؛ فكان إذا لقي إنساناً وخشي أن يمسه يقول له «لا مساس» وأما في الآخرة فإن الله حسبه بما صنع.

وأما الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل فكان جزاؤهم أن الله لا يقبل توبتهم حتى يقتل بعضهم بعضاً وستأتي كيفية ذلك فيما نقصه من التوراة.

ويقول أهل الكتاب: إن الذي صنع العجل لبني إسرائيل هو هارون أخو موسى: حاشاه أن يكفر بعد الإيمان وهو نبي معصوم عن ذلك. ولكن هذا دأبهم مع أنبياء الله ينسبون إليهم النقائص وما ينزه نفسه عنه أحط الناس قدراً ويلصقون ذلك بهم. اقرأوا هذه الآيات:

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ قَاتِلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾.

ومنها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٩٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَأُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩٧﴾.

سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ١٥٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٥٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١٥٩﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ جَزَى الْمُفْتَرِينَ ١٦١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رَجِمٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَشْحِيحِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٧﴾ .

سورة طه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٦﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَنْرَى وَصَعِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٧﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٨﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٩﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٩٠﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٩١﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩٤﴾ قَالَ يَهْزُونُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْنَهُمْ ضُلُّوا ﴿٩٥﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفْعَصَيْتُمْ أَمْرِي ﴿٩٦﴾ قَالَ يَبْتَغُونَ لِي تَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٧﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِيُّ ﴿٩٨﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٩﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٠١﴾ .

(١) ذكرت التوراة هذا الموقف من مواقف موسى «من أول الإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج» فذكرت أن بني إسرائيل جاءوا أمام الجبل «حوريب» وأن موسى صعد إلى الله في الجبل فأوحى إليه كلاما يبلغه بني إسرائيل وهو أن الله سيخذهم شعبا مقدسا ومملكة له إن أطاعوا وصاياهم. فقبلوا ذلك ووعدوا إن يفعلوا كل ما يأمرهم الله به. ثم أمره الله أن يقول لبني إسرائيل أن يتطهروا لأن الله سيراى لهم. وفي اليوم الثالث صارت رعود وبروق على الجبل. وكان موسى يتكلم والله يجيبه. ثم دعاه الله إلى الجبل فأوصاه وأمره ونهاه، ووضع لبني إسرائيل شرائع، وشعب بني إسرائيل ارتعد وقالوا لموسى كلمنا أنت ولا يكلمنا الله لثلاث نموت، فوضع له الشرائع المذكورة في الإصحاحات ٢١، ٢٢، ٢٣ - خروج. وفي الإصحاح ٢٤ أمر الله موسى أن يصعد الجبل هو وناداب وأبيهود وسبعون شيخا من شيوخ إسرائيل، وأن يسجدوا لله من بعيد ولا يقترب من الرب سوى موسى، فعدوا وراوا الله (تعالى عما يقولون) وتحت رجليه شبه حجر من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة.

ثم دعا الله موسى إلى أعلى الجبل وأمر القوم بالبقاء إلى أن يرجع، ومعهم هارون ليقيم لهم القضاء. وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة، فأوحى الله إليه ما أوحى من الشرائع وأعطاه الألواح =

أمر الله بني إسرائيل على لسان موسى بدخول الأرض المقدسة

عصيانهم موسى - تحريم الله الأرض عليهم - إياهم في البرية
أربعين سنة.

قرب بنو إسرائيل من أرض الموعد وهي فلسطين: التي وعد الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تكون ملكاً لأولادهم، وأن يطردوا من أمامهم الأمم التي يسكنونها، في ذلك الوقت - وأمر الله تعالى موسى أن يذهب ببني إسرائيل إلى تلك الأرض لامتلاكها، ولكن بني إسرائيل قوم قد ثقفوا بالذلة وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم. وألفوا الذل في

= فيها الشريعة مكتوبة بأصبع الله؛ وهي ألواح من حجر مسواة. وقال الله لموسى: انزل فقد فسد الشعب وزاغوا عن الطريق، وأردا الله أن يبطش بهم، فتضرع إليه موسى ليصفح عنهم. ولما اقترب موسى من المحلة أبصر العجل والرقص، فغضب موسى ورمى اللوحين من يده فكسرهما في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل فأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل.

ولام موسى هارون فاعتذر بأن الشعب شرير، وقد قالوا له: اصنع لنا إلها يسير أمامنا فإن موسى لا ندري ما أصابه، وأن هارون طلب منهم الذهب فطرحوه في النار فخرج هذا العجل. ولما رأى موسى ذلك، طلب من كان للرب أن يأتي فأثاه «بنو لاوى» فأمرهم أن يضعوا سيوفهم على أفخاذهم.

وأن يمرؤا بالمحلة من باب إلى باب، ويقتل كل رجل أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ففعلوا. وقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل. ثم صعد موسى إلى الجبل وطلب من الله غفران خطيئة الشعب؛ فإذا لم يفعل، يمحو موسى من كتابه. فأجابته: الذي أخطأ أمحوه من كتابي. وأمره أن يذهب بالشعب إلى الأرض التي وعدهم أن تكون لهم ميراثاً، وأنه سيطرده من أمامه تلك الأمم الساكنة في الأرض، وأن الله لا يكون معهم. فرجاء موسى أن يكون معهم لتمييزوا عن سائر الأمم. وتذكر أيضاً: أن الله أرى موسى مجده على الجبل وأخفاه في نفرة من الأرض لئلا يهلك وسجد موسى لله عند اجتيازها، وطلب إليه أن يسير في وسطهم، فأوحى الله إليه بأمر وشراعت ومكث عند الله أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء. فكتب الله على لوحين الكلمات العشر «يراجع سفر الخروج من الإصحاح التاسع إلى الإصحاح ٣٤».

ولا يخفى أنها تخالف القرآن في كثير من المضامين ولم تذكر جواب بني إسرائيل إذ أمروا بالدخول إلى الأرض التي وعدوا بامتلاكها؟ ولأي شيء بقوا أربعين سنة؟ مع أن هذه الحوادث ابتدأت من الشهر الثالث لخروجهم. وسيأتي ما يدل على امتناعهم في أول سفر الشنية.

والذي يظهر من عبارة سفر الخروج: أن ذهاب الشيوخ السبعين كان قبل عبادة العجل. وأما القرآن فإنه يذكر أنه ذهب لتلقي الألواح قبل عبادتهم العجل، وذهب مع الشيوخ السبعين بعد ذلك وهذا هو المعقول.

أرض الفراعنة فلم تكن لهم قوة على الدخول إلى تلك الأرض، وتمثل لهم شبح الموت في كل خطوة في ذلك السبيل فلم يشاءوا أن يذهبوا لأمر ربهم. وقالوا يا موسى ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُكُمَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

كان موسى قبل أن يطلب إلى بني إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبله رواداً يتجسسون الأرض وحال أهلها. ويقول المفسرون: إنهم كانوا إثني عشر رجلاً، فرأوا من جسامه أجسام أولئك القوم ما هالهم! فلما عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فضعفت قلوبهم وتراءى لهم شبح الهلاك في القدوم على هذه البلاد! فلما أمرهم موسى بالعبور أبوا. وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبني إسرائيل: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه غلبتم على المدينة (أريحاء) فأبوا وقالوا لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وأبوا عليه كل الإباء.

شكا موسى أمر بني إسرائيل معه إلى الله قائلاً ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ﴾ [المائدة: ٢٥] - الحكم - ﴿يَبْنِئْنَا وَبَنَيْتَ آلْفَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]. فأخبره الله تعالى بأنها - (أي الأرض) - محرمة عليهم وأنهم سيستهيئون في الأرض أربعين سنة. فكان بقاء بني إسرائيل في البرية - من عهد خروجهم من مصر إلى أن مات موسى، وعبروا نهر الأردن، وملكوا أريحاء وما معها من الأرضين غرب الأردن - أربعين سنة.

والسر في ذلك كما أوضحه ابن خلدون: أن نفس بني إسرائيل كانت صغيرة ضئيلة لأنهم رثموا الذل والهوان في ملك المصريين! ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال! ولذلك ذابت قلوبهم في صدورهم وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين.

والعلماء يقررون: إن حضارة العلم خمس عشرة سنة؛ فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة. وأما حضارة الأخلاق فمدتها أربعون سنة؛ فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة. لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بني إسرائيل في البرية أربعين سنة، حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية. وهكذا كان حال بني إسرائيل. فإن الجيل الذي ولد في الذل وكبر حتى مرن عليه هلك في البرية. وجاء الجيل الذي كان صغيراً أيام عبوديتهم في مصر، والذي نشأ أو ولد في البرية في الحرية والعزة، فلم يبال بأولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتى موسى فملكها.

وهنا لطيفة أريد التنبيه عليها: وهي أن يوقف عند قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾

[المائدة: ٢٦] ويبتدأ بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] لأنها حرمت عليهم تحريماً أبدياً لا تحريماً مقيداً بأربعين سنة. وذلك أن الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى وقالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] ماتوا في البرية أثناء السنين الأربعين، ولم يدخل أحد منهم إلى أرض الموعد فكانت محرمة عليهم بإطلاق.

اقرأوا هذه الآيات: -

سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَفْئَادِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعُودُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

هذا الموقف من مواقف موسى مع بني إسرائيل لم يذكر في سفر الخروج. وكل ما ذكر إنما هو مواقف عنيفة بين موسى وقومه، ووصفهم بصلابة الأعناق والتمرد وأن الله عوقبهم في البرية أربعين سنة، ولم يشأ موسى ولا هارون أن يعبر أحد منهما إلى تلك الأرض، فمات هارون قبل موسى ودفن في جبل هور من جبال سيناء التي في البرية. وأما موسى فأمره الله أن يصعد إلى جبل «نَبُو» وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها. ففعل ومات على الفسحة أي الأكمة التي هي من رمل أحمر ودفن هناك وخفيت معالم قبره.

وأهل فلسطين يدعون أن قبره في موضع من بلادهم ويطعمون له مولداً يقصد من كل ناحية في كل سنة في موعد معين.

وقد ذكر هذا الموقف «في الإصحاح ١٤ سفر العدد» وذكر أيضاً على سبيل الحكاية والتذكير «في سفر التثنية» - أثناء تعداد موسى أعمال بني إسرائيل وعصيانهم عليه ومخالفتهم لأمر الله تعالى ما نقل بعضه «من الإصحاح الأول - تثنية»^(١).

(١) - (٦) الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلا «كفاكم قعوداً في هذا الجبل» (٧) تحولوا وارتحلوا وادخلوا =

نتق الجبل فوق بني إسرائيل

ذكر الله تعالى في سورتي البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلة وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك. وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تدمير أو توقف، وأن يحافظوا عليها أشد محافظة بجد وعزم قوي على تحمل مشاق ما أوتوه.

وأن يذكروا ما فيه بالعمل به. وألا يتركوه كالمنسي، فإنهم إذا فعلوا ذلك كان مرجواً لهم أن يكونوا ممن اتقى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. ثم لم يكن منهم إلا الإعراض عن الميثاق بعد أخذه. لولا فضل الله عليهم ورحمته بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الخاسرين المغبونين بالمعاصي والتخبط في الضلال.

وهكذا قال المفسرون، ونحو هذا النحو. وشايعهم أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده لأنه لم ير موجباً للعدول عن ظاهر القرآن إلى تأويله؛ إذ لم يصرف عنه صارف والمسألة من الممكنات العقلية وقد خلت الآية من قرينة صارفة عن الظاهر إلى تأويله.

وقد أورد السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن هذا المعنى اعترض عليه بأنه إكراه على الإيمان والرجاء إليه وذلك ينافي التكليف. قال أجيب عنه بأجوبة منها أن ما يفعل بالإكراه يعود اختيارياً بعد زوال ما به الإكراه. ومنها أن مثل هذا الإلجاء كان جائزاً في الأمم السابقة. ويزيد من قال هذا أن نفي الإكراه في الدين خاص بالإسلام لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

= جبل الأموريين وكل ما يليه من قرية والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات (٨) أنظروا قد جعلت أمامكم الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم.

(٢٠) فقلت لكم قد جئتم إلى جبل الأموريين الذي أعطانا الرب إلهنا (٢١) أنظر قد جعل الرب إلهكم الأرض أمامكم أصعد تملك كما ملك الرب إله آبائك لا تخف ولا ترتعب.

(٣٤) وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلاً (٣٥) لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجبل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائهم (٣٦) ما عدا كالب بن يفتة هو يراها وله أعطى الأرض التي وطنها ولبنيه لأنه أتبع الرب تماماً (٣٧) وعليّ أيضاً غضب الرب بسببكم قائلاً وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك (٣٨) يوشع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك. شدة لأنه هو يقسمها لإسرائيل (٣٩) وأما أطفالكم الذين قلتهم يكونون غنيمة. وبنوكم الذين لم يعرفوا اليوم الخير والشر فهم يدخلون إلى هناك.

قال الأستاذ الإمام: لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح. فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات. وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم. فقد قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

والتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض. ونتق الشيء ينتقه من بابي ضرب ونصر نتقاً جذبه واقتلعه. وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالتق وهو في الأصل بمعنى الزعزعة والنفض.

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان. وعاهدوا موسى عليه، فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوي الإيمان وتحرك الشعور والوجدان؛ ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١] أي بالمحافظة عليه والعمل به. فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها. أي أن نتق الجبل فوقهم لم يكن الغرض منه الإكراه على الإيمان، وإنما كان للعمل بما أوتوه من الشريعة والمحافظة عليه بعد أن أقروا بالإيمان.

ثم ذكرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدات الآيات. وقد حال دون إدراجهم في سلك الخاسرين ما أدركهم من فضل الله عليهم ورحمته بهم. وقد قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار أيضاً: شايع الأستاذ الإمام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية. أي أنه انتزاع من الأرض وصار معلقاً فوقهم في الهواء. وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وإن لم تكن ألفاظها نصاً فيه؛ إذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشيء - أو أن يكون الشيء - رفيعاً عالياً كما قال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣] وقال ﴿وَفُورٍشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهي على الأرض. وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] ليس نصاً أيضاً في كون الجبل رفع في الهواء.

وأصل النتق في اللغة الزعزعة والزلزلة - كما سبق - قال في حقيقة الأساس: نتق البعير الرحل زعره ومنتقت الزبد أخرجته بالمخض ومنتق الله الجبل رفعه مزعرعاً فوقهم والظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل.

فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقاً أي مرتفعاً مزعرعاً فظنوا أن سيقع

بهم وينقض عليهم. ويجوز أن ذلك كان أثر زلزال تزعزع له الجبل. ثم قال: وإذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن اهـ.

أقول قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال، ورأوه بأعينهم وهم في أسفل الجبل كأنه ظلة وخافوا وقوعه بهم، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة^(١).

(١) الموضوع الثالث «نتق الجبل فوق بني إسرائيل».

قال في صفحة ٢٢٦ سطر ٢١ ما نصه:

وقد قال السيد رشيد في تفسير المنار أيضا: شايع الأستاذ الإمام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية؛ أي أنه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم في الهواء. وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وإن لم تكن ألفاظها نصا فيه. إذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشيء - أو أن يكون الشيء - رفعا عاليا كما قال تعالى ﴿فِيهَا سُرُّ مَرْوَعَةٍ﴾ [الغاشية: ١٣] وقال ﴿وَفُوشٍ مَّرْوَعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهي على الأرض وقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ نُنَقِّ الْجَبَلَ قَوْفَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] ليس نصا أيضا في كون الجبل رفع في الهواء. فأصل الشق في اللغة: الزعزعة والزلزلة؛ كما سبق وقال في حقيقة الأساس: نتق البعير الرحل؛ زعزعه. ونتقت الزبد؛ أخرجته بالمخض. ونتق الله الجبل رفعه مزعزا فوقهم. والظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل. فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا؛ أي مرتفعا مزعزا فظنوا أنه سيقع بهم وينقض عليهم. ويجوز أن يكون ذلك في أثر زلزال تزعزع له الجبل. ثم قال: وإذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن. اهـ «أي رشيد» أقول: قد يكون جزء عظيم من الجبل قد اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ورأوه بأعينهم وهم في أسفل الجبل كأنه ظلة، وخافوا وقوعه بهم وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة. هذا نص كلامه بالحرف.

ثم بعد ذكره الآيات القرآنية الواردة في رفع الجبل قال ما نصه بالحرف:

أما التوراة فلم يذكر فيها أن الله نتق الجبل فوق بني إسرائيل، وإنما ذكر فيها وجود رعود وبروق وارتجاف في الجبل وبني إسرائيل أمامه حتى خافوا جدا.

«في الإصحاح ١٩ - خروج» (١٥) فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة (١٦) وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة (١٧) وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا في أسفل الجبل (١٨) وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الآتون وارتجف كل الجبل جدا (١٩) فكان صوت البوق يزداد اشتدادا موسى يتكلم والله يجيب بصوت وفي إصحاح ٢٠ - خروج» (١٨) وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد (١٩) وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. اهـ.

رأي اللجنة

لم يسع السيد رشيداً ومؤلف هذا الكتاب ما وسع الأستاذ الإمام في موافقة جميع المفسرين على أن رفع الطرر آية كونية؛ أي أنه انتزع من الأرض وصار معلقاً فوقهم في الهواء. مع اعتراف الأول بأنه المتبادر من الآيتين بمعونة السياق؛ بل أبدى احتمالاً مخترعاً في الآيتين أخرجهما عن إفادة تلك الآية الكونية بحجة أن ألفاظهما ليست نصاً فيما أجمع عليه المفسرون وتبعهم عليه الأستاذ الإمام.

وهل الحامل لهما رد القرآن الكريم إلى ما جاء في التوراة وهو الذي نقله مؤلف هذا الكتاب ونقلناه عنه في عبارته السابقة؟ فإن كان هذا هو الحامل يقف الذهن في إدراك السر في ذلك.

ونحن نرى أن هذا الاحتمال فاسد لا يمكن تطبيق الآيتين الكريميتين عليه بأي وجه من الوجوه وذلك أن الله تعالى يقول في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَيْلٍ فَوْقَهُمْ كَانَتْ ظُلَّةٌ وَطَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] وفي سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣].

والنتق قال في لسان العرب: الزعزعة، والهز، والجذب، والنفض. ونتق الشيء ينتقه وينتقه - بالضم - جذبه واقتلعه. وفي التنزيل ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَيْلٍ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] أي زعزعناه ورفعناه اهـ.

وفي الأساس: ونتق الله الجبل رفعه مززعجاً فوقهم اهـ.

وذكر المفسرون: أن ابن عباس فسره بالرفع قالوا وهو أرجح ليتوافق مع الآية الأخرى وهي ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣] والرفع كما في كتب اللغة: ضد الخفض. وبعد أن بين أنه يكون في الأجسام والمعاني قال صاحب المصباح ما نصه بالحرف «فالرفع في الأجسام حقيقة في الحركة والانتقال، وفي المعاني محمول على ما يقتضيه المقام» اهـ. ومعنى الفوقية واضح، وبيان الجهات الست لا يخفى على كل من قرأ الأجرومية وشرحها.

وعلى ذلك يتعين أن يكون معنى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣] أننا حركناه ونقلناه وجعلناه فوقكم: ولا يعقل أن يكون فوقهم أي في الجهة المعروفة من غير أن يكون معلقاً في الهواء.

وهل يتصور أن يكون معنى «رفعا» جعلناه مرتفعاً عالياً وهو بجانبهم وهم بجانبه عن يمينهم أو شمالهم أو أمامهم أو وراءهم ويصدق مع ذلك أنه فوقهم.

إن تصور ذلك فلم قلت يا سيدي رشيد «والظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو بجانبك»؟

ولم هذا التعميم إن كان ما بالجانب يصدق على أنه فوق؟

تحن نعتقد أنه غفل عن قوله تعالى ﴿فَوْقَهُمْ﴾ وقد ذكرت الفوقية في الآيتين معاً. هذا ثم يقال له: هل الزلزال الذي جعل الجبل مرتفعاً عالياً مززعجاً أثره، حصل اتفاقاً - أي بالأسباب العادية كبركان في داخله كما يحصل في هذه الأزمان - أو أن الله أجراه من غير تلك الأسباب؟ وهل الغالب في الزلزال ذلك الجبال أو رفعها وجعلها عالية مرتفعة؟ وهل مثل هذه الحالة يعبر عنها بمثل هذا التركيب في الآيتين الكريميتين.

ويقال لمؤلف هذا الكتاب بخصوصه: الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣] وقال ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَيْلٍ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] ولم يقل ارتفع جزء من الجبل أثناء رجفة أو زلزال. ويقال له إن الذي نقلته عن التوراة ويجوز أنك نقلته - استئناساً لرأيك في فهم القرآن - إن صح، يجوز أن يكون إشارة إلى موقف آخر من مواقف بني إسرائيل؛ كموقفهم حينما قالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَاخْذَثْكُمْ السُّعْفَةَ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] أو كموقفهم حينما اختار موسى =

منهم جماعة للميقات وحكاه الله تعالى في سورة الأعراف بقوله ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: ١٥٥] الخ الآيات.

وهذا على القول بأنهما موقفان مختلفان لبني إسرائيل، وفي ذلك خلاف بين المفسرين. وحيث ظهر فساد هذا التأويل، وأن القرآن الكريم نص في إفادة الرفع المخصوص - كما قرره جميع المفسرين - كان القول بعدمه تكذيباً للقرآن والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

(الموضوع الثالث)

«نق الجبل فوق بني إسرائيل»

كتب حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة ما هو مسطور قبل هذا. وبه ينكرون عليّ الاحتمال الذي طرقت في رفع الطور فوق بني إسرائيل، وينكرون أيضاً على السيد رشيد رضا الاحتمال الذي أورده في ذلك.

والناظر إلى ما كتبت اللجنة يرى أن ما أطلالوا به في هذا الباب لا يساوي المداد الذي بعثته على صفحات تلك الأوراق.

والذي ينظر كتابي يراني قد أوردت ما أورده جمهور المفسرين وهو الذي يفهم من ظاهر القرآن أول وهلة. وقد جرى عليه أستاذنا الإمام وقد أيدته وعززته ولم أشر إلى أي مخالفة له أو اعتراض عليه. ثم أني رأيت السيد رشيداً قد أورد احتمالاً وأحس بما فيه من البعد عن ظاهر الآية فقال «وإذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذباً للقرآن».

وقد نظرت إلى قوله فأحسست ببعده مع اعتقادي بأنه محتمل، فأوردت وجهاً يمكن أن تحمل عليه الآية هو في نظري أقرب من الوجه الذي أورده السيد رشيد، وهو قولي: أقول قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال، ورأوه بأعينهم وهم في أسفل الجبل فوقهم كأنه ظلة وخافوا وقعه بهم، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بما في التوراة. فجاءت اللجنة وقررت أن الاحتمال الذي أورده فاسد ولا يمكن حمل الآيتين عليه وهما قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا فِيهِمُ النَّفْثَ الْأَشَدَّ﴾ [الأعراف: ١٧١] الخ وقوله ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣] وإلى أي حد بلغ ظرف اللجنة في قولهم توبيخاً وتجهيلاً لي «ومعنى الفوقية واضح وبيان الجهات الست لا يخفى على كل من قرأ الأجرومية وشراحها» وفسرت قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٣] بمعنى أننا «حركناه ونقلناه وجعلناه فوقكم» وقالت: ولا يعقل أن يكون فوقهم أي في الجهة المعروفة من غير أن يكون معلقاً في الهواء.

فالخلاف بيني وبين أصحاب الفضيلة - أعضاء اللجنة - أنهم يقولون إن الفوقية لا تكون الا على مسامطة الرأس. وأنا أقول: أن الفوقية تحصل مع عدم المسامطة ودليلي على ذلك قوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] فإن قوله ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ ليس معناه فوقية مسامطة بل من مكان أعلى من مكانكم. قال في تاج العروس «ص ٥٢ ج ٧» وقوله تعالى ﴿إِذْ

جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴿[الأحزاب: ١٠]﴾ عنى الأحزاب وهم قريش وغطفان وبنو قريظة وكانت قد جاءتهم من فوقهم، وجاءت قريش وغطفان من ناحية مكة من أسفل منهم اهـ. قال الألوسي «في صفحة ١٣ ج ٧» عند قوله تعالى ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] - ﴿وَمِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من جهة المشرق والإضافة إليهم لأدنى ملابسة والجائي من ذلك بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، والجائي من ذلك قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنو كنانة وأهل تهامة. وقيل الجائي من فوقهم بنو قريظة ومن أسفل قريش وأسد وغطفان وسليم. وقيل غير ذلك.

وأيضاً قال الله تعالى ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِنَّكَ وَمَطْلُوكُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] فعلى فهم حضرات الأفاضل يكون الله تعالى قد وعد عيسى عليه السلام أن يجعل فوق كل كافر ممن كفروا به واحداً من أتباعه - على سمت رأسه - لا ينفك شأن الكفار بعيسى وشأن أتباعه عن ذلك إلى يوم القيامة.

وقال تعالى في سورة يوسف آخر آية ٧٦ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦] فمقتضى طريقتهم في فهم الفوقية أن الله تعالى وضع ﴿عَلَيْهِ﴾ فوق رأس كل ذي علم. وهذا ما لا يسلم به أحد حتى حضرات أصحاب الفضيلة فيما أظن.

قال أصحاب الفضيلة - أعضاء اللجنة- ويقال لمؤلف هذا الكتاب بخصوصه. الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ وقال ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْبُجْبُلَ فَوْقَهُمْ﴾ ولم يقل ارتفع جزء من الجبل أثناء رجفة أو زلزال.

وإني أجيب حضراتهم بأني قرأت من قبل إحدى وخمسين سنة في كتاب اسمه متن السمرقندية في علم البيان عليه حاشية لأحد العلماء أن اللفظ قد يستعمل في غير ما وضع له لعلاقة بينهما ومن تلك العلاقات الكلية والجزئية فيطلق اللفظ ويراد جزء معناه ومثلوا لذلك بقوله تعالى ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي هَآذِهِم﴾ [البقرة: ١٩] أي جزءاً من أصابعهم وهو الأنامل. وأعتقد أن علم البيان لم يتغير ولم يتحول عن وضعه في هذه الحقبة وقد يحمل على المبالغة. قال الألوسي في قوله تعالى ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي هَآذِهِم﴾ وهل هذا من المجاز اللغوي لتسمية الكل باسم جزئه أو للتجاوز في الجعل أو هو من المجاز العقلي بأن ينسب الجعل للأصابع وهو للأنامل؟ فيه خلاف. والمشهور الأول وعليه الجمهور. وابن مالك وجماعة على الأخير .. الخ.

وأرى من الجريمة أن أقول لحضراتهم إنكم لم تقرأوا هذه النصوص في علم البيان ولو طوعت لي نفسي ما صدقني أحد.

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟

وأرى القول بذلك ذنباً غير مغتفر.

ولكني أقول أن حضراتهم - مع علمهم بذلك - لم يريدوا إلا مداعبتي بطريقة بدعية يقول علماء البديع أنها «تجاهل العارف» ولم يكونوا جادين حين قالوا هذا القول أو أنهم أرادوا بذلك اختبار مقدار الذكاء عندي فقط.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا

وجاء في التقرير أيضا: ويقال له - أي لهذا العاجز عبد الوهاب النجار - إن الذي نقلته عن التوراة، ويجوز أنك نقلته استئناساً لرأيك في فهم القرآن .. الخ.

وجوابي على هذا: أن الذي فهمته اللجنة - من أنني استأنست لرأيي في القرآن في هذا الموضع بما نقلته عن التوراة - يحتاج إلى أناس ليسوا من هذا العالم ليفهموا فهمهم، لأنني قلت: من الجائز أن يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع وصار معلقاً في الهواء أمام أعينهم كأنه ظلة! والذي نقلته عن التوراة ليس فيه هذا؛ فكيف أستأنس لقولي أو رأيي بكلام ليس فيه ما قلت؟ ثم أني أقول لحضراتهم: بعيشكم؟ أليس اقتلاع جزء عظيم من الجبل ورفع معلقاً في الهواء - يراه القوم كذلك أمام أعينهم - آية كونية؟ وليس في وسعي إلا أن أقول لهم: يا قومنا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] وأما احتمال أن يكون في موقف آخر من مواقف بني إسرائيل؛ فهذا ما لم أرده ولم يخطر ببالي.

قالت اللجنة - في الرد عليّ - : أن الله لم يقل وإذ نتقنا بعض الجبل - وأنا أقول لهم إن بعض الجبل يطلق عليه جبل مجازاً - كما قدمت - وقد يقف الإنسان فوق جزء صغير من الجبل ويقول قد وقفت على الجبل والواقف على جزء من جبل عرفات يقول قد وقفت على جبل عرفات. وهو لم يقف إلا على موضع قدميه! ولا يمكن أن يكون كاذباً! ويجزئه ذلك في الوقوف. وتقول: دخلت قصر عابدين. وأنت لم تدخل إلا إحدى حجيره! وأقول: قد نص نقد اللجنة لي التشهير بي وإنما نص على ذلك في بعض سطور النقد.

قالت اللجنة: وحيث ظهر فساد هذا التأويل وأن القرآن الكريم نص في إفادة الرفع المخصوص - كما قرره جميع المفسرين كان القول بعدمه تكذيباً للقرآن الكريم.

وأنا أقول: وحيث قد ظهر مما قدمت أن الاحتمال الذي أتيت به سائغ وأن الفوقية لا تنحصر في فوقية المسامحة كما تدعي اللجنة لما قدمت عن تاج العروس وعن الألويسي.

وحيث أن إجماع المفسرين لا يمنع إنساناً أن يفهم كلام الله على وجه غير الذي قرره. وحيث إن الحجر على العقول أن تفهم كلام الله إلا كما فهمه الأقدمون: اكليروسية لا تليق بسماحة الإسلام الذي ما جاء إلا لإطلاق العقول من أسر التقليد للآباء الذي تريد اللجنة قسر العقول والأفهام عليه مع مناقضته لروح الإسلام الذي جاء بوضع الأصار عن الناس والأغلال التي كانت عليهم.

يعلم أن عبارة كتابي لا غبار عليها وأنها لا تحتاج في فهمها إلا إلى أنفس خالية من غرض التأثيم نقية من الأهواء.

وأما نسبة اللجنة إلى أنني أكذب القرآن فأقول لأعضائها: إنكم لتقولون قولاً عظيماً، يعظكم الله إن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين. وأني أكل حسابكم إلى الله يوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا تقبل منها شفاعاً ولا يؤخذ منها عدل. ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه. وأن الذي أغرامكم سيتبرأ منكم ومما جنيتم عليّ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. ويحذركم الله نفسه والله بصير بالعباد ويومئذ يعرض الظالم على يديه قائلاً ﴿يَوَلَّيْتُ لِقَائِي لَوْ أَتَيْتُ فَلَانًا خَلِيفًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ .

سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾^(١).

بنو إسرائيل ومسألة البقرة^(٢)

(أولاً) أريد أن أقدم بين يدي الكلام على بقرة بني إسرائيل: أن المفسرين يذكرون أن

(١) أما التوراة فلم يذكر فيها أن الله فتح الجبل فوق بني إسرائيل. وإنما ذكر فيها وجود رعود وبروق وارتجاف في الجبل. وبنو إسرائيل أمامه حتى خافوا جدا.

في الإصحاح ١٩ - خروج - (١٥) فأنحدر موسى من الجبل إلى الشعب وقدم الشعب وغسلوا ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث. لا تقربوا امرأة (١٦) وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة (١٧) وأخرج موسى الشعب في المحلة لملاقة الله. فوقفوا في أسفل الجبل (١٨) وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الأتون. وارتجف كل الجبل جدا (١٩) وكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا. موسى يتكلم والله يجيبه بصوت.

وفي إصحاح ٢٠ - خروج (١٨) وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد (١٩) وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فسمع ولا يتكلم معنا الله لثلاث نموت.

(٢) الموضوع الثاني «قصة بني إسرائيل والبقرة».

يرى أن ما ذكر في القرآن في شأن ذبح البقرة هما قصتان منفصلتان - سببا وحكما «إحداهما» يتبدى من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] وتنتهي بقوله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] «والثانية» تتبدى من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْنَبْكُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]. وتنتهي بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

فقال في شأن القصة الأولى صفحة ٢٣٣ سطر ٧ ما نصه:

والذي فهمته من القصة الأولى أن بني إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها؛ وهي أن شخصا قد قتل في الحقل وهم لا يدرون من الذي قتله، والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأَي البلاد تلصق بأهله تهمة القتل؟

رفعوا أمرهم إلى موسى فما كان جوابه إلا أن قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] ولما كان الجواب بعيدا - في رأيهم - عن الغرض الذي جاءوا لأجله وقع عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى ﴿أَتَنْجِدُنَا هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٦٧] ولما كان موسى إنسان صدق بعيدا عن الهزء والسخرية بعباد الله قال لهم ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] الذين يهزأون بعباد الله. ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان، ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد أن كادوا لا يفعلون؛ أي أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتل، وأحلفهم عليها بعد ذبحها - أي وهي أمامهم - أنهم ما قتلوا القتل ولا علموا به وأنهم براء على البقرة كما قص ذلك في التوراة. ثم قال هذه اليمين في شريعتهم كيمين القسماء عندنا معشر المسلمين ... الخ.

وذكر قبل ذلك ملخص ما جاء في التوراة في شأن هذه القصة صفحة ٢٣٠ فقال ما نصه:

أما ما جاء في التوراة متعلقاً بأمر ذبح البقرة فيتلخص في: أن بني إسرائيل فرض عليهم أنه إذا قتل قتل في الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتل، ويأتون بعجلة من البقر لم يحرق عليها ولم تجر بالنير، ويأتي شيوخ القرية بها إلى واد دائم السيال لم يحرق فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة - بنو لاوي - ويباركون الله ويغسل جميع شيوخ القرية القريبة من القتل أيديهم على العجلة ويصرخون قائلين «أبدينا لم تسفك هذا الدم وأعينا لم تبصر اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم هذا الدم» اهـ.

ثم ذكر نص التوراة بالحرف في هذا الموضوع من الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية.

ويلاحظ أن نص التوراة لم يشتمل على يمين، فلا ندري من أين هذه اليمين التي ذكرها وشبهها بيمين القسماء في الشريعة الإسلامية؟ اللهم إلا أن يقال إن صراخهم قائلين «أبدينا لم تسفك هذا الدم» الخ يعتبر يميناً عندهم وهو بعيد جداً. ولعله أخذها من وضع أيديهم في الدم يعتبر ذلك يميناً.

وقال في شأن القصة الثانية صفحة ٢٣٤ سطر ٩ ما نصه:

وما القصة الثانية وهي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا نَسْأَلُكَ﴾ [البقرة: ٧٢] الخ فهي في شأن قتل وجد قتيلاً في بيته أو محلة قومه، أو سقط في معركة فيها جماعة وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ولم يتعين قاتله تماماً؛ وكل واحد يتهم سواء بالقتل. وحيث يكون المتهمون محصورين والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى ﴿فَأَذَرْنَاكُمْ فِيهَا﴾ ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتُمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء، ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربوه بجزء من تلك النفس - أي من القتل - بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتل أو برجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء، وإذا كان فاعلاً ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه. ثم قال وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية ... إلى آخر ما قرره من أصول علم النفس. واستشهد بيئتين من الشعر لشاعر عربي وبحادثة امرأة ملطية، وبما أجابه به مدرس التحقيق الجنائي ومعاون بوليس العياط مما لا يعنينا صحته ولا فساده.

وقد استند في هذا الرأي إلى أن كلا الموضوعين اللذين اعتبرهما قصتين مبدوء بقوله تعالى ﴿وَإِذَا﴾ على النسق المطرد الذي لم يتخلف في حكاية القصص المتعلقة ببني إسرائيل؛ فإن كل قصة مبدوء بذلك. وهناك وجه آخر لهذا الرأي يفهم من كلامه؛ وهو أن الآية الثانية تكون مفيدة لقاعدة مهمة وطريقة عامة في استكشاف القاتل الحقيقي لا تخص بني إسرائيل بخلاف ما إذا جعلت قصة واحدة على الرأي المشهور، فإنها تكون فائدة قاصرة على إظهار قاتل واحد في بني إسرائيل.

وذكر حكمة عدم استيفاء القصة الأولى في القرآن بأن الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد ﷺ نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله تعالى، ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به دون استيفاء القصة استيفاء كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة. اهـ.

هذا ما ذكره في إبداء هذا الرأي في تفسير آيات البقرة. وقد رجا العلماء بأن يعيروه اهتماماً وأن يوافوه بما يرونه من الصواب... الخ.

(رأي اللجنة)

والذي نراه أن ما ذهب إليه في تاويل هذه الآيات مخالف لما ثبت بالرواية والأثر، خطأ من جهة الدراية والنظر.

أما الأول فلائنه خالف إجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار في تفسيره. وسنذكر نص عبارته بعد إتمام الرد على هذا الرأي.

وقد نقل ابن جرير الطبري التفسير المشهور لهذه القصة بأسانيد عن أرباب التأويل ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» أن قصة البقرة أوردها آدم بن إياس في تفسيره. قال: حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل غنيا ولم يكن له ولد، وكان له قريب وارث فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق. وأتى موسى فقال إن قريبي قتل وأتى إلي أمر عظيم. وإني لا أجد أحداً يبين لي قاتله غيرك يا نبي الله، فنادى موسى في الناس من كان عنده علم من هذا فليبينه؟ فلم يكن عندهم علم فأوحى الله إليه قل لهم فليذبحوا بقرة. فعجبوا وقالوا كيف نطلب معرفة من قتل هذا القاتل فنؤمر بذبح بقرة؟ وكان ما قصه الله تعالى ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ [البقرة: ٦٨] يعني لا هرمة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي نصف بين البكر والهرمة ﴿قَالُوا آتِنَا رَيْكَ يَبِينُ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] أي صاف ﴿كُسِّرُ النَّظِيرِ﴾ [البقرة: ٦٩] أي تعجبهم ﴿قَالُوا آتِنَا رَيْكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٧٠] الآية ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧١] أي بذلها العمل ﴿يُضِرُّ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] يعني ليست بذلول فتثير الأرض ﴿وَلَا تَنفِقُ اللَّوْثَ﴾ يقول ولا تعمل في الحرث ﴿سَلْمَةً﴾ أي من العيوب ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي لا بياض ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ قال: ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة اشتروا أي بقرة كانت؛ لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا فشدد عليهم ولولا أنهم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون لما اهتمدوا إليها أبداً فبلغنا أنهم لم يجدوها إلا عند عجوز فأغلث عليهم في الثمن، فقال لهم موسى أنتم شددتم على أنفسكم فأعطوها ما سألت. فذبحوها وأخذوا عظماً منها ففرضوا القاتل فعاش فسمى لهم قاتله ثم مات مكانه. فأخذ قاتله - وهو قريبه الذي كان يريد أن يرثه - فقتله على سوء عمله.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وأخرج ابن جرير هذه القصة مطولة من طريق العوفي عن ابن عباس، ومن طريق السدي كذلك. وأخرجها هو وابن أبي حاتم وعبد بن حميد بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين عن عبيدة بن عمرو السلماني أحد كبار التابعين.

وأما الثاني وهو الخطأ من جهة الدراية والنظر فمن وجوه:

(الأول) أنه على هذا الفهم لا يكون للمذكور من القصة الأولى في القرآن الكريم معنى محصل: إذ يتلخص معنى ما ذكر في أن موسى عليه الصلاة والسلام قال لقومه: إن الله يأمركم بذبح بقرة. وبعد استغرابهم لهذا الأمر طلبوا منه أن يدعو ربه ليبين هذه البقرة - المرة بعد المرة - وبعد بيانها امتثلوا وذبحوها بعد جهد شديد.

هذا ملخص ما ذكر من القصة الأولى، ولم يبين سبب الذبح ولا فائدته.

والإجابة عن ذلك بأن الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله ﷺ أنموذجاً من تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله تعالى، ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به دون استيفاء القصة - لا تقنع؛ لأن فائدة القصص إما الاعتبار وإما تقرير الخلف. ولا شك أن إظهار التعنت إنما يغير الاعتبار ويحصل به التقرير إذا كان في أمر معقول يتضح منه أنه لا مبرر لهم في هذا التعنت ولا وجه لهم في التباطؤ في الامتثال، بخلاف إظهار تعنتهم في أمر لم يظهر سببه ولم يتبين فائدته، فإنه لا يثير اعتباراً ولا يحصل به تقرير، بل ربما أبدت الطبيعة البشرية لهم بعض العذر على هذا التباطؤ.

على أنه لو ذكرت القصة بتمامها على ما فهمه أخذاً من التوراة لم يفهم السامع منها في ذبح البقرة سبباً معقولاً لإظهار براءة القاتل، لا خارقاً للعادة ولا معتاداً اللهم إلا أن يكون ذلك السبب هو ما اشتملت عليه من اليمين على تسليم أنها اشتملت على يمين.

ثم ما علاقة هذه اليمين بذبح البقرة وغسل الأيدي عليها؟ لا نفهم لذلك علاقة سوى أنه يرجع لعبادة العجل وتعظيمهم له! نعوذ بالله من ذلك.

(الوجه الثاني) أنه لا يظهر في هذه القصة ما يقنع بعدم وجود الهزء والسخرية إلا مجرد صدور الطلب والقول من موسى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى، من غير أن يظهر لهم فائدة هذا الأمر الغريب في العادة، خصوصاً بالنسبة لبني إسرائيل الذين اشتهروا بالعناد والتعنت وعدم الانقياد مع ظهور الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات.

(الوجه الثالث) أين مرجع الضمير على هذا الرأي في قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصَاكَ﴾ [البقرة: ١٧٣].

فإن قالوا: يرجع إلى المتهم؟ قلنا: فأين موضوع ذكره في الآيات؟ فإن قالوا يفهم من قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قلنا كان الظاهر أن يقال: اضربوا أنفسكم، فإن قالوا: يعلم من المقام؟ قلنا: هذه قصة جديدة على هذا الرأي مقامها يبتدىء من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَهُمْ﴾ فلا بد أن يكون مأخذ مرجع الضمير هو قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَهُمْ﴾ الآية، ثم أنه يؤخذ من القصة أن المتهم متعدد، فكان الظاهر أن يقال: اضربوهما أو اضربوهم. ولا يغني عن هذا إرادة الجنس - أي جنس المتهم - إذ المعنى عليه اضربوا جنس المتهم المتحقق في أشخاص عدة، وهو تكلف بل تعسف، ولا يقع نظيره في الكلام المعتاد فضلاً عن فصيح الكلام - البالغ حد الإعجاز في البلاغة والفصاحة - ألا ترى أنه إذا قيل: حكمت المحكمة بسجن المتهم مدة كذا أو بإعدامه، لا يفهم جميع من يسمع ذلك إلا أن المتهم المحكوم عليه شخص واحد لا أشخاص عدة، وإذا كان الأمر كذلك لا يجوز مخالفة جميع أئمة التفسير - ومنهم صحابة أجلاء لمثل هذا التعسف من التأويل.

ثم يقال: على تسليم هذا النوع من التأويل جداً لم يبين في الآية الكريمة ما يترتب على ضرب المتهم ببعض القتل من حصول الاضطراب والردة، ولم يبين فيها أيضاً أن تلك الرعدة إنما توجد من القاتل دون غيره، وحينئذ يميز عن باقي المتهمين. ومن الواضح جداً أن ذلك هو الأجدر بالبيان والأحق بالإرشاد إليه؛ لأن فائدة الضرب هي الدقيقة التي عليها مدار هذه الطريقة في استكشاف القاتل. فإن قالوا: إن المخاطبين يعلمونها؟ قلنا: لا يتصور أن يعلموها ويجهلوا ما يوصل إليها من الضرب أو عرض المتهم على القتل! نعم لو كان ما يترتب على الضرب هو إقرار المتهم بالجريمة لا =

= يحتاج الأمر إلى البيان. وفوق هذا فقد دلت الآثار الصحيحة التي نقلنا بعضها سابقا عن أئمة المسلمين من الصحابة وغيرهم على خلاف هذا التأويل. فمن أين جاء له هذا الرأي الذي لم يساعده الأسلوب ولم يؤيده المنقول؟ بل ينافيه وتمجه العقول.

(الوجه الرابع) قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْتَفِكِينَ﴾ [البقرة: ٧٣] على نحو قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] يحتاج إلى التجوز في قوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ﴾ بأن يراد يديم الحياة وفي قوله تعالى ﴿الْمُؤْتَفِكِينَ﴾ بأن يراد من هم في معرض أن يموتوا لولا هذا الضرب من استكشاف القاتل الحقيقي. وهذا التجوز بعيد من وجهين (الأول) لم يعد في القرآن الكريم على ما نعلم التجوز بلفظ ﴿الْمُؤْتَفِكِينَ﴾ عن هذا المعنى وأن عهد التجوز بلفظ «الحياة» (الثاني) عدم وجود قرائن لهذه المجازات بخلاف قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ فإن القرينة واضحة.

فإن قالوا إن صح ما فهمنا من الآيات كانت القرائن واضحة على هذا التجوز مأخوذة من المقام؛ إذ لا يوجد ميت حقيقي أحياء الله حتى تحمل هذه الألفاظ على الحقيقة.

قلنا هذا الفهم في معرض النزاع فلا يقبل دليلا.

وعلى تسليم أن هنا قرائن تؤخذ من المقام - بناء على هذا الفهم - فهل عهد في اللغة العربية التعبير بمثل هذه العبارة في مثل هذا المقام؟ وبعد ذلك يقف الذهن في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ﴾ فإننا إن أرجعنا اسم الإشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل وتكون تلك الحادثة هي المشبه بها، والمشبه غيرها من الحوادث أمثالها، توقفت صحة هذا الكلام على أن تلك الحادثة تبرأ فيها أناس أدام الله حياتهم بعد أن كانوا في مظنة أن يموتوا. أما إذا فرضنا أن جميع المتهمين في تلك الحادثة حصلت لهم رعدة واضطراب فثبت أنهم قاتلون، فلا مرجع لإسم الإشارة، ولا يقال أن الحياة وقعت لغير المتهمين بالاعتبار على هذا الاحتمال - فلا يقدمون على القتل لأنه وإن ساغ إطلاق الحياة عليهم بهذا لا يسوغ إطلاق الموت عليهم؛ لأنهم ليسوا بمعرض أن يموتوا.

وعلى تسليم الإطلاق! يكون المقصود من هذه الجملة هو براءة المتهم غير القاتل دون إظهار القاتل الحقيقي المقصود من القصة. وأين هذه التعسفات من المعنى المشهور للآية ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيي الله الموتى يوم القيامة بالبعث، فيكون إثباتاً للبعث الذي كثر منكره بالمشاهدة لمن حضر تلك الحادثة.

ثم إنه لم يتعرض لتفسير قوله تعالى ﴿وَرُئِيَ كَمُتِّعْتُمُ الْقُلُوبَ لَعَلَّكُمْ تُعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] على هذا الرأي. والمعروف في تفسير الآيات في مثل هذا الموضع إنها الدلائل الدالة على عظيم قدرته تعالى، وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة، والتي ليست من مقدور البشر لإحياء الموتى، فهل إرشادهم إلى هذه الطريقة التي تفتن لها مدرس الجنائي وملاحظ بوليس العياط تعتبر من الآيات التي أراهم الله إياها؟

(الوجه الخامس) هل الاضطراب الذي يحصل للمتهم بالقتل - إذا عرض على القتل أو ضرب ببعضه - يجب به قصاص في الشريعة الموسوية؟ أو في الشريعة الإسلامية؟ أو بحسب القوانين الوضعية حتى يترتب عليها إحياء الله الموتى؟ لا يستطيع أحد أن يدعي ذلك في الشريعة الموسوية، وهو قد صرح بأن هذا الضرب لم يعرف عند أهل الكتاب، فإنه مما ذكروا به ونسوه. ولا يستطيع أحد أن يدعي ذلك في الشريعة الإسلامية؛ فإن مثل هذا لا يعتبر من موجبات القصاص في الشريعة =

= الإسلامية، ولا نظن مثل ذلك يعتبر لوثا - أي قرينة - يسوغ بمقتضاها دعوى الدم؛ فيكلف المدعي يمين القسم المعروفة في علم الفقه! وكيف يعتبر لوثا مع أن هذه الرعدة والاضطراب قد تحصل للبريء بمجرد اتهامه بالقتل لأنه لم يتعود العرض على الأحكام، أو لأنه شريف كبير في قومه، أو لأنه ضعيف القلب أو غير ذلك من الأسباب. وهي لا تحصل للقاتل غالبا. وقد لا تحصل للقاتل الذي اعتاد الإجرام. ومن ينظر لحالة الطبيب في مبدأ تعلمه لفن التشريح وبعد كثرة التدريب في الجراحات. لا يشك في تغير أحوال الإنسان - اضطرابا وعدمه - عند رؤيته لمثل هذه المؤثرات، أما القوانين الوضعية: فإننا وإن لم نطلع عليها نستطيع لأنفسنا القول بأنه لا يمكن للقضاة بمقتضى هذه القوانين أن يحكموا - لمجرد اضطراب أو رعدة - بإعدام المتهم أو بسجنه مدة تناسب جريمة القتل وحادثه «طنوب» التي ذكرها أقر فيها اثنان من المتهمين كما هو صريح الجواب الذي ذكره فضيلة المؤلف.

فهذه خمسة أوجه تدل على خطأ هذا الرأي من الوجهة العلمية. وهناك وجه سادس لا نبديه لمثل فضيلة الأستاذ - مؤلف هذا الكتاب - لأننا نعتقد أنه ذو دين وعقيدة صحيحة، وإنما نبديه لمن كانت عادته تأويل مثل هذه الآية من الآيات الدالة على معجزات الرسل حتى يخرجها عن كونها خارقة للعادة ويطبقها على النواميس الطبيعية.

وذلك أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد خفي المآل؛ هو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل حتى يكون مفادها أمراً غير خارق للعادة. وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية وإلى هدمها من أساسها؛ لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام. وأما ما استند إليه في هذا الرأي - من الوجهين السابقين - فلا يصح أن يكون متكاً لمخالفة سائر المفسرين.

أما الوجهة الأولى: وهو تصدير الموضعين بقوله تعالى ﴿وَإِذْ﴾ فلا يدل على أنهما قصتان منفصلتان سببا وحكما، إذ يمكن أن يقال أنها قصة واحدة كما وردت بذلك الآثار وكما هو المعقول؟ والله سبحانه وتعالى حكى هذه القصة بطريقة بديعة غريبة؛ إذا سمع الإنسان مبدأها يبقى متشوقا إلى منتهاها بسبب قلب نسقها وتغيير ترتيبها في الحكاية. وهذا القلب الذي يثير الشوق في الأنفس يستدعي أن يبدأ كل طرف منها بقوله تعالى ﴿وَإِذْ﴾ كأنه قصة قائمة بنفسها. وقد ذكر المفسرون حكما لتغيير الترتيب في هذه القصة منها: تكرير التوبيخ وتثنية التقرع، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله ﷺ والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جنابة عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها. ولو حكيت على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يختص بها من التوبيخ.

وأما الوجه الثاني فلا يحتاج إلى الرد؛ إذ لم يثبت أن ما ذكره قاعدة منضبطة مطردة يصح التعويل عليها في تمييز القاتل من غيره، لا في الشرائع السماوية ولا في القوانين الوضعية. والله أعلم.

هذا ما يتعلق بكلام مؤلف هذا الكتاب في تفسير هذه الآيات. وقد رأينا أن نقل عبارة سلفه في هذا الرأي - أي في مخالفة المفسرين وإن كان بينهما فرق كما سنذكر - وهو السيد رشيد رضا في تفسير المنار قال ما نصه صفحة ٣٥٠ من الجزء الأول: وأما قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا أَصْرُوهُ بِعَصَاهُ كَذَلِكَ يُعْنَى اللَّهُ أَلْمَوْقُ﴾ [البقرة: ٧٣] فهو بيان لإخراج ما يكتمون ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة: قيل إن =

= المراد اضربوا المقتول بلسانها، وقيل بذنبها. وقالوا أنهم ضربوه فعادت إليه الحياة وقال قتلني أخي أو ابن أخي فلان إلى آخر ما قالوه والآية ليست نصاً في مجمله فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء، عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره. فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية.

ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس؛ أي يحييها بمثل هذه الأحكام. وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فالإحياء هنا معناه الاستبقاء على الحياة المقصود نقله.

ومراده بما قدمه هو عبارة التوراة التي لخصها مؤلف هذا الكتاب وحمل القصة الأولى في نظره عليها، ثم الظاهر من عبارة السيد رشيد أنه فهم أن القصة واحدة وأن قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ١٧٩] إشارة إلى الوسيلة التي كانت عندهم للفصل في الدماء. ورأي مؤلف الكتاب قد يكون أقرب، وإن كان كل منهما بعيداً جداً عما تدل عليه الآيات القرآنية، بل باطلاً. وقد سبق في الأوجه التي أبديناها ما يكفي لإبطال مثل هذه الآراء والله أعلم.

(رد المؤلف على نقد اللجنة)

(في قصة بقرة بني إسرائيل)

ابتدأ أصحاب الفضيلة رأيهم قائلين «والذي نراه أن ما ذهب إليه مخالف لما ثبت بالرواية والأثر» كلام فخم ضخّم رنان يوهّم أنني خالفت نصاً قطعي الثبوت والدلالة وإرداً في الكتاب الكريم، أو خبراً متواتراً عن المعصوم ﷺ صريحاً في بابه. ولكن القراء إذا تحروا تلك الروايات وتلك الآثار وجدوها إسرائيليات لا أكثر ولا أقل لا عيب على مخالفتها ولا إثم على مزيفها.

هذا وإني أقول: لما وصلت في كتابي إلى قصة بقرة بني إسرائيل نصصت بإيجاز ما قاله المفسرون القدم والحديثون من أن المسألتين قصة واحدة فيها تقديم وتأخير وأن الضمير في (بعضها) يعود على البقرة. وأن القاتل حي وأخبر بقاتله - على النحو الذي نقله حضرات أعضاء اللجنة - ولم أزيّف هذا الرأي ولم أنقضه. وإنما عن لي أن أفهم الأمر على أنهما قصتان لا قصة. ونصصت ما نقلته اللجنة عارضاً إياه على أنظار العلماء ليوافوني برأيهم حتى أثبت لكل إنسان رأيه عند إعادة طبع الكتاب، مقدراً أنه وجه مما تحتمله الآية، وأنه ليس يناقض الوجه الأول ولا بمزيف له - وإن كنت أعتقد أن رأيي خير منه - وكنت أنتظر من اللجنة أن توافيني برأيها خالصاً دون تأفف أو تدمير، ودون رمي بمنديات - كما فعلت - وهي تعلم أنني مستعد لقبول الرأي والانصياع له إذا رأيته قاطعاً، والعدول عن رأيي متى علمت بطلانه من كل وجه. ولكنها عمدت إلى التشهير بي قائلة «إنه خالف إجماع المفسرين فيما نعلم سوى صاحب المنار» كأن ذلك الذي تقوله يخيفني، أو كأنني لم أجهر به من أول الأمر.

وطريف لدي جداً قول اللجنة «وقد نقل ابن جرير الطبري التفسير المشهور لهذه القصة بأسانيده عن أرباب التأويل ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس» والظاهر أنهم كانوا في احتياج إلى هذه التعويذة أو الرقية، حتى إذا سمعتها لا يكون مني سوى الاستخذاء والتسليم بأن الوجه الذي =

أوردته أنا باطل فاسد وكأن هذا الرأي الذي نصه ابن عباس نص قطعي الثبوت والدلالة! وليت شعري ماذا يقولون في كبار المفسرين الذين خالفوا ابن عباس في كثير من آرائه في التفسير؟
هبوا أني سمعته من ابن عباس نفسه أليس من حق العلم علي أن أسأله عمن أخذ هذا القول؟ أمن رسول الله ﷺ أم سمعه من مسلمة أهل الكتاب أو رأي رآه من نفسه؟

ياقوم إني لا أنكر القول الذي نصه القوم عن ابن عباس، ولكني أنكر أن يكون قاطعا في الموضوع لا يمكن معه أن يتطرق احتمال آخر. ولا أنكر وجود الخوارق على يد موسى فقد أوجد الله على يده ما هو أبلغ وأعظم، ولقد أتعبتم أنفسكم في نقل ذلك النص فليستم بقائلين من هذا إلا وقد رأيته، وليس الفرق بيني وبينكم إلا أنكم تقولون أن الآيتين لا تفهمان إلا على مقتضاه؛ وبذلك تجعلونه قطعي الثبوت والدلالة. وأنا أقول بإمكان فهمها على وجه آخر وأنه ليس قطعي الثبوت والدلالة؛ كما يوهمه كلامكم.

وقد ذهب على اللجنة الموقرة أن تبين لنا الفائدة المترتبة على حياة الميت بضربه بجزء من البقرة والإخبار باسم قاتله بعد حياته.

قد يقولون إننا ذكرنا ذلك بقولنا «فأخذ قاتله وهو قريبه الذي كان يريد أن يرثه فقتله على سوء عمله» فإني أقول أن هذا على خلاف شرعهم، لأنه لا يحكم عندهم على أحد إلا بشهادة شاهدين أو ثلاثة تشئية «ص ١٩» (١٥) لا يقوم واحد على إنسان في ذنب ما أو خطيئة ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها. على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر.

وأقول أيضا ما يقوله جمهور العلماء: من أن قول المقتول «دمي عند فلان أو فلان قتلني» خبر يحتمل الصدق والكذب. ولا خلاف في أن دم المدعى عليه معصوم ممنوعة بإباحته إلا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال. قد يقولون: إن قتييل بني إسرائيل كان أمره معجزة، وأخبر تعالى أنه يحييه، وذلك يتضمن الإخبار بقاتله خبرا جزما لا يدخله احتمال، فافترقا.

أقول كما قال ابن العربي: المعجزة إنما كانت في إحيائه، فلما صار حيا كان كلامه ككلام الناس كلهم في القبول والرد. ١ هـ «٣٨٨ الأحكام للقرطبي».

ولا توجد شريعة تأخذ المتهم بقول المجني عليه وحده. ولو أن قتييل بني إسرائيل الذي عاش بعد قتله - كما يقولون - ادعى على رجل درهما؛ ما قبل قوله فيه ولا حكم لورثته به بسبب شهادته وحده فكيف يقبل قوله في الدماء المعصومة المحترمة؟ وهي لا تحل إلا بيقين لا يتطرق إليه شك! وبعد هذا كله فإن قولهم «وأخبر تعالى أنه يحييه» إلى آخره أمر زائد عما يستفاد من القرآن الكريم، وليس عليه نص في القرآن.

أقر وأعترف - وأنا في حال طواعيتي واختياري وصحتي وعقلا وجواز الإشهاد علي شرعا ونفاذ تصرفاتي في الوجوه كلها بدون إجبار ولا إكراه - أن الوجه الذي أوردته في تفسير مسألة بقرة بني إسرائيل مخالف لما جرى عليه المفسرون جميعا من أقدم العصور إلى الآن: فهل أنا في ذلك آثم؟
عابت علي اللجنة أنني فهمت القرآن الكريم فهما لم يفهمه المفسرون من قبل، وأنيت بوجه لم يأت به أحد. وعد أعضاؤها ذلك مني خطأ أوجبوا على أن أفهم بما فهم المفسرون من قبل. والذي أوجب حضراتهم به أن ما أوجبوه علي لم يوجبه الله تعالى ولا رسوله. وأقول لحضراتهم أيضا. إن الله تعالى قد أكمل دين الإسلام من قبل، وأنتم نعمته على أهله ورضيه لهم دينا قبل اثنتين وأربعين وثلاثمائة =

= وألف سنة، ولم ينزل الله تعالى قرآنا يتعبد الناس فيه بآراء فريق من عباده، وقد انقطع التشريع بوفاة رسول الله ﷺ فأنى لهم هذا التشريع الذي لا يعرفه الإسلام؟ إن القرآن أنزله الله تعالى على رسوله ليتدبر الناس آياته ويفقهوا عظاته بما منحهم من عقول وقرائح:

- (١) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَاتِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].
 (٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].
 (٣) ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْكَ مُبْرَكًا يُذَكِّرُ أَتَيْنَهُ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].
 (٤) ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

إن الله تعالى إنما خاطب الناس بما منحهم من العقول. وعلى مقتضى عقولهم وما أدركوه من الإيمان والدين يحاسبهم، فيشبههم أو يعاقبهم. على ما اجتروا من طاعة أو معصية، ولا يسألهم عما عقله غيرهم أو فهمه سواهم أو أدركه أحد من عباده الآخرين؛ بل هم مسؤولون عن سمعهم وأبصارهم وأفتدتهم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

هل يجب في عرفهم أن يكون للناس قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها، وأن يكونوا أضل من الأنعام لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلا؟ فإذا كان الله تعالى قد منحنى عقلاً وفكراً وذكاءً وقريحةً؛ أليس من الكفران لنعمته والجحد لمتنته أن أطرح كل أولئك النعم خلفي ظهرياً، وأعطلهن كافة وأحسب نفسي كمن رمي بالشلل فيهن جميعاً! فلا أعقل إلا بعقل غيري ولا أفكر إلا بفكره ولا أتدبر كتاب الله إلا بتدبره وأن لا أجد ولا أحس إلا بوجوده وحسه؟

وهل يغني أحد عني من الله شيئاً إذا سألتني عن تلك النعم لم عطلتها ولم أستعملها فيما خلقت لأجله؟ وهل ينجليني من عقابه أن أقول له إني عطلت نعمك ولم أستعمل منها شيئاً وأهملتها إهمالاً تاماً لأنك أعطيت بعض عبادك عقلاً وفكراً وذكاءً وقرائح.

إن هذا التشريع الجديد الذي جاء به حضرات أعضاء اللجنة - بعد هجرة رسول الله ﷺ باثنتين وخمسين وثلاثمائة وألف سنة، بعقل العقول وغل الأفهام عن فهم كتاب الله تعالى - تشريع لم يعرفه الإسلام. وهؤلاء المفسرون الأولون كان كل منهم يفسر القرآن الكريم بما وصل إليه إدراكه، لا بما أدركه سواه ممن حوله من المفسرين.

هذا ابن جرير الطبري قد أورد في شأن صهر موسى أربعة أقوال عن أئمة المفسرين ثم اختط لنفسه طريقاً آخر ولم يعول على قول منها بل قال «المسألة تحتاج إلى خبر تجب حجته، ولا خبر في المسألة. فلا قول أحق بالصواب من قول الله عز وجل يريد به» ﴿وَأَتُونَا سَبِيحًا كَبِيرًا﴾ [القصص: ٢٣].

إن الإسلام هو الدين الذي أطلق العقول من عقلها وفك أغلال الفكر البشري وأزال عنه القيود التي كان مكبلاً بها ونفى عن الأمم ما كانوا فيه من أسر التقليد للآباء والسابقين من الأجداد، وأعلن أن اتباع الآباء والأجداد بغير سلطان أتاهاهم حجة داحضة. وأن جماله وجلاله وروعه لتتجلى لأعين من لا يدينون به في أنه الدين الذي كتبت له الصيانة من عبث العابثين، لأنه ليس فيه كهنوت ولأنه بعيد عن الأكليروس.

قال «شارل جنيبير» مدرس مقارنة الأديان في السربون: ومؤلف كتاب «تطور الديانات»: إن كل دين من الأديان يحمل في طياته عوامل تطوره وتحوله والدين الوحيد الذي نجا من هذا التطور إنما هو =

دين الإسلام. والسري في ذلك أنه ليس فيه «اكليروس» اه بالمعنى.

ولكن هذه الطريقة الجديدة التي يريدني حضرات السادة الأفاضل أعضاء اللجنة في اتباعها - ترمي إلى إدخال الإسلام في طور كهنوتي - على مثله قامت محكمة التفتيش البابوية في القرون الوسطى في أوروبا - فقد كانت الكنيسة تهيمن على عقائد الناس وعلى خطرات أنفسهم وهواجس أفكارهم. فكل إنسان محرم عليه أن يقرأ الإنجيل إلا بإذن خاص من الكنيسة، ومحرم على كل فرد أن ينطق لسانه أو يهجنس في خاطره تفسير للإنجيل بغير ما فسرت به الكنيسة. فإذا نطق لسانه أو مر بخاطره تفسير لم تأمر به الكنيسة لم يكن جزاءه إلا التعذيب الشديد يذوق ألوانه، ثم الإعدام بعد رض عظامه في جسده بالمعاصير، ثم الإحراق بالنار حيا آخر الأمر وفي جميع أدوار العذاب يقف الآباء الرحماء رجال الدين والقساوسة يرتلون عليه الآيات، ويسألون الله الرحمة لهذا المعذب. فهم يسألون له رحمة لا تجد قلوبهم مسها في أنفسهم.

إن حرمان العقول والأفهام من التغذي بمعاني القرآن وقضاء لبانتها من جماله وجلاله وبهائه، وقسر العقول عن أن ترفض ما عقلت، وأن تقبل من المعاني مما عقله الغير وفهمه، لا يليق بالإسلام، وإنما يليق بالكهنوت الذي جاء الإسلام بحل النفوس من أسره وأرسل الله لذلك محمداً ﷺ وهو «الَّذِي الْأَنْبِيَاءُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ بَلَغَ أَمْنًا بَيْنَهُمْ وَعَزَرَهُمْ وَصَدَّقُوا النَّوَارَ الَّذِي أَنزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الأعراف: ١٥٧].

قال حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة في تقريرهم - دليلا على خطأي - إن نص التوراة لم يشمل على يمين، فلا ندري أين أخذ هذه اليمين التي ذكرها وشبهها بيمين القسم في الشريعة الإسلامية؟ اللهم إلا أن يقال: إن صراخهم قائلين «أيدينا لم تسفك هذا الدم...» الخ يعتبر يمينا عندهم وهو بعيد جداً. ولعله أخذها من وضع أيديهم في الدم ويعتبر ذلك يمينا» اه.

أقول: إنهم يروونه بعيدا ونراه قريبا. وهذا أمر اصطلاحي يرجع فيه إلى أهل الذكر «فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْلُوبُونَ» [الأنبياء: ٧] بالبينات والزبر.

ولكني أريد حضراتهم بيانا فأقول: إنكم لم تروا اسم الله محلوفا به عندهم فارتبتم في كون ذلك القول منهم يمينا. ولكن إذا علمتم أن اليهودي لا ينطق لسانه باسم الله تعالى وهو عندهم (يهووا) علمتم السري في عدم ذكر اسم الله في القسم. ذلك أنه جاء عندهم فيما يسمونه التوراة «٢٠: ٧١ - خروج» لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا. لأنه لا يبرىء من نطق باسمه باطلا.

فهذه العبارة جعلتهم يتخرجون من ذكر اسم الله مطلقاً في باطل أو حق، وهم إلى اليوم حتى في أثناء قراءة التوراة إذا عرض لهم اسمه أثناء القراءة يبدلونه باسم آخر يدل على الله تعالى وليس اسما له. فإذا جاء في التوراة مثلاً «ويؤمر يهووا الأبرام» فإن اليهودي يقرأ هكذا «ويؤمر ه شم لأبرام».

و«ه شم» معناها الاسم أو يقرأ هكذا «ويؤمر الوهيم لأبرام» أو «يؤمر أدوناي».

وهذا هو السبب في خلو القسم عندهم عن ذكر اسم الله.

إذا عرف حضراتهم هذا فقد استبان اعتبار قولهم صارخين «أيدينا لم تسفك...» الخ» قسما.

قال أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة في الوجه الأول «من وجوه الخطأ من جهة الدراية»: أنه على هذا الفهم لا يكون للمذكور من القصة الأولى في القرآن الكريم معنى محصل... الخ.

= والذي أقوله لحضراتهم: إن المعنى ظاهر واضح الأثر إذا قرأتم بعد تلك القصة قوله تعالى ﴿أَنْظِمُونْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥] أي أن الله تعالى يقطع طماعية المسلمين في إيمان اليهود ببيان عنادهم وإبطانهم عن إجابة أمر الله تعالى - بعد تبليغه لموسى وتبليغ موسى إياهم - بل صاروا يتلمسون العلل للتسويق والإبطاء. وهؤلاء أبنائهم الذي طبعوا على غرارهم وصبوا في قالبهم «والأصول عليها ينبت الشجر - والعصا من العصبية - والحية لا تلد إلا حية» فهم أشبه بهم من الغراب بالغراب. فالعظلة بذلك تحصل للمؤمنين. وتبين لهم السبب في وقوفهم عن الإيمان وتقطع طماغيهم في أن يؤمنوا. وهو مع ذلك تفرعهم وتظهر صلابة أعناقهم.

وليس في الضروري في وجوب طاعة الله ورسوله أن يظهر السبب للأمور حتى يمثل؛ بل كون الأمر صادراً من الله مبلغاً بلسان الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى كاف. فليس من حق كل من أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة أن يخالف عن أمر رسول الله محمد ﷺ إذا بلغه أمر الله إياه بذبح بغيره أو ناقته أنه عاصره ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبذلك أدفع قولهم «والإجابة عن ذلك بأن الغرض». إلى قولهم «بل ربما أبدت الطبيعة البشرية لهم بعض العذر على هذا التباطؤ».

قالوا «على أنه لو ذكرت القصة بتمامها على ما فهمه أخذنا من التوراة لم يفهم السامع منها في البقرة سبباً معقولاً لإظهار براءة القاتل لا خارقاً للعادة ولا معتاداً».

أقول: ليعلم أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة أنني لم أدع أن موسى عليه السلام أمر قومه بذبح البقرة ليأتيهم في هذا الشأن بأمر خارق للعادة وهم لم يطلبوا منه ذلك.

وليس من الضروري أن تكون أمور النبي من الأنبياء كلها خارقة للعادة، فلا يأكل إلا بأعجوبة، ولا يشرب إلا بأعجوبة، ولا ينام إلا بأعجوبة، ولا يصحو إلا بمعجزة ولا يمشي إلا بمعجزة، ولا يتكلم إلا بمعجزة، ولا يقعد إلا بمعجزة بل قلت «إن موسى أتى برجال أقرب محلة من مكان القتل وأحلفهم عليها بعد ذبحها» الخ.

وينحو الذي قلت صاحب تفسير المنار. ونص عبارته «والظاهر مما قدما أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل - إذا وجد القتل قرب بلد ولم يعرف قاتله - ليعرف الجاني من غيره. فمن غسل يده وفعل ما رسم في الشريعة برى من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية. وأما قول حضراتهم «ولا معتاداً» فإذا كانوا يريدون أن ذلك الأمر ليس معتاداً عندنا فالأمر ظاهر. وأما إذا كانوا يريدون أنه ليس معتاداً عند اليهود؛ فقد علموا أنهم ليس لهم أن يحكموا هذا الحكم على قوم لم يدرسوا كل شريعتهم ولا عاداتهم.

إن ذلك الذي ذكرتموه من أنها قصة واحدة، وأن القتل حي وأخبر بقاتله؛ لا يتم لكم إلا إذا كانت الآية القرآنية صريحة في أن الله تعالى قال لهم اضربوا النفس التي قتلتموها ببعض البقرة التي ذبحتوها فيحيا القتل ويخبركم بقاتله فضربوه ببعضها فحي وأخبرهم بقاتله.

أما وهذه الأمور لم تبين في الكتاب الكريم فليس لديكم نص قرآني صريح على أن ما ذهبتم إليه وذهب إليه المفسرون هو الوجه الذي لا محيد عنه.

يقول أصحاب الفضيلة «ثم ما علاقة هذا اليمين بذبح البقرة وغسل الأيدي عليها؟»

والذي أقوله لحضراتهم: إن اليهود في تشريعهم تقديم القربان في كثير من الأشياء التي يعملونها. فالمرأة إذا طهرت من الحيض تقدم قرباناً. وإذا ظهرت من نفاسها تقدم قرباناً. وإذا أخطأ الرجل خطيئة قدم قرباناً. وإذا ولدت أبقاره قدم أبقار أولادها قرباناً. ويقدم باكورة حنطته وزيته وخمره. من هذا كله نجد طقوسهم الدينية حافلة بوجوب تقديم القربان والمحرقات. فكان الحلف للبراءة من جريمة سفك الدماء مما يقدم بين يديه قربان. وهذا أمر مفهوم في دين تقوم طقوسه على القربان بدون معرفة علة لذلك أو سبب.

جاء في «ص ١٤ - لاويين» ما نصه:

(١) وكلم الرب موسى قائلاً (٢) هذه تكون شريعة الأبرص يوم طهره يؤتى به إلى الكاهن (٣) ويخرج الكاهن إلى خارج المحلة فإن رأى الكاهن وإذا ضربة البرص قد برئت من الأبرص (٤) يأمر الكاهن أن يؤخذ للمتطهر عصفوران حيان طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفا ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء حي (٥) أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي (٦) وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره. ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء (٧) فيغسل المتطهر ثيابه ويحلق كل شعره ويستحم بماء فتطهر ثم يدخل المحلة لكن يقيم خارج خيمته سبعة أيام (٨) وفي اليوم السابع يحلق كل شعره: رأسه ولحيته وحواجب عينيه وجميع شعره يحلق ويغسل ثيابه ويرحض جسده بماء فيطهره (٩) ثم في اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين، ونعجة واحدة حولية صحيحة، وثلاثة أعشار دقيق، تقدمه ملتوتة بريث ولح زيت (١٠) فيوقف الكاهن المتطهر وإياها أمام الرب لدى باب خيمة الاجتماع (١١) ثم يأخذ الكاهن الخروف الواحد ويقربه ذبيحة. ثم مع لح الزيت يرددهما ترديدا أمام الرب (١٢) ويذبح الخروف في الموضع الذي يذبح فيه ذبيحة الخطية والمحركة في المكان المقدس. لأن ذبيحة الإثم كذبيحة الخطية للكاهن. إنها قدس أقداس (١٣) ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم، ويجعل الكاهن على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى (١٤) ويأخذ الكاهن من لح الزيت ويصب في كف الكاهن اليسرى (١٥) ويغمس الكاهن أصبعه اليمنى في الزيت الذي على كفه اليسرى وينضح من الزيت بأصبعه سبع مرات أمام الرب (١٦) ومما فضل من الزيت الذي في كفه يجعل من الزيت الذي في كف الكاهن يجعل الكاهن على شحمة أذن المتطهر اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى على دم ذبيحة الإثم (١٧) والفاضل من الزيت على رأس المتطهر، ويكفر عنه الكاهن أمام الرب (١٨) ثم يعمل الكاهن ذبيحة الخطية ويكفر عن المتطهر من نجاسته، ثم يذبح المحركة (١٩) ويصعد الكاهن المحركة والتقدمة على المذبح ويكفر عنه الكاهن فيطهر اهـ.

فحضرات أعضاء اللجنة يرون جعل دم الذبيحة على شحمة أذن المتطهر، وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى. ومثل ذلك جعل الزيت على هذه المواضع لا تعرف له معنى ولا يعرف له اليهودي معنى كذلك. ولكنها أوامر شرعية عندهم.

أما قول أصحاب الفضيلة بعد ذلك - أي بعد ذكر اليمين وذبح البقرة وغسل الأيدي عليها - لا نفهم لذلك علاقة سوى أنه يرجع لعبادة العجل وتعظيمهم له نعوذ بالله من ذلك! فإني أقول: ما كنت آمل أن يمتد بي زماني حتى أرى فريقاً من جلة العلماء بالأزهر الشريف يفهمون من ذبح بقرة من البقر =

= والحلف عن الناس - وهي أمامهم - أنهم ما سفكوا دما ولا رأوا سافكه وغسل أيديهم عليها يعتبر ضربا من ضروب عبادة العجل وتعظيم أولئك القوم له، ولكن الأيام أرثني ما لم ترني الأحكام. أسأل الله تعالى أن يبقوا حضراتهم لاستخراج نفائس العجائب وفوائد الغرائب.

الوجه الثاني

قال أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة «أنه لا يظهر في هذه القصة ما يقنع بعدم وجود الهزؤ والسخرية إلا مجرد صدور الطلب من موسى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى من غير أن يظهر لهم فائدة هذا الأمر الغريب في العادة، خصوصا بالنسبة لبني إسرائيل الذين اشتهروا بالعناد والتعنت وبطء الانقياد مع ظهور الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات» ١ هـ.

والإيراد الذي أوردوه على الوجه الذي أوردته هو بعينه يرد على الوجه الذي اختاره المفسرون ورضيه أعضاء اللجنة، فإن موسى عليه السلام لم يبد لهم في مقابلة قولهم «أَلَنَجِدُنَا هُزُؤًا» [البقرة: ٦٧] إلا قوله «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَاهِلِينَ» [البقرة: ٦٧] فكان مجرد صدور ذلك منه كافيا لهم عن طلب الوقوف على الأسباب والنتائج لطلبه هذا. ولطف الله تعالى بعبده موسى ابن عمران إذ لم يكن حضرات أعضاء اللجنة شهودا، حتى يبصروهم بأن هذا القول غير مقنع وأنهم لا بد لهم من الاستقصاء ومتابعة السؤال عن الأسباب والنتائج. ومن لطف الله تعالى بموسى عليه السلام أن كان وجود حضراتهم بعد آلاف من السنين مضت على الحادثة.

أنا لا أقول في هذا الوجه أنه خال من الفائدة والقيمة! وإنما أقول إنني لم أفهم الحكمة العالية من إيراده، وهو وارد على ما فهمته، وعلى الوجه الذي فهموه أيضا، ولا الحكمة في استصغار طلب موسى منهم أن يذبحوا البقرة امتثالا لأمر الله تعالى، وأسأل الله أن يهيني من العلم ما أفهم به ذلك.

الوجه الثالث

كتب أصحاب الفضيلة في هذا الوجه ما نص في كلامهم - وهم يتساءلون عن مأخذ مرجع الضمير - ثم جزموا بأنه قوله تعالى «فَلَنَلْنَّهُ» وأنه يؤخذ من القصة أن المتهم متعدد وكان الظاهر أن يقال: اضربوهما أو اضربوهم، ولا يعني أن يقال اضربوا جنس المتهم المتحقق في أشخاص عدة، وأن هذا تكلف بل تعسف. ثم تساءلوا من أين جاءني هذا الرأي الذي لم يساعده الأسلوب ولم يؤيده المعقول؟ بل ينافيه وتمجه العقول! سامحهم الله.

والذي أقوله إن الكتاب الكريم يقول «وَإِذْ قُلْنَا نَفْسًا» [البقرة: ٧٢] ومن البديهي أن بني إسرائيل كانوا أكثر من مئات ألوف، ولا يمكن أن يكونوا قاتلين جميعا. والمخاطبون في زمن رسول الله ﷺ ليسوا بأنفسهم قاتلين؛ بل الذي باشر القتل واحد أو اثنان. على عهد موسى. ومثل هذا يقال في قوله «فَأَذَرْتُمُ» فإن الذين تدارأوا ليسوا جميع بني إسرائيل، ومن البين بنفسه أن التدارؤ هو أن يدفع الشخص القتل عن نفسه ويلصقه بآخر بعينه. وهذا لا يكون إلا في محصورين. وضرب من وقعت عليهم الشبهة لا يكون جملة واحدة؛ بل يقدم واحد فإن ظهرت عليه أمارات القتل اكتفى به وإذا لم تظهر عليه أتى بواحد آخر. فالذي يقع عليه الضرب واحد من المتدافعين إلى أن تظهر الأمارات على واحد. فمأخذ مرجع الضمير هو قوله تعالى «فَأَذَرْتُمُ» ولما كان الضرب لا يكون على المتدافعين دفعة واحدة؛ بل الضرب يقع كل مرة على فرد واحد كما قدمنا عبر بقوله «فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصِيٍّ» [البقرة: ٧٣] إذ قد يستبين =

الأمر من أول واحد، حينئذ يكون مرجع الضمير معلوماً من المقام منظوياً ضمناً في قوله ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾^١ وقد جاء في القرآن الكريم عود الضمير على معلوم من المقام غير مذكور في الكلام.

اقرأوا قوله تعالى ﴿يُؤْمِرُكُمُ اللَّهُ فِيْ أَوْلَٰئِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَكُلِّ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأَبَوَيْهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإِخْوَتِهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دِينٌ﴾ [النساء: ١١] فإن الضمير في قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ وما بعدها يعود على المورث المعلوم من المقام ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ حِفْظُهُ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا... إلخ﴾ [النساء: ٣٥] فإن الضمير يعود على الزوجين المعلومين من المقام المندرجين ضمناً في قوله قبل ذلك ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]

وإني أؤكد لحضراتهم أنني قرأت في كتب النحو «أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور» وأقرب مذكور يمكن أن يعود الضمير عليه مؤثناً في قوله ﴿بِبَعْضِهَا﴾ هو النفس. وأما البقرة فهي أبعد مذكور. وما كان لعربي أو فاهم للعربية أن يفعل ذلك، وأن العربي إذا أراد أن يرجع الضمير إلى البعيد صرح بالاسم، فكان مقتضى مرادكم أن يقول «فقلنا اضربوه ببعض البقرة». فلاحتمال الذي أوردته هو الموفق لقواعد العربية التي أنتم جهازتها فإن قال حضراتهم: إنا جعلنا مرجع الضمير في قوله ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ هو النفس باعتبار أنها في الحقيقة نفس رجل؟ قلت: ومن أين يتعين أنها نفس رجل؟ وأين الدليل على ذلك؟ ومن ذلك كله يتبين أن ما قالوه ليس بمانع من جواز الاحتمال الذي أوردته. بل هو ألصق وأوفق بقواعد اللغة.

ونص المفسرين ليس مانعا من جواز ذلك الاحتمال.

فالنظر إلى أقوال حضراتهم وإلى أقوال المفسرين يجد أنهم فرضوا أولاً قتيلاً حيي وأخبر بقاتله. ثم أخذوا يقدمون في آيات القرآن ويؤخرون، ويعودون بالضمير على البعيد دون القريب وهو غير مناسب للعربية، ويصلون ما فصل الله ولم يسايروا القرآن حتى يهجم بهم على المعنى، بل قسروه على المعنى الذي فرضوه قسراً.

الوجه الرابع

كتبت اللجنة في هذا الوجه ما هو منصوص - وبعد أن ذكرت أن الكلام يحتاج إلى التحرز في لفظي «يحيي - وموتى» قالت: لم يعهد في القرآن الكريم - على ما نعلم - التجوز بلفظ (الموتى) عن هذا المعنى - وهو يقتضي أن القرآن الكريم لا يصح أن يجيء فيه مجاز إلا إذا عهد مجيء مجاز آخر قبله على شاكلته - وهذا مشكل لأن أول مجاز جاء في القرآن لا بد أن يرد لأنه لم يعهد في القرآن مثله. ثم قالت: الثاني عدم وجود قرائن لهذه المجازات.

والذي أقول لحضراتهم. إن القرآن الكريم قد عهد فيه المجاز في الحياة والموت لما هو أبعد من هذا المعنى قال تعالى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فعبّر بلفظ «ميّتاً» عن الضال، وبلفظ «الإحياء» عن الهداية. ومن كان على خطر الموت أقرب إلى الموت من الضال.

وأما القرينة التي نشدوها ولم يجدها فهي موجودة، وهي المعبرة عنهم بالموتى موجودون أحياء يرزقون، ولا شك أن حفظ حياة من كان على خطر فراقها يعبر عنه بالإحياء، وبذلك سقط قول اللجنة «وهذا الفهم في معرض النزاع فلا يقبل دليلاً» وقولها «فهل عهد في اللغة العربية التعبير بمثل =

= هذا المقام» وأقول أيضا: قد عهد التعبير في العربية عن حفظ الحياة بما هو أغرب من هذا، فهذا الشاعر يقول:

ما زلت تعمل من لطف احتيالك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي
واني ليحزني أن يقف ذهن حضراتهم في قوله تعالى ﴿كذلك﴾ وحيرتهم في مرجع اسم الإشارة،
وما كنت أظن أن حضراتهم يتوقفون هذا التوقف في شيء لم يتوقف فيه أحد. فإن اسم الإشارة يرجع
إلى ما أمرهم به من ضرب المتهم ببعض النفس التي تدارأوا فيها، فإن الله يحفظ به حياة من كانوا
عرضة للقتل للاشتباه فيهم وهم براء. وأما قولهم «توقف صحة هذا الكلام على أن تلك الحادثة تبرا
فيها أناس أدام الله حياتهم بعد أن كانوا في مظنة أن يموتوا الخ».

فالذي أقوله لحضراتهم: إن الكتاب الكريم يبين لنا أن القتل الذي وقع كان المتهمون فيه عددا، وكان
كل واحد منهم يدفع القتل عن نفسه وينسبه إلى آخر، ومن البين بنفسه أنهم ليسوا براء جميعا ولا
قاتلين جميعا. بل القتل صدر من بعضهم أو واحد منهم فقط. وأهل الخبرة بهذه الأمور قالوا إن
القاتل الحقيقي تعتبره انفعالات نفسية وجزع يدوم بخلاف غير القاتل. وعلى ذلك: فإني لا أخشى
مفندا إذا قلت أن قرينة القتل قد ظهرت على بعض المتهمين ولم تظهر على البعض الآخر وهم الذين
عبر عنهم بأنه يحييهم بعد أن كانوا على خطر الموت. والتعبير بالإحياء عن استنقاذ حياة الشخص من
خطر الموت وارد في قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]
فكل أمر يؤدي إلى معرفة القاتل الحقيقي إحياء لسائر المتهمين واستنقاذ لحياتهم من الهلاك.

قالت اللجنة: ثم إنه لم يتعرض لتفسير قوله تعالى ﴿وَرِيكُم مِّنْ أَيْمِينِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].
أقول: إن من آيات الله تعالى الباهرة الدالة على قدرته وحكمته أن جبل الإنسان وركز فيه هذه الغريزة
- غريزة تبكيت الضمير والأسف على ارتكاب الجرائم والانفعال - حين رؤيته لأنارها بعد ظهورها
وإنها لا تنقص عن اختلاف الألسن والألوان في دلالتها على القدرة. والحكمة في قوله تعالى ﴿وَمِنْ
أَيْمِينِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ أَلسِنَتَكُمْ وَالْوَكْرَ﴾ [الروم: ٢٢]. وليس من الضروري أن تكون
آيات الله مرتجلة تشده منها العقول وتدهش منها الألباب - كما يريدون - فبارشادهم إلى هذه الطريقة
التي شرحتها في الكتاب قد أراهم بعض آيات قدرته وحكمته.
وهاكم بيان معنى الآية واستعمالاتها في القرآن الكريم:

الآية في استعمال القرآن

قال الراغب: الآية هي العلامة الظاهرة وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره.
فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمها سواء. وذلك
ظاهر في المحسوسات والمعقولات. فمن علم ملازمة العلم للطريق ثم وجد العلم علم أنه وجد
الطريق. وكذلك إذا علم شيئا مصنوعا علم أنه لا بد له من صانع. وقيل للبناء العالي آية نحو ﴿أَتَبْنُونَ
بِكُلِّ رِيعٍ مَّيَّةً﴾ [الشعراء: ١٢٨] ولكل جملة من القرآن آية.

تعريف معنى الآية في كليات أبي البقاء ص ٨٨

الآية في الأصل هي العلامة الظاهرة، واشتقاقها من «أي» لأنها تبين «أيا» عن «أي» وتستعمل في =

المحسوسات والمعقولات. يقال لكل ما تتفاوت به المعرفة بحسب التفكير والتأمل فيه وبحسب منازل الناس في العلم «آية» ويقال على ما دل على حكم من أحكام الله، وسواء كانت آية أو سورة أو جملة منها.

والآية أيضا طائفة حروف من القرآن علم بالتوقيف انقطاع معناها عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن، وعن الكلام الذي قبلها في آخره، وعن الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما غير مشتمل على مثل ذلك والآية نعم الأمانة والدليل القاطع اهـ.

الآية - بمعنى طائفة حروف من القرآن

قال تعالى ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] - ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] - ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ﴾ [يوسف: ١] - ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مُّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلِّفُ﴾ [النحل: ١٠١].

الآية - بمعنى العلامة

قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [آل عمران: ٤١] - ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] - ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] - ﴿اتَّبِعُونِ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةٍ تَقْبَلُونَهَا﴾ [الشعراء: ١٢٨] - ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا مِنْهَا آيَةً يَنْتَهُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] - ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِرٍّ فِي مَكْنِيهِمْ آيَةً﴾ [سبا: ١٥].

الآية - بمعنى المعجزة

قال وتعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نِسْفَ آيَاتِنَا يَنْصِتُ﴾ [الإسراء: ١٠١] - ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَلَوْكَ يَتَابِعِي﴾ [طه: ٤٢] - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمِنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] - ﴿فَإِنِ اسْتَفْطَيْتُمْ أَن تَبْنِيَّ نَقْصًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُّضَعَلَةٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] - ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الَّذِينَ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] - ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نِسْفِ آيَاتِ﴾ [النحل: ١٢].

الآية بمعنى العبرة والعظة

سواء استقل بها الله أو أجزاها على يد إنسان، وسواء كانت خارقة للعادة أم غير خارقة للعادة:

(أ) فما استقل بها الله قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] - ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٢] - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَعْبُدُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] - ﴿وَمِنَ الْآيَةِ أَنْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] - ﴿وَرَأَيْتُمْ لَكُمُ اللَّيْلَ سَلْخًا مِنْهُ النَّهَارُ﴾ [يس: ٣٧] - ﴿وَمِنَ الْآيَةِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

(ب) ومن التي أجزاها الله تعالى على يد الإنسان قوله عز وجل:

= ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَا مَكَّرَ بِآتِلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣] - ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الروم: ٢٢] - ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ [يس: ٤١] - ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] - ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ [الشورى: ٣٢] - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَبَاتٍ شَقٍّ ﴿٥٢﴾ كُلًّا وَاَرَعُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [طه: ٥٤] - ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [طه: ١٢٨].

الآية - بمعنى حكم من أحكام الله

قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

الآية - بمعنى السلطان

قال تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقد تحصل لنا من ذلك أن الآية من آيات الله لا تنحصر في الشيء الخارق للعادة المعجز للبشر تشده له العقول فقط - كما فهم حضرات أعضاء اللجنة - ولكنها تطلق على:

- ١ - الطائفة من القرآن.
- ٢ - العلامة.
- ٣ - المعجزة.
- ٤ - العبرة والعظة سواء استقل بها الله تعالى أو أجزاها على يد الإنسان، وسواء أكانت خارقة للعادة أم غير خارقة لها.
- ٥ - الحكم من أحكام الله تعالى.
- ٦ - السلطان والبرهان.

وما ذكرته ليس خارجا عنها بل هو من صميمها. وأكبر ظني أنهم يعرفون الآية ولكنهم ينكرونها لغرض خاص هو الذي جعلوا وكدهم فيه، وهو تزييف قولي على كل حال.

(الوجه الخامس) جاء فيما كتبه اللجنة تحت هذا العنوان ما نصه «وهل الاضطراب الذي يحصل للمتهم بالقتل إذا عرض على القتل أو ضرب ببعضه، يجب به قصاص في الشريعة الموسوية أو في الشريعة الإسلامية أو بحسب القوانين الوضعية حتى يترتب عليها إحياء الله الموتى؟

أقول: أما الشريعة الموسوية فلا شأن لكم ولا لأحد بها في هذه الحادثة. فإن موسى رسول الله عليه الصلاة والسلام كان شاهد هذه الحادثة ولم يتركهم حيارى، بل أخذ أمر الله تعالى وبين لهم ما يعملون في أمثالها بيانا كافيا وإذا كانت كتبهم خالية من مثل هذا العمل فليس ذلك عيب شريعته، ولكنه عيب أولئك اليهود الذين جعلوا كتبهم قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا. وقد استحفظوا على كتابهم فلم يحفظوه كما يشهد التاريخ وكتبهم بذلك.

وأما الشريعة الإسلامية فإنكم تعلمون - كما أعلم - أن بعض الأئمة يرى الأخذ بالقرائن في بعض الأمور. وقد عول الله تعالى عليها في قوله تعالى في المنافقين ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَغَرْتَهُمْ بِسْمِئِهِمْ =

وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿٣٠﴾ [محمد: ٣٠] فهذه القرينة التي بينها الله لرسوله - لتدل على المنافق - لها خطر عظيم. فإنه ينبغي عليها أنه لا يستغفر لمن ظهرت عليه ولا يصلي عليه رسول الله ﷺ ولا يقوم على قبره. وقد جعل الله ذلك الحكم منوطاً بتلك القرينة فكيف يسوغون لأنفسهم القول بأن القرينة لا يعول عليها شرعاً؟

قال ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ص ٥. فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشرعية تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر بعين الشريعة، علمها من علمها وجهلها من جهلها. ولا تنس في هذا الموضع «نور» نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم للمراتين، كذا في الأصل ولعلها «قول» اللتين ادعنا الولد فحكم به داود صلى الله عليه وسلم للكبرى. فقال سليمان: اثنتوني بالسكين أشقه بينهما فسمحت الكبرى بذلك وقالت الصغرى: لا تفعل - رحمك الله - هو ابنها! ف قضى به للصغرى. فأى شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة؟ فاستدل برضا الكبرى وأنها قصدت الاسترواح إلى الناس بمساواة الصغرى في فقد ولدها وشفقة الصغرى عليه وامتناعها من الرضا بذلك دل على أنها أمه، وأن الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم. فأتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارها فإنه حكم به لها مع قولها هو ابنها وهذا هو الحق. فإن الإقرار إذا كان لعللة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبداً. ولذلك ألعينا إقرار المريض - مرض الموت - بمال لوارثه لانعقاد سبب التهمة، واعتماداً على قرينة الحال في قصده تخصيصه.

ومن تراجم قضاة السنة والحديث على هذا الحديث ترجمة أبي عبد الرحمن النسائي في سننه قال: والتوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله أفعَل كذا ليستبين به الحق. ثم ترجم عليه ترجمة أخرى أحسن من هذا فقال: الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه إذا تبين للحاكم من الحق غير ما اعترف به، فهذا (*) يكون الفهم عن الله ورسوله. ثم ترجم عليه ترجمة أخرى فقال: نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله أو أجل منه. فهذه ثلاث قواعد. (ورابعة) وهي ما نحن فيه وهي الحكم بالقرائن وشواهد الحال. (وخامسة) وهي أنه لم يجعل الولد لهما كما يقوله أبو حنيفة. فهذه خمس سنن في هذا الحديث.

ومن ذلك قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته ولم ينكرها، بل لم يعبه، بل حكاها مقررًا لها فقال تعالى ﴿وَاسْتَفَيَا أَكِبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومًا مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْكِبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومًا قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَيْصُومًا قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومًا قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنْ كَذَبَكُمْ عَظِيمٌ (٢٨) [يوسف: ٢٥ - ٢٨].

فتوصل بقذ القميص إلى تمييز الصادق منهما من الكاذب، وهذا لوث في أحد المتنازعين يتبين به وجه الحق وقد ذكر سبحانه اللوث في دعوى المال في قصة شهادة أهل الدمة على المسلمين في الوصية في السفر وأمر بالحكم بموجبه. وحكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتل، فهذا لوث في الدماء. والذي في سورة المائدة لوث في

= الأموال. والذي في سورة يوسف لوث في دعوى العرض ونحوه.

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابة معه برجم المرأة التي ظهر بها حمل ولا زوج لها ولا سيد. وذهب إليه أحمد ومالك في أصح روايته اعتماداً على القرينة الظاهرة. وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما - ولا يعرف «لهما» مخالف من الصحابة - بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل أو قيئه خمرأ، اعتماداً على القرينة الظاهرة. ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم. وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار، فإنهما خيران يتطرق إليهما الصدق والكذب. ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق إليه شبهة. وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشطح في دمه وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله؟ ولا سيما إذا عرف بعدوانه: ولهذا جوز جمهور العلماء لولي القتل أن يحلف خمسين يمينا أن ذلك الرجل قتله. ثم قال مالك وأحمد: يقتل به.

(فصل) ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل فقال «هل مستحتما سيفيكما؟» قال: لا، قال فأرياني سيفيكما» فلما نظر فيهما قال لأحدهما «هذا قتله» وقضى له بسلبه (***) وهذا من أعظم الأحكام وأحقها في الاتباع اهـ.

وأما القوانين الوضعية؛ فقد استباح حضرات أصحاب الفضيلة لأنفسهم القول بأنه ليس للقضاة - بمقتضى هذه القوانين - أن يحكموا لمجرد اضطراب أو رعدة بإعدام المتهم أو بسجنه مدة تناسب جريمة القتل.

أقول: كان في حكم الحق الواجب على حضراتهم للعلم ألا يظفروا هذه الطفرة، وأن يترثوا حتى يسألوا أهل العلم بالقوانين التي يجري العمل في هذه البلاد على مقتضاها، حتى لا يظهروا بمظهر المتوطن في قارة غير هذه القارة فلا يعلم من أمرها شيئاً.

إن أصغر كاتب في مكاتب المحامين يعلم علماً ليس بالظن: أن القاضي الجنائي ليس مقيداً في جمع الأدلة التي يكون بها اعتقاده في إدانة المجرم إلا بضميره فقط، فله أن يقذف بالشهادات التي قدمت له من حالف. ولا يمنعه اعتراف المجرم بارتكاب الجريمة من تكذيبه وأن يضرب بإقراره عرض الحائط، ويحكم ببراءته من الجريمة التي اعترف باقترافها كاذباً. فهو يكون اعتقاده من الأحوال والمناسبات والقرائن التي تحتف بالجريمة وظروفها، ومن انفعالات المتهم، وما يبدو على الشهود من اضطراب أو اصرار أو تلثم. فكل ذلك له دخل في تكوين اعتقاد القاضي في الجريمة والفاعل. وبحسب اعتقاده الإدانة أو البراءة يصدر حكمه. وليس لمحكمة النقض والإبرام سيطرة عليه في هذا. وإنما سيطرتها على الإجراءات والخطأ في التطبيق فقط.

ومن الامثلة على ما قدمت: أن قتل قتيلاً من أسرة شتا المشهورة في الجهات البحرية من مديرية الغربية وهو جمال الدين شتا: وكان القتل بمنزل الأسرة بدرب الأبيهي بطنطا، وشرعت النيابة في التحقيق واتهم بالقتل أحد أبناء الأسرة، فجاء خادم المنزل وأقر طائعا مختاراً أنه هو القاتل. ولما قدمت القضية إلى المحكمة وحصلت المرافعة حكمت ببراءة القاتل - المعترف بالقتل والمصر عليه إلى ما بعد النطق بالحكم - وحكمت على قريب القتل بالسجن.

يا قوم إن شعرة واحدة توجد بين أطراف القتل - تحلل كيمائيا ويقابل تحليلها بتحليل شعرة من المتهم - تكفي لجعله متهماً وللحكم عليه بأنه مرتكب الجريمة ويعاقب عليها. وقطعة من القماش توجد بين أسنان القتل يوجد نظيرها مقطوعاً من ثياب المتهم كافية لاعتباره قاتلاً.

لا؛ بل قطعة من المواد البرازية تكفي للدلالة على المتهم واعتباره مجرمًا؛ إذا اتحدت العناصر الأصلية في العينة التي وجدت بمكان الجريمة بالعناصر الأصلية في براز المتهم. بل أثر حذاء المجرم إذا وجد في مكان الجريمة أو في المكان الذي وجد فيه أثر للمسروقات كاف لاعتباره مجرمًا والحكم عليه بالعقوبة. وكذلك وجود أثر عضة في جسم القتل تكفي لإثبات الجريمة على المجرم متى ثبت أنها أثر أسنان المتهم. وكذلك وجود أثر عضة في جسم المتهم. وكذلك وجود أثر عضة في جسم المتهم تثبت عليه أنه القاتل، متى قورنت بأسنان القتل ووجدت مطابقة لها.

أما كان الأجدر بأصحاب الفضيلة أن يكلوا الأمر في هذا الشأن - الذي لم يدرسوا فيه سطرًا ولم يقرؤوا عنه صفحة واحدة من كتاب - إلى من هم أولى به وأقوم عليه.

وأما ما قالوه من أن الارتعاد والاضطراب قد يحصل للبريء، للأسباب التي أبدوها؛ فقد تكفل خطاب مدرس التحقيق الجنائي بمدرسة البوليس بالإجابة عنه؛ إذ يقول «على أنه يجوز أن المتهم البريء يجزع عند رؤية القتل؛ ولكن جزعه لا يبدو وهو خارجي أكثر منه داخلي لرؤية المنظر فقط، ولا بد أن يعود حالاً إلى الحالة الاعتيادية الأصلية لا الحالة الثانوية التي ستكلم عنها».

ويعجبني جداً قول اللجنة «وهي لا تحصل للقاتل غالباً» أي أن القاتل يغلب عليه ألا تعروه رعدة إذا عرض عليه القتل. وأنا أنزه حضرات أعضاء اللجنة عن أن يكونوا قد باشروا القتل مجتمعين أو منفردين، وقد جربوا أن الرعدة لم تحصل لهم حين عرض عليهم القتل! فكيف علموا ذلك؟

إن أهل الفن الذين درسوا ومارسوا ورأوا مئين من القضايا يقولون إنه لا بد من حصول الجزع أو الجذل للقاتل حين يرى قتله، وكل من الجذل والجزع أمارات على حصول القتل تبعاً للعوامل النفسية التي اعترت القاتل، وأما حضرات أعضاء اللجنة فيقولون إن ذلك لا يحصل للقاتل، فأى الفريقين أحق بالاتباع؟ إن رجال القوانين يقدرّون القرائن والأحوال النفسية قدرها ويعولون عليها في قبول شهادة الشاهد أو ردها.

هذا الأستاذ محمود حسن وكيل وزارة الداخلية - سابقاً - والمستشار الملكي بوزارة المالية حالاً يقول: اشترطت القوانين أن يؤدي الشاهد شهادته شفاهاً، واعتبر علماء النفس كيفية الأداء وسيلة من وسائل تحقيق صحة الشهادة، لما يبدو على الشاهد وقت الأداء من تأثر أو انفعال كالاضطراب والحركات أو الغضب أو اصفرار الوجه، وغير ذلك من التغيرات، وصعوبة الأداء أو سهولته، والعبارة التي يؤدي بها شهادته، والتأني والتردد، ودرجة تأكيده للوقائع التي يشهد بها.

كل هذه يرى علماء النفس أنها أمارت تبدو على الشاهد أراد أو لم يرد، فهي تتكلم دائماً وهي تصدق دائماً. أما اللسان فقد يسكت وقد يسير في غير الطريق المستقيم بخلاف تلك الأمارات أ. هـ.

فهل يرى القارئ الكريم أن اتباع أعضاء اللجنة واجب في مسألة هم أبعد الناس من العلم بها! أو الواجب اتباع رأي أهل الخبرة الذين يقولون عن علم ودراسة؟

جاء في صفحة ١٣١ من كتاب التحقيق الجنائي «القسم الفني»:

«أمثلة القضايا المحكوم فيها بدليل بصمات الأصابع والأيدي الشأن المهم في اكتشاف مرتكبيها أو=

تعزيز الأدلة عليهم، وصدرت فيها الأحكام منصوصاً في أسبابها على ذلك، ولا نستطيع أن نحصرها لكثرتها، على أننا سندكر على سبيل المثال قضية الجنائية «نمرة ١٨٥٣ سنة ١٩٢٥ عابدين» ويتضح من بيان ما جاء بنص حكم محكمة جنايات مصر الصادر بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٩٢٧ وقائع الدعوى فيها، وأن بصمة أصبع المحكوم عليه التي تركها سهواً عنه في محل الحادثة على الآنية الزجاجية التي كان بها بعض المصاغ المسروق، هي التي دلت عليه، بل كانت الدليل الوحيد القاطع الذي أخذت به المحكمة في الحكم عليه.

الحكم وأسبابه

وحيث إنه بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٥ وقعت سرقة في منزل الخواجة الفريد عفيف وآخرين بواسطة مفاتيح مصطنعة حالما كانوا غائبين عن المنزل، ولما حضروا وتبينت لهم سرقة مصوغاتهم ونقودهم وأوراق مالية أخرى بلغوا البوليس. وهذا لاحظ عند المعاينة وجود بصمة أصبع على آنية زجاجية من الألوان التي كانت بها بعض المصوغات المسروقة فحافظ عليها وانتدب أحد موظفي قلم تحقيق الشخصية لإجراء اللازم نحوها فهذا الموظف رفع هذه البصمة بواسطة الفتوغرافية، ثم بعد ذلك أخذ البوليس يتحرى ويضاهي بصمات أصابع المشتبه في أمرهم والمشهور عنهم ارتكاب السرقات، وخصوصاً سرقات الخزانات الحديدية. حتى استدل على المتهم «عزب سلامة» الذي كان وقتئذٍ مقبوضاً عليه في سرقة من السرقات الكبيرة بناحية «بيلة» فأحضره وأحدث بصمة أصبعه الإبهام ليدل اليسرى مع شخص آخر كما أخذت بصمات أصبعه الموجودة له بأوراق الفيش، وأجريت عملية المضاهاة بمعرفة الموظف المذكور فتيين له بطريقة واضحة أن البصمة الموجودة على الآنية الزجاجية هي بصمة أصبع عزب سلامة المذكور.

وعلى ذلك قدمت النيابة القضية ضد المتهم المذكور بهذا الدليل وحده، في الجلسة طعن المحامي عن المتهم على أعمال نجيب أفندي تادرس موظف قلم تحقيق الشخصية المذكور، وطلب تعيين خبراء آخرين في هذا الفن لبيان الحقيقة. فالمحكمة نذبت محمد بك شعير وحسن بك رفعت الملمين بهذا الفن، وقررت أيضاً أن ينضم نجيب أفندي تادرس إليهما في العمل، وذلك للاطلاع على البصمة التي وجدت على الآنية الزجاجية المضبوطة وعلى صورها الفتوغرافية، ومضاهاتها على بصمات المتهم الموجودة بالأوراق، وعلى ما يأخذونه من البصمات وقت العمل وبيان ما إذا كانت البصمة الموجودة على الآنية الزجاجية هي عين بصمات المتهم أم لا؟ وقد قام الخبراء بهذه المأمورية وقدموا تقريراً جاء مؤيداً لتقرير نجيب أفندي تادرس وأوضحوا فيه أيضاً أنهم وجدوا (١٦) علامة في بصمة أصبع المتهم منطبقة على العلامات الموجودة في بصمة الآنية الزجاجية.

وحيث أن المحكمة تأخذ بهذا الدليل القاطع لما ثبت علمياً «من عدم تطرق الشك إليه».

وحيث أن المتهم له ثلاث سوابق في سرقات - وهي المبينة بصحيفة سوابقه - وتلك السوابق تجعله عائداً .. فلهذه الأسباب .. حكمت المحكمة حضورياً باعتبار عزب سلامة مجرماً اعتاد الإجرام وإرساله إلى المحل المخصوص ليسجن به طبقاً للمادة الأولى من دكريتو الإجرام إلى أن يأمر وزير الحقانية بالإفراج عنه.

ومن الأمثلة لتقرير الأدلة قبل المتهم - أي بالقرينة - القضية نمرة ١٤٦٨ جنح جزئية عابدين سنة ١٩٢٦ وقد صدر الحكم من محكمة عابدين الجزئية على المتهم - الذي وجدت بصمة يده وكانت =

= الدليل الوحيد على ارتكابه جريمة السرقة بالحبس شهرين مع الشغل يوم ١٩٢٦/٩/٩. ألم يأتكم يا حضرات الأفاضل نبأ الجريمة التي هزت فرنسا؟ تلك الجريمة التي نقلت جريدة الأهرام تفصيلها عن الجرائد الفرنسية في شهر أكتوبر سنة ١٩٣٣؟ تلخص تلك الجريمة في أن رجلا له بنت وحيدة في مقتبل العمر - مستهتر في إرضاء شبابها، تأوي إلى حي الطلبة، كثيرة الأخلاء - وجدت أحد خلانها يشتهي أن يقتني سيارة؛ فصممت على قتل أبيها وأمها وإرسالهما إلى الدار الآخرة، وأن تستولى على ما عندهما من نقود ليقتني خليلها سيارة، ولتمتع هي وهو بما بقي في السرف والبذخ، فعمدت إلى والديها فدست لهما السم. فأما والدها فلم يتوقف في سبيله إلى الآخرة، وبزت منه بضعة عشر ألف فرنك. وأما والدتها فصابرت الموت وتشبثت بأذيال الحياة، فأثخنتها بالجراح حتى وثقت من أن ذلك كاف لإزهاق روحها، وابترزت منها ألفا وخسمائة فرنك. وأسرعت إلى حي الطلبة - حيث ينتظرها خليلها - وظلت في رقص ومعاورة وما يتبع ذلك ثلاثة أيام.

أما أبوها فقد علم به البوليس وأمرت الحكومة بدفنه، وأما والدتها فقد عثر عليها فاقدة الصواب فعولجت من السم وضمدت جراحها ونجت من الموت.

لما عثر البوليس على الفتاة في بعض المراقص ومعها بعض أخلائها واسمها «فيوليت نوزير» وسئلت عن الجريمة اعترفت بها في غير خوف ولا وجل ولا حياة، وقالت: إنها قتلت أباه انتقاما منه «لشرفها» الذي دنسه لأنه كان يكرهها على الزنا بها. ولما حان الوقت لمواجهتها بوالدتها كان المنظر مروعا واليك ما جاءت به جريدة الأهرام في العدد ١٧٥٦٠ - الصادر في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢ على مسرح الحياة:

الجريمة التي هزت فرنسا

مواجهة البنت بالأم

«لن أغفر لك إلا بعد الحكم عليك... بعد موتك»

يرمي القضاء بالمواجهة أن يصل إلى قبس جديد ينير السبيل للعدالة. بيد أن مواجهة فيوليت نوزيرين - قاتلة أبيها وأمها لم تأت بشيء يذكر؛ لأن التأثير بلغ مداه حتى أنه لا القاضي ولا المحامي قد استطاع أحدهما أو كلاهما أن يتدخل ويوجه أقل سؤال:

أما الأم فكانت لا تزال نزيلة مستشفى سانت أنطوان، فما طلع صباح اليوم المحدد للمواجهة حتى لم يعد في شارع المستشفى موضع لقدم، وفي الساعة السابعة صباحا لزم الأمر لتدخل البوليس لحفظ النظام وإفساح الطريق للسيارات، وكان الجمهور يتلطف على رؤية الفتاة القاتلة. وكان يعلم أنه سيؤتى إلى المستشفى بالتي سمت والديها، فهو يريد أن يتملى من تلك الخلقة الغريبة عنده. وبعد ذلك يعود الناس يحدث بعضهم بعضا «بأنهم قد شاهدوا...».

بيد أن كل الذين انتظروا الساعات الطوال قد خاب أملهم، لأن البوليس خشي أن يلحق بالفتاة اعتداء من الجمهور الكاره لها - فساقها من السجن في مركبة مغلقة إلى باب صغير خلفي بالمستشفى مخصص لدخول الأطعمة والأدوية. وكانت في ذلك الثوب الأسود الذي قضت به ليالي الهوى الأخيرة. ولم تفه بكلمة وعرضوا عليها طعاما، فأكلت قليلا. وجلست معتمدة رأسها بيدها وقد تاهت نظرتها؛ تنتظر...

وفي تلك الأثناء كان قد وصل المسيو لنوار قاضي التحقيق ورئيس النيابة والمحاميات عن فيوليت نوزير، والطبيب الشرعي، ومندوبو الصحف.

وجاءوا بالأم محمولة على عربة يد من غرفتها إلى القاعة التي أعدت بالمستشفى للمواجهة - وبدأ الاستجواب. وبعد الوصول إلى تفاصيل السرقة الأخيرة، وعن وقوع الأم مغمى عليها، وعن تذكرة الطبيب المزورة - التي ادعت الفتاة بأنها قد اشترت الدواء بموجبها وكان ذلك الدواء هو السم الزعاف - بدأت المواجهة. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة.

فقال قاضي التحقيق مخاطباً فيوليت نوزير: «والآن! أواجهك بأمك». فإذا دموعها تنسكب مدراراً للحال. وإذا بها تزفر وتنشج نشيجاً مؤلماً وتصرخ صراخاً غامضاً. وأشارت بيدها كأنها تقول «لا! ولم تنهض، ولكن المواجهة كانت أمراً محتوماً. ودنا المحاميان من الفتاة كما لو كانا سيشدان أزرها.

وفتح الباب الفاصل بين القاعتين: فكشف مشهد له الهول. فهناك على مقعد كبير امرأة غارقة في ضمادات الجروح، شاحبة شحوباً لا يخفي شبابها وجمالها. وما أن فتح الباب حتى اعتدلت في جلستها وأدخلت عليها فيوليت فصرخت الأم:

«فيوليت! فيوليت! فيوليت! اقتلي نفسك! ماذا صنعت؟ فيوليت! فيوليت. لقد قتلت أباك ذلك الذي كان طبيباً الطيبة كلها! لقد قتلت ذلك الرجل! أما أنا فلست شيئاً! ولكن أباك يا فيوليت!! زوجي! أبوك!...».

وتحشج صوتها وغص بالعبرات، وكأنها تريد أن ترتمي بكل جسمها إلى الأمام، ثم إذا بصوتها يعلو بالألم والحقد معا:

«فيوليت! أبوك! أطيب الرجال! اقتلي نفسك .. اغربي .. انتحري...».

ووقف صوتها ثانية. وكأن فيوليت قد جعلت تتلاشى وتفنى من الوجود. فجعلت تزفر وتبكي بكاءً مرأ. كان الطبيب شديد التأثر موزع القلب بين الأم والبنيت وكان الجميع. كأن على رؤوسهم الطير. وعاد صوت الأم يقول:

«فيوليت؟ أبيك؟ تتكلمين؟ تقولين؟ تتهمين؟ أباك! مثل هذا الرجل أين مثله؟ انتحري يا شقية! فلن أغفر لك جرمك أبد الدهر!...».

فانهارت الفتاة من طولها كأنها بيت مشيد قد سقط. وكان اليأس قد هدمها وسال معها مدراراً وزحفت إلى قدمي أمها زحفاً، وكان الحضور قد عصرت قلوبهم واشتد خفقانها وحزنها، وزاد ذلك ما سمعوه من البنيت إذ قالت بصوت متمزق متمزق:

- غفرانك يا أمه غفرانك!..

«كلا!.. فلن أغفر لك أبداً!...».

وكان صوت الأم عندئذ قد ثبت وتجلى، فإن ما لقيته من أهوال واستعرضته في تلك الدقيقة قد أعطاها قوة جديدة.

أتوسل إليك يا أمه أن تسامحني! «كلا! أبداً».

صفحاً يا أمه! «سأصفح عنك بعد الحكم عليك، عندما تنزلين إلى قبرك!...».

سكوت وصمت! بكاء وألم! ضيق وانزعاج! أم موتورة صارخة باكية، وبنيت يائسة متهدمة، وشهود=

في حزن ليس بعده حزن! وتمنى الجميع أن يوضع لهذه المواجهة حداً. وهي لم تكد تستغرق ربع الساعة، ومع ذلك كانت ممثلة بالهول والرعب والويل، وكان من صالح الأم المريضة نفسها الكف عن إيلامها. ولم ينس قاض أو محام بيت شقة. وكان المشهد لم يسبق له مثيل في تاريخ القضاء. وكان الجميع - من قضاة ومحامين ورجال الشرطة وأطباء وممرضين قد عجزوا عن استبقاء دموعهم فانسكبت، وقد بلغ تأثير القاضي حداً جعله لا يملئ كاتبه شيئاً.

وصرح الطبيب الشرعي فيما بعد أنه منذ أربعين عاماً لم يشهد مثل هذا الموقف الفاجع، وكان الأستاذ هنري جيرو - محامي الفتاة، وهو نفسه محامي جرجولوف الروسي قاتل رئيس الجمهورية الفرنسية السابق الميسو بول دومير - قد تأثر عندئذ أكثر مما كان متأثراً! إذ سار إلى جنب موكله جرجولوف عند الفجر، منذ بضعة أشهر إلى المصلحة .. فهو هنا قد اهتز وارتجف من قمة رأسه إلى قدميه لهذه الأم التي تحكم وتأبى الصفح.

وانتهى المشهد ... ولزمت الأم عندئذ الصمت. وألقت برأسها إلى الخلف، وثبت نظرها كأنه قد تسمر بالسقف ولم تلق على ابتها نظرة - إذ أخذوها عنها إلى السجن - وعادوا بها على محلها إلى غرفتها. وتأجلت المواجهة من جديد شهراً.

لقد قالت الأم كلمتها الأولى. وهذه الكلمة هي حكم بوضع رقبة ابتها في جبل المشنقة .. على أن حضراتهم لو سألوني مسترسلين لأجبتهم بأنني لم أدع أن الرعدة هي الدليل الوحيد الموصل إلى القتل قصاصاً؛ بل أقول لهم إنما رعدة المتهم باب يوصل إلى الاعتراف المؤيد بالأدلة المادية الشاهدة على صدقه في اعترافه؛ وحينئذ يكون دليل القصاص ليس هو الرعدة فقط؛ بل ما أدت إليه من الأدلة المادية - والرعدة أساسه.

فالرعدة الحاصلة للمتهم عند توجيه التهمة إليه هي ظاهرة من هذه الظواهر التي كثيراً ما تعترى المجرم الحقيقي فتضيق دائرة الاتهام أمام المحقق فيسعى في جمع الأدلة في هذه الناحية واستخراج الواقع من تضاعيف تصوراته؛ لأن نفس المتهم تصغر، وتضعف عنده قوة المقاومة فيستسلم أمام الحقيقة ولا يجد مناصاً من الاعتراف الصحيح.

قد يحصل أن تشهدوا المتهم وهو يسأل عن جريمته، وترونه جريئاً ثابتاً في نظركم في وقت يراه فيه المحقق المجرم مضطرباً مذعوراً وأنتم لا تعلمون.

فالمسألة فنية محضة يعرفها أرباب الفن وأهل الدراية الخاصة.

حضرات أصحاب الفضيلة عندي - في موضع الاحترام والإجلال - لذلك لا أريد أن أجبههم بعدم الثقة بقولهم الصادر من غير تجربة ولا خبرة؛ بل أسكت وكفى.

وأما ضربهم المثل بالطبيب الذي يزاوِل التشريح، وأنه يتأثر أول الأمر ثم يزول ذلك التأثير منه! فإني أجيب حضراتهم بأن المشرح بوصف أنه طبيب يعمل ذلك وهو مطمئن القلب جازم بأن عمله ليس وراءه مسؤولية، ولا يظن أن تبعة عمله ستوقف موقف الاتهام، بل يرى أنه يقوم بواجب يجب عليه أداؤه، والمسؤولية إنما تترتب على التقصير فيه.

لذلك نراه مطمئناً هادئاً؛ بخلاف المجرم فإن شعوره بفداحة الجريمة التي اقترفها وبعظم المسؤولية يجعله مضطرباً أبداً فالقياس على الطبيب قياس مع الفارق. وأيضاً فإن الطبيب إذا كان مشرحاً أو معالجاً غيره إذا كان مجرمًا أثماً.

قال حضرات أعضاء اللجنة «هذه خمسة أوجه تدل على خطأ هذا الرأي من الوجهة العلمية» وأنا أوافق حضراتهم موافقة تامة على أن هذه - خمسة أوجه - تدل على خطأ الرأي من الوجهة العلمية، ولكن أي الفريقين هو المخطئ!

إن أدنى نظر يهدي من اطلع على نقدكم وردي عليه إلى نسبة الخطأ إلى الفريق الذي ارتكبه؛ فنظر القارئ كاف! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ونظر القارئ إلى ناحية الصواب أنفذ، ورأيه في الحكم لي أو لهم أعلى.

طريف جدا قول اللجنة «وهناك وجه سادس لا نبديه لفضيلة الأستاذ... إلخ».

فقد أرادوا أن يلهبوني بالسياط على أرجل قوم آخرين - لا أعلمهم - فهل هم بذلك يريدون أن يتأسوا بقول القائل «ياك أعني واسمعي يا جارة»؟ قال أصحاب الفضيلة بعد ذلك «وأما الوجه الأول: وهو تصدير الموضوعين بقوله تعالى (وإذ) فلا يدل على أنهما قصتان منفصلتان - سببا وحكما - إذ يمكن أن يقال إنهما قصة واحدة، كما وردت بذلك الآثار وكما هو المعقول».

أقول: وهل قلت في كتابي غير هذا يا حضرات أصحاب الفضيلة المدققين؟ لقد قلت في ص ٢٤٢ - ٢٤٣ «والذي أريد أن أخرج به من هذا البحث: هو أن القول بأن القصة الأخيرة مرتبطة بما قبلها ليس متعينا. وأن مسألة ضرب القتيل بجزء من البقرة فحيي وأخبر بقاتله لم يرد به نص قطعي الثبوت والدلالة؛ وأن الرأي الذي رأيته تحتمله الآية. والله موفق للسداد».

وها أنتم تقرررون ما قررت «إذ يمكن أن يقال إنهما قصة واحدة» وهذا عين ما قلته فأين موضع الرد يا حضرات الأجلاء الأعلام! وعلى أي شيء تخالفنا؟

وإني أختتم الكلام في مسألة البقرة بأن أتقدم إلى أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة بهذا السؤال:

ما قولكم دام فضلكم في رجل قال لزوجته: أنت طالق إن كان موسى رسول الله عليه الصلاة والسلام أو أحد من بني إسرائيل قد ضرب ببعض البقرة - التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها فذبحوها وما كادوا يفعلون - قتيلا فحيي القتيل وأخبر بني إسرائيل باسم قاتله! فهل يقع عليه الطلاق بذلك وتحرم عليه زوجته في الحال وتحل لغيره بعد العدة، مع أن حلها لزوجها ثبت بيقين فلا ترفع إلا بيقين مثله، وحرمتها على غيره ثبتت بيقين فلا ترفع إلا بيقين مثله؟.

وهل صاحب الفضيلة الشيخ الكبير - مفتي الديار المصرية - يفتي بحرمتها على زوجها بمقتضى هذه الآية! ويعتبرها نصاً قطعي الثبوت والدلالة على حياة قتيل بني إسرائيل وإخباره بقاتله؟ وهل فضيلته لا يرى حرجاً في أن يشهد على الله تعالى، بأن طلاق المرأة على ذلك شرعه الذي رضيه لأهل الإسلام؟ أسأل الله تعالى لي ولأعضاء اللجنة الهداية إلى سواء السبيل.

بعد هذه السياحة الطويلة، أقول لحضرات أعضاء اللجنة الأجلاء: إن الاحتمال الذي طرقت في مسألة البقرة - وطلبت رأي حضرات العلماء فيه - قد رن صدها في معهد الدراسات الجنائية بكلية الحقوق، وصار له في أنفس الدارسين لعلم النفس الجنائي والمحاضرين مكانة مكيئة، وقد تناولوه في محاضراتهم بالبحث والدرس والتحليل، وما كنت أظن أن يكون لهذا الوجه هذه الأهمية وأن يكون علماء النفس المتناولين له وأنا حي أرزق؟

فهذا النجاح الذي نلته، لا سبب له سوى أعضاء اللجنة! جزاهم الله خيراً عما وصل إليّ على أيديهم من خير وإن لم يقصدوه.

= وهل أتى حضراتهم: أن الروايات التي أوردها المفسرون في شأن البقرة والقتيل؛ الذي يدعون أنه ضرب ببعضها فحيي إلى آخره إنما هي إسرائيليّات؟
قال الحافظ ابن كثير - بعد أن سرد الآثار الواردة في شأن البقرة - وهذه السياقات عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم؛ فيها اختلاف والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها. ولكن لا تصدق ولا تكذب فلهاذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا والله أعلم.
ونقل في تفسير المنار قول ابن كثير «أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب».

وحيث قد ظهر من كل ما تقدم أن مسألة ضرب القتل ببعض البقرة فحيي وأخبر بقاتله لا تستند إلى نص قطعي الثبوت والدلالة، وأن أكثر ما فيها من الإسرائيليات فيكون الحري على ذلك القول غير متعين، ولا حرج على من يفهمها على وجه آخر، ما دام محافظاً على أسلوب الكتاب الكريم غير مخل بمقصد من مقاصد الدين، ويكون ما أورده وجهاً محتملاً، وهذا ما أردته.

استدراك

قال حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة «وعلى تسليم الإطلاق، يكون المقصود من هذه الجملة هو براءة المتهم غير القاتل دون إظهار القاتل الحقيقي المقصود من القصة».
أقول: إني أشهد الله وجميع خلقه وأسأل أهل الأرض قاطبة؛ عن جماعة أريد امتحانهم بعرض القتل عليهم، وضرب كل واحد منهم بيد القاتل - مثلاً - فأمضى كل واحد منهم الامتحان - بدون تغير ولا اختلال في موازين عقله وحركات نبضه - إلا واحداً أخذته الرعدة وعراه من هذه المشاهدة ما يعرف من أصيب بمس، وظهر عليه من أمارات الجزع والاضطراب شيء لم يظهر على غيره من الجماعة؛ فهل تحكمون بأنهم جميعاً في البراءة من سفك دم القاتل سواء؟ ويكون من ظهرت عليه أمارات من ذلك بريئاً براءة جميعهم؟ وهل جميع الحكام في الدنيا عندهم من طيبة القلب والرفق ما عند حضرات الأعضاء، فيأمرؤا لمن ظهر عليه الاضطراب وحده بمكافأة حسنة ويخصوه برعاية وملاطفة لا يجدها من أبيه وأمه؟ إن نظر القراء في الموازنة بين ما قلت وما قالوه كاف! ولا ألجأ في الحكم - على شأن الذي انفرد بالاضطراب والارتعاد إلا إلى ضمائر حضرات القراء.

وأما قول حضراتهم «وأين هذه التعسفات من المعنى المشهور للآية» فهو آية فخار لي وعنوان شرف أحرص عليه، ليس شيئاً في جنبه ما نلت من أوسمة أو دبلوم؟ قالوا «(كذلك) أي كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القاتل بضربه ببعض البقرة - يحيي الله الموتى يوم القيامة بالبعث فيكون إثباتاً للبعث الذي كثر منكروه، بالمشاهدة لمن حضر تلك الحادثة».

والذي أقوله: إن السياق الذي جاءوا به في هذه الجملة يدل على أنهم يرون أن الباعث على إحداث الله تعالى هذه المعجزة - التي يقولون بحصولها وهي إحياء القاتل بضربه ببعض البقرة - أن يثبت موسى لبني إسرائيل ما ينكرونه من البعث وإحياء الله الموتى. وأنى لهم أن يشبوا أن بني إسرائيل قد أنكروا البعث يوم القيامة؛ فأوجد الله تعالى حادثة قتل القاتل والتدافع فيه - إلى غير ذلك مما يحكونه في تلك القصة - ليبرهن لبني إسرائيل على قدرة الله تعالى على إحياء الأنفس بعد موتها في الدار الآخرة؟ وأن الآيات التي صنعها الله لهم من قلب عصا موسى حية، واليد، وسائر الآيات التسع التي ضرب بها المصريون وفرعون، ونجاة بني إسرائيل بقلق البحر، وضرب طريق لهم في البحر يبسا، =

القتيل ضرب بجزء من البقرة فحيي وأخبر بقاتله فأخذ وقتل . ويذكرون للبقرة حكايات وروايات وغرائب ما أنزل الله بها من سلطان.

أما قولهم: إن القاتل ضرب ببعض البقرة فحيي وأخبر بقاتله، فهذا شيء زائد على ما نص في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وكل ما

= وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى لهم، ونق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وإنباط الماء من الصخر - بضرب موسى الحجر بعصاه - كل ذلك لم يكفهم بل طلبوا أن ينظروا بأعينهم إحياء الله الموتى إلى أن كان ما كان مما يقولون؟ فأين ما يدل على ذلك من الكتاب الكريم؟

قرأت في جريدة الجهاد الصادرة في هذا اليوم «٢٨ يونية سنة ١٩٣٦» خبراً جاء فيها، عن معاينة النيابة ورجال المباحث لمكان وقعت فيه جناية قتل فيها شاب فرنسي في حجرته، وكان مستخدماً في محل «فلوران» وقد جد البوليس في تتبع الجريمة حتى انتهى إلى اتهام اثنين بالقتل، وقد ذهبت النيابة وضابط المباحث لمعاينة مكان الجريمة، بعد أن اعترف بها أحد المتهمين «عطية».

وإلى القراء ما جاء في «الجهاد» عن ذلك: وقد بدأت المعاينة في غرفة القاتل ثم انتقل حضرة المحقق إلى الغرف والممرات المحيطة بها التي مر منها المتهمان قبل تنفيذ الجريمة وبعدها.

وقد علم مندوبنا أن المتهم «عطية» اعترف في التحقيق الذي أجرته النيابة، غير أنه لما استأنف حضرة المحقق صباح أمس التحقيق معه أصر على الإنكار، وكان يمتنع عن الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه. وقبل أن تتم المعاينة أخذ المتهم «عطية» يصيح بأعلى صوته «مظلوم يا ناس حرام عليكم» ولما سيق إلى غرفة بها آلة للفرم، وقف بجوارها وهم بأن يضرب رأسه بها، ولكن حارساه تداركاه فمنعاه.

وقد عمل حضرة المحقق على الوقوف على كيفية تمكن المتهمين من الوصول إلى غرفة القاتل وتنفيذ القتل؛ غير أن الحالة النفسية التي كان عليها المتهم عطية حالت دون إتمام المعاينة.

ومما لاحظناه أن المتهم عطية كان في ذهول يدل على أنه يعاني من تأنيب الضمير آلاماً وانفعالات اهـ. المراد منه.

ففي عرف حضرات الأفاضل أعضاء اللجنة أن هذا المتهم «عطية» الذي عراه الانفعال والذهول بريء من جريمة القتل؛ لأن الانفعال عند معاينة مكان الجريمة إنما يصيب البريء لا المجرم هذا عرف حضراتهم. والواجب على الحكومة أن تقدم هدية لهذا المتهم المنفل، وأن تقضي ببراءته؛ لأنه ظهر عليه الذهول والانفعال. وكل ذلك في عرف حضراتهم أمارة البراءة غالباً.

وهكذا يكون القدر البريء الراقي للبحوث العلمية العالية.

وقفت على حكم «طنوب» واقتطفت منه ما يأتي:

عبد الغفار السيد منصور، منجود علام علي، بسيوني أحمد عبد الغفار، عبد العزيز سيد أحمد قتلوا بطنوب عمداً «عبد الحميد موسى أبو سعدة» بأن ذبحوه وقطعوه مع سبق الإصرار - ليلة ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ - وقد حكم على الأول بالإعدام، وعلى الثاني والثالث بالأشغال الشاقة، وبراءة الرابع «في القضية نمرة ٢٧٦ - إحالة سنة ١٩٢٠، كان رئيس الجلسة صالح بك حقي، وتاريخ الحكم ٢١ يولييه ١٩٢٠».

قُصُّوه في هذا الموقف في كتبهم ليس إلا إسرائيليات تلقفها أولئك المفسرون من مسلمة أهل الكتاب، أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه الذين لا يبالون بما ينسبونه إلى كتاب الله التوراة، والتوراة خالية منه بالمرة وقد أفاضوا على المسلمين ثروة من تلك الإسرائيليات التي لم ينزل الله بها سلطاناً ولا يمكن أحداً من المسلمين أن يجعلها برهاناً على أمر من الأمور.

وإذا كانت المسألة خالية من نص قطعي الثبوت والدلالة جاء في القرآن الكريم ومن نص عن المعصوم عليه السلام تجب به الحجة وتثبت به القضية، وليس فيه سوى تلك الإسرائيليات المعلوم أمرها كان من الظلم أن تفسر العقول على فهم وجه ليس به حجة ولا برهان، وأن تكف عن فهم كتاب الله تعالى على وجه مقبول في العقول سائغ في الأفهام.

(ثانياً) أريد أن أناقش الوجه الذي فسروا عليه آيات الكتاب الكريم وحملوها من المعنى ما لم يأذن به الله فأقول: إذا فرضنا المستحيل في العادة وأن القتل حيي وأخبر بقاتله، فما فائدة ذلك؟

إننا نعلم أن القتل إذا أحيي بعد قتله كان حكمه حكم سائر الناس، فهو مخاطب بأحكام الشرع فإذا شهد فلا تقبل شهادته وحده، بل لا بد من قيام نصاب الشهادة، فإذا شهد بمال لواحد من الناس على إنسان فلا بد من شاهد آخر. وإذا شهد بالزنا على أحد فلا بد من شهادة ثلاثة سواء معه ويحد إذا لم يتم نصاب الشهادة ولا بد من الإعذار إلى المشهود عليه فيه كما يعذر إليه في سائر الشهود - لعل له طعناً عليه أو على غيره تسقط به أقواله. ولا تقبل شهادته لأبيه ولا لابنه، كما لا تقبل شهادة سائر الناس بذلك. وإذا أوقع على زوجته طلاقاً وقع كما يقع طلاق سواء. وإذا أقر بمال لغيره على نفسه قبل منه الإقرار وأخذ به - كما يقبل من غيره ويؤخذ به - وإذا ادعى مالاً على الغير لا يحكم له به بمجرد دعواه بل لا بد من إثبات ذلك بالبيينة العادلة. فهو إنسان كبقية الأناسي لا فضل له على سواء ولا مزية له على سائر البشر.

وقتل ثم حياته لم يخرج من البشرية ولم يجعل له حكماً خاصاً به ليس لغيره من الناس. وإذا لم تقبل دعواه في درهم مع قلة خطره فكيف يقبل قوله في الدماء المعصومة! وكيف تهدر بقوله وحده النفس التي لا تباح إلا بحققها من كفر بعد إيمان! وزنا بعد إحصان! وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق!؟

قد يقولون: إنه لما كان إحياءه معجزة كان قوله في الدماء مقبولاً. فإننا نقول إن

المعجزة إنما كانت في إحيائه إذا كانت قد حصلت وكان عنها عود الحياة إليه فلما حيي كان قوله كسائر أقوال الناس - كما نص على ذلك الإمام أبو بكر ابن العربي ونقله عنه القرطبي في أحكامه - وليس من المعقول ولا المقبول في الأفهام أن يقبل قوله في دعوى القتل، وتباح بذلك إراقة الدم المعصوم. ثم إننا نرد دعواه في الشيء الحقيقير التافه كالدرهم إذا ادعاه - فإن الدماء يجب فيها الاحتياط إذ الحياة إذا ذهبت فلا عودة لها في هذه الدار، بخلاف الدرهم فإن خطبه يسير والحصول عليه بعد فوته غير عسير، والأنفس تسمح به؛ بخلاف الحياة التي ليس لها عودة في هذه الفانية.

(ثالثاً) قد تقرر في علم العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور. فإذا طال الكلام وكان مرجع الضمير بعيداً؛ فالبلاغة تقضي بأن يعاد الاسم مرة أخرى ليكون أقرب مذكور ليتأتى عود الضمير إليه بلا تشويش على القارئ أو السامع، وتفادياً من تشتيت الضمائر.

يقول المفسرون: إنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد قتله ابن عمه طمعاً في ميراثه، ثم جاء يطلب بدمه قوماً آخرين. فأنكر الآخرون قتله، وترافع القوم إلى موسى، فأمرهم أن يأتوه ببقرة ليذبحوها ليعين لهم المجرم من البريء فقالوا له إنك تهزأ بنا، فاستعاذ بالله من أن يكون من الجاهلين الذين يهزأون بغيرهم فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ فقال لهم إن الله يقول: إنها بقرة بين الفتية والمسنة وأنها عوان. ثم طلب منهم أن يفعلوا ما أمرهم الله به ولكن بني إسرائيل قوم جبلوا على عدم امتثال أمر الله وعدم المسارعة إلى أوامره؛ بل اعتادوا المماطلة والمطاوله فبحكم عاداتهم لم يمتثلوا. فسألوهم عن لونها فبين لهم أن الله يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين إليها لحسنها. فلم يشاءوا الامتثال وقالوا له: إن البقر تشابه علينا فبين لهم البقرة بأنها غير مذلة بالعمل، وأنها سليمة الأعضاء، وأن لونها واحد لا شية فيه تخالف لون جسمها. فطلبوا تلك البقرة فذبحوها، وبعد الذبح جاء موسى بلسانها وضرب به القتل فحيي وأخبر بقاتله بقدرة الله تعالى. ومع ظهور ذلك كله لبني إسرائيل؛ فإن قلوبهم بقيت على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها ولم تؤثر تلك العجيبة في قلوبهم.

اقرأوا هذه الآيات: -

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا

لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آتِنَا بِهَا بَقَرَةً لَا ذَلُولَ يُثِيرُ الْآرَضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا أَتَنَزَّجِتُ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧١﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهَا بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيُوكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ .

ويكون نظم القرآن في هذه القصة هكذا: قتل بين بني اسرائيل قتيل فتدافعوا فيه، يدفع كل تهمة القتل عن نفسه. فلما ترفعوا إلى موسى؛ أمرهم بذبح البقرة. وبعد المراودة بينه وبينهم وبين الله ذبحوها بعد جهد شديد. يقولون فأمرنا موسى أن يضربه ببعضها فحيى القتيل وأخبر بقاتله ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيُوكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٧٤].

إذا تأمل الإنسان في هذه الحادثة وجدها - إذا كانت قد وقعت كما يقولون - قد اشتملت على معجزة غريبة صنعها الله لموسى، وقد صنع الله له من الآيات في تأييده ما هو أبعد وأعجب ويجد مع ذلك أنها قد حلت مشكلة من مشاكل بني إسرائيل حلاً وقتياً فقط. ففائدتها قاصرة، وخير منها أن يأتيهم بعجبية تحل مشاكلهم أبداً على الدوام.

ظاهر الكتاب يقتضي أن سنة الله في إحياء الموتى دائماً أن يأتي ببقرة تذبح ويضرب من يريد إحياء بعض البقرة فيحيا ذلك الميت وليس مراداً.

أرأيتم لو قتل قتيل اليوم أو قبل اليوم من بني إسرائيل أو من سواهم من البشر وذبحنا أو ذبحوا بقرة على هذا الوصف المذكور في السورة أو ألف بقرة وضرب ببعضها هل يحيا؟ كلا ففائدة هذه الحادثة جزئية لا تحل مشاكلهم على فرض وقوعها.

أما ما جاء في التوراة متعلقاً بأمر ذبح البقرة فيلخص في أن بني إسرائيل فرض عليهم أنه إذا قتل قتيل في الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتيل ويأتون بعجلة من البقر لم يحرق عليها ولم تجر بالنير، ويأتي شيوخ القرية بها إلى واد دائم السيلا لم يحرق فيه ولم يزرع، ويكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة - بنو لاوي - ويباركون الله ويغسل جميع الشيوخ الذين من القرية القريبة من القتيل أيديهم على العجلة. ويصرحون قائلين «أيدينا لم تسفك هذا الدم. وأعينا لم تبصر اغفر لشعبك إسرائيل الذي

فدیت یا رب ولا تجعل دم برىء في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم هذا الدم ا هـ^(١).
 فالنظر إلى التوراة يرى أنها جعلت الأمر شريعة معدة لأن تتبع في النوازل والوقائع
 التي تقع لبني إسرائيل.
 على أن ذلك لا ينافي أن حادثة وقعت عمل فيها موسى ما قصه القرآن. ثم كتب الله
 عليهم أن يكون ذلك شريعة تتبع في الحوادث المستقبلية المماثلة لها.
 وهذا الذي حدث عند بني إسرائيل يشبه في الجملة ما يحدث عند الأعراب في البلاد
 المصرية.

فإن الأعراب إذا قتل عندهم قتيل - لا يعلمون قاتله - واتجهت التهمة إلى قوم
 آخرين أرسلوا إليهم رسولا يقول لهم: إن دمنا عندكم فاذبحوا لنا ذبيحة. فإذا فعلوا جاء
 أولياء الدم وأقسم المتهمون يمين القسامة أنهم لم يقتلوا ذلك القتيل ولا يعلمون قاتله. ثم
 يسوى لهم لحم الذبيحة فيأكلون ويأمن بعضهم بعضاً وتثبت براءتهم من القتل. ويقولون:
 الدم يمسح العيب.

ولي في هذه الحادثة نظر آخر سوى ما ذهب إليه المفسرون.
 هو أننا إذا نظرنا إلى القصص التي قصها الله في هذه السورة قبل هذه القصة - وكلها
 متعلقة ببني إسرائيل - وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى
 (وإذ).

اقرأوا ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾
 [البقرة: ٥٠] - ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] - ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:
 ٥٣] - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ

- (١) - وهذا نصها من أول الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية:
 (١) إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتملكها واقعا في الحقل لا يعلم من قتله.
 (٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل.
 (٣) فالمدينة القريبة من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرق عليها لم تجر بنير.
 (٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرق فيه ولم يزرع ويكسرون عنق
 العجلة في الوادي. (٥) ثم يتقدم الكهنة - بنو لاوى - لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليعدموه ويباركوا
 باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة. (٧) ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة
 القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي. (٧) ويصرخون ويقولون أيدينا لم
 تسفك هذا الدم وأعينا لم تبصر. (٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فدیت يا رب ولا تجعل دم برىء
 في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم ا هـ.

لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴿البقرة: ٥٥﴾ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] - ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠] - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَوَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢].

فهذا النسق المطرد الذي لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها وقد حاك في نفسي أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم وقد قوي عندي ذلك كل القوة.

وها أنا أعرضه على حضرات القراء؛ راجياً أن يعيره حضرات العلماء اهتماماً وأن يوافوني بما يروونه الصواب بعد قتل المسألة بحثاً، حتى إذا ظهر لي الحق عدت إلى ما رسموا ضارباً بقولي عرض الحائط فلست بالمتعنت ولا بالمفتون بقولي ورأيي، ولا ممن تنزهوا عن الخطأ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذلك أن القصة التي أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام؛ بل الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد ﷺ نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاء كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة؛ بل هو يقص علينا نمطاً من تعنتهم وصلابة أعناقهم.

وأما القصة الأخرى المبينة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] فإنه تعالى يقص علينا فيها لوناً من أفضاله على بني إسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بني إسرائيل وعلى جميع البشر الأجيال الطوال.

والذي فهمته من القصة الأولى أن بني إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها. وهي أن شخصاً قد قتل في الحقل. وهم لا يدرون من الذي قتله والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأبي البلاد تلتصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى فما كان جوابه إلا أن قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] - ولما كان الجواب بعيداً في رأيهم عن الغرض الذي جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا موسى ﴿أَلَنَخِذَنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧] - ولما كان موسى إنسان صدق بعيداً عن الهزاء والسخرية بعباد الله - قال لهم: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين الذين يهزؤون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون أي أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتل وأحلفهم عليها بعد ذبحها أي وهي أمامهم أنهم ما قتلوا القتل ولا علموا به وأنهم برءاء من دمه وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما قص ذلك في التوراة.

هذه اليمين في شريعتهم كيمين القسماء عندنا معشر المسلمين. إذا قتل قتيل في محلة غير محلة قومه أو بقرب تلك المحلة ولم يعلم قاتله وكان هناك لوث يقع به في النفس صدق المدعي وهو ولي الدم (واللوث القرينة) حلف خمسين يمينا واستحق الوارث بالقسماء في القتل الخطأ أو شبه العمد الدية في القتل العمد حالة على المقسم عليه ولا قصاص في الجديد لأن القسماء حجة ضعيفة فلا توجب القود احتياطاً للدماء.

وإن لم يكن هناك لوث أو أنكر المدعى عليه اللوث في حقه فاليمين على المدعى عليه. وأظهر الأقوال أنه يغلظ عليه بالعدد. انتهى باختصار من شرح الخطيب على متن أبي شجاع.

فتلك عند اليهود شرع كالقسماء عند المسلمين في الجملة.

وأما القصة الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢] الخ فهي في شأن قتيل وجد قتيلاً في بيته أو محلة قومه أو سقط في معركة فيها جماعة. وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه ولم يتعين قاتله تماماً وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين، والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَذَرْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء. أو هي على الأقل تضيق دائرة الاتهام وتوجه نظر القاضي إلى استنباط الأدلة على المتهم أو من له اتصال بالقتل.

ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربونه بجزء من تلك النفس أي من القتل وهو متصل ببقية الجسم بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء وإذا كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.

وهذا الانفعال قد يكون فرحاً وجذلاً وقد يكون خوفاً ورعدة تبعاً لسبب القتل. وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية وإلى العقل الباطن في الإنسان وذلك أن

القاتل حين يباشر الجريمة - وبخاصة القتل - يكون واقعاً تحت تأثير انفعال خاص يغلي منه دمه - يدفعه ذلك الانفعال إلى ارتكاب جريمة القتل . فإذا سكن ثأثره وهدأت أعصابه، وزال ذلك الدافع الذي أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة، عاوده الندم وتبكت الضمير وصار شبح الجريمة مخفياً في نظره ، ويتمثل له شبحها في كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة والأشياء التي رآها رؤية مقارنة لارتكابها، وتضطرب نفسه ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذكر بشيء من الجريمة .

ويكثر أنه إذا أدخل على القتل أو عرض عليه تألم أشد ألم عرفه، واضطرب، ولم يستطع النظر إليه ولا إلى مكان حدوث الجريمة . فكيف إذا حرك عضو من أعضاء القتل وضرب به القاتل لا شك في أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم في أعصابه لا يطبق معه ذلك المنظر .

هذا إذا كان القتل لحادث عارض، أما إذا كان انتقاماً للشرف أو لثأر فإن الأعراض التي يأتي بها الانفعال تكون فرحاً وجذلاً .

هذا «قائيل» ابن آدم طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، وحرار في أمره لا يدري ماذا يصنع بجثته فلما بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه أدركه الندم فأصبح من النادمين .

وهذا العربي يقول في قريب له أراد قتله فذكر ما بينهما من الرحم فلم يؤثر ذلك فيه فقتله وندم فقال :

فلما رأيت أنه غير منته أملت له كفي بلدن مقوم
فلما رأيت أنني قد قتلتته ندمت عليه أي ساعة مندم

على أنني لا أذهب بكم بعيداً؛ فهذه «مدام ماكوش المالطية» قتلتها ابنتها بمساعدة ابنتها الأخرى وبنت بنتها . وكان الباعث على القتل الحصول على المال وهو ستمائة جنيه كانت عندها . وحصرت الشبهة في ابنتها . فلما أراد المحقق إدخالها إلى غرفة نوم أمها التي ارتكبت الجريمة فيها - وقد هيئت كما كانت وقت ارتكاب الجريمة - أبت أن تدخلها إباء مطلقاً، وقد حكم عليها بالسجن، وذهبت أختها الأخرى لتحاكم في بلاد فرنسا . وإلى الآن لم يصدر الحكم . ونحن في أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٢ وكان حصول الجريمة بالإسكندرية في شهر يونية سنة ١٩٣٢ .

وقد أرسلت خطاباً لحضرة ولدنا الفاضل أحمد أفندي فؤاد عبد المجيد - مدرس التحقيق الجنائي بمدرسة البوليس والإدارة - وسألته أن يمحض لي رأيه في عرض معالم

الجريمة على القاتل المتهم وآراء العلماء القانونيين في هذا الموضوع فجاء منه الرد الآتي :
مصر في يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

سيدي صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الوهاب النجار .
أقبل الأيدي وأدعو لفضيلتكم بكل خير وسعادة .

تشرفت بخطابكم الكريم أمس فقط . ويسرني استمرار فضيلتكم على البحوث العلمية والاجتماعية وهذا يذكرني الأيام الماضية .
وإني بكل سرور أجيب فضيلتكم ولعلي أنال رضاكم كما فزت به عندما كنت تلميذكم .

لم يكتب في هذا الموضوع على ما أذكر أحد من الأوروبيين الإنجليز ولا الفرنسيين على الأخص وقد اطلعت على أكثر كتب التحقيق الجنائي الفرنسية والانجليزية، ولم تزد الإشارة إلى هذا الموضوع في بعضها؛ إلا أن العرض قد يؤدي إلى اعتراف القاتل أحيانا . ولم يذكروا الأسباب كل ذلك لأن هذا البحث خاص بعلم النفس الجنائي .

ولم يوجد للآن كتاب ذو قيمة في علم النفس الجنائي بالذات في العالم الأوروبي، مع كثرة المؤلفات في علم النفس على العموم، لا سيما علاقته بالتربية ونظريات «فرويد» وأتباعه ومعارضيه . وهذه مست نفسية المجرم مساً خفيفاً .

على أن تجاربي العلمية واستنباطي من المؤثرات المشابهة تمكيني من إجابتك على قدر ما وسع علمي وهو لا شك أن القاتل يتأثر لحظة عرض جثة قتيله عليه . وسبب ذلك الانفعال الشديد الناتج من تصور الحالة التي كان فيها مع القتل أثناء ارتكاب الجريمة : فمتى ارتسمت في ذهنه وتصورها هزت أعصابه فارتبكت دورته الدموية والنفسية، ولا تلبث هذه الانفعالات الداخلية ترسم خارجاً على وجهه وبصره وعقله ولسانه فيبدو على لسانه من الكلام ما يدل على ارتكابه الجريمة، وقد يعترف خروجاً من هذا الضيق، وقد يلتمس لنفسه الأعذار الغريبة . على أنه بعد هذه البرهة لا يلبث أن يعود إلى حالة ثانوية وهي حالة العجز أو الحزن، وقد تطول تلك البرهة أو تقصر حسب اعتياد القاتل على ارتكاب القتل فإذا لم يسبق ارتكابه قتل الإنسان أو الحيوان طالت، وإن سبق له قتل حيوان قصرت قليلاً . فإن كان إنساناً قصرت . . . الخ بالتدرج .

ولكن لا بد من هذه البرهة وانفعاله فيها، وظهوره الخارجي يتمشى مع طول أو قصر وجود البرهة .

على أنه يجوز أن المتهم البريء يجزع عند رؤية القاتل؛ ولكن جزعه لا يدوم، وهو خارجي أكثر منه داخلي لرؤية المنظر فقط. ولا يلبث أن يعود حالاً إلى الحالة الاعتيادية الأصلية لا الحالة الثانوية التي ستتكلّم عنها.

أما عودة القاتل إلى الحالة الثانوية بعد تلك البرهة السابق بيانها، فهي حالة جذل أو حزن وهي تستند على الغرائز النفسانية للجاني وارتباطها بسبب الجريمة. فإن كان القاتل انتقاماً لدم أو شرف أو كراهية؛ حصل الجذل وارتسم خارجياً؛ وإن كان القتل لزعل أو دافع من الدوافع الوقتية حصل الجذل وارتسم خارجياً أيضاً. ويكون عميقاً إذا كان القاتل عالماً بداخلات القاتل وما تركه من الأولاد وما كان له من الفضل. والعكس بالعكس.

وقد حصل أن غاب شاب حمّار عن أهله ببلدة «معمل القزاز» التابعة لمركز كفر الدوار وعادت حميره التي كانت معه من تلقاء نفسها دون أن يعود هو، وبلغت أمه بغيبابه، ومن التحريات ظهر أنه رئي مع اثنين يركبان معه، وهذان الشخصان أنكرا بتاتا وقبض عليهما. ووجدت جثة الشاب مدفونة بجوار جسر. وبعرضها عليهما انفعلا واعترفا. إنما كل منهما يرمي زميله بأنه هو الذي ارتكب الخنق بالذات وأعدما شنعاً. وغير ذلك من الحوادث التي لا تعيها الذاكرة.

هذا ما علمته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهذا بحث شيق وسأبحث فيه بالذات إن شاء الله. وإني في خدمتكم وخدمة العلم دواماً. وتفضلوا يا صاحب الفضيلة بقبول أسمى تحياتي ومزيد تشكراتي.

تلميذكم المخلص: أحمد فؤاد عبد المجيد

مدرس التحقيق الجنائي بمدرسة البوليس والإدارة

وقد كتبت إلى ولدنا راغب عطية أفندي معاون بوليس مركز العياط لما أعرفه من اجتهاده وتمرسه بضبط المجرمين ويقظته لأحوالهم. وقد اشتغل في فرع المباحث الجنائية بمصر والجيزة مدة ليست بالقليلة وعينت له حادثة يذكر ما حصل من الانفعال للجاني فيها، فجاءني منه ما يأتي:

حضرة الوالد المحترم صاحب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار.

تحية وسلاماً - وبعد فقد قرأت خطابكم الكريم الذي تسألوني فيه عن ملاحظتي على أحوال المجرمين وموقفهم بإزاء جرائمهم. وخصوصاً عن الأحوال التي شاهدها في حادثة طنوب.

وجوابي على ذلك أن المجرم حين يرى مكان الجريمة يلمحه ببصره ثم يحول وجهه ولا يحب الاتجاه إليه بعد ذلك. وكان حصول ذلك يغريني على الحرص على تفتيش المكان الذي حول وجهه عنه تفتيشاً دقيقاً.

وأيضاً فإن المجرم لا يحب أن يدخل المكان الذي فيه الأشياء التي يحرص على إخفائها، كالمسروقات والحشيش والهوراين والكوكايين، كما حصل من المتهم الذي باشرت ضبط الأشياء التي سرقت من المرحوم السيد باشا شعير بكفر عشنا عنده. وكانت المسروقات نقوداً ونياشين وبراءات وحججاً أخفاها أحد السارقين في إحدى القاعات في بيته. فلما هممنا بدخول القاعة وقف عن الدخول فكان توقفه حاملاً لي على زيادة البحث والتفتيش، حتى أخرجنا المسروقات كلها من الحيطان. وردت إلى صاحبها - عدا بضعة مئات من الجنيهات تصرف فيها السارقون قبل الضبط - وكان ذلك سنة ١٩١٩ .

وأما حادثة طنوب التي سألتني عنها، فهي أنه كان يوجد رجل من «تلا» منوفية اسمه أبو سعده أعطى ثلاثة أشخاص من ناحية طنوب مركز تلا منوفية مبلغ أربعين جنيهاً للتجار في العجول الصغيرة، على أن يكون له نصف الربح في هذه التجارة وللثلاثة النصف الباقي. والثلاثة هم عبد الغفار السقا ومنجود علام والثالث قد غاب اسمه عن ذاكرتي الآن. وقد اتجروا وكانوا يبعثون له في كل أسبوع نصف الربح، وبعد خمسة أسابيع أو خمس أسواق قطعوا عنه نصيبه في الكسب، فجاء إليهم ولقيه الثلاثة، وأضافه عبد الغفار في بيته ومعه زميلاه. وبعد أن تناولوا طعام العشاء قدم له القهوة فيها كثير من الحشيش. ولما فقد الرجل وعيه ولم تبق فيه قوة على المدافعة - لتخدر أعصابه - نقلوه إلى زريبة البهائم، وجاء عبد الغفار «بقرمة» وهي الخشبة، يقطع عليها الجزارون اللحم، ووضع رأسه عليها وفصل عنقه مع الرأس بالساطور. ثم أخرج أمعاءه وفصل أعضاءه من المفاصل، ورمى بعضها في النيل وبعضها دفن دفناً متفرقاً.

ولما جاء أهله للبحث عنه قيل لهم «كان هنا وذهب إلى سوق كذا ولم يعد» وذهب عبد الغفار معهم للبحث عنه في البلاد - وكان يبكي لبكاء أهله - ولما أعياهم الأمر حصروا شبهتهم في عبد الغفار وزميله، وبلغوا النقطة، فاهتمت بالأمر وتولى أحمد بك الخازندار - وكان وكيل النيابة - التحقيق. ولما بحثت لم أجد من أعضاء القتل سوى الرأس ومعه العنق والفخذ اليسرى وإحدى القدمين. ولما عثرت على الرأس - كان بعد ثلاثة عشر يوماً من وقوع الجريمة - أردت أن أعرضه على المتهم عبد الغفار وسألته أهذا رأس القتل؟ فعراه انفعال شديد. ووضع يديه على عينيه جزعاً وكان يتقهقر مبتعداً عن

الرأس مستغيثاً قائلاً «حوشوها من قدامي مش قادر أشوفها» وجلس على الأرض وأبى أن يتقدم لنظر الرأس بتاتاً.

ومع ما تقدم فقد استمر على إنكار القتل واعترف زميله بكل شيء وألصقا به تهمة مباشرة القتل وإعداد كل شيء في بيته. وقدمت القضية إلى محكمة جنايات طنطا سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ فحكم على عبد الغفار بالإعدام شنقاً، وعلى زميله بالأشغال الشاقة المؤبدة.

هذا ما حضرني الآن وتفضلوا بقبول وافر احترامي.

ولدكم

اليوزباشي: راغب إبراهيم عطية

معاون بوليس مركز العياط

١٩٢٢/١٢/٢٢

إن العلم اليوم قد كشف عن بعض الغرائز النفسية وأدخلها تحت سلطانه وأخضعها لقوانينه هذه أمريكا قد اخترع علماؤها آلة تسجيل ضربات القلب - كمًا وكيفاً - فهي تسجل عدد الضربات في الثانية الواحدة، وتبين حالة الضربات إن كانت مرتفعة أو منخفضة. ومن ذلك يمكنهم أن يقرأوا في ضوء هذه الآلة الأحوال النفسية للمتهم في جريمة من الجرائم وطريقة ذلك أن تناط الآلة بمكان نابض من جسمه كالساعد. ثم يذكر المحقق أسماء الأمكنة والآلات والأدوات - التي يمكن أن تستعمل في الجريمة - والأحوال والأزمان التي يمكن أن تقارنها أو يكون المتهم قد لابسها.

فإن المتهم إذا سمع اسم الآلة التي استعملت، عراه انفعال^(١) خاص فنبض نبضه

(١) جاء في كتاب «علم النفس» لحضرات الأفاضل الأساتذة. حامد عبد القادر أفندي وعطية الأبراشي أفندي، ومحمد مظهر سعيد أفندي؛ في الصفحة ٢٦٠ من الجزء الأول منه ما يأتي:

روي أنه عرض - على ابن سينا - أحد الأمراء وقد أعيا الأطباء أمره؛ فلما رآه وخاطبه في شأن مرضه تبين له أن مرضه هو الحب، ولم يشأ المريض أن يوح باسم محبوبته، ولما علم ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته وإزالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها، أخذ على عاتقه أن يعرف اسمها بأية وسيلة. فأمر بإخصار أكبر سكان المدينة سنا. فلما حضر قال له: أتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها؟ قال: نعم، فأمره بأن يذكر أسماء الشوارع - شارعاً شارعاً - وهو قابض على يد المريض ليتحقق من مقدار سرعة نبضه. فلما ذكر الرجل اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض؛ فأمر الرجل بأن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع؛ فلما أتى إلى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية. فأمر الرجل أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة في هذا الشارع الصغير؛ فلاحظ ابن سينا ازدياد نبضه عند ذكر أحد البيوت؛ فقال له: أخبرني عن أسماء =

عاليا متواتراً يتغير به نظام النبض، ثم يعود إلى الحالة الطبيعية. فيأخذ المحقق كل كلمة اقترن بها اضطراب النبض ثم يضمها إلى قريناتها، حتى يخرج بتقرير عن الجريمة وآلتها ومكانها وملابساتها من حصولها في ظلمة أو ضوء، وهل حصلت من المجني عليه مقاومة أو لا؟

وهكذا فالله تعالى - مكون الغرائز ومثبتها في الأنفس - شاء أن يدل بني إسرائيل على طريقة تبين لهم الفاعل إذا تدافعوا في قتل نفس ولم يعلم الفاعل، فدلهم على هذه الطريقة التي لا تتخلف غالباً؛ لتحقق بها الدماء وتحيا الأنفس.

وهذا هو المراد بقوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ الْمَوْتَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ [البقرة: ٧٣].

ذلك أن ولي الدم ربما حصر شبهة قتل قريبه في بريء؛ فاغتاله على حين غرة منه ومن الناس! ويأتي ولي المقتول الثاني ويحصر شبهته في بريء آخر، فيغتاله بالطريقة التي اغتيل بها قريبه.

فالله سبحانه وتعالى أراد - ببيان هذه الطريقة - أن يعلم الفاعل بلا لبس، ويقتص منه، ويحيا من كانوا مظنة للاتهام وهم برءاء.

وأيضاً - من تحدثه نفسه بقتل غيره غيلة - ويظن أن يفلت من العقاب - إذا علم أنه لا نجاة له لأن هذه الطريقة ستظهره؛ كيف عن القتل ويحقن دم من هم بقتله ودم نفسه. وفي ذلك حياته وحياة غيره، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] لأن الحياة التي في القصاص ليست للقتيل ولا للقاتل! ولكن لمن كانوا على طريق القتل من الأحياء!

بقي أن يقال إن أهل الكتاب ليس عندهم هذا الضرب الذي مشيت عليه في الآية. وجوابي على ذلك: أن الله تعالى شهد عليهم بأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به. فليكن هذا مما ذكروا به ونسوه.

وليس هذا الشأن بأول شيء نسوه مما ذكروا به! فكم من حادثة ذكرها القرآن وليس لها ذكر عندهم؟ فقد سكنت التوراة عن هلاك زوجة نوح وعن مسألة ابنه وهلاكه وذكرهما القرآن.

= سكان هذا البيت من الفتيات، فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض، فالتفت ابن سينا إلى المريض وقال له: أليست هذه محبوبتك؟ فأجابه: نعم! وبالبحث علم أنها ابنة عمه، وأن الشاب كان يحبها حباً جما، ولم يجزؤ أن يذيع سره خوفاً من أهله؛ ولكنهم لما علموا أن شفاه في التزوج بها زفوها إليه؛ فبرئ من مرضه وعاد إلى حالته الطبيعية. فسبحان من يعلم السر وأخفى اهـ.

والذي أريد ان أخرج به من هذا البحث: هو أن القول بأن القصة الأخيرة مرتبطة بما قبلها ليس متعيناً، وأن مسألة ضرب القتل بجزء من البقرة فحیی وأخبر بقاتله، لم يرد به نص قطعي الثبوت والدلالة، وأن الرأي الذي رأيته مما تحتمله الآية، والله تعالى هو الموفق للسداد.

بعد كتابة ما تقدم وطبعه، أطلعت عليه حضرة العلامة الباحثة الأستاذ محمد فتحي «رئيس مجلس حسبي مصر» فأظهر لي ارتياحه وأهدى لي رسالتين عنوان كل منهما «علم النفس الشرعي وكشف الجرائم» ثانيتهما تشتمل على ما نشره في مجلة المحاماة «عددي مايو وأكتوبر سنة ١٩٢٧» وفيها عدة مباحث لكشف الجرائم بالوسائل العلمية. وقد خطر لي أن أنقل لحضرات القراء بعض الكلمات التي جاءت في بحث طريف من أبحاث الرسالة وهو: -

«قياس الانفعالات النفسية عن طريق الجلد»

قال: إن كشف آثار الانفعالات النفسية لا يقف عند حد قياس زمن التفاعلات العقلية بالكرونسكوب؛ بل هناك من الوسائل العلمية الأخرى ما لا تقل عنه خطورة وأهمية.

ولقد أشرت في محاضرة ألقيتها في نادي الحقوق «في يناير ١٩٢٥» ومنشورة في مجلة المحاماة عدد نوفمبر من تلك السنة - تحت عنوان «علم النفس الشرعي» وآثار الانفعالات النفسية في كشف التأثيرات النفسية، بقياس قوة مقاومة سطح الجلد للتيارات الكهربائية بتمرير تيار كهربائي ضعيف في الجسم، ثم رصد آثار الانفعالات التي تنتاب الشخص الذي تحت الاختبار بمقياس دقيق لمقاومة التيار معروف باسم «جلفانومتر» وهو جهاز ذو إبرة مغناطيسية حساسة للتيارات الكهربائية وتسجل ما يطرأ عليها من التغيير.

فإن هذه الظاهرة الجلدية قد درست من الوجهة الطبية وأجريت فيها عدة أبحاث فنية قام بها نخبة من خيرة العلماء أمثال «شارل فيريه C. féré» و «فيجورو R. Vigourou» و «ستكر Sticker» و «تارشنوف Tarchanof» و «زومر Sommer» و «فورنستينو Furnstenau» وغيرهم من رجال العلم وأبطال البحث - فدلّت التجارب المتعددة التي قاموا بها على أن كل خاطر يمر بالبال، أو كل لفظ يطرّق ولو كان مدلوله تافهاً وظاهره مجرداً عن المغزى؛ له تأثيره الخاص في النفس. ويظهر بوضوح في جهاز الاختبار.

أما أساليب الاختبار فكثيرة متنوعة. ويكفي هنا ذكر الطريقة الأكثر شيوعاً: وهي أن يؤمر المختبر بأن يستوي على مقعد مريح وثير الفراش - ذي متكأين يركز عليهما منكبیه

- ثم يسطر راحته على لوحين نحاسيين، أو يضع أطراف بعض أصابعه في إناءين صغيرين - من الصيني - بهما محلول ملح الطعام، ثم يسلط على اللوحين أو الإناءين تيار كهربائي ضعيف من بطارية «قوتها ١٥ فولتاً» بحيث لا يكون التيار محسوساً طول مدة الاختبار.

وتقاس التقلبات التي تطرأ على التيار بجلفانومتر دقيق ذي مرآة عاكسة، ويوضع على مسافة متر - تقريباً - تجاه المرآة مصباح قوي يلقي أشعته عليها، وهذه تعكسها على لوح كبير من السليوليد - مقسم إلى سنتيمترات، ومليمترات - بحيث أن كل تغيير في قوة مقاومة التيار - مهما كان طفيفاً - يؤدي إلى تحرك الجلفانومتر بالمرآة، فيظهر أثر هذه الحركة مكبراً في رحلات الأشعة الساقطة على اللوح المقسم. وبهذا يمكن قياس درجات انحراف الأشعة عن موضعها الأصلي بسهولة.

فكل لفظ يحدث انفعالاً - مهما كان طفيفاً - يؤثر في قوة مقاومة الجلد للتيار تأثيراً خاصاً يبدو على اللوح مكبراً، وبذلك يتسنى للخبير أن يرصد مراتب الانفعالات المختلفة لكل خاطر بدقة ووضوح تام فيدرس مما تسطره يد العلم على لوح الامتحان نفسية المختبر - درساً غاية في الدقة - حيث ينطق الجلد قبل اللسان بما يكنه الفؤاد ويضمرة الجنان.

إن هذا الأسلوب العجيب من البحث قد استخدم في الأبحاث الطبية وتشخيص الانفعالات النفسية في الحالات المرضية بمهارة وإحكام.

ولقد اتجهت أنظار العلماء أخيراً إلى تطبيقه في الأبحاث الجنائية لكشف التأثيرات الخفية الخاصة بالذكريات الإجرامية فوصلوا في أبحاثهم إلى نتائج جديدة بكل اعتبار واهتمام.

أقول: إن العلم في كل زمان يخدم القرآن الكريم، ويبين البيان الوافي أن الغرائب التي فيه صحيحة مؤيدة بالبراهين الناصعة.

ورد في القرآن الكريم: أن أهل الذنوب ينطق الله تعالى جلودهم يوم القيامة، فتشهد عليهم بما اقترفوا من الذنوب في الحياة الدنيا. وهذا العلم جاء اليوم يؤيد ذلك!

اقرأوا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لَبِئْسَ لَنَا شَهِدٌ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

لا أريد حمل الآية على أن المراد بها أن الله تعالى ينطق الجلود بتلك الآلة! ولكني

أقول إن العلماء ينطقون الجلود في الدنيا مما أوتوا من العلم، والله ينطقها في الآخرة بما له من القدرة الغالبة والحكمة العالية.

ويعجبني قول الأستاذ العلامة محمد فتحي في آخر رسالته المذكورة: وكلما ازدادت أساليب الاختبار تحسناً وإتقاناً؛ زادت معها نسبة النجاح في اقتحام ضمير المتهم وكشف بواطن عقله واستخلاص ما يكنه في سويداء قلبه من الخبايا وانتزاع أعز ما يحرص عليه بين حنايا ضلوعه من الأسرار . ١ هـ.

فإذا كان ذكر أسماء الأشياء التي لها ذكريات في الجريمة كافياً لفضح سر المتهم . فمن باب أولى يكون عرض القتل على القاتل وضربه بجزء منه حاملاً على اضطرابه وظهور أماراة الإجرام عليه؟

جاء في أهرام يوم السبت ٩ مارس سنة ١٩٣٥ بمناسبة الحكم على هويتمان - قاتل: ابن لندبورغ - بعد أن تكلم على الآلة الفاضحة لأسرار المجرمين قال:

وقاضحة الأسرار مفيدة ليس في الدلالة على الذنب أو البراءة فحسب؛ بل في إيضاح بعض أمور مشكوك فيها تتعلق بالجريمة، ففي قضية هويتمان - مثلاً - قد تفضح كذبه في إنكار رفاع الفدية التي لا تزال هدفاً للشك، وفيما إذا كان هو واحداً من عصابة دبّرت طريقة الخطف أو أنه أتمه وحده، وتساعد أيضاً على معرفة صدق بعض المشتبه بهم أو كذبه، ولا سيما الآنسة «فيولات شارب» خادمة أسرة زوجة لندبورغ التي انتحرت بشرب السم عندما أراد رجال البوليس استجوابها مرة ثانية، والتي يعتقد كثيرون أن لها إصبعاً في المكيدة.

فآلة البوليجراف مماثلة في فعلها من بعض الوجوه للسائل المعروف - بمصل الصد - الذي إذا أعطي المتهم مقداراً معلوماً منه أرغم على إيراد ما في ذاكرته، وماتت قوة إرادته فحال دون تبرمه أو اختلاق ما لا يكنه صدره فلا يتفوه بغير الحقائق، وقد جربوا هذا المصل في سارق بعد اتهام آخرين غيره فكانت النتيجة مدهشة إذ اعترف بارتكابه الجريمة وحده وهو الآن يكفر عن جريمته في السجن.

وفي جريمة قتل حدثت في «شيكاغو» سألت الحكومة الدكتور «كيلر» عن استخدام البوليجراف لفصل الأبرياء عن المذنبين ففعل وكان نجاح الآلة في كشف مخبآت صدورهم مدهشاً إذ اعترف المرتكبون بفعلتهم بعد أن سجلت الآلة كذبهم وبرأت الآخرين، وهناك عدة جرائم أخرى - أماطت هذه الآلة عنها نقاب الكذب والتمويه - لا يتسع المجال لإيرادها بالتفصيل بعد أن عجز رجال الحكومة عن الوقوف على خفاياها.

وجاء في الأهرام الصادر في يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٣٨ تحت عنوان «آلة لفضح الكذب: استعمالها لأول مرة في إحدى محاكم أمريكا» ما نصه:

نيويورك في ١٠ مايو - لمراسل الأهرام الخاص - إن الطريقة الآلية التي يعرف بها صدق المتهم أو كذبه، قد خطت خطوات واسعة إلى الأمام، عندما استعين بها وقبل القاضي ما رسمته من هذا القبيل في دعوى جرت مؤخراً في هذه المدينة، وذلك للمرة الأولى في التاريخ القضائي، وكانت المحاكم تأبى استخدام آلة مثلها لذلك القصد، كان الاعتماد فيها على اعتبار دقات القلب والعرق الذي يتصبب من المتهم بتأثير مجاريها الكهربائية السارية في جسمه.

وهكذا أصبحت آلة فضح الكاذب معتبرة شاهداً صادقاً، كما تعتبر بصمات الأصابع والكتابة وغير ذلك من الأمور التي يلجأ إليها لإثبات ارتكاب المتهم، ولهذه الآلة مزية أخرى أيضاً، هي أنها تبرهن على براءة المتهمين، الذين يكونون ضحية الغرض أو الشهادات الاستدلالية. وقد قبل القاضي شهادة الآلة في محاكمة شاب متهم بأخذ ٣٥ دولاراً بالقوة من مخزن بقال، وكانت للشاب سابقة أخرى سجن بسببها، فتعرض بذلك للحكم عليه بالحبس من ثلاثين إلى ستين سنة.

وتبرأ الشاب من التهمة الأخيرة بقوله إنه كان - وقت ارتكاب السرقة - في منزله مع زوجته وأبيه وأمه، وأقسم صاحب المخزن اليمين على أنه، أي المتهم، هو الذي اغتصب المال، وكان لكل من المدعي والمدعى عليه شهود يؤيدونهما فيما قالاه، وعندئذ عرض المحامون عن المتهم نتيجة آلة فضح الكذب كبرهان على براءة موكلهم. وهذه الآلة هي اختراع الكاهن «الترسمرس: من جامعة فورد هام» فبعد أن تروى القاضي ملياً فيما رسمته الآلة، أشار على المحكمين بأن يعتبروا ما اختبرته الآلة، وهكذا برأوا ساحة الشاب وأطلقوا سراحه.

وهذه الآلة تتأثر بفعل مجار كهربائية تخترق جسم المتهم بينما يكون قابضاً بكلتا يديه على نصابين متصلين بسلكين كهربائيين بالآلة ويشرع في الإجابة عن أسئلة تلقى عليه، فترسم أجوبته خطوطاً على خريطة بيضاء ملصقة بالآلة، فإذا كانت أجوبته كاذبة كانت الخطوط معوجة، وإذا كان صادقاً جاءت الخطوط مستقيمة، وقال الأب سمرس مخترعها للمحكمة: إنه ألقى على المتهم ١٩ سؤالاً منها ١٦ سؤالاً لا علاقة لها بالتهمة مطلقاً والثلاثة الباقية بالسرقة رأساً، وأعادها عليه ثلاث مرات، فجواب المتهم عنها واستواء الخطوط على خريطة الآلة كانت البراهين على براءته.

وسأل المدعي العام الكاهن مخترع الآلة قائلاً: أليس من الممكن أن يسيطر المتهم على انفعالاته بصورة تفسد عمل الآلة؟ فقال الكاهن: كلا ؛ لأنه إن تمكن المتهم من ذلك فإنه لا يؤثر في الآلة أقل تأثير وزاد الكاهن على هذا أن خريطة الآلة منقسمة إلى ثلاثة أقسام: فقسم منها يسجل الذنب، والقسم الثاني يسجل ما يدل على أن للمتهم علماً بالجريمة، والقسم الثالث يسجل البراءة.

فإذا كان المتهم بريئاً كانت الخطوط التي ترسمها الآلة على الخريطة مستقيمة وإذا كانت للمتهم معرفة بالجريمة كانت الخطوط شبيهة بالهضاب والأودية، وإذا كان مذنّباً يزداد ارتفاع الهضاب إلى أعلى حد، فإذا أجازت المحاكم العليا الاعتماد على هذه الآلة أصبحت معرفة المذنّب والبريء من أسهل الأمور وتخلصت المحاكم من عناء كثير ونفقات طائلة في إثبات الذنب على المجرم ونجا البريء الذي توافرت عليه الشبهات والأدلة من عقاب جريمة لم يرتكبها.

ونشرت الأهرام بعدها الصادر في ٨ يونية سنة ١٩٣٨ مقالاً علق فيه لفيف من الكتاب على الرسالة الواردة من نيويورك بخصوص آلة فضح الكذب ونصه:

نشرت «الأهرام» منذ أيام لمراسلها الخاص في نيويورك، رسالة عن آلة فضح الكذب التي اخترعها الكاهن الأمريكي «والترسمرس» وطبقها القضاء الأمريكي في إحدى الدعاوى إذ اتخذ منها شاهداً صادقاً لإثبات الذنب على المجرم أو لتسجيل براءته.

وعلق الأستاذ عبد العليم رزق الدهشان المحامي على ذلك فقال: إن محققاً مصرياً - لا يذكر اسمه - قد سبق الكاهن الأمريكي بالفكرة منذ عشرين سنة إذ اتخذ من نبض القلب في سرعته وبطئه مقياساً لتعرف أسباب الجريمة. ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام بعض القراء.

الرئيس ابن سينا أسبق الجميع

فقد تلقينا تعليقاً بهذا العنوان من حضرة «إبراهيم عابدين: خريج دار العلوم» استهله بقوله: إنه وإن كان يوافق على أن مصر سبقت أمريكا في فكرة الآلة إلا أنه يرى أن الرئيس ابن سينا كان أسبق الجميع بها. ثم روى عنه القصة التالية:

«أقبل على الرئيس ابن سينا - ذات يوم - أهل مريض أسقمه الحب وحل به ما حل بأبي نواس حيث قال:

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب
تعجبين من سقمي صحتي هي العجب
وزعم أهل المريض لابن سينا أن مرضه كسائر الأمراض وأنهم يأملون أن يبرئه من سقمه ويذهب عنه ألمه.

ولكن الرئيس ابن سينا لم يكدر يراه، حتى قرأ في عينيه آيات الحب ولمح في وجهه شاهداً من الخبر، فأخذ يجس نبضه ثم أحضر رجلاً يعرف قرية المريض - شوارعاً وبيوتاً وأهلاً - ثم طلب إليه الرئيس أن يعد أسماء شوارع القرية ففعل، وكان كلما اقترب من شارع حبيبته ازداد نبضه. حتى إذا ما انتهى إلى الشارع كان أكثر نبضاً، فطلب الرئيس إلى ذلك الرجل عد ما في الشارع من بيوت فذكر بيوته، حتى إذا ما انتهى إلى بيت حبيبته كان أكثر نبضاً، فطلب إليه ذكر أسماء من في البيت حتى إذا ما ذكر اسمها كان النبض قد بلغ أشده فسأله الرئيس عما يربطه بها، فعلم أنها ابنة عمه فنصح إلى أهل المريض بتزويجه منها.

ثم روى بعد ذلك القصة الطريفة التالية أنها وقعت في الريف منذ ٣٠ سنة. كان عمادها جس النبض للوقوف على الحقيقة وهي:

«كثيراً ما يرحل بعض الأعراب إلى الريف أيام الحصاد فيتخذون الأجران مقاماً يضربون فيها خيامهم، وقد حدث مرة أن خرج رجل منهم ليلاً لبعض شأنه فانتهاز أحد أفراد القرية فرصة غيابه فدخل على امرأته في خبائها ورغب في مداعبتها - على كره منها - واتفق أن جاء في هذا الوقت، فلما أحس الفلاح وقع قدميه ولى مدبراً، وتوسط جماعة الفلاحين الذين كانوا نائمين في الجرن كعادتهم صيفاً، فلما علم الأعرابي من زوجته بأمر ذلك القروي أسرى إلى جماعة الفلاحين وهم رقود، ثم أخذ يجس نبضهم واحداً واحداً، فعرف أن شخصاً منهم كان أسرعهم نبضاً، فترك عليه قلنسوة ليميزه بها من غيره، ثم رجع إلى خبائه ليحضر عصا ولكن القروي كان أحذق منه فما أن غادره حتى وضع القلنسوة على رأس شخص آخر بريء، فلما حضر الأعرابي بعصاه أوسع ذلك البريء ضرباً من غير ما ذنب جنى؛ وهكذا تكون مجاورة رجال السوء.

إن هذا الأعرابي وإن أفلح في فراسته لم يأخذ حيطته، ولعل جس النبض للوقوف على الجريمة فكرة عند العرب من قديم حتى فعلها ذلك الأعرابي الساذج.

ثم ختم تعليقه بقوله: إن الرئيس ابن سينا يعد بحق أول الجميع في السبق بالانتفاع بالفكرة.

وأشار الأستاذ «محمد طاهر الخشاب: المحامي» في مستهل مقال له حول الموضوع إلى تعليق الأستاذ الدهشان وما قاله من أن محققاً مصرياً - لا يذكر اسمه - قد سبق الأمريكي بعشرين سنة في الأخذ بفكرة النبض كمقياس للكشف عن الجريمة ثم قال:

«وإنني بصفتي أحد تلاميذ هذا الأستاذ المحقق، وهو قاض كبير الآن، أود - إنصافاً له ولجهوده - أن أذكر أنه هو الأستاذ «محمد فتحي بك رئيس محكمة المنيا الابتدائية وأستاذ علم النفس الجنائي بمعهد الدراسات الجنائية في كلية الحقوق» وكان الأستاذ قد شغف بدراسة هذا العلم منذ زمن بعيد. فقرأ كثيراً من الكتب والمؤلفات حتى أصبح حجة فيه.

ثم انتقل إلى الكلام عن الحادثة التي رواها الأستاذ الدهشان فقال: إنها حادثة قتل لا سرقة. وقد وقعت في مركز السنبلاوين سنة ١٩١٤ حين كان الأستاذ وكيلاً لنيابة المركز. كما يتبين ذلك من مراجعة العدد السابع من مجلة القانون والاقتصاد في سنتها السابعة، زمن المذكرات التي كتبها الأستاذ في ذلك الصدد:

إلى أن قال: ولقد ذكر الأستاذ في مذكراته هذه أنه لم يعتمد فقط على تجربة جس النبض بل وعلى تجارب أخرى معروفة لدى المشتغلين بعلم النفس الجنائي، منها تجربة كرة العين وهي إحدى التجارب التي قام بها الأستاذ «هوجو منستر برج» في الولايات المتحدة. ومما يذكر بالفخار لأستاذنا الكبير أنه لم يشأ أن يترك هذه الحادثة تمر دون أن يكون لها أثر رسمي ثابت، فسجلها في محضره الذي أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه في إدانة المتهم.

وإذا كنا نذكر أستاذنا فتحي بك بالإجلال والتقدير اللائقين به وبجهوده الموفقة؛ إلا أنه يجب علينا إنصافاً للعلم ولرجالها أن نذكر أن هذه التجربة التي استعان بها فتحي بك في تحقيقاته كان قد سبقه إليها عالم أمريكي هو الأستاذ «هوجو منستر برج»، أستاذ علم النفس الجنائي بجامعة هارفارد في الولايات المتحدة. ولقد ذكر أستاذنا ذلك صراحة في مقالته المنشورة بمجلة القانون والاقتصاد إذ قال ما نصه:

«... وبينما أنا مسترسل في أفكاري وحيرتي، إذ تذكرت في الحال بعض تجارب العلامة «منستر برج» بشأن ضربات القلب، وتأثير الانفعالات النفسية فيها فوضعت يدي في يد المتهم... الخ».

ولقد أثبت القضاء المصري جدارة تستحق الإعجاب حين أخذ بهذه الفكرة واعتمد في حكمه على نتيجة هذه التجربة في وقت كان يعتبر فيه علم النفس ضرباً من ضروب الشعوذة والخيال.

ثم أشار بعد ذلك إلى الرئيس ابن سينا وحادثته المشهورة، التي عالج بها مريضاً وعرف داءه عن طريق جس نبضه، وقال: إنه وإن كان الأستاذ «هوجو منستر برج» هو صاحب صياغة الفكرة في قالب عملي بواسطة آلة ميكانيكية، إلا أن صاحب الفضل الحقيقي في الفكرة هو هذا العلامة الإسلامي المشهور: ابن سينا.

تم ختم تعليقه بقوله: ولقد ذكر الزميل الأستاذ الدهشان شيئاً عن واقعة سرقة - الحمار - ولم يذكر اسم عضو الهيئة الذي ذكر الأستاذ فتحي بك صاحب الفكرة بتجربة جس النبض، وأستطيع أن أقول إن عضو الهيئة المقصود هو الأستاذ «محمد البابلي بك»: مدير الجيزة والأستاذ بمعهد العلوم الجنائية.

ونشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر في ١٣ يونية سنة ١٩٣٨ مقالاً للأستاذ محمد فتحي بك في هذا الموضوع ونصه:

قرأت في جريد «الأهرام» من بضعة أيام - ذلك النبأ الذي بعث به مراسل الأهرام في نيويورك بشأن اختراع كاهن أمريكي يدعى «والتر سمرس»: من جامعة فورد هام» لجهاز كهربائي يفضح كذب المتهم. وذلك بتمرير تيار كهربائي يخترق جسم المتهم، بينما يكون قابضاً بكلتا يديه على نصابين بسلكين متفرعين من الجهاز: ثم يشرع في توجيه بعض الأسئلة إلى المتهم، فترسم أجوبته خطوطاً وموجات على خريطة بيضاء - متصلة بالآلة - يستدل من شكلها وأبعادها على ما إذا كان المتهم صادقاً أو كاذباً. كما اطلعت على ما كتبه الأستاذ «عبد العليم رزق الدهشان» بأهرام ٥ الجاري - تعليقاً على النبأ المتقدم، وعلى حكاية المحقق الذي كشف جريمة خطف بندقية خفير عن طريق جس نبض المتهم، بينما كان المحقق يجاذبه أطراف الحديث ويجوب به الأمانة التي يغلب أنه أخفى البندقية فيها، وكيف وفق في النهاية إلى كشف مكان البندقية؟

وإنني أشكر الأستاذ الدهشان على حسن ظنه بذلك المحقق المجهول الذي يقول عنه إنه استعمل فكرة الكاهن «والتر سمرس» من عشرين سنة خلت، كما أستسمحه في تصحيح ما ورد في روايته من تحريف غير مقصود للوقائع باعتبار أنني ذلك المحقق المصري الذي أشار إليه في مقاله، ملتصقاً له العذر خصوصاً وأنه ناقل عن سواه.

وإنني ما كنت أريد أن أتصدى للمناقشة في موضوع فني دقيق كهذا على صفحات الجرائد اليومية، لأن مجال هذه الأبحاث هي المجلات العلمية المخصصة لذلك - طبية كانت أو قضائية - غير أن واجب الأمانة للعلم يدفعني إلى تصحيح وقائع رواية محرفة أسندت إليّ، كما يدفعني إلى إبداء ملاحظاتي من الناحية العلمية الذي بعث به مراسل

«الأهرام» والذي كان موضوع تعليق الأستاذ الدهشان. وإني أبدأ بملاحظاتى على النبأ في ذاته أولاً، ثم أنتقل بعد ذلك إلى التعليق على تعليق حضرة الزميل المحترم.

فالجهاز الكهربائي الذي أسند اختراعه إلى الكاهن الأمريكي «والتر سمرس» يلوح لي من وصفه المجمع أن المقصود به هو الجهاز المعروف باسم «Psycho Galvanometer» المخصص لرصد الظاهرة المعروفة باسم «Psycho - galvanic Reflex» أو بعبارة أخرى هو جهاز معد لقياس مبلغ التأثيرات النفسية عن طريق الجلد بواسطة تمرير تيار كهربائي بالجسم، ورصد آثار الانفعالات التي يحدثها توجيه بعض الأسئلة المخرجة أو الأجوبة عليها بجلفانومتر حساس يوضع في طريق التيار. فإن كان الأمر كذلك فهو جهاز قديم مضى على اختراعه عشرات السنين ويسنده البعض إلى العلامة «فيريه» والبعض الآخر إلى العلامة «تارشانوف» حتى لقد أطلق أحياناً اسم كل منهما على هذه الظاهرة، فيقال عنها «ظاهرة فيريه» وأحياناً «ظاهرة تارشانوف» وقد تلقى العلامة «ويتلي سمث» طريقة استخدام هذا الجهاز عن الدكتور «بريدو» كما أشار إلى ذلك في مقدمة مؤلفه المعروف باسم قياس الانفعالات النفسية. وتحت يدي نسخة منه طبعة سنة ١٩٢٢ وقد استخدمه في قياس الانفعالات استخداماً صالحاً موقفاً، وإني لا أستبعد أن يكون هذا الجهاز عن الدكتور «بريدو» كما أشار «والتر سمرس» إنما هو تحريف لاسم «ويتلي سمث» صاحب المؤلف المذكور لما بين الاسمين من تشابه كبير مع اتحاد في أسلوب البحث.

وإني قد أشرت إلى هذا الجهاز وما يرجى له من الأثر في كشف الجرائم في محاضرة ألقيتها في نادي الحقوق سنة ١٩٢٥، ونشرت مجلة المحاماة نصها في العام التالي على ما أذكر، وقد أتيت على وصف مجمل لهذا الجهاز في مقال نشر بمجلة القانون والاقتصاد - التي يصدرها أساتذة الحقوق في العدد الخامس من السنة السابعة - ولست أرى بأساً من أن أورد هنا نص ما نشر خاصاً بوصف الآلة تحت عنوان «قياس الانفعالات النفسية عن طريق الجلد» ص ٨٧٧ زيادة في الإيضاح وتعميماً للفائدة العلمية:

«إن كشف آثار الانفعالات النفسية لا يقف عند حد قياس زمن التفاعلات العقلية بالكرونسكوب، بل هناك من الوسائل العلمية الأخرى ما لا يقل عنه خطورة وأهمية، ولقد أشرت في محاضرة ألقيتها في نادي الحقوق - في يناير سنة ١٩٢٥ - إلى إمكان كشف التأثيرات النفسية بقياس قوة مقاومة سطح الجلد للتيارات الكهربائية بتمرير تيار كهربائي ضعيف في الجسم، ثم رصد آثار الانفعالات التي تنتاب الشخص الذي تحت الاختبار

بمقياس دقيق لمقاومة التيار معروف باسم «جلفانومتر» وهو جهاز ذو إبرة مغناطيسية حساسة للتيارات الكهربائية وتسجل ما يطرأ عليها من التغيير فإن هذه الظاهرة الجلدية العجيبة قد درست من الوجهة الطبية وأجريت فيها عدة أبحاث فنية قام بها نخبة من خيرة العلماء أمثال: شارل فيريه، وفيجورو، وشتكر، وتارشانوف، وزومر، وفورنستون، وغيرهم من رجال العلم وأبطال البحث فدلّت التجارب المتعددة التي قاموا بها على أن كل خاطر يمر بالبال، أو كل لفظ يطرُق السمع - مهما يكن مدلوله تافهاً وظاهره مجرداً عن المغزى - له تأثيره الخاص في النفس ويظهر بوضوح في جهاز الاختبار.

«أما أساليب الاختبار فكثيرة متنوعة. ويكفي هنا ذكر الطريقة الأكثر شيوعاً: وهي أن يؤمر المختبر بأن يستوي على مقعد مريح وثير الفراش ذي متكأين - يركز عليهما منكباه - ثم ييسط راحتيه على لوحين نحاسيين أو يضع أطراف بعض أصابعه في إنائين صغيرين من الصيني بهما محلول ملح الطعام، ثم يسלט على اللوحين أو الإنائين تيار كهربائي ضعيف من بطارية قوتها نحو «١٥ فولتاً» بحيث لا يكون التيار محسوساً طول مدة الاختبار، وتقاس التقلبات التي تطرأ على التيار «بجلفانومتر» دقيق ذي مرآة عاكسة، ويوضع على مسافة متر - تقريباً - تجاه المرأة مصباح قوي يلقي أشعته عليها. وهذه تعكسها على لوح كبير من السليوليد يقسم إلى ستيمترات وملليمترات بحيث أن كل تغيير في قوة مقاومة التيار - مهما يكن طفيفاً - يؤدي إلى تحرك الجلفانومتر بالمرأة، فيظهر أثر هذه الحركة مكبراً في رحلات الأشعة الساقطة على اللوح المقسم، وبهذا يمكن قياس درجة انحراف الأشعة عن موضعها الأصلي بسهولة، فكل لفظ يحدث في النفس انفعالاً - مهما يكن طفيفاً - يؤثر في قوة مقاومة الجلد للتيار تأثيراً خاصاً يبدو على اللوح مكبراً، وبذلك يتسنى للخبير أن يرصد مراتب الانفعالات المختلفة لكل خاطر بدقة ووضوح تامين، فندرس مما تسطره يد العلم على لوح الامتحان نفسية المختبر درساً غاية في الدقة والإتقان، حيث ينطق الجلد قبل اللسان بما يكتنه الفؤاد ويضمرة الجنان.

إن هذا الأسلوب العجيب من البحث قد استخدم في الأبحاث الطبية وتشخيص الانفعالات النفسية في الحالات المرضية بمهارة وإحكام. ولقد اتجهت أنظار العلماء أخيراً إلى تطبيقه في الأبحاث الجنائية لكشف التأثيرات الخفية الخاصة بالذكريات الإجرامية، فوصلوا في أبحاثهم إلى نتائج جديرة بكل اعتبار واهتمام وقد نشرت إحدى المجلات العلمية المعروفة باسم «Popular Science» بعض هذه الأبحاث بقلم «E,E,Free» بعدد ديسمبر سنة ١٩٢٦ ص ١٤ .

ولست أرى من الوجهة العلمية مانعاً يمنع من أن يسير مثل هذا الأسلوب الجديد من البحث بجانب الاختبار «بالتداعي اللفظي» في كشف الجرائم، حيث ينضم الجلفانومتر إلى الكرونسكوب في العمل انضمام تكاتف وتعاون في دراسة الخواطر المختلفة مع ما يتبعها من الانفعالات، وما على الباحث إلا أن يدون في مذكرته ما يسجله «الجلفانومتر» من جانب وما يسجله «الكرونسكوب» من الجانب الآخر. وبذلك يتوافر لدى الباحث ضمانان علميان بدلاً من ضمان واحد، كما يمكنه بهذه الوسيلة المزدوجة الرشيدة أن يرقب البواعث المختلفة التي أثرت في سرعة التفاعلات العقلية (Reaction time) وما إذا كان مصدرها التأثيرات النفسية والانفعالات، أم مصدرها مجرد التأمّلات الباطنية والمحاولات.

فمن الاطلاع على النبذة المتقدمة مما سبق نشره يتبين أن الفكرة لم تكن جديدة في بابها، ولا هي وليدة عام أو عامين إنما الطريف فيها أن أخذت بها بعض المحاكم الأمريكية - لأول مرة - لا على سبيل الاستدلال فحسب، ولكن كدليل مباشر على براءة المتهم إن صح النبأ الذي وافانا به مراسل «الأهرام» بنيويورك وهو ضرب جديد من ضروب التدليل العلمي في ساحة القضاء.

وليس «السيكوجلفانومتر» هو الجهاز الوحيد لقياس الانفعالات النفسية ورصد آثارها، بل هناك غيره من الأجهزة التي ترمي إلى نفس الغاية. وإن اختلفت عنه من حيث الوسيلة أو الأسلوب.

(فمنها) ما أعد لرصد حركة القلب ونبضاته وما يطرأ عليها من التغيير - سواء من حيث السرعة والبطء أو القوة والضعف - بتأثير الانفعالات. وقد أطلق عليه اسم سفجمو جراف «Sphegmograph» (ومنها) جهاز وضع رصد حركات التنفس كذلك وأطلق عليه اسم: بنومو جراف «Pneumograph» وقد ظهر بالتجربة أن لكل نوع من أنواع الانفعالات تأثيراً خاصاً في حركتي التنفس وضربات القلب.

ففي حالة السرور يسرع التنفس ويصير خفيفاً - أي قريب الشبه بحالة الضحك - وفي حالة الحزن يبطئ التنفس ويصير عميقاً - كأنه تنهدات مخففة - وفي حالة الغضب يسرع التنفس ويصير قوياً. وفي حالة الهبوط يبطئ التنفس ويصير خفيفاً. كما وجد أن النبض عند السرور يكون بطيئاً وقوياً، وفي الحزن يكون سريعاً وضعيفاً - أي النبض في هاتين الحالتين يكون على عكس ما في النفس - وفي الغضب يكون سريعاً قوياً. وفي الهبوط بطيئاً ضعيفاً - كما هي الحال في النفس.

وهناك جهاز يسمى بالبليتز موجراف «Plethysmograph» لقياس مقدار توارد الدم في عضو من الأعضاء وقد وجد بالتجربة أن لكل انفعال تأثيراً خاصاً في كمية الدم التي تتوارد على ذلك العضو الموضوع تحت التجربة، كذلك تظهر آثار الانفعالات النفسية في حركة الساق الناشئة من الدق على وتر الركبة بتأثير الفعل المنعكس، بمعنى أن الزاوية التي تتكون من هذه الحركات وجدت تختلف درجتها باختلاف الحالات النفسية المتنوعة. وقد استخدم لذلك جهاز خاص ذو مطرقة صغيرة تدق على ذلك الوتر دقات متساوية في فترات منتظمة، ثم رصدت الحالات النفسية المختلفة حال إجراء هذه العملية.

وهناك جهاز آخر لتسجيل حركة الذراع أو المعصم حين بسطه عليه فتعين اتجاه اليد اتجاهاً - لا شعورياً - نحو شيء معين يكون له أهمية خاصة من نفس الشخص الموضوع تحت الاختبار، فيوضع ضمن مجموعة من أشياء أخرى تصف على المائدة في شبه دائرة حول الجهاز فتشاهد أن اليد تحرك الجهاز عن غير قصد في اتجاه الشيء الخاص وقد أطلق عليه اسم «Automatograph» أي مسجل الحركة الذاتية فلو كان شخص متهماً في جريمة قتل وجيء بالسلاح الذي ارتكب به القتل، وكان هذا الشخص ينكر الجريمة وملكية السلاح، ووضع السلاح ضمن قطع أخرى - من أسلحة مختلفة - حول الجهاز لشاهد أن يد المتهم تحركه في اتجاه السلاح المقصود بالذات إن كان سلاحه، وإذا نقل من مكانه إلى مكان آخر تحركت اليد في اتجاه ذلك المكان الجديد.

وهناك غير ذلك من التجارب والأجهزة التي يمكن استخدامها في كشف آثار الانفعالات، وبالتالي في فضح نفسية المتهم لا يتسع المجال لذكرها، إنما الذي يجب لفت النظر إليه، أن هذه الاختبارات لم تصل بنا بعد إلى الدرجة التي يمكننا معها استخدامها كغاية في ذاتها لإقامة الدليل على متهم ليس عليه دليل سواها، ولكن ذلك لا يمنع من استخدامها في الوقت الحالي كمجرد وسيلة للوصول إلى الأدلة المعتبرة أمام القضاء، والتي تثبت الجرم على المتهم بالبرهان المقبول قانوناً. فهنا فرق عظيم بين اعتبار هذه الأبحاث كواسطة للوصول إلى غاية معينة وبين اعتبارها غاية في ذاتها، ولكي أقيم الدليل العملي على فائدة مثل هذه الاختبارات للمحقق في كشف معميات الجريمة ضربت المثل للطلبة في مذكرات التدريس بحكاية البندقية التي أشار إليها الأستاذ الدهشان في مقاله، وأني أنتهز الفرصة لذكرها الآن مصححة نقلاً عن مذكراتي الخاصة متوخياً الإيجاز بقدر المستطاع.

في عام ١٩١٤ وقع حادث شروع في قتل بإحدى القرى التابعة لمركز السنبلوين،

وملخصه: أن شخصاً من الأهالي أطلق عليه عيار ناري من يد مجهول - حال خروجه من القرية قاصداً غيطه - وكان الوقت قبيل العشاء ، وقد أطلق العيار من مزرعة على جانب الطريق فأصيب المجني عليه في ساعده الأيسر. ولما كنت وكيلاً لنيابة ذلك المركز وقتئذ فقد قمت بالتحقيق، وفي خلاله حامت الشبهة حول شخص كان خطيباً لزوجة المجني عليه، ولكن والدها أبى أن يزوجه منه لسوء سلوكه وزوجه من المجني عليه، ولما كان المتهم خفياً خاصاً لزراعة بعض الأعيان ومرخصاً له بحمل السلاح فقد سئل بطبيعة الحال عن سلاحه، فادعى فقدته من عشرين يوماً، غير أن بعض الشهود شهدوا بأنهم رأوه يحمله قبل الحادثة بيوم واحد، كما شهد اثنان من أهالي القرية بأنهما رأيا المتهم - قبل سماعهما العيار - يسير على شاطئ الترعة متجهاً نحو المزرعة التي وجد فيها. وكان مجداً في السير قليلاً ويده عصا، ولكن نتيجة التحقيق لم تتقدم بعد ذلك خطوة واحدة، في حين أن ما وصلت إليه من الأدلة لم يكن سوى شبهات لا تكفي لإدانة المتهم قانوناً، غير أنها كانت عندي شبهة عقيدة بأنه هو الفاعل، ولذلك حرصت اهتمامي في البحث عن السلاح، لأنه كان الطريق الوحيد المفتوح أمامي للبحث، ولما لم يكن لدى المتهم من الوقت ما يكفي للعودة إلى القرية بعد الحادثة، فالسلاح لا بد وأن يكون خارجها فأرجأت التفتيش إلى الصباح. لأن البحث عن السلاح في وسط المزارع والغيطان ليلاً ضرب من العبث، فأمرت بوضع الحرس الكافي حول تلك المزارع، لكي لا يقربها أحد، ولما طلع النهار خرجت لإجراء البحث والتفتيش وبصحبتى المتهم - كعادتي عند كل تفتيش - لعلني أستفيد مما قد يبدو عليه من التأثيرات النفسية حال إجراء البحث، ولكني بمجرد أن خرجت من القرية وقفت برهة حائراً لأنني وجدت أمامي ميداناً للتفتيش متسع الأرجاء مترامي الأطراف، وأنى لي أن أهتدي إلى المكان الذي خبأ المتهم سلاحه فيه؟ وأن التفتيش في الخلاء يتطلب عناء شديداً ومجهوداً عظيماً قد يستغرق كل نهاري ولا أصل إلى نتيجة ما، وبينما أنا مسترسل في أفكارى وحيرتى، إذ تذكرت في الحال بعض تجارب العلامة «منستر برج» بشأن ضربات القلب، وتأثير الانفعالات النفسية فيها، فوضعت يدي في يد المتهم، وبينما كنت ممسكاً بمعصمه وضعت أصبعي - خلسة - على الشريان الكعبري «وهو الذي يجس منه الأطباء النبض عادة» وبعد أن تملكتم موضع النبض منه جيداً - وأصبحت دقات قلبه تحت إشرافي ومراقبتي ألقى عليه عدة أسئلة متتابعة بشأن محل إخفاء السلاح وعددت الأمكنة التي يحتمل أن يكون قد أخفاه فيها، فذكرت له بعض المزارع، ثم ساقيته الخاصة، ثم الترعة فالقناة فالمصرف وهكذا

فلاحظت أن النبض عند ذكر المصرف كان يشتد ويسرع كثيراً، وإذا ما حولت الكلام عنه إلى أماكن أخرى كان النبض يهدأ ويكاد يكون طبيعياً، وهكذا كلما ذكرت المصرف يعود النبض فيقوى ويسرع. وكان أثر الانفعال محسوساً لدرجة أثارت دهشتي، وكانت دقات قلبه قوية واضحة حتى خيل إليّ أنني أسمعها من صدره، فترجح لديّ أن المتهم ألقى سلاحه في ذلك المصرف، فطلبت إلى مأمور المركز أن يكلف بعض الخفراء بالبحث عن البندقية في قاع المصرف، ولكن المتهم عندما رأى الرجال المكلفين بهذا البحث متجهين نحو المصرف بدت على وجهه دلائل الارتباك والحيرة وشحب لونه وجف لعابه، ولكي يداري اضطرابه وقتئذ ويظهر عدم اكتراثه بما يجري حوله أخذ يولي وجهه شطر موضع آخر، ويحوّله عن مكان البحث من المصرف، ولكنه بالرغم من كونه أدار وجهه فإن كرّتي عينيه كانت لا تزالان في اتجاه نفس ذلك المكان، فازداد اعتقادي بوجود السلاح فيه وقوي أمني في الحصول عليه، وبالفعل لم تمض بضعة دقائق في البحث حتى انتشلت البندقية من قاع المصرف وتبين أنها مطلوقة حديثاً. فلم أشأ أن أترك هذه التجربة - على تفاهتها - تمر دون أن يكون لها أثر رسمي ثابت، فسجلتها في محضري الذي أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه في إدانة المتهم.

فمما تقدم نرى كيف كان البحث عن سلاح المتهم في ميدان مخيلته أسهل منالاً وأقلّ عناء من البحث عنه في ميدان الطبيعة الفسيح المتعدد الأمكنة المتشعب الأرجاء، فالتجارب النفسية قد تؤدي - على تفاهتها وسهولة تناولها في بعض الأحيان - أجل الخدمات للمحقق وأعظمها فائدة إذا عرف هو كيف يستخدمها وينتفع بها.

إنما الذي أريد أن أوجه النظر إليه أن الاستدلال على مكان إخفاء السلاح عن طريق جس النبض إنما يختلف في أسلوبه عن طريقة الاختبار بالجهاز الكهربائي - الآنف الذكر - وإنني لم أسبق العلامة «ويتلي سمث» في بحثه كما أسند إليّ ذلك الأستاذ «الدهشان» خطأ في مقاله. وإن كان ما أسنده إليّ يعد أكرم تحية لمحقق مصري. ولكن الحقائق العلمية لا تقبل مجاملة ولا تسمح للمرء أن ينتحل لنفسه فضلاً لا يستحقه فطريقة الاستدلال على مخبأ السلاح عن طريق مراقبة نبض المتهم عند تعداد الأمكنة المحتمل إخفاء السلاح فيها، ما هي إلا طريقة اجتهدية قد تنجح في بعض الأحيان، ولكنها قد تفشل في أحيان كثيرة حيث يكون أثر الاضطراب طفيفاً فلا يتسنى إدراكه بجس النبض أو يكون اضطراب النبض مستمراً بسبب الحالة النفسية التي يكون عليها المتهم - سواء كان مرتكباً أو بريئاً - فهي طريقة لا تستند في رصد آثار الانفعال إلى جهاز دقيق الحساسية

كجهاز «فريه» الكهربائي ولكنها لا تخلو مع ذلك من الفائدة، وقد علمت فيما بعد أن الإمام ابن سينا قد لجأ إلى استخدام النبض في دراسة الحالة النفسية لشاب هام بحب فتاة ثم كظم حبه في أعماق نفسه فبدت عليه أعراض مرضية أعييت نطس الأطباء، غير أن ابن سينا قد وفق إلى كشف علة دائه الدفين عن طريق رصد آثار الانفعالات البادية على حركة النبض. عند ذكر اسم بلد الفتاة دون غيره من البلاد، ثم القسم ثم الشارع ثم المنزل ثم اسم الفتاة التي كان يحبها من بين سكان هذا المنزل.

واستخدام آثار الانفعالات في الحياة العملية ليس أمراً غريباً على الإنسان في نوعه، بل يرجع إلى أزمنة قديمة ربما امتدت إلى أقدم العصور، فمن الأمور الشائعة المألوفة أن انفعال الخوف يجفف اللعاب، لأنه يشل نشاط الغدد المخصصة لإفرازه، ويعطل وظيفتها، وكانت هذه الظاهرة معروفة للإنسان منذ فجر المدنية فكانت بعض القبائل تهاجم الشخص إذا لاحظت أنه لا يبصق حال مروره بها، متخذة ذلك دليلاً على الخوف والجبن، أما إذا بصق فلا تتعرض له بسوء لاعتقادها بجرأته وشجاعته. وربما كانت عادة البصق بقصد الاحتقار التي لا تزال شائعة إلى وقتنا هذا بين العامة وليدة تلك العادة القديمة الموروثة عن الإنسان الأول. . . كما أنه من الأمور المألوفة في كشف الجرائم لدى بعض القبائل العربية - والتي لا تزال على الفطرة إلى وقتنا هذا أن تحمي قطعة حديد إلى درجة الحرارة الحمراء؛ ويطلب من كل من وقعت عليهم شبهة الجرم أن يلحقها بلسانه فمن كان بريئاً نجا لسانه من الحرق، ومن كان مداناً حرق لسانه «وتسمى بالبشعة» وفي اعتقادي أنها لا تزال شائعة بين عرب سينا، أما تحليلها فراجع إلى كون البريء يستطيع أن يجمع كمية من اللعاب فوق سطح لسانه يستطيع أن يتقي بها حرارة الحديد عند الملامسة بسبب تحويل اللعاب إلى بخار، بعكس المذنب فإن لسانه يكون جافاً فتشويه النار، و «لقمة الزقوم» المعروفة لدى العامة لكشف البريء من المجرم بسرعة البلع وبطئه لتستند إلى نفس هذه الظاهرة.

غير أن مثل هذه الأمور لا تخرج عن كونها مجرد محاولات اجتهدية قابلة للخطأ، ولا يصح الاعتماد عليها في البحث العلمي، ولا تبلغ مرتبة التجارب الفنية التي هذبها يد العلم، ولا دقة الاستدلال التي يمكن أن نصل بها عن طريق الأجهزة التي سبقت الإشارة إليها، وعسى أن يفتن القضاة في المستقبل القريب إلى ما تقتضيه العدالة من وجوب إظهار الصدق من الكذب بوسائل علمية وتجارب فنية صحيحة على يد خبراء مدربين محنكين، وربما لا تكون حاجة رجل القانون إلى الخبير النفساني أقل منها إلى الخبير في

الطب أو الكيمياء، إن لم تكن حاجته إليه أمس وألزم، لأن أبحاثه تدور حول أمور كلها في صميم مهمة رجل القانون، وهي قائمة على فحص عقليات، ودراسة نفسيات.

محمد فتحي

قصة قارون وموقف موسى بإزائه

إيذاء إسرائيل لموسى - إظهار الله تعالى براءته^(١)

(١) تقد اللجنة «الموضوع السابق».

(إيذاء موسى وتبرئة الله إياه)

أما إيذاء بني إسرائيل لموسى فقد اختلف في نوع الإيذاء، فقال قوم: إنهم قالوا إن موسى به عيب جسمي واتهموه بالأدرة. وقال آخرون: بالبرص فنزل الماء ليستحم ووضع ثوبه على حجر فجرى الحجر بثوب موسى، فصار موسى يجري خلفه خارج الماء ويقول: ثوبي حجر، إلى أن وقف الحجر في مجتمع بني إسرائيل وموسى مكشوف العورة فظهر لبني إسرائيل أنه بريء من العيب الذي اتهموه به. وأنا لا ندري ما هو الحامل أو الداعي الذي أراده الله من جعل الحجر يشتد في الجري وموسى في أثره مكشوف العورة ولم كانت هذه المعجزة التي تهتك ستر نبي كريم يحق بسببها ويضرب الحجر حتى يؤثر فيه ندوباً! وأيضاً فإنني لم أفهم كيف يكون ابتلاء موسى بالأدرة عيباً يحول بينه وبين الواجهة عند الله تعالى؟

وإذا كان الاتهام بالأدرة هو الأمر الذي أودى به موسى فكيف ينافي هذا علمهم بأنه رسول الله إليهم - كما يشعر بذلك قوله لهم ﴿يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] فلا بد أن يكون الإيذاء أكبر من الاتهام بالأدرة؟

نعم ورد الحديث بمسألة الحجر، ولكن في رجاله «عوف» وقد جاء عنه في تهذيب التهذيب أنه كان شيعياً رافضياً شيطانا هذا نص كلامه:

(رأي اللجنة)

نلاحظ عليه أنه استبعد وقوع قصة الحجر الذي جرى بثوب موسى، وطعن في الحديث الوارد بها بأن في رجال سنده عوفاً وقد جاء عنه في تهذيب التهذيب أنه كان شيعياً رافضياً شيطانا. وإننا نورد هذا الحديث، ثم نبين من خرج ليعتبر أن فضيلة الأستاذ لم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحاً:

في صحيح مسلم في «فضائل موسى عليه الصلاة والسلام» حدثنا محمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سواة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه أدر. قال: فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه، قيل فجمع موسى بأثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر! حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سواة موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس! فقام الحجر بعد حتى نظر إليه. قال: فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً، قال أبو هريرة: والله إن بالحجر ندوباً ستة أو سبعة من ضرب موسى عليه السلام بالحجر.

ثم رواه مسلم بسند آخر فقال: وحدثننا يحيى بن حبيب الحارثي حدثنا يزيد بن زريع حدثنا خالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق قال: أنبأنا أبو هريرة . . . إلى آخره نحو ما تقدم، إلا أنه زاد في آخره: ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ [الأحزاب: ٦٩] الآية السابقة، وفي باب الغسل بسند آخر ليس فيه عوف، فقال: حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا عبد الرازق عن معمر بن همام ابن منبه، فهو متفق مع السند الأول لمسلم ما عدا شيخه وهو إسحاق بن نصر.

وأما عوف فقال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري في بيان من طعن عليه من رجال البخاري ما نصه: عوف ابن أبي جميلة الأعرابي البصري أبو سهل من صغار التابعين، وثقه أحمد وابن معين، وقال النسائي: ثقة ثبت، وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: كان من أثبتهم جميعا ولكنه كان قدريا وكان شيعيا، قلت: احتج به الجماعة - يعني أصحاب الكتب الستة - ثم قال الحافظ: قال مسلم في مقدمة صحيحه: وإذا قارنت بين الأقران كابن عون وأيوب مع عوف بن أبي جميلة وأشعث الحمراي وهما صاحبا الحسن وابن سيرين كما أن ابن عون وأيوب صاحبهما كان اليون بينهما بعيدا في كمال الفضل وصحة النقل وإن كان عوف وأشعث غير مدفوعين عن صدق وأمانة اهـ.

وقد صحح النووي رضي الله عنه الاحتجاج برواية المبتدع غير الداعية، وقال في شرح مسلم ما نصه «ففي الصحيحين وغيرهما - من كتب أئمة الحديث - الاحتجاج بكثير من المبتدعة غير الدعاة ولم يزل السلف والخلف عن قبول الرواية منهم والاحتجاج بها والسماع منهم وإسماعهم من غير إنكار منهم. والله أعلم اهـ.

من ذلك نعلم أن الحديث الوارد بقصة الحجر الذي جرى بثوب موسى صحيح وأنه ورد في الصحيحين من ثلاث طرق اتفق البخاري ومسلم على طريق منهما، وانفرد كل بطريق، وأن عوفا أحد رجال طريق واحدة وهي التي انفرد بها البخاري. فعلى فرض أنه ضعيف لا يلزم ضعف الحديث لوروده من طريقين آخرين لا يوجد عوف بين رجالهما على أنك علمت مما نقلناه عن الحافظ ابن حجر أن أكثر أئمة الحديث ومنهم أصحاب الكتب الستة - على توثيق عوف والاحتجاج بروايته وإن ابتداعه لا يمنع من ذلك، كما قرره النووي وما نقله في شأنه عن «تهذيب التهذيب» نقلها صاحبه وهو الحافظ الذهبي فيه وفي ميزان الاعتدال عن بندار فلعلها مبالغة في بيان تشييعه وإلا فغيره نقل عنه: إنه كان شيعيا، ولا يلزم منه أن يكون رافضيا والله أعلم.

أما إيذاء بني إسرائيل لموسى فقد ذكر المفسرون في نوعه عدة أقوال منها: أنهم نسبوا إليه عيباً في بدنه وهو ما ذكر في الحديث. ومنها أنهم نسبوا إليه أنه قتل أخاه هارون. ومنها: أن قارون أغرى موسا على قذفه بنفسها. ومنها: ما نسبوه إليه من السحر والجنون. ومنها: ما حكى عنهم في القرآن من قولهم ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم ﴿لَنْ نُصِبرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وقولهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] إلى غير ذلك. قال الألوسي: ويمكن حمل ما قاله على جميع ما ذكر اهـ. وإذا صح ما قال الألوسي فلم يكن هناك من تناف بين صحة هذه الرواية في بيان نوع الإيذاء وصحة غيرها من الروايات في بيان نوع آخر. وأما ترده فيما أراده الله من جري الحجر فلا وجه له - فإن الله تعالى أراد بذلك إظهار براءة موسى من العيب الذي اتهموه به والذي يجب تنزيه الأنبياء عنه عند المحققين. قال النووي - في شرح مسلم - ومنها: أي من فوائد هذا الحديث - ما قاله القاضي وغيره ان الأنبياء صلوات الله وسلامه =

= عليهم أجمعين منزّهون عن النقائص في الخلق والخلق سالمون من العاهات والمعائب. قالوا: ولا التفات إلى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ في إضافة بعض العاهات إلى بعضهم بل نزههم الله من كل شيء يبغض العيون أو ينفر القلوب اهـ.

ثم إن الله تعالى أظهر براءته بمعجزتين عظيمتين ظاهرتين (إحدهما) مشي الحجر إلى ملأ بني إسرائيل (والثانية) حصول الندب في الحجر.

وأما استبعاده لوقوع هذه المعجزة لأن فيها هتكا لستر نبي كريم فلا وجه له أيضا لثلاثة أمور:

(الأمر الأول) أن المقصود كما علمت إظهار البراءة مما نسبوه إليه وذلك يستلزم الكشف، وقد اقترن بمعجزة باهرة لتبكيك بني إسرائيل على هذا الظن السيء؛ الذي لا ينبغي أن يكون منهم في حق هذا النبي العظيم الذي يؤيده الله تعالى بالمعجزات الباهرات في جميع مواقفه معهم. وما أكثر مواقف بني إسرائيل في المراوغة والعناد والتنطع.

(الأمر الثاني) ووجهه أنه لو كان محرما في شرعهم لكانوا جميعا عصاة وهو بعيد، ولما كان هناك وجه لاتهامهم له بالأدرة بسبب انفراده بالغسل؛ لأنه يكون انفراده حينئذ امتثالا للشرعية؛ كما قاله الحافظ ابن حجر: إن اغتسال بني إسرائيل عراة ونظر بعضهم إلى بعض كان جائزا في شرعهم، وإنما كان موسى يغتسل وحده أخذا بالأفضل. وإذا كان كذلك فلا شيء في كشف ستره أمامهم. واستقباح النفس له الآن لأنه محرم في شرعنا والله أعلم.

(الأمر الثالث) ما يترتب عليه من المصلحة التي لا توجد إذا بقي الأمر مكتوما؛ بل يكون حينئذ مفسدة وأي مفسدة حيث يكون منهم استمرار العجاج في الطعن على موسى بما يؤدي إلى زيادة شدتهم في عنادهم له، ويفضي إلى بعدهم عن قبول ما جاء به، والنفور من الإيمان به، والرجوع إلى الكفر الذي هو مفسدة وإثم كبير! فأَي الأمرين أرجح في نظر فضيلة المؤلف؟ أكفر أمة بأسرها وانتقاص وإيذاء نبي كريم أم كشف عورة لا مفسدة فيه؟! كما أشار شراح الحديث من أن كشف العورة كان جائزا في شريعة موسى، واجتنابه عليه السلام لكشف عورته كان أخذاً بالأفضل.

ثم إن مقتضى كونه وجيها عند الله أن يبرئه من كل تهمة تلصق به كذبا، سواء كان ما يتهم به كذبا - عيبا يتنافى مع الرسالة أو لا - كما أن مقتضى كونه رسول الله إليهم أنقذهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان وأخرجهم من استعباد فرعون وقومه لهم إلى الإطلاق والحرية أن لا يؤذى منهم بأي نوع من أنواع الإيذاء، ولا شك أن اتهامه كذبا بعب في بدنه يعتبر إيذاء، وإن لم يتناف ذلك العيب مع الرسالة.

على أنك علمت أن المحققين على أن مثل هذا العيب مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وذلك يعلم أن ما قاله الأستاذ «ثم إني لا أفهم كيف... الخ لا وجه له. والله سبحانه وتعالى أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

الموضوع السابع

(إيذاء موسى وتبرئة الله إياه)

نظرت إلى لفظ الإيذاء في القرآن الكريم فوجدته إنما يكون في أمور هامة غليظة غالبا.

فقد قال الله تعالى:

- ١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].
 ٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].
 ٣ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فَفَدِّ احْتَمَلُوا بِهِنَا وَاتَّقُوا مِثْلَنَا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

- ٤ - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].
 ٥ - ﴿وَلَا تَطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].
 ٦ - ﴿وَلَنَصْرِفَنَّ عَنْ مَا ءَادَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].
 ٧ - ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦].

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يومًا قسمًا، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فقلت يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال «رحمة الله على موسى فقد أودى بأكثر من هذا فصبر» أخرجاه في الصحيحين من حديث سلمان بن مهران به.

طريق آخر. قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن هشام مولى همدان عن يزيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال: قال ﷺ لأصحابه «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه، قال: فمرت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة، قال فثبت حتى سمعت، قال: ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنك قلت: «لا يبلغني... إلخ» وإني مررت بفلان وفلانة وهما يقولان كذا وكذا، فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ثم قال: «دعنا منك فقد أودى موسى أكثر من هذا فصبر» وقد رواه أبو داود في الأدب عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف الفريابي عن إسرائيل عن الوليد بن هشام، وكذا رواه الترمذي في المناقب عن الذهلي.

إن الذين كانوا يؤذون الله ورسوله إنما كان بقولهم «شاعر، كاهن، ساحر، مجنون» وقيل كسر رباعيته ﷺ وشج وجهه في غزوة أحد. وقيل طعنهم في نكاح صفية، وقال الألوسي: والحق العموم في ذلك.

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٥٨].. إلخ قيل في منافقين كانوا يؤذون علياً ويسمعونه ما لا خير فيه. وقيل فيمن اشتركوا في حديث الإفك بقذفهم عائشة رضي الله عنها. وقيل فيمن كانوا يتبعون النساء إذا برزن في الليل لقضاء الحاجة. قال الألوسي والظاهر العموم لكل ما ذكر. من هذا كله نعلم أن الإيذاء ورد في القرآن والأحاديث في كل استعمالاته تقريباً، في أمور شائنة كالطعن في الكرامة، أو في العرض أو في الدين.

وقد نظرت إلى ما قاله المفسرون في مسألة إيذاء موسى وتبرئة الله إياه، فوجدت الحافظ ابن كثير قد روى حديث البخاري فقال: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا روح ابن عباد حدثنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل فقالوا ما

= يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلاً يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر؛ حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون، فقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندياً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد أورد ابن كثير في تفسيره هذا الحديث بتمامه، ثم قال: إن هذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم، ثم رواه أيضاً عن أحمد عن أبي هريرة، ورواه أبو جرير من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة... الخ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في قوله تعالى ﴿فَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩] قال صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلت، كان ألين لنا منك وأشد حياء فأذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل. وهكذا رواه ابن جرير عن علي بن موسى الطوسي عن عباد بن العوام وقد أورد نحو هذا الكلام الإمام البغوي في معالم التنزيل كما أورد حديث أبي هريرة. وقال أبو العالية: هو أن قارون استأجر مومساً لتقذف موسى على رأس الملاء فعصمه الله وبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون.

فتلخص لنا في المسألة ثلاثة أقوال: (١) اتهام بني إسرائيل لموسى بالأدرة أو غيرها من العيوب الجسمية، وعدو الحجر بثوبه وعدو موسى في أثره عريان حتى رأوه بريثاً (٢) اتهام بني إسرائيل موسى بقتل هرون إلى أن برأه الله من ذلك، إذ أمر الملائكة بحمل هارون على سرير والطواف به على مجالس بني إسرائيل حتى رأوه لا أثر فيه للقتل «أخرج ذلك ابن منيع وابن جرير وابن المنذر». (٣) اتهام قارون إياه بالزنا واستأجر لذلك مومساً فأقرت ببراءة موسى، وبأن قارون هو الذي أغراها على اتهامه، فبرأ الله موسى وأهلك قارون.

هذه أقوال ثلاثة؛ للمتفهم لكتاب الله تعالى أن يأخذ منها ما شاء وأن يدع ما شاء. فأما ابن جرير فقد جوز أن يكون حديث الحجر هو المراد، وجائز أن يكون اتهامه بقتل قارون هو المراد، وآخر عبارته يشير إلى تفويض العلم إلى الله تعالى. ونص عبارته بعد أن أورد اتهام بني إسرائيل موسى بقتل هارون «وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى. وجائز أن يكون الأول هو المراد. فلا قول أولى من قول الله عز وجل».

وابن كثير يقول: قلت يحتمل أن يكون الكل مراداً.

وقال الألويسي بعد أن أورد الأقوال الثلاثة: ويبعد هذا القول - أي رمي قارون موسى بالزنا - جمع الموصول. وقيل ما نسبوه إليه من السحر والجنون.

أقول: لا استبعاد في ذلك لأن قارون يحتمل أن يكون رئيساً لجماعة واطووه على ذلك فليس عجباً أن يعبر بالذين الدال على الجمع!

لما كان للإنسان أن يختار ما تطمئن نفسه إليه - أنه المراد من كلام الله - اخترت القول الثالث هو طعن قارون على موسى. وحجتي في ذلك؛ أن الإيذاء إنما يستعمل في الشيء العظيم - كما بينت ذلك في أول الكلام - وأن الإيذاء بذلك هو الذي يتنافى مع علمهم بأنه رسول الله إليهم، المبين في قوله ﴿يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] وهو الذي ينافي الوجهة عند الله تعالى المبين في قوله تعالى ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وليس من لوم على متدبر كتاب الله تعالى إذا جنح إلى مرأى أو وجه أو تأويل وجده لائقا بفكره وارتاح إليه ضميره؛ مادام لا يخالف قطعي الثبوت والدلالة، وليس لأحد من خلق الله أن يقول له: اخلع هذا الرأي وخذ هذا الرأي والبسه لأن بعض الناس قاله وقد رأينا ابن جرير الطبري يروي عن المتقدمين الأحاديث أو الآثار، ثم إنه يترك ذلك كله ويسير في طريق آخر. وإن قسر العقول والأفهام على رأي خاص - غير قطعي الثبوت والدلالة، وطلب العدول عن رأي أو تأويل إلى مثله - تحكم في الضمائر ودخول بغير حق فيما بين العبد وربيه. وإملاء إرادة ما أنزل الله بها من سلطان.

وليعلم حضرات أصحاب الفضيلة أنني إنما يعجبني الحديث النقي - الذي لا عيب في رجاله - وتطمئن نفسي إليه. فأما الحديث الذي طعن في أحد من رجاله بطعن - ولو كان خفيفا أو ضئيلا - فإن نفسي تنفر منه مهما وثقه آخرون. فإني أقدم الجرح على التعديل وبخاصة إذا كان مبتدعا دعا إلى بدعته أو لم يدع. وأخص من ذلك إذا كان شيعيا يستحل الوقوع في الشيخين أو لا يتولاهما، ولم يسلم من ذلك أحد من طوائف الشيعة في نظري سوى الزيدي وقد رأيت في «تهذيب التهذيب» الطعن على «عوف» من رجال حديث أبي هريرة، بأنه شيعي رافضي شيطان. فمع ما قدمت لا أرى الثقة به مهما قال حضرات أصحاب الفضيلة في توثيقه وجواز الرواية عنه. واطمئنان النفس شيء يأتي عن طريق الوجدان لا بإملاء الإرادة كما يريدون.

وأزيدهم الآن في حديث أبي هريرة: الحسن عن أبي هريرة. والحسن موثق به في نظري ونظر كل المحدثين، ولكنه لم يسمع من أبي هريرة.

قال في عمدة القارئ: وأما الحسن فلم يسمع من أبي هريرة عند المحققين من الحفاظ، ويقولون ما وقع في بعض الروايات من سماعه عنه فهو وهم. وفيه أيضا «خلاص» عن أبي هريرة. وقد جاء في عمدة القارئ: وأما «خلاص» ففي سماعه عن أبي هريرة خلاف. فقال أبو داود عن أحمد: لم يسمع خلاص من أبي هريرة... الخ.

وأما الرواية الثالثة للبخاري التي ليس فيها عوف وهي التي قال فيها: حدثنا إسحق بن نصر حدثنا عبد الرازق بن معمر عن همام بن منبه. فإن فيها عبد الرازق وقد جاء في «عمدة القارئ» ٢٥٣، ٢٥٤ ج ١ وقال الحافظ أبو أحمد بن عدي: قال ابن معين ليس بالقوي، ونسبه العباس بن عبد العظيم إلى الكذب. قال والواقدي أصدق منه. وقال أبو أحمد: لعبد الرازق حديث كثير وقد رحل إليه الناس وكتبوا عنه ولم يروا بحديثه بأسا إلا أنهم نسبوه إلى التشيع. وقد روى أحاديث في فضائل أهل البيت ومثالب غيرهم مما لم يوافقه عليها أحد من الثقات. فهذا أعظم ما ذموه به من روايته المناكير.

وبعد هذا كله، فإن أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة جعلوا هذا الحديث حجة على حدوث معجزة، وهي جري الحجر بثياب موسى. وزادوا فيها معجزة أخرى وهي حدوث ندب في الحجر بضرب موسى له بالعصا.

أقول: أولا - أن الحديث يفرض خلوه عن جميع الملاحظات ليس إلا خبر آحاد، وخبر الآحاد لا تثبت به المعجزة لأن المعجزات لا تثبت إلا بيقين لا يتطرق إليه شك. وخبر الآحاد ليس فيه يقين لأنه ظني الثبوت.

ثانيا - المعجزة لا تكون إلا مقرونة بالتحدي، وما تحدى موسى بهذا الأمر أحدا ولا طلب أحد من موسى هذه المعجزة.

ثالثا - أن المعجزة إنما تأتي بطلب الرسول، أو باقتراح قومه عليه أن يأتي بها، ولم يحصل أن موسى طلب ذلك من الله تعالى ولا طلب أحد من قومه ذلك!

رابعا - أن جري الحجر حصل رغما عن موسى، وكان موسى كارها لذلك. وما عهدنا معجزة تأتي رغم أنف الرسول والرسول يكون كارها لحصولها.

خامسا - ما هو موقف الرسول من أمر خارق للعادة يعملها الله له ثم هو يكره ذلك! هل يحل ذلك للرسول ولا يقدح في رضاه بما صنع الله لأجله وأكرمه به؟

سادسا - أما كان لموسى وقد رأى الحجر يشتد في الجري - ويفعل أمرا ليس من شأنه أن يعملها - أن يعلم أن الحجر لم يكن منه ذلك إلا لأمر يعلمه الله قد قهره عليه وسخره له فيسكت عند الغضب ويرجع إلى الصواب من أمره؟

سابعا - هل كان موسى حين طفق بالحجر ضربا بالعصا، يظن أن الحجر يتألم من هذا الضرب ويندم على ما كان منه، وأن هذا سيصرفه عن العودة إلى مثل ما صنع مرة أخرى؟

ثامنا - يرى أصحاب الفضيلة حصول النذب من أثر العصا معجزة، ومع إكباري لأشخاص حضراتهم أرى أنه لم توجد معجزة - أخرى ولا أولى - في هذا الأمر أصلا؛ إذ الحجر جسم صلب ومن المألوف في مثله أنه إذا تلاقى مع جسم صلب تفتت بعض الحجر، وصار أثر ذلك كهيئة النذب «النذب: أثر التثام الجرح، شبه به الأثر في الحجر» فليس ذلك بغريب أو غير مألوف!

تاسعا - ادعى حضرات الأفاضل أن بني إسرائيل كان التعري جائزا في شرعهم وكانوا يغتسلون عرا ولا يستتروا. وإني أقول لحضراتهم ولكل من قال قبلهم بهذا الرأي: هذه دعوى عريضة في ذمتكم أن تثبتوها، ولا ينفع في ذلك الاحتمال أو نحوه، بل لا بد فيها من النص من كتاب الله أو من كتبهم؛ وهو ما لم يوجد ولن يوجد.

فإني أعرف أن السواتين مركز في الطبيعة الإنسانية استقباح كشفهما، بدليل أن آدم وزوجه حين نزعهما لباسهما - حين الأكل من الشجرة - طبقا يخصصان عليهما من ورق الجنة - ولا عبرة بالأمم التي نزلت إلى الدرك الأسفل من الإنسانية كنزوح المناطق الاستوائية. فإن شأنهم ليس شأن بني إسرائيل الذين يقول الله هم ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيْ فَصَلَّيْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] ويقول أيضا ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وإني بذلك أدفع ما جاء في الأمر الثاني.

عاشرا - عظم حضرات الأفاضل الأدرة وجعلوها منافية للنبوة وعيبا لا يصح أن يتصف به النبي، ولم يقيموا الدليل الذي ينص على عدم اتصاف الأنبياء بها وأنها من المنفرات التي تمنع المتصف بها أن يكون نبيا، وكل ما ساقوه عمومات ليس فيها تنقيص، وقد عظموا الأدرة تعظيما لم يأذن به الله وفخموا من شأنها ومن ضررها ما هو ضئيل حقير.

حقيقة الأدرة

الأدرة هي ورم في الخصية. ويسميه الأطباء «القيلة الدوالية» وهي تنشأ من ميكروب يسمى «ميكروب الفيلاريا» وهذا الميكروب يصيب الإنسان من ناموس يوجد فيه ذلك الميكروب، فإذا لقح إنسان به فإنه يحدث التهاباً في بعض أعضاء الجسم، فإذا أصاب الساق انصبت إليها الدماء من الشرايين. ولا تعود تلك الدماء تسير في الأوردة، فتضخم الرجل حتى تصير كرجل الفيل وتصير أليفاً، ومن ذلك اشتق «الفيلاريا».

وإذا وجد الميكروب في الخصية أحدث التهاباً في طبقاتها! فيحصل من ذلك الورم - وبذلك يكون الناس بمأمن من العدوى به إلا من طريق الناموس، وهي مستترة بالملابس. فكم من رجل جليل القدر مالى الأسماع والأبصار وهو مصاب بالقيلة الدوالية، وهو يجالس العلماء والملوك والكبراء لا تنبو عنه أعينهم ولا تزدريه أنفسهم ولا يعلمون من أمره شيئاً. فمثل هذه القيلة لا تكون عيباً في رسول ولا نبي لأنهم إنما ينزهون عن العيوب الجسمية التي تستقذرها الأعين وتنفر منها النفس، لأنهم معلمون والناس في حاجة إليهم، ولا يمكن أن يؤدوا مهمتهم مع المرض المنفر المستقذر ولذلك تجوز عليهم الأمراض غير المنفرة، وهذا منها. اللهم إلا إذا كبرت وزادت عن الحد وصارت كأنف ذلك الرجل الذي داعبه بعض الشعراء بقوله:

رأينا للذكي جدار أنف يحاكي في تشامخه الجبالا
تصدى للهلل لكى يراه فلولاً أنفه لرأى الهلالا
ويقوله:

لك أنف ذو أنوف أنفت منه الأنوف
أنت بالقدس تصلي وهو بالبيت يطوف

والأدرة مهما عظمت ليست مرضاً مستعصياً، بل الجراحون يستأصلون أليافها ويعيدون الخصية سيرتها الأولى.

قال أصحاب الفضيلة: (الأمر الثالث) ما يترتب عليه «على كشف عورة موسى» من المصلحة التي لا توجد إذا بقي الأمر مكتوماً، بل يكون حينئذ مفسدة، حيث يكون منهم استمرار العجاج في الطعن على موسى بما يؤدي إلى زيادة شدتهم في عنادهم له، ويفضي إلى بعدهم عن قبول ما جاء به، والنفور من الإيمان به والرجوع إلى الكفر الذي هو مفسدة وإثم كبير. فأى الأمرين أرجح في نظر فضيلة المؤلف؟ أكفر أمة بأسرها. وانتقاص وإبذاء نبي كريم أم كشف عورة لا مفسدة فيه؟ كما أشار شراح الحديث من أن كشف العورة كان جائزاً في شريعة موسى، واجتنابه عليه السلام لكشف عورته كان أخذاً بالأفضل.

أقول: لقد أكبروا من شأن ورم الخصية ما أصغرتة العادة! وعظموا منها ما حقره الطب، ووضعوا الخصية الدوالية في كفة الميزان وكفر أمة بأسرها واستمرار الفساد في كفته الثانية، وربطوا ما في كل من الكفتين بمورب من العقد ضلت حله الأرباء. وأقرر منع ما يقولون وأقول: إن مرضاً كورم الخصية مستتر بالثياب، لو فرض وجوده في نبي كريم لا يبنني عليه ما قالوا ولا يمكن أن تكون الأمم مطبوعة بالطابع الذي قدره حضرات الأفاضل، مصبوبة في القالب الذي هيأه حضراتهم فكم من ملوك كرام على أمهم ورؤساء قد بخعت لهم رعيتهن بالطاعة كانوا مصابين بعيوب ظاهرة وبقوا حافظين =

= لمكانتهم واحترامهم ورياستهم، ولم يترتب على ذلك نشوز الرعية أو مخالفتهم؟
إن العلماء والمدرسين في كل الأمم إنما هم خلفاء الأنبياء في تعليم الأمم. وقد أفتى حضرات الأفاضل بأن الأداة عيب منفرد - يفرق بين المعلم والمتعلم وفي الأزهر الشريف وسائر المعاهد الدينية علماء يدرسون ويعلمون. وقد أصبحت أشك كل الشك في براءة كثير منهم من الأداة. فهل يسمح فضيلة الشيخ الأكبر بأن يأمر بالكشف على حضراتهم! وأن يأمر بتنحية من كان مصابا بالأداة منهم وإبعاده عن التدريس لأنه مصاب بمرض مستقذر منفرد؟ وليعلم فضيلته أن عدم إبعاد العلماء المأدورين عن التعليم يبنّي عليه نفور الأمة الإسلامية من معرفة دينها والاهتداء بهدي الرسول ﷺ. فليوازن بين جهالة الأمة الإسلامية بدينها وتنحية المأدورين عن التعليم في معاهد الدين. ورأيه الأعلى أن شاء الله تعالى.

أراد بعد ذلك حاذق منهم أن ينقذ الموقف - لما رآه من عدم السداد فيما أوردوا - فكتب الفقرة الآتية:

ثم إن مقتضى كونه وجيها عند الله أن يبرئه من كل تهمة تلصق به كذبا - سواء كان ما يتهم به كذبا عيبا يتنافى مع الرسالة أو لا - كما أن مقتضى كونه رسول الله إليهم أنقذهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وأخرجهم من استعباد فرعون وقومه لهم إلى الإطلاق والحرية ألا يؤدي منهم بأي نوع من أنواع الإيذاء. ولا شك أن اتهامهم كذبا بعيب في بدنه يعتبر إيذاء وإن لم يتناف ذلك العيب مع الرسالة، على أنك علمت أن المحققين على أن مثل هذا العيب مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وبذلك يعلم أن ما قاله الأستاذ «ثم إني لا أفهم كيف . . . الخ» لا وجه له. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وإني أجب حضرة الفاضل الذي كتب هذه الفقرة بما يأتي:

إن مواضع الخلف بيننا هي: -

- ١ - هل ثبت بنص قاطع أنهم رموه بهذا العيب الذي هو الأداة؟
- ٢ - هل الأداة تنافي الوجاهة عند الله، وأن الله ينظر إلى أدر الناس فيسقطهم من الوجاهة عنده ولا ينظر إلى قلوبهم وضمايرهم؟
- ٣ - هل كان بنو إسرائيل محللا لهم أن يتكشفوا وليس عندهم شيء اسمه عورة؟
- ٤ - هل جرى الحجر بثوب موسى معجزة حصلت له رغم أنه؟
- ٥ - هل ثبتت المعجزة بغير نص قطعي؟

كل واحد من هذه الأمور لم يثبت على الوجه الحق، وأحاديث الآحاد لا يثبت بها أمر على سبيل القطع، فلم تزل ذمة حضراتهم مشغولة بالبرهنة على سبيل القطع الذي لا يقبل شك ولا احتمالا على هذه الأمور. وأن المحققين الذين يعزّون إليهم أنهم «على أن مثل هذا العيب يجب تنزيه الأنبياء عنه» لم ينصوا على أن الأداة عيب يجب تنزيه الأنبياء عنه، وعبارته ليست نصا. وقضية قوله «إن المحققين يرون كذا» أن فريقا من العلماء يرى خلاف رأيهم وذلك يخرج المسألة عن أن يكون فيها نص.

وما دام الأمر كذلك، فلا برهان لكم - على ما تزعمون - يوجب أن يكون التفسير للآية لا يصح إلا على رأيكم. وليعلم حضرات الأفاضل أن إثبات معجزة - غير ثابتة لنبي من الأنبياء - يساوي إثمه إثم إنكار معجزة ثابتة ثبوتا قطعيا.

أما قصة قارون: فتلخص في أنه كان رجلاً من بني إسرائيل آتاه الله بسطة في الرزق وأدرّ عليه أخلاف الثراء حتى إن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولي القوة، فكان مرموقاً من قومه بعين الغبطة: كل من رآه في زينته وأبهته يتمنى أن يرزق مثل ما رزقه من الحظ في الدنيا ويستعظمون ذلك أيما استعظام!

كان أولو البصائر من قوم قارون يعطونه ويبذلون له النصح ويحذرونه عاقبة ما هو عليه من الخيلاء والزهو، ويشيرون عليه بالابتعاد عن سوء مجاورة نعمة الله بالإفساد في الأرض، ويحذرونه على أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، بأن يظهر عليه أثر معرفة نعمة الله بالإحسان إلى الفقراء من عباد الله كما يظهر أثرها عليه في تناول المباحات من اللذائذ، وألا يصرف نعمة الله في طريق الإفساد في الأرض. لأن ذلك يغضب الله تعالى، ولأن مجاورة نعمة الله بالإفساد في الأرض تدعو إلى أن يغير الله تلك النعمة. فأعطاهم أذنًا صماء ولم يصغ إلى نصائحهم. وقال في المال الذي عنده ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

ويقول المفسرون إنه كان واقفاً على سر الصناعة أي الكيمياء^(١) أي إحالة المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس هو الذهب - ذاهلاً عن أن فضته وذهبه لم يغنيا عنه من الله شيئاً، لأن الله تعالى قد أهلك من القرون من هم أشد منه قوة وأكثر جمعاً، فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يعتزون به من مال ونشب، ولم يفلتوا من عذاب الله تعالى.

= وآخر الكلام أقول لحضراتهم: أني كنت جادا حين تساءلت عن الحكمة التي أرادها الله تعالى من كشف عورة رسوله موسى، وهتك ستره وإبداء سواته للملأ من قومه؟ وليس في كلام حضرات الأفاضل ما شفى أو كفى! ألم يجد الله تعالى طريقة لتبرئة عبده موسى سوى ذلك الذي يكرهه موسى؟

أما دعوى حضراتهم ومن نقلوا عنهم أن ذلك كان جائزاً عند بني إسرائيل، فدعوى تحتاج إلى نص عندنا أو نص عندهم، وهو ما لا يوجد فهي افتراض افتراضوه. ولم تزل ذمة حضراتهم مشغولة ببيان الوجه الوجيه الذي لا ينزع فيه أحد.

من هذا كله: يتبين أني لم أحد عن طريق الصواب في اختيار الوجه الثالث، وأنه لا حرج علي في ذلك. وما اعترضوا به وما قالوه لم يغير موقعي ولم يزعجني قيد شعرة.

(١) ظل الأوروبيون يقولون باستحالة تحول المعادن حقبة من الدهر ولكنهم بالاستمرار في البحث في الذرة - أو الجوهر الفرد - صاروا يقولون إن ذلك من الممكنات، وهم جادون في تفريق أجزاء الذرة، حتى إذا تم لهم هذا أمكنهم إيجاد أي مركب كالذهب وغيره. وحينئذ يكون ما كان يبدو مستحيلاً صار جائزاً.

كان من أحداث الزمان أنه خرج على قومه في زينته، فقال المولعون بالدنيا الذين يزدهيهم زخرفها: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوقِفَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوْ حَظٍ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] ووعظهم أهل البصر النافذ فيما وراء المظاهر الخلافة وقالوا لهم: ﴿وَيَلَيْكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠] طالبين صرفهم عن المطامع الباطلة فكانت عاقبة طغيانه وانصرافه شكر الله على نعمته أن أزال الله عنه لباس النعمة وأذاقه وبال أمره فخسف به وبيداره الأرض ولم يجد له ناصراً أو معيماً.

اقرأوا هذه الآيات.

سورة القصص ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِنْ آلِ كُورٍ مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَتْ شَاةٍ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَثُرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوقِفَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوْ حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُوءِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءً وَيُكَانَتُهُ لَا يُلْقِيهِ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أما إيذاء بني إسرائيل لموسى فقد اختلف في نوع الإيذاء. فقال قوم: إنهم قالوا إن موسى به عيب جسمي واتهموه بالأدرة. وقال آخرون: بالبرص. فنزل الماء ليستحم ووضع ثوبه على حجر فجرى الحجر بثوب موسى. فصار موسى يجري خلفه خارج الماء ويقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! إلى أن وقف الحجر في مجتمع بني إسرائيل، ورأوا أنه بريء من العيب الذي اتهموه به.

وأنا لا أدري ما هو الحامل أو الداعي الذي أراده الله من جعل الحجر يشد في الجري وموسى في أثره مكشوف العورة؟ ولم كانت هذه المعجزة التي تهتك ستر نبي

كريم بسببها ويضرب الحجر حتى يؤثر فيه ندوباً؟ وأيضاً فإنني لم أفهم كيف يكون ابتلاء موسى بالأدرة عيباً يحول بينه وبين الواجهة عند الله تعالى؟

وإذا كان الاتهام بالأدرة هو الأمر الذي أودى به موسى فكيف ينافي هذا علمهم بأنه رسول الله إليهم؟ كما يشعر بذلك قوله لهم ﴿يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]! فلا بد أن يكون الإيذاء أكبر من الاتهام بالأدرة.

نعم ورد الحديث بمسألة الحجر ولكن في رجاله «عوف» وقد جاء عنه في «تهذيب التهذيب» أنه كان شيعياً رافضياً شيطاناً.

والذي أميل إليه في مسألة إيذاء بني إسرائيل موسى ما ذكره البيضاوي في تفسير آية الأحزاب والألوسي في تفسيره وابن الأثير في تاريخه وعبارة ابن الأثير أوسع، ذلك أن موسى طلب الزكاة من قارون. فشحت نفسه بالمال. وأراد أن يكيد لموسى ليرجمه. فاتفق مع امرأة أن تقول عن موسى إنه زنى بها. ولما أصبح قال لموسى أليس من الشريعة أن الزاني يرحم؟ قال: بلى. قال: فإنك قد زنت بفلانة ويجب أن تسلم نفسك لنرجمك.

فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعي هذه الدعوى على موسى وهو بريء منها. وبذلك ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩] وهذا هو اللائق أن تحمل عليه الآيات لأن من كان زانياً لا يكون وجيهاً عند الله تعالى.

ويظهر أن قارون اجتمع عليه كثرة المال والشح به على الواجبات. والتهيه على قومه حتى آل أمره إلى الافتراء على موسى. فكان عاقبته أن خسف الله به وبداره الأرض. ولما كان أكبر اعتقادي ارتباط الإيذاء بقارون وأضرابه - الذين شايعوه على موسى - فأنا أميل إلى هذا الرأي وقد أورد الألوسي احتمالات كثيرة لا أرى ضرورة لنقلها.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (٦٩).

سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥).

ذكرت قصة قارون في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد. وملخصها: أن قورح

- قارون وهو ابن عم موسى - ودathan وأبيرام - ابنا اليا ب - وأون - ابن فالت بنو راووين - كانوا يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مائتين وخمسين رؤساء الجماعة . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما إن الجماعة كلها مقدسة وفي وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟

فلما سمع موسى سقط على وجهه وقال غداً يعلن الرب من هو له ، ومن المختار والمقدس حتى يقربه إليه وأمر القوم أن يأخذوا مجامرهم وأن يضعوا فيها النار وأن يضعوا على النار بخورا . والرجل الذي يختاره الله هو المقدس . وعاتب موسى قورح قائلا : اسمعوا يا بني لاوي ! أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل وقربكم إليه لخدمته ؟ إذن أنتم متفوقون على الله وعاصون لأوامره ، وإلا فما هو هارون حتى تتذمروا عليه ؟ وأرسل يدعو دathan وأبيرام بن ألياب فلم يصعدوا إليه . قال لرسوله قل له : أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً كما وعدتنا ولم تعطنا نصيب حقول وكروم ؟ لا نصعد إليك ؟ فاجتاز موسى وقال لله : لا تلتفت إلى تقدمتها «حماراً واحداً لم آخذ منهم ولا أسأت إلى أحد منهم» .

وأمر موسى قورح أن يكون مع أولاده والجماعة المظاهرين له في أبواب خيامهم ، ويكون معه أبناؤه ، ويأتي هارون بمجمرته ويكون الجمر في المجامر ، ويتقدمون أمام الله مائتين وخمسين مجمرة ، وأن الله كلم موسى وهارون وأمرهما أن ينفرزوا عن كل بني إسرائيل ليهلكهم ، فتضرع موسى إلى الله حتى لا يأخذ كل القوم بخطيئة رجل ، فأمره أن يبعد جماعة بني إسرائيل عن خيام هؤلاء المشاقين ففعل .

ولما حضروا من الغد ، قال موسى للجماعة : إذا كان الله قد أرسلني لأعمل هذه الأعمال وليست من نفسي أن موت هؤلاء كموت كل إنسان فليس الله قد أرسلني . ولكن إن ابتدع الله بدعة وفتحت الأرض فاهاً وابتلعتهم وكل مالهم ، فيهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالله .

فلما فرغ موسى من قوله انشقت الأرض وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع الأموال ، وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من كل الجماعة ، وأرسل الله نارا على المائتين والخمسين من أعداء موسى الذين قربوا البخور . اقرأوا من أول الإصحاح السابع عشر : من سفر العدد إلى آية ٢٤ منه ، فهذا هو إيذاء بني إسرائيل لموسى وهذه براءته عندهم .

اختيار موسى سبعين رجلاً

من شيوخ بني إسرائيل لطلب المغفرة من الله والندم على ما صدر من قوم موسى على عبادة العجل - طلب بعضهم من موسى أن يروا الله جهرة ليؤمنوا به - أخذ الصاعقة إياهم - تضرع موسى إلى الله ألا يهلكهم بفعل السفهاء الذين طلبوا الرؤية - إحيائهم بعد موتهم من الصعقة - التبشير بمحمد على أثر ذلك .

لما رأى القوم أنهم قد ظلموا أنفسهم وقارفوا إثمًا كبيراً بعبادة العجل؛ اختار موسى من القوم سبعين رجلاً يذهبون معه إلى الجبل - الذي اعتاد أن يناجي الله فيه - ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم، ويتوبوا إلى الله مما جناه عبدة العجل، فذهب بهم إلى الجبل «حورب» وهو جبل الطور. فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله عاودت جماعة منهم جبلة التمرد والعصيان، فلم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذي يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة. وقالوا له: لن نؤمن لك أن الله نبأك وأعطاك الكتاب حتى نرى الله تعالى جهرة بأعيننا لا يحجبه حجاب ولا يستره ساتر. والظاهر أنهم لم يؤامروا موسى في هذا الاقتراح من قبل ولو فعلوا لأرشدتهم وأعلمهم علم ما لقي من التجربة القاسية، وهي الصعقة التي نالته على أثر ذلك الاقتراح الذي صدر منه وتجلى الله تعالى للجبل الذي صار دكاً من هيبتة تعالى. ولا يبعد أن يكون أعلمهم بذلك كما يقول بعض المفسرين، وأنهم لم يقبلوا منه قوله.

على أثر هذا الطلب من القوم أخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم إلى بعض، يتهافتون على أديم الأرض ليكون ذلك برهاناً فعلياً لديهم على أن ما أصابهم حق لا شبهة فيه. ثم بعثهم الله من بعد موتهم بعد التضرع والتذلل من موسى، وطلب العفو عما صدر من سفهائهم والغفران لزلتهم، فغفر الله لهم ذلك وأعادهم إلى الحياة. وكان من طلب موسى المغفرة والرحمة في الدنيا والآخرة؛ أن أخبره الله تعالى بأن ذلك راجع لمشيئته. وأخبره الله تعالى بأنه كتب رحمته للمتقين الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ولا يعارضون فيها ولا يتعنتون في الاقتراح بعد إيمانهم، كما فعل قوم موسى. وهم الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، ومن أوصافه أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، إلى آخر الآيات.

فكانه تعالى كان يباهي بمحمد وأتباعه أتباع موسى قبل وجود محمد وأمه بأكثر من ألف وخمسمائة سنة، ويوبخهم بأن له عباداً ليسوا على شاكلة قوم موسى يؤمنون بالله

وآياته بدون تعنت أو تدمير بعد اتسامهم بالإيمان، ووصفهم بأروع الأخلاق وأجل الصفات.

نبوة محمد موجودة في التوراة رغم ما اعتورها من التحريف والتشذيب. وها أنذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيلاً للفائدة، ولأنها أيضاً من قصة موسى.

ففي الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر - تكوين «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً».

ولفظ العبارة الأخيرة في العبرية «هِنِي بِيَرَحْتِي أَوْتُو وَهِيَرِيْتِي أَوْتُو وَهِيَرِيْتِي أَوْتُو بِمَاد مَاد» بِإِمَالَةٍ فِي «بِمَاد مَاد» إِلَى وَاو.

ومن عادة العبرانيين الاعتماد في الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب، فلو حسبنا لفظ «بِمَاد مَاد» بالجمال! لكانت جمل «محمد» بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ وهو من أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار في أبنائه^(١).

أما بقية كتب الأنبياء ففيها أخبار كثيرة تنطبق على «محمد» ﷺ والبلد الذي يخرج منه. أما هذه المواقف من مواقف موسى فافقرأوا هذه الآيات التي تدل عليه:

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُفِّرُ بِنُؤْمَانِكُمْ أَمْ كَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) ثانياً - في الآية ١٥ من الإصحاح ١٨ من سفر التثنية. قول موسى لبني إسرائيل (١٥) يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون (١٦) حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة لئلا أموت (١٧) قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا (١٨) أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيتكلم بكل ما أوصيه.

لقوله من إخوتهم في الآية: (١٥) وقوله من وسطهم من إخوتهم في الآية (١٨) تدل على أن الموعود به لا يكون من بني إسرائيل بل من إخوتهم. وإخوتهم بنو إسماعيل كما تدل على ذلك الآية ١٨ من الإصحاح ٢٥ - تكوين «أي أبناء إسماعيل» من حويلة إلى شور التي أمام مصر حين تجيء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل وحويلة هي بلاد خولان على تخوم اليمن - مما يلي الحجاز - ولا مقابل لأبناء إسماعيل في جهة شور سوى بني إسرائيل. وكما تدل على ذلك أيضا الآية «١٢» من الإصحاح ١٦ - تكوين «وأمام إخوته تسكن» وأيضا فإن قوله «واجعل كلامي في فمه» الخ يدل على أنه يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدع أحد من أبناء إسماعيل ذلك سوى «محمد» ﷺ. ولم يقم نبي أمي سواه منذ خلق الله الدنيا إلى اليوم.

ثالثاً - الآية الثالثة من الإصحاح الثامن والثلاثين - تثنية (٢) قال جاء الرب من سينا وأشرق لهم من سحير وتلألاً من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فجبل فاران بمكة وهي البلاد التي سكنها إسماعيل.

نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَدْرِ مَوْيِكَ لَمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ .

سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو أَسْمَاءَهُمْ إِنَّمَا هِيَ إِلَّا فُتْنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدِّينَارِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا إِلَيْكَ قَالِدًا عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ بِحُدُودِهِ مَكْنُونًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذُكِّرُوا وَاعْتُزُّوا بِهَا وَصَرُّوا وَأَتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ لَهُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ﴾ [البقرة: ٥٦] دليل على أنهم ماتوا. لأن البعث لا يكون إلا عن موت ولا مانع أن يكون في الكلام مجاز فشبه إفاقتهم من الصعق بالإحياء.

العبد الصالح صاحب موسى

حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرني سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل؛ فقال ابن عباس كذب عدو الله. حدثني ابن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى يا رب فكيف لي به؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً في مكمل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون - حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطلق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به. فقال له فتاه ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] قال فكان

للحوت سرباً ولموسى ولفتهاء عجباً. فقال موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه! فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. فقال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَبَيْتُكَ فَلَا تَتَّبِعْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد خلع لوحاً من السفينة بالقدم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]! قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] قال: ﴿لَا تُؤْخِذْنِي يَمَا نَسِيتُ وَلَا تَرُدِّفْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] فقال: وقال رسول الله ﷺ وكانت الأولى من موسى نسيانا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر بغلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه، فقال له موسى: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا رَّكِيَةً يَغَيِّرُ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]؟ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] قال: وهذه أشد من الأولى؛ ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْرِحْ فَمَا عَلِمْتَ لَئِنْ ذُرَّكَ لَا تَلْزَمَهُ فَكَمْ أَبَوَاءُ أُنِيَ أَهْلٌ قَرِيْبٌ أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٧٧] قال: مائل» فقام الخضر فأقامه بيده فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لا اتخذت عليه أجرا؟ قال: هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا». فقال رسول الله ﷺ «وددنا أن كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبیر: فكان ابن عباس يقرأ ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] وكان يقرأ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠].

ما اسم العبد الصالح

وأما العبد الصالح فقد اختلف العلماء في اسمه. وهل هو نبي أو رسول أو ولي؟ واختلفوا في زمنه وهل هو حي إلى اليوم أو ميت؟

أما اسمه فقالوا: إنه «الخضر» وقيل «بليا بن ملكان» وقيل «اليسع» وقيل «الياس» وقيل «ملك من الملائكة» وقيل اسمه «عامر» وقيل «أحمد». واختلفوا في اسم أبيه فقيل إنه «ابن آدم» لصلبه وقيل إنه «ابن فرعون» وقيل «ابن العيص» وقيل «ابن كليان». والجمهور على أنه «بليا بن ملكان» وأن «الخضر» لقب له. وعلى أنه نبي وقال غير الجمهور: إنه رسول. وقال آخرون: إنه ولي. وعليه الكثير.

واختلف هل هو حي اليوم أو ميت؟ فذهب جمع إلى أنه ليس بنبي. وأنكر البخاري أن يكون حياً. وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال قبل موته «ما من نفس منقوسة يأتي عليها مائة سنة وهي حية» وسئل غير البخاري من الأئمة فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عنه فقال: لو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه. وسئل إبراهيم الحربي عن بقاءه فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. ونقل في البحر عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي: القول بموته. ونقله ابن الجوزي عن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما اه من الألويسي.

ويقول بعض أهل التفسير: إنه و «الإسكندر المقدوني» ابنا خالة، وكان وزيره. وهو قول جاهل؛ لأن الإسكندر كان بعد موسى بأكثر من ألف سنة! فكيف يكون ابن خالته معاصراً لموسى رسول الله؟

القرآن الكريم لم يرد فيه هذا الاسم، ولولا وجوده في حديث البخاري ما صدقت بوجود صاحب هذا الاسم! وكان «هيان بن بيان» وإني أكتفي بما قدمته من ذكر الآيات الكريمة. ومن شاء فليقرأ سورة الكهف فهي فيها.

تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم

إن الناظر إلى أحوال بني إسرائيل والقارئ للقرآن ولكتب أنبيائهم يجد الله تعالى قد دلهم وأعطاهم حكم الصبي على أهله فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل، واحتمل صلفهم وطغيانهم ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم إلا فعلها، وهم لا يزدون إلا عناداً ومخالفة عن أمره.

والظاهر أن الأمم - التي طردها الله أمام بني إسرائيل وأورثهم أرضهم وديارهم - كانوا غاية في الرذالة والعصيان والكفر، حتى إن بني إسرائيل الذين نعرف حالهم كانوا مختارين من الله عليهم. وقد رأيت في الكتاب المقدس، أن موسى - على ما أذكر - قال

لبنى إسرائيل : لا تظنوا أن الله تعالى سيأتي بكم إلى الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس في طاعته! كلا فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين .

وقد ذكر الله تعالى بني إسرائيل بما صنعه لهم من الإحسان ، وبالآيات التي صنعها في سبيل إطلاقهم من أسر فرعون وقومه ما نوره في هذه الآيات :

سورة البقرة: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ الْمَلَأِ مِنْكُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿٥٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْلَأْنَا لَكُمْ وَجْهَهُمْ مَّاءً فَنَزَلْنَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَآلِهِ مَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿٥٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿٥٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٧﴾

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيقًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُغْسِدِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّ نُصْرَتِي عَلَيْكَ وَإِنِّي أَخْرَجْتُكَ مِنَ الْأَرْضِ بِمَا بَغَيْتَهَا فَاقْبَلْهَا وَتَوَلَّاهَا وَتَوَلَّاهَا وَتَوَلَّاهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ اللَّهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿١٨﴾

سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿١٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿١٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَوْا غُرُوقَهمْ وَلَحْنًا ﴿١٨﴾

سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ

فَرَعَوْتُ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبَحُونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجُبُكُمْ لِمَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيرٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ .

موت هارون ثم موسى

أما هارون فقد أمر موسى أن يذهب هو وهارون إلى جبل «هور» فذهبا وهناك مات هارون ودفنه موسى، وعاد إلى بني إسرائيل وأخبرهم بموت هارون، ويقول مفسرو القرآن: إن بني إسرائيل قد شغبوا على موسى واتهموه بقتل هارون إلى أن أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ليس به أثر للقتل. وأما موسى فقد أمره الله أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، وهناك مات موسى ودفن على الفسجة وهي الكتيب الأحمر.

موقف لبني إسرائيل بعد موسى

بعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل «يوشع بن نون» من سبط يوسف ومعه بنو إسرائيل وعبروا إلى الأرض التي وعدوا بها، وكان أول بلد ملكوه مدينة «أريحا» وقد أمرهم الله أن يدخلوا باب المدينة حين يدخلونها سجداً أي خاشعين متذللين لله تعالى وأن يقولوا: ﴿حطة﴾ ولكن القوم عاودتهم سجية مخالفة أمر الله تعالى، فقالوا قولاً غير الذي أمرهم بأن يقولوه، ودخلوا وهم على هيئة غير التي أمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب.

ومعنى ﴿حطة﴾ حط عنا خطيئتنا أو أمرنا حطة. وليس من البعيد أن يكون هذا اللفظ عبرياً ومعناه خطيئة لأن لفظ أخطأ بالعبرية «حطا» بحاء مهملة فطاء تقول «إني حطاتي» أي أنا أخطأت و«أنا حطاتا» أي أنت أخطأت.

ولكن يلزم عليه أن القرآن فيه لفظ غير عربي. وقد جوز بعض العلماء ذلك ومنعه آخرون. ولا مانع من أن يكون هذا اللفظ دخل في العربية وصار منها.

ويقول البيضاوي: إن المدينة هي بيت المقدس أي «أورشليم» أو «أريحا». ولعل القول بأنها «أورشليم» الذي دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطة» والقرآن لم يبين المدينة والتوراة لم تذكر المسألة أصلاً.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجِدَا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَفَرْنَا لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ .

سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّفَرْنَا لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

ثناء الله تعالى على موسى وهارون

علمنا من هذه القصة ما كابده موسى وهارون في معالجة شؤون بني إسرائيل وسياستهما لذلك الشعب المشاغب. وأن هارون مات في جبل «هور» وأن موسى مات ودفن في جبل «نبو» بعد أن أشرف على أرض الموعد. وقد أثنى الله تعالى ثناء طيباً على موسى وهارون لما كابدا من عنت قومهما وشدة مراسهم، مع ما كانا عليه من الإيمان المحض والإخلاص.

سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَمِينًا ﴿٥٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ .

سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَصَرَّيْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَائِلِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَالَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٢﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٣﴾﴾ .

العظات التي تستفاد من قصة موسى

١ - أن الابتلاء الذي يصاب به الإنسان في الدنيا ينبغي أن يقابل بالرضا؛ فقد يكون الخير العظيم في هذا الابتلاء. فهذا موسى قد خرج خائفاً من آل فرعون متبعاً نصيحة ذلك الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة ناصحاً له بالابتعاد عن مصر لأن الملاء يأتُمرون به. فهاجر من مصر وكان الخير كله في هجرته؛ فقد وجد أهلاً بأهل وجيرانا بجيران، واصطفاه ربه على الناس برسالاته وبكلامه وجعله واسطة لإنقاذ قومه من فرعون وآله.

٢ - أن المتوكل على الله المعتمد عليه تعالى في أموره يقيض الله تعالى من ينقذه ويهيئ له من أمره يسراً؛ كما قيض ذلك الرجل لموسى فكان سبباً لنجاته أولاً وكان في هذه النجاة أن يخصه الله بوحيه .

٣ - أن الشخص المستمسك بالحق لا ييالي بمن خالفه ولو كان عظيماً .

فهذا موسى قال له فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] فقال له موسى في غير مبالاة به ولا اكتراث لما هو فيه من أبهة الملك وعز والسلطان ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً بعد أن حاسنه موسى كل المحاسنة وتلطف به كل التلطف، فلما لم يفد أخشن له القول .

٤ - أن الحق لا يعدم نصيراً . ذلك موسى جاء إلى فرعون لينزله عن عرش الربوبية ويدعوه إلى عبادة الله فاعتزم قتله وأمر قومه، فقام رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه يتفاح عن موسى ويدافع عنه ويحذر فرعون وآله بطش الله ضارباً الأمثال بالأمم الخالية غير مبال بمخالفة فرعون .

٥ - أن لذة الإيمان إذا تذوقها الإنسان ملكت عليه مشاعره واستهان في سبيلها بكل عقاب . لذلك آمن السحرة بموسى وإلهه، غير مبالين بفرعون وما أعد لهم من عذاب .

٦ - أن الصبر على البلوى حميد العاقبة . فهؤلاء بنو إسرائيل ابتلوا فصبروا على الإهانة والذل والتسخير وتقتيل الأبناء واستحياء النساء إلى أن أعقبهم الله الحسنى كما قال: ﴿وَكَمَتَ كُلُّمْتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

٧ - أن موسى كان حليماً على بني إسرائيل رؤوفاً بهم . فإن الله قد غضب عليهم بسبب عبادة العجل وهددهم بالإبادة . وكذلك الشيوخ الذين ذهبوا لتقديم توبة الشعب طلبوا رؤية الله تعالى جهلاً وعتتاً فأخذتهم الصيحة، فأخذ موسى يتضرع إلى الله ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكُكُمْ بِمَا فَعَلَّ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْيَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَنَّهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإَلْذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧].

استطردا

بمناسبة هذه الآية الكريمة عرض لي أن أسائل نفسي سؤالين. وهما:

١ - أن التواريخ قد دلت على أن اليهود قد احتلوا جهات من الحجاز؛ كتيماء ووادي القرى وفدك وخيبر ومدينة يثرب. واتخذوا تلك الأمكنة مقاماً وجعلوها دار قرارهم وأثاروها وعمروها وبنوا فيها المصانع والآطام العظيمة والحصون المنيعة. واستقر من قبائلهم هناك: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فما الذي أزعجهم عن فلسطين تلك الأرض التي إذا تكلموا عنها قالوا إنها تفيض لبناً وعسلاً؟

٢ - ولم كان اتجاههم إلى تلك الأرض القليلة الريف وأرض الله واسعة أمامهم؟ فهذه مصر متاخمة لأرضهم والشام من شمالهم والعراق مهاجرهم الأول. فلم اتجه هؤلاء الناس إلى تلك الناحية؟

١ - أما السؤال الأول فجوابه فيما أعتقد أن بني إسرائيل إنما أزعجهم من فلسطين التي كانوا يحبونها حباً جماً. إغارة «طيّس» الروماني على بلادهم وإيقاعه بهم، وتخريبه بيتهم المقدس وهيكلهم الذي كانوا يفاخرون به كل الأمم ويباهون بضخامة بنيانه وما فيه من آنية الذهب والفضة، وذلك سنة ٧١ بعد الميلاد.

٢ - وأما جواب الاستفهام الثاني: فإن بني إسرائيل قد وعدوا بنبي يقوم من بين إخوتهم وهم العرب الإسماعيليون وأنه سيكون ظهوره وإعلان أمره في مدينة يثرب. فلما ضاقت أنفسهم مما أنزله بهم الرومان. رجوا أن يأتيهم الفرج ويعود لهم العز بمظاهرة هذا النبي الذي وصف لهم في كتب الأنبياء، فجاءوا إلى مكان ظهوره انتظاراً لمقدمه وعلى الطريق بين البلد الذي يظهر منه وبين فلسطين.

جاء في أشعيا (١٠) غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وماؤه والجزائر وسكانها (١١) لترفع البرية ومدنها صوتها. الديار التي سكنها قيثار. لتترنم سالك من رؤوس الجبال ليهتفوا (١٢) ليعطوا الرب مجدداً

ويخبروا بتسبيحه في الجزائر (١٣) الرب كالجبار يخرج كرجل حرب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه اهـ .

فسالغ هذه التي يدعوها أشعيا للابتهاج ليست سوى «جبل سلغ» إذ الوادي الذي به المدينة المنورة يكتنفه جبلان : أحدهما شرقي وهو «جبل أحد» وثانيهما غربي وهو جبل سلغ .

والأغنية الجديدة إنما هي الدين الجديد الذي يعلن توحيد الله وإفراده بالعبادة ، ويكون حرباً للأصنام التي تعبد من دون الله تعالى كما في قول أشعيا «ص ٢٣» قد ارتدوا إلى الورا يخرى خزي المتكلمون على المنحوتات . القائلون للمسبوكات أتنن آلهتنا .

لم يأت نبي بعد أشعيا كان حرباً على الأصنام وعبادتها وأعلن ثورته عليها حتى أبادها من بلاده سوى «محمد» ﷺ لهذا السبب جاء اليهود إلى «يثرب» بلسق «سلغ» التي دعاها أشعيا إلى الابتهاج بشريعة الله الجديدة والنبي القائم بها .

وقد يكون قد هجس لبعض اليهود أن يكون منهم النبي الذي يقوم من سالع وتبتهج به ، فزلوا في تلك الديار رجاء أن يبعث ذلك النبي منهم وتكون لبقيتهم العزة به .

داود عليه السلام

تمهيد - رجع الكلام إلى داود - نعم الله على داود - موقفان لداود - الزبور - هبة سليمان لداود - حكمة داود - ما يتعلق بالفتنة من القرآن - مكان العبرة من قصة داود.

هو كما في إنجيل متى: داود بن يسى، بن عوبيد، بن بو عز، بن سلمون، بن نحشون، بن عمينا داب، بن أرام، بن حصرون، بن فارض، بن يهوذا، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام.

ورد اسم داود في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً. في الآية ٢٥١ من سورة البقرة. وفي ١٦٣ من سورة النساء. وفي ٧٨ من سورة المائدة. وفي ٨٤ من سورة الأنعام. وفي ٥٥ من سورة الإسراء. وفي ٧٨، ٧٩ من سورة الأنبياء. وفي ١٥، ١٦، من سورة النمل. وفي ١٠، ١٢، من سورة سبأ. وفي ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٦ من سورة ص. وقد آتاه الله النبوة والملك في بني إسرائيل. وقد ذكرت قصته في القرآن مرات كثيرة - تارة مختصرة وتارة مطولة - وكلها يكمل بعضها بعضاً وقد طالت مدته في الملك. وله مواقف أيام ملكه وقبله.

والكلام في داود وتلخيص قصته يحتاج إلى تمهيد نبدأ به فنقول:

تمهيد

لما دخل بنو إسرائيل بلاد فلسطين مع يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم إلى وفاته. وأقاموا على ذلك، يقيم لهم أمرهم قضاة منهم، وليس فيهم ملك سناً وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام.

وكان بنو إسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم - كالعمالقة من العرب والمديانيين والفلسطينيين والآراميين وغيرهم وكانت الأيام دولاً بين الفريقين. تارة يغلبهم اليهود وتارة يغلبون اليهود وكان الأنبياء في ذلك العهد مرشدين لأولئك القضاة والحكام من اليهود وواسطة بينهم وبين الله تعالى. وفي بعض الأحيان يكون النبي قاضياً. وكان في أواسط المائة الرابعة - في أيام عالي الكاهن - أن العبرانيين دخلوا في

حرب مع الفلسطينيين سكان أشدود بالقرب من غزة. وقد أخذ بنو إسرائيل معهم تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه التوراة أي الشريعة ليستنصروا به. فغلبهم الفلسطينيون وأخذوا تابوت العهد ودخلوا به إلى بيت «داجون»^(١) إلههم «وهو رأس إنسان على جسم سمكة». وكانت هزيمة بني إسرائيل عظيمة وذلهم شديداً.

ندع تابوت العهد في بيت داجون مؤقتاً، ونذكر لكم أنه كان من قضاة بني إسرائيل نبي اسمه صمويل^(٢) قضى لبني إسرائيل زمناً، وعين ابنين له للقضاء في أحياء إسرائيل فلم يعدلا، وخاف بنو إسرائيل أن يفسد عليهم الأمر بعد صمويل، وجاءوا إليه في بلدة الرامة وألحوا عليه في أن يقيم عليهم ملكاً منهم، يأتمرون بأمره ويقودهم إلى قتال أعدائهم الذين أذلّوهم دهرأ طويلاً، ويدافع عنهم من يريد الإغارة عليهم. وكان صمويل عالماً بعقلية بني إسرائيل وعاداتهم وما انطوت عليه أنفسهم. فقال لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟﴾ [البقرة: ٢٤٦] «فصل بين عسى وخبره بالشرط» والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم، فأجابوه قائلين ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] والمعنى أن دواعي القتال موجودة وهي أن الأعداء أخرجونا من ديارنا وأسروا أبناءنا. فلا يتأتى منا النكول ونحن على هذه الحال.

وقد جاء في الكتاب الكريم أنهم لما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم.

عرفهم صمويل بعد ذلك أن الله قد جعل «طالوت» ملكاً عليهم واسمه في سفر صمويل «شاوول بن قيس بن أبيثيل بن ضرور بن بكورة بن أفيح» من سبط بنيامين. وكان «شاوول» شاباً جميلاً لم يكن في بني إسرائيل أحسن منه.

عرفنا أن الشاب «شاوول» هو الذي اختاره الله ليكون ملكاً لليهود وقد نصت حكاية «شاوول» الذي هو «طالوت» في سفر صمويل الأول من الإصحاح الثامن إلى الحادي عشر.

وكان من قصته وأمر تملكه أن ضلت أتن لقيس أبي شاوول، فقال لابنه خذ معك واحداً من الغلمان وفتش على الأتن، فبحث في أمكنة كثيرة إلى أن أتى إلى المدينة التي

(١) توجد قرية قرب الرملة من بلاد فلسطين اسمها «بيت دجن» اعتقد أنها «بيت داجون» وأن معبد هذا الإله كان بها، وأن بها كان تابوت العهد الذي لبني إسرائيل ورد أيام طالوت.

(٢) رأيت قبره على جبل على يمين الذهاب من بيت المقدس إلى الرملة، بعد أن يجاوز لفته وأبي غوش. وقد قيل إنه دفن في الرامة، ولعل ذلك الموضع يقال له الرامة.

فيها صمويل، فأشار الغلام على شاول أن يقصد النبي صمويل ليدله على الأتن، فذهب إليه فالتقى به في وسط المدينة يريد صمويل لقاءه، فسأله على الأتن فطمأنه وأكرمه إكراماً عظيماً في ذلك اليوم، وفي اليوم الثاني صب صمويل الدهن على رأس شاول ومسحه به وقبله وأخبره بما سيصير إليه أمره.

ثم أخذ صمويل في العمل لتعيين من اختاره الله ملكاً لليهود أمام الشعب، وطلب شاول فوجد مختبئاً بين الأمتعة. ولما جاءوا به كان أطول الناس فرضي به الشعب وهتفوا له وغضب آخرون. واحتقروه.

وفي القرآن الكريم أن نبيهم لما أخبر بني إسرائيل أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً تدمروا ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴿[البقرة: ٢٤٧] وكان شاول طويلاً.

وكان مما أخبر به صمويل بني إسرائيل، أن آية ملك طالوت أن يأتيهم التابوت الذي أخذ منهم و﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي موسى وهارون على حد قول عمر: لو ضاع عقال بشرط العراق لخشيت أن يسأل الله عنه آل عمر؛ يريد نفسه ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿[البقرة: ٢٤٨].

نعود إلى التابوت الذي في بيت داجون فنقول: ذكر في سفر صمويل أن الفلسطينيين كانوا يجدون إلههم «داجون» ملقى عن مكانه في كل ليلة وسلط الله عليهم الفيران فأفسدت عليهم حاصلاتهم وخرجت لهم البواسير، وعلموا أن ذلك من وجود التابوت عندهم. فصنعوا تماثيل فيران من ذهب وتماثيل بواسير من ذهب ووضعوها مع التابوت قرباناً، وجاءوا بعجلة جديدة وعلقوا فيها بقرتين مرضعتين ووضعوا التابوت على العجلة وأطلقوا البقرتين، فجاءتا بالتابوت بدون سائق أو قائد إلى قرية «بيت شمس» إلى أهل قرية «يعاريم» اليهودية، فأخذوا التابوت وما معه وأوجدوه في بيت وخصوصاً به أحد الكهنة لخدمته، وكان مكث التابوت عند الفلسطينيين سبعة أشهر، وأقام في يعاريم عشرين سنة.

وصعود التابوت من عند الفلسطينيين هو الذي أقامه صمويل آية على ملك طالوت. ومعنى ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] على هذا أنها كانت تدل بالبقرتين الجاريتين للعجلة.

جمع بعد ذلك طالوت الجنود لقتال الفلسطينيين، وكان شجاعهم وعظيمهم رجل يقال له «جالوت» - أو «جليات» عند العبرانيين - قد هابه الناس وتحاموا حربه لشجاعته وقوته.

وكان في ذهاب طالوت إليه أن قال لجنوده ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فأصاب القوم ظمأً شديداً، فلما أشرفوا على النهر لم يملكوا أنفسهم أن شربوا منه إلا قليلاً منهم امتنعوا وصبروا عن الماء وآثروا طاعة الله وكانوا قليلاً. فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه على قلتهم قالوا. لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده - لأنهم نظروا إلى قلتهم وكثرة أعدائهم - فقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله أي المؤمنون بأنهم ملاقوا الله وإنما عبر بالظن للإشارة إلى أن مجرد الظن كاف للعاقل في العمل لما ينجم عنه لأنه أخذ بالأحوط ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقد كان من حاضري الحرب داود بن يسي وكان صغيراً يرعى الغنم لا فضل فيه للحرب ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين مع طالوت ليأتيه عندهم بما يطمئنه عليهم - فرأى جالوت وهو يطلب المبارزة والناس قد تحامته لما ملأ أنفسهم من هيئته وتيقن كل مبارز له أنه هالك. فسأل داود عما يصير لقاتل هذا الفلسطيني فأجيب بأن الملك يغنيه غنى جزيلاً طيه ابنته ويجعل بيت أبيه حراً في إسرائيل.

كان داود في ذهابه إلى إخوته المحاربين لا يعلم أنه سيحارب ولم يكن قد جرب نفسه في الحرب ولكنه ذهب إلى شاول وطلب الإذن بمبارزة جالوت ففضن به شاول وحذره. فقال إنني قتلت أسداً أخذ شاة من غنم أبي وكان معه دب فقتلته. وألبسه شاول لامة حرب فلم يعرف داود أن يمشي فيها فخلعها وتقدم بعصاه وخمسة أحجار ماس في كنفه^(١) انتخبها من الوادي ومعه مقلاعه وبعد كلام مع جالوت رماه داود بحجر فثبت في جبهته وأخذ منه السيف وفصل به رأسه عن يديه وهزم الفلسطينيون ووعد الملك داود أن يزوجه ابنته ميكال وجعله رئيس الجند.

اقرأوا الآيات الآتية:

سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ

(١) وعاء يحمل فيه الراعي خبزه ونحوه.

لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ^(٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَدْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ^(٢٥٠) فَهَرَمُوهُمْ يَّاذِنِ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ^(٢٥١) .

رجع الكلام إلى داود

بعد هذا التمهيد الذي قدمناه نقول لما هزم داود جالوت ورجاله حسنت حاله عند شاول وصار مقدماً بين رجال الحرب في بني إسرائيل، وعظمت منزلته وزوجه ابنته وانعقدت أواصر المحبة الصداقة بين داود وبين يوناثان بن شاول.

تغير قلب شاول بعد ذلك على داود لما أحس من تعلق الشعب به وعظمه في أعينهم، فعمل على إهلاكه خشية أن تمتد عينه إلى الملك. وكان يوناثان بن شاول يعمل على تحسين مركز داود عند أبيه ويطريه ويشيد بإخلاصه في خدمة الملك ولما اعتزم شاول الفتك بدادود أنذرت زوجته ميكال بنت شاول، فهرب وأوهمتهم أنه على سريره ولم يكن فوق السرير سوى متاع مغطى وكان داود قد أعطى شاول صداقها مائة غلفة من الفلسطينيين.

وكان شاول حين ولي حرب الفلسطينيين - بعد أن تغيرت نيته فيه - يريد بذلك أن يلي الأعداء قتله ويكفوه أمر داود. ولكن داود كان مظفراً في حروبه. فلما لم يهلك أحب أن يهلكه بجنده وأعدائه ففاتهم. وكان داود مع علمه بخبث نية شاول عليه لا يقصر في

النكاية بأعداء الملك. ولما أيقن داود أن نية الملك قد صحت على قتله هرب منه. حتى لقد هم شاول أن يطعن ابنه يونانان بالرمح لأنه كان يحاجه في داود فراغ منه ونجا. فتمت عزيمة داود على الهرب منه وأن يغيب وجهه عنه.

انتهى داود في هربه إلى «أخيش» ملك «جت» وهم أعداء شاول الألداء ولداود أسوأ النكايات بالقوم في الحرب. فلما ظفروا به جاءوا به إلى الملك وحرصوه على قتله. فتظاهر داود بالجنون. وأوقع الله في قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته. فأمر غلمانه بإطلاقه وإبعاده عنه ففعلوا وقد لامهم الملك على إدخال مجنون إلى بيته.

ذهب داود إلى مغادرة «عدلام» وجاء إليه جميع أخوته وجميع بيت أبيه، واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل مدين. فانتقل إلى مصفاة موآب وأرسل أباه وأمه إلى ملك موآب ليكونا في كفالته إلى أن يعلم مصير أمره. ثم انتقل بمن معه إلى أرض يهوذا.

سمع شاول بداود ومن اجتمع له من الرجال، فلام رجاله على عدم إخباره بأمر داود مع ابنه يونانان أنهما تعاهدا على الصداقة والوفاء. فأغراه أحد رجاله بأخي مالك بن خيطوب الكاهن وأخبره أنه أعطى داود طعاماً وسلحه بسيف جالوت، وأن الكاهن دعا له بالنجاح فأتى شاول بالكاهن ولامه في أمر داود فأنى الكاهن على داود وقال: إنه مخلص في خدمة الملك وقد شاع أمره واشتهر؛ وأن الملك لا ينبغي أن يكافئ داود عن الإحسان شراً. فأمر الملك بقتله وقتل الكهنة فقتل منهم خمسة وثمانين ولم ينج منهم سوى طفل يقال له أبيتار ابن خيطوب وهرب إلى داود وأخبره بكل ما فعل شاول. فرحب داود بأبيتار وأقامه عنده لأن أهل بيته قتلوا بسبيه.

أقام داود في البرية وشاول يطلب الفرصة لإهلاكه، وعلم داود بكل ما يدبر عليه وقد جمع شاول ثلاثة آلاف للتفتيش عليه والإيقاع به، واختبأ ومعه بعض رجاله في كهف فجاء شاول ونام في ذلك الكهف وداود ورجاله في داخله! ولاحت الفرصة لداود في قتله وأغراه رجاله بذلك فوبخهم ولم يفعل؛ واقتصر على قطع طرف جبة شاول. ولما استيقظ شاول وخرج من الكهف تبعه داود وأخبره بأنه قد كانت له الفرصة في قتله فلم يمد إليه يداً، وأن آية ذلك أنه قطع طرف جبته وعف عن إلحاق الأذى به. فندم شاول وقال: أنت أبرّ مني.

لم يلبث شاول أن عاوده الخوف على ملكه من داود فألح في طلب إهلاكه وخرج مع رؤساء جنده في جيش لإهلاك داود. فصبر داود حتى نزلوا منزلاً ناموا فيه وقد ركز الملك رمحه عند رأسه ونام، فجاء داود وتخطى الجند ورؤساءهم. وأخذ الرمح وكوز ماء

كان عند رأس الملك، ووقف على ربوة ونادى رؤساء الجند موبخاً لهم على تقصيرهم في حراسة الملك، فاستيقظوا ودعا داود أحداً منهم يجيء إليه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء. وأعلم الملك بأن الفرصة قد سنحت له في قتله ولكنه لم يفعل. فأظهر الملك الندم وعاد الملك إلى بيته وأقام داود في حصن اتخذته لنفسه.

لما يئس داود من صلاح الحال بينه وبين الملك ذهب إلى الفلسطينيين فطلب من ملكهم أن ينزله في إحدى القرى يقيم فيها هو ورجاله.

ولعل ملك الفلسطينيين قد رأى الفرصة سانحة لعمل هدنة مع داود ليكتفي شره، ورأى ذلك خيراً من بقاءه على العداء ودوام النكاية بالملك وجنده فأجاب طلب داود.

لم يطل المقام بداود حتى قام شاول لمحاربة الفلسطينيين، وخرج داود برفالهم، ولكن قادة الجند تخوفوا جانبه وأغروا الملك برده فرده بعد مسير ثلاثة أيام، وكان الملك به ضئيلاً. فلما عاد إلى المكان الذي فصل منه وجد الفلسطينيين خالفوا إلى نساء داود والرجال الذين معه وأولادهم، فسبوهم ونهبوا كل شيء وأحرقوا القرية التي كان داود نازلاً بها وتدعى «صقلغ» فجند وراء المغيرين وخلص السبي وأفحش في قتل أولئك القوم وغنم منهم غنائم عظيمة.

أما شاول فلقى الفلسطينيين فانهزم جيشه، وقتل هو وثلاثة من بنيه، وهزم رجاله وجلا العبرانيون عن المدن القريبة من الموقعة وسكنها الفلسطينيون.

في أثناء هذه الخطوب مات صمويل - صلوات الله عليه - وقام في بني إسرائيل نبي آخر اسمه جاد وكان صمويل قد تغير على شاول وابتعد عنه ولم يشأ أن يذهب إليه مع إلحاح الملك في الطلب، وقد أخبر داود أن الملك صائر إليه بعد موت شاول.

لم يكن داود يعلم بما تم على شاول وجنده من القتل والهزيمة والتشريد، حتى جاء إليه غلام عماليقي، وأخبر بما تم على شاول وجنده. وأن شاول كان فيه بقية من رفق بعد سقوطه في الحرب. وعلم أنه مأخوذ لا محالة فطلب إلى الغلام العماليقي أن يقتله ففعل، وأنه أخذ إكليله وسواره وجاء بهما إلى داود، فغضب عليه داود وقتله، وأقام مأتماً على شاول ويوناثان صديقه وورثاهما رثاء عظيماً والظاهر أن شاول كان حسن السياسة وأن مدته كانت مدة رفاغة وهناءة لبني إسرائيل كما تدل عليه مراثية داود.

صعد بعد ذلك داود إلى «حبرون» وهي مدينة الخليل اليوم فجاء رجال يهوذا وأقاموا داود ملكاً على بيت يهوذا.

وأما بقية إسرائيل فدانوا بالطاعة «لايشبوشث» بن شاول وقام بأمره رجال أبيه ورؤساء جنده.

وقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال ايشبوشث بن شاول إلى أن هلك ابن شاول بعد سنتين، وأقام داود ملكاً في حبرون، وجاء إليه بقية رؤساء إسرائيل وملكوه عليهم، وأقام في حبرون سبع سنوات. ثم انتقل إلى صهيون وهو حصن سماه مدينة داود وكان المقيمون في جبل الموريا من اليبوسيين. فأقام داود بجانبهم في صهيون إلى أن صارت جميعها لبني إسرائيل.

قادم داود في أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفقاً فيها منصوراً على أعدائه واتسع ملكه حتى صار من أيلة - خليج العقبة - وهي المدينة التي على الخليج إلى الفرات، فدانت له تلك البلاد كلها بعد حروب كان الظفر حليفه فيها كلها، فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم قبل أن يملك دمشق وما معها.

وقد أحسن داود إلى غلام بقي من بيت شاول ورد عليه أملاك أسرته، ملك داود شرقي الأردن بعد أن حاربه بنو عمون.

نعم الله على داود

قد ذكر الله تعالى لداود مواقف صالحات وأنه أنعم عليه نعماً عظيمة فمن ذلك:

١ - أن الله ذكر في الكتاب الكريم أنه سخر الجبال مع داود يسبحن بكرة وعشيا، وقد دل على ذلك بقوله في سورة سبأ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠].

وفي سورة ص ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

قال البيضاوي في قوله ﴿أُوتِي﴾ رجعي في التسييح كلما رجع فيه اه وهذا أمر يدل على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال للعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته.

٢ - تسييح الطير معه كما تفعل الجبال أيضاً - كما تقدم في سورة سبأ.

وفي سورة ص ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهِ أَوَّابٌ﴾.

٣ - علم منطق الطير: فقد جاء في سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبَايِعُ النَّاسُ عُلَمَنَا مَنْطِقُ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٠].

قال البيضاوي: والضمير في ﴿أُوتِينَا - وعلمنا﴾ له ولأبيه أو له وحده - على عادة

الملوك لمراعاة قواعد السياسة - ويؤيد - في نظري - أنه يتكلم عنه وعن أبيه :
 (أولاً) قوله تعالى: ﴿يَجِئَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ (ثانياً) قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ
 لَهْ أَوَّابٌ﴾ (ثالثاً) قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ إذ الظاهر أنه ورثه في العلم والحكمة .

٤ - إلانة الحديد له كما في قوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١٧) **أَنْ أَعْمَلَ**
سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ [سبأ: ١٠ - ١١] النسج أو الثقب قال البيضاوي ﴿أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدُ﴾
 جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بآلاته أو بقوته اه فكان
 يعمل الدروع المسردة أي ذات الحلق من الحديد بيده معجزة له وأمرأ خارقاً للعادة . ولو
 كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن في ذلك امتناناً من الله عليه إذ كل الناس يعملون
 كذلك . اللهم إلا أن يدعي مدع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود وأن الله هداه
 إلى هذا الأمر الذي لم يكن معروفاً قبله . وهذا ما لا سبيل إلى تحقيقه .

٥ - عمله الدروع المركبة من حلق الحديد^(١) وكانت تعمل صفائح، فكان هو الذي
 نسجها من حلق الحديد، تناط الحلقة بأمثالها إلى أن يكمل الدرع، وهي أخف من الدروع
 الأخرى وأبعد من مضايقة لابسها، وهي تقي لابسها من أن تعمل فيه الأسلحة . فهي على
 لابسها حصن يتنقل بتنقله كما قال تعالى ﴿وَعَلَّلْنَاهُ صَنْعَةً لِّبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
 فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] .

واعلموا أن الدروع لم تبق لها فائدة حربية بعد اختراع المدافع والبنادق، فإن
 مقذوفات البنادق تخترقها، وقد سمعنا أنهم في بعض الأحيان يتخذون الدروع من الحديد
 المقسى «أي المقوى بالنيكل» فتكون لها قوة لا تخترقها قذائف البنادق ولكنها غالية جداً .

٦ - تشديد ملكه . ذلك أن الله تعالى قواه في الملك وجعله منصوراً على أعدائه،
 فقد انتصر على جميع مبغضيه . ومناوئيه - قبل الملك وبعده - ومكث دهرأ لا يقوم له
 معارض إلا غلبه، ولا يعتدي على ملكه معتد من خارج مملكته في أواخر ملكه وقال
 البيضاوي ﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكُهُ﴾ [ص: ٢٠] قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود . وقرىء بالتشديد
 للمبالغة . قيل إن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى الله إليه أن اقتل
 المدعى عليه . فأعلمه فقال: صدقت إني قتلت أباه وأخذت البقرة . فعظمت بذلك هيئته .

٧ - آناه الله الحكمة وفصل الخطاب . والمراد بالحكمة: النبوة . وأصل معناها

(١) لعل الذي جعله يفكر في عمل الدروع المسرودة، عدم قدرته على المشي في لامة الحرب التي ألبسه
 إياها «شاول» يوم برز داود لجالوت - كما تقدم - .

اللغوي وضع كل شيء في محله. أي يقول الإنسان لا خلل وليس فيه موضع لليت أو للو. ويفعل الصواب الذي لا اعتراض لأحد عليه. بل يأتي به الإنسان على وجه الكمال. ومعلوم أن النبوة هي من هذا القبيل. ولكن الحكمة بمعنى النبوة تكون هبة من الله تعالى؛ دون أن تكون نتيجة بحث أو درس. ولكن حكمة غير الأنبياء تكون بعد البحث والدرس ومجاهدة النفس ورياضتها على السير بمقتضى الحكمة فالنبوة طريق إلى الحكمة مختصر يختص الله به من اصطفاهم من عباده. وهو الفاعل المختار.

قال البيضاوي في تفسير ﴿وَقَصَلِ الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٠] فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والحذف والتكرار ونحوها. وإني إلى الأول أميل.

٨ - إن الله تعالى أعطاه الزبور كما في قوله تعالى ﴿وَعَاثَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له، وبعض أخبار مستقلة كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي أنه تضمن الأخبار بشأن النبي الآتي وهو (محمد) ﷺ وأصحابه - كما في الزبور الخامس والأربعين.

وكان داود عليه الصلاة والسلام حسن الصوت حسن الإنشاد، حتى أنه إلى اليوم مضرب للمثل بحسن الصوت، فيقال للحسن الصوت: إنه أعطي مزامراً من مزامير داود «عليه السلام» والزبور يسمى عند أهل الكتاب «المزامير» وعددها مائة وخمسون مزموراً. وليست كلها لداود بل بعض المزامير لقورح إمام المغنين، وبعضها منسوب إلى داود، وبعضها منسوب للمغنين على السوسن، وبعضها غير منسوب. والكثير منها منسوب إلى داود، وليس في الزبور أحكام ولا أوامر ولا نواه، بل كله كما وصفنا. وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين. كالمزمور الذي أوله «على أنهار بابل» فإنه ألف بعد سبي الإسرائيليين إلى بابل في حادثة «بختنصر».

موقفان لداود

(الأول) لا يختص بداود وحده بل يشترك معه ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام. قال المفسرون: إن حرثاً - أي زرعاً أو كرماً - تدلت عناقيده نفشت فيه غنم لغير أهله - أي أكلته ليلاً - فجاء المتحاكمون إلى داود وعنده سليمان فحكم داود بالغنم

لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم برعيها إياه ليلاً. فقال سليمان - وهو ابن إحدى عشرة سنة غير هذا أرفق فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها. والحرث إلى أهل الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان.

قال البيضاوي (والأول) نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني (والثاني) مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة للعبد المغصوب إذا أبق. وحكمه في شرعنا عند الشافعي: وجوب ضمان المتلف بالليل؛ إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً. وكذلك قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته، فقال «على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الدواب حفظها بالليل» وعند أبي حنيفة: لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ.

(الثاني) قالوا إن داود جزأ أزماته يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً لخاصة نفسه، فتسور عليه ملائكة في صورة الناس في يوم الخلوة والاحتجاب - والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه - ففزع منهم فقالوا له لا تخف نحن فوجان مختصمان ﴿بَعَى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَأَكْمَرُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ﴾ [ص: ٢٢] تجر في الحكم ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢] وهو العدل ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [ص: ٢٣] في الدين والصحبة ﴿لَمْ يَسْعَ وَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةً وَاحِدَةً﴾ [ص: ٢٣] وهي الأنثى من الضأن وقد يكنى به عن المرأة ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] أي ملكنيها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أي غلبني في الحجة أو في خطبة المرأة. فأجاب داود قائلاً ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] منكراً فعل خليطه ومهجنأ طمعه ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾ [ص: ٢٤] أي قليل وجودهم وكأنه يتعجب لقلتهم ﴿وَلَطَّنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤] ابتليناه بالذنوب وامتحناه بتلك الحكومة ليتنبه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ [ص: ٢٤] لذنبه ﴿وَحَزَرَ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] إلى الله بالتوبة. ولعل داود رأى أنه أسرع بالحكم قبل سؤال المدعى عليه، وعلم أنه تجاوز الحق بذلك ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَزَرَ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وهو أحد الآراء التي تحمل عليها الآية وهو حسن.

قال البيضاوي: وأقصى ما في هذه القصة: الإشعار بأنه عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة؛ فاستغفر وأناب. وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان - إن صح - فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته وكان ذلك معتاداً فيما بينهم، وقد واسبى الأنصار المهاجرين بمثل هذا. وما قيل إنه أرسل «أوريا» مراراً إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل

فتزوجها؛ هزء وافتراء. ولذلك قال علي رضي الله عنه من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين.

أقول إن المائة والستين حدًا قذف. وكأنه رضي الله عنه أراد أن يحده حد القذف، والثاني تغليظ لأن المقدوف نبي أما مواساة الأنصار للمهاجرين بنحو هذا؛ فمبلغ علمي أن سعد بن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها عبد الرحمن فأبى. وحاصل ما يفهم من هذه القصة أن داود عليه السلام كان يرى بعض الأشياء عند غيره فيستحسنها، وتقع من نفسه موقعاً، ويتمنى لو كانت له. وهذه الأشياء أعم من أن تكون امرأة أو سواها. وهو لا يريد بذلك أن يكون له الشيء إلا من وجه حل طبعاً. فأراد الله تعالى أن ينبهه على القناعة بما عنده من أمثال ما يستحسن مما أنعم الله به عليه. فأرسل الملكين بهيئة متخاصمين، فلما أفتاهما وتحقق بعد ذلك أنهما ملكان ظن أن الله تعالى ابتلاه وأنهما معاتبان في الواقع. وليسا بخصمين، فاستغفر الله تعالى وأتاب إليه. وأولى منه أن يكون ندم على الحكم قبل سؤال المدعى عليه - كما قدما - هذا هو الذي ينبغي المصير إليه وهو اللائق بمقام داود الذي يقول الله تعالى فيه ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ويقول أيضاً ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥] ويقول أيضاً ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقاً قاتلاً من غير حق ولا برهان.

بقي أن القول الذي نقلناه عن البيضاوي وفرض صحته، وهو احتمال أنه خطب على خطبة رجل آخر أو طلب إليه أن ينزل له عن زوجته وأن ذلك كان سائغاً عندهم. وإنما هو قول تلطف به المسلمون، وأما أهل الكتاب فإنهم يقولون: إن داود نظر وهو يمشي على سطح داره إلى امرأة تستحم فأعجبته وأغرم بها، وأتى بها واضطجع معها فحملت منه وأعلمته، وكان زوجها «أوريا الحشي» في الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب في الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته عهداً حتى لا يرتاب بأمرها إذا علم فيما بعد أنها حامل، ولكن الرجل كان تقياً جداً، فبات بباب داود ولم يزر امرأته. لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه وإخوانه في الحرب بعيدون عن أزواجهم. فلما علم داود بأمره لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره إلا تعريض أوريا لجبهة القتال حاملاً الراية، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم؛ وبهذه الوسيلة قتل الرجل، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية! وتزوجها داود. ثم مرض الولد فحزن داود لمرضه حزناً شديداً حتى لا يقدر أحد على تسرية همه. ثم مات الولد ومن هذه المرأة كان سليمان. وكل هذا منهم كذب وافتراء! وإني أرد كذبهم بالشهادات الحسنة التي شهدت بها كتبهم لداود.

ففي سفر صمويل الثاني في الإصحاح الثاني والعشرين يقول داود «يكافئني الرب حسب بري حسب طهارة يدي يرد عليّ لأنني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي فرائضه لا أحيد عنها».

وهذا السفر يقرون أنه كتب بالهام، وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم، ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته.

وفي الإصحاح الثالث من الملوك الأول: «فقال سليمان: إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك، فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه كهذا اليوم» فهل من البر والاستقامة أن يكون زانيا قاتلاً؟

وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني قول الله لداود «إن يكن بنوك طرقتهم يحفظون حتى يسيروا في شريعتي كما سرت أنت أمامي» فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتلة؟ وهل هذا الوصف مما يكافىء الله عليه بحفظهم وتشديد ملكهم؟ ويكون ذلك حفظاً للشريعة؟

وفي سفر الملوك الأول قول الله ليربعام بن ناباط عن سليمان إصحاح ١١ (٣٤) ولا آخذ المملكة من يده لأجل داود عبدي الذي اخترته الذي حفظ وصاياي وفرائضي (٣٨) فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت في طريقي وفعلت ما هو مستقيم في عيني وحفظت فرائضي ووصاياي كما فعل داود عبدي أكون معك وأبني لك بيتاً آمناً كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل.

وكانت مدة ملك داود أربعين سنة. منها سبعة أعوام وهو ملك في «حبرون» لسبط يهوذا وحده. ولإسرائيل كلهم: ثلاث وثلاثون سنة ملكاً لجميع اليهود في صهيون. وجعل ابنه سليمان ولي عهده قبل أن يموت ومات وهو شيخ كبير جداً.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ

أَصْطَفَيْنَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَمُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِثْلِ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا وَنَسِيتَ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَرَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ... ﴿٢٥١﴾

الزبور

ذكر الزبور في الآيتين الآتيتين من القرآن الكريم:

سورة النساء:

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿١١٣﴾

سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾

هبة سليمان لداود

سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٣٠﴾

حكمة داود

تسبيح الجبال والطيور معه واشتغاله بعمل الدروع

سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُمانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقْدَرٍ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صِلَةً إِيَّايَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾

سورة ص: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عِدَدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٧﴾﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِيخُنَ بِالْعَنَسِ وَالْإِسْرَاقِ ﴿٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿٩﴾﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ .

سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْتَائِهَا النَّاسُ عُثِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ .

ما يتعلق بالفتنة من القرآن

سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَارُوا بِالْمِحْرَابِ ﴿٢١﴾﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَى نِجَاحِيهِ وَإِنْ كَبِيرًا مِّنَ الظَّالِمِينَ لِيُبْنِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ .

مكان العبرة من قصص داود

أولاً: أن داود عليه السلام اختاره الله تعالى ليفعل العجائب بيده، ولم يكن من أهل تلك الأفعال لأنه كان غلاماً راعياً للغنم، فقتل الله تعالى بيده جالوت الجبار الذي تحامته الأبطال، ولم يقاتله بسيف ولا رمح، ولم ينزل إليه بدرع ولا ترس، وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحققر الأشياء على يد أضعف العباد.

ثانياً: أن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح وإحراز أسباب الفلاح مادام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى.

ثالثاً: أن انتصار داود على جالوت لم يغير من طباع داود ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء، بل لم يزد هذا الأمر إلا تواضعاً، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر.

رابعاً: أن طاعة الله تعالى وشكر نعمه مما يوجب المزيد منها. فإن الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نعمه؛ فألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع المسرودة لتحصن الناس من البأس، وأنعم عليه بولده سليمان الذي ورثه ملكه وعلمه وحكمته.

سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر سليمان في القرآن ست عشرة مرة في الآية: ١٠٢ من البقرة، وفي ١٦٧ من سورة النساء، وفي ٨٤ من الأنعام، وفي ٧٨، ٧٩، ٨٠ من الأنبياء، وفي ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٣٦، ٤٤ من النمل، وفي ١٢ من سبأ، وفي ٣٠، ٣٤ من ص. وقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات في نعم الله المترددة عليه وعلى أبيه، وهي لا تكون كلها قصة تسرد من أولها إلى آخرها، وإنما هي مواقف أنعم الله عليه فيها وأظهر فضله. ونحن أولاء نثبتها هنا.

الأول: أن الله منحه الذكاء وإصابة الحكم منذ صباه تدل على ذلك قصة الحرث الذي نفشت فيه غنم غير أهله؛ فقد وفق إلى الحكم الأقوم؛ وقد تقدمت. وقد ذكر في القرآن في قوله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) وهذه القصة لم تذكر في كتب أهل الكتاب.

الثاني: أن الله تعالى علمه منطق الطير «المنطق والنطق: كل لفظ يعبر عما في الضمير» والأصوات الحيوانية من حيث أنها تابعة للتخيلات في منزلة العبارة «ولا سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما هو من جنسه».

قال البيضاوي: ولعل سليمان مهما صوّت حيوان علم قوته الحدسية التخيل الذي صوته والغرض الذي توخاه به! ومن ذلك ما حكى أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال يقول «إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء» وصاحت فاخنة فقال: إنها تقول «ليت الخلق لم يخلقوا» فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال وصياح الفاخنة عن مقاساة شدة وتألم قلب اهـ.

والذين لهم مراقبة للحيوان والطير يجدون أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها. فمواء الهرة المحبوسة غير موائها إذا طلبت السفاد والطعام أو الماء. فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر يفهمه عنها أبناء جنسها. وقد أخبرني صديقي الشيخ أحمد عمر السكندري: أن أطفالاً ألقوا في بيته حداً بعد أن عبثوا

بها ونهكوا قوتها ورضوا بعض عظامها، فألقاها أولاده فوق السطح، فكان يصدر عنها صوت خاص كلما رأت الحدأ، فكن يحمن عليها وفي كل يوم يلقين إليها بعض الطعام من عظام بها بعض اللحم وأرجل دجاج ونحوه مما يرزقهن الله، وكان أولاده يقدمون لها الماء وبعض الأكل إلى أن أبلت وقويت وطارت.

وعلى كل فإدراك كل صوت من الطير وما يقصد به لم يكن إلا هبة من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده وقد وهبها سليمان^(١).

اقرأوا قوله تعالى في سورة النمل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ إِنَّا نَبَأُهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنْ طَرَفٍ وَأَوْتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

والمراد بقوله «من كل شيء» كثرة نعم الله تعالى عليه، ومنها تعليمه كلاماً لا يعلمه سواه. وهذه المنحة لم تذكر في كتب أهل الكتاب، وإنما يذكرون أن سليمان كان عظيم الحكمة، ولذلك يسمونه سليمان الحكيم، ولا يلقبونه بالنبي أصلاً.

الثالث: تسخير الرياح له يصرفها بأمره كما يصرف الإنسان عنان دابته وكانت وقت الغدوة مسيرة شهر ومثلها في وقت الرواح.

يقول المفسرون: إن سليمان كان له نحو البساط من الخشب له ألف ركن، في كل ركن ألف بيت يكون فيها جند سليمان من كل صنف، وتحت كل ركن ألف جنى يحملون ذلك الشيء الخشبي حتى يرتفع في الجو، وحينئذ تسير به الريح وكان يخرج من القدس فيقل في اصطخر، ثم يبيت بخراسان^(٢).

(١) نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم الأحد ٤ فبراير سنة ١٩٣٧ ما يلي:

«لغة الطير»

كشف عالم ألماني - بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل - أثراً لم ينتبه إليه أحد قبله وهو أن الطيور لا تصدح فقط ولكنها تتكلم. ولها على مثال البشر لهجات خاصة. مثال ذلك: إن الشحورر النمساوي لا يفهم لهجة الشحورر البافاري والشحورر الفرنسي لا يفهم لهجة الشحورر الانكليزي.

(٢) نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٣٨ المقالة الآتية:

هل عثروا على أسطول سليمان

الذي يرجع عهده إلى ألف سنة قبل المسيح

جاء في سفر الملوك، أحد أسفار التوراة ما خلاصته:

«وبنى الملك سليمان سفناً في «عصيون جابر» التي بجانب أيلة عند شاطئ بحر القلزم في أرض أدوم».

وقد انقضى تسعة وعشرون قرناً على ذلك الحادث.

وفي هذه الأيام جاءت برقية في ١٦ مايو ١٩٣٨ من بلدة نيوهافن بولاية كونكتيكت إحدى الولايات المتحدة. فحواها: إن الأستاذ «ميلار بوروس» رئيس المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية أذاع أن الدكتور نلسن غلوك مدير فرع تلك المدرسة في بيت المقدس كان على رأس البعثة التي كشف ثغر عصيون جابر، وهو ثغر يرتقي عهده إلى ثلاثة آلاف سنة.

وقال الدكتور غلوك أنه عثر على أدلة تبين أهمية عصيون جابر كمركز تجارة للنحاس ومصنع لإنشاء السفن قبل الميلاد بألف سنة.

حلم سليمان

ورأى سليمان «يهوه» ربه في الحلم، فقال له: «أطلب ما أعطيناك».

فقال الملوك الشاب: «يهوه» يا إلهي إنك ملكت عبدك مكان داود أبي، وأنا غلام صغير السن، لا أعرف أن أخرج وأدخل، فأجابه الرب. «هأنذا قد أعطيتك قلباً حكيماً فهماً حتى أنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك، وأيضاً ما لم تسله قد أعطيتك إياه الغنى والمجد».

وغمر اليسر والإقبال الأمة ومليكها، وأصاب ابن داود «الطيبوما» أي الدهاء في العمل الذي كانت الأمثال تضرب عن رغبة الناس فيها أكثر من رغبتهم في الحكمة أو المعرفة النظرية.

وبما أن الحكمة تجلب الغنى، فإن الملك شيد القصور وغرس الكروم، وأنشأ الحدائق فكانت كفردوس الجنان.

وكان وزراؤه يشغلون المناصب على الترتيب التالي: قيم القصر، ورؤساء الأسباط الإثنا عشر، ومستشار الدولة في الأشغال العامة، وقائد الجيش، والمستشار الملكي الخاص، وكانوا يتنافسون في الإسراف وإظهار العظمة، ومع ذلك الإسراف كان الشعب راتعا في بحبوة الرخاء والهناء.

وكان الملك يستقبل في قصره المشيد بالمرمر على أكمة في ظلال أشجار النخيل - الوفود الأجانب الذين كانوا يحترمون فضائله ويتهيبون حكمته وأرسل إليه حرام ملك صور ألغازاً وأحاجي فحلها إلا أن الألغاز والأحاجي التي أرسلها إليه الملك سليمان لم يستطع حلها، فكبر عليه ذلك الأمر ولكنه كان داهية فأرسل إليه سميه حيرام رئيس البنائين وشرع حيرام هذا في بناء الهيكل على جبل الموريا وكان العمال يحسدونه على النعمة التي أسبغها عليه الملك سليمان، فقاموا عليه وقتلوه، وكان قد ألقى في قلب سليمان الحكيم حب البناء، وجعله يعتقد أن تشييد الأبنية الثابتة رمز العظمة، وأقنعه أيضاً بأن ثمة مباني أخرى متنقلة ومصنوعة من خشب الأرز تشق العباب وترتاد أقاليم شاسعة مجهولة، لا تقل في العظمة عن المباني الثابتة.

وبعد ما فرغ سليمان الملك من تشييد تلك المباني انصرف إلى اقتناء الجياد المطهمة، فكان يجلس كل يوم في المركبة الحربية ويخرج إلى التنزه على مرأى من الشعب، يحف به فرسان حسان المنظر. إلا أنه ما لبث أن تبرم من ذلك، وقد خطر له أن يبهز الأبصار بسناء لم يألوه فتسقط التجار عما يعرفونه من البدائع في قصور بلاد فارس وكنوز ملوك الهند، والنباتات النادرة الجميلة التي شاهدوها في الشرق الأقصى ليجلبها إلى «أورشليم» ويزين بها قصوره.

وأقول: تحريك الريح لأي شيء عظيم ليس ببعيد.

ومسير الريح هذه المسافة شيء ضئيل في قدرة الله تعالى. ولكن الذي أريد الحصول عليه هو وقوع ذلك بالفعل والدليل عليه. فإني لم أجد ذلك في القرآن، ولا أدري لم ذهب سليمان إلى اصطخر ثم إلى خراسان؟ وليستا من ملكه وإذا ذهب زائرا لملوك تلك البلاد فأني داع إلى أخذ الجند الذين لا يقل عددهم عن مليونين؟ وكيف يسمح الملوك

= قافلة الكنوز - وأخذ سليمان يعمل فكرته فأنجحت له أن انتصارات اليهود على عماليق وسعير حررت من النهابين البلاد الممتدة من حدود يهوذا إلى بلاد أدوم إلى أيلة وعصيون جابر، على شواطئ ذلك البحر الذي سكن هائج في غابر الحين أمام الشعب المختار. ففي ميناء عصيون جابر «ومعناه بالعبرية العمود الفقري للجبار» عزم سليمان، بمشورة حيرام، أن ينشئ مصنعا لبناء أسطول عظيم الحول والطول لم يسبق له مثيل، وسمى ذلك الأسطول باسم «أسطول ترشيش».

وتولى الفنيقيون تدريب العبرانيين في الملاحة، فإن أولئك البحارة التجار البارعين في خوض البحار حتى داخل المحيط الذي لا نهاية له علموا الكنعانيين أصول الملاحة. واختص سبطا زبولون ودان من بين الأسباط الأخرى، باقتناء الزوارق ولذلك كان عندهم رجال تعودوا التمرس بالبحر للصيد، فقدموا بحارتهم لخدمة الملك سليمان.

واكتمل أول أسطول لإسرائيل في خلال سنتين، وحينئذ أخذ يمخر البحر حتى وصل إلى مصاب نهر السند، متحديا في السير المنهاج الذي كان أهل صور يسرون عليه، وكان ينقل إلى الهند زجاج فينيقية المنقطع النظير والأرجوان ومنسوجات مصرايم وبلسم جلعاد. وشاهد الكنعانيون بلاد العرب ومصر ونوتيا وبلاد كوش التي تتخذ المرأة فيها ثلاثة أزواج ووصلوا إلى بلاد أوفير الفتانة وإلى مصاب نهر السند. وكانوا يقايضون بالسلع التجارية - التافهة القيمة - التبر الذي يجدونه عند تلك الشعوب.

وعاد الأسطول بعد ما غاب ثلاث سنوات مثقلا بالكنوز التي جلبها من تلك الأصقاع الشاسعة في عصيون جابر، ونقل ما جاء به على ظهور الجمال إلى بلاد كنعان.

وشاهدت أبيجابل، وإخواتها المنشرحات الصدور والمتحليات بكل ضروب الزينة، على مثال عروس نشيد الإنشاد موكبا فخما يدخل أورشليم وكانت القافلة تجلب ٤٢٠ قنطارا من الذهب ومثلها من الفضة، فذوبها الصاغة وحولوها إلى «عيارات» لوزن الحنطة وكان على ظهور تلك الجمال والهجان خلائق غريبة الشكل مغطاة بالشعر لم يكونوا قد شاهدوا أمثالها قبل، ولم تكن تلك الخلائق إلا القردة بعينها.

ومما زاد دهش العبرانيين تلك الطيور التي تفوق ببهاثها عظمة سليمان وبلاطه، ولم تكن تلك الطيور إلا الطواويس، وكان في جملة الأشياء التي جلبوها من الديار السحيقة خشب الصندل فإنهم صنعوا منه القيثار للترنم بمدائح الأزل.

هذا ما تعيده إلى الأذهان في ١٩٣٨ قطع من العشب وجدوها بين الصحراء والبحر وقد عبث بها يد الأجيال التي مرت عليها.

لملك زائر بإدخال الآلاف المؤلفة من الجند إلى ممالكهم؟ وإذا كان سليمان لم يعلم بمملكة سبأ وملكتها حتى هداه الهدهد إلى ذلك! فكيف يترك اليمن التي في متناول يده ويذهب إلى اصطخر ثم إلى خراسان؟ ولمَ لم يكن ذلك إلى مصر أقرب البلاد إليه! هذا وبعض المفسرين يقدر مسير الريح بشهر؛ أي بمسير الذهاب للتنزه بحيث يكون سيره في اليوم فرسخاً أو تسعين ميلاً في الشهر. ولما كان الفرسخ البري ٤٤٤٤ متراً كان مدى غدوة الريح في الشهر ٣٢٠ و ١٣٣ ك وهو مقدار ضئيل.

نعرف أن متوسط سرعة الريح المعتدلة ما بين ٤٠ إلى ٥٠ كيلواً متراً في الساعة. فإذا كانت الغدوة ست ساعات فقط، وجب أن تكون المسافة نحو ٣٠٠ كيلو متراً في اليوم غدواً وهو شيء قليل. ولعل الذي حداهم إلى ذلك أنهم حسبوا السير المعتدل للإبل فوجدوا أنها تقطع في الشهر $30 \times 42 = 1260$ كيلو متراً. فإذا فرض سير الريح في الغدوة ست ساعات؛ كان ما تقطعه الريح في الساعة ١٨٠ كيلو متراً. وهذا إنما يكون في وقت العواصف الشديدة. لذلك عدلوا عن القول بذلك إلى كون الشهر بسير الشخص الطالب للتنزه! وقد فاتهم أن الله تعالى قال: ﴿مَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] وفي آية أخرى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١] أي أن الريح العاصفة تجري بأمره رخاء؛ فهي في هذه الحالة تقطع مثل ما تقطعه وهي عاصفة. وبعد هذا؛ فهل من لوم على من يقول: إن الريح كانت مسخرة لسليمان يصرفها تجري بأمره رخاء فيأمرها بأن تهب في هذه الناحية لاحتياج أهلها إلى الريح الرخاء للانتفاع بها في زرعهم ومعاشهم أو في تزجية السفن تصل إلى المرافئ سالمة؟ وبذلك يندفع ما قد يقال؛ وما فائدة تسخير الريح إذا لم تحمله وجنوده إلى مسافات بعيدة.

لو أن القائلين ببساط سليمان - الذي تحمله الريح - اقتصروا به على عشرة أذرع في مثلها أو عشرين ذراعاً في مثلها أو مائة ذراع في مثلها؛ لكان الأمر معقولاً مقبولاً. أما وهم يقولون: إن فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت فإنهم يجعلون له من السعة وترامي الأطراف ما لا يقبله تصور. بل لم يكن في ملك سليمان كله ما يكفي لشغله من الجند - إذ جعلوا به مليوناً من البيوت للجند - فإذا كان بالبيت الواحد جنديان فقط كان به مليونان من الجند. ولا يصح أن يكون قد خلف من الجند أقل منهم لحماية البلاد. فتلك أربعة ملايين. فإذا كانوا عشر السكان وجب أن يكون السكان أربعين مليوناً وهو عدد لا يمكن أن تسكن فلسطين ولبنان وسوريا بنصفه أو بربعه.

ويكون البساط في مساحة أكبر من مائة كيلو متر مربع، ومحال أن تجد في فلسطين مكاناً مستوياً يستقر عليه هذا البساط فضلاً عن البلاد التي ينتقل إليها على غير استعداد! وهذه مدينة بيت المقدس ليس فيها مكان مقداره عشرة أمتار في خمسين يوجد مستوياً أصلاً. فأين كان سليمان يسط بساطه؟

على أن سليمان كانت أسفاره مع جنوده على الأرض لا على متن الريح - كما يقولون - وهذا القرآن الكريم يقص علينا قول النملة حين مر بجنده على وادي النمل إذ قالت ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] وما كان سليمان وجنوده ليحطموا النمل وهم على بساط الريح الذي يزعمون!

إن مملكة سليمان وداود لم تمتد إلى أكثر من خليج أيلة وفلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا إلى شط الفرات فقط.

وهذا المقدار لا يحتاج في السفر إلى الشهور بل يحتاج إلى أيام، فما كان في حاجة إلى بساط تحمله الريح ولم يكن له من الجند ما يتلاءم مع مقدار البساط؟ فهذا ابن خلدون يقول: إن مبلغ خيله لم يزد على اثني عشر ألف فرس. ومثل ذلك في كتب الأنبياء.

وعلى كل؛ فهذا البساط بهذا المقدار إنما هو أسطورة تكفل برواجها تبرع الناس بحمل كل ما للأنبياء صلوات الله عليهم على الغرابة وعدم السير على السنن الطبيعية! وحبهم للتزيد على ما منحهم الله إياه من غرائب المعجزات. ونحن نقر بالمعجزات والعجائب التي منحها الله لأنبيائه مما جاء به نص قطعي الثبوت والدلالة، ولكننا لا نبذر فيها ولا نسرف.

واعلموا أن إثبات معجزة لنبي - لم تكن - كذب عليه يساوي إثم إنكار معجزة ثابتة.

الرابع: سليمان والصافات الجياد.

ذكر هذا الموقف في سورة ص في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفَيفَتُ الْجَيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) [ص: ٣٠ - ٣٣] ويقول بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: إن سليمان عرض عليه خيل جياد - في وقت العصر - فألهاها ذلك عن صلاة العصر؛ فغضب لذلك وطلب من الله أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلي العصر حاضراً، فردت ثم غضب على الخيل التي كانت سبباً في فوت

الصلاة فقطع أعناقها وسوقها. وإن الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا﴾ للشمس المفهومة من قوله: ﴿بِالْعَيْنِ﴾ ومعنى ﴿أَحَبَّتْ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أنه أحب هذه الخيل معرضاً عن ذكر ربه وهو الصلاة وهذا التأويل وما تضمنه أراه بعيداً! بل أراه بعيداً بعد المشرقين!

وإني أترك الفخر الرازي يرد عليه في تفسيره قال: إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وأن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿أَصْرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَذَكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان. وهذا الكلام لا يكون لائقاً إلا بقولنا: إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وأعرض عن الشهوات واللذات. فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقاً بهذا الموضع! فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال بالرد والإفساد والإبطال. بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن والصواب: أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه مندوب إليه في دين محمد ﷺ. فاحتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه. وهو المراد من قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب. أي غابت عن بصره. ثم أمر الرائيين أن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها. والغرض من ذلك المسح أمور:

(الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.

(الثاني) أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك متضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

(الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض؟ فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق انطباقاً مطابقاً موافقاً. ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات إلى سليمان عليه السلام.

ثم قال الرازي: وأنا شديد التعجب من الناس، كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردانها؟ وليس لهم فيها شبهة فضلاً عن حجة. وقد أطال الفخر الرازي في الرد على من يقول خلاف هذا. وهذا الموقف ليس فيه عند أهل الكتاب كلام أصلاً.

(الخامس) فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه^(١).

جاء في القرآن الكريم في سورة ص ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢٥) [ص: ٣٥] يقول أهل الحشو ومن لا يبالون بأن يأتوا في تفسير كتاب الله تعالى بكل ما يتخيلون من الحكايات المصطنعة: إن سليمان بلغه خبر مدينة^(٢) اسمها صيدون بجزيرة في البحر،

(١) نقد اللجنة «الموضوع الحادي عشر»

فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه

بعد أن ذكر في هذه الفتنة ما يقوله أهل الحشو وضعفه ورد عليه كما رد عليه المفسرون قبله وذكر أن الفخر الرازي في تفسيره أبدى لتفسير الآية الواردة في هذه الفتنة وجوها وذكر أحسن الوجوه قال ما نصه - صفحة ٣٢٥ سطر ٤ -.

أقول وعندي وجه لم يذكره أحد من العلماء، وهو أن كرسي داود إنما هو كرسي سليمان، لأن داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه. وقد قام «أبشالوم» ابن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي الذي هو في الواقع كرسي سليمان، وهرب منه داود إلى شرق الأردن، وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر أبشالوم الحرب بنفسه فقتل أبشالوم، إذ مر به بغله تحت بطمة فتعلق في أغصانها من شعره، فأتى رئيس الجند «يوبأ» وقتله، وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم وتضرع إلى الله وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

لا شك في أن سليمان في تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازماً - لا شك فيه - أن الكرسي الملكي أفلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية - لا يخلو منها من كان مثله في سن الصبا - فمن زهو بذلك الكرسي الذي ينتظره، والملك العريض الذي سيكون بيده صولجانه. فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه ديب اليأس، فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التي تعد على المقربين ذنوباً - وهي غير ذنوب - وأناب إليه ضارعا أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فآتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً. إلى أن قال: وأما ما روي أنه عزم على الطواف على سبعمائة أو سبعين من نسائه في ليلة واحدة، فتأتي كل واحدة منهن بولد يجاهد في سبيل الله ولم يقل (إن شاء الله) فعاقبه الله بأنهن لم يحملن كلهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان، فجيء إليه به وهو على كرسيه ووضع في حجره! فبعد إذ قدرة الإنسان تعجز عن الطواف بسبعمائة امرأة أو سبعين في ليلة واحدة والليله لا تسع ذلك أصلاً مهما قدرت حظاً صغيراً لكل امرأة من الزمن ولم يجعل الله تعالى معجزة الأنبياء في الفساد وغشيان النساء ومسابقة الحيوان في هذا الضرب، ولا يوجد متحد بمثل هذا حتى تتم المعجزة فالمعول عليه ما أوردنا - فيما سبق.

أما قولهم إن السبب في عدم إتيان النساء بالأولاد عدم قوله (إن شاء الله) فعجيب لأن هذه اللفظة لا يقصد بها إلا التعبد لا إنجاح المطالب؛ فقد قال موسى للعبد الصالح ﴿سَجِّدْ لِي أَنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] ولم يصبر. اه كلامه.

(٢) يقول المفسرون عن المدينة أنها صيدون. وصيدون هي مدينة سيداء وليست جزيرة، وإنما هي بين =

بيروت وعكا: وهو لا يحتاج في حربها إلى عناء. وقصاراه أن يرسل إليها بعض جنده فينال مأربه منها.

رأي اللجّة

والذي نراه أنه في هذه الفتنة أبدى وجهها لم يذكره أحد من العلماء - كما قال - وهو باطل أو بعيد. وأنكر حديثاً صحيحاً واستبعد حصول مضمونه.

أما الوجه الذي أبداه فيتوقف أولاً: على صحة قصة ابن داود بالكيفية التي ساقها في كتابه، وثانياً على أن داود أصدر مرسوماً ملكياً بولاية العهد لابنه سليمان عليهما السلام، وأن سليمان زها بذلك وأخذه العجب، وأن التعدي الذي حصل من أخيه أبشالوم على أبيه داود حتى نحاه عن كرسي مملكته وجلس عليه إنما هو انتقام منه؛ أي من سليمان على هذا الزهو والعجب، ودون إثبات هذه الأمور خطر القتاد. بل نستطيع القول بأن الواقع عدمها. أما قصة ولد داود بهذا السياق الذي ذكره في كتابه فلم نعر له فيها على سلف، وقد ظننا أن مرجعه فيها التوراة لكثرة اعتماده عليها في أمثال هذه الآراء فراجعتها فوجدنا سياقها في هذه القصة مخالفاً لما ذكره.

وإننا نذكر عبارة ابن الأثير في تاريخه ثم خلاصة ما في التوراة:

قال ابن الأثير في الجزء الأول ما نصه: ووثب عليه ابن له يقال له إيشا وأمه ابنة طالوت، فدعا إلى نفسه فكثر أتباعه من أهل الزيغ من بني إسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس فحارب ابنه حتى هزمه. ووجه إليه بعض قواده وأمره بالرفق به والتلطف - لعله يأسره ولا يقتله - وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله فحزن عليه داود حزناً شديداً وتنكر لذلك القائد اه.

وخلاصته أن ابنه خرج عن طاعته ودعا إلى نفسه فوافقه بعض أهل الزيغ فحاربهم داود وهزمهم وقتل ابنه في تلك الحرب. وليس فيه أن داود أخلى كرسي المملكة وهرب فجلس عليه ابنه!

وخلاصة ما ذكر في التوراة في الإصحاحين السابع والثامن عشر من سفر صموئيل الثاني: إن شخصاً اسمه اخيتوفيل أشار على أبشالوم بن داود بالهجوم على أبيه باثني عشر ألف رجل، فاستشار أبشالوم شخصاً آخر اسمه حوشاي ففح له مشورة اخيتوفيل وخوفه من بأس والده وبعد أن ثبط حوشاي عزيمة أبشالوم أخبر داود بهذه المؤامرة بواسطة شخصين، فقام داود وجمع الشعب وعبروا نهر الأردن فتبعهم أبشالوم ومن معه فتقابل الجيشان واقتتلا وهزم جيش أبشالوم وقتل الخ اه.

فليس فيها أن أبشالوم ثار على والده، وأن داود هرب وجلس أبشالوم على كرسي المملكة! وأما الأمر الثاني بجمع أنواعه فواضح البطلان، خصوصاً وأن سليمان كانت سنه حين وفاة والده ثلاث عشرة سنة - على ما ذكره المفسرون والمؤرخون - ويجوز أن تكون حادثة أخيه مع أبيه قبل وفاة أبيه بمدة، وحينئذ يكون صغيراً لم يصل إلى حد التكليف، فلا معول على زهوه وعجبه، على فرض حصوله. على أن مثل هذه الخواطر النفسانية ليس من شأنها أن يترتب عليها مثل هذا الأمر العظيم.

وبعد ذلك، يحتاج على هذا الرأي إلى التجوز في إضافة الكرسي إليه وفي التعبير عن أخيه بالחסد وليس في الكلام قرينة عن هذا التجوز! بل التركيب ينبو عن إفادة مثل هذه المعاني.

ولا يجوز مخالفة جميع أئمة التفسير لمثل هذه التكلفات بل التعسفات التي ليس لها أساس.

هذا: وقد أبدى المفسرون في هذه الفتنة احتمالات - بعد أن أبطلوا ما يقوله أهل الحشو - اختار =

= منها العلامة أبو السعود وتبعه الألوسي ما ورد في الحديث الصحيح الذي أنكره، وكذلك اختاره صاحب المواقف وعبارة أبي السعود في تفسيره ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤] أظهر ما قيل في فتنته عليه الصلاة والسلام ما روي مرفوعاً أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل (إن شاء الله) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون اهـ.

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين رواه البخاري - سبع مرات - رواه مسنداً ست مرات ومرة واحدة معلقاً. ورواه مسلم في كتاب الإيمان بطرق متعددة: ثم إن الروايات التي ورد بها هذا الحديث في البخاري ومسلم وغيرهما مختلفة في بيان عدد النساء. ومحصلها (ستون. وسبعون. وتسعون. وتسع وتسعون. ومائة) والجمع بين هذه الروايات على ما ذكرها الحافظ ابن حجر أن الستين كن حرائر وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس. وأما السبعون فللمبالغة. وأما التسعون والمائة فكان دون المائة فوق التسعين فمن قال تسعون ألغى الكسر ومن قال مائة جبره.

وأما رواية سبعمائة التي ذكرها مؤلف هذا الكتاب فلم تقف لها على أصل، وحيث صح الحديث فلا وجه لاستبعاد ما جاء به من طواف سليمان على هذا العدد من نسائه في ليلة واحدة.

على أنه في ذاته ليس ببعيد من مثل سليمان عليه السلام - الذي اعترف مؤلف هذا الكتاب بأن له ألف امرأة - ثم أن للرسول عليهم الصلاة والسلام خصائص في مختلف الأحوال وكلها عند التحقيق ترجع إلى الطاعات والقرب ما يعود على رسالتهم من المصالح. فما ينبغي أن يصور طواف سليمان بمثل ما صوره المؤلف، فإنه يشبه كلام المستشرقين في حق النبي ﷺ بالنظر لتعدد زوجاته وطوافه عليهن في ليلة واحدة!

وأما رده آخر الحديث الشريف بقوله (وأما قولهم إن السبب في عدم إتيانه بأولاد عدم قوله إن شاء الله فعجيب. الخ) فلا ندري كيف استباح لنفسه مثل هذا الكلام؟ فقد صح أن هذا القائل هو رسول الله ﷺ ولفظه (وأيمن الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون) فكان ينبغي له أن يقف موقف المدعى المتفهم لا المتعجب المستشكل!

ثم لا يلزم من إخباره ﷺ بذلك في حق سليمان في هذه القصة أن يقع ذلك في حق كل من استثنى في أمنيته، بل في الاستثناء رجوع الوقوع وفي تركه خشية عدم الوقوع. وبهذا يجاب عن قول موسى للخضر ﴿سَجِّدْ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] مع قول الخضر له أخراً ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٧٣]. والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

«الموضوع الحادي عشر»

فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه

نصصت في كتابي جميع ما نقله أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة ولم أزل مصرّاً عليه. وقد أبدى حضراتهم رأيهم فقالوا هو الذي نراه أنه في هذه الفتنة أبدى وجهها لم يذكره أحد من العلماء - كما قال - وهو باطل أو بعيد.

أقول: قولهم «وهو باطل» باطل. (أو بعيد) بعيد.

قالوا «وأنكر حديثاً صحيحاً واستبعد حصول مضمونه» أقول: إني لم أنكر الحديث - كما يقولون - ولكن وجدته يتعلق بأمر اعتقادي، وحديث الآحاد كما قدمنا ليس أداة صالحة لإثبات أمر اعتقادي لأن الاعتقادي إنما يبنى على اليقين.

قال حضراتهم: أما الوجه الذي أبداه فيتوقف:

أولاً - على صحة قصة ابن داود بالكيفية التي ساقها في كتابه.

ثانياً - على أن داود أصدر مرسوماً ملكياً بولاية العهد لابنه سليمان عليهما السلام.

ثالثاً - أن سليمان زهي بذلك وأخذ العجب.

رابعاً - أن التعدي الذي حصل من أخيه أبشالوم على أبيه داود - حتى نحاه عن كرسي مملكته وجلس عليه - إنما هو انتقام منه أي من سليمان على هذا الزهو والعجب. ثم قالوا بعد ذلك: ودون إثبات هذه الأمور خطر القتاد، بل نستطيع أن نقول بأن الواقع عدماً.

أقول - أولاً - أنني أوردت هذا الوجه الذي ذكرته، وهو موجود في كتب أهل الكتاب - كما سيأتي - وهو من الأقوال التي لا يجب تصديقها كما لا يجب تكذيبها وهو وجه محتمل، وما ذكره في إبطاله باطل - كما سيأتي.

ثانياً - أطلب من حضراتهم - أولاً - أن يثبتوا لي إثباتاً قاطعاً أن ترشيح أحد الملوك في ذلك الزمن أحد أولاده للملك لا يكون إلا إذا أصدر الملك بذلك مرسوماً ملكياً، وأن يأتوني في ذلك بصورة صحيحة لأحد المراسيم خالية من شبهة التصنع والتزوير، فإذا أبروزا لي ذلك أبرز لهم صورة صحيحة من المرسوم الذي أصدره داود بولاية العهد لسليمان.

غير أنني لا أنتظر أن يفعلوا ما طلبته بل أخذ بأيديهم إلى قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمَكِّنُ فِي الْحَرِّ إِذْ فَتَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْرِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

فالآية الكريمة شاهدة بأن داود عليه السلام كان يحضر ابنه سليمان مجلسه، ويشركه في نظر الدعاوى والفصل في الخصومات أو الحوادث التي تعرض عليه، وأن سليمان كان يبدي رأيه في الحكم وأنه في هذه الحادثة كان أبرع رأياً من أبيه داود مع شدة التفاوت في السن بينهما، وأن الله فهمه الوجه الأصوب فرجع داود إلى الحكم الذي أبداه سليمان.

فإذا لم يكن ما نصه القرآن ترشيحاً للملك فليس في العالم شيء يعتبر ترشيحاً. وكيف لا ولم يذكر القرآن أن داود كان يحضر أحداً من أولاده - وهم أكبر من سليمان سناً - في مجلس الحكم ويشاركونه في الأحكام؟ ثالثاً - أما كون سليمان تحدثه نفسه بذلك الملك العريض الذي ينتظره، والكرسي الذي يعد له فأمر طبيعي لا يخلو منه أحد من أولياء العهود! ولا تعوزنا الشواهد على ذلك في بني أمية وبني العباس وغيرهم! فأننا لم ألجأ في هذا الأمر إلا إلى الطبيعة البشرية التي لا تكذب ولا توارى ولا تمارى. رابعاً - من نظر إلى كلامي الذي قدمته - ونقله حضرات أصحاب الفضيلة - وقارنه بما قالوا في الوجه الرابع رأى كلمتين غريبتين عزوهما إليَّ إحداهما لفظة (عجب) والثانية لفظة (انتقام) فإنني لم أكتبهما ولم يكونا فيما نقلوه عني، فقد حشروهما في أقوالي حشراً. وإنما قلت «فامتحنه الله بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه ديب اليأس فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التي تعد على المقربين ذنوباً، وهي غير ذنوب».

وقولي: فامتحنه الله تعالى .. إلى آخره؛ مرده قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]... الخ وهذا الوجه مرتب على ما قبله من مسابقة الطبيعة البشرية في أولياء العهود - وبذلك انهار قول حضراتهم «ودون ذلك خرط القتاد» ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

أخذ حضرات الأفاضل بعد ذلك يتكلمون عن قصة ولد داود، ويعجبني قول حضراتهم «أما قصة ولد داود بهذا السياق الذي ذكره في كتابه فلم نعث له فيها على سلف» كأنهم لم يقفوا على قولي من قبل «وعندي وجه لم يذكره. أحد من العلماء» ولم يعلموا أنه لو كان لي فيه سلف لم أقل هذا القول؟ عطفوا على ما ذكره ابن الأثير ولم يروا فيه ما يقنعهم، غير أنني أقول إنهم رأوا فيه عناصر الثورة التي قلت عنها فليُنظر القارئ إلى قول ابن الأثير «ووثب عليه ابن له» أليس هذا يدل على الثورة؟ وقوله «فدعا إلى نفسه فكثر أتباعه من أهل الزبغ من بني إسرائيل» وقوله «فحارب ابنه حتى هزمه» فأى شيء أدل على الثورة من ذلك؟ عمد حضراتهم إلى الإصحاحين السابع عشر والثامن عشر من سفر صمويل الثاني فلخصوهما ثم قالوا أنهم لم يروا فيهما ما قلته!

أقول: كنت أود من أصحاب الفضيلة أن يكونوا حاصلين على قسط أوفى من الشجاعة الأدبية، فيلخصوا الإصحاحين المذكورين تلخيصاً تكتنفه الأمانة في النقل - يأتي على عناصر الموضوع ولو كان ضد ما قدروا - وهذا هو اللائق بأقدار علماء الإسلام وهذه الأنام، ولكنهم لخصوا الإصحاحين تلخيصاً مخدجاً وأبرزوا للناظرين مسيخاً من القول لا يحلى ولا يمر. ومع ذلك لم تزل في ذلك التلخيص آثار تدل على صحة ما قلت. ومثال ذلك قولهم «فقام داود وجمع الشعب وعبروا نهر الأردن فتبعهم أبشالوم» وهذا عين قولي. «وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي - الذي هو كرسي سليمان - وهرب منه داود إلى شرق الأردن».

فهل مع اعتراف حضراتهم: بأن داود جمع الشعب وعبر الأردن وتبعهم أبشالوم. يقال إنه لا ثورة ولا انتزع ملك! وأن ملك داود كان مع كل ذلك في أمان واطمئنان؟

وها أنا ألخص القصة من أولها تلخيصاً صحيحاً من أول «ص ١٥: صمويل الثاني».

كان أبشالوم بن داود يقف بجانب طريق الباب، وكل صاحب دعوى آت إلى الملك يدعوه ويقول له «ليس من يسمع لك من قبل الملك» ويتمنى يجعله قاضياً على كل الأرض لينصف المظلومين، وكل من أراد أن يسجد له يمسه ويقبله. فاسترق قلوب رجال بني إسرائيل. وفي نهاية أربعين سنة استأذن أبشالوم أباه ليذهب إلى حبرون ليوفي بنذر نذره، وأرسل جواسيس في جميع أسباط بني إسرائيل قائلاً إذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك أبشالوم في حبرون، وكانت الفتنة شديدة والشعب يتزايد مع أبشالوم، وأخبروا داود أن قلوب رجال إسرائيل سارت وراء أبشالوم. فقال داود لجميع عبيده الذين كانوا معه في اورشليم: قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم. فغبر الملك ورجاله وأهل بيته والذين لحقوا به وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم، وأخرج اللاويون تابوت فقال الملك لصادوق «ارجع تابوت الله إلى المدينة فإن وجدت نعمة في عيني الرب فإنه يرجعني ويريني إياه ومسكنه» وصعد داود في مصعد جبل الزيتون حافياً باكياً مغطى الرأس، وكذلك الذين معه، وفي الطريق جاءه حوشاي، الأركي باكياً فأمره داود بأن يكون مع أبشالوم ويتودد إليه ويظهر له الإخلاص، ويشير عليه بما يبطل مشورة اخيتوفل. وأمره بالاتحاد مع أناس من خلصاء داود ورتب من يرسلونهم لإخباره بكل جليل ودقيق. وكان بعض أعداء داود يظهرهم الشماتة به =

ويسبون، وأراد بعض أتباعه أن يقتل الرجل البنياميني الذي يسبه، فصرفه عنه بلطف وقال له: إن الله أمره أن يسبني، وإذا كان ابني يطلب نفسي فكم بالحري بنياميني، ورجا أن ينظر الله إليه نظر رحمة ويرثي لذلك ويكافئه عوضاً عن مسبته.

وأما أبشالوم وجميع الشعب فأتوا إلى أورشليم ومعهم أختيتوفل مستشاره، وجاء حوشاي الأركي وصار يرفاً أبشالوم بطبيب القول، ويعدده الإخلاص لأن الشعب قد اختاره، والرب اختاره كذلك، حتى وثق به.

«وهناك أترك عملاً شائناً - ذكر أن أبشالوم عمله - فلا أذكره».

ثم أشار أختيتوفل على أبشالوم أن يعطيه اثني عشر ألف جندي ليبيت بهم داود والذين معه، ويضرب داود وحده منتهزاً فرصة إعياء داود والذين معه، فأبطل حوشاي هذه المشورة وأشار عليه بجمع الجموع الكثيرة ويحيطوا بدادود حيث كان، وأرسل سراً رسولين إلى داود ألا يبيت في البرية. فذهب الرسولان بعد خطوط إلى داود وأعلماه وأشارا عليه بعبور الأردن فعبره، وكتب أبشالوم الكتابات وسار في أثر والده وعبر الأردن أيضاً، ونزل أبشالوم وإسرائيل في أرض كلعاد.

وأرسل داود قواده وأوصاهم أن يحققوا دم ولده أبشالوم، وأراد الخروج معهم فلم يرضوا. والتقوا في وعر «افرايم» وكانت مقبلة عظيمة. وهزم شعب إسرائيل أمام عبيد داود، وكان أبشالوم ركباً بغلاً فدخل به البغل تحت شجرة بطمة ملتفة، فتعلق بأغصانها من شعره ومر البغل من تحته وبقي هو معلقاً بين السماء والأرض فجاء «يوأب» رئيس الجيش ورمى أبشالوم بالسهم وأمر غلمانه بقتله. وانتهت هذه الفتنة.

فالقاريء الكريم يرى أن حضرات أصحاب الفضيلة قد أنكروا أنهم رأوا في «سفر صمويل الثاني» أثراً للحادثة على النمط الذي وصفت. ولخصوها تلخيصاً مشوهاً!

فهل كانوا يظنون - أن داود عبر الأردن وتبعه أبشالوم - أن داود ذهب إلى مدينته أورشليم حيث مقر الملك وكرسي الملك؟ أن بين أورشليم وبين الأردن مسافة إذا لم تبلغ مائة كيلو متراً فهي لا تقل عن ثمانين. وقد قطعها بالسيارة في مسافة تزيد عن ساعتين في طريق ملتوية ذات اليمين وذات الشمال صاعدة هابطة، والأردن والبحر الميت يكون منخفضاً عن سطح البحر الملح بما لا يقل عن أربع مائة متر. وإني لأسف لظهورهم في هذا التقرير بهذا المظهر الذي لا يتمناه أحد لنفسه.

قال حضرات أصحاب الفضيلة: وبعد ذلك يحتاج على هذا الرأي إلى التجوز في إضافة الكرسي إليه. أقول: نعم! ومجاز الأول لم يبطل من علم البيان، وقديماً قال صاحب يوسف في السجن ﴿إِنِّي أَرَبُّنِي أَخَصَرُ خَيْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أي عنياً يؤول أمره إلى أن يكون خمرأ. فهذه كتلك، ولا حرج في هذا الاستعمال. أما القرينة على ذلك؛ فإن أخاه أبشالوم - الذي صار جسداً هامداً - قد ألقى على الكرسي الذي يؤول إلى سليمان، وداود حي يرزق وسليمان لم يصير مالكاً له.

قالوا «ولا يجوز مخالفه جميع أئمة التفسير» أقول قد ذهب على حضراتهم أنني قررت وجهاً أتى به العلامة الفخر الرازي. فلم أخالف الجميع إلا في هذا الوجه. ثم أقول: أي نص قطعي يلزمي بأنني لا أفكر ولا أفهم القرآن إلا بفكر المفسرين؟ اللهم إلا الطريقة الكهنوتية التي عليها أنشئت محكمة التفتيش البابوية. فليقت الله حضرات أعضاء اللجنة في الإسلام فما جاء لمثل هذه الأغلال، وما أنزل الله تعالى القرآن ومعه الكبول التي تكبل بها العقول، بل جاء محارباً للحجر على العقول وأمر بإطلاقها من كل أسر وقيد.

= قال حضراتهم «ويجوز أن تكون حادثة أخيه مع أبيه قبل وفاة أبيه بمدة وحينئذ يكون صغيراً لم يصل إلى حد التلكيف . . . الخ) أقول: إن عبارة صمويل الثاني أن ذلك كان في السنة الأربعين. أي في آخر ملك داود وبذلك سقط ما فرضوه.

وأما قول حضراتهم (لمثل هذه التكاليف بل التعسفات التي ليس لها أساس) فأمر قد وجدته عم حتى هان وخشن حتى لآن، وألفته النفس حتى لو غاب لطلبته، وقد استقر في الاعتقاد أن هذا الضرب من التحيات المباركة خير بضاعة تحويها العباب ويضمها الوطاب.

نص أصحاب الفضيلة الحديث الذي ذكر فيه (أن سليمان قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . . الخ) وهذا الحديث لا أنكر أنه موجود. وهو يقرر أمراً خارقاً للعادة يريد حضرات أعضاء اللجنة أن أقول به وأعتقده، وهو أن سليمان عليه السلام طاف على سبعين أو مائة من نسائه في ليلة واحدة والخبر الذي يكون رواية أحاد لا يقبل في أمر اعتقادي ولا في إثبات معجزة لنيي. لذلك لم أنعرض له، لأن خوارق العادات إنما تثبت عند الإنسان بالمشاهدة أو نص قطعي الثبوت والدلالة، ولم يوجد ولا يوجد نص يلزمي بأن أعتبر هذا الوجه. وقد أورد المفسرون كثيراً من الآراء والاحتمالات سوى هذا واختاروا غيره، فلم نر أحداً في زمن من الأزمان في الثلاثة عشر قرناً الماضية قد جمع لجنة لتحاكم آراءهم أو تبطل ما عداه من الآراء والأقوال! فماذا عليّ إذا اخترت غير هذا الرأي أو أبديت فيه رأياً لي فهمته وملت إليه؟!

أما قولهم بأنهم لم يقفوا على القول «بأنه قال لأطوفن على سبعمئة» فلمهم الحق في ذلك. لأنني أردت أنه قال لأطوفن على ألف امرأة فخان القلم في ثلاثمئة امرأة وجعلها سبعمئة، ذلك أني عنيت ما رواه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ص ٢٩ ج ٢ ونصه:

قال إسحاق بن بشر: أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن سليمان بن داود كان له أربعمئة امرأة وستمئة سرية فقال يوماً: لأطوفن الليلة على ألف امرأة فنحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يستثن - فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان . . . إلى آخر الحديث. فأنا أعترف لحضراتهم بهذا الخطأ.

جاء بعد ذلك في أقوال حضراتهم في هذا الباب عبارات هي مباحكات لفظية لا طائل تحتها ولا فائدة منها.

وقصارى القول أن الوجه الذي جاءوا به - واختاره أبو السعود وتبعه الألوسي وجعلوا مستندهم فيه الحديث - يشتمل على خارق للعادة ولم يرد به نص قطعي الثبوت والدلالة. وأحاديث الأحاد لا تصلح حجة عليه. وأنا لم أزل أقول باستبعاده، ولو أيقنت أنه من قول رسول الله ﷺ ما كان لي أن أمأحل فيه، ولكنه رواية ظنية لا يثبت بها أمر يحتاج فيه اليقين.

وعلى ذلك فاعتراضهم على ما في كتابي ساقط لا يعول عليه إلا في نقطة واحدة وهي لفظه «سبعمئة» فالواجب أن يحل محله لفظ (ألف).

وقبل أن ألقى القلم من يدي أنقل لحضراتهم ما نصه الحافظ ابن كثير (في صفحة ٢٩ ج ٢ من تاريخه الموسوم بالبداية والنهاية) عند كلامه على فتنة سليمان وهو «ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثار كثيرة من جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة. وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرونا هنا على مجرد التلاوة».

فخرج إليها بجنوده تحمله الرياح فدخلها وقتل ملكها، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً، فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي على أبيها أبداً، فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها فكستها بمثل كسوته، وكانت تذهب إلى هذه الصورة بكرة وعشيا مع جواريتها يسجدون لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة. ثم خرج وحده إلى خلاء وفرش الرماد وجلس عليه تائباً إلى الله، وكانت له أم ولد يقال لها «أمنية» إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملك سليمان في خاتمه فوضعه عندها يوماً، فأناها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمانة خاتمي! فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والإنس والجن وتغيرت هيئة سليمان، فأتى أمانة يطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعرف أن الخطيئة قد أدركته؛ فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال «أنا سليمان؟» حثوا عليه التراب وسبوه. ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطوه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحال أربعين يوماً - عدد ما عبد الوثن في بيته - فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة! وقيل بل قد نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعتة سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله تعالى ورجع إليه ملكه، وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاه في البحر.

ولهم رواية ثانية. وهي أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان. وكان الخاتم يسقط من يده ولا يماسك فيها فقال له آصف إنك لمفتون بذنوك فتب إلى الله.

ولهم رواية ثالثة: وهي أن سليمان قال لبعض الشياطين: كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه إياه فنبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه. ثم يسوقون الحكمة بتمامها كما في الرواية الأولى. ففتنة سليمان ابتلاؤه وإلقاء الجسد على كرسيه هو جلوس الشيطان عليه ونفاذ أمره في الرعية والملك.

ولهم قول رابع وهو أن سليمان احتجب ثلاثة أيام عن الناس فسلب الملك وجلس الشيطان على كرسيه عقوبة له.

هذه أقوال لم يرد بها قرآن ولا نقل صحيح عن رسول الله ﷺ ولا تنطبق على عقل ولا على حكمة فهي حرية بالرد وقد رد عليها العلماء بوجوه.

الأول: أن الشيطان لو قدر على التشبه في الصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، ففعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ما كانوا أولئك. بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل إغواء الناس وإضلالهم؛ ولما كان ذلك باطلاً لأنه يؤدي إلى إبطال الدين بالكلية كان ما أدى إليه باطلاً بالكلية.

الثاني: لو قدر على سليمان يعامله هذه المعاملة لقدر على مثلها من العلماء والزهاد فيقتلهم ويمزق كتبهم ويمحوها ويثبت فيها شيئاً آخر، ولما كان المشاهد خلاف ذلك وأنه لم يقدر من أحد منهم على هذا؛ فوجب أن يكون سليمان ممن لا يقدر عليهم بالأولى.

الثالث: لو قلنا إن المرأة عبدت صورة أبيها؛ فلا يخلو الأمر إما أن يكون ذلك بأمر سليمان وحينئذ يكون كافراً وهو محال، وإما أن يكون بدون أمره وعلمه وحينئذ لا جريرة صدرت منه ولا عقاب عليه.

الرابع: يقولون إن الشيطان لما جلس على كرسي سليمان اجتمعت عليه الطير والإنس والجن. وقائل هذا في غفلة عما جاء في الكتاب الكريم من أن تسخير الجن لسليمان إنما كان بعد الفتنة لا قبلها بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ۖ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۖ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۖ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ۚ﴾ [ص: ٣٤ - ٣٧].

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره وجوهاً لتفسير هذه الآية: أحسنها أن سليمان ابتلي بمرض شديد ضني منه حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى حالة الصحة.

أقول: وعندي وجه لم يذكره أحد من العلماء. وهو أن كرسي داود إنما هو كرسي سليمان. لأن داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه: وقد قام أبشالوم بن داود. وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي - الذي هو في الواقع كرسي سليمان - وهرب منه داود إلى شرق الأردن. وسرح الجيوش لمقاتلته وبأشر أبشالوم الحرب بنفسه، فقتل أبشالوم إذ مر به بغله تحت بطمة فتعلق في أغصانها من شعره، فأتى رئيس الجند يوآب وقتله وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تززع بفعل أخيه أبشالوم. وتضرع إلى الله وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

لا شك في أن سليمان في تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه. أن الكرسي الملكي أفلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى، فاستغفره تعالى لما قد أسلف

من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله في سن الصبا من زهو بذلك الكرسي الذي ينتظره، والملك العريض الذي سيكون بيده صولجانه، فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه ديب اليأس فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التي تعد على المقربين ذنباً وهي غير ذنوب، وأناب إليه ضارعاً أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً، وسخر لسليمان ما سخر من الجن والإنس والطير والرياح التي تجري بأمره. وكل ما يدعى خلاف ذلك فلا يخلو من أن يكون هاجس نفس أو جموح خيال. وقد علمتم رأيي في الوجه الذي أتى به الفخر الرازي.

وأما ما روي أنه عزم على الطواف على سبعمائة أو سبعين من نسائه في ليلة واحدة، فتأتي كل واحدة منهن بولد يجاهد في سبيل الله. ولم يقل «إن شاء الله» فعاقبه الله بأنهن لم يحملن كلهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان؛ فجيء إليه به - وهو على كرسيه ووضع في حجره - فبعيد؛ إذ قدرة الإنسان تعجز عن الطواف بسبعمائة امرأة أو سبعين في ليلة واحدة، والليل لا تسع ذلك أصلاً مهما قدرت حظاً صغيراً لكل امرأة من الزمن. ولم يجعل الله تعالى معجزة الأنبياء في السفاد وغشيان النساء ومسابقة الحيوان في هذا الضرب. ولا يوجد متحد بمثل هذا حتى تتم المعجزة. فالمعول عليه ما أوردنا فيما سبق.

أما قولهم إن السبب في إتيان النساء بأولاد عدم قوله «إن شاء الله» فعجيب؛ لأن هذه اللفظة لا يقصدها بها إلا التعبد لا إنجاح المطالب فقد قال موسى للعبد الصالح ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] ولم يصبر.

السادس - إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنه أسال عين القطر لسليمان، وذلك في معرض تعداد النعم التي أنعم الله بها عليه - والقطر: هو النحاس المذاب - ونحن نعلم أن سليمان كان رجل عمار وبناء للمصانع العظيمة، ويكفيه فخراً أنه بنى الهيكل وما حوله من المباني العظيمة الضخمة بالحجارة العظيمة، التي لا يفوقها سوى حجارة قليلة، في البناء المعروف اليوم بقلعة بعلبك، وبعض المباني المصرية. فهو يحتاج إلى القطر في معالجة توثيق المباني، فأسال الله تعالى له العين نحاساً تقذفه مذاباً. وسبب ذوبانه أن الأرض التي فتحت فيها العين مصطهرة بالنار، فالنحاس المختلط بصخور تلك الأرض يصهر ويقذف من فوهة تلك العين سائلاً. فيأتي عمال سليمان ويأخذونه للانتفاع به في الصناعات ونحوها مما يحتاج إليه سليمان.

وقد يقول بعض الناس: إن سليمان كان أول من صهر النحاس وأسأله، وأن الله لم يسئل له عيناً من الأرض.

والذي أقوله إنني أسلم بذلك متى علم علماً صحيحاً أن القطر لم يوجد قبل سليمان؟ وعلى كل فقد منَّ الله تعالى عليه وهداه إلى ما لم يهتد إليه أحد قبله. والتوراة خالية من هذا.

السابع - تسخير الجن لسليمان

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه سخر الجن لسليمان إذ قال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَابٌ أَلَسِيرٌ﴾ (١٢) ﴿يَعْمَلُونَ لَكَ مَا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ [سبا: ١٢ - ١٣] وقال بعد أن ذكر تسخير الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [ص: ٣٧] وقال أيضاً ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

فهذا كله دل على أن الله تعالى سخر لسليمان الجن تطيعه وينفذ أمره فيهم، ويعملون له ما يشاء من ضخم المباني والعمائر والتماثيل «وكانت التماثيل يجوز صنعها عندهم» والقصور الراسيات والجفان التي كأنها الحياض لسعتها.

وقد ذكر «في سفر الملوك الأول ص ٩» العمائر التي قام بعملها سليمان وهي (١) بيت الرب «وهذا البيت وتوابعه كان يقع على مساحة تقدر بما يقرب من ستين فداناً، كما شاهدت رقعته بنفسه» (٢) وبيت الملك (٣) وسور أورشليم (٤) وخابور (٥) ومجدو (٦) وجازر (٧) وبيت حورون السفلي (٨) وبعلة (٩) وتدمر في البرية. كل ذلك عدا المخازن، ومدن المركبات ومدن الفرسان وما بناه في لبنان وغيرها من سائر مملكته، وسخر في ذلك بقايا الشعوب الذين كانوا في فلسطين ولم ييدهم الإسرائيليون. ولم يكن من الشعب الإسرائيلي مسخر، وكان رؤساء المسخرين خمسمائة وخمسين رئيساً.

ومن نظر إلى هذه الأعمال وفخامتها وضخامة أحجارها لم يستبعد أن يكون للجن عمل عظيم في ذلك، وبخاصة «تدمر». وبعض آثارها الضخمة ماثل اليوم.

وقد ذكر النابغة الذبياني تسخير الجن لسليمان في شعره الذي يعتذر به إلى النعمان إذ يقول:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه	ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن إنني قد أذنت لهم	يبنون تدمر بالصفاح والعمد

هذا؛ والكتابات التي على مباني تدمر - المائلة اليوم - تدل على أنها هياكل لعبادة الكواكب والكتابة رومانية. غير أنه لا مانع من أن تكون المدينة بنيت في عهد سليمان: فلما جاء الرومان حولوا بعض مبانيها إلى هياكل وكتبوا عليها ما كتبوا. وليس من شأني أن أقطع في شيء من ذلك فإن علماء الآثار أملوا بذلك.

قال البيضاوي: روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما ويصنعون له القدور الراسيات على أثافيها لا تحرك لعظمها وثقلها، والجفان كالجوابي، أي الحياض الكبيرة. وقد كان بناء الهيكل وما معه في سبع سنوات فقط، وهو زمن يسير بالنسبة لعظمه.

الثامن - سليمان وملكة سبأ

دلت الآيات في القرآن الكريم على أن سليمان كان يفهم ما تريده الطير بأصواتها إذا صوتت، ويفهمها ما في نفسه ويخاورها: وكانت مسخرة بأمره يأمرها فتأتمر ويستعملها في بعض مهماته: فمن ذلك أنه تفقد الطير يوماً فلم يجد الهدد. فعد ذلك جريمة اقترفها وتهده بالذبح أو التعذيب إلا إذا أتاه بعذر بين أوجب هذا التخلف: فلما جاء الهدد سأله عن غيبته فأخبره أنه كان في سبأ من بلاد اليمن: ويخبره بملك عظيم وملكة تملك على تلك الأمة: وأنهم صابئة وثنيون يعبدون الشمس من دون الله وأن لملكهم عرشاً عظيماً فيه أنواع الزينة والجواهر. أراد سليمان أن يختبر الهدد: صادق في خبره أم كاذب؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى الملكة. فذهب الهدد بالكتاب وألقاه على سريرها؛ فأخذته فإذا به ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنُؤِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١].

لم ترد الملكة أن تستبد بإجابة فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها من الأقيال وغيرهم، وأطلعتهم على الكتاب. فأخذتهم العزة وثارَت فيهم الحماسة وقالوا لها ﴿تَحَنُّنٌ أُولُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

كانت الملكة عاقلة فنظرت في الأمر بعين الفطنة. ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة - وقالت لهم، إن دخول الملوك إلى المدن ليس من الهنات الهيئات وأثره ليس بالسهل على أهلها. فإنهم ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَٰةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى حل هذه الأزمة التي أنتها من حيث لا تحتسب. ذلك أن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها وتستنزل مودته بسببها: ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها إلى سليمان.

ظاهر أنها كانت تريد من إرسال الهدية أن يقف رسلها على أحوال هذا الملك الذي أرسل يتهددها على غير جريرة، ويطلب حضورها إليه خاضعة بلا تردد. ثم يعودون إليها بالتقرير الوافي عن حقيقته: وقوته في ملكه، ومبلغ ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة إذا لم تخضع لأمره لتكون على بينة مما تأتي وتدع، وتكون على رأس أمرها. حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تقدير عواقبه: فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدية لم يقبلها وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم، وأنه في حال حسنة وانفساح ثروة أكثر مما فيه الملكة وقومها، وتوعدهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها. وأن عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلة صغرة.

جاء الخبر من الرسل إلى الملكة وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه وأشفقت على قومها. فأجمعت الذهاب إليه في رجال مملكة دولتها وجاءت إلى أورشليم بهدية عظيمة. لما علم سليمان باعترام ملكة سبأ على زيارته - في عاصمة ملكه - شيد لها صرحاً عظيماً. ومرد أرضه بالزجاج: وهذا شيء لا عهد لأهل اليمن بمثله.

ولما قربت من ديار سليمان أراد أن يظهر لها من دلائل عظمته ونعم الله تعالى عليه ما يبهرها. وأن ترى بعينها ما لم ترها الأحلام بفعل عجيبة ظاهرة، وهي أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح. فسأل جنوده عن قوي يأتيه بذلك العرش: فانتدب له عفريت من الجن وقال ﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] هذا ﴿وَأَيُّ عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] على ما فيه من الجوهر والحلي و﴿قَالَ الَّذِي﴾ [النمل: ٤٠] شخص من الإنس والجن ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] وكان الأمر كما قال. فجاء به ووضع في الصرح الذي هبى لاستقبالها ونكر لها: ولا أدري بأية كيفية نكر؟

فلما جاءت ورأت العرش ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢]؟ فقالت ﴿كَانَهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] ولما أرادت دخول الصرح والوصول إلى العرش ظنت الزجاج ماء، فكشفت عن ساقها لثلا تبتل ثيابها بالماء وأخبرت بأن ما ظنته ماء إنما هو زجاج فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

أما الطريقة التي أتى بها العرش على يد الذي عنده علم من الكتاب. فشيء لم يكشف عنه العلم وهو نص صريح قاطع الثبوت والدلالة، ومن التعسف تأويله بأنه خريطة بلادها كما يقول بعض من كتبوا في التفسير. وما دام الأمر معجزة خارقة للعادة فلا معنى للمكابرة: إذ خالق النواميس له أن يخرقها بقدرته التي أوجدها بها ولعل لمثل هذه

الأعمال نواميس أخرى لم يكشفها العلم أطلع الله عليها بعض عباده ومعجزة لهم في وقت يجهل كل الناس تلك النواميس . والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار .

وأهل القصص وأهل التفسير يذكرون أن سليمان تزوج منها وأتى منها بولد . ويزعم بعض ملوك الحبشة أنهم أبناء سليمان من الولد الذي أتى به منها .

اقرأوا هذه الآيات :

سورة النمل: ﴿وَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَحِشْتُ لِي مِن سَلِيمٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَتُنظرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكَتْلِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَيْكُمْ كَرِيْمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُم مِّن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قَوْلِهِ وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونَنِي بِمَالٍ مِّمَّا عَاتَنَيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا عَاتَنَكُمُ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُبْرٍ لَّا فِئْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكُرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْهَدِيْ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا

قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُعَزِّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ .

وقد قدمت أن التوراة وأهلها لا يعرفون قصة ملكة سبأ بهذا الوصف، وإنما يذكرون أنها سمعت بحكمة سليمان فأتت إليه وشاهدت بنفسها تلك الحكمة العظيمة .

ولعل اتصال ملكة سبأ بسليمان كان سبباً في وجود الديانة الموسوية في بلاد اليمن . وأن ذلك هو الأساس الذي بني عليه «ذو نواس الحميري» دخوله في اليهودية نكاية بالدولة الرومانية الشرقية التي أرسلت إلى اليمن القسوس مقدمة لاستعمار اليمن . فلم ير أنكى لهم من الدخول في اليهودية، وتعصب لها حتى قتل أهل نجران وحداً لهم الأخدود وحرقهم بالنار - كما هو بعض الآراء في فهم الآية - فكان ذلك سبب غزو الحبشان لليمن - كما هو معروف في التاريخ - ولم يزل بصنعاء عشرة آلاف يهودي إلى اليوم .

أما ما يدعيه أهل الحبشة من أن الأسرة المالكة فيهم يرجعون في نسبهم إلى سليمان، فليس عندي ما يؤيد هذه الرواية أو ينفيها، والناس مأمونون على أنسابهم . وقد تراخى الزمن وتطاول ولا يعلم الغيب إلا الله .

النملة وسليمان

جاء في القرآن الكريم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِّنَ الْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧ - ١٩] .

فأين مكان وادي النمل هذا؟

قالوا هو واد تسكنه الجن ومراكبهم النمل . ولكن أين هو؟ لا جواب! وقالوا وادي النمل فيما وراء الهند، وأنه في بلاد التبت . ويقولون إنه في بلاد اليمن . والذي في بلاد اليمن «وادي نمل» بفتحين في أوله . وقالوا في الطائف وكل ذلك لا ينبغي التعويل عليه . والذي في ياقوت «قيل إنه بين بيت جبرين وعسقلان» وقال ابن بطوطة الرحالة الشهير «إن بظاهر عسقلان وادي النمل ويقولون إنه المذكور في الكتاب العزيز» وهذا الذي ذكره هو اللائق المعول عليه .

وللمرحوم أحمد زكي باشا مقالتان: كتبت ثانيتهما في أهرام ٦ أغسطس سنة ١٩٣٣ ما قدمته خلاصة لها لزكي باشا رأي انفرد به وهو أن المراد بوادي النمل: الوادي الكثير

الناس؛ كأنهم النمل في الكثرة. وليس ما قاله بشيء لأنه ينافيه قولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] إذ كيف لا يشعر جند سليمان بالناس وبخاصة إذا كانوا كثيرين كالنمل؟^(١)

موت سليمان عليه الصلاة والسلام^(٢)

(١) نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر في ٦ أبريل سنة ١٩٣٩ الخبر التالي.

النمل الأبيض يدمر قرية مصرية

أعلن النمل الأبيض حرباً شعواء على إحدى القرى المصرية منذ عهد قريب، فهب أهلها للدفاع عنها وذود هذا العدو عن مساكنهم وأرزاقهم. ثم طلبوا النجدة من الحكومة فأرسلت إليهم جنود قسم الحشرات بوزارة الزراعة، لكن النمل انتصر على هؤلاء جميعاً وأتى على القرية. وأعلن قسم الحشرات عجزه عن إبادة جيوش النمل، وانسحب الأهليون من الميدان تاركين مساكنهم! وقد سجلت الوثائق الحكومية أخبار هذه الحرب، في مذكرة رفعها معالي وزير المالية إلى مجلس الوزراء وعرضت على مجلس النواب ثم مجلس الشيوخ في جلسته، ومما قيل في هذا الموضوع أنه على أثر شكوى تقدمت من أهالي ناحية «برسيق» التابعة لمركز «أبي حمص مديرية البحيرة» بإصابة قريتهم بحشرة النمل الأبيض قامت وزارة الصحة العمومية المرافق العامة بمعاينة هذه القرية فاتضح أن عدد سكانها يبلغ ٥٠٠ نفس، وعدد منازلها ٦٥ منزلاً، وأنها مقامة على تل كبرى. ولما بدأ الأهالي في استخراج الأسمدة من تل القرية ظهرت مقابر قديمة وبدأت حشرة النمل الأبيض في الانتشار، وأخذت تلتهم الأخشاب والملابس وتخرق جدران المنازل المشيدة بالطوب الأخضر، بدرجة اضطرت كثيراً من الأهالي إلى هجران مساكنهم، ولما استطلعت الوزارة رأي قسم الحشرات في وزارة الزراعة عما إذا كان من الممكن إبادة تلك الحشرات، قرر القسم تعذر معالجتها وأنه لا بد من إقامة قرية جديدة. وقد وقع الاختيار على مساحة قدرها ثلاثة أفدنة على الطريق الزراعي وعلى ترعة النخلة، وقد لوحظ في اختيار مساحة قطعة الأرض الجديدة ابتعادها عن التلال الكفرية التي يعيش النمل في أعشاش بداخلها.

وقد وافق البرلمان على فتح اعتماد بستة آلاف جنيه لبناء القرية الجديدة.

(٢) نقد اللجنة «الموضوع الثاني عشر»

(موت سليمان عليه السلام)

ذكر أن المفسرين يذكرون في موته عجائب ويستدلون بالآية الكريمة ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤] الآية ويؤولونها على الوجه الذي يدعو إلى الغرابة. وكل ما جاء في هذا الباب أحاديث منكرة ويظن ابن كثير أنها مما يقوله أهل الكتاب. وإليك نفس ما قاله في تفسيره، ثم ساق عبارة ابن كثير وهي طويلة. ثم قال بعد ذلك ص ٣٣٦ سطر ١٨:

ونحن إذا نظرنا إلى متن الحديث وجدناه مضطرباً ومخالفاً لسنة الأنبياء وخصوصاً في عهد بني إسرائيل، إذ شريعتهم تقضي على كل إسرائيلي أن يأتي في العيد ويقرب القرابين ويقوم بالطقوس الدينية، وسليمان شريعته التي يتبعها هي التوراة التي جاء بها موسى وليس له شريعة سواها. وغير معقول أن يكون سليمان - النبي الكريم - هو الذي يخالف الشريعة ويمكث في محرابه دون أن يقوم بالمراسيم التي أوجبها التوراة على كل إسرائيلي، فيغيب عنها في وقت يقوم بها الرؤساء والسوقة. وإذا فعل يكون قد سن لبني إسرائيل سنة سيئة تجرئ سواه على مخالفة الشريعة التي أمر الله بني =

إسرائيل بحفظها وعدم الإخلال بها. ومعلوم أن اليهود في عيد الفصح يجب عليهم أن يأكوا الفطير سبعة أيام وأن لا يرى الخمير في جميع تخومهم، فإذا كان سليمان قد مكث ميتا سنة أفما كان له زوجة تسأل عنه وتبعث له بالفطير الواجب في الفصح فتعلم أنه ميت وعنده ألف امرأة؟ في إصحاح ١٦ تشية ف (١٦) ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضرون أمام الرب فارغين (١٧) كل واحد حسبما تعطي يده كبركة الرب إلهك الذي أعطاك.

فمن الذي يقوم بتلك المراسيم عن سليمان والله لم يسن لهم البدل؟ ثم أن سليمان بمقتضى مركز الملك الذي يشغله عليه مسؤولية إقامة العدل بين الناس - كما كان يفعل داود - وقد رأينا داود في فصل خصومة الحرث. إلى أن قال: وهو أيضاً بمقتضى منصبه الملكي تأتبه الوفود من الملوك ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم. فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقي سنة كاملة لا يعلم بموته أحد ويهمل إهمالا لا يهمله أحد من السوقة! والمسألة تحمل على أحد وجين:

الأول: أن يكون قد مات كما يموت سائر الناس، وبقي موته معمى على الجن دون سواهم من الإنس. ودفن وانتهى أمره. وقام في الملك ابنه، والجن في أمكنة نائية كتدمر لا يفترون عن العمل دائبين عليه خشية أن يعاقبهم سليمان، وبعد مدة - لم يحددها القرآن - علم أحد الجن بموته إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها فإذا الأرض قد أكلتها، فاستدل من أكل الأرض إياها على أن سليمان قد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة. وما كان ليتركها إلا لحدث من موت أو مرض، فتقصى الأمر فإذا هو قد مات فأعلم الجن بالأمر وكانوا لا يعلمونه كما كانوا يوهمون الناس أنهم يعلمون الغيب، وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي مات لا ﴿خَرَّ﴾ بمعنى وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه: قال في القاموس: الخر؛ السقوط كالخروج من علو إلى أسفل يخر ويخر والشق والهجوم من مكان لا يعرف والموت. وفي لسان العرب ج ٥ ص ٣١٧ وخر أيضاً: مات، وذلك أن الرجل إذا مات خر، ومن ذلك قول حكيم بن حزام بايعت رسول الله ﷺ على ألا أخرج إلا قائما. معناه أن لا أموت لأنه إذا مات فقد خر وسقط.

الوجه الثاني: أنه عليه السلام وجد في محرابه، فأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت الأرض واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه، فانهار الجزء الذي أكلته فاختلف توازنه فخر، فدل ذلك أهله على موته. وأكل جزء من العصا يكون انهياره سببا في اختلال التوازن لا يحتاج إلى زمن طويل. ومن رأى فعل الأرض في دنقلة العجوز لا يستبعد ذلك. فقد أخبرني المرحوم الشيخ محمد الخضري بك: أنه أهمل وضع أرجل مكتبه في إناء فيه ماء - وهو بدنقلة - فلم تمض أيام حتى وجد الأرض قد أثرت في جزء من تلك الأرجل. وترك جيته بجانب الحائط بضعة أيام ثم جاء إليها فإذا بها بهيئة الجبة، فلما مد يده إليها فإذا هي هباء أه المقصود نقله. ثم رجع الوجه الأول في آخر عبارته.

(رأي الجنة)

استبعد موت سليمان عليه السلام على النحو الذي يذكره المفسرون وفسر قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجَنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا

لَيْسُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» [سبأ: ١٤] باحتمالين ما أنزل الله بهما من سلطان فإنهما - كما سيتبين - إن لم يكونا فاسدين فهما بعيدان كل البعد عما تدل عليه الآية الكريمة.

وقد استند في استبعاده إلى ما يتلخص في أمرين:

الأول: أن شريعة سليمان التي هي شريعة موسى عليهما السلام فيها طقوس دينية وأعياد تقرب فيها القربان. كعيد الفصح المعلوم عند اليهود اليوم؛ والذي يأكلون فيه الفطير دون الخمير وعيد المظال، وعيد الأسابيع. فغير معقول أن يمكث سليمان مدة طويلة تمر فيها الأعياد كعيد الفصح ولا يقوم بالطقوس الدينية، ولا تقدم له امرأة الفطيرة ليأكله في عيد الفصح.

الثاني: أن سليمان كان ملكاً فعلياً عليه مسؤولية إقامة العدل بين الناس، كما أنه - بمقتضى مركزه الملكي - تأتبه الوفود من الملوك ويطالعه العرفاء والرؤساء في مشكلاتهم، فغير معقول أن يمكث هذه المدة الطويلة ميتاً ولا يعلم به أحد. هذا ملخص كلامه في الأمرين اللذين استند إليهما في استبعاد ما ذكره المفسرون وما كان أغنانا عن إبطال هذين الأمرين بعد أن لخصناهما وصورناهما بما سبق، لولا أن بعض الناس يجوز أن يغتر بتنميق عبارته في بسطهما. لذلك رأينا أن نشير إلى إبطالهما فنقول:

أما الوجه الأول: فإنه متوقف على أن من شريعة موسى التي كان يتعبد بها سليمان الطقوس الدينية والأعياد التي نراها اليوم عند اليهود، كعيد الفصح وتحريم الفطر دون الخمير وأن التوراة الموجودة الآن المبين فيها تلك الطقوس والأعياد هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام! ودون إثبات ذلك خبط القناد.

وعلى تسليم أن الأمر كذلك في المانع من أن تمر الأعياد والطقوس الدينية وتأتي سليمان زوجته لتقديم إليه في عيد الفصح فتراه واقفاً على عصاه بهيئة المصلّي فترجع؟ ولم لا يجوز أن تكون عادة سليمان أن يتعبد وحده عبادة خاصة به وفي حال قيامه لا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يقرب مكانه.

وأما الأمر الثاني: فيتوقف على أن المركز الملكي الذي نراه للملوك في هذه الأزمنة هو بعينه كان لمثل سليمان عليه السلام في زمنه، تأتبه وفود الملوك وتجرى لهم احتفالات وزيارات رسمية ومواعيد محدودة في المقابلات وشيء من ذلك لم يبق عليه دليل.

وعلى تسليم ذلك فما المانع من أن يكون له عرفاء ورؤساء يتوبون عنه في مقابلة الوفود وفي أداء هذه المهمات؟ وأن يكون له قضاة من قبله يفصلون في الخصومات كما هو الحال اليوم؟

وبعد فلنشرع في تزييف الاحتمالين اللذين أبداهما في تفسير الآية:

أما الاحتمال الأول: فلأن معنى الآية عليه هكذا «فَلَمَّا خَرَّ» أي مات «يَتَبَّنَ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» [سبأ: ١٤] وذلك باطل في الواقع، وعلى ما قرره في هذا الاحتمال لأنه قال إن الجن لم تعلم بموته إلا بعد مدة لم يحددها القرآن لأنها كانت تشتغل في مكان بعيد كندمر.

فإن قال: يقدر في نظم الآية بأن يقال فلما مات أي علم الجن بموته؟ قلنا: فأى دليل على هذا التقدير؟ وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين في فن الكتابة؟

ثم يقال لصاحب هذا الاحتمال: هل الأرض التي وجدت العصا ملقاة عليها هي التي يشتغل فيها الجن أو هي التي مات فيها سليمان عليه السلام؟ فإن كان الأول فمن الذي أوصل العصا إلى تلك الأرض؟ وإن كان الثاني فمن الذي مكن أحد أفراد الجن من أن يترك عمله ويأتي بلد سليمان عليه =

السلام حتى رأى العصا ملقاة على أرضها؟ فإن قال: إنه لم يكن ممن يشتغل في الأمكنة البعيدة بل هو من المقيمين في بلد سليمان؟ قلنا: فهل يعقل أن يكون موجوداً في البلد ولا يعلم بموت سليمان؟

نحن إذا طبقنا هذه الحادثة على النواميس الطبيعية وعلى المعتاد في أمثالها، نقول إنه لا يعقل أن يموت موتاً عادياً مثل سليمان ذلك الملك العظيم الذي كان ملكاً على الإنس والجن والطير وغيرها ولا يعلم بموته معظم أفراد رعيته.

ثم يقال: هل تلك العصا كانت ممتازة معروفة حتى عرفها الجني وتقصى بواسطتها أو لا؟ فإن كان الأول فكيف ترمى على الأرض رمي القمامة؟ وإن كان الثاني فكيف عرفها ذلك الجني؟ وعلى تسليم إنه عرفها على أي حال، فمن أي وجه استدل بواسطة أكل الأرضة واستبدالها بما هو أحسن منها ما يدل على حدوث أمر غريب عجيب يحمل الجني على التقصي والبحث؟

وأما الاحتمال الثاني فواضح البطلان لأن ذلك يتنافى مع عجز الآية وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ فِي أَلْمَذَابِ إِلَّا ظُفُرٌ﴾ [سبأ: ١٤] فإن ذلك يستدعي بقاءهم مدة طويلة يشتغلون فيها وهو ميت ولا يعلمون موته.

وما ذكره عن فعل الأرضة في «دنقلة» وما أخبره به المرحوم الشيخ الخضري فلا يفيد في دعواه بشيء ما. فإن أحداً لم يدع أن كل أرضة في جميع الأزمان وبالنسبة لجميع أنواع الخشب تأكل مع الثاني في مدة طويلة، كما أنه لا يستطيع أن يدعي أن كل أرضة في جميع الأزمان وبالنسبة لجميع أنواع الخشب وغيره تأكل بسرعة مثل الأرضة التي أكلت مكتب الشيخ الخضري وجبته، على أنه يجوز أن تكون دابة الأرض المذكورة في القرآن دابة أخرى غير ما هو معروف لنا والله أعلم.

رد المؤلف على نقد اللجنة

«الموضوع الثاني عشر»

وفاة سليمان عليه السلام

كتبت في قصة وفاة سليمان ما نقله حضرات أعضاء اللجنة. وهو كلام مضيء واضح لا غبار عليه، ولكن حضرات الأعضاء عزّ عليهم مخالفتي لتلك الإسرائيليات فمضوا يدافعون عنها مدافعتهم عن الحق الواضح. وإني لأرثي لهم وهم يعصرون القرائح في الرد عليّ والتكلف باد عليّ هذا الرد يكاد يلمس باليد.

قالوا - «أما الوجه الأول فإنه متوقف على أن شريعة موسى التي كان يتعبد بها سليمان والطقوس الدينية والأعياد التي نراها اليوم عند اليهود، كعيد الفصح وتحريم الفطر دون الخمير وإن التوراة الموجودة الآن المبين فيها تلك الطقوس والأعياد هي التوراة التي أنزل الله على رسوله موسى عليه السلام ودون ذلك خبط القناد» والجواب على ذلك:

أولاً: أن العبارة التي أتوا بها مضطربة مفككة ومعاذ الله أن أقول لحضراتهم أن هذه الجمل الركيكة المتخاذلة يستحي صبيان الكتاتيب أن يكتبوها أو تنسب إليهم، ولكني أحيل الأمر على خطأ الناسخ ولا أكافئهم بعملهم أو قولهم الذي يوجهون به إليّ ولا يتعففون عن مواجهتي به.

ثانياً: لم أقل إن التوراة تحرم الفطير دون الخمير كما قالوا. وإنما قلت «ومعلوم إن اليهود في عيد =

= الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام وأن لا يرى الخمير في جميع تخومهم» ولعل ذلك من غلط الناسخ أيضاً.

ثالثاً: لو لم تحرثوا على عجلتي لما عرفتم أحجيتي! فإن مستندكم هو ما نصصته في أول كتابي من أن التوراة لا يوجد بها سند متصل. ولكن اعلّموا علمكم الله الخير أن اليهود إذا كانوا قد منوا كتابهم بالتحريف فليس معناه أنهم قد غيروا جميع المعالم وهدموا البيت من الأساس. بل هم على إثارة منه وأن حرفوه، بدليل إن الله تعالى قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالْبُرْهَانِ فَاتَّبَعُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فلولاً أن الله تعالى يعلم أن منها ما هو باق - لم يتحول - لم يستدل بها عليهم وقيّمها حجة على زيفهم عنها. وليست مسائل العبادات والأعياد مما يقصد بالتغيير والتصرف. وإنما هي الأمور التي تعود عليهم بالفائدة كحل الربا مع الأجنبي إذا كان اليهودي هو رب رأس المال. ومثل تأثيم الأنبياء ليخففوا عن أنفسهم ملامة الوقوع في الإثم. وتغيير وصف رسول الله. وعلى الجملة فإن الأعياد والعبادات لم تكن مقصودة بالتغيير.

وأيضاً فالكتاب قد وجد والأصل عدم تغييره حتى يثبت فيه فقط. وقالوا «وعلى تسليم أن الأمر كذلك فما المانع من أن تمر الأعياد والطقوس وتأتي سليمان زوجته لتقدم إليه الفطير في عيد الفصح فتراه واقفاً على عصاه بهيئة المصلي فترجع؟ ولم لا يجوز أن تكون عادة سليمان أن يتعبد وحده عبادة خاصة به وفي حالة قيامه بها لا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يقرب مكانه».

أقول: أن سليمان نبي كريم وملك عظيم له الخدم والحشم والعبيد يحرسون عليه ويخدمونه ولا يفترون عن ذلك ولا يقصرون، ولا يمكن أن يهملوه ويسقطوه من حسابهم بلا أكل ولا شرب ولا تغيير ملابس ولا نظر في شيء من مصالحه ومصالح ملكه! والفروض التي ذكرتموها لا تقوى على أن تمر من الامتحان سالمة.

إن الملك من الملوك إذا تأخر عن الظهور للناس يوماً واحداً، أو تغير وقت خروجه إلى عمله اضطربت الأفكار وملكت الناس الهواجس ورموا بالظنون كل مرمى وما كان سليمان بدعاً منهم. وهل يظن حضراتهم أن زوجة سليمان أو قيم طعامه إذا جاء بالطعام في عيد أو غيره ووجده بهيئة المصلي يكون ذلك مسوغاً لإهماله وأطراحه سنة كاملة.

يا قوم إن أحدكم تضل دجاجته أو لا تعود إلى قنّها أو عنزه فلا تأتي من الحقل فلا يهدأ له نوم ولا يقر له قرار حتى يأتي بالمنادي عليها ويصرح بالجعل لمن يردّها! فكيف تنام أمة سنة كاملة عن نبيها الكريم وملكها العظيم؟ إنني أقول أن هذا مستحيل في مجرى العادة، وكل كلام يخالف ذلك لا يقام له وزن ولا يساعد عليه منطق ولا عرف ملوك ولا سوقة. وكله لا جدوى منه.

قالوا «وأما الأمر الثاني فيتوقف... الخ» فهم يقدرون أن سليمان يجوز أن يكون مهملاً في مملكته وفي بيته وفي نظر جيرانه من الملوك - فلا يأتيه رسول! ولا يطالعه أحد بتمام عمارة قلعة! ولا بالشروع في عمل حصن! ولا بقدوم سفن! ولا بإقلاع أسطول! ولا بشيء مما يجري في هذا العالم. ويمكث مهملاً سنة تامة لا يأتيه خطاب ولا يقدم عليه رسول في عيد ولا موسم!

هذا منطق يحتاج إلى أمة لم تخلق وعقول ليست من هذا العالم.

ألم يقرأوا قول الله تعالى حكاية عن ملكة سبأ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرٌ بِمَا يَصْنَعُ الْإِنسَانُ﴾ [النمل: ٣٥] وقول سليمان لرسولها ﴿أَتَيْدُونَنِي بِإِلَهِ مَا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ تَقْرَحُونَ﴾ =

[النمل: ٣٦] وأن ملكة سبأ جاءت إلى سليمان واحتفى بها أيما احتفاء وبنى لها صرحاً ومردة بالقوارير وبالغ في الزينة لها وأتاها بعرشها... الخ فهذه حجة من القرآن الكريم على أن سليمان كان يقصد بالوفود من أقاصي الممالك فما بالكم بجيرانه الأدينين فهذه حجة قرآنية أظن أنهم لا يردونها قالوا «وعلى تسليم ذلك فما المانع من أن يكون له عرفاء ورؤساء ينوبون عنه في مقابلة الوفود وأداء هذه المهمات وأن يكون له قضاة من قبله يفصلون في الخصومات كما هو الحال الآن؟»

أقول أن العرفاء والرؤساء الذين ينوبون عن الملك لا يستغنون عن مطالعته في أمر القادمين، وما ينبغي أن يكافئهم به أو ما يعدونه لهم من النزل، والقادمون لا بد أن يؤدوا إلى ملوكهم عن الملك جواباً عن رسالتهم. وما كان النواب ليستقلوا بذلك دون الملك ودون مطالعته في تلك الشؤون! قالوا «وبعد فلنشرع في تزييف الاحتمالين» إلى أن قالوا «فإن قال يقدر في نظم الآية بأن يقال فلما مات أي علم الجن بموته قلنا فأى دليل على هذا التقدير؟ وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين في فن الكتابة».

أقول أن قليلاً من الفكر يهدي حضرات أصحاب الفضيلة إلى أن هذا التقدير سائغ ليس فيه غرابة وأنه لا اعتراض عليه. وإن قليلاً من التدبر يهدي حضراتهم إلى أن هذا التقدير بنفسه لازم جداً للوجه الذي اختاروه وهو أن سليمان مكث سنة ميتاً وأنه خر أي سقط حين أكلت الأرض عصاه فإن مجرد سقوطه لا تبين من الجن إنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهيئ بل لا بد من تقدير علمهم بالموت والمكث سنة وأكل الأرض لمنسأته ثم سقوطه بعد ذلك وما أطول ما يقدر على الوجه الذي اختاروه!

وبعد هذا فإني أسألك أيها القارئ الكريم - أليس مما يضحك الشكلى ويبيكي العروس أن يأتي أصحاب الفضيلة (مع حفظ الألقاب كما يقولون) محمد البديوي وعيسى منون ومحمد علي العزبي ومحمود أبو دقيقة وإبراهيم الجبالي ويقولون لعبد الوهاب النجار معرضين به في فن الكتابة «وهل يجوز أن يفاد هذا المعنى بمثل هذا التركيب لدى المبتدئين في فن الكتابة».

لقد وجدت عندي لساناً قائلاً. ولكنني لم أجد مجال القول ذا سعة (لقد ضاق شبر عن مسير) والسكوت في هذا المقام أجدى وحس القلم أحجى.

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحللت

ورحم الله المعري إذ يقول: (لك يا منازل في القلوب منازل) والقارئ يستوفي القصيدة إذا شاء.

أتى بعد ذلك أصحاب الفضيلة على سبيل الاستفهام بأسئلة كثيرة متداركة وتشقيقات متعاقبة - وما أنا أذكر ذلك وأعقب كل سؤال بجوابه تاركاً الإجابة عما يعلم جوابه من جواب سواه.

(١) هل الأرض التي وجدت العصا ملقاة عليها هي التي يشتغل فيها الجن. أو هي التي مات فيها سليمان عليه السلام؟ فإن كان الأول فمن الذي أوصل العصا إلى تلك الأرض؟

(٢) والجواب. إن الأول ممنوع والمفهوم إن سليمان لما مات وضعت عصاه في مكان خصص لإحراز أمتعته فيه من كسى وغيرها.

وإن كان الثاني فمن الذي مكن أحد أفراد الجن من أن يترك عمله ويأتي إلى بلد سليمان حتى رأى العصا ملقاة على أرضها.

أقول أن الجن أرواح لا نعرف حقيقتهم وكنههم فلعلهم يقدرون على الوصول إلى الأمكنة البعيدة لا =

يحجبهم حاجب ولا تمنعهم أبواب ولا جدران وأغلاق، ولنا في حادثة العفريت الذي من الجن الذي قال لسليمان عن عرش بلقيس ﴿أَنَا إِلَٰهِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] أكبر عبرة. (٣) فإن قال: إنه لم يكن ممن يشتغل في الأمكنة البعيدة بل هو من المقيمين في بلد سليمان؟

قلنا: فهل يعقل أن يكون موجوداً في البلد ولا يعلم بموت سليمان؟
الجواب: لا تلازم بين عدم الاشتغال في أمكنة بعيدة والإقامة في بلد سليمان؛ فقد يكون من المقيمين في مصر ولا يشتغل بعمل لسليمان، فيموت سليمان وهو في بلد بعيد غير بلد سليمان ولا هو مكلف بعمل له ولا يعلم بموته، ويقدم بعد مدة على بلد سليمان ثم يرى ما يرى ويستدل ويعلم. (٤) نحن إذا طبقنا هذه الحادثة على النواميس الطبيعية وعلى المعتاد في أمثالها نقول: إنه لا يعقل أن يموت موتاً عادياً مثل سليمان - ذلك الملك العظيم الذي كان ملكاً على الإنس والجن والطير وغيرها - ولا يعلم موته معظم أفراد رعيته؟

الجواب: أرجو حضرات أصحاب الفضيلة أن يكفوا عن ذكر النواميس الطبيعية فإنها مألومة منهم لأنها تعلم أنهم هم الذين يحكمون بشلها وتعطيلها عن عمل خلقت له لغير داع يدعو إلى ذلك وبلا برهان أتاهم. ومن الخطر على حضراتهم أن يجعلوا العادة حاكماً يقبل حكمه وهم الذين يجانبونها ويجانبون كل ناموس طبيعي في أمر سيمان وفي موته! فهل يريدون أن يحلوا الالتجاء إلى النواميس والعادة عاماً ويحرمونه عاماً بلا سلطان ولا برهان بل بمجرد التشهي؟

وقد سبق أن قلت في كتابي - مستنداً إلى النواميس الطبيعية وإلى ما جرت به العادة: أنه ليس مما يسوغ في العقول أن يموت سليمان وهو الملك والنبي الكريم ويبقى سنة واقفاً متكئاً على عصاه ولا يعلم به أحد من جنوده ونسائه وأولاده وخدمه وينسى كل هؤلاء أنه يحتاج إلى طعام وشراب واغتسال ودفء وملابس تصلح لأيام الصيف إذا أظلم وأخرى لأيام الشتاء ويحملونه من حسابهم في مصالحه وسائر مصالح الملوك - التي لا تشبه مصالح الأفراد - ولا يطالع بشيء من شؤون ملكه؛ فدفعت حضرات السادة الأفاضل في صدر النواميس الطبيعية وفي صدر العادة لمناكير من الأحاديث وإسرائيليات مما لفته مسلمة أهل الكتاب! فمن فعل ذلك يجب عليه أنه يغض طرفه حين تذكر العادة أو النواميس الطبيعية وأن يغطي رأسه حياءً.

(٥) ثم يقال هل تلك العصا كانت ممتازة معروفة حتى عرفها الجني وتقصى بواسطتها أو لا فإن كان الأول: فكيف ترمى على الأرض رمي القمامة؟ وإن كان الثاني فكيف عرفها الجني؟ الجواب: يعلم الإنس والجن أن عصا الملك أي صولجان الملك تعرف وتمتاز عن عصا «المارشال» وعن عصا «البايا» وعصى سائر أرباب الرتب الكهنوتية - من مطران وأسقف وقسيس - وعن عصا الظرفاء وأهل الكياسة والترف وعن عصا «الحلواني الجيار» رحمه الله، وكان ثمنها يزيد على ثمانمائة جنيه وكان بها من الجواهر والحجارة الكريمة شيء كثير، يحملها وهو يرقص على نغم الموسيقى البلدية في شوارع القاهرة، وعن عصا الدكتور «عبد الحميد سعيد» التي لا يجهلها أحد ممن رآها وعن عصا رجال البوليس وعن عصا رجال المناسر وقطاع الطريق، وعن عصا الضباط والعساكر. ومن الجائر أنها كانت في مكانها غير مطروحة ولكنها وقعت على الأرض بسبب اصطدام حيوان بها كفأرة وبنت عرس، فأخذت الأرضة في أكلها وابتدأت الأرض الكثيرة في أكلها وهي مستندة إلى الحائط، وهذا أمر جائز واقع كثيراً.

(٦) وعلى تسليم أنه عرفها - على أي حال فمن أي وجهة استدلت بواسطة أكل الأرضة منها على حدوث حدث حتى تقصى الأمر فعرف أن صاحبها سليمان قد مات؟

الجواب: وجه معرفته ذلك أن سليمان كانت العصا التي هي شارة ملكه لا تفارقه، كما أن مشايخ الطرق لا تفارقهم عصيهم، فإذا رآها قد أكلتها الأرضة عرف أن صاحبها لم يفارقها - مدة تمكن الأرضة من أكلها - إلا لحدث حدث له، فتقصى فعلم!

(٧) هل في رميها واستبدالها بما هو أحسن منها ما يدل على حدوث أمر غريب عجيب يحمل الجني على التقصي والبحث؟

الجواب: الصواب في نظم الكلام أن يقال «واستبدال ما هو خير منها بها» لتدخل الباء على المتروك. وبعد ذلك أقول أن سليمان ما اختار عصاه إلا بعد أن استجد نوعها فكان أجود ما عرف وتركها على كل حال أمر يحمل على البحث، كما إذا رأى إنسان سيفاً لقائد قد ركبهُ الصدا. فإن ذلك يدعو إلى الوقوف على سبب إهماله وتركه حتى صدى!

يأخذ حضرات أعضاء الجنة والمفسرون من عبارة ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] أن المدة التي ندموا على مرورها عليهم في العمل لا بد أن تكون عظيمة. وبذلك يسوغون أنها سنة.

أقول: أن الذي يحتقر ساعة تمضي على صاحبها وهو في العذاب المهين لوثيق عقدة الرجاء في أن يصير على العذاب. والحق أنه لا يستهين بالعذاب إلا من سفه نفسه! وأن الجن من حقهم أن يأسفوا على تعمية موت سليمان عنهم يوماً أو ساعة قضوها في الأعمال الشاقة والعذاب المهين. وعلى ذلك فليس من الضروري أن تكون المدة سنة بل اليوم الواحد كاف في تسويغهم هذا الندم.

قالوا: على أنه لا يجوز أن تكون دابة الأرض المذكورة في القرآن دابة أخرى غير ما هو معروف. والجواب: أنني قدمت مثل هذا القول وقلت أن دابة الأرض قد تكون حيواناً من الحيوان القراض الذي يقرض الخشب. وحيث لا يمكث السنة التي يقولونها.

جاء بعد ذلك حضرات الأفاضل بكلام في شأن الأرضة إذا قرأه الإنسان قابله بالابتسام!

إذ أن حضرات الذين صاغوا هذه الاسرائيليات في أمر سليمان والمفسرون الذين تلقوها أبانوا عن عدم علم بحياة هذا الحيوان وطبيعته. فهم يقولون أن الجن شكرت للأرضة فعلها وأنتها بالطين في الخشب وبالماء أيضاً! كأن الأرضة قبل ذلك لا يكون عندها طين ولا ماء بل حدث بعد ذلك.

ولو علموا أن الأرضة تهضم طعامها من الخشب فيصير ما تبرزه طيناً. وما تبرزه غير مهضوم تأكله مرة أخرى - ليم هضمه حتى يصير طيناً - لخلجوا أن يقولوا ما قالوا بلا علم ولا بينة.

وأما الماء فإن الأرضة تعمل في مأرضها بئراً تستقي منه الماء وقد يبلغ عمقها إلى تسعين قدماً، «تراجع مقالة الدكتور مأمون عبد السلام المنشورة في أهرام ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥».

أما قوة الأرضة على أكل الأشياء بسرعة! فمثال ذلك ما ذكره المقرئ في خطبه من أن الأرضة قد سطت على بيوت الحسينية وأكلت كل ما فيها من خشب ومن جدران حتى اضطُر أهل الحسينية - من ناحية باب الفتوح - أن يهدموا بيوتهم ليتفكروا ببيع أخشابها وأنقاضها قبل أن تأكلها الأرضة.

ومن مقالة الدكتور مأمون عبد السلام المذكورة قوله:

والأرضة موجودة بكل القارة الأفريقية، فمنها أحد عشر نوعاً في السودان فتفك تفكاً ذريعاً بالمحاصيل =

جاء في سورة سبأ بشأن موت سليمان قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

والمفسرون يذكرون في موته عجائب ويستدلون لذلك بالآية الكريمة، ويؤولونها على الوجه الذي يدعو إلى الغرابة. وكل ما جاء في هذا الباب أحاديث منكورة. ويظن ابن كثير أنها مما يقوله أهل الكتاب. وإليكم نص ما قاله في تفسير هذه الآية بعد أن ذكرها قال:

= والأخشاب، فقد رآها «السر صموئيل بيكر» في مناطق المستنقعات ببحر الزراف. وكانت تزحف بجيوش لا نهاية لها، فجردت القمح والشعير- الذي زرعه الجنود المصريون تحت قيادته - في منطقة «جوندوكرو» من جميع حبوبه، وكانت كل واحدة تحمل القمح والشعير في فمها وتنقله إلى بيتها - حبة حبة - وقد وجدت في هذه الجحور أكوام مكدسة من الحبوب... والأرضة أفنك الآفات وأشدها ضرراً بالإنسان، فقد ذكروا أنها هاجمت مدينة «جيمز تاون باستراليا» فتهدم نصف هذه المدينة بسببها فأعادوا بناءها. وهذه الحشرة واسعة الحيلة لا يعثرها قنوط. تأرض كل شيء، حتى الحديد على صلابته فإنها تبصق عليه من لعبها فيصدأ فيسهل عليها نخره. وهي تتلف أشجار البرتقال في ولاية «فلوريدا - بأمريكا» بأن تحز ساقها تحت الأرض وتقتلها اه. وعلى العموم فإن المقالة متعة يجدر بكل ذي علم أن يقرأها.

بلدة تلتهمها حشرة

جاء في جريدة الجهاد أول يوليو سنة ١٩٣٦: أنشئت مساكن بلدة «برسيق» التابعة لمركز «أبي حمص - بحيرة» على كوم قديم به مقابر عتيقة. ومنذ زمن ليس ببعيد تفشت في مساكنها حشرة أو دويبة صغيرة يقال لها «الأرضة» أو النمل الأبيض، وتكاثرت بدرجة مخيفة وجعلت تلتهم كل شيء في هذه المساكن، ولم تبق حتى على جدرانها ونوافذها وسقوفها، إلى ما تلتهمه من المحصولات وآلات الزراعة والثياب، ولم تبق على شيء. ولا يمكن مكافحتها لأنها تعيش في أنفاق وسرايب تحت جدران البيوت، ولها قرى في أغوار الأرض تحت المساكن، ولها ملكات تبيض الواحدة منها بيضة كل ثانية، فهي لذلك لا يمكن محاربتها أو التخفيف من ضررها. والعلاج الوحيد هو الزواج بعيداً عنها وترك القرية المصابة. لذلك قدم سكان هذه القرية التعيسة شكوى لصاحب الدولة الرئيس الجليل يلمسون نقل قريتهم هذه إلى جهة بعيدة عن موقعها الحالي، وبناءها على طراز القرى النموذجية. وبعد هذه السباحة والأخذ والرد أقول لحضراتهم إن «ابن كثير» بعد أن ذكر موت سليمان وما فيه من الأقوال التي قالها حضراتهم وأوردوها قال «وهذا فيه الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب» فما الذي جنيته إذا عدلت عنها إلى تقرير أمر معقول؟ وإيراد احتمالات ليس فيها ما ينقص من قدر سليمان ولا يضر بمقامه عليه السلام؟. مما تقدم: نجد انتقاد حضرات الأفاضل ليس فيه حجة تدحض ما قلت. وأن كلامي وجهه ليس من الأدلة ما يرده أو يمتعه! بل هو المعقول والجدير بالقبول.

يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحواً من ستة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأرضة ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدّة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب - كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب وفي صحته نظر.

قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور حدثنا موسى بن مسعود حدثنا أبو حذيفة حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «كان نبي الله سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا؛ فيقول: لأي شيء أنت؟ - فإن كانت تغرس غرساً وإن كانت لدواء كتبت - فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب: قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان عليه السلام: اللهم عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. ففتحها عصا فتوكأ عليها حولاً ميتاً والجن تعمل، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين».

قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك: قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث إبراهيم بن طهمان به وفي رفعه غرابة ونكارة. والأقرب أن يكون موقوفاً. وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات وفي بعض حديثه نكارة. وقال السدي: في حديثه نكارة.

وقال السدي في حديث ذكره عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم قال «كان سليمان عليه السلام يتحرر في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه. فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يصيح فيه إلا ينبت الله ببيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها فيقول: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت تنبت دواء كذا وكذا فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها: ما اسمك؟ قالت الخروبة، قال: ولأي شيء نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد! قال

سليمان عليه السلام: ما كان الله ليخربه وأنا حي! أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس! فنزعها وغرسها في حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلي متكناً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين. وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول ألسنت جلدأ أن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمرّ ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام في المحراب إلا احترق، فمر ولم يسمع صوت سليمان وكان عليه السلام قد سقط ميتاً، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، ففتحوا عليه فأخرجوه. ووجدوا منسأته - وهي العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه وقد مات منذ سنة وهي في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه. فمكثوا يدينون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم، ولو أنهم يطلعون على الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له. وذلك قول الله عز وجل ﴿مَا دَهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبا] يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم.

ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام. ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب؟ ولكننا ستنقل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها الشياطين به شكراً لها! وهذا الأثر - والله أعلم - إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب. وهي وقف لا يصدق منه إلا ما وافق الحق ولا يكذب ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابن وهب وأصبع بن الفرج: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا دَهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبا: ١٤] قال سليمان عليه السلام لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك؛ قد بقيت لك سويعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه. ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي قال: فبعث الله عز وجل دابة الأرض قال: والدابة تأكل

العيدان يقال لها القادح. فدخلت فيها وأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً: فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا، قال فذلك قوله تعالى: ﴿مَا دَكَّاهُمْ عَلَى مَوْنِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُمْ﴾ [سبا: ١٤] قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر. وذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا والله أعلم.

هذا ما أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره. ونحن إذا نظرنا إلى متن الحديث وجدناه مضطرباً ومخالفاً لسنة الأنبياء وخصوصاً في عهد بني إسرائيل. إذ شريعتهم تقضي على كل إسرائيلي أن يأتي في العيد ويقرب القرابين ويقوم بالطقوس الدينية، وسليمان شريعته التي يتبعها هي التوراة التي جاء بها موسى - وليس له شريعة سواها - وغير معقول أن يكون سليمان النبي الكريم هو الذي يخالف الشريعة ويمكث في محرابه دون أن يقوم بالمراسم التي أوجبتها التوراة على كل إسرائيلي فيغيب عنها في وقت يقوم بها فيه الرؤساء والسوقة، وإذا فعل يكون قد سنَّ لبني إسرائيل سنة سيئة تجرى سواه على مخالفة الشريعة التي أمر الله بني إسرائيل بحفظها وعدم الإخلال بها، ورفع فوقهم الطور للعمل بها.

ومعلوم أن اليهود في عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام، وأن لا يرى الخمر في جميع تخومهم. فإذا كان سليمان قد مكث سنة ميتاً! أفما كان له زوجة تسأل عنه وتبعث له بالفطير الواجب في الفصح فتعلم أنه ميت؟ وعنده ألف امرأة!

في ص ١٦ تثنية ف (١٦) ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير. وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين (١٧) كل واحد حسبما تعطي يده كبركة الرب إلهك الذي أعطاك.

فمن الذي يقوم بتلك المراسم عن سليمان والله لم يسن لهم البدل؟

ثم إن سليمان - بمقتضى مركز الملك الذي يشغله - عليه مسؤولية إقامة العدل بين الناس كما كان يفعل داود، وقد رأينا داود في فصل خصومة الحرث الذي نفشت الغنم فيه، وفي سماعه الخصومة في نعجة. فما كان سليمان بالذي يغيب عن خصومات قومه ونوازلهم، ويكل فض الخصومات لقوم هم أقل منه فهماً وعلماً!.

وهو أيضاً بمقتضى منصبه الملكي تأتيه الوفود من الملوك. ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم. فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقي سنة كاملة لا يعلم بموته أحد ويهمل إهمالاً لا يهمله أحد من السوقة!

والمسألة تحمل على أحد وجهين:

الوجه الأول - أن يكون قد مات - كما يموت سائر الناس - وبقي موته معمى على الجن دون سواهم من الإنس ودفن وانتهى أمره. وقام في الملك ابنه والجن في أمكنة نائية. كـ «تدمر» لا يفترون عن العمل دائبين عليه خشية أن يعاقبهم سليمان. وبعد مدة لم يحددها القرآن علم أحد الجن بموته إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض، فرفعها فإذا الأرضة قد أكلتها. فاستدل من أكل الأرضة إياها أن سليمان قد تركها ملقاة على الأرض مدة طويلة، وما كان لتركها إلا لحدث من موت أو مرض!^(١) فتقصى الأمر فإذا هو قد مات. فأعلم الجن بالأمر وكانوا لا يعلمونه؛ كما كانوا يوهمون الناس ويتوهم الناس لهم أنهم يعلمون الغيب. وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [سبأ: ١٤] أي مات. لا ﴿خَرَّ﴾ وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه.

قال في القاموس: والخر: السقوط - كالخرو - من علو إلى أسفل؛ يخر ويخر. والشق. والهجوم من مكان لا يعرف. والموت.

وفي لسان العرب ج ٥ ص ٣١٧: و (خر) أيضاً مات. وذلك أن الرجل إذا مات خر. ومن ذلك قول حكيم بن حزام «بايعت رسول الله ﷺ أن لا آخر إلا قائماً» معناه أن لا أموت. لأنه إذا مات فقد خر وسقط.

الوجه الثاني - أنه عليه السلام وجد في محرابه فأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت الأرضة واشتغلت بأكل طرف العصا، فأكلت بعضه فانهار الجزء الذي أكلته فاختل توازنه فخر، فدل ذلك أهله على موته. وأكل جزء من العصا يكون انهياره سبباً في اختلال التوازن لا يحتاج إلى زمن طويل. ومن رأى فعل الأرضة في «دنقلة العجوز» لا يستبعد ذلك. فقد أخبرني المرحوم الشيخ محمد بك الخضري أنه أهمل وضع أرجل مكتبه في إناء فيه ماء وهو بدنقلة، فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت في جزء مهم من تلك الأرجل، وترك جيبته بجانب الحائط أيام ثم جاء إليها فإذا بها بهيئة الجبة. فلما مد يده إليها فإذا هي هباء.

ثم إن مرجع الضمير في قوله ﴿مَا دَلَّمْ﴾ [سبأ: ١٤] يحتمل أن الجن، ويحتمل أنه آل

(١) حمل العصا كان من شارات الرياسة. والرئيس - وبخاصة من كان ملكاً كسليمان - لا يترك عصاه ما دام صحيحاً معافى.

داود الذين هم آل سليمان أيضاً. وهم المذكورون في قوله آخر الآية قبلها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ [سبا: ١٣].

وأيضاً فإنهم يقولون: إنهم أرادوا بعد موت سليمان أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا. . إلى آخره. فما هذه الأرضة التي تمتد إليها الأيدي فتقر طائعة على العصا؟ وتأخذ في أكلها حتى تعلمهم مقدار ما أكلت! - إن هذه الدابة وأمثالها إذا أخذت باليد ووضعت في مكان لا تستقر بل تمعن في الهرب. وأي دليل عندهم على أرضة واحدة فقط هي التي تولت أكل المنسأة حتى يعلموا أنها أكلتها في سنة؟ وهل هناك برهان على أنها لم تكن مئين أو آلافاً وهم إنما أتوا بفرد أرضة دون أرض كثيرة. وهل يوافق علماء الحيوان على أن الأرضة تبقى سنة حية ولا تلد؟ وهل هي من الحيوان الذي يعيش منفرداً عن أبناء جنسه؟

وأيضاً شكر الجن للأرضة وإتيانها بالطين والماء - وهي في جوف الخشب - شيء حصل بين الجن وبينها! فمن الذي أعلم الناس ذلك وهذا السر بين الأرضة والجن؟ وأما إتيانها بالطين مكافأة لها على ذلك فلا يدرى إلا من وقف على أحوال الأرضة قبل موت سليمان! ثم رأى أن تلك الأحوال! تغيرت بعده!

وعندي أن ذلك كله من التخرص الذي لا تقوم عليه بينة ولا يهدي إليه دليل. وبعد هذا كله؛ فما المانع من أن تكون دابة الأرض التي أكلت عصا سليمان هي بعض من الحيوان القراض كالفأر ونحوه من الحيوان الذي يقرض الخشب؟ أجل إن الألوسي رد هذا الوجه وإنني أخالفه وأقول إنه احتمال وجيه؛ فإن الفأر من دواب الأرض يتخذ مسكنه فيها.

وعلى كل حال: فمكث سليمان سنة أو نحوها أمر زائد عما تدل عليه الآية الكريمة ولا يوجد نص صريح في تلك المدة. وأحد الرأيين اللذين قدمتهما كاف في الخروج من كل إشكال أو اعتراض. وأولهما وأولاهما.

أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

من الأنبياء الذين قصَّ الله علينا قصصهم في القرآن «أيوب عليه السلام». وقد ذكر اسمه في القرآن الكريم أربع مرات «في الآية ١٨٦ من سورة النساء وفي الآية ٨٤ من سورة الأنعام وفي الآية ٨٣ من سورة الأنبياء وفي ٤١ من سورة ص» وقد ورد ذكر أيوب في كتب أهل الكتاب، وله سفر خاص به من الأسفار القانونية في العهد القديم. قال البستاني في دائرة المعارف صفحة ٨٠٤ من المجلد الرابع: إنه رجل مشهور بالاستقامة والتقوى والصبر ولذلك لقب بالصدِّيق وضرب به المثل بالصبر. ويقال إنه «عوص» بكر «ناحور» أخي إبراهيم. وقيل «يوباب» حفيد «عيسو» بن إسحاق.

كان موطنه أرض عوص، ويظن أنها جزء من جبل سعيير أو بلاد أدوم. قيل إنه كان قبل موسى، وقيل قبل إبراهيم بأكثر من مائة سنة - وهو أرجح - ومن أراد الوقوف على تفاصيل قصته فليطلبها من السفر المنسوب إليه من العهد القديم. وسفر أيوب هو أحد أسفار العهد القديم القانونية. وهو يحتوي على ٤٢ إصحاحاً جمعها خمسة فصول كبيرة.

الأول: يذكر تقوى أيوب وأملاكه وأقاربه وصفاته.

الثاني: يتضمن ما جرى بينه وبين أصحابه الثلاثة من الجدل.

الثالث: أقوال الحكمة التي نطق بها «اليهو» أصغر أصحاب أيوب^(١).

الرابع: يذكر مخاطبة الله إياه من العاصفة.

الخام: يتضمن خضوعه وشفاءه وتعويض ما فقده من المال والأهل.

وجاء في صفحة ١٤٨، ١٨٥ من الجزء الأول من «إظهار الحق» معقّباً على ما نقله من أقوال «بيلي» فانظر أيها اللبيب إن كلام محققهم مطابق لكلامي أم لا؟ وما قال إن بين علماء المسيحية نزاعاً في حقيقة أيوب بل في وجوده قديماً، فأشار إلى الاختلاف القوي

(١) أصحاب أيوب الذين ذكروا في سفره هم «اليفاز التيماني». وصوفر النعماني، وبلدد الشوحي، والياهو.

لأن «رب مماني ديز» الذي هو عالم مشهور من علماء اليهود وكذا «ميكائيلس» وكذا «وسملر» و «استان» وغيرهم قالوا إن أيوب - اسم فرضي - وما كان مسماه في وقت من الأوقات. وكتابه حكاية باطلة وقصة كاذبة «وكانت» و «انتل» وغيرهما قالوا: إنه كان في نفس الأمر.

ثم القائلون بوجوده اختلفوا في زمانه على سبعة أقوال:

١ - أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام.

٢ - أنه كان معاصراً للقضاة.

٣ - أنه كان معاصراً «هاسي روس» أو «أزدشير» سلطان إيران.

٤ - أنه كان معاصراً ليعقوب عليه السلام.

٥ - أنه كان معاصراً لسليمان عليه السلام.

٦ - أنه كان معاصراً لبختنصر.

٧ - أنه كان قبل الزمان الذي جاء فيه إبراهيم عليه السلام إلى كنعان.

وقال «هورن» من محققي فرقة بروتستانت: إن خفة هذه الخيالات دليل كاف على ضعفها. وكذا اختلفوا في «غوط» بلده - الذي جاء ذكره في الآية الأولى من الباب الأول من كتبه - بأنه كان في أي إقليم؟ على ثلاثة أقوال:

١ - فقال «بوجارت» و «أسباهم» و «كامت» وغيرهم: إنه في إقليم العرب.

٢ - وقال «ميكائيلس» و «الجن» إنه في شعب دمشق.

٣ - وقال «لود» و «ماجبي» و «هيلز» و «كود» وبعض المتأخرين إن «غوط» اسم

أدومية. وكذا اختلفوا في مصنف هذا الكتاب بأنه: اليهود أو أيوب، أو سليمان، أو أشعيا، أو رجل مجهول الاسم - معاصر للسلطان منسا - أو حزقيال، أو عزرا أو رجل من آل اليهود، أو موسى عليه السلام الخ اهـ.

أما نحن فنقول: إنه عبد صالح من عباد الله امتحنه الله في ماله وأهله وبدنه فصبر صبراً جميلاً فوهبه الله تعالى العافية وأعطاه أكثر مما فقد من أهل ومال، وأثنى عليه ثناء جميلاً في قرآنه الكريم وجعله نبياً.

ملاحظات

(الملاحظة الأولى) أن الناس يروون في بلاء أيوب أقوالاً يوردونها تدل على أنه مرض مرضاً مشوهاً ومنفراً للناس من قربانه والدنو منه.

وهذا يتنافى مع منصب النبوة وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزّهون على الأمراض المنفرة، فكيف يتفق ذلك مع منصب النبوة؟.

والجواب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول - أن الابتلاء - على الوجه الذي يقولون - كان قبل النبوة وأن منحة النبوة إنما كانت لما بدا منه من الصبر والرضا بما أصابه من مكروه وملازمته جانب الرضا. عن الله تعالى.

الوجه الثاني - أن المبالغين في ضرّ أيوب إنما اعتمدوا فيما يقولون على ما جاء عند أهل الكتاب «في السفر المسمى: سفر أيوب» وإذا ثبت أن هذا السفر حقيقي فعبارته مؤولة.

ففي هذا السفر ما نصه: فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته. فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد «ص ٢ أيوب».

لأنه مثل خبزي يأتيني أنيني ومثل المياه تنسكب زفرتي «ص ٣ آية ٢٤».

١- قد كرهت نفسي حياتي - أسبب شكواي. أتكلم في مرارة نفسي «ص ١٠» (٣٨) «ص ١٣» وأنا كمسوس بلى كثوب أكله العث.

قرأوا ذلك فحسبوا هذا على وجه الوصف الحقيقي! ولو تدبروا لعلموا أن سفر أيوب يشبه قصائد شعرية قيلت في وصف ضرّه وصبره، والشعر في كل لغة ميدان المبالغة.

انظروا إلى قول عمر بن الفارض رضي الله عنه:

فطوفان نوح عند نوح كأدمعي وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
فلولا زفيرى أغرقتنى مدامعي ولولا دموعي أحرقتنى زفرتي
وهذا المتنبي يقول:

كفى بجسمي نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترني
ويقول: ولو أن ما بي من جوى وصباة على «جمل» لم يدخل النار كافر
أي أن الجمل يلج حينئذ في سم الخياط ويحصل المعلق عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وأخر يقول:

ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

وآخر يقول:

نحلت فلو علقت في رجل ذرة لطارت ولم تشعر بأني تعلقت
ولو نمت في جفن الذباب معرضاً من السقم لم تشعر بأني قد نمت
(الملاحظة الثانية) أن القرآن الكريم ذكر أن الله تعالى أمر أيوب أن يأخذ بيده ضعفاً
فيضرب به وبذلك لا يكون حائثاً فما هذه الحادثة؟

والجواب: عن البيضاوي - روي أن زوجته ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء
ليضربنها مائة ضربة فحلل الله يمينه بذلك، وهي رخصة باقية في الحدود.

وعن الألويسي... أن امرأته «رحمة» بنت أفرايم أو منسا بن يوسف. أو «ليا» بنت
يعقوب. أو «ماخير» بنت منسا بن يوسف - على اختلاف الروايات - ذهبت لحاجة
فأبطأت أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محظورة فيبرأ، وأشارت عليه بذلك.
فقال له: إلى متى هذا البلاء؟ كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك! أو جاءته بزيادة
على ما كانت تأتي به من الخبز فظن أنها ارتكبت في ذلك محرماً فحلف ليضربنها إن
برىء مائة ضربة فأمر الله بأخذ الضغث «وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ربحان أو
قصبان» ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها.

وهي رخصة باقية في الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضاً. لكن غير الحدود يعلم
منها بالطريق الأولى.

بقي أن أقول: إن يعقوب ليس له بنت تسمى «ليا» بل ابنته تسمى «دينا» وهذا على
علائه إنما يتمشى على قول من يقول إن أيوب بكر عيسو أخي يعقوب.

وعلى كل حال؛ فلم يرد عند أهل الكتاب أنه كان موجوداً في زمن أفرايم أو منسا
ولدي يوسف.

أما ما جاء في القرآن الكريم عن قصته فاقراؤه في هذه الآيات:

سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمِمَّا يَدْعُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

سورة ص: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ
بِحَبْلِكَ هَذَا مَغْسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمِمَّا يَدْعُونَ ﴿٤٣﴾
وَحَدِّ يَدَاكَ فَصَرَبْنَا بِمَاءٍ وَلَا تَحْثُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يونس عليه السلام (١)

ذكر يونس عليه السلام باسمه في القرآن الكريم أربع مرات «سورة النساء آية: ١٦٣ الأنعام آية ٨٦ يونس آية ٩٨ الصافات آية ١٣٩» وذكر بوصفه في سورة الأنبياء في قوله

(١) نقد اللجنة «الموضوع الخامس».

قصة يونس عليه السلام

في صفحة ٣٤٥ سطر ١١ ما نصه:

وتلخص - أي قصة يونس - في أن الله أمره بأن يذهب إلى أهل مدينة لهاديتهم وإرشادهم إلى الله تعالى؛ فخشي إنهم لا يسمعون لقوله: ولما كان أمر الله محتماً أراد أن يتعد عن ذلك البلد فنزل في سفينة... إلى آخر القصة.

ثم قال - في صفحة ٣٤٦ سطر ٩- وقال آخرون إنه كان أحد الملوك غزا بني إسرائيل وأسر منهم تسعة أسباط ونصف سبط، وذلك في مدة الملك «حزقيل» فأوحى الله إلى شعيا النبي أن اذهب إلى «حزقيل» الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك. وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله بإخراجي؟ فقال: لا، قال: هل سماني لك؟ قال: لا، فقال يونس: فهل هنا أنبياء غيري! فألحوا عليه فخرج مغاضباً فأتى بحر الروم... إلى آخر القصة.

ثم قال: وقد ذكر الألوسي وجوهاً كثيرة في تفسيره، واللائق بالحق أن يقتصر في فهم القصة على ما قصه الله في الكتاب الكريم. ثم ذكر الآيات الواردة في هذه القصة.

وبعد ذكر أسئلة وأجوبة قال - في صفحة ٢٤٨ سطر ٢١ - ما نصه:

وفي اعتقادي إن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم - عقيب نبوته - ولم يكن قد مرّن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها، لأن العلم بذلك يستدعي مدة وتكرّر الوحي والازدياد من معرفة الله والارتياض على تلقي الوحي وتلقيه، فحادثه في النبوة هي التي خيلت إليه ما قلنا من أنه خيل إليه إنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع اعفاءه من تلك المأمورية. أضيفوا إلى ذلك أنه كان حديث السن. فقد أورد الألوسي في تفسيره «إن سنه كانت ثمانية وعشرين سنة. ومن كان حديث العهد بالنبوة، وفي مثل سن يونس يغفر الله لهم بعض ما عملوه عن غير ترمّد وقصد جازم إلى المعصية» اه كلامه بالحرف.

(رأي اللجنة)

إن جاز أن يعلل حادثة تاريخية حدثت من أحاد الناس بمثل هذا التعليل - كأن يقول السبب في انهزام الجيش الفلاني أن قائده لم يكن قد مرّن على قيادة الجيوش. أو السبب في اختلال نظام الدولة الفلانية في عهد ملكها لأن ذلك الملك كان حديث السن لم يكن قد مرّن على إدارة المملكة - فلا يجوز قطعاً مثل هذا التعليل في حق الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذا ورد عن =

= واحد منهم ما يوهم تقصيراً، بل يجب أن يفهم ذلك على وجه لا يتنافى مع ما قام عليه البرهان القطعي من وجوب عصمتهم، خصوصاً في مقام تبليغ رسالة ربهم إلى الأمم التي أرسلوا إليها. ومن الواضح الذي لا يختلف فيه اثنان من المسلمين. أن الأنبياء والرسل ليسوا كأحد الناس، بل هم أفضل منهم جميعاً. لأنهم أنبياء الله ورسله اصطفاهم لهداية خلقه واختارهم لأداء رسالته، وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

فكيف يصح أن يقال بل كيف يصح أن يخطر على البال أو يمر على الخيال أن يونس عليه الصلاة والسلام لحدثاته في النبوة وعدم مرونة عليها وعلى واجباتها وأدائها خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع إعفاه من تلك المأمورية؟

ومعنى ذلك أن الله أرسله لقوم فترك تبليغهم الرسالة وفر هارباً في البلاد وظن لحدثاته في النبوة وعدم مرونة على واجباتها أنه بهروبه «كذا» قد يعفى من الرسالة نستغفرك اللهم وتوب إليك سبحانه هذا بهتان عظيم.

لا يصح أن يقال في حق أي شخص له شرف، كلف بأي مأمورية من أي رئيس، إلا في مقام الذم والاستهجان الذي يجب أن تنزه عنه ساحة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

لو جاز مثل هذا التعليل في حق يونس عليه الصلاة والسلام الذي ورد في شأنه عن النبي ﷺ: لا تفضلوني على يونس بن متى. أخرجه البخاري. ومثله في مسلم بمعناه - لجاز أن يقع نظيره من كل رسول. فإن كل واحد منهم في مبدأ رسالته يصح - على هذا الرأي - أن يقال إنه لم يكن قد مرّن على الرسالة فيجوز أن يترك تبليغ الأمة المرسل إليها بمجرد توهم لحوق «كذا» الأذى منهم أو لحوقه «كذا» منهم بالفعل. ولا نعتقد أن أحداً من المسلمين يجوز مثل هذا على أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام!

هذا ولا ندري السر في العدول عما قرره أئمة التفسير، فقد ذكروا في مغاضبة يونس عليه السلام التي حكاها الله تعالى بقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية قولين (الأول) أن مغاضبته لقومه الذين أرسل إليهم. وإنما غضب عليهم لعنادهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إليهم، فهجرهم بعد أن بلغهم الرسالة ويثس من إجابتهم لدعوته، لأنه لم يكن مأموراً بالبقاء معهم، لكن لما كان الأولى الصبر وعدم الخروج من عندهم حتى يؤذن له بذلك حصل له مما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ولكون ما وقع منه ليس ذنباً في الواقع بل تركاً للأولى - من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين - كان ما حصل له محفوفاً بالطفاف الهية ومقروناً بمعجزة باهرة.

(القول الثاني) أن مغاضبته هذه كانت قبل الرسالة وكانت للملك «حزقيل» كما قصه المؤلف في كتابه. ولما كان الأولى له الامتثال لتأديته هذا العمل الخيري وإن لم يكن مأموراً من قبل الله تعالى حصل ما حصل - كما سبق.

وأما ما نقل عن بعض أئمة التفسير كالحسن وابن جبير من أن المعنى «مغاضباً» الله تعالى فإنه يتبين تأويله على أن تكون اللام للتعليل، فيرجع إلى المعنى الأول والله أعلم.

هذا ما حققه أئمة التفسير، ومنه أن يونس عليه السلام لم يترك تبليغ رسالة ربه قبل الشروع في تنفيذها خشية عدم السماع له.

وعبارة المؤلف في تلخيص القصة تكاد تكون نصاً في هذا الرأي المخالف لما حققه أئمة التفسير، وهو الذي يناسبه تعليله السابق الذي أبطلناه، وهو رأي منقول عن اليهود، وقد أبطله أئمة التفسير. =

فكان الواجب عليه التحرز عن متابعة اليهود خصوصاً في مثل هذه الآراء التي لا تتناسب مع مقام الأنبياء. قال العلامة الألوسي: زعم اليهود أن الله أمر يونس أن يذهب إلى أهل «نينوى» وينذر أهلها فهرب إلى «ترشيش» من ذلك وانحدر إلى «يافا» ونزل في السفينة فعظمت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق. فافتزع أهلها فوقعت القرعة عليه. فرمى بنفسه إلى البحر فالتقمه الحوت ثم ألقاه وذهب إلى «نينوى» فكان ما كان!

ولا يخفى أن مثل هذا الهرب مما يجلب عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واليهود قوم بهت اه الألوسي والله أعلم.

رد المؤلف عليها

«الموضوع الخامس»

قصة يونس عليه الصلاة والسلام

يحتاج الرد على ما كتبه اللجنة في قصة يونس عليه السلام. وضبط القول فيه أن يقال: الاختلاف في هذا الباب يرجع إلى أقسام أربعة:

(أحدها) ما يقع في باب الاعتقاد (ثانيها) ما يقع في باب التبليغ (ثالثها) ما يقع في باب الأحكام والفتيا (رابعها) ما يقع في أفعالهم وسيرتهم.

القسم الأول: أما اعتقادهم الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عند أكثر الأمة. وقالت الفضلية من الخوارج: إنهم وقعت منهم الذنوب - والذنب عندهم كفر - فلا جرم قالوا بوقوع الكفر منهم. وأجازت الإمامية عليهم إظهار الكفر على سبيل التقية. ولا ارتضى قول الفضلية ولا الامامية.

القسم الثاني: هو ما يتعلق بالتبليغ؛ فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ، وأن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً ولا سهواً - وهو الحق - ومن الناس من جوز ذلك سهواً محتجين بأنه غير ممكن الاحتراز عنه، وليس بشيء.

القسم الثالث: وهو ما يتعلق بالفتيا؛ فقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز خطوهم فيه. وأما على سبيل السهو فجوزه بعضهم وأباه آخرون.

والذي أقوله أن النبي قد يجتهد في الحكم فيصيب اجتهداه الحكم الذي رضى الله للأمة وقد لا يصيبه. وحينئذ هو لا يقر عليه بل ينزل الله بيان الحكم الذي رضى؛ كما في شأن المرأة التي كانت تجادل رسول الله في زوجها وتشتكي إلى الله.

القسم الرابع: وهو الذي يقع في أفعالهم؛ قد اختلفت الأمة «في هذا القسم على خمسة أقوال:

(١) قول من جوز عليهم الكيثر على جهة العمد وهو قول الحشوية. (٢) قول من لا يجوز عليهم الكيثر؛ لكنه يجوز عليهم الصغائر على جهة العمد إلا ما ينفر كالكذب والتطفيف. وهذا قول أكثر المعتزلة. (٣)

أنهم لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد البتة، بل على جهة التأويل وهو قول الجبائي.

(٤) أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ، ولكنهم مأخوذون بما يقع منهم على هذه الجهة، وأن كان ذلك موضوعاً عن أممتهم، وذلك لأن معرفتهم أقوى ودلائلهم أكثر، وأنهم يقدررون من التحفظ

على ما لا يقدر عليه غيرهم. (٥) أنه لا يقع منهم الذنب لا الكبيرة ولا الصغيرة لا على سبيل القصد ولا

على سبيل السهو ولا على التأويل والخطأ. وهو مذهب الرافضة.

أما وقت العصمة فقد اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

- (١) ذهب قوم إلى أن الأنبياء معصومون من وقت مولدهم. وهو قول الرافضة.
- (٢) ذهب قوم إلى أنهم معصومون من وقت بلوغهم ولم يجوزوا عليهم ارتكاب الكفر والكبيرة قبل النبوة. وهو قول كثير من المعتزلة.
- (٣) ذهب قوم آخرون إلى أنه لا يجوز منهم ارتكاب شيء من ذلك وقت النبوة، أما قبل النبوة فجائز. قال الرازي وهو قول أكثر أصحابنا وقول أبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة.
- ومن أحب زيادة البيان فليرجع إلى صفحة ٣٩٧ وما بعدها من الجزء الأول من تفسير الفخر الرازي وفي صفحة ٢٦٣ وما بعدها من كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ما نصه: واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صفائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعتابون عليها أو لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً. عند القاضي أبي بكر وعند الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم.
- فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصفائر منهم. خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك. واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث وهذا ظاهر لا خفاء فيه.
- وقال جمهور من الفقهاء - من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي - إنهم معصومون من الصفائر كلها كعصمتهم من الكبائر. لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة. فلو جوزنا عليهم الصفائر لم يمكن الاقتداء بهم. إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القرية والإباحة أو الحظر والمعصية؛ ولا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمر لعله معصية لا سيما عند من يرى تقديم الفعل على القول - إذا تعارضاً - من الأصوليين.
- قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرائيني: واختلفوا في الصفائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم. وصار بعضهم إلى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة. وقال بعض المتأخرين - ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال: إنه تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك وارد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك أحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبها، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ أو النسيان أو التأويل وما إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس. فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع عملهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق.
- ولقد أحسن الجنيدي حيث قال «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كانت قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم. بل قد تلافاهم واجتباهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه اهـ.
- تلخص لنا مما تقدم أن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام معصومون من تعمد إتيان الذنب في حال النبوة، وأن الكبيرة لا يمكن أن يأتوا بها في هذه الحال وإنما تقع منهم الذنوب الصغيرة متأولين أو ناسين، وهذه تعتبر ذنباً في حقهم وإن كانت غير ذنوب على أمهم نظراً لما لهم من التميز من القرب من الله وزيادة معرفتهم به.

لما وصلت من الكتاب إلى قصة يونس عليه الصلاة والسلام وجدت الله تعالى يقول: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

ويقول: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٢) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٣﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٤﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢٦﴾ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴿فَبَدَّلَ بِالْعَمَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَأَنْتَنَّا عَلَيْهِ سَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٢٩﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَبَدُونَ ﴿١٣٠﴾ فَآمَنُوا فَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١٣٨) [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].

نظرت إلى ما قاله المفسرون فوجدتهم يذكرون أن يونس أرسله الله إلى مدينة فدعا أهلها إلى الله وطال عليه الأمد فخرج من بينهم بدون إذن من الله فكان له ما كان. ويزيد آخرون: إنه وعدهم العذاب يحل بهم بعد أربعين يوماً ومضت فلم يحل بهم فضاق بذلك الأمر ثم كان ما كان مما قصه الله في القرآن. ورأيت الله تعالى يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَبَدُونَ﴾ (١٣٧) [الصافات: ١٤٧] فجعل إيمانهم عقب إرساله إليهم - كما هي قضية الفاء للترتيب والتعقيب.

وعلى ذلك فلم يكن منهم صد أو إغراض عنه، وإنما كان ذلك الإرسال بعد التقام الحوت. ونظرت إلى وجه آخر مما قاله المفسرون وهو قولهم «إنه كان مغاضباً للملك حزقيل... الخ» وقد علم أهل التاريخ أنه لم يكن في بني إسرائيل ملك اسمه «حزقيل». وقالوا «إن ملكاً سبى من بني إسرائيل تسعة أسباط ونصف... إلى آخره» وبنو إسرائيل لم يسبوا إلا في زمن «بختنصر» وكان السبي ليس خاصاً بسبط دون سبط بل كان السبي منهم جميعاً ولم يرسل يونس ليختصر ولم يؤمن هو ولا قومه.

لذلك كله عدلت من هذه الأقوال التي لا حجة صحيحة للمفسرين فيها وقلت: «واللائق بالحق أن يقتصر في فهم القصة على ما نصه الكتاب الكريم فقط».

لما كان القرآن ينبئ عن إيمانهم عقب الرسالة كان حصول ذهابه إلى الفلك والتقام الحوت إياه حاصلًا قبل وصوله إليهم. فهذا هو الذي أملى عليّ أنه ذهب إلى الفلك عقب أمره بالذهاب إليهم. لا شك في أن ذهابه عنهم عقب أمره بالذهاب إليهم يكون جريمة منه ومعصية لا يمكن أن يأتيها مثل هذا النبي الكريم إلا متأولاً. إذ يحتمل أنه فهم أن الأمر غير جازم بل هو أمر إرشاد، ومخالفة أمر الإرشاد لا تستوجب ذنباً يستحق المخالف العقاب عليه. كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ففهم الأمر على هذا الوجه.

وقد رأيت الله تعالى نسب إلى يونس عليه السلام أموراً ثلاثة: (١) أنه أبق إلى الفلك المشحون، (٢) أنه ذهب مغاضباً، (٣) أنه ظن أن لن يقدر الله عليه.

وكل هذه الأمور إذا لم تصرف عن ظاهرها كانت ذنوباً إذا صدرت من الأحاد فكيف بنبي كريم؟. لذلك يجب تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠] أنه ذهب إليها ذهاب الآبق ولم يكن أبقاً يرجو أن يختفي عن عين سيده حتى يتعذر عليه رجعه إلى قبضته. حاشا وكلا أن يكون هذا (أولاً)... (ثانياً) يجب تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] بأنه لم يكن مغاضباً لله ولكنه أشفق من القوم الذين أمر بالذهاب إليهم وهم ليسوا له بأهل ولا عشيرة، وقد خشي =

أن يفرطوا عليه أو يطغوا أو ينالوه بالأذى، فذهب على وجهه يريد الابتعاد عن الجهة التي هم فيها، عالماً أن الله تعالى لن يعجزه أن يرسل إليهم نبياً آخر يكون أقدر على التلطف بهم وإقناعهم، وفي ذلك راحته من عنتهم وأمنه على نفسه منهم، وهو في ذلك يظن أنه لا يغضب الله تعالى وإن كان ذهابه على هيئة الغاضب. وغرضي من ذلك صرف لفظ ﴿مُغْضِبًا﴾ عن معناه، لأن مغاضبة الله لا يليق صدورها من نبي. فأولت ذلك إلى أن ذهابه على هيئة الغاضب وهو غير مغاضب.

وقد فسرت قوله تعالى ﴿أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ تفسيراً يتفق مع موقف الأنبياء من ربهم فصرفته عن المعنى المتبادر منه. وهو أنه ظن أنه يعجز الله ويفلت من قبضة قدرته إلى تفسير يتفق مع عقيدة الأنبياء في الله تعالى. وهو أنه تعالى لن يعجزه شيء من الممكنات، وصرفت ظاهر اللفظ إلى معنى التضييق كما في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنِي﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيق عليه رزقه، وبينت أن هذا المعنى تساعد عليه رواية، ﴿تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] بتشديد الدال المكسورة وقد جاء ذلك في تفسير البيضاوي الذي نقلته. ومن ذلك يجد القارئ الكريم أنني لم أقل في يونس رسول الله ﷺ إلا كل خير ولم أنسب إليه أمراً لا يليق.

وإنما عدلت عن الأقوال التي قالها المفسرون، لأن بعضها ليس له حقيقة وبعضها لا يتفق مع ظاهر القرآن الكريم كما قدمت.

يوجد فرق كبير في الرأي بيني وبين حضرات أصحاب الفضيلة في شأن أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - قد لاحظته في أثناء قراءتي لنقدهم كتابي.

ذلك أن حضراتهم يرون أن الأنبياء يفرغ الله عليهم كل كمال بمجرد النبوة، فلا يصدر عنهم أي عمل يوجه إليهم بسببه أي عتاب أو لوم، وأنهم من حين النبوة وبمجرد جعل الله تعالى لهم من أهلها صاروا بطبيعتهم مستغنيين عن إرشاد الله وتعليمه أيهم وتبصيره لهم أموراً لا يعلمونها وتسديده إياهم إلى الصواب. فهم ينزهونهم عن كل شيء مما هو من هذا بسبيل.

أما هذا الضعيف فيعتقد أن الأنبياء في حال النبوة معصومون عن كبائر الذنوب وعن تعمد إتيان الصغائر منها. وإذا صدر عنهم ذنب من الصغائر فإنما يكون عن تأويل لأمر الله تعالى أو عن خطأ أو نسيان - مما حط الذنب فيه عن أمهم - ولكنهم يؤاخذون به صلوات الله عليهم لكمال معرفتهم بالله تعالى وقربهم منه قريباً معنوياً. فالتحفظ من الذنب لهم ألزم فعدت عليهم تلك الأشياء ذنباً وهي غير ذنوب كما يقول القرطبي «قد يؤاخذ الوزير على ما يثاب عليه السائس» واعتقادي أن محمداً رسول الله ﷺ كانت معرفته بالله ووقوفه عند محابه تعالى وعدم تخطيها في أخريات أيامه أكمل وأعلى من معرفته به تعالى في أول نبوته. فقد جاء في الأخبار أنه كان يحاول التردى من الجبال، وكان لا يسكنه عن ذلك إلا أن يرى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض يقول له يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فهذا ضرب من تعليم الله له وصدده عما كان بصدد أن يأتيه.

كذلك كان رسول الله ﷺ يضيق صدره بما تقول قريش ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] فكان لذلك يشغل عليه أن يبلغهم ما يوحى الله به إليه مما يكرهون. ولذلك قال الله تعالى له: ﴿فَلَمَّا كُنَتْ نَارُكَ بِقَعْصٍ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ يَوْمٍ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

ويشبه ذلك أيضاً مسألة أخرى - وهي أنه ﷺ لما أعلمه الله وأمره أن يتزوج من «زينب بنت جحش» متى طلقها زيد وانقضت عدتها منه. وجاء زيد إلى رسول الله ﷺ يعلمه أنه يريد طلاق زينب قائلاً «يا=

إن ما ذكرته في كتابي عن يونس لم يعد أن يكون كقول موسى لربه حين أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله وأرسال بني إسرائيل ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٢﴾ وَضَيْقٌ صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣] فهذا من موسى نقص من الرسالة في أول موقف له مع الله. ولو كان موسى قد مضى =

تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] إلخ وذكر بوصفه أيضاً في سورة القلم في قوله تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُتُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] ولم يعلم من نسبه في كتب التفسير والحديث إلا أنه «يونس بن متى» ويقول أهل الكتاب إنه «يunan بن أمتاي».

والظاهر من أمره أنه من اليهود ويوجد ببلد اسمه «حلهول» قرب مدينة الخليل في فلسطين قبر يقال إنه قبر (يونس) وبمكان غير بعيد عند قبر آخر يقال إنه قبر «متى».

وقد ذكرت قصة يونس في سورتي الأنبياء والصفافات؛ وقد ذكر المفسرون لقصته حكايات ووجوها كلها من الإسرائيليات، وبعضها يخالف ظاهر القرآن الكريم، وقد أطلوا ما شئت لهم الإطالة وتفننوا ما امتد بهم التفنن! والذي يهمهم أن يقف على أقوالهم يمكنه أن يراجعها في أمكتنها.

اقرأوا هذه الآيات:

عليه وقت في النبوة وعرف أحوالها وشؤون الأنبياء مع الله لما قال ذلك. ولعلم أن هذا الشرف لا ينبغي أن يقابل بما قاله. وكذلك حين ألقى العصا فرأها تهتز كأنها جان ولى مديراً ولم يعقب. فقال الله تعالى ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمَرْسُوتِ﴾ [النمل: ١٠] فهذه المقالة تعليم من الله له ما لا يعلمه من شأن رسل الله تعالى.

ومن هذا القبيل ما أورده الطبري بسنده في تاريخه من أن رسول الله ﷺ لما هب من نومه حافظاً لقوله تعالى ﴿أَفَرَأَىٰ بِأَسْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾... إلى آخره [العلق: ١] فكر في نفسه وقال (الأبعد شاعر أو مجنون) وكان أكره شيء إلى نفسه أن يرى شاعراً أو مجنوناً، وخشي أن تتحدث قريش عنه بأنه شاعر أو مجنون فخطر له أن يذهب فيتردى من حالق من الجبل. فلما ذهب لتنفيذ ما عزم عليه نظر في السماء فإذا شخص صاف قدميه يناديه «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل» فكلما حول وجهه في ناحية من السماء وجده يناديه ويقول له ذلك، فصرفه ذلك عن تنفيذ ما اعتزم عليه فرجع إلى خديجة وقال لها «لقد خشيت على نفسي».

فكيف حدثته نفسه بالتردي بعدما جاءه الوحي؟ أليس ذلك يعد هزباً من الرسالة! وهل كان يحدث منه ذلك بعد أن تتابع الوحي ومضى عليه زمن يؤدي فيه رسالة الله؟.

جعل البخاري هذه الحادثة بعد أن فتر الوحي وأن رسول الله ﷺ قد هم مراراً بالتردي من الجبل وما كان يصده عن تنفيذ ذلك إلا تبدي جبريل له وقوله له في كل مرة «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل» ولو كان رسول الله ﷺ قد علم أحوال النبوة وكل شيء من أحوال الأنبياء بالنسبة إلى الله لما كان في احتياج إلى أن يعرفه «ورقة بن نوفل» أن الذي رآه إنما هو الناموس الأكبر الذي كان ينزل على موسى.

بما تقدم يعلم القارئ الكريم إنني لم أقارف إثماً في جنب نبي الله يونس بن متى، وإن كلامي له وجه صحيح لا غبار عليه. وكلام اللجنة تأثيم لي بغير سلطان أنهم وبغير بينة ولا هدى ولا كتاب منير.

سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ .

فهذه الآية تفيد بصريح العبارة أن الأمم الغابرة كانوا يعاندون ويصرون على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان، ولم ينج من هذا إلا القوم الذين أرسل إليهم يونس فإنهم أجابوه إلى الإيمان، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم الله إلى حين .

سورة الأنبياء: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَلَمْ يَأْنِ لَهُ تَقْدِيرٌ عَلَيْهِ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمْرِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

فلمن كان يونس مغاضباً؟ وكيف يظن أن لن يقدر الله عليه، وهو نبي كريم لا يمكن أن يسيء الظن بالله فيجول في نفسه أن قدرة الله تعجز عن تناوله؟ .
يقول بعض المفسرين: إنه كان مغاضباً لربه ولذلك استوجب إدحاضه والتقام الحوت له .

وهذا القول ينافي العصمة . ويوجب جهله وقدرته جهلاً لا يعذر فيه أحد السوق فضلاً عن نبي كريم - والذي أقوله إنه لم يكن مغاضباً لله حقيقة ولكنه ذهب بهيئة المغاضب وإلا فيونس أجل من ذلك - وقال آخرون من المفسرين : إنه كان مغاضباً لقومه الذين أرسل إليهم لإبطائهم عن تلبية دعوته والدخول فيما دعاهم إليه من الإيمان .
لكن كيف يترتب على هذه المغاضبة أن الله تعالى يمتحنه بالإلقاء في اليم والتقام الحوت . حين أن مغاضبته لقومه إنما كانت لله وفي الله؟ .

قد يقولون إن معاقبته إنما كانت بسبب أنه لم ينتظر أمر الله بمفارقتهم . وجوابي على ذلك أن الله ينص على بقاءه معهم - آمنوا أو أضروا على كفرهم - حتى يكون انصرافه عنهم موجباً لا بتلائه وليس في القرآن نص على ذلك ولا إشارة نص .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول - بعد أن قص قصته بأنه أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين والتقمه الحوت وهو مليم ولولا أنه كان من المسيحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون - وأن الله نبذه بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين . بعد هذا كله ذكر تعالى أنه أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا . فهذه الآيات تدل على أن الإرسال كان بعد ذهابه مغاضباً وأنه أبق إلى الفلك . ثم كان من المدحضين والتقمه الحوت . ثم دعا الله فجعل الحوت يلفظه وأنبت عليه اليقطينة . ثم أرسله إلى أهل القرية

التي أمره الله بالذهاب إليها فأمّنوا. ولم يكن بين دعوتهم إلى الإيمان وبين تلبيتهم دعوته فرجة يذهب فيها مغاضباً؛ بعد أن تقدمت المغاضبة، ولقي جزاءه عليها، فأصحاب هذا الفرض يناقضون الكتاب ويخالفون ما يدل عليه ظاهره بدون داع لذلك.

وأما ما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فتأويله: ظن أن لن نضيق عليه أي ظن أننا نوسع عليه في الذهاب عن القوم الذين أرسل إليهم ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة الله تعالى إليهم. بدليل قراءة التشديد ﴿نَقْدِرُ﴾ وبذلك يندفع الاعتراض.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة الصافات: ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى بَاقَةِ آلَافٍ أَوْ زَبَدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ .

ومعنى اللبث في بطنه أنه لا يخرج منه حياً، لا أنه يبقى حياً إلى يوم البعث ثم يخرج لذلك.

والذي تلخص لي من أمر يونس على ضوء ما جاء في الكتاب الكريم أن يونس عليه السلام أمره الله بالذهاب إلى قوم ليسوا من عشيرته ولا من بلده ويقول بعض المفسرين إنهم أهل نينوى، فخشي أن ينالوه بالأذى لأنه ليس بذي عصبية بينهم تقوم بنصره ومنعه، وتأول الأمر على أنه أمر إرشاد - كما تأول الفقهاء عندنا الأمر بكتابة الدين أنه أمر إرشاد - وظن أن الله تعالى لن يضيق عليه ولن يلزمه بالذهاب إليهم، وأنه تعالى ليس بمسبوق على أن يرسل إليهم من هو أشد منه قوة وأنفذ قولاً بينهم، فذهب ليبتعد عن ناحيتهم، فأوى إلى الفلك المشحون فكان ما كان من اضطراب الفلك، حتى اضطرب أهله إلى أن يساهموا على من يلقي في البحر من الركاب فخر سهمه إلى أن كان من المدحضين. وقبض الله حوتاً لعله «قيطس» لالتهامه فمكث في بطنه ما شاء الله أن يمكث - مما لا أعرض لتحديد، فأقول لفظه كما ابتلعه أو مكث في بطنه ثلاثاً أو سبعاً أو أكثر أو أقل. فنبذ بالعراء وهو سقيم. وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين، فلما فرح بها وارتفق بقيتها سلط الله عليها حيواناً قارصاً فأكل أصلها ولفحتها ريح السموم فذوت وشق ذلك على نفسه. فأفهمه الله أنه قد ناله الأسف على يقطينة ليس لها شأن وقد اهتم بها. أفلا يهتم الله

تعالى ويوجه عنايته إلى قرية فيها أكثر من مائة ألف يريد إنقاذهم من ضلالهم وقيهم نزول الغضب بهم، ثم أرسله إليهم فآمنوا.

وفي اعتقادي أن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته، ولم يكن قد مرّن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها. لأن العلم بذلك يستدعي مدة وتكرّر الوحي والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحي وتلقيه، فحدثته في النبوة هي التي خيلت إليه ما قلنا من أنه خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع إعفاه من تلك المأمورية. أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن. فقد أورد الألوسي في تفسيره: أن سنه كانت ثمانياً وعشرين سنة. ومن كان حديث العهد بالنبوة وفي مثل سن يونس يغتفر الله تعالى لهم بعض ما عملوه عن غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية.

يونس عليه السلام عند أهل الكتاب

يسمى يونس عليه السلام عند أهل الكتاب «يوان بن أمّتي» وله كتاب في ضمن الكتب القانونية التي قبلتها الكنيسة. وكتابه يقع في أربعة إصحاحات «فصول».

ومضمونه أن الله أمر يوان أن يذهب إلى «نينوى» لأن شرهم قد كثر. فقام يوان ليهرب إلى «ترشيش» من وجه الرب فنزل إلى «يافا» ووجد سفينة ذاهبة إلى «ترشيش» فنزل بعد أن دفع الأجر. فأرسل الله ريحاً شديدة فحصل نوء عظيم حتى كادت السفينة تغرق ويهلك من فيها. وكان كل واحد ينادي إلهه ويوان نائم في قاع السفينة فأيقظوه. وعملوا قرعة لمعرفة من كان سبباً في غضب الله فخرجت القرعة عليه، وحدثهم بقصته وأرادوا الرجوع إلى الساحل فلم يقدرُوا، فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله، فألقوه فالتقمه حوت عظيم وسكن هيجان البحر عن القوم. فدعا «يوان» إلهه من جوف الحوت وتضرع واستغاث وظل على ذلك ثلاثة أيام وثلاث ليالي. ثم لفظه الحوت بالساحل ثم أمره الله أن يذهب إلى «نينوى» فذهب وأوحى إليه أن ينادي بأن نينوى ستهلك بأن تنقلب على أهلها بعد أربعين يوماً. فآمن أهل نينوى بالله وصلّوا وصاموا وتضرعوا إلى الله وأنبأوا. وبلغ الأمر «ملك نينوى» ففعل مثل أهل مملكته وأمر بفصل صغار البهائم عن أمهاتها والحيلولة بين الدواب والعلف والماء.

ولما مضت الأربعون لم يحصل لأهل نينوى شيء مما أُنذروا به. فاغتم يوان لأن وعيده لم يتحقق فخرج من المدينة واتخذ لنفسه كئاً يكون فيه. فأنبأ الله عليه يقطينة فأسرعت في النمو وأظلت كئّه بأوراقها ففرح بها، وفي اليوم الثاني سلط الله عليها دودة فأكلت أصلها وهبت عليها ريح حارة فجففتها. فاغتاظ يوان وقال «موتي خير من حياتي»

فأوحى الله إليه . هل اغتظت من أجل اليقطينة؟ فقال «اغتظت بالصواب حتى الموت» فقال الله له : أشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا رببتها التي بنت ليلة نبتت وبنت ليلة هلكت أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة؟

هذا مجمل لما جاء في كتاب يونان - والحق ما جاء في القرآن الكريم .

آيات عامة

بما نزل - على الأمم الخالية - من العذاب لما كذبوا رسلهم

سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِآبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيَنَاءٍ وَهُمْ لَا يُمِنُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمَنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ۝

سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ۝

سورة هود: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ۝

ومنها أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ مِن أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٣٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءِلَٰهَهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ

وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيْبٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾

سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ لِئِتِبَتْ لَهُمْ فِضْلُ اللَّهِ مِنْ شِئَاءٍ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْبَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا أَنذَرُكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ .

سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ .

سورة الحج: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤١﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٢﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٣﴾ فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِیَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَثِرُ مَغَطِلَةٌ فَوَصَّرَ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

سورة الفرقان: ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرِ السَّوْءِ أَقْلَمٌ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْكًَا ﴿٤٠﴾﴾ .

سورة الشعراء: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنْذِرُونُ ﴿٢٨﴾ ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .
سورة العنكبوت: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَفُتُورٌ وَفُتُورٌ وَهَمَزٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيتِينَ ﴿٢٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ

وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ .

سورة فاطر: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٢﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾﴾ .

سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا بِتَقْوَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٠﴾ مِثْلَ دَابِ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢١﴾﴾ .

سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ
الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعْدِ اللَّهِ ﴿١٤﴾﴾ .

سورة الحاقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ﴿١﴾ فَأَتَاهُمُ ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢﴾ وَأَمَّا عَادُ
فَأَمْلِكُوا بِرِجِّ يَمَامٍ ﴿٣﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَلَينَةٍ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرَخُوا كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ مُتَخَلِّفَاتٍ فَارِجَاتٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِ
بِالْحَاطَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ .

سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي
الْعَالَمِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ .

آيات عامة

ذكر فيها بعض أسماء الأنبياء والمرسلين إجمالاً

سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ .

سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ .

سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَدَاوُدَ وَزَكَرِيَّا ﴿١٣١﴾ وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٣٢﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾﴾ .

سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا نَفَّضْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ .

سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ .

سورة ص: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا اخْتَلَصْنَاهُمْ خِالَصَةً ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ .

زكريّا عليه السّلام

ذكر زكريا في القرآن الكريم ثمان مرات «في الآيتين ٣٧ و ٣٨ من آل عمران. وفي آية ٨٥ من الأنعام. وفي الآيتين ٢ و ٧ مريم وفي آية ٨٩ من الأنبياء».

وذكر يحيى «في ٣٩ آل عمران. وفي ٨٥ الأنعام. وفي ٧ و ١٢ مريم. وفي ٩٠ الأنبياء» لم يذكر نسب زكريا في القرآن ولا في كتب الأنبياء عند أهل الكتاب.

ويوجد زكريا - آخر - ليس له قصة في القرآن أصلاً. وهذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى. وهو «زكريا بن برخيا» وكان في زمن داريوس أي قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون وهو الذي تكلم في كتابه في الفصل التاسع عن ولاية «عمر بن الخطاب» وغلبه على «أورشليم» ودخله إليها منصوراً وادعاً راكباً على حمار.

والنصارى يؤولونه بالمسيح. واليهود يؤولونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال.

أما زكريا أبو يحيى فيظهر أنه كان ممن لهم شركة في خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو «لاوي».

وسأتي أن امرأة عمران - والددة مريم - لما نذرتها لخدمة الهيكل جاءت بها إلى خدام الهيكل فكل واحد منهم أراد أن يكفلها وألقوا قرعة على ذلك، فكانت مريم نصيب زكريا فقام بأمرها كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] وقد أشار القرآن الكريم إلى القرعة في شأنها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

كان زكريا زوجاً لخالة «مريم» والتعبير بابني الخالة في حديث المعراج فيه تجوز على ذلك. يسألها ﴿يَمْرَيْمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فتقول ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

كان زكريا قد بلغ من الكبر عتياً واشتعل رأسه شيباً وامراته عاقراً لا تلد، وبلغ درجة اليأس من أن يكون له ولد. وكان يخشى على بني إسرائيل أن يبتلوا بمواليه الذين يلون الرياسة فيهم بعده لما يعلم من حالهم وعدم استمسакهم بالشرعية. فحفزه ما يراه من

إكرام الله تعالى لمريم على أن يطرق باب الدعاء لله ليرزقه ذرية ليذهب من الدنيا مطمئناً. وكان يناجي ربه بما في نفسه. ﴿فَتَادَّتُهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] لا يأتي النساء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] فراجع زكريّا قائلاً ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. فقبل له ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] فسأل الله آية على أن ذلك سيكون. وأعلمه الله أن آية ذلك أن يعجز عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام لا يكلمهم إلا رمزاً، وكان ذلك.

وحملت زوجه بيحيى - ولعل والد زكريّا كان اسمه «برخيا» أيضاً. لأنه جاء في إنجيل برنابا أن المسيح قال لليهود: ستأتي عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريّا بن برخيا - الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح - ويذكر المفسرون أن زكريّا والد يحيى قتل في الحادث الذي قتل فيه ابنه.

يحيى عليه السلام

كان حمل زوجة زكريا - ويقول أهل الكتاب أن اسمها «اليسابات» - في الزمن الذي كانت مريم حاملاً فيه بعيسى - وولد «يحيى» وليس لدينا ولا لدى أهل الكتاب شيء عن طفولته، غير أنهم يقولون إنه كان يأوي إلى البرية ويأكل جراداً وعسلأً برياً.

كان «يحيى» بارعاً في الشريعة الموسوية ومرجعاً مهماً لكل من يستفتي في أحكامها. وكان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ يقال لها «هيروديا» بارعة الجمال. أراد عمها أن يتزوج منها. وكانت البنت وأمها تريدان ذلك، غير أن يحيى لم يرض عن هذا الزواج لأنه محرم. وعرف عنه أنه معارض في ذلك. فانتهزت أم الفتاة إخراج فتاتها إلى عمها - في زينتها - ورقصت أمامه فسر منها وطلب إليها أن تقول ما تتمناه ليعمله لها. وكانت أمها لقنتها أنها - إذا قال لها عمها ذلك - تطلب منه رأس يحيى ابن زكريا في هذا الطبق، ففعلت ووفى لها عمها الحاكم بذلك وقتل يحيى.

واليهود يختلفون في مسألة التزوج ببنت الأخ وبنت الأخت فيجيزها «الربانيون» ويمنعها «القراؤون» وحجة الأولين أن بنت الأخت وبنت الأخ لم تذكر حرمتها في التوراة.

وقد كان يحيى على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه، وقد قال الله تعالى فيه ﴿وَأَتَيْنَهُ الْخُكُمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] والظاهر أن الله تعالى رزقه الإقبال على معرفة الشريعة حتى صار عالماً بها في صباه - وقد نبىء قبل أن يبلغ الثلاثين - وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يعمدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، وقد اعتمد منه المسيح وهم يسمونه «يوحنا المعمدان» وقد سئل من اليهود هل هو المسيح؟ فأجاب: أن لا. فسئل هل هو النبي؟ فأجاب: أن لا. فقالوا له: لماذا تعمد إذا لم تكن المسيح ولا النبي؟ فقال: أنا صوت صارخ في البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة.

وبذلك انتهى شأن يحيى عليه السلام.

ولما بلغ المسيح أن يحيى قد قتل، جهر بدعوته وقام في الناس واعظاً.

اقرأ الآيات الآتية:

سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ لَدُكُمُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا بُنَاتًا حَسَنًا وَوَضَعَهَا زَكْرِيَّا ۖ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ۖ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ عَاقِرٌ فَقَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِّحْ بِالْعُسْرِ وَالْإِنْبَكْرِ ۝٤١﴾ .

سورة مريم: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝١﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ۝٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٣﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٤﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٥﴾ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٦﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٧﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰذَا ۖ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ۝٨﴾ أَجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ عَاقِرٌ فَقَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِّحْ بِالْعُسْرِ وَالْإِنْبَكْرِ ۝٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ عَاقِرٌ فَقَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِّحْ بِالْعُسْرِ وَالْإِنْبَكْرِ ۝١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا ۝١١﴾ يَبِيحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتِنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ .

سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِغُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ۝٩٠﴾ .

عيسى عليه السلام

جدول أرقام الآيات التي ذكر فيها عيسى عليه السلام - نسب المسيح عند النصارى - نسب المسيح في إنجيل متى - نسب المسيح في إنجيل لوقا - مريم بنت عمران - تبشير مريم بعيسى - حملها بالمسيح وولادتها إياه - إنباء الملاك «جبريل» يوسف بحبل العذراء مريم - مريم تفكر في أمرها - ختان المسيح - المجوس ويسوع - ذهاب يوسف ومريم بالمسيح إلى مصر - المسيح أيام صباه - يسوع يحتاج العلماء - كيف ابتدأت نبوة المسيح - يسوع وهو ابن الثلاثين يتلقى على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك جبريل - نبوة المسيح على رأس ثلاثين سنة - معنى كلمة الإنجيل - المهمة التي جاء لها المسيح - الأناجيل الموجودة الآن - إنجيل برنابا - الحواريون - تنبيه معجزات عيسى عليه السلام - خاتمة أمر المسيح - دقيقة ينبغي التنبه لها - الشبه والاشتباه - اليهود وصلب المسيح - خاتمه شأن المسيح عند النصارى - عقيدة الصلب والفداء وثنية - الأناجيل وصلب المسيح - بعد القبض على يسوع - قيام المسيح من القبر - المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله - حجة المسيحيين في إلهية المسيح - الثالث - ابن - روح - موقف للمسيح لم يذكر في القرآن - موقف للمسيح في اليوم الآخر .

هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . وهو آخر أنبياء الله ورسوله من بني إسرائيل؛ كما أن آخر الأنبياء والرسل من بني الإنسان جميعاً محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ذكر اسمه في القرآن بلفظ «المسيح» تارة وهو لقب له وبلفظ «عيسى» وهو اسمه العلمي - وهو بالعبرية «يشوع» أي المخلص، إشارة إلى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم - وبكنيته «ابن مريم» تارة أخرى .

ومن الجدول الآتي تبين أنه ذكر في ثلاث عشرة سورة في القرآن الكريم في ثلاث وثلاثين آية منه - وسيأتي ذلك - وهاكم الجدول بذلك :

جدول أرقام الآيات التي ذكر فيها سيدنا عيسى عليه السلام

اسم السورة	رقم السورة	عدد الآيات	أرقام الآيات	المسيح	عيسى	ابن مريم
البقرة	٢	٣	٨٧	-	-	-
			١٣٦	-	-	-
			٢٥٣	-	-	-
آل عمران	٣	٥	٤٥	-	-	-
			٥٢	-	-	-
			٥٥	-	-	-
			٥٩	-	-	-
			٨٤	-	-	-
النساء	٤	٤	١٥٧	-	-	-
			١٦٣	-	-	-
			١٧١	-	-	-
			١٧٢	-	-	-
المائدة	٥	٩	١٧	٢	٢	٢
			٤٦	-	-	-
			٧٢	٢	-	-
			٧٥	-	-	-
			٧٨	-	-	-
			١١٠	-	-	-
			١١٢	-	-	-

اسم السورة	رقم السورة	عدد الآيات	أرقام الآيات	المسيح	عيسى	ابن مريم
-	-	-	١١٤	-	-	-
-	-	-	١١٦	-	-	-
الأنعام	٦	١	٨٥	-	-	-
التوبة	٩	٢	٣٠	-	-	-
-	-	-	٣١	-	-	-
مريم	١٩	١	٣٤	-	-	-
المؤمنون	٢٣	١	٥٠	-	-	-
الأحزاب	٣٣	١	٧	-	-	-
الشورى	٤٢	١	١٣	-	-	-
الزخرف	٤٣	٢	٥٧	-	-	-
-	-	-	٦٣	-	-	-
الحديد	٥٧	١	٢٧	-	-	-
الصف	٦١	٢	٦	-	-	-
-	-	-	١٤	-	-	-
١٣		٣٣		١١	٢٥	٢٣

ملاحظة: الآية المؤشر أمامها بعلامة - تدل على أن الاسم ذكر في الآية مرة واحدة والمؤشر أمامها بعدد ٢ تدل على أن الاسم ذكر فيها مرتين.

نسب المسيح عند النصارى

إن النصارى إذا ذكروا نسب المسيح فإنما يذكرون نسب «يوسف النجار» بناء على أن المسيح كان يدعى يسوع بن يوسف النجار.

أما يوسف النجار فهو شاب صالح من شباب اليهود - من قوم مريم - ويقول لوقا «في الإصحاح الأول في الفقرة ٢٧ من إنجيله» إنه من بيت داود. وكانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن تحمل بالمسيح ولما وجدت حاملاً أسر في نفسه أن يتركها ولا يشهر بها، لأنه كان باراً. فأمر في منامه بإمسакها لأنها بريئة من الدنس «متى ص ١ - ٢٠».

ونشأ يسوع «عيسى» وهو مشهور بأنه ابن يوسف النجار. ويقول «برنابا» إن مريم اتخذت يوسف النجار عشيراً لها من حين أحست بالحمل.

أقول: وهذه العادة - عادة اتخاذ العشير - موجودة في اليهود إلى اليوم. يأتي الشاب إلى أهل الفتاة ويخطبها. وحينئذ يتعاشران بدون اتصال زوجي وبقيمان على ذلك مدة كافية، حتى إذا رضيت أخلاقه ورضيها أتم الزواج ودخل بها وعاشرها معاشرة الأزواج وإذا لم يرض أحدهما أخلاق الآخر فسخت الخطبة وذهب كل منهما لسبيله. كل ذلك ولا يكون بينهما اتصال زوجي أصلاً إلى أن يتم الزواج -.

وقد اختلف المسيحيون في نسب المسيح - الذي هو نسب يوسف النجار - اختلافاً ظاهراً لا مفر للمطلع عليه من الحكم بتناقض كل من «متى» و «لوقا» في ذلك النسب، وهما المنفردان بذكره من بين سائر من كتبوا الأناجيل.

نسب المسيح في إنجيل متى

يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب بن متان بن اليعازر بن اليهود بن أخيم بن صادق ابن عازور بن الياقيم بن بيهود بن زربابل بن شلتائيل بن يكنيا بن يوشيا بن أمون بن منسا ابن حزقيا بن أحاز بن يوثام بن عزيان بن يورام بن يهوشافط بن آسيا بن ألبا بن رحبعام بن سليمان بن داود بن يسي بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن آرام ابن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

نسب المسيح في إنجيل لوقا

يسوع بن يوسف النجار بن هالي بن لاوي بن ملكي بن ينا بن يوسف بن متاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حسلي بن نجاي بن ماث بن متاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا ابن يوحنا بن ريسا بن زربابل بن شلتائيل بن نيري بن ملكي بن أدي بن قصم بن الموادم

ابن عير ابن يوسي بن اليعازر بن يوريم بن مثنان بن لاوي بن شمعون بن يهوذا بن يوسف ابن يونان ابن الياقيم بن مليان بن ناثنان بن داود بن يسي بن عوييد بن بوعز بن سلمون بن نخشون بن عمينا داب بن آرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

إذا قارنا بين النسبين وجدنا (١) متى يقول: إن يوسف بن يعقوب. ولوقا يقول: يوسف ابن هالي (٢) متى يقول: إن المسيح من أولاد سليمان بن داود. ولوقا يقول: إنه من أولاد ناثنان بن داود (٣) متى يقول: إن آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون. ولوقا يخالفه ويذكر أنهم ليسوا سلاطين ولا غير مشهورين غير داود وناثنان (٤) ذكر متى: أن شلتائيل بن يكنيا. ولوقا يقول: إنه ابن نيري (٥) يقول متى: إن ابن زربابل أبيهود. ويقول لوقا: إن اسمه ريسا مع أن أسماء بني زربابل مكتوبة في الإصحاح الثالث عشر من السفر الأول من أخبار الأيام، وليس في أسمائهم أبيهود ولا ريسا (٦) يقول متى: إن بين داود والمسيح ستة عشر جيلاً. ويقول لوقا: إن بينهما واحداً وأربعين جيلاً.

وهو تخالف لا مبرر له سوى أنهم يكتبون بلا تحقيق وكل محاولة للجمع بينهما فاشلة.

أما مريم عليها السلام فقد ذكرت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة «في سورة آل عمران في الآيات: ٣٦ و٤٢ و٤٣ و٤٤ وفي سورة مريم في آية ١٦ و٢٧ وفي سورة المؤمنون آية خمسين وفي سورة الزخرف آية ٥٧ وفي سورة التحريم آية ١٢ وفي سورة النساء آية ١٥٦».

وقد ذكرت بدون اسمها العلمي في قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقد ذكرت قصة المسيح في القرآن متعددة منها ما حصل في هذا العالم، ومنها ما هو مزعم أن يقع يوم الدين وسيأتي ذلك كله.

ولما كانت مريم أم عيسى متقدمة عليه في الوجود - كان وجودها وأحوالها إرهاباً بوجوده وما ينتظر أن يكون منه - أحببنا تقديم قصصها ومواقفها قبل الكلام على مواقف ابنها عيسى عليه السلام.

مريم بنت عمران

كان عمران أبو مريم رجلاً عظيماً بين العلماء في بني إسرائيل، وقد حملت زوجته

فندرت أن تجعل ما في بطنها من الحمل محرراً لخدمة الهيكل. فلما وضعت تبينت أن الجنين الذي انفصل منها أنثى. وكانت ترجو أن يكون ذكراً ليعلم في بيت الله، فتوجهت إلى الله تعالى كالمعتذرة أو الأسفة قائلة ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن لَّا دُرِّيْتَ إِلَّا لَأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] ولكن الله تعالى تقبل تلك المولودة بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً.

والظاهر أن عمران قد توفي وابنته صغيرة تحتاج إلى من يكفلها ويقوم بشأنها، فلما قدمتها أمها إلى رعاة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، وألقوا على ذلك قرعة: فكان الكافل لها «زكرياء» والد يحيى عليه السلام - كما قدما.

كان زكريا زوجاً لخالة مريم. وفي أثناء رعايته لمريم كان يجد عندها رزقاً من رزق الله! يأتيها به ولا وجود له عند الناس في ذلك الوقت، فيسألها قائلاً ﴿يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فتجيبه قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكانت ملائكة الله تعالى تأتي إلى مريم وتخبرها باصطفاء الله تعالى وإجابته إياها وتطهيرها من الأرجاس والأدناس، وتحثها على الاجتهاد في العبادة والقنوت لله. هكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس ودامت على ذلك.

اقرأوا هذه الآيات: -

سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن لَّا دُرِّيْتَ إِلَّا لَأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَأَهَا نَبَأًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا اقْنِي لِلرَّبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَهْلُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

تبشير مريم بعيسى

نشأت مريم نشأة طهر وعفاف وبعد عن الإسفاف إلى رذيلة، مكلوءة بعناية الله محروسة بحراسته، فلما بلغت مبلغ النساء وجدت وقتاً في خلوة وحدها، فلم ترع إلا بالملك جبريل الذي أرسله الله إليها جاءها على صورة فتى، فأخذها الرعب وظنته يريد بها سوءاً فاستعادت منه ووصفته بعدم التقوى قائلة ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] والذي أميل إليه أن (إن) نافية. فأعلمها أنه مرسل من الله تعالى ليهب لها غلاماً زكياً. فأخذها العجب من ذلك إذ كيف يكون لها ولد وهي لم يمسه أحد من الناس؟ فهون عليها الأمر وأحال على قدرة الله تعالى وهو الإله الذي لا يعجزه شيء، ونفخ في جيب درعها فإذا هي حامل .

وفي بعض الآيات عبر الله عن الروح الذي جاءها «بالملائكة» بلفظ الجمع: والجمع ليس مقصوداً ولكن المقصود أن الذي كلمها كان من ذلك الصنف من خلق الله بدليل قوله بعد ذلك ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ [مريم: ٢١] بالافراد .

وكان فيما أخبرها به: أن ابنها يسمى المسيح عيسى ابن مريم وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة وأنه يكون من المقربين؛ وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً، للإشارة إلى أنه يكلمهم في المهد بكلام إنما يصدر مثله ممن كان كهلاً، وأن الله تعالى سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه الإنجيل أي البشارة، وأنه سيكون آية للناس على قدرة الله تعالى ورحمة منه لعباده إذ نصب لهم به سبيل الخلاص مما هم فيه من أحوال يتركسون فيها. إذ كان اليهود قد صاروا إلى المادية وتجاوزوا حدود الله ولم يراعوا كتابه، فأحلوا حرامه وحرّموا حلاله، فجاء لهدايتهم وردهم عن ضلالهم.

والمسيح - في العبرية - يطلق بالاشتراك على النبي والملك. وليس المراد أنه سيصير ملكاً على بني إسرائيل. بل هو اسم كما تسمي ولدك: سلطاناً أو أميراً. وقد يكون المراد أنه يأتيهم بمملكة الأخلاق والفضائل والرحمة وأنه يكون في هذه الفضائل رأساً. وقد يكون المراد بكونه مسيحاً أنه يكون نبياً.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ .

سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ﴾.

فقد جاء في ص ١ آية (٢٦) وفي الشهر السادس أي من حمل أليصابات زوج زكريا - أرسل جبريل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة (٢٧) إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم (٢٨) فدخل الملاك وقال سلام أيتها المنعم عليها. الرب معك مبارك أنت في النساء (٢٩) فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية (٣٠) فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله (٣١) وها أنت ستحبلين وتلدن ابناً وتسمينه يسوع (٣٢) هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه (٣٣) ويملك على بيت يعقوب ولا يكون لملكه نهاية. (٣٤) فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً (٣٥) فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلك لذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله (٣٦) وهو ذا «اليسابات» نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقر (٣٧) لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله (٣٨) فقالت مريم هوذا. أنا أمة الرب ليكن لي كقولك فمضى من عندك الملاك.

وفي إنجيل برنابا في الفصل الأول ما نصه: (١) لقد بعث الله في هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا (٢) بينما كانت هذه العذراء - العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب المنزهة عن اللوم المثابرة على الصلاة مع الصوم - يوماً ما وحدها وإذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلاً «ليكن الله معك يا مريم» (٣) فارتاعت العذراء من ظهور الملاك (٤) ولكن الملاك سكن روعها قائلاً لا تخافي يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذي اختارك لتكوني أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل ليسلكوا في شرائعه بإخلاص (٥) فأجابت العذراء وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلاً (٦) فأجاب الملاك يا مريم إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيك إنساناً من غير إنسان لأنه لا محال عنده (٧) فأجابت مريم أنني لعالمة أن الله

قدير فلتكن مشيئته (٨) فقال الملائكة كوني حاملاً بالنبي الذي ستدعيه يسوع (٩) فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس لأن الطفل قدوس الله (١٠) فانحنت مريم بضعة قائلة ها أنا ذا أمة الله فليكن بحسب كلمتك.

أقول: أما قول لوقا «وابن العلى يدعى» وكذا قوله «المولود منك يدعى ابن الله» وقوله «ويعطيه الإله كرسي داود أبيه» فإن هذه العبارات تفرد بها لوقا، ولم يذكرها أحد من كتاب الأناجيل سواه.

ونحن لا نقول بأن الإلهام قصر معهم - وفيهم أصحاب المسيح المشاهدون لأحواله العالمون بشأنه - وأفاض على لوقا الذي ليس تلميذاً ولا من الاثني عشر، بل رجل دخل في الدين متأخراً وصار تلميذاً لبولس الذي لم ير المسيح ولم يعاشره. فهذه العبارة مما جاء به ليزين أمر المسيح ويدخل على الناس تعظيمه. والمسيح ليس في حاجة إلى ذلك. وقد أورد صاحب «الفارق بين المخلوق والخالق» وجهين وجيهين في الطعن على هذه الجملة وهي «ويعطيه الإله كرسي داود أبيه».

الأول: أن عيسى عليه السلام من أولاد يواقيم، لا يصلح أن يجلس على كرسي داود لأنه لما أحرقت الصحيفة التي كتبها «بارخ» من فم النبي «أرمياء» عليه السلام نزل الوحي إلى «أرمياء» فقال كما في «٣٠ من ص ٣٦ من كتاب أرمياء» هكذا يقول الرب ضد يواقيم ملك يهوذا لا يكون منه جالس على كرسي داود.

الثاني: أن المسيح - مع كونه لم يجلس على كرسي داود - «بيلاطس» أمر بضربه وإهاتته وسلمه لليهود كما يزعم النصارى، ففعلوا به ما فعلوا ثم صلبوه.

على أنه يعلم من إنجيل «يوحنا» في ص ٦ أنه كان هارباً من قومه عندما أرادوا أن يجعلوه ملكاً. ولا يتصور أنه يهرب من أمر بعثه الله لأجله على ما بشر جبريل أمه العذراء قبل ولادته ومعلوم أنه لا يملك بيت يعقوب ساعة فضلاً عن الأبد!

وأما قوله «وابن العلى يدعى» منتزعة من قول زكريا عليه السلام في ابنه يوحنا (يحيى) «وأنت أيها الصبي نبي العلى» فحرفت في حق عيسى عليه السلام إلى قوله «لوقا» على لسان الملك «وابن العلى» ليوهموا الناس أن المسيح إله بن إله.

حمل مريم بالمسيح وولادتها إياه

حملت مريم عليها السلام بالمسيح بمجرد نفخ الملك في جيبها، وطبيعي أنها قد مرت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته. والقرآن الكريم لم يذكر عن تلك الأدوار شيئاً.

ويقول البيضاوي: وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ستة وقيل ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره. وقيل ساعة. كما حملته نبذته اهـ.

والذي أميل إليه أن كل هذا تكلف من أصحاب هذه الأقوال. لأن أمره في الحمل لما كان عجيباً أرادوا أن يجعلوه في مدة الحمل أيضاً عجيباً. ونحن ليس في أيدينا ما يثبت العجوبة في مدة الحمل! فالأليق أن يحمل على الأمر الطبيعي الذي جرت العادة بمثله^(١).

ولما حان انفصال جنين مريم ألجأها المخاض إلى جذع نخلة هناك في الموضع الذي فيه مدينة «بيت لحم» وهي على بضعة من الكليومترات من بيت المقدس. ويقول البيضاوي: إن الزمن كان زمن شتاء والنخلة يابسة، وإنما كان مجيئها إليها لتستتر أو لتعتمد عليها.

هنا حسبت مريم ألف حساب وحساب لما هي قادمة عليه من لوم اللائمين من قومها وما سيرمونها به من الفاحشة! فقالت: ﴿يَلْتَنِي مِثُّ قَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٢٣] بالكسر والفتح ﴿مَنْسِيًّا﴾ هو اللبن المشوب بالماء يترك وينسى لحقارته ﴿فَنَادَتْهَا﴾ مناد ﴿مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وهذا المنادي قيل هو جبريل كان في مكان أسفل من مكانها، وقيل المنادي هو عيسى عليه السلام والسري هو النهر وقيل الوجيه من الناس. ويؤكد كونه نهراً قوله بعد ذلك ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ يَمْنَعُ النَّخْلَةَ سُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥-٢٦] وقد أراد الله تعالى بهذا أن يسكن روعها ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة في الشتاء، وأوجد لها الماء الجاري في تلك الهضبة التي كانت عليها من الجبل! قادر أن يرد عنها عيب العائنين وقذف القاذفين. فكلتي واشربي وعينا، ولا

(١). ومن الظواهر العجيبة ما نشرته جريدة الأهرام بعدها الصادر يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٩ تحت عنوان:

أم في الخامسة من عمرها

حدثت هذه الظاهرة العجيبة - في ١٤ مايو الحالي - في مستشفى الولادة بمدينة «ليما» عاصمة جمهورية «بيرو» في أميركا الجنوبية. فقد وضعت الطفلة «لينا مدينا» - وهي من الهنود الحمر وفي الخامسة من العمر - مولودة بلغ وزنها ستة أرطال وهي في صحة جيدة. وقد اضطر الطبيب المولد لاجراء العملية القيصرية للآم أي بشق البطن لاستخراج الطفلة.

ومما يثبت أن أم الطفلة لم تتجاوز الخامسة من العمر أنها لم تستبدل بعد أسنان اللبن.

الأم في فراشها بالمستشفى على أثر الوضع، وإلى جانبها ممرضة تحمل المولودة.

يحزنك ما يقولون فإذا رأيت من البشر أحداً فقلولي إني نذرت الرحمن صوماً عن الكلام فلن أكلم اليوم إنسياً، وفي ذلك الحين يتولى الله تعالى البرهنة على براءتها .
بقي أن يقال :

(١) كيف يتولد عيسى عليه السلام من نفخة الملك في جيب قميص مريم، ونحن لم نر إنساناً أتى من غير مباشرة الرجل للمرأة؟

والجواب على ذلك : أن أمر الحمل جاء عجباً دالاً على قدرة الله تعالى، إذ جعل المرأة تأنى بإنسان من دون مباشرة رجل إياها. وهذا ليس بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيها من عجائب! بل ليس أعجب من خلق الإنسان من رجل وامرأة مع المباشرة! ولا من خلق الحيوان وتقلبه في الأدوار الجينية وأحواله في كل دور؟ كل ذلك ناطق بأنه صنع حكيم عليم قادر قدرة فائقة الوصف والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم ﴿وَحَمَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأَمْهُهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فإذا كان المعترض ممن يقول بآية الله ويقر بأن الله تعالى صنع العجائب لأنبيائه وغيرهم! فالخطب سهل. وإن كان ممن لا يقرون بالآيات مع الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم! قلنا وما تنكر من صنع الله وهو الذي أوجد «آدم» من غير أب ولا أم؟ فالذي صنع «آدم» سهل عليه أن يصنع «عيسى» دون أب. وهذا صنع الله في كل حين يصدر على خلاف ما مضت به السنة. فقد تضع المرأة قرداً وهو غير جنسها وقد تضع بغيراً أو شيئاً آخر! وهذا أمر يأتي في كل حين وتطالعنا به الجرائد. فمن الجائز أن يأتي مولود كعيسى على خلاف ما مضت به عادة غير أمه من النساء! فيكون من أم بلا أب كما جاء آدم بلا أب ولا أم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهي على كل حال أمر عجيب غريب إذ لم تجر عادة النساء بهذا! إن قدرة الله تعالى صغير في جنبها إيجاد هذه العجائب!

أيكون خلق إنسان بدون مباشرة رجل أعجب من خلق هذا العالم العلوي وإيجاد الكواكب السيارة والثابتة؟ وتحرك كل في مداره حركة منتظمة خاصة به على قانون متسق؟ ولكل منها من الفوائد والتأثير في هذا العالم الأرضي ما ليس في الآخر؟ ولا يعارض أحدها الآخر ولا تبطل دورته ولا عمله عمل الآخر ولا دورته؟ وبعض هذه النجوم لا يصل إلينا ضوءه إلا في ملايين السنين الضوئية، وما كشف العلم من عجائب هذا الكون القريب والبعيد إلا قليلاً؟

إن أقرب عجائب المخلوقات التي تطالعنا بها الصحف ما جاء إلى الأهرام ونشر

«بعدد يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٣٣» وهو الشهر الذي نحن فيه من «فاقوس» أن أحد الأهالي ولدت شاة عنده مولودا على هيئة القردة أي أنه أشبه بالقرد منه بولد الضأن. وفي كتاب حضرة الفاضل إلياس الغضبان «تاريخ الإنسان الطبيعي» من الهول والمخلوقات الشاذة التي لم تجر على السنن الطبيعي الغالب في جنسها شيء كثير جدا يقضي بالعجب! فليكن حمل مريم على الوصف الذي أوردنا واحداً من هذه الحوادث التي جاءت على غير المعهود في نوعها فتبارك الله أحسن الخالقين؟

(٢) ما بلغ سن مريم حين أتت بالمسيح عيسى؟

الجواب: يقول البيضاوي في تفسيره: إن سنّها كانت ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين. وأنها حاضت قبل الحمل حيضتين فقط. والذي أقوله: إنها كانت بلغت مبلغ النساء وكفى، وأدع علم ما بقي من ذلك إلى الله تعالى.

(٣) ما الحكمة في أمرها بهز جذع النخلة لتساقط عليها الرطب! ولم كان رزقها رطباً؟

والجواب: أن مريم لم يكن لها في ذلك الحين من يهتم بأمرها. ولا تقدر وهي نفساء أن تجهز لنفسها الطعام وما يلزم لمثلها ممن هي في حال النفاس. وأيضاً فإن الرطب طعام وحلو ولا يحتاج إلى علاج ومعاناة صنع فكان ذلك رفقاً بها. ويقول البيضاوي عن الرطب: إنه خرسة^(١) النفساء الموافقة لها أي أنه أوفق طعام للوالدة.

وقال البيضاوي أيضاً: إنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله لها رأساً وفيها خوص وثمر. وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها.

وإني لا أستبعد ذلك من قدرة الله تعالى والمعجزات ثابتة. ولكن لا ينبغي لنا الإسراف فيها بدون برهان! وهذا المقدار الذي بينه زائد عما ورد في القرآن وفي غيره من الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع. فلا بد من التحفظ في قبول مثل هذه الأشياء. ونقول: إنها كانت نخلة مثمرة.

وأقول أيضاً: إن وجود النخل في بيت لحم وهي البلدة التي كانت بها مريم يوم

(١) خرسة - بفحيتين - طعام النفساء كما في القاموس.

ولادة المسيح نادر. وقد رأيت بكنيسة بيت لحم المبنية على موضع ولادة المسيح مكانا قد قور البلاط فيه، يقولون إن في موضع هذا التقوير كانت النخلة التي ولدت عندها مريم.

وهناك مذود الماشية التي وضعت طفلها فيه عقب ولادته، لأنه لم يكن لها بيت يأويها في ذلك البلد، فأوت إلى مكان الرعاة الذين كانوا غائبين بماشيتهم في الرعي وولدت فيه، وهناك واد عميق بجانب المدينة يقال له «وادي الرعاة».

وسبب وجودها ببيت لحم أن الحاكم في ذلك الزمان أمر بعد الناس وإثباتهم في الدفاتر، فجاءت مريم ومعها خطيبها «يوسف النجار» من أبناء عمومته إلى بيت لحم ليثبت نفسه ومريم في التعداد فكانت الولادة هناك. وأما «السري» الذي هو النهر فلا وجود له في ذلك المكان ولعله كان عيناً فاضت زمناً ثم غاضت.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

سورة مريم: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢) ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (٢٣) ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) ﴿وَهَزَىٰ بِإِصْبَعِكَ مِجْنَعِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكِ رُطْبُ جَنَّةٍ﴾ (٢٥) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ النَّسْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦).

سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ زُوجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١).

سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهِ مِنْ زُوجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ (١٧).

ولم يتكلم من أصحاب الأناجيل عن الحمل بالمسيح سوى «متى» و «لوقا» وعبارة «متى» مختصرة فقد جاء (في الآية ١٨ ص ١ وما بعدها) أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمع بها وجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سرا. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حمل به فيها هو من الروح القدس فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم.

وعبارة لوقا «ص ١ - ٢٦» وفي الشهر السادس - أي من حمل أليصابات زوج زكريا - أرسل جبريل الملاك من الله تعالى إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة (٢٧) إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم (٢٨) فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك مباركة أنت في النساء (٢٩) فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت، ما عسى أن تكون هذه التحية (٣٠) فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك وجدت نعمة عند الله (٣١) وها أنت ستحبلين وتلدن ولداً اسمه يسوع (٣٢) هذا يكون عظيماً:

واستمر يقص قصتها بما يوافق ما جاء في القرآن ولا يخالفه وقد تقدم هذا.
وجاء في الفصل الثاني من برنابا:

إنباء الملاك جبريل يوسف بحبل العذراء مريم

أما مريم فإذا كانت عالمة مشيئة الله وموجسة خيفة أن يغضب الشعب عليها لأنها حبلى فيرجمها كأنها ارتكبت الزنا. اتخذت لها عشيراً من عشيرتها قويم السيرة يدعى «يوسف» لأنه كان باراً متقياً الله يتقرب إليه بالصيام والصلاة ويرتق بعمل يديه لأنه نجاراً. هذا هو الرجل الذي كانت تعرفه العذراء واتخذته عشيراً. وكاشفته بالإلهام الإلهي، ولما كان يوسف باراً عزم إذ رأى مريم حبلى على إبعادها لأنه كان يتقي الله. وبينما هو نائم إذا بملاك الله يوبخه قائلاً: لماذا عزمت على إبعاد امرأتك. فاعلم أن ما كون فيها إنما كون بمشيئة الله فستلد العذراء ابناً وستدعونه «يسوع» تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس. لأنه قدوس الله من رحم أمه. فإنه نبي من الله أرسل إلى شعب إسرائيل ليحول يهوذا إلى قلبه ويسلك إسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في ناموس موسى وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله، وسيأتي بآيات عظيمة تقضي إلى خلاص كثيرين. فلما استيقظ يوسف من النوم شكر الله وأقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص.

هذا هو ما جاء في الأناجيل وهو لا يخالف ما في القرآن. غاية ما في الأمر أنها تزيد حكاية «يوسف النجار» وهي أمر مسكوت عنه. فلا نصدقها ولا نكذبها. ويصح إيرادها.

وقد ذكرت - فيما مضى - أن اليهود اليوم يختار الرجل لابنته منهم عشيراً يعاشرها في بيت أبيها مدة من الزمن، فإذا رضىته ورضيها تم الأمر بالزواج، ولكل منهما في أثناء المعاشرة قبل الزواج أن يتخلى عن الآخر.

مريم تفكر في أمرها

لم يكن علم مريم ببراءة ساحتها من الدنس بالشيء الذي يطمئن نفسها، بل أخذت الهواجس تتابها وتحسب لما سيقول الناس عنها ألف حساب. ولقد زادت وساوسها حين أخذها المخاض ورأت ما سيحسبه الناس جريمة لها ماثلاً أمام عينها، فقالت ما قصه الله تعالى عنها في قوله جل من قائل ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ (٢٣) ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) ﴿وَهَزِيَ بِكِ يَجْذَعُ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٦].

ولكنها كانت تريد الجواب الذي تجيب به لوامها والزارين عليها والمعينين لها. فقال لها معلماً ومرشداً ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] وكان الصوم عن الكلام ضرباً من العبادة كما يفعل «غاندي» اليوم من الصوم عن الكلام يوماً في كل أسبوع.

فلما أتت قومها وعلى يدها عيسى تحمله، ارتاعوا لهذا الحدث النازل والخطب العظيم، وزاد في ارتياحهم ما كانوا يعلمونه فيها من طهارة المنبت وطيب البيئة ونشأة التقوى التي نشأتها، فأخرجهم ذلك إلى الزاوية عليها وتعنيفها على ما أتت به من إثم - في زعمهم - وما قارفت من خطيئة، وقالوا لها فيما قالوا ﴿يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] أي بدعا منكرا من الإثم ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

وهنا اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ تلك الكلمة التي نطق بها قومها، فقال بعضهم إنها كانت من ذرية هارون عليه السلام فقالوا يا أخت هارون - كما يقال للتميمي يا أخت تميم وللأزدي يا أخت الأزدي - وهذا يقتضي أن مريم وابنها من ذرية «لاوي» ابن يعقوب وليس بشيء لأن شهرة أنها من بيت «داود» لا تحتاج إلى بيان، وقد كان المسيح يعبر بقوله: قال أبونا داود، وأن أبانا داود، كما تكرر ذلك في إنجيل برنابا. وقد جاء في الأناجيل قول بعض المرضى للمسيح يا ابن داود ارحمني: وداود من سبط يهوذا.

وقال آخرون: إن معنى ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ تشبيه لها برجل فاسق كان في زمانها يعيرونها بأنها تشبهه، كما تقول للرجل تريد وصفه بشدة البطش والقتل ظلاماً: يا أخت أبي حريشة «وهو رجل كان بالغريبة زعيماً للصوص» وقد عمل أعمالاً فظيعة. وشنق في طنطا سنة ١٣٠٢ هـ وأهل الغريبة يشبهون به كل فتاك إلى اليوم.

وقال آخرون: إن هرون كان رجلاً صالحاً في زمانها، قالوا لها ذلك على سبيل الاستهزاء والتهكم بها لسوء جرمها في نظرهم، وهذا أقرب من سابقه.

سمعت مريم هذا القول وهي قد نذرت الصمت فأشارت إلى ابنها وهو في المهد طالبة إليهم أن يوجهوا إليه كلامهم. فعدوا ذلك غريباً وقالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فلم يمهلهم عيسى أن أجابه الجواب الشافي الدال على براءة أمه، والمؤذن بأنه سيكون من أهل العلم الذين آتاهم الله الكتاب، وأنه سيجعله نبياً وبارك فيه أينما توجه، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، وأنه سيكون باراً بوالدته وسيكون عبداً متواضعاً لا جباراً شقياً -

اقرأوا هذه الآيات:

سورة مريم: ﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا ۝٢٧ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ۝٢٨ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ .

أما ما جاء في كتب العهد الجديد متعلقاً بولادته فهذا هو:

لم يذكر متى شيئاً من مولده سوى أنه ولد في «بيت لحم» اليهودية في أيام «هيرودس» الملك ١ ص ٢ متى وأما لوقا فذكر مولده باستفاضة.

ص ٢ لوقا - (١) وفي تلك الأيام صدر أمر من «أوغسطس قيصر» بأن يكتب كل المسكونة . . فذهب الجميع ليكتبوا كل واحد إلى مدينته (٤) فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته (٥) ليكتب مع مريم المخطوبة وهي حبلى (٦) وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد (٧) فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعتة في المذود إذ لم يكن لها موضع في المنزل.

وقال برنابا في الفصل الثالث:

(١) كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً على اليهودية بأمر قيصر أوغسطس (٢) وكان «بيلاطس» حاكماً في زمن الرياسة الكهنوتية لحنان وقيافا (٣) فعملاً بأمر قيصر اكتب جميع العالم (٤) فذهب إذ ذاك كل إلى وطنه وقدموا أنفسهم بحسب أسباطهم ليكتبوا

(٥) فسافر يوسف من الناصرة إلى إحدى مدن الجليل مع امرأته وهي حبلى ذاهباً إلى بيت لحم (لأنها كانت مدينته وهو من عشيرة داود) ليكتتب عملاً بأمر قيصر (٦) ولما بلغ بيت لحم لم يجد فيها مأوى إذ كانت المدينة صغيرة وحشد جماهير الغرباء كثيراً (٧) فنزل خارج المدينة في نزل جعل مأوى للرعاة (٨) وبينما كان يوسف هناك تمت أيام مريم لتلد (٩) فأحاط بالعدراء نور شديد التألّق (١٠) وولدت ابنها بدون ألم (١١) وأخذته على ذراعيها (١٢) وبعد أن ربطته بأقمطة وضعت في المذود (١٣) إذ لم يوجد موضع في النزل (١٤) فجاء جوق غفير من الملائكة إلى النزل بطرب يسبحون الله ويذيعون بشرى السلام لخائفي الله (١٥) وحمدت مريم ويوسف الله على ولادة يسوع وقاما على تربيته بأعظم سرور.

فالقارىء يرى أن تلك الكتب لم تذكر أمر «النخلة» ولا «السري» بمعنى النهر كما هو أحد التأويلين ولا نذرهما الصوم ولا تأنيب قومها لها ولا كلامه في المهد. وإنما ذكر كل ذلك القرآن المهيمن على كتب أهل الكتاب. ولا غرابة في سكوت كتب أهل الكتاب عن ذلك وإثبات القرآن له؛ فقد قال الله تعالى في أهل الكتاب ﴿فَتَسَوُا حَفَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

أنا لا يمكنني أن أفهم أن حادث حمل مريم يمر بين اليهود دون أخذ ورد وطلب محاكمة ولا يعقل أنهم صدقوها في دعواها أن ذلك حصل بفعل الله دون أن يكون لإنسان دخل فيه بمجرد قولها. وقد سكنت الأناجيل عن ذلك، وإنما ذكره القرآن فقط كما قدمنا. والظاهر من عبارة القرآن أنهم رموها بالزنا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

ختان المسيح

في شريعة اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته كما أمر الله إبراهيم بذلك، وقد ختن المسيح لما تم له ثمانية أيام، وختانه لم يذكر في القرآن الكريم وإنما ذكر في إنجيل لوقا في آية ٢١ من الإصحاح الثاني ونصها: ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي «يسوع» كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن، وفي إنجيل برنابا في الفصل الخامس:

١ - فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب كما هو مكتوب في كتاب موسى أخذنا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختناه (٢٥) فختنا الطفل وسمياه «يسوع» كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في الرحم.

المجوس ويسوع

حكاية المجوس ويسوع انفرد بها متى بين الأربعة وذكرها برنابا في إنجيله . وهي تلخص في أن ثلاثة من المجوس - من المشرق - كانوا يرقبون نجوم السماء فبدا لهم نجم شديد التألّق فجاءوا إلى اليهودية - يهديهم النجم - ولما وصلوا في طريقهم إلى أورشليم سألوا أين ولد ملك اليهود؟ وسمع هيرودس ذلك فارتاع! فجمع الكهنة والكتبة وسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا في «بيت لحم» فأحضر هيرودس المجوس وسألهم عن مجيئهم ، فقالوا إنهم رأوا نجما في المشرق هداهم إلى هناك فجاءوا بهدايا أحبوا أن يقدموها لملك اليهود الذي ولد . فأمرهم أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن الطفل وأن يعلموه به . فذهبوا إلى بيت لحم وسجدوا للطفل يهديهم النجم وقدموا الهدايا وخافوا على الطفل من هيرودس ، فلم يرجعوا إليه بل ذهبوا إلى بلادهم . ولما لم يعودوا علم هيرودس أنهم قد سخروا منه ، فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم . ويظهر لي أنها حكاية مصنوعة - فما شأن المجوس بالمسيح؟ وكيف يسير النجم أمامهم يهديهم؟ ولم جاء بهم إلى أورشليم ولم يذهب بهم إلى بيت لحم؟ وهذه الحكاية لها نظائر في كتب أهل الأوثان . وهذا لوقا الذي تتبع الأمر بتدقيق لم يذكر ذلك ولم يشير إليه ولم يذكر ذهاب المسيح إلى مصر بل ذكر أنهما أقاما به في الناصرة .

ذهاب يوسف ومريم بالمسيح إلى مصر

وهذه المسألة انفرد بها أيضاً «متى» وذكرها «برنابا» :

وتلخص في أن هيرودس لما أمر بقتل كل طفل في بيت لحم أمر يوسف النجار في منامه بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر لأن الملك أمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم . فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك هيرودس . ولما هلك ، أمر يوسف في نومه بأن يأخذ الطفل وأمه إلى بلادهما ، لأن الذين كانوا يطلبون قتله قد هلكوا فرجع . ومن أحب فضل بيان فليرجع إلى إنجيل «برنابا» من أول الفصل السادس إلى آخر الفصل الثامن . وبعض مفسري القرآن الكريم يذكرون أن مصر هي المعنية في القرآن الكريم بقوله تعالى في عيسى وأمه ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] . ويزعم المسيحيون في مصر أنهما استقرا ببلدة «عين شمس» ويقولون إنهما استظلا بشجرة هناك قد بقي أصلها محتفظاً به إلى أمد غير بعيد منا وكانوا يسمونها «شجرة العذراء» ويعنى الناس بالذهاب إلى زيارتها «بضاحية المطرية» .

وفي كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» تزييف لهذه الحكاية فليراجع في ص ٢٩ ج ١.

يسوع يحاج العلماء

بعد رجوعه إلى «اليهودية» وبلوغه اثني عشر عاماً من العمر

(١) ولما مات هيرودس ظهر ملاك الرب في حلم ليوسف قائلاً (٢) عد إلى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبي (٣) فأخذ يوسف الطفل ومريم «وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر» وجاء إلى اليهودية حيث سمع أن أرخيلائوس بن هيرودس كان حاكماً في اليهودية (٤) فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى في اليهودية (٥) فذهبوا ليسكنوا في الناصرة (٦) فنما الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس (٧) ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى (٨) ولما تمت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقرائهم (٩) ولذلك عادت مريم مع يوسف إلى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران (١٠) وفي اليوم الثالث وجدوا الصبي في الهيكل وسط العلماء يحاجهم في أمر الناموس (١١) وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلاً: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث ولم يتعلم القراءة؟ (١٢) فعنفته مريم قائلة يا بني ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان (١٣) فأجاب يسوع ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأب والأم (١٤) ثم نزل يسوع مع أمه ويوسف إلى الناصرة (١٥) وكان مطيعاً لهما بتواضع واحترام.

من مجموع ذلك نفهم أن المسيح عليه السلام نشأ نشأة محمودة لا غبار عليها وأنه كان غيوراً على الدين منذ صغره حريصاً على تفهم حكمه وأسراره، وأنه كان يختلس من وقته ما يقوي به معارفه ويثبت به علمه ويجالس العلماء ويناقشهم ويسألهم ويجيبهم فالبيئة التي تمر بها صباه وشبابه بيئة علم وحكمة ودين.

سكتت الأنجيل عن المسيح من عهد أن كانت سنه اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ تسعاً وعشرين. فأين كان يسوع في هذه المدة وهي سبع عشرة سنة؟

أما الأنجيل فساكتة عن ذلك وإن كان في بعضها ما يشير إلى أن أباه وأمه سكنا في الناصرة. ولكن كيف يبقى ساكناً ولا يحاج العلماء والكتبة في الكتاب وتفسيره في الأعياد كما هي عادته ولم يذكر أنه رجع إلى الهيكل أو عمل عملاً ما يتعلق بالدين؟

أما الأوروبيون والباحثون منهم فيقولون إنه ذهب إلى الهند وتلقى تعاليم بوذا وآداب البوذية. ولما عاد إلى وطنه وأخذ في التعليم والوعظ كانت تعاليمه محاذية لتعليم بوذا في الحث على تكميل النفس وتهذيبها غير أنهم يقولون أن مقارنة تعليم المسيح بتعليم بوذا تبين أن تعليم بوذا كان سلبياً بالحث على تجريد النفس من الشرور، وأما تعليم المسيح فكان إيجابياً بحث النفس على البذل وفعل الخير للأعداء والأوداء إلى آخره. أما الذي أعول عليه في هذا فهو تفويض علم شأنه في السبعة عشر عاماً إلى الله تعالى.

كيف ابتدأت نبوة المسيح

لم يذكر القرآن الكريم متى كان ابتداء نبوة المسيح ولا كيف كان ذلك؟ وأصحاب الأنجيل الأربعة قد ذكروا في ذلك أن «يوحنا المعمدان» وهو «يحيى بن زكريا» وجد في البرية زمناً وكان يقتات من الجراد والعسل البري وثيابه من أوبار الإبل وعلى حقويه منطقة جلد، ثم ظهر في ناحية «الأردن» ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل أورشليم والكور القريبة من الأردن، فكان يعمدهم في النهر وينذرهم باقتراب ملكوت السموات.

وهذه الجملة مقتبسة من الآية «ص ٤٠ - أشعيا».

وأن المسيح قد جاء إلى يوحنا واعتمد منه في الأردن. وأن الروح القدس نزل عليه مثل حمامة. ثم إن المسيح بعد ذلك صام في البرية أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب. ثم جرب من الشيطان على أثر صومه إذ أحس بالجوع، فأتاه الشيطان وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً؟ فقال له: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله. فأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك فقال له: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك فأخذه إبليس على جبل عال وأراه ممالك الأرض ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خرت وسجدت لي. فقال له المسيح: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد فذهب عنه الشيطان وجاءته الملائكة. وعلم المسيح عقب ذلك أن يوحنا أسلم أي هلك فجاء إلى «الجليل» وترك «الناصرة» وسكن «كفر ناحوم» وكان يكرز ببشارة ملكوت الله. وكانت سن المسيح ٣٠ سنة «يراجع ص ٣ و ٤ - متى. وص ١ مرقس. وص ٤، ٣ - لوقا. وص ١ - يوحنا».

وهناك رواية برنابا أوردها بنصها من الفصل العاشر دون تلخيص، وهي:

يسوع وهو ابن ثلاثين

يتلقى على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك جبريل

(١) ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك نفسه صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً (٢) وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات «يا رب برحمة...» وإذا بنور باهر قد أحاط به وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون «ليتمجد الله» (٣) فقدم له الملاك جبريل كتاباً كأنه مرآة براقه (٤) فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله حتى أن كل شيء كان عرياناً ومكشوفاً له (٥) ولقد قال لي: «صدق يا برنابا أنني أعرف كل نبي وكل نبوة. وكل ما أقوله إنما قد جاء في ذلك الكتاب (٦) ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبي مرسل إلى بيت إسرائيل كاشف مريم أمه بكل ذلك قائلاً لها: إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله وأنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها (٧) فلما سمعت مريم هذا أجابت «يا بني إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد اسم الله القدوس» (٨) ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية.

والذي أفهمه من كل ذلك الكتاب . الخ أن العلم - الذي قذف الله به في روعه أول ما بدأه الوحي على يد جبريل - مثل له كتاباً ومثل له أن يأكله، فاستضاءت به بصيرته؛ كما مثل لرسول الله محمد ﷺ أن جبريل جاء بنمط من ديباج فيه كتاب فقال له: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

نبوة المسيح على رأس ثلاثين سنة

دلت عبارات بعض الأنجيل على أن المسيح نبيء على رأس ثلاثين سنة من عمره. وجرى على ذلك المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم. فكيف هذا مع أن علماء التوحيد يقولون إن النبوة إنما تكون بعد الأربعين.

والجواب: أن كون النبوة بعد الأربعين أمر غالبي فقط؛ فقد ينبأ الشخص قبل هذه السن، وهذا يحيى بن زكريا عليهما السلام يقول الله فيه ﴿وَأَنبَأْنَاهُ أَنكُم صَبِيَّاءُ﴾ [مریم: ١٢]. وبيان ذلك: أن بعض الناس قد يبكر فيهم النمو فتنمى أجسادهم وعقولهم بسرعة يفوقون بها أمثالهم. وفي العام المنصرم ذكرت الجرائد السيارة أن طفلاً في تركيا بكر عليه الكبر فبلغ مبلغ الرجال وهو ابن خمس سنوات؛ وطلب التزوج فأحيل على الأطباء فقررروا أنه رجل تام الرجولة وإن كان في سن الأطفال! ولكنه لم يلبث طويلاً حتى جاءت الأخبار

بأن هذا الشخص قد قضى نحبه . فكما بكر بالرجولة بكر عليه الفناء . فلا مانع من تبكير الرجولة على شخص فيتم نضجه بدنأ وعقلاً فيؤتبه الله النبوة قبل أن يبلغ زمن الشيخوخة كما حصل للمسيح ويحيى عليهما السلام .

معنى كلمة الإنجيل

معنى الإنجيل «البشارة»^(١) والشواهد متضافرة على أن الله تعالى أعطى المسيح الإنجيل وأنه كتاب تضمن الهدى والنور، وقد أهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه، وأنبأهم بأحداث مستقبلية وبشرهم باقتراب زمن النبي الذي وعد بنو إسرائيل بأن يبعثه الله، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة، وأنه يكون كموسى صاحب شريعة مستقلة وفيه وصفه ووصف أتباعه .

اقرأوا هذه الآيات :

سورة آل عمران: ﴿زُلْ عَلَيَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٤﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿وَعَلَّمَ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّوهُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ مَآثِرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّا لَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَحَكَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ ﴿٦٨﴾﴾ .

(١) جاء في مقدمة إنجيل «تولستوي» لحضرة الفاضل «سليم أفندي قبعين» أن لفظة «إنجيل» باللغة اليونانية مركبة من كلمتين «إيف» ومعناها : جيد - حسن - صلاح - خير - صدق . و«انجيلون» ومعناها الإخبار بخبر من الأخبار - ويكون تعريب اللفظتين معاً: الإخبار بالخير أو الخبر الحسن .

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ﴾.

سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ۖ﴾.

سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيَقْلِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ ۖ﴾.

سورة الفتح: ﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ سَطَعُهُ فَنَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ۖ﴾.

سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ۖ﴾.

فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف وبالإضافة والحذف!

ودليلي على أن المسيح أتاهاهم بإنجيل وأن الأناجيل كانت أكثر من هذه الأربعة ما ترون من الشواهد التي أنقلها من رسائل «بولس» من الكتب القانونية التي تسلم بها الكنيسة فاقروا ما يأتي:

بولس رومية ص ٩٠١ «فإن الله الذي أعبدته بروحي - في إنجيل ابنه - شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم» المراد بقوله ابنه (يسوع) فهذه الجملة تدل على أن المسيح له إنجيل.

كورنثيوس ص ٢: ٣ «ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين».

كورنثيوس ص ٨: ٨ «وأرسلنا معه الأخ الذي مدحه في الإنجيل في جميع الكنائس».

غلاطية ص ١: ٦ «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر (٧) ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون أن يحولوه» أي يغيروه.

غلاطية ص ٢: ١٤ «ولكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل... الخ».

فلبي ص ١: ١٢ «ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تقدم

الإنجيل. (١٧) وأولئك عن محبة عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل».

فهذه الجملة تدل على أنه كان هناك إنجيل، وأن «بولس» وضع لحمايته، وبالطبع ذلك الإنجيل الذي يتحدث عنه ليس واحداً من هذه الأربعة. وأيضاً فإن الإنجيل كان مهدداً وفي حاجة إلى حمايته. وقد أوصاهم بعد ذلك قائلاً (٢٧) فقط عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح.

١ - تسالونيكي ص: ٢: ٨: «إذ كنا حانين إليكم كنا نرعى أن نعطيكم لا إنجيل الله فقط بل أنفسنا أيضاً».

ص ٣: ٢: «فأرسلنا تيموثاوس وخدام الله والعامل معنا في إنجيل المسيح».

٢ - تسالونيكي ص ١ «في نار لهب معطياً نقمة الذين لا يعرفون الله ولا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح».

١ - تيموثاوس ص ١: ١١ «حسب إنجيل مجد الله المبارك الذي أوتمنت عليه».

٢ - تيموثاوس ص ٢: ٨: «واذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود حسب إنجيلي».

تبين من ذلك كله أن «المسيح عيسى ابن مريم» جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل ولكن الناس على مر الزمان تركوا ذلك الإنجيل. وترتب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألف بعضها تلاميذ المسيح وبعضها ألفها تلاميذ تلاميذه أو من بعدهم، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة. وفيما تقدم عن بولس تجدون ما يؤذن بأن المغيرين أخذوا يحولون الإنجيل عن مجراه. ومعلوم أن الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السند وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق وما عداه كاذب!

المهمة التي جاء لها المسيح

جاء المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام لمهمة سامية:

١ - ذلك أن بني إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقتت قلوبهم وحرفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى عليه الصلاة والسلام وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوي وخرجوا إلى الإفراط والتفريط. فمن إفراطهم في مراعاة التوراة وإخراجها عن روحها المراد لله تعالى أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير في السبت

باعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة! والله إنما يريد الكف عن الأعمال الدنيوية وأما فعل الخير فإنه لا حرج فيه وليس من الأفعال المنهي عنها. لذلك جاء المسيح ليرد اليهود عن ذلك التنطع المفضي إلى تعطيل الخير في ذلك اليوم.

أنظروا الإصحاح الثاني عشر من «متى» فإنكم تجدون:

١ - في ذلك اليوم ذهب يسوع في السبت بين الزرع فجاء تلاميذه وابتدأوا يقطعون سنابل ويأكلون (٢) فالفريسيون لما نظروا قالوا هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت (٣) فقال أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه (٤) كيف دخل بيت الله. وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط (٦) ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم (١٠) وإذا إنسان يابسة. فسألوه قائلين هل يحل الإبراء في السبت لكي يشتكوا عليه (١١) فقال لهم أي إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أما يمسكه ويقيمه (١٢) فالإنسان كم هو أفضل من الخروف؟ إذن يحل فعل الخير في السبت (١٣) ثم قال للإنسان مد يدك فمدها صحيحة كالأخرى.

ومن تفریطهم تهالكهم على المادة واستغراق حب المال تفكيرهم، فكانوا يحرضون الفقراء المحتاجين على النذر للهيكل ليحتوا على ذلك المال. والناذرون والباذلون في أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم وآبائهم، وأمهاتهم فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأثانية في الكهنة ورجال الدين.

فمن ذلك ما قاله «برنابا» في الفصل الثاني والثلاثين:

(١) ودعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه (٢) فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه (٣) وكثيرون من الكتبة انتظروه في البيت ليجربوه (٤) فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم (٥) فدعا الكتبة يسوع قائلين: لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزاً؟ (٦) أجاب يسوع: وأنا أسألكم لأي سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم؟ (٧) تقولون لأولاد الآباء الفقراء «قدموا وأنذروا للهيكل» (٨) وهم إنما يجعلون نذوراً من النذر الذي يجب أن يعولوا به آباءهم (٩) وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقوداً يصرح الأبناء «إن هذه النقود نذر لله» (١٠) فيصيب الآباء بذلك ضيق (١١) أيها الكتبة الكذابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود (١٢) كلا ثم كلا (١٣) لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبي هل أكل لحم الشيران

وأشرب دم الغنم؟ (١٤) اعطني ذبيحة الحمد وقدم لي ندورك (١٥) لأنني إن جعت لا أطلب منك شيئاً لأن كل الأشياء في يدي وعندى وفرة الجنة (١٦) أيها المرءون إنكم إنما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم ولذلك تعشرون السذاب والنعنec (١٧) ما أشقاكم لأنكم تظهرون للآخرين أشهر الطرق وضوحاً ولا تسيرون فيها. (١٨) أيها الكتبة والفقهاء إنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالاً لا يطاق حملها (١٩) ولكنكم أنفسكم لا تحركونها بإحدى أصابعكم.

(٢٩) وقد ندب الله هذا بواسطة أشعيا قائلاً: حقاً إن هذا الشعب يعبدني باطلاً (٣٠) لأنهم أبطلوا شريعتي التي أعطاهم إياها عبدي موسى ويتبعون تقاليد شيوخهم (٣١) الحق أقول لكم أن أكل الخبز بأيدي غير نظيفة لا ينجس إنساناً لأن ما يدخل الإنسان لا ينجس الإنسان بل الذي يخرج من الإنسان ينجس الإنسان. (٣٢) فقال حينئذ أحد الكتبة: إن أكلت لحم الخنزير أو لحوماً أخرى نجسة أفلا تنجس هذه ضميري؟ (٣٣) أجاب يسوع: إن العصيان لا يدخل الإنسان بل يخرج الإنسان من قلبه (٣٤) ولذلك يكون نجساً متى أكل طعاماً محرماً (٣٥) حينئذ قال أحد الفقهاء: يا معلم لقد تكلمت كثيراً في عباد الأصنام كأن عند شعب إسرائيل أصناماً (٣٦) وعليه فقد أسأت إلينا (٣٧) أجاب يسوع: اعلم جيداً أنه لا يوجد اليوم تماثيل من خشب في إسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد (٣٨) فأجاب حينئذ جميع الكتبة بحق: أنحن إذن عبدة الأصنام؟ (٣٩) أجاب يسوع: الحق أقول لكم لا تقول الشريعة؛ اعبد. بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك (٤٠) ثم قال يسوع: أصحيح هذا؟ (٤١) فأجاب كل واحد: إنه لصحيح.

وقال «برنابا» أيضاً في الفصل الثالث والثلاثين:

١ - (أ) ثم قال يسوع: حقاً إن كان ما يحبه الإنسان ويترك لأجله كل شيء سواء فهو إلهه (ب) وهكذا فإن صنم الزاني هو الزانية وصنم النهر والسكير جسده (ج) وصنم الطماع الفضة والذهب (د) وقس عليه كل خاطيء آخر.

٢ - كان في اليهود فريق الصدوقيين الذين يقولون لا توجد قيامة ولا نشر ولا حساب ولا عقاب، وأن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها في الدنيا وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه الله في الدنيا، فكان من مهمة المسيح أن يرد هؤلاء إلى عقيدة اليوم الآخر وهو يوم الجزاء، وأن يثبت الإيمان بها في قلوبهم ويحذر الناس من اتباعهم والزيف عن سبيل الله إلى سبيلهم.

٣ - كان بين اليهود أيضاً قوم يقال لهم الفريسيون^(١) وحقيقة هذا الاسم أنهم قوم تجردوا لطاعة الله تعالى وملك عليهم حبه ومشاعرهم فتفردوا للعبادة وانقطعوا عن العباد، وزهدوا في حطام الدنيا الفانية وأقبلوا بكليتهم على الآخرة. ولكنهم من قبل زمن المسيح عليه الصلاة والسلام قد انحرفوا عن سنن سلفهم وألهتهم الحياة الدنيا بزبرجدها وزخرفها، وأقبلوا على الشهوات يستسرون بها وهم في عملهم يراءون الناس استدراجاً لهم ليوقعوهم في مخالبتهم ويتزوا أموالهم. فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخاً نصبوه لصيد الدرهم والدينار.

٤ - وكان هناك الكتبة من وظائفهم الوعظ وكتابة الشريعة لمن يطلبها وكانوا في شؤونهم يشبهون الفريسيين في تصيد أموال الناس.

٥ - كان هناك الكهنة وخدمة الهيكل وكانوا قد صاروا إلى حال رديئة ويحرفون كلام الله ويتهاكون على الحطام الفاني.

كل أولئك كانت أحوالهم تستدعي إصلاحاً قوياً ومصلحاً مخلصاً فجاء المسيح لتخليصهم جميعاً من الأحوال التي ارتطموا في حماتها فكان يوبخهم ويكتهم جهده.
وإني أقتصر في هذا المقام على ما جاء في «إنجيل متى» في هذه الشؤون: جاء في إنجيل متى ص ٢٢:

(١٥) حينئذ ذهب الفريسيون وتشاؤروا لكي يصطادوه بكلمة (١٦) فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسين قائلين: يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس (١٧) فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا (١٨) فعلم يسوع خبتهم وقال: لماذا تجربونني يا مرءون (١٩) أروني معاملة الجزية. فقدموا له دينار (٢٠) فقال لمن هذه الصورة والكتابة (٢١) قالوا لقيصر فقال لهم: اعطوا إذن ما. لقيصر لقيصر وما لله الله (٢٢) فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا (٢٣) في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس قيام فسأله (٢٤) قائلين يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلاً لأخيه (٢٥) فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأول ومات وإذا لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه (٢٦) وكان الثاني والثالث إلى السبعة (٢٧) وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً (٢٨) ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجته فإنها كانت للجميع (٢٩) فأجاب يسوع وقال لهم

(١) يفسر الفاضل سليم قبعين «الفريسيين» بمستقيمي الرأي.

تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله (٣٠) لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء (٣١) وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل (٣٢) أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ليس الله إله أموات بل إله أحياء (٣٣) فلما سمع الجموع بهتوا من تعليمه (٣٤) أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معاً (٣٥) وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلاً (٣٦) يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس (٣٧) فقال له يسوع تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك (٣٨) هذه هي الوصية الأولى العظمى (٣٩) والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك (٤٠) فهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (٤١) فيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع (٤٢) قائلاً ماذا تظنون في المسيح^(١) ابن من هو؟ قالوا له ابن داود (٤٣) قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً (٤٤) قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك^(٢) (٤٥) فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه (٤٦) فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة. ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله. اهـ وقد أكمل بقية هذه القصة برنابا فليرجع إليه.

متى ص ٢٣ (١) حيثئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه (٢) قائلاً على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون (٣) فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون (٤) فإنهم يحزمون أعمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم (٥) وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم (٦) ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع (٧) والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي (٨) وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعاً إخوة (٩) ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات (١٠) ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح (١١) وأكبركم يكون خادماً لكم (١٢) فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع (١٣) لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا

(١) تقدم أن المسيح يطلق بالاشتراك على النبي والملك في العبرية وفي بعض الأناجيل لفظ «ميسا» بدل المسيح.

(٢) حقيقتها. قال الرب لسيدي. ونصها في العبرية في المزمور (١١) «لثيم يهو فالادوني شب ليميني» ولفظ «أدوني» معناها «سيدي» لا «ربي».

تدعون الداخلين يدخلون (١٤) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تدخلون بيوت الأراامل . ولعله تطيلون صلاتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم (١٥) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً (١٦) ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم (١٧) أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدر الذهب (١٨) ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم (١٩) أيها الجهال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدر القربان (٢٠) فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه (٢١) ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالسكان فيه (٢٢) ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه (٢٣) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتهم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان . كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك (٢٤) أيها القادة العميان الذين يصفون^(١) عن البعوضة ويبلعون الحمل (٢٥) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة (٢٦) أيها الفريسي الأعشى نق أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً (٢٧) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة (٢٨) هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثمًا (٢٩) ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين (٣٠) وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء (٣١) فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء (٣٢) فاملأوا أنتم مكيال آبائكم (٣٣) أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم (٣٤) لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة (٣٥) لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح (٣٦) الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل^(٢) .

(١) هكذا في ترجمة العبرية بالصاد ولو أنصف المترجم لجعلها «يعفون» من العفة بالعين ولعل ذلك فيها من خطأ الكاتب .

(٢) لقد أتى عليهم ذلك في سنة ٧١ على يد طيطوس الروماني الذي شتمهم وخرّب هيكلهم .

كما قدمنا كان هناك الفريسيون وهم الدراويش أو الزهاد الذين قطعوا صلتهم بالعالم إلا لضرورة وكانوا قد فسدوا وهو يريد أن يردهم إلى الحق ويبين فساد ما هم عليه من الطمع والتهالك على الدنيا.

ومن أراد أن يقف على حوار المسيح للفريسيين المرابين، ويعرف حقيقتهم وما كانوا عليه قبل زمن المسيح وفي عهده فليقرأ «من الفصل الرابع والأربعين بعد المائة من برنابا» فإنه يقرأ المطرب المعجب والعظات والنصائح الصادرة بإخلاص من قلب مفعم بالتقوى.

٦ - من الأغراض السامية التي جاء المسيح لتقريرها وإذاعتها بين اليهود وغيرهم البشارة باقتراب ملكوت السموات والمراد بذلك الشريعة الإلهية التي يرسل الله تعالى بها النبي الأمي المذكور في آية (١٥) أو ما بعدها من «الإصحاح ١٨ - سفر التثنية^(١)» الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين إخوتهم ويجعل كلامه في فمه ويخبرهم بكل الذي يوصيه الله به وقد مر الكلام على هذه النبوة في موسى. وقد بشر اليهود به أيضاً أنبياء كثيرون. منهم داود في المزمور الخامس والأربعين والمزمور التاسع والأربعين بعد المائة والعاشر بعد المائة. وأشعيا في الإصحاحات ٨ و ٩ و ٢٦ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٣ و ٥٠ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٦٠ و ٦٥. ودانيال في ص ٢ و ٧. وحبقوق ص ٣. وحجي ص ٢. وزكريا ص ٣. وملاخي في ص ٣.

وهذا قليل من كثير مما في تلك الكتب مع ما اعتورها من التحريف القصدي وغير القصدي.

جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبي الكريم. ولا غرو فإن المسيح آخر الأنبياء في بني إسرائيل ولا أدل على ذلك من أنه قد مضى على القوم ١٩٣٣ سنة «١٩٣٩ الآن» لم يقم فيهم نبي سواه ويحيى بن زكرياء. فلم قاطعهم الله هذه المقاطعة وهجرهم هجراً غير جميل؟

(١) يحمل المسيحيون هذه البشارة على المسيح، والحقيقة إن بشارة موسى في التثنية لا تنطبق على عيسى لأن المفروض المماثلة الحقيقية. وهي لا تنطبق على عيسى، لأن المبشر به نبي - وعيسى عندهم إله - وإنه يكون صاحب شريعة تامة كاملة مستقلة وعيسى لم تكن شريعته كذلك. وموسى كان متزوجاً وله أولاد بخلاف المسيح. وموسى حارب أعداءه ولا كذلك المسيح. وإذا كان المسيح قد وجد ثم انتهى أمره فما معنى أن يبشر تابعوه بأن ملكوت السموات قد اقترب، مع أنه جاء وانتهى كما يقولون. ومن أراد فضل بيان فعلية الاطلاع على كتاب المرحوم «رحمة الله أفندي الهندي» في الكلام على البشارات التي جاءت عن رسول الله في العهدين.

كان المسيح يعبر عن «المبشر به» بلفظ «النبي» ويلفظ «مسيا» ويلفظ «فارقليط» وهو تعريب لفظ «بيريكلتوس» اليونانية ومعناها «الذي له حمد كثير»^(١) كما عبر عنه بعض الكتب بلفظ «إيليا» واليهود يظنون أن إيليا يأتي إليهم ولكن إذا عرفوا أن «إيليا» جملها «٥٣» كجمل لفظ «أحمد» زال الإشكال وتبين المراد. وكان يعبر عن الشريعة الآتية بلفظ «ملكوت السموات» ولفظه قريب من التعبير الذي عبر به دانيال «ص ٢ - في تعبير رؤيا الملك بختنصر» إذ يقول:

وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنئ كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد لأنك رأيت أنه قطع حجر من جبل لا يبدن فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب.

والمسيحيون يحملون البشارة على الدين المسيحي الذي جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام. وإذا نظرنا إلى ما جاء به المسيح لم نجد سوى عظات ونصائح وحكم وأمثال، يريد بذلك توجيه نظر الجماهير من اليهود إلى إخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من مادياتهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم وترك الرياء والنفاق، وأن يلتبسوا بروح الدين الذي

(١) كنت في سنة ١٨٩٣ - سنة ١٨٩٤ ميلادية طالباً بدار العلوم في السنة الأولى. وكان يجلس بجاني - في درس اللغة العربية - العلامة الكبير الدكتور «كارلونيون» المستشرق الطلياني. وكان يحضر درس اللغة العربية بتوصية من الحكومة الإيطالية. فانعقدت أواصر الصلحة المتينة بيني وبينه. وكان المرحوم «أحمد بك نجيب» يعطي محاضرات في الافتياترو العمومي. وكنا نحضرها ونعطي ملازم من كتابه «الأثر الجليل في قدماء وادي النيل» ففي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣١١ خرجنا بعد المحاضرة وسرنا في «درب الجماميز» فقال لي الدكتور «نلينو» هذه الليلة ليلة المعراج؟ قلت: نعم. فقال: وبعد ثلاث أيام عيد السيدة زينب؟ فقلت: نعم ثم قلت له:

ما رأيك يا دكتور في المعراج؟ فقال: هو ذهاب النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ليلاً وصعوده إلى السماء وعوده إلى مكة في ليلة واحدة. فقلت: أنا أعلم إنك تفهم هذا ولكن الذي أريد أن أعرفه هو رأيك في هذا القول؟ هل هو صحيح أو كاذب؟ والرجل مؤدب جداً فقال: هذا شيء عجيب! فقلت: يوجد ما هو أعجب منه؟ قال: ما هو؟ قلت: إن المسيح يصلب ويقتل ويدفن ثم يقوم من الأموات ويصعد إلى السماء ويجلس على يمين الله! قال: وهذا أيضاً شيء عجيب ثم قلت له - وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراة في آداب اليهود اليونانية القديمة - ما معنى «بيريكلتوس»؟ فأجابني بقوله: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها «المعزي» فقلت: إني أسأل الدكتور «كارلونيون» الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة. ولست أسأل قسيساً فقال: إن معناها «الذي له حمد كثير» فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم! فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه «أحمد» فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً، ثم افترقا. وقد ازدددت بذلك تثبيتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح ﴿وَبَشِّرِ رَسُولِ يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَنَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصف: ٦].

ورثوه عن موسى كما جاءهم، وأن يطلقهم من إसार الكهنة الذين يعوجون الشريعة ويتخذونها مستغلاً لإشباع جشعهم، ويحرفونها عن مواضعها إرضاء لشهواتهم النازية ويبشرهم باقتراب «ملكوت السموات» أي الشريعة الإلهية الدائمة وبمجيء «محمد» ﷺ.

ولم يلم الإنجيل بشيء من الأحكام إلا في القليل النادر، كوجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وعدم تزوج من طلق امرأة بامرأة سواها، وعدم تزوج المطلقة بآخر، وعدم جواز الطلاق إلا بعلّة الزنا. وأمر بالعفة وبالعفة في ذلك حتى قال: إن من نظر إلى امرأة يشتهيها يكون زانياً بها قلبه. ونهى عن الأخلاق الرديئة كالمكر والخداع وأكل الأموال بغير حق والرياء والنفاق، وشدد النكير على المتصنفين بالأخلاق الرديئة من اليهود والكتبّة وأفاض في ذلك إفاضة عظيمة ولو أن إنجيل المسيح وصل إلى الناس كما كتبه - وهو صلى الله عليه وسلم لا يكتب إلا ما نزل إليه - لكان هذا الكتاب من أهم الكنوز وأغلاها قيمة.

الأنجيل الموجودة الآن

يطلق اسم «إنجيل» عرفاً على تلك القصص التي وجدت بعد زمان المسيح تقص أحواله وأعماله وأقواله التي وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التي أجزاها الله على يده.

والكنيسة تعترف بأربعة منها هي:

«إنجيل متى» و «إنجيل مرقس» و «إنجيل لوقا» و «إنجيل يوحنا».

والقدر الذي وصل إلى العالم من تلك الأنجيل من الجمل والأمثال والنصائح - المقتطفة مما نطق به المسيح من العظات والحكم - يتضمن حث الناس على توحيد الله تعالى واختصاصه بالعبادة والإخلاص في طاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وحسن المعاملة بين الإنسان وأخيه والتواضع والبعد عن الكبرياء والصلف والظلم والتعدي، وتأمر بالبذل في سبيل الخير وأن الواجب أن لا يتهالك الناس على الدنيا وزخارفها، ويمثل الناس كل واحد بالمسافر، والمسافر لا يتخذ القصور ولا يتأثّل العقار! وأن الواجب على المرء الذي وقف نفسه على طاعة الله أن يتوكل على الله حق التوكل فلا يكون أمر طعامه وكسوته أكبر همه لأن الرازق هو الله وهو كفيل بكل ذلك للمتوكلين عليه. وهكذا من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة.

لم يكتب شيء من هذه الأنجيل في زمانه، ولكن بعد انتهاء أمر المسيح - بالخاتمة

التي انتهى بها - قام بعض التلاميذ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة. وكل واحد يسمي ما كتبه «إنجيلاً» حتى لقد قيل إن الأنجيل بلغت: نيفاً ومائة إنجيل.

بعد أن أفاق المسيحيون من الاضطهادات التي كانت تتوالى عليهم نظروا في تلك القصص، واختارت الكنيسة من بينها القصص التي لا تتعارض مع نزعتها وسلمت بها وجعلتها قانونية، ولم تكثرث لما بين مضامينها من التخالف والتناقض ما دام ذلك لا يخالف المنزع العام الذي قصده الكنيسة. والأنجيل جميعها منقطعة السند، ولا توجد نسخة إنجيل بخط تلميذ من تلاميذ ذلك المؤلف ولا ما يضمن شبهة صحة فيها.

وهاكم بعض ما كتبه الفاضل المرحوم رحمة الله الهندي وغيره عن الأنجيل الأربعة. جاء في صفحة (١٦١) جزء أول وما بعدها من كتاب «إظهار الحق» ما يأتي:

(١) الإنجيل الذي ينسب إلى «متى» الآن - وهو أول الأنجيل وأقدمها عندهم - ليس من تصنيفه يقيناً. بل ضيعوه بعد ما حرقوه، لأن قدماء المسيحية كافة وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متى كان باللسان العبراني، وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحية. والإنجيل الموجود الآن «ترجمته» ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة، حتى لا يعلم اسم المترجم أيضاً باليقين إلى هذا الحين كما اعترف به «جيروم» من أفاضل قدمائهم، فضلاً عن علم أحوال المترجم. وقد أفاض في البيان والشرح والاستشهاد.

وجاء في كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» في صفحة (٢٠) جزء ١ نقل أيضاً العالم «جرجس زوين: الفتوحى اللبناني» في كتابه - المطبوع سنة ١٨٧٣ «في الأصل ١٣٧٨» في بيروت المترجم من اللغة الإفرنسية - إلى العربية - أن «متى قد كتب بشارته أي إنجيله في أورشليم سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القديس «ايرونيموس» والسبب في ذلك على ما ذهب إليه القديس «ايوفانوس» أنه إما إجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح أو إجابة لأمر الرسل ولم يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرية على زعم «أوسيبوس» في تاريخه. وقد وافق «أوسيبوس» القديس «ايرونيموس» أن «بانتوس» إذ كان قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحي في الهند وجد إنجيلاً لمتى الرسول مكتوباً بالعبرانية فجاء به إلى الإسكندرية وبقي محفوظاً في مكتبة قيصر إلى أيامه. لكن هذه النسخة العبرانية فقدت وبعد فقدتها ظهرت ترجمتها إلى اليونانية فلم يعرف الذي كان ترجمها. انتهى.

٢ - إنجيل مرقس:

قال بطرس قرماج في كتابه «مروج الأخبار في تراجم الأبرار» المطبوع في بيروت

سنة ١٨٨٠ ما ملخصه: أن مرقس هذا كان يهودياً لاوياً. وهو تلميذ لبطرس، ولد بإقليم «الخمس مدن» وصنف إنجيله بطلب أهل رومية، وكان ينكر إلهية المسيح، ولم يذكر في إنجيله مدح المسيح لبطرس ومات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة ٦٨ ميلادية. قتله الوثنيون. انتهى.

وقد اختلفت النصرانية في تاريخ تأليف إنجيله. قال صاحب كتاب «مرشد الطالبين» ولفظه في صفحة (١٧٠) أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته انتهى. راجع صفحة (٣١٦) من الجزء الأول من كتاب الفارق.

٣ - إنجيل لوقا:

لا يقل اختلاف النصارى في إنجيل لوقا عن اختلافهم في إنجيل متى. وقد كان لوقا طبيباً من أهل أنطاكية ولم ير المسيح أصلاً، وقد لقن النصرانية عن «بولس» وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم ير المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى إساءات متصلة. ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي، عمد من طريق الحيلة إلى الدخول فيها وأظهر الاعتقاد بالمسيح وادعى أنه صرع، وفي حال صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة إلى متبعيه، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله وانطلقت حيلته على الكنيسة، وهو الذي جعل النصارى يمرقون من واجبات الناموس الذي ما جاء المسيح لإبطال أحكامه، ولكن جاء لتأييدها فأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر وعلم بأن الإيمان وحده كاف في النجاة بدون عمل .. الخ.

وكان تأليف لوقا إنجيله بعد ما كتب مرقس إنجيله وذلك بعد موت بطرس وبولس وفي مبتدأ هذا الانجيل ينص على أنه يرأسل به «ثاوفليس» ليؤكد له صحة الكلام الذي علم به.

وعبارته هي: ص ١ - (١) إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا (٢) كما سلمها إلينا الذين كانوا من البدء معانين وخداماً للكلمة (٣) رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بكل تدقيق أن أكتب إليك على التوالي أيها العزيز ثاوفليس (٤) لتعرف صحة الكلام الذي سمعت به .. اهـ.

قال في كتاب الفارق «فتبين أن إنجيله ليس إلهامياً كما زعموا» وساق على ذلك أدلة خمسة من أقوال العلماء المسيحيين، تلخص في أن «مستر كدل» في رسالة الإلهام نص على أن إنجيل لوقا ليس إلهامياً استناداً إلى المقدمة التي نقلناها. وتصريح «جيروم» بأن بعض القدماء كانوا يشكون في البابين الأولين من هذا الإنجيل، وأنهما ما كانا في نسخة

فرقة «ماوسيوني» وجزم «اكهارن» في صفحة ٩٥ من كتابه أن من - ف ٤٣ إلى ٤٧ من الباب ٢٢ من إنجيل لوقا إلحاقية - وإن «اكهارن» يقول في صفحة ٦١ من كتابه: قد اختلط الكذب الروائي ببيان المعجزات التي نقلها لوقا، والكاتب ضمه على طريق المبالغة الشعرية لكن تمييز الصدق عن الكذب في هذا الزمان عسير. وقول «كلي مي شيس» إن متى ومرقس يتخالفان في التحرير وإذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا.

وليعلم القارئ أن «لوقا» أتى في إنجيله بزيادات عما ذكره «متى» تبلغ نيفاً وعشرين محلاً بعضها معجزات وبعضها حكايات أخرى. وأما زيادته عن مرقس فكثيرة جداً.

٤ - إنجيل يوحنا.

يذهب كثير من المسيحيين إلى أن يوحنا الإنجيلي هو يوحنا أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر وأبوه «زبدى» الصياد ولد في بيت صيدا من الجليل وأنه هو الذي كان يحبه عيسى جداً.

قال جرجس زوين الفتوحى اللبناني: إن «شيرينطوس» و «أبيسون» وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً، وأنه لم يكن قبل أمه مريم؛ فلذلك في سنة ٩٦، اجتمعوا - أي عموم أساقفة آسيا وغيرهم - عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم.

وقد اضطربت كلمة المسيحيين في السنة التي ألف فيها إنجيل يوحنا، فمن قائل سنة ٦٥، ومن قائل سنة ٩٦، ومن قائل سنة ٩٨. وكثير من علماء النصرانية أنكروا أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ. فمن ذلك ما كتبه «استادلن» ونقله عنه صاحب كاتوليك هرالด์ في صفحة (٢٠٥) من المجلد السابع المطبوع سنة ١٨٤٤ ونصه «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الاسكندرية».

وقال «برطشنيذر» إن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنّفها أحد تلاميذه في ابتداء القرن التاسع ونسبه إلى يوحنا ليغتر به الناس، وقال «كروتيس» كان هذا الإنجيل عشرين باباً فألحقت كنيسة «أفاس» الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا اه راجع ٣٤١ و ٣٤٢ من كتاب «الفارق» الجزء الأول.

ومن ذلك نعلم أن الكتاب المذكور كتب لغرض خاص هو إثبات إلهية المسيح والقضاء على التعاليم التي كانت تؤكد أنه إنسان.

ولاختلاف مصنفى الأنجيل اختلفت مصنفاتهم، فبعضهم يذكر في إنجيله حالات أو

عجائب لا يذكرها البعض الآخر، أو يروي الخبر الواحد في إنجيل بعبارة تناقض بالزيادة أو النقص ما ذكر في الإنجيل الآخر! وإليك قليلاً من التناقض بين الأناجيل.

(١) متى ص ٩ (٢) وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحاً على فراش.

مرقس ص ٢ (٢) وللوقت اجتمع كثيرون حتى لم يعد يسمع ولا ما حول الباب فكان يخاطبهم بالكلمة (٣) وجاءوا إليه مقدمين مفلوجاً يحمله أربعة (٤) وإذا لم يقدرُوا أن يقتربوا إليه من أجل الجمع كشفوا السقف حيث كان وبعد ما نقبوه دلوا السرير الذي كان المفلوج مضطجعا عليه.

فعبارة «متى» تفيد أنهم قدموه إليه تقدماً عادياً. وعبارة مرقس تفيد أنهم نقبوا السقف ودلوه، (٢) يقول «متى» إن المسيح لقيه مجنونان من القبور في قرية الجرجسيين وقد صرخا قائلين: ما لنا ولك يا يسوع وأنه أمر الروحين اللذين بهما أن يذهبا إلى قطع الخنازير - متى ص ٨ - ٢٨ وما بعدها - وفي مرقس أنه كان إنساناً واحداً به شياطين كثيرة - ص ٥ .

(٣) وفي «متى» أن رئيساً سجد له وقال له ابنتي ماتت تعال وضع يدك عليها فتحيا، ففعل وحييت بعد موتها - ١٨ وما بعدها ص ٩ متى.

وفي مرقس أنه قال له إنها مريضة على آخر نسمة لبتك تأتي وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا فمضى معه - مرقس ص ٥ : ٢٢ - وما بعدها - وفرق بين من ماتت ومن هي مريضة!

(٤) ذكر مرقس أن المسيح جاء إلى «بيت صيدا» فقدموا إليه أعمى وطلبوا إليه أن يلمسه فأخرجه خارج القرية وتفل في عينيه ووضع يده عليهما وسأله هل يبصر فأخبره أنه يرى الناس كأشجار يمشون فوضع يده على عينيه ثانياً وسأله فأبصر جيداً «ص ٨ آية ٢٢». وهذه لم يذكرها «متى» ولا غيره.

ولا أريد أن أذهب الوقت في عد أمثال هذه الأشياء، فمن شاء فليرجع إلى كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي وكتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» للباحه جي زاده . «والأجوبة الفاخرة» للقرافي وكتاب «هداية الحيارى» لابن القيم.

إنجيل برنابا

كان «برنابا» من أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته والتبشير باقتراب ملكوت السموات.

وقد جاء عنه في كتاب الأعمال ص ٢ (٣٦) ويوسف الذي دعي من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ، وهو لاوي قبرسي الجنس ا هـ. وكان هذا الرجل موثوقا به في الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول في الدين.

أعمال ص ١١ (٢٢) فسمع الخبر عنهم في أذان الكنيسة التي في أورشليم فأرسلوا برنابا لكي يجتاز إلى أنطاكية (٢٣) الذي لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب (٢٤) لأنه كان رجلاً صالحاً وممتهلاً من الروح القدس والإيمان فانضم إلى الرب جمع غفير.

أعمال ص ١١ (٢٩) فحتم التلاميذ حسبما تيسر لكل منهم أن يرسل كل واحد شيئاً خدمة إلى الأخوة الساكنين في اليهودية (٣٠) ففعلوا ذلك مرسلين إلى المشايخ بيد برنابا وشاول.

أعمال ص ١٢ (٢٥) ورجع برنابا وشاول من أورشليم بعد ما كملا الخدمة وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقس.

أعمال ص ١٣ (٢) وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه.

أعمال ص ١٥ (١١) لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضاً (١٢) فسكت الجمهور كله وكانوا يسمعون برنابا وبولس يتحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب في الأمم بواسطتهم.

أعمال ص ١٣ (٣٤) أنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضاً إلى فساد فهكذا قال إني سأعطيكم مراحم داود الصادقة (٣٥) ولذلك قال أيضاً في مزموه آخر لن تدع قدوسك يرى فساداً (٣٦) لأن داود بعد ما خدم جيله بمشورة الله وقد انضم إلى آبائه ورأى فساده (٣٧) وأما الذي أقامه الله فلم ير فساداً:

أعمال ص ١٥ (١) وانحدر قوم من اليهود وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليس بقليلة المعنى رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة.

أعمال ص ١٥ (٢٩) أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون. وكونوا معافين.

أعمال ص ١٥ (٣٥) أما بولس وبرنابا فأقاما في أنطاكية يعلمان ويبشران مع آخرين كثيرين أيضاً بكلمة الرب.

هذا الرجل الذي قصصت عليكم شأنه وقد وجد له إنجيل مدون وهو عبارة عن قصة للمسيح، كإنجيل متى ولوقا ومرقس ويوحنا منقطع السند كما هي منقطعة السند. وهذا الإنجيل يقول فيه مترجمه الدكتور «خليل سعادة» تضاربت فيه آراء الباحثين وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخطبوا فيه ضلالة وهدى وتلمسوا حقيقته بين رشاد وهوى واستنطقوا الآثار والأسفار واستفسروا الأعصار والأمصار فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفي منهم عيلاً أو يبرد لهم غليلاً.

وهذا الإنجيل كانت نسخته بمكتبة البابا «سكتس» بروما واختلسها أسقف يقال له «فرامينو» حين عثر عليها مصادفة فقرأها واعتنق الإسلام. وذلك في أواخر القرن السادس عشر.

ويقول حضرة المترجم في مقدمته إنه يرى أن كاتب إنجيل برنابا يهودي أندلسي متمكن من الديانة اليهودية والاطلاع عليها قد تنصر واطلع اطلاعاً عظيماً على النصرانية، ثم أسلم واطلع على الديانة الإسلامية، ويروي أن هذا الحل أقرب إلى الصواب. ثم قال: وبعد كل ما تقدم فإن هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة وطراز راق من الفلسفة الأدبية وأساليب تسحر الأبواب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة في التعبير، وهو يرمي إلى ترقية العواطف البشرية إلى أفق سام وتنزيهاها عن الشهوات البهيمية، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حاثاً على الفضائل مقبحاً للردائل داعياً الإنسان إلى توضحية نفسه في سبيل الإحسان إلى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع إخوانه.

وقال ناشره «السيد محمد رشيد رضا» في مقدمته:

لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا «جلاسيوس الأول» في بيان الكتب التي تحرم قراءتها. فقد جاء في ضمنها «إنجيل برنابا» وقد تولى «جلاسيوس» البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد أي قبل بعثة نبينا محمد ﷺ. على أن بعض علماء أوروبا يرتابون اليوم في ذلك المنشور كما ذكر الدكتور «سعادة» في مقدمته والمثبت مقدم على النافي.

ومهما كان من الأمر. فإنجيل برنابا واحد من الأناجيل التي ألّف في قصة المسيح وإن كان يمتاز عن سائرهما بالبلاغة، ودقة التعبير، ويصرح بأمور لعلها هي التي زهدت

الكنيسة فيه حتى حرمه «البابا جلاسيوس» ومن ذلك التصريح باسم «محمد» في كثير من المواضع وإني أنقل عن إنجيل برنابا لا لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! بل لأن روايته للحوادث أبين واستقصاءه للأخبار أتم. وإن كان في نظري لا تخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعرية على أن الدكتور «سعادة» مترجم إنجيل برنابا قال في مقدمته - بعد أن أفاض في الاحتمالات والآراء في إنجيل برنابا - بيد أن هناك إنجيلاً يسمى بالإنجيل «الأغنطسي» طمست رسومه وعفت آثاره يتبدى بمقدمة تندد بالقدس «بولس» وينتهي بخاتمه فيها مثل ذلك من إنجيل برنابا. فمن المحتمل أيضاً أن كاتب الإنجيل «الأغنطسي» أبا لإنجيل برنابا.

وأقول: ومن المحتمل أيضاً أن كاتب الإنجيل «الأغنطسي» ألم بما كتبه برنابا في إنجيله واقتبس منه ما أثبتته في إنجيله، وأن إنجيل برنابا يصح أن يكون أبا للإنجيل «الأغنطسي». ولو أن إخواننا المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت إلينا - ولو على نوع من التحريف - وكانت معرضاً جميلاً. ولكن ذلك التحريم أعدم تلك الأناجيل وربما كان فيها الكثير الطيب! وإلا فأين الإنجيل الأغنطسي والأناجيل المذكورة في الأناجيل وأنها وجدت، والأناجيل التي كان الداعون إلى المسيحية كبولس يحذرون الناس من اتباعها، والتي كانوا يقولون إن أصحابها يحولون إنجيل المسيح؟

الحواريون

هم أصحاب المسيح عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وخاصته الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وبادروا إلى الإيمان به وتعلموا له وتعلموا منه وكانوا إثني عشر رجلاً. وهذا اللفظ لم أعرفه عبرانياً. وأما عربياً فقد قال صاحب القاموس: وقد جاء إطلاق حوارى رسول الله على «الزبير بن العوام» ويظهر أن لفظ «الأنصار» في جانب رسول الله بمنزلة «الحواريين» في جانب المسيح عليه السلام. والأناجيل تعبر عنهم بلفظ «التلاميذ».

وإذا جاز لي هذا اللفظ فإني أقول إن معناه «الإخوان في طلب العلم» من لفظ «حبور» العبري وهو التلميذ وجمعه «حبوريم» نطق به في العربية «حواري وحواريين».

ذكرت أسماء الحواريين في «متى» في الإصحاح العاشر من إنجيله.

وقد ذكر برنابا أسماء التلاميذ في الفصل الرابع عشر من إنجيله:

وهذه أسماء التلاميذ الاثني عشر عند متى

- ١ - (سمعان) الذي يقال له بطرس.
- ٢ - (اندراس) أخو سمعان بطرس.
- ٣ - (يعقوب) بن زبدي.
- ٤ - (يوحنا) أخو يعقوب.
- ٥ - (فيلبس).
- ٦ - (برثولماوس).
- ٧ - (توما).
- ٨ - (متى العشار).
- ٩ - (يعقوب) بن حلفى.
- ١٠ - (لباوس) الملقب تداوس.
- ١١ - (سمعان القانونى).
- ١٢ - (يهوذا الأسخريوطي).

وهذه أسماء التلاميذ الاثني عشر عند برنابا

- ١ - (اندراس).
- ٢ - (بطرس الصياد = سمعان).
- ٣ - (برنابا).
- ٤ - (متى العشار).
- ٥ - (يوحنا) بن زبدي.
- ٦ - (يعقوب) بن زبدي.
- ٧ - (تداوس).
- ٨ - (يهوذا).
- ٩ - (برثولماوس).
- ١٠ - (فيلبس).
- ١١ - (يعقوب) بن حلفى.
- ١٢ - (يهوذا الأسخريوطي).

ومن ذلك نرى أن برنابا نقص من الحواريين عند متى اثنين وهما «توما» و«سمعان الغيور» المعروف بالقانوني ووضع مكانهما اسمه واسم «تداوس» فهل الصواب معه؟ ولكن الكنيسة لما رأت إنجيله يخالف ما تهوى حذفت اسمه واسم «سمعان» من بين التلاميذ لأنهما كانا متطابقين في الرأي؟ قد يكون ذلك وأنهم اكتفوا في عقابه بهذا مع بقاء اسمه بين الرسل الذين حملوا قسطاً عظيماً في نشر الدعوة والتبشير باقتراب ملكوت السموات. ومهما كان من الأمر فقد عرفنا أسماء الحواريين على اختلاف رأيي متى وبرنابا.

هؤلاء الحواريون الذين استجابوا للمسيح عليه السلام، وهم الذين بثهم في القرى اليهودية ليدعوا الكفار بدعوة المسيح ومن غلا في شأنه أو كذبه ورد دعوته.

لم تكن استجابة هؤلاء للمسيح دفعة واحدة ولا في يوم واحد بل جاءوا متفرقين. وقد بين ذلك مرقس في إنجيله ص ١٦: ١ إلى ٢٠ وفي ص ١٢: ٢.

وقد قص الله تعالى شأن الحواريين في سورة آل عمران والمائدة والصف. اقرأوا هذه الآيات.

سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ .

تنبيه

قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي المعروف بالقرافي في كتابه المشهور بالأجوبة الفاخرة: إن الأناجيل «خمسة» يعرف النصارى منها «أربعة» مشهورة والخامس لا يعرفه إلا القليل منهم. والأربعة هي: (إنجيل متى) وهو من الحوارين الاثني عشر وبشر بإنجيله باللغة السريانية بأرض فلسطين - بعد صعود المسيح عليه السلام بثمانين سنين - وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً.

(وإنجيل مرقس) وهو من السبعين وبشر بإنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية - بعد صعود المسيح عليه السلام باثنتي عشرة سنة - وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً. (وإنجيل لوقا) وهو من السبعين وبشر بإنجيله باسكندرية باللغة اليونانية. وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً.

(وإنجيل يوحنا) وهو من الاثني عشر وبشر بإنجيله بمدينة أفسس من بلاد رومية - بعد صعود المسيح بثلاثين سنة - وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً.

الخامس يسمى (إنجيل الصبوة) ذكر فيه الأشياء التي صدرت من المسيح في حال طفولته، بنسب لبطرس عن مريم عليها السلام وفيه زيادة ونقصان وقد ترك فيه كثير من معجزاته. ويذكر فيه قدوم المسيح عليه السلام وأمه رضي الله عنها ويوسف النجار إلى صعيد مصر أثناء عودته إلى «ناصر» قرية عند المقدس وإليها ينسب النصارى.

أقول: قد غلط القرافي رحمه الله في قوله عن متى إنه بشر بإنجيله باللغة السريانية في أرض فلسطين. فإن النصارى يجهلون بأية لغة كتب متى إنجيله؟ وإنما يغلب على ظنهم

أنه كتبه باللغة العبرانية. كما أنه غلط أيضاً في قوله عن لوقا أنه من السبعين. فإنه لم يكن منهم ولم ير المسيح. وإنما سمع عن المسيح من القوم الذين شاهدوه. وأول إنجيله شاهد بذلك إذ يقول فيه: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس».

وأما إنجيل يوحنا - الذي ذكره - فليس مقطوعاً بأنه يوحنا أحد الاثني عشر. لأن الغرض من عمل هذا الإنجيل، إنما هو إثبات لاهوتية المسيح. وذلك آخر القرن الأول كما تقدم. فلا بد أن يكون يوحنا آخر سوى الحواري.

وقوله عن يوحنا إنه بشر بإنجيله في «أفسس» من بلاد رومية. فإنه يريد «من بلاد الروم» وهي بلاد الأناضول لأن «أفسس» ليست من بلاد «إيطاليا» كما توهم العبارة بل هي قبالة زاوية خليج «الإسكندرونة» وتوجد «أفسس» أخرى قرب «أزمير».

أما (إنجيل الصبوة) ويقال له (إنجيل طفولية المسيح) فلم يتح لي الاطلاع عليه.

أما عدد إصحاحات كل إنجيل الآن فهي «متى ٢٧ - مرقس ١٦ - لوقا ٢٤ - يوحنا ٢١»

(١) معجزات عيسى عليه السلام

المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي يجريه الله تعالى على يد أحد الأنبياء مع

(١) نقد اللجنة.

(معجزات عيسى عليه السلام)

قال في صفحة ٤١٤ ما نصه:

المعجزة أمر خارق للعادة يجريه تعالى على يد الأنبياء من عباده تصديقاً لهم كأنه بخرق العادة يقول لعباده المرسل إليهم «صدق عبيدي فيما يبلغ عني» ولقد شاهد كثير من الناس خوارق صدرت عن بعض الناس ممن لم يكونوا أنبياء - كما يصدر نحو ذلك عن براهمة الهند وفقراؤها الذين ربوا إرادتهم وتغلبت أرواحهم على أجسادهم - فما بالك برسل اختارهم الله لتبليغ عباده أوامره ونواهيه ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ويرشدوهم إلى طريق الرشاد ويجنبوهم سبل الغواية؟ انتهى كلامه بالحرف.

(رأي اللجنة)

إنما قصد بقوله «ولقد شاهد كثير من الناس خوارق... إلخ» تقريب حصول المعجزة من العقول والدلالة على عدم استبعاد وقوعها على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام. وإننا نلاحظ عليه أن تقريب المعجزة بما يصدر من الخارق عن براهمة الهند - على فرض صحة ذلك - من غير توضيح الفرق بينهما يوجب اشتباهاً للقارئ وتشككاً في رسالة الرسل، ثم إن سلوكه في تعليل =

انتفاء المعارض - كأنه بخرق العادة يقول لعباده المرسل إليهم «صدق عبدي فيما يبلغ

= ظهور الخارق بترية الإرادة وتغلب الأرواح على الأجساد يشعر بأن المعجزة مكتسبة - وهو قريب من مسلك الفلاسفة وغير ما عليه المتكلمون - كما يعلم من علم الكلام.

فكان الواجب في مثل هذا المقام أن يوضح معنى المعجزة توضيحاً تاماً ويميزها عن باقي الخوارق بأن يقول إن المعجزة مقرونة بالتحدي وسالمة من المعارض، ثم يبين باقي الخوارق ككرامات الأولياء، ثم إذا أراد التعرض إلى أن الخارق قد يظهر على يد الكافر كبراهمة الهند - إن كانت الخوارق تظهر منهم - يجب أن يوضح أن مثل هذا يسمى استدراجاً والله أعلم.

«رد المؤلف على نقد اللجنة»

الموضوع الخامس عشر

(معجزات عيسى عليه السلام)

لما شرعت في الكتابة في هذا الموضوع لم يكن من همي أن آتي على تحديد المعجزة تحديداً جامعاً مانعاً ولكن عنايتي كانت موجهة إلى رسمها وإعطاء المطالع فكرة عامة عنها إذ الحد الجامع المانع إنما يكون في الكتب الخاصة بالعلم، فأما الكتاب الذي يكون معرضاً لأن يقرأه المتعلم ونصف المتعلم فالتدقيق فيه يرفعه عن مستوى أذهان كثير من القراء. على أن من الأساليب التي جرى عليها التعبير في القرآن أن ما كان معلوماً قد يسكت عنه. كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا قُرْءَانًا سُرَّتْ بِهِ آلِهَاتُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ بِهٍ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١] أي أنتبهتم به ما آمنوا. فالأمر الذي يكون معلوماً من المقام يصح حذفه وهكذا فعلت ولا لوم عليّ.

وقد لاحظت - حين كتبت - أنه يوجد أقوام يجحدون خرق العادة للأنبياء فأردت أن أدفع في صدور أقوالهم بأننا رأينا ورأى غيرنا من بعض الناس أموراً خارقة للعادة جرت على أيدي البراهمة والفقراء من الهنود - وهم منحطون عن الأنبياء - فكيف بالرسل الذين اختارهم الله تعالى لهداية عباده؟ أي أنهم أولى بإعانة من أرسلهم واصطفاهم لهداية عباده وليس من حق من رأى خرق العادة للمفضول أن ينكر على الفاضل، وليس ذلك من باب تصغير شأن المعجزة.

وقول حضرات أعضاء اللجنة «أن ذلك يوجب اشتباهاً للقارئ وتشككاً في رسالة الرسل» مردود بأن الكتاب قد قرأه آلاف من الناس فلم يشك أحد منهم في رسالة الرسل ولم يقفوا في معناه بحال فأين هو مقتضى الوجوب؟.

وأما قول حضراتهم «ثم أن سلوكه في تحليل ظهور الخارق بترية الإرادة وتغلب الأرواح على الأجساد يشعر بأن المعجزة مكتسبة» مردود بأنني لم أضف ذلك إلى المعجزة وإنما أتيت بتلك العلة في جانب الأقوام الآخرين الذين لا يصلون إلى ذلك إلا بالمعالجة الطويلة المستمرة. وأما الأنبياء فلم أقل في جانبهم شيئاً من ذلك لأنهم إنما يتوجهون إلى الله تعالى الذي يجيبهم إلى ما طلبوه إذا شاء وكانت الحكمة في إجراء ما طلبوه على أيديهم.

وأما قول حضراتهم «فكان الواجب في مثل هذا المقام... الخ» فإني أجيبهم بأن واضع الكتاب أدرى بمن يقرؤون كتابه وبما يصلح أن يشرح له شرحاً وافياً وبما يصلح فيه الإجمال أو التفصيل. وهذه مسألة تختلف فيها الأنظار وذوق أي إنسان لا ينقض بذوق آخر ﴿لِكُلِّ جَمَلًا وَجْهٌ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [البقرة: ١٤٨] و﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: ٤٨].

عني» ولقد شاهد كثير من الناس خوارق صدرت عن بعض الناس ممن لم يكونوا أنبياء - كما يصدر نحو ذلك عن براهمة الهند وفقرائها الذين ربوا إرادتهم وتعلبت أرواحهم على أجسادهم - فما بالك برسل اختارهم الله لتبليغ عبادته وأوامره ونواهيه ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ويرشدوهم إلى طريق الرشاد ويجنبوهم سبل الغواية ؟. وليعلم القراء أن البراهمة ليس عندهم نبوات ولا يدعي أحد منهم النبوة أصلاً، ولو فرض وادعاها أحد منهم لم يجز الله على يده ذلك الخارق لأن إجراءه تصديق له والله لا يصدق الكاذب، وإذا صدر الخارق على يد صالح فهو كرامة وإذا صدر عن غير صالح فاستدراج.

من ذلك أن عيسى عليه السلام لما ابتدأ بإرشاد الناس ووعظهم وردهم إلى طاعة الله والإخلاص في عبادته كان يذكر لهم أنه مؤيد من الله بالمعجزات التي لا يقدر عليها غيره. من ذلك أنه يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ومن ذلك أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وأنه ينبئهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، ويبين لهم أن هذه الآيات كافية في صدقه وحملهم على الإيمان له.

ويبين لهم أنه مصدق للتوراة مؤمن بما فيها حاث على اتباعها، وأنه يحل لهم بعض ما حرم عليهم. فانقسم الناس في أمره بين مصدق ومكذب ومقبل عليه ونافر منه.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتْلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّقُ النَّاسَ فِي الظَّهْرِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤﴾ .

بقي أن يقال : إن ادعاء المسيح عليه السلام أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً . . . الخ . لا يستلزم أن تلك الخوارق حصلت منه بالفعل وليس في آيات القرآن ما يدل على أنه فعل تلك العجائب . وغاية ما تدل عليه الآيات أنه كان عنده استعداد وفيه قوة على عمل ذلك هكذا قال أبو مسلم الذي ينقل عنه الفخر الرازي كثيراً . ومع تسليمنا بما يقول فإن النفس مطمئنة إلى أنه عمل هذه العجائب أمام أعين بني إسرائيل وذلك ظاهر من قوله تعالى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] .

وأما الأناجيل فقد ذكرت من العجائب والخوارق شيئاً كثيراً نذكر لكم منه :

(١) متى ص ٨ (٢) وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلاً يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني فمد يسوع يده ولمسه قائلاً أريد فاطهر وللوقت طهر برصه .
وقد روى هذه الحادثة لوقا أيضاً في ص ٥ - ١٢ .

(٢) شفاء عبد قائد المائة - متى ص ٨ (٥) ولما دخل يسوع «كفر ناحوم» جاء إليه قائد مائة يطلب إليه (٦) ويقول يا سيد غلامي مطروح في البيت مفلوجاً متعذباً جداً (٧) فقال يسوع أنا آتي وأشفيه (٨) فأجاب قائد المائة وقال يا سيد لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي .

(١٣) ثم قال يسوع لقائد المائة اذهب وكما آمنت ليكن لك فبراً غلامه في تلك الساعة .

وهذه الحادثة قد ذكرها لوقا مع اختلاف إذ جعل شيوخ بني إسرائيل هم الذين سألو يسوع أن يشفي الغلام . وذكر هذه الحادثة يوحنا على أن المريض ابن خادم للملك .

(٣) متى ص ٨ (٢٣) ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه (٢٤) وإذا اضطراب عظيم قد حدث في البحر حتى غطت الأمواج السفينة وكان هو نائماً (٢٥) فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين يا سيد نجنا فإننا نهلك (٢٦) فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلي الإيمان ثم قام وانتهاز الرياح والبحر فصار هدوء عظيم .

(٤) جاء في متى ص ٨ (٢٨) ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جداً، حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق وإذا هما قد صرخا قائلين: ما لنا ولك يا يسوع ابن الله أجيئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟ وكان بعيداً منهم قطع خنازير كثيرة ترعى فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطع الخنازير كله فقال لهم امضوا فخرجوا ومضوا إلى قطع الخنازير وإذا قطع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه. أما الرعاة فهربوا ومضوا إلى المدينة وأخبروا عن كل شيء وعن أمر المجنونين، فإذا كل المدينة قد خرجت لملاقاة يسوع ولما أبصروه طلبوا أن ينصرف عن تخومهم.

وقد ذكر هذه الحادثة كل من مرقس ولوقا بجعل لفظ «الجرجسين» بدله «الجدرين» وجعل مجنون بدل مجنونين.

(٥) في متى ص ٩ (١) فدخل السفينة واجتاز وجاء إلى مدينة وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحاً على فراش فلما رأى يسوع إيمانهم قال ثق يا بني مغفورة لك خطاياك. وإذا قوم من الكتبة قد قالوا في أنفسهم هذا يجدف فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟ أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش؟ ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض. أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطاناً مثل هذا.

وقد ذكر هذه الحادثة كل من مرقس ولوقا بتغيير؛ فقد نص مرقس على أن المدينة كفر ناحوم وأغفل ذكرها كل من متى ولوقا. ومتى ذكر أنه قدم له مطروحاً على فراش وقال لوقا دلي إليه على سرير وقال مرقس أنهم نقبوا السقف ودلوه إليه.

(٦) متى في الإصحاح التاسع - ١٨ إلى ٢٦ حادثة مضمونها أن أحد الرؤساء جاء إلى المسيح وسجد له طالباً منه إحياء ابنته التي قد ماتت وفيما هو ذاهب لمست امرأة ثوبه وكان بها نزيف مزمن فشفيت ولما وصلت إلى بيت الرئيس نحى المجتمعين على البنت قائلاً إن الصبية لم تمت ولكنها نائمة فضحكوا عليه فأخرجهم وأمسك بيدها فقامت.

وقد حكى مرقس هذه القصة بتغيير فلم يذكر أن الصبية قد ماتت ولكن قال إنها على آخر نسمة والخبر جاء بموتها والمسيح في المجمع ولوقا هذا حذو مرقس.

(٧) أورد متى في الإصحاح المذكور ف ٢٨ أن المسيح فيما هو مجتاز من هناك تبعه أعميان من هناك يصرخان ويقولان: ارحمنا يا ابن داود!

وبعد لأي قال لهما أتؤمنان إني أقدر أن أفعل هذا فقالا نعم فلمس أعينهما فأبصرا وأكد عليهما أن يكتما الخبر فأذاعاه في كل الأرض.

وقص هذه القصة مرقس وقال إن ذلك كان عند خروجه من «أريحا» وأن الأعمى كان واحداً لا اثنين وأن اسمه «باتيماوس» ووافق لوقا مرقس في هذه القصة بعض الموافقة - ١٠ ص ف ٤٦ -

وأوردها لوقا ص ١٨ - ف ٣٥ موافقاً مرقس في أنه أعمى أبصر وذكر أن المسيح تفل على الأرض وصنع من التفلة طيناً وطلّى به عين الأعمى وقال له: اغتسل في بركة «سلوان» فمضى واغتسل وأتى بصيراً.

(٨) في الإصحاح ١٤ من متى ف ١٥: ولما صار المساء تقدم إليه التلاميذ قائلين الموضوع خلاء والوقت قد مضى. اصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً. فقال لهم يسوع لا حاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان فقال اثنوني بها إلى هنا فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة والآكلون نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد اه. وقد ذكر باقي أصحاب الأنجيل هذه الحكاية مع بعض التخالف.

وهنا أقول: إن هذه المسألة هي مسألة المائدة السماوية^(١) ومعنى كونها سماوية أن

(١) نقد اللجنة

«الموضوع الرابع»

(مسألة المائدة التي أنزلت على عيسى عليه السلام).

قال في صفحة ٤١٩ ما نصه:

في الإصحاح ١٤ من متى ف ١٥: ولما صار المساء تقدم إليه التلاميذ قائلين الموضوع خلاء والوقت قد مضى، اصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً، فقال لهم يسوع لا حاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان فقال: اثنوني بها إلى هنا فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة، والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد اه. وقد ذكر باقي أصحاب الأنجيل هذه الحكاية مع بعض التخالف.

وهنا أقول: إن هذه المسألة هي مسألة المائدة السماوية، ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى يبارك في =

الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة. وبعد أن ذكر الآيات القرآنية الواردة فيها وحكى عن المفسرين الخلاف في نزولها وعدم نزولها قال:

وأنا أكرر القول أن مسألة المائدة هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين، والمراد بإنزالها عليهم أن يرزقهم الله تعالى الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون، ومن أراد المطرب المعجب - من روايات القائلين بنزولها وعن مدة نزولها وكيفية نزولها وما كان عليها من طعام ويقول وغير ذلك - فليرجع إلى «روح المعاني» للألوسي ص ٤١٠ ج ٣. اه كلامه.

(رأي اللجنة)

نحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ - مؤلف هذا الكتاب - ولم نهتد إلى جواب عن تصرفه هذا تطيب إليه النفس.

ذلك أنه اعتبر «إنجيل متى» كتاباً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد في هذا الإنجيل، مع الإغراض عن المأثور في تفسير القرآن، وعمّا أجمع عليه أئمة التفسير. يقول فضيلته ويكرر القول أن مسألة المائدة السماوية التي جاء بها القرآن الكريم هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين - المحكية في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل متى -

ونحن نقول له على فرض صحة القصة التي حكيت في إنجيل متى، كيف يحمل عليها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُ يَسُوعَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥] صدق الله العظيم.

إن ما قص في الإنجيل يتضمن أن التلاميذ طلبوا من عيسى أن يصرف الجموع إلى القرى ليعتصروا طعاماً لعدم وجود ما يكفي هذه الجموع عندهم، فمنعهم عيسى وطلب ما عندهم من الطعام وهو خمسة أرغفة وسمكتان، فدعا الله فبارك فيه وأكل الجميع منه، إلى آخر ما ذكر في الإنجيل...

فأين سؤال الخواريون لعيسى بأن ينزل عليهم مائدة من السماء فيما قص في الإنجيل؟ وأين مجادلة عيسى لهم ونهيه عن مثل هذه المطالب في المعنى ثم اعتذارهم بما قالوه وحكاة الله تعالى عنهم؟ وأين طلب عيسى من الله تعالى بأن ينزل مائدة من السماء تكون عيداً لأولهم وآخرهم؟ وأين إجابة الله له بقول ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ مع الوعيد الشديد لمن يكفر بعد إنزالها.

ثم يقال له: هل يطلق على الطعام - الذي بورك فيه - أنه مائدة أنزلت من السماء وكانت عيداً لأولهم وآخرهم ووقع التوعد بأن من يكفر منهم بعد إنزالها عذبه الله عذاباً لا يعذبه أحدٌ من العالمين! اللهم أنا نبرأ إليك من مثل هذه الآراء، نعم تكثير الطعام والماء يعتبر من المعجزات، ووقع نظيره لسيد الخلق - كما ثبت في الصحيحين - ولكنه غير ما يفهم من آيات المائدة، ثم أي داع إلى مخالفة المأثور والجمهور من المفسرين إلى ما ذكر في إنجيل متى؟.

لقد ذكر المفسرون أن ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم رووا بأسانيدهم عن عمار بن ياسر موقوفاً ومرفوعاً - والوقف أصح - قال: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأمروا أن لا يخونوا... إلخ» الحديث.

= هذا وإننا نعتب على الأستاذ في قوله: «ومن أراد المطرب المعجب... إلخ» فإنه لا يقصد بها بيان رأيه في المائدة إلا التهكم بأئمة التفسير انتصاراً لإنجيل متى - سامحه الله - والله أعلم.

رد المؤلف عليها

«الموضوع الرابع»

(مسألة المائدة)

أود أن أقدم بين يدي القارئ الكريم مقدمة يستبين بها معنى نزول المائدة وهل يتعين أن يكون الإنزال من السماء؟ أو له معان أخرى يمكن حمل ما ورد في القرآن عليها؟ قال الراغب: النزول في الأصل هو انحطاط من علو، وأنزل الله نعمه أو نقمه على الخلق أعطاهم إياها. وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كالإنزال القرآن. وإما بإنزال أسبابه والهداية إليه كالحديد واللباس اهـ.

استعمالات الإنزال وتنزيل الشيء في القرآن

- ١ - ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ [الزمر: ٦] - الإنزال مجاز عن القضاء والقسمه.
- ٢ - ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعَفَةٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٢]. قال الحسن: أي خلقناه، وقال قطرب: هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم، من نزل الضيف.
- ٣ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] - المراد خلقها وإيجادها. وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماء إلى علو شأنها. وقيل المعنى حط السكينة في قلوبهم فكأن قلوبهم منزل لها ومأوى.

- ٤ - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدْرٍ أَلْفٍ مِائَةٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] والمعنى ثم وهب لكم أيها المؤمنون.
- ٥ - ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾ [هود: ١٢] وعبروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز، يكون ذلك على خلاف العادة لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء! ويحتمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي كما يشير إليه سبب النزول، أي لولا أعطى ذلك ليحقق عندنا صدقه.

- ٦ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٧] كآيات التي أنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام.
- ٧ - ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] أي لأي شيء تنزله من خزائن كرمك إليّ.

- ٨ - ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُطُورًا﴾ [الروم: ٣٥] الإنزال مجاز عن التعليم أو الإعلام.
- ٩ - ﴿يَبْنِيْ أَدَامَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] أي خلقنا لكم ذلك بأسباب نازلة من السماء كالمطر الذي ينبت به القطن الذي يجعل لباساً، قاله الحسن. وعن أبي مسلم: إن المعنى أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم وكل ما أعطاه الله تعالى لعبده قد أنزل عليه من غير أن يكون علو أو سفلى، بل هو جار مجرى التعظيم كما تقول: رفعت حاجتي إلى فلان وقصتي إلى الأمير، وليس هناك نقل من سفلى إلى علو.

وقيل المراد قضينا لكم ذلك وقسمنا وقضايانا الله تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتب في اللوح المحفوظ وعلى كل فالكلام لا يخلو من مجاز.

١٠ - ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾ [البقرة: ٥٧] قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع وتبعث الجنوب عليهم السمانى، «بيضاوى».

١١ - ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩] الرجز الطاعون «بيضاوى»...

١٢ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَأْمُونًا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقيل المراد بالبركات السماوية المطر وبالبركات الأرضية النبات.

والذي تلخص لنا أن الإنزال في القرآن ورد بمعنى:

(١) القضاء وأن قضايا الله تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء. (٢) القسمة. (٣) الخلق (٤) التهينة. (٥) الإنعام. (٦) الإيجاد. (٧) الهبة. (٨) الإعطاء بدون سبب عادي. (٩) إجراء الآيات على يد النبي. (١٠) الإصابة. (١١) تيسير الشيء. إذا علمنا هذا علمنا أنه يمكن حمل إنزال المائدة من السماء على تيسير الطعام لهم بدون الأسباب العادية التي يعرفونها.

وقد جرى العرف على تسمية الأشياء التي يعجز الناس عن تعليلها بأنها سماوية - وذكر ذلك في كتب الفقهاء كثيراً.

وتكثير الطعام القليل إلى أن يعم الآلاف من الناس أمر يعجز البشر بمقتضى بشريتهم عن أن يأتوا بمثله.

إذا تقرر هذا عندك أيها القارئ الكريم فأرجو أن تحتفظ بهذه المعاني للنزول وإني أشعر في الكلام على ما جاء بنقد أصحاب الفضيلة لكتابي في هذا الموضوع فأقول:

ابتدأ حضرات أصحاب الفضيلة قولهم في شأن هذا الموضوع بإبداء الحيرة والاندهاش الشديدين وربما رأوا في هذا القول تسهلاً لمهمتهم التي كلفوا بأدائها ليكون برهاناً على أنهم يراز رجل فاتته كل مميزات أهل الإخلاص، وليكون تزكية لأنفسهم ودليلاً على غيرتهم على الدين مقابلة رجل لا غيره لديه على ذلك الدين.

ومن جهة أخرى ليحملوني منة يطوقون بها عتقي! وهي أنهم بحثوا عن طريق فيها لي الخلاص وبذلوا في ذلك غاية ما يستطيعون فلم يظفروا! لأن عملي كان فيه من مجافاة الدين ما قام حائلاً دون ما يمتنون فلهم مني الشكر الأوفى الأوفر.

قالوا: نحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ - مؤلف هذا الكتاب - ولم نهتد إلى جواب عن تصرفه هذا تطمئن إليه النفس ذلك أنه اعتبر إنجيل متى كتاباً ثابتاً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد في هذا الإنجيل مع الإعراض عن المأثور في تفسير القرآن وعمما أجمع عليه أئمة التفسير.

وأنا أتحدى حضراتهم جميعاً وأسمح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا على إيجاد جملة في قلبي قلت فيها «إن إنجيل متى صحيح ثابت معتمد يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد في هذا الإنجيل».

فإن لم يفعلوا ولم يفعلوا فعليهم أن يتقوا الله في عباده وعقائدهم في الدين ويجب عليهم وهم يكتبون في مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس أن يمسكوا بأيديهم أقلاماً يخطون بها، لا مباحث يجرحون بها عباد الله بغير حرم ولا ترة ولا بينة من الله ولا هدى ولا كتاب منير.

رأيي في إنجيل متى وسائر الأناجيل واضح معلوم مبسوط بصفحة ٤٠١ من كتابي وما بعدها. =

= والواجب على حضراتهم أنهم لا يجعلون كتابي عظيم. إذ ليس من الميسور لي ولا لغيري كلما ذكر اسم إنجيل من الأنجيل إعادة كل ما كتب عنه في هذا الكتاب.

وقد قلت عن إنجيل متى في صفحة ٤٠١ نقلاً عن كتاب «إظهار الحق» ما نصه:

الإنجيل الذي ينسب إلى متى الآن - وهو أول الأنجيل وأقدمها عندهم - ليس من تصنيفه يقيناً، بل صنعوه بعد لما حرفوه، لأن قدماء المسيحية كافة وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متى كان باللسان العبري، وهو ضاع، وفقد لسبب تحريف بعض الفرق المسيحية.

والإنجيل الموجود الآن «ترجمته» ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة، حتى لم يعلم اسم المترجم باليقين إلى هذا الحين، كما اعترف به «جيروم» من أفاضل قدمائهم فضلاً عن علم أحوال المترجم.

ولما تكلمت عن معجزات المسيح في ص ٤١٤ تكلمت عن المعجزات التي جاء بها القرآن وأتيت بالآيات الدالة عليها. وقد ذكرت تلك المعجزات في القرآن مجملة ومعجزة المائدة ليس بها نص قطعي الثبوت والدلالة، والمفسرون مختلفون في شأنها. هل وجدت أو لا؟ ولكل من الرأيين مكانة.

وفي صفحة ٤١٦ شرعت أكتب في معجزات المسيح حسب ما بين بالإنجيل، ولما كان إنجيل متى أولها وأقدمها عندهم اعتبرته أصلاً أقيس عليه ما كتب غيره من الأنجيل، فكتب في معجزات المسيح تفصيلاً طبقاً لما نصته كتب المسيحيين ومناقشاً لها بسبب اختلافهم فيها، ومبنيّاً تضارب أناجيلهم فيها وتكذيبهم بعضها ببعض الآخر إلى أن وصلت إلى مسألة إطعام نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد من خمسة أرغفة وسمكتين! التي ذكرها متى كما ذكرها سائر أصحاب الأنجيل بتخالف قليل.

وقد نظرت في هذه المسألة إلى ناحية القرآن الكريم. فوجدتها قد ذكرت على ضرب آخر وهو طلب الحواريين إلى المسيح أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء وأن الله وعده إنزالها متوعداً من كفر بعد إنزالها أن يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. ولم ينص الله تعالى في الكتاب الكريم أنه أنزلها عليهم، وأنهم أكلوا منها ثم آمنوا أو كفروا. ونظرت من كتب التفسير إلى ما قاله ابن جرير والطبري والنيسابوري والحافظ ابن كثير والبعوي والألوسي فوجدتهم يحكون اختلاف العلماء في نزول المائدة من السماء، ووجدت أن مجاهداً يقول أن ذلك مثل ضربه الله تعالى لخلقهم نهاهم به عن مسألة نهي الله الآيات. والحسن يقول لما قيل لهم ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ مَنكُم﴾ [المائدة: ١١٥] إلى آخر الآية قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل «ص ٨١ ج ٧ الطبري». قال النيسابوري وأكدوا هذا القول بأنه وصف المائدة بكونها عيد لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقى العيد إلى يوم القيامة «هامش ٦٤ ج ٧ طبري وهامش ٢٧٤ ج ٣» وفي ابن كثير، ٢٧٩ ج ٣ بشأن نزول المائدة «لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد والله أعلم».

أما أنا فقد وجدت الإشارة إليها في كتبهم وهي أن عيسى قد أطعم من طعام قليل آلاف فترجح عندي أنها المائدة التي ذكرت في الكتاب الكريم فقلت ما نصه:

إن هذه المسألة هي مسألة المائدة السماوية، ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى بارك في الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة وقد حكيت في القرآن الكريم في سورة المائدة... إلخ.

وبما قدمت يعلم أن نزول المائدة أمر غير مقطوع به عندنا. وحينئذٍ فللرأي مجال فيها. ولذلك اختلف العلماء في أمرها على النحو الذي بينا، ولا حرج عليّ في أن أفهمها على النحو الذي فهمته.

= ويذهب عقلي مغضباً إن تركته سدى وأتعبت فيه الشافعي ومالكاً

وقد غضب عليّ حضرات الأفاضل غضبة الجلال على من لم يجن عليه ذنباً، على أن حضراتهم في غضبتهم عليّ إنما يريدون لي لأنفهم ما قاله «متى» وهو لا يعدو أنه من الإسرائيليات وأفهم بدون تعقل ما ذهب إليه المفسرون من الاسرائيليات؟ ولقد شرق القائلون بنزولها وغربوا، وأتهموا وأنجدوا ثم لم يكن كلام أكثرهم إلا أنها من سمك وخبز. وحلاها بعضهم بأن الخبز كان من الرز وزاد بعضهم بقولاً على الأرغفة. وزاد آخرون زيتوناً وتمراً وملحاً وسمناً ورمناً وقديداً. ولكنهم جعلوا قاعدة الطعام الأصلية الخبز والسمك كما قلت:

وأما اشتدادهم في مسألة المحاوراة التي تقدمت دعاء عيسى بنزول المائدة، وأنها في القرآن تخالف ما جاء في الإنجيل: فقد عدم حضراتهم أنني قلت في صفحة (٤) من كتابي أن ما في القرآن هو الحق الذي لا مرية فيه وأن ما خالفه من كتب أهل الكتاب لا يعول عليه. فلا بد أن المحاوراة كانت طبق ما جاء في القرآن لا طبق ما جاء في الإنجيل.

وكان يجدر بحضرات الأفاضل - وقد فحصوا كتابي كله - أن يتذكروا ما كتبت في صفحة (٤٠٢). بشأن إنجيل متى إذ جاء فيها: لكن هذه النسخة العبرانية «نسخة إنجيل متى» قد فقدت. وبعد فقدتها ظهرت ترجمتها في اليونانية فلم يعرف الذي ترجمها.

وأما صلب القصة فإنه لا يخالف ما في القرآن بعد الاعتبارات التي أبديتها فهو على الأقل أمر غير مقطوع بكذبه.

أما عتاب حضراتهم لي على التهكم بمن سموهم أئمة التفسير فلحضراتهم العتي حتى يرضوا. ولكنني أوجه نظرهم إلى أن الأقوال التي قلت فيها «ومن أراد المطرب المعجب... إلخ» ليست إلا اسرائيليات ذكرها المفسرون في كتبهم. ويكفي حضراتهم ليعلموا أنني لم أقل إلا حقاً أن يقرؤوا ما يأتي:

الألوسي ص ٤١٠ ج ٢٠ في تفسير آية المائدة:

وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن ومجاهد: أن القوم لما قيل لهم «فمن يكفر...» إلخ، قالوا لا حاجة لنا بها، فلم تنزل. والجمهور على الأول وعليه المعول. فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر موقوفاً ومرفوعاً - والوقف أصح - قال: أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير. وكان الخبز من أرز على ما روي عن عكرمة. وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله قومه ذلك فدعا أنزل الله تعالى عليهم سفرة حمراء بين غماتين - غمامة فوقها وغمامة تحتها - وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من السماء تهوي إليهم. وعيسى عليه السلام يبكي خوفاً من الشرط الذي اتخذ عليهم فيها. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا رائحة مثلاً قط. وخرّ عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريون سجداً شكرياً لله تعالى. وأقبل اليهود ينظرون إليهم فرأوا ما يغمهم. ثم انصرفوا فأقبل عيسى عليه الصلاة والسلام ومن معه ينظرونها فإذا هي مغطاة بمنديل، فقال عليه الصلاة والسلام من أجرؤنا على كشفه وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه حتى نراها ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذي رزقنا؟ فقالوا: يا روح الله وكلمته أنت أولى بذلك فقام وأستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى ركعات ثم بكى طويلاً ودعا الله تعالى أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً.

ثم انصرف وجلس حول السفرة وتناول المنديل وقال «باسم الله خير الرازقين» وكشف عنها فإذا عليها سمكة، ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها قد نضد حولها بقولها من كل صنف غير الكراث. وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات.

وفي رواية: على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد. فسأله شمعون عنها وأجابته بما تقدمت روايته ثم قالوا له عليه الصلاة والسلام إنما نحب أن ترينا آية من هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام سبحان الله تعالى أما اكتفيتم؟ ثم قال: يا سمكة عودي بإذن الله تعالى حية كما كنت فأحيها الله تعالى بقدرة فاضطربت، وعادت حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسير. ففزع القوم منها وانحاشوا فقال عليه الصلاة والسلام ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم بما تصفون يا سمكة عودي بإذن الله تعالى* كما كنت مشوية ثم دعاهم إلى الأكل. فقالوا يا روح الله أنت الذي تبدأ فقالوا معاذ الله تعالى. يبدأ من طلبها فلما رأوا امتناع نبههم عليه الصلاة والسلام خافوا أن يكون نزولها سخطه وفي أكلها مثله فتحاموها فدعا عليه الصلاة والسلام لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله تعالى الذي أنزلها لكم ليكون مهنتوها لكم وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا كلكم باسم الله واختتموا بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة وصدروا منها وكل واحد منهم شعبان يتجشئ.

ونظر عيسى عليه السلام والحواريون ما عليها كهيته إذ نزلت من السماء لم ينتقض منه شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرى كل زمن منهم أكل منها فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا. وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم. وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون. فزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً. فلما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك جعلها نوباً بينهم. فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا في ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غباً عند ارتفاع الضحى فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم، فأذن الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل رزقي لليتامي والمساكين والزمنى دون الأغنياء من الناس. فلما فعل الله تعالى ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس. وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب المرتابين. فلما علم عيسى عليه السلام ذلك منهم قال: هلكتم وإله المسيح سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم إلى ربكم فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبت بها وشككتكم فيها. فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى. وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أني آخذ المكذبين بشرطي وأنا معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. فلما مى المرتابون وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسايتهم آمنين. وكان آخر الليل سخطهم إلى خنازير وأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، إن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لبني =

الله تعالى بارك في الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة وقد حكيت في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة المائدة ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ [المائدة: ١١٣ - ١١٥].

وهنا اختلف المفسرون. فقال بعضهم إنها نزلت، وأن الذين كفروا بعيسى بعد الأكل من المائدة مسخوا خنازير تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقال آخرون إن المائدة لم تنزل إذ لم ينص القرآن على نزولها بالفعل. وإن الطالبين للمائدة لم يطلبوها بعد أن اشترط الله تعذيب من كفر بعد نزولها تعذيباً شديداً فخشوا أن يحيق بهم العذاب.

وأنا أكرر القول إن مسألة المائدة هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين، والمراد

= إسرائيل هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا. ثم قالوا يا معلم الخير، قلت لنا أن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء إلى قوله تعالى: ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أكواب وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وجاء عنه: إن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا وعن وهب بن منبه: أن المائدة كان يقعد عليها أربعة آلاف فإذا أكلوا شيئاً أبدل الله تعالى مكانه فلبثوا بذلك ما شاء الله. فإذا كان حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة لا يرون فيما نقلته عن الألوسي شيئاً من العجب فإن رأيهم هذا من العجب في نظري ونكون قد أصبحنا في زمن كله عجب في عجب، ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

ولكن هي الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب وبعد هذه السباحة الطويلة أقول لحضراتهم: هل يزيد ما قلته على أنني أنكر نزول المائدة؟ وهل يعينني عند ربي أن أنخلع من الصف الذي يقف فيه حضراتكم وانتظم في صف مجاهد والحسن! إن شرفاً عظيماً لي أن أوقف في صف هذين الأمامين العظيمين الجليلين! ومما تقدم قد استبان ما قلته في كتابي. وأني لم أخالف به نصاً قطعي الثبوت والدلالة وأن التأويل الذي ذهب إليه تشهد له استعمالات القرآن الكريم للنزول وأنه سائق لا غبار عليه. وآخر كلمة أقولها في هذا الموضوع: أن المائدة لا يشهد بنزولها نص قطعي وأن الأقوال فيها ثلاثة: (١) أنها نزلت، (٢) أنها لم تنزل، (٣) أنها مسألة الخمسة الأرغفة والسمكتين. وللقارئ أن يختار ولا أنكر أن القول الأخير لي وعلي تبعته أمام الله إن كانت عليه تبعة.

بإنزالها عليهم أن يرزقهم الله الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون. ومن أراد المطرب المعجب - من روايات القائلين بنزولها وعن مدة نزولها وكيفية نزولها وما كان عليها من طعام ويقول وغير ذلك - فليرجع إلى روح المعاني للألوسي ص ٤١٠ ج ٢ .

(٩) وفي الإصحاح ١٤ متى ف ٢٢: ولوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع، وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده وأما السفينة فكانت قد صارت في وسط البحر معذبة من الأمواج لأن الريح مضادة. وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر، فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال ومن الخوف صرخوا فلوقت كلمهم يسوع قائلاً تشجعوا أنا هو لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال يا سيد إن كنت أنت فمرني أن آتي إليك على الماء وذهب ليأتي إلى يسوع، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذا ابتداء يغرق صرخ قائلاً يا رب نجني ففي الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت ولما دخلا في السفينة سكنت الريح والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله. انتهى.

وقد ذكر هذه الحكاية كل من مرقس ويوحنا مع اختلاف مع متى في بعض تفاصيلها وأهملها لوقا، وقد أشار إلى هذه الحكاية المعري في بعض قصائده إذ يقول لخيال المحبوبة:

سريت إلينا والركاب سفائن كعادك فينا والركائب أجمال
أعمت إلينا أم فعال ابن مريم فعلت وهل يعطى النبوة مكسال
فقله - أم فعال ابن مريم؛ أي مشيت على الماء كما مشى عيسى ابن مريم.

(١٠) جاء في متى ص ١١ ف ٢٣: حينئذ أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى إن الأعمى الآخرس تكلم وأبصر. وقد أهمل مرقس ويوحنا هذه الواقعة. وقد ذكرها لوقا بقوله ص ١١ ف ١٤ وكان يخرج شيطاناً وكان ذلك آخرس ولم يذكر أنه أعمى وجعل الآخرس الشيطان لا المجنون.

جاء في ص ١٢ ف ٩ - متى: ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم (١٠) وإذا إنسان يده يابسة فسأله قائلين هل يحل الإبراء في السبت لكي يشتكوا عليه (١١) فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط في السبت في حفرة أهما يمسه ويقيمه؟ (١٢) فالإنسان كم هو أفضل من الخروف إذا يحل فعل الخير في السبت (١٣) ثم قال للإنسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى.

(١١) في متى إصحاح ١٥ ف (٢١) ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا (٢٢) وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود بنتي مجنونة جداً (٢٣) فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه قائلين اصرفها فإنها تصيح وراءنا (٢٤) فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (٣٥) فأثت وسجدت له قائلة ياسيد أعني (٢٦) فأجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين وي طرح للكلاب (٢٧) فقالت نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها (٢٨) حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة.

(١٢) في متى ص ١٧ ف (١٤) ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثياً له (١٥) يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديداً ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء (١٦) وأحضرتة إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه (١٧) فأجاب يسوع وقال أيها الجيل الملتوي غير المؤمن إلى متى أكون معكم. إلى متى أحتملكم قدموه إلى ههنا (١٨) فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفي من تلك الساعة.

(١٣) في متى ص ١٩ ف (١) ولما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل إلى تخوم اليهودية من عبر الأردن (٢) وتبعه جموع كثيرة فشفاهم هناك.

(١٤) متى ص ٣٠ ف (٢٩) وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير (٣٠) وإذا أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين ارحمنا يا سيد ابن داود (٣١) فانتهرهما الجمع ليسكتا. فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود (٣٢) فوقف يسوع وناداهما وقال ماذا تريدان أن أفعل بكما (٣٣) فقالا يا سيد أن تفتح أعيننا (٣٤) فتحنن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما وتبعاه.

وخالف بطرس في كونهما أعميين وقال كان أعمى واحد.

(١٥) متى ص ٢١ ف (١٨) وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع (١٩) فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط. فقال لها لا يكن منك ثمر إلى الأبد فيبست التينة في الحال.

ذكر الأربعة هذه الحادثة مع الاختلاف في التفصيل، فليرجع إليه في صفحة ١٦٠ في كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق».

(١٦) يوحنا ص ١١ ف (١) وكان إنسان مريضاً وهو «لعازر» ببيت عنيا من قرية مريم وممرتاً أختها (٢) وكانت مريم التي كان لعازر أخوها مريضاً هي التي دهنت الرب

بطبيب ومسحت رجليه بشعرها (٣) فأرسلت الأختان إليه قائلتين ياسيد هو ذا الذي تحبه مريض (٤) فلما سمع يسوع هذا الكلام قال هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به (٥) وكان يسوع يحب مرتا وأختها ولعازر (٦) فلما سمع أنه مريض مكثت حينئذ في الموضع الذي كان فيه يومين (٧) ثم بعد ذلك قال لتلاميذه لنذهب إلى اليهودية أيضاً (٨) قال له التلاميذ يا معلم كان اليهود يطلبون أن يرجعوك وتذهب أيضاً إلى هناك (٩) أجاب يسوع أليست ساعات النهار اثنتي عشرة إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم (١٠) ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه (١١) قال هذا وبعد ذلك قال لهم: لعازر حبيبنا قد نام لكنني أذهب لأوقظه (١٢) فقال له تلاميذه يا سيد إن كان قد نام فهو يشفى (١٣) وكان يسوع يقول عن موته وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم (١٤) فقال لهم يسوع حينئذ علانية لعازر مات (١٥) وأنا أفرح لأجلكم أنني أكن هناك لتؤمنوا ولكن لنذهب إليه (١٦) فقال توما الذي يقال له التوأم للتلاميذ رفقاءه لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه. (١٧) فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام في القبر (١٨) وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم نحو ١٥ غلوة (١٩) وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرتا ومريم ليعزوهما عن أخيهما (٢٠) فلما سمعت مرتا أن يسوع أت لافته وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت (٢١) فقالت مرتا ليسوع لو كنت ههنا لم يمت أخي (٢٢) ولكني الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك (٢٣) فقال لها يسوع سيقوم أخوك (٢٤) فقالت له مرتا أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير (٢٥) فقال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا (٢٦) وكل من كان حياً وآمن بي فلن يمت إلى الأبد أتؤمنين بهذا؟ (٢٧) قالت نعم يا سيد أنا قد آمنت أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم. (٢٨) ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سرّاً قائلة المعلم قد حضر وهو يدعوك (٢٩) أما تلك فلما سمعت قامت سريعاً وأتت إليه (٣٠) ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية بل كان في المكان الذي لافته فيه مرتا (٣١) ثم إن اليهود الذين كانوا معها في البيت يعزونها لما رأوا مريم قامت عاجلاً وخرجت تبعوها قائلين إنها تذهب إلى القبر لتبكي هناك (٣٢) فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع خرّت عند رجليه قائلة له يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي (٣٣) فلما رآها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب (٣٤) وقال أين وضعتموه؟ قالوا يا سيد تعال وانظر (٣٥) بكى يسوع (٣٦) فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه (٣٧) وقال بعض منهم ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا

يموت (٣٨) فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر (٣٩) قال يسوع ارفعوا الحجر. قالت له مرتا أخت الميت يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام (٤٠) قال لها يسوع ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله (٤١) فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي (٤٢) وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني (٤٣) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر: هلم خارجاً فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب.

هذه الخوارق رويت عن المسيح عليه السلام في الأنجيل ولم يرو عنه فيها: أنه صور من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيراً. ولا غرابة في ذلك فقد ذكر القرآن عن أهل الكتاب أنهم نسوا خطأ مما ذكروا به ولقد كانت هذه الخوارق سبباً لافتتان فريق من الناس به حتى وصفوه بأنه ابن الله على معنى النبوة الحقيقية وآخرون قالوا إنه الله حتى عبدوا وتكلف قومه لعبادته ضروباً من المسوغات يرفضها العقل ويمقتها العلم.

خاتمة أمر المسيح

أما خاتمة أمر المسيح بحسب قصص القرآن فهي عجيبة وبسيطة لا تعقيد فيها. ذلك أن المسيح قد أخرج الكهنة والفريسيين بتعليمه وتجريحه إياهم في طريقتهم وفضح رياءهم وخبثهم فأخرجهم ذلك إلى الكيد له والتدبير لقتله. فلما اختمر هذا الأمر في أنفسهم شكوا أمره إلى الوالي طبعاً وزينوا شكواهم بما يستدعي اهتمام الوالي بأن ادعوا عليه أنه يقول إنه ملك اليهود وأنهم لا يقرون بملك سوى قيصر رومية. فأرسل الوالي جنداً للقبض على المسيح عيسى ابن مريم فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه. والمسيح قد اهتم لهذا الأمر وخشي أن ينالوه بالأذى - أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم وألقى شبهه على شخص آخر علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن وعرفته الأنجيل بأنه يهوذا الأسخريوطي - كما هو مشهور - وصار بحيث أن كل من رآه لا يشك من أنه يسوع. فأخذ وصلب وقتل ونجا المسيح من شرهم. وقد أعلم الله تعالى المسيح بما سيتم. وشاع في الناس أن يسوع الناصري قتل بعد أن صلب ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقد أورد الحافظ ابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين: أن المسيح لما ق وقت القبض عليه. ندب أصحابه ثلاث مرات طالباً أن يتقدم واحد منهم ليفديه و نفسه إلى اليهود عوضاً عنه ويكون جزاؤه الجنة، فلم ينتدب له في كل مرة إلا

بعينه. فلما جاء أعداؤه ألقى الله على صاحبه الذي انتدب له شبه المسيح. وصار بحيث لا يشك أحد من أصحابه في أنه يسوع. فألقي القبض عليه وصلب وقتل. ويقول صديقنا «موسى جار الله» أنه «يهودا الأسخروطي».

هذا الأمر محتمل! ولكن الشائع سواء وهو أن الذي ألقى عليه شبهه إنما هو «يهودا الأسخروطي» الذي واطأ الكهنة على الدلالة عليه بأجر.

أما ما جاء عن ذلك في القرآن الكريم فاقراؤه فيما يأتي:

سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾.

سورة النساء: وقد ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾.

وقد اختلف مفسرو القرآن في معنى قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] على ثمانية أوجه وهي:

١ - المعنى رافعك إليّ ومتوفيك وأن الكلام فيه تقديم وتأخير.

٢ - المراد أني مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدد من الفتك به عليه السلام، لأنه يلزم من استيفاء الله أجله موته حتف أنفه.

٣ - المراد قابضك ومستوف شخصك من الأرض، من توفي المال بمعنى استوفاه وقبضه.

٤ - المراد بالوفاة هنا النوم؛ لأن النوم والوفاة يطلق كل منهما على الآخر. وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقاً به.

٥ - أجمعك كالمتوفى لأنه بالرفع أشبه.

٦ - المراد أخذك وإفياً بروحك وبدنك فيكون ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كالمفسر لما قبله.

٧ - المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العاققة عن اتصاله بالملكوت.

٨ - أن المراد مستقبل عملك. قال الألوسي - لا يخلو أكثر هذه الأوجه من بعد ولا سيما الأخير وهناك وجه تاسع:

أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال: توفي الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه. وفي رواية للحاكم عنه: أنه توفاه سبع ساعات ثم أحياه.

والذي أختاره أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد أنجاه الله من اليهود فلم يقبضوا عليه ولم يقتل ولم يصلب. وأن الوجه الثاني وهو: أن المراد من الآية أنني مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، وأن الآية كناية عن عصمته من الأعداء هو الوجه الوجه الذي يجب أن يصار إليه، لأنه المتبادر من المقام والذي يحقق إحباط الله لتدبير أعدائه كما قال تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وما عجبت من شيء فإن تعرض مثل وهب وغيره من مسلمة اليهود لشأن عيسى أعجب! وقد كانوا ألد أعدائه إلى أن أسلموا.

وهنا يأتي سؤال هو: إذا كان عيسى قد نجا سالماً ووقع من ألقى عليه شبه المسيح في هذه الورطة فأين ذهب؟

والجواب: إن جمهور المسلمين على أن الله تعالى قد رفعه بروحه وجسده حياً إلى السماء ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْكَ إِلَى﴾.

بقي أن يقال إن الأخبار المأثورة وردت ناطقة بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده وروحه وأنه حيٌّ فيها، وأنه ينزل في آخر الزمان ويقتل المسيح الدجال.

والجواب على ذلك: أن هذه الأخبار وردت وبعضها مرفوع إلى رسول الله ﷺ وبعضها آراء للمفسرين وبعضها عن مسلمة اليهود ككعب ووهب. ومهما كان من شأنها وصراحة عبارتها فهي أحاديث أو آراء آحاد، ولا تبلغ أن تكون لها قوة صريح القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولا يمكن أن تكون في النفس اعتقاداً يقينياً جازماً تطوع به النفس لصاحبها أن يشهد على الله أنه نقل المسيح حياً إلى السموات، ويشهد على الله مطمئناً بتلك الشهادة أنه سوف ينزل عيسى من السماء إلى الأرض، وأنه سوف يتولى قتل رجل ينزب بالمسيح الدجال سيخلقه الله تعالى ولا يدري متى يكون زمانه، إذ كل تلك الأخبار لا يمكن أن تنهض بإنشاء عقيدة إذا خالفها إنسان وحاد عن الاعتقاد بها برىء من الإسلام وبرىء الإسلام منه!

ولولا ما في تلك الأخبار من الطول لنقلتها ولكني أتركها لأنها معلومة مشهورة فلتراجع في كتب الحديث وفي كتب التفسير والطبري وابن كثير.

وقد جاء في تفسير المنار عن الأستاذ الإمام - بعد أن قرر الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإمامة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح - ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان.

أحدهما: أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب. والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن المطلوب فيها اليقين، وليس في الباب حديث متواتر.

وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها، وهو حكمتها وما شرعت لأجله. فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة! ولكنه جاءهم بما يزعجهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهاها، والمراد منها. ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب.

راجع ص ٢١٧ ج ٣ من «تفسير المنار».

ونقل في تفسير المنار أيضاً: أن الأستاذ الإمام سئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال: إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها، وأن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول ﷺ مبنية لذلك، فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك.

أقول: إني كنت ممن يطمنون إلى هذا التأويل ولكنني الآن أميل كل الميل إلى أن المسيح الدجال إنما هو رجل يقوم من اليهود ويدعي أنه «المسيح» أي الملك الذي وعدوا به، وهم ينتظرونه إلى اليوم. ذلك أنني نظرت إلى اليهود فوجدتهم ينتظرون مسيحاً يعيد إليهم الملك والسلطان في الأرض ويعتزون به. فلما جاءهم المسيح عيسى ابن مريم يشهد بينهم مملكة الأخلاق والتقوى والسجايا الكريمة لم يكن هو المسيح الذي صوّروه لأنفسهم فمكروا به وأرادوا قتله. ولو كان جاءهم بملك الثروة لآمنوا به إذ هم قوم يؤلهون الثروة والمال.

انظروا إليهم وقد قال لهم صمويل ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] ماذا أجابوه به! ألم يجيبوا بقولهم ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؟ ولا غرو إن كان المسيح عيسى مرفوضاً منهم وظلوا على حالهم ينتظرون مسيحاً مالياً إلى اليوم.

وها هم من عشرات السنين جادون في إيجاد وطن قومي لهم في فلسطين وظاهرتهم الحكومة الانكليزية وجاملتهم لأنهم نفعوها بالأموال أيام الحرب العظمى، فهم ساعون في استعمار بلاد فلسطين عاملون على توطيد أقدامهم فيها. وليس بعيداً ذلك اليوم الذي يقوم فيه رجل منهم يدعي أنه مسيحيهم «أي ملكهم» الذي وعدوا به على لسان بعض أنبيائهم ويقيمونه ملكاً في بلاد فلسطين وحيثنذ تقع الفتنة.

ذلك أن اليهود لهم ماض أسود في القتال بينهم وبين مخالفينهم فهم لا يتخرجون من الاستئصال والتمثيل بأعدائهم تمثيلاً تقشعر منه الأبدان - وهذا رأيي وما أميل إليه في مسألة المسيح الدجال - وقد حذر المسيح أصحابه منه فقال: سيقوم بعدي أنبياء كذبة ومسحاء كذبة.

دقيقة ينبغي التنبه لها

مما يسهل إلقاء شبه المسيح عليه السلام على غيره. هذه الحادثة التي ذكرها متى في الإصحاح ١٧ من إنجيله ونصها: -

(١) وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين (٢) وتغيرت هيأته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور. (٣) وإذا موسى وإيلياء قد ظهرا لهم يتكلمان معه (٤) فجعل بطرس يقول ليسوع يا رب جيد أن نكون هنا. فإن شئت أن نصنع هنا ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولإيلياء واحدة. (٥) فيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا (٦) ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً (٧) فجاء يسوع ولمسهم وقال قوموا لا تخافوا (٨) فرفعوا أعينهم ولم يروا أحداً إلا يسوع وحده.

وقد ذكر هذه الحادثة أو المعجزة كل من مرقس ولوقا وأغفلها يوحنا. ومن العجب أنه كان أحد شهودها. ومع ما بينهم من التناقض في عدد الأيام فقد اتفقوا على حصولها في الجملة - راجع مرقس ص: ٩ وما بعدها ولوقا ص: ٩: ٣ وما بعدها.

ومهما كان من الأمر؛ فقد عهد تغير هيئة المسيح تغيراً كلياً في وجهه وثيابه وهذا التغير الذي يقرؤون به يفسر لنا بأجلى بيان إلقاء شبهه على غيره وتغير هيئته حتى أن الذين أتوا للقبض عليه أخذوا من ألقى عليه شبه المسيح فوقع في الورطة ونجا عيسى صلوات الله عليه.

الشبه والاشتباه

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر لكم أن بعض الناس قد يشبه بعضاً آخر. فإني رأيت بالخرطوم أخوين روميين كانا توأمين يشبه أحدهما الآخر كما يشبه الغراب الغراب. وكان المعاملون لهما يخاطب الواحد منهما أحدهما يحسبه الآخر.

وكان صديقنا المرحوم الشيخ محمد أحمددين خريج دار العلوم يشبهه شخص آخر مشابهة تامة هو أخ لنصر أفندي نعمة الضابط بمدرسة الناصرية، وكان الناس يغلطون يحسبون أحدهما الآخر.

وقد قال «سيل» الإنجليزي مترجم القرآن. إن المسيح ويهوذا الأسخريوطي كان كل منهما يشبه الآخر. أي أن يهوذا يشبه المسيح.

كان لي صديق من أقاربي - رحمه الله - وكان له ابن ببعثة في انجلترا وعاد سنة ١٩٢٥ وعين مدرسا للكيمياء والطبيعة بمدرسة الزقازيق الثانوية، فذهب إلى المدرسة وقدم نفسه إلى ناظرها وتعرف إلى بعض المدرسين وتعرفوا إليه، وعاد إلى القاهرة من يومه.

وقد صادف أن وجد شخصاً يشبهه على أهبة السفر بمحطة الزقازيق قد سقط ميتاً. وفي ذلك الحين مر أحد مدرسي المدرسة الثانوية فقال إنه المدرس الجديد الذي جاءنا اليوم! وعرف أن بلده القرشية، فأبلغ البوليس الخبر إلى أهله فخف أخوه وأبناء عمومته وأصدقاءهم إلى الزقازيق وأقيم المأتم بالقرشية؛ ودخل عليه بمستشفى الزقازيق أخوه وأبناء عمه والأصدقاء ولم يشكوا في أنه هو بعينه. وأراد أخوه إنباء أبيه فلم ير أن يفاجئه بهذا الخبر المزعج فأرسل لوالده بمصر تلغرافاً يسأله عنه؛ فجاء إليه الرد سريعاً بأنه موجود عنده بمصر، فاطمأنوا وفرحوا وانقلب مأتم الحزن سروراً وبطل الاستعداد لاستقبال المعزين. وإذا أراد القاريء معرفة اسم ذلك الميت الحي أقول له إنه «عبد العزيز غباشي أفندي» مدرس الكيمياء والطبيعة بالمدارس الملكية الآن هذا أولاً.

(وثانياً) يوجد رأي في مسألة المسيح جاء به «غلام أحمد القادياني» وهو رجل من بلد قاديان في الهند، قال: إن المسيح أنجاه الله من كيد اليهود فذهب إلى بلاد الهند واستقر في بلاد قشمير في شمال الهند بسفح جبال هملايا. وأقام هناك إلى أن وافاه أجله ودفن في تلك البلاد قرب بلدة سرنجار وله قبر معروف.

هذا الرجل ادعى أنه المسيح الموعود بمجيئه! ولكن كيف يكون هو المسيح وهو معروف بأنه «غلام أحمد القادياني» معروف النسب معروف الأسرة؟ فذهب إلى تأويل

الأمر على أن المسيح مات ولا يمكن أن يأتي. ولما كانت الأحاديث دالة على أنه سيأتي في آخر الزمان، قال: أنا المسيح بمعنى أنني أت بهديه وتعاليمه من بث السلام والرحمة والتعاطف والمحبة. ثم زاد في الطنبور نغمة وقال إني رسول ودعواي لا تعارض قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﴿رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فإن معنى ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أن كمال النبوة انتهى به. وهذا لا ينافي بقاء النبوة ولا نجاة لأحد إلا بالإقرار برسالتي وبأني أنا المسيح. وله كلام طويل في كتبه ومجلته التي كان يصدرها في حياته. وجماعته ناشطون في التبشير بمسيحيته الآن في كل مكان.

والدولة الإنكليزية تؤيدهم لأنهم يقولون إن مسيحيهم أبطل الجهاد في الجملة بوحى جاءه، وقد كان مغرماً بالإنكليز يمدح حكمهم ويراه نعمة على بلاد الهند وغيرها.

وفي رأيي أن دعواه مجيء المسيح إلى الهند أمر يحتاج إلى بحث واف^(١) وتحقيق دقيق، ولا يمكن تصديقه إلا بظهور الأمر ظهوراً بيناً وثبوت ثبوتاً قاطعاً لكل شبهة، ولو ثبت ذلك ما أفاده شيئاً: لأننا إذا تمشنا مع الأحاديث - وهي لا تفيد القطع بمجيء المسيح - وجدنا فيها علامات؛ منها: أنه يقتل الدجال ويعاون المهدي المنتظر الذي يذكر فيها ويكسر الصليب... الخ. وهذا لم يحصل من ذلك الرجل وقد يكون الرجل حسن النية في دعواه بريئاً من الخبث ولكنه تخيل ثم خال وكبر معه الوهم الذي كثيراً ما يلزم أرباب الخلوة والرياضات ويقطعهم عن الوصول إلى مرادهم الأعظم، فيستولي عليهم الاشتغال بالخيالات والأوهام عن مقصودهم وهم معذورون لأنهم لم يقولوا ما قالوا عن خبث وسوء طوية. نسأل الله أن لا يجعلنا فتنة للذين آمنوا إنه سميع الدعاء.

(ثالثاً) يوجد فريق آخر من المسلمين - عددهم قليل جداً - قد كونوا لهم اعتقاداً خاصاً انتزعوه من نتف اقتطفوها من الأناجيل تدل على نجاة المسيح من القتل وأن في نجاته سرّاً خاصاً. وذلك أن «بيلاطس» الوالي لم ير فيه شراً ولا أمراً موجباً للقتل - كما في متى ص ٢٧ - ٢٤ - فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغباً أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار أبصروا أنتم.

لوقا - ص ٢٣ (١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب (١٤) وقال لهم

(١) كنت مسافراً في رحلة إلى اسطنبول في سنة ١٩٣٤ وكان في السفينة الأستاذ الوقور الشيخ «أبو الوفاء الشراقي» فسألته؟ هل سمع حين كان في سرنجار بقشмир عن قبر يقربها يقال له قبر النبي الأمير؟ أي قبر المسيح فقال: نعم سمعت بذلك وإنه في الصحراء.

قدمتم إلى هذا الإنسان كمن يفسد الشعب وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشكون عليه (١٥) ولا هيرودس أيضاً لأنني أرسلتكم إليه. وها لا شيء يستحق الموت صنع منه.

لوقا - ص ٢٣ (٢٢) فقال «بيلاطس» لهم الثالثة بأي شر عمل هذا إنني لم أجد فيه علة الموت. يوحنا - ص ١٨ (٣٨) قال له «يسوع» بيلاطس ما هو الحق. ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه علة واحدة. من هذا كله:

١ - نجد أن «بيلاطس» كان يعتقد براءة المسيح من كل ما يرميه به اليهود من الإفساد.

٢ - أن زوجة بيلاطس كانت عاطفة على يسوع مهتمة بأمره حريصة على أنه لا يمس بسوء وقد أوصت زوجها بذلك.

في ص ٢٧ متى (١٩) وإذ كان جالساً على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار لأنني تألمت كثيراً في حلم من أجله.

وإذا فقد علمنا أن المسيح عليه السلام له شفيع عريان شفاعته غير مردودة عند بيلاطس.

٣ - أن يسوع لم يمكث على خشبة الصلب زمناً طويلاً، بل جاء «يوسف» وهو رجل غني من الرامة وكان من تلاميذ المسيح سرّاً ولم يكن راضياً عن فعل اليهود، وكذلك جاء «نيقوديموس» وطلب يوسف من بيلاطس أن يسلمه جسد يسوع فتعجب بيلاطس من موته سريعاً وسأل رئيس الشرط ولما علم منه بوفاته أمر بتسليمه ليوسف فأخذه وكفنه ولفه في كتان ووضع في قبر له كان هناك.

٤ - ينظر أصحاب هذا الرأي إلى أمر آخر. هو أن المسيح لم تكسر ساقاه وهو على خشبة الصلب ولا بعدها، كما كسرت ساقا كل من اللصين الذين صلبا معه، ولا سبب لذلك سوى العناية الخاصة التي كانت تحوطه من ناحية الوالي بيلاطس وزوجه ويوسف ونيقوديموس، فاجتماع هذه الاعتبارات جعلهم يقولون إن المسيح تظاهر بالموت أي أنه أظهر للناس أنه مات ولم يكن قد مات، والذي تولى إنزاله رجل من تلاميذه في الحقيقة، وكان ذلك التظاهر بإيحاء منه، وساعده الوالي على ذلك بأن سلم له في إنزاله عن الخشبة - واليهود في غفلة عما بينه وبين المسيح من العلاقة - ولفه ووضع في القبر الذي يملكه يوسف وأجاف على الباب حجراً.

ولما هدأ الناس ودخلوا في السبت جاء يوسف وأعوانه وأزالوا الحجر وأخذوا يسوع

وواروه في بيته أو بيت نيقوديموس إلى أن يرى من أثر المسامير ثم ذهب إلى بلاد غير البلاد إلى أن تولاه الله بالوفاة.

وهؤلاء يؤولون قوله تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧] بمعنى أن صلبه لم يؤد إلى قتله، ولكن شبه لهم أنه قتل على خشبة الصليب، ولم يكونوا على يقين من أنه مات حقيقة، وذلك معنى ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ولا يخفى ما في هذا التأويل من الضعف والتهافت وهذا الوجه ليس من الوجهة في شيء في نظري. ولعل بعض الباحثين الغربيين قاله فقلوه عنه. وهناك فريق آخر من المسلمين يقولون إن الآيات القرآنية ناطقة بنجاة المسيح عليه السلام من أيدي أعدائه وأن الله تعالى وعده العصمة من كيدهم وتدميرهم، وأنه يموت بالوفاة حتف أنفه، وبأن شبهه ألقي على غيره؛ فأخذوا ذلك الشبه وفعلوا به ما بدا لهم - يحسبون أنه المسيح وهم في الحقيقة يجاهدون في غير عدو - ويحملون قوله ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ على أن عدم قتله أمر يقيني أو ما قتلوا ظنهم يقيناً. فهذا كل ما تدل عليه الآيات.

وأما صعوده إلى السماء فلا يوجد فيه نص قاطع الثبوت والدلالة. ولا حجة للجمهور في القول بأنه رفع إلى السماء. لأنه لا يوجد ذكر للسماء بإزاء قوله ﴿وَرَأَفُكَ إِلَهُ﴾ وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم إلى مكان لا سلطة لهم فيه وإنما السلطان ظاهراً وباطناً فيه الله تعالى فقوله ﴿إِلَهُ﴾ لا يدل على السماء نصاً. بل هو كقول الله في لوط ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] إذ ليس معناه أنني مهاجر إلى السماء. بل هو على حد قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَعاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَفَّعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]

وأيضاً فإن من معاني الارتفاع الإصعاد في البلاد.

قال الفيروز آبادي: رفعه كمنعه ضد وضعه، كرفعه وارتفعه فارتفع. والبعير في سيره بالغ ورفعته أنا لازم متعدد، والقوم أصعدوا في البلاد. ويرد عليهم القائلون بوجوده في السماء، بأن حديث المعراج فيه أن رسول الله ﷺ رأى عيسى ابن مريم في السماء وهؤلاء يردون عليهم بأنه عليه السلام أخبر أيضاً بأنه رأى يحيى بن زكريا معه - ويحيى مات مقتولاً ولا فرق بين الرؤيتين - ورأى آدم وموسى وهارون وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء، فلو كانت رؤيته لعيسى دليلاً على رفعه حياً إلى السماء لكانت دليلاً أيضاً على رفع هؤلاء أحياء. ولما كان الثاني باطلاً كان الأول مثله.

يقال لهم: إذاً فأين ذهب عيسى وما الذي آل إليه أمره؟ والجواب على ذلك: أن الله

تعالى أبهم أمره علينا ولم يقصه، فنحن نفوض العلم بذلك إلى الله تعالى، فليكن أنه أماته في الأرض أو أنامه كما أنام أهل الكهف أو أصدده إلى السماء - لا نقطع بشيء من هذه الأشياء بعينه - بل نبهمه كما أبهمه الله. ومن أراد أن يقطع بشيء فعله دليل ما قطع به. وتفويض العلم إلى الله أسلم في العاقبة وأكثر احتياطاً للدين فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد الله به على نفسه وليس عنده به سلطان مبين.

اليهود وصلب المسيح

لم يوجد عند اليهود إثارة من علم تدل على أن رجلاً جاء باسم «المسيح» في زمن كذا وصلب وقتل. ولا يوجد في تاريخهم الديني شيء من ذلك أصلاً، وهذا هو الذي حداً ملاحظة أوروبا على إنكار وجود المسيح واعتباره إنساناً فرضياً؛ كالأشخاص الذين يفرض وجودهم في الروايات ولا وجود لهم في الحقيقة كالচারث بن همام وأبي زيد السروجي عند الحريري وأبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان الهمداني.

هذا «يوسف» القائد اليهودي - الذي يدعى «يوسيفوس» عند الأوروبيين - كان هذا الرجل قائداً لفرقة من الجند اليهودي في جهة رفع في سنة ٧١ بعد الميلاد، ولما علم بانكسار اليهود أمام «طيطوس» ويثس من النجاح سلم ما بيده وجاء إلى الاسكندرية وألف تاريخه المشهور عن اليهود وأحوالهم وما صار إليه أمرهم.

ومع قرب زمن هذا الرجل من زمن المسيح - ونهاية أمر المسيح لا بد أن تكون قد تمت وهو حي يرزق صغيراً أو كبيراً - ومع هذا فلم يشر إليه بكلمة ولم يجر له ذكر في كتابه أصلاً. ولكن المتأخرين من النصارى ألحقوا به كلمة ضئيلة عن مسألة المسيح ترى في بعض نسخ ذلك الكتاب كأنها الرقعة الجديدة في الثوب الخلق.

فإذا تكلم اليهود عن المسيح وقتله فليس ذلك لأنه مثبت في تواريخهم المأثورة عن الآباء والمشايخ! ولكن لأنهم يسمعون ما يقوله المسيحيون من أن المسيح جاء وقتله اليهود. وإلا فكتبهم خالية من ذلك.

ولقد أخبرني الدكتور «إسرائيل ولفنسون» أن مسألة قتل المسيح كانت موجودة في «التلمود» ولكن اليهود أخرجوها منه حتى لا يعثر عليها أحد من الأمم التي يقيم بينها اليهود، فيكون ذلك مصدر قلق، وأخبرني أيضاً أن المسيح كان من حزب مضاد للسيطرة الرومانية على فلسطين، فأغرى الحكام الرومانيون اليهود ليشتكوا عليه ففعلوا وأمر الحاكم الروماني بقتله. هكذا يقول اليهود!

خاتمة شان المسيح عند النصارى

أما النصارى فإنهم جعلوا خاتمة أمر المسيح عليه الصلاة والسلام خاتمة شنيعة ومأساة مروعة وجعلوا الاعتقاد بحصولها - على الوجه الذي صوروه - أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم، لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلاً في العهد القديم جعلوا حمله جماً وحبته قبة، وأسسوا عليه صلب المسيح. فقالوا: إن «آدم» وهو أول كل البشر قد عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها. فصار خاطئاً وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي. وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين! فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم.

ولما كان الله تعالى من صفته العدل والرحمة، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب وإلا لم يكن عادلاً، والعقاب مناف للرحمة فلا يكون رحيماً إذا عاقب - ولا بد من تحقق العدل والرحمة معاً للخروج من هذا الإشكال - شاء الله أن يحل ابنه (تعالى) الذي هو بنفسه الله في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد جنيئاً في رحمها ويولد منها - فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة، وإلهاً كاملاً من حيث أنه ابن الله - ويكون معصوماً من جميع المعاصي ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس ويأكل ويشرب مما يشربون ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون؛ يأتي أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتلة وأفظعها. وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا في وجهه! كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقتربها هو ولا هم «راجع تفسير المنار صفحة ٢٥ ج ٦».

أقول: إن هذه العملية لم يتحقق بها عدل ولا رحمة. لأنه ليس من العدل في شيء أن يؤتى ببريء غير مذنب ويطوق إثم جريمة جناها سواه، كما أن عقاب غير الآثم ليس فيه رحمة. وبخاصة إذا كان المعاقب من شأن الجبلة أن تشملته بالرحمة ولو مع الذنب، فالابن البار غير الآثم أولى.

والعقاب على هذا الوجه يخالف الكتاب المقدس عندهم. تثنى ص ٢٤ (١٩) لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يقتل.

ولأن الذي يعلق على خشبة ملعون من الله وكيف يلعن الله من لم يخطئ.

ثنية ص ٢١ (٢٢) وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة (٢٣) فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.

وعلى قول المسيحيين، قد بقي الله تعالى مجرداً عن صفتي العدل والرحمة من زمن عصيان آدم إلى أن اهتدى إلى تلك الحيلة التي ظهرت له قبيل خلق المسيح في مريم.

وهناك محذور آخر وهو أن عقيدة الصلب لما كانت هي كل الإيمان كانت حادية لمعتنقها على نبذ كل الفضائل، بل مخدلة عن فعل كل بر وتقوى، فيكون صاحبها أباً حياً فاتكاً ليس للفضيلة في نفسه نصيب.

عقيدة الصلب والفداء: وثنية

بين يدي الآن كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» تأليف «محمد طاهر التنير البيروتي أفندي» وقد جمع فيه الشيء الكثير مما يشترك فيه النصارى مع الوثنيين المختلفي النحل والأمكنة من العقائد.

ولو أردت أن أتبع ما فيه لطال بنا القول وامتد. ولكني أقتصر على ما نقله السيد رشيد رضا «في تفسير المنارج ٦ ص ٣٢» ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

قال «دوان» في كتابه «خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى: ص ١٨١ و١٨٢» ما ترجمته بالتلخيص:

إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة نفسه ذبيحة فداء عن الخطيئة؛ قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم. وذكر الشواهد على ذلك.

منها قوله: يعتقد الهنود أن «كرشنا» المولود البكر الذي هو نفس الإله «فشنوا» الذي لا ابتداء له ولا انتهاء - على رأيهم تحرك حنوا كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه.

وذكر أن «مستر موي» قد صور «كرشنا» مصلوباً، كما هو مصور في كتاب الهنود مثقوب اليدين والرجلين وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً؛ ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب. والنصارى تقول: إن يسوع صلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وقال «هوك» في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته «ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس من الخطيئة».

وقال «هورينوليمس» في ص ٣٦ من كتابه «الهنود»: ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية. ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد «الكياتري» وهو «إني مذنب ومرتكب الخطيئة وطبيعتي شريرة وحملتني أُمي بالإثم فخلصني ياذا العين الحندوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب».

وقال القس «جورج كوكس» في كتابه «الديانات القديمة» في سياق الكلام عن الهنود «ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً لأنه قدم شخصه ذبيحة».

ونقل «هيجين» عن «اندرادا الكروريوس» وهو أول أوروبي دخل بلاد النيبال والتبت أنه قال في الإله «اندر» الذي يعبدونه - أنه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم. وأن صورة الصلب موجودة في كتبهم.

وفي كتاب «جورج جوس الراهب» صورة الإله «اندر» هذا مصلوباً وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة في الطول فالرأسي أقصرها «وفيه صورة وجهه» والسفلي أطولها، ولولا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة أنها تمثل شخصاً.

هذا؛ وأما ما يروى عن البوذيين في «بوذه» فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه، حتى أنهم يسمونه «المسيح، والمولود الوحيد، ومخلص العالم» ويقولون إنه إنسان كامل، وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقب عليها، ويجعلهم وارثين لملكوت السموات.

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم «بيلي» في كتابه - تاريخ بوذه - و «هوك» في رحلته و «مولر» في كتابه - تاريخ الآداب السنسكريتية وغيرهم.

ومن أراد المقابلة بين إله النصارى وآلهة الوثنيين الأولين - في الشرق والغرب - فعليه أن يقرأ كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر أفندي التنير البيروتي، ففيه بلاغ ومقنع.

الأناجيل وصلب المسيح

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل مسألة صلب المسيح وقته! فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر. ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعي المسيحيون لهم الإلهام ويعتقدون خلوها من الخطأ! كان ينبغي أن تكون كتابتهم في هذه الحادثة المهمة - التي هي مناط

النجاة ودعامة الإيمان في نظرهم - متطابقة متوافقة، بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلاً؛ إذ النفس لا تطمئن إلى الأخذ بروايات إذا اتفقت في موضع واحد من قصة - جاءت في جميعها - فإنها تتخالف في مواضع كثيرة. وإذا لم يكن الراوي أميناً كل الأمانة كانت الثقة بروايته ضعيفة والتصديق بها غير سائغ.

وإني أريد أن أحاكم روايات هذه الأناجيل ليتبين المطلع بنفسه ما فيها من الخلل بمجرد المقارنة: متى ص ٢٦: (٣٦) حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها «جشيماني» فقال للتلاميذ اجلسوا ها هنا حتى أمضي وأصلي هناك (٣٨) ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتب فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت أمكنوا هاهنا واسهروا معي (٣٩) ثم تقدم قليلاً وخرَّ على وجهه وكان يصلي قائلاً يا أبتاه أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (٤٠) ثم جاء إلى التلاميذ فوجدتهم نياماً فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا ساعة واحدة (٤١) اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٤٢) فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً يا أبتاه إن لم يكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك (٤٣) ثم جاء فوجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيلة (٤٤) فتركهم ومضى أيضاً وصلى الثالثة قائلاً ذلك الكلام بعينه (٤٥) ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى أيدي الخطاة (٤٦) قوموا ننطلق وهو ذا الذي يسلمني قد اقترب (٤٧) وفيما هو يتكلم إذ يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب (٤٨) والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو امسكوه (٤٩) فللوقت تقدم إلى يسوع وقال: السلام ياسيدي وقبله (٥٠) فقال له يسوع يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه (٥١) وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه (٥٢) فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون (٥٣) أتظن أنني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة (٥٤) فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون (٥٥) في تلك الساعة قال يسوع للجمع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني كل يوم كنت أجلس معكم أعلم في الهيكل ولم تمسكوني (٥٦) وأما هذا فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

ص ٢٧ (١١) فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلاً أنت ملك اليهود؟ فقال له

يسوع أنت تقول (١٢) وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء (١٣) فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك (١٤) فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً.

وكان الوالي معتاداً في العيد أن يطلق للجميع أسيراً واحداً من أرادوه (١٦) وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس (١٧) ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس من تريدون أن أطلق لكم وذلك البار. لأنني تأملت اليوم كثيراً في حلم من علم أنهم أسلموه جسداً (١٩) وإذا كان جالساً أجله (٢٠) ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع (٢١) فأجاب الوالي وقال مَنْ مِنَ الاثنين تريدون أن أطلق لكم فقالوا باراباس (٢٢) قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح قال له الجميع ليصلب (٢٣) فقال الوالي وأي شر عمل فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليصلب (٢٤) فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار. ابصروا أنتم (٢٥) فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا (٢٦) حينئذ أطلق لهم باراباس. وأما يسوع فجلبده وأسلمه ليصلب (٢٧) فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة (٢٨) فعروه وألبسوه رداء قرمزيّاً (٢٩) وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام. يا ملك اليهود (٣٠) وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه (٣١) وبعد ما استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب (٣٢) وفيما هم خارجون وجدوا إنسانياً قيروانياً^(١) اسمه «سمعان» فسخره ليحمل صليبه (٣٣) ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة (٣٤) أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرب. ولما ذاق لم يرد أن يشرب.

مرقس - ص ١٤ (٣٢) وجاءوا إلى ضيعة اسمها جثسيماني فقال لتلاميذه اجلسوا هاهنا حتى أصلي (٣٣) ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب (٣٤) فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا (٣٥) ثم تقدم قليلاً وخر على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن (٣٦) وقال يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك. فأجز عني هذه الكأس ولكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت (٣٧) ثم

(١) صحة هذا اللفظ (قوريني) كما صححه العلامة المرحوم «أحمد زكي باشا» ولأن القيرواني نسبة إلى القيروان أي العسكر وهذه المدينة لم تكن موجودة في ذلك العهد، بل أسسها «عقبة بن نافع» والي أفريقيا من قبل «معاوية بن أبي سفيان» سنة خمسين هجرية كما في ابن الأثير.

جاء ووجدهم نياماً فقال لبطرس يا سمعان أنت نائم. أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة (٣٨) اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٣٩) ومضى أيضاً وصلى قائلاً ذلك الكلام بعينه (٤٠) ثم رجع ووجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه ثم جاء ثلاثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا. يكفي قد أتت الساعة هو ذا ابن الإنسان يسلم إلى أيدي الخطاة (٤١) قوموا لنذهب هو ذا الذي يسلمني قد اقترب. (٤٢) وللوقت فيما هو يتكلم أقبل يهوذا واحد من الاثني عشر (٤٣) ومعه جمع كثير بسيف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ (٤٤) وكان مسلمه قد أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو هو أمسكوه وامضوا به بحرص (٤٥) فجاء للوقت وتقدم إليه قائلاً يا سيدي يا سيدي وقبله (٤٦) فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه (٤٧) فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. (٤٨) فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لص خرجتم بسيف وعصي لتأخذوني (٤٩) كل يوم كنت معكم في الهيكل ولم تمسكوني. ولكن لكي تكمل الكتب (٥٠) فتركه الجميع وهربوا (٥١) وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشباب فترك الإزار وهرب منهم عرياناً.

لوقا - ص ٢٢ (٣٩) وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضاً تلاميذه (٤٠) ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة (٤١) وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى (٤٢) قائلاً يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك (٤٣) وظهر له ملاك من السماء يقويه (٤٤) وإذا كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض (٤٥) ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن فقال لهم لماذا أنتم نيام (٤٦) قوموا لئلا تدخلوا في تجربة (٤٧) وبينما هو يتكلم إذا جمع، والذي يدعى يهوذا أحد الاثني عشر يتقدمهم فدنا من يسوع ليقبله (٤٨) فقال يسوع يا يهوذا أقبلة تسلم ابن الإنسان (٤٩) فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يا رب أنضرب بالسيف (٥٠) وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى (٥١) فأجاب يسوع وقال دعوا لي هذا ولمس أذنه وأبرأها.

يوحنا - ص ١٨ (١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه وعبر «وادي قدرون» حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه (٢) وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع. لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه (٣) فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح (٤) فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه

وقال لهم من تطلبون (٥) أجابوه يسوع الناصري. قال لهم يسوع أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفا معهم (٦) فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض (٧) فسألهم أيضاً من تطلبون. فقالوا يسوع الناصري (٨) أجاب يسوع قد قلت لكم إني أنا هو فإن كنتم تطلبوني فدعوا هؤلاء يذهبون (٩) ليتم القول الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحد (١٠) ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى وكان اسم العبد ملخس (١١) فقال يسوع لبطرس اجعل سيفك في الغمد الكأس التي أعطاني الأب ألا أشربها؟ (١٢) ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه (١٣) ومضوا به إلى «حنان» أولاً لأنه كان حما «قيافا» الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة (١٤) وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب.

إن أدنى نظر يهدي إلى أن عبارات هذه الأناجيل الأربعة متخالفة، وشهادتها لا تصلح أن تكون مستنداً يثبت به أمر له من الأهمية مثل ما لمسألة صلب المسيح، التي يدعيها المسيحيون ويجعلونها أساس إيمانهم.

(١) أن متى يقول إن يسوع جاء مع تلاميذه إلى قرية جثسيماني، ووافقه مرقس. وخالفهما لوقا وقال: إلى جبل الزيتون. وقال يوحنا: عبر وادي قدرون حيث كان بستان. وعبارة يوحنا قريبة من عبارة لوقا في المعنى.

(٢) قال متى ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب ووافقه مرقس. وخالف لوقا في ذلك وذكر أنه انفصل عنهم رمية حجر وصار يصلي. وكذلك أسقط يوحنا هذه العبارة.

(٣) ذكر متى أنه قال لمن معه «نفسى حزينة حتى الموت امكثوا هاهنا واسهروا معي وأنه كان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياماً فعاتب بطرس وأمرهم بالسهرة، ثم صلى وعاد إليهم نياماً فعاد وصلى ثالثة، ثم جاء إلى التلاميذ فقال لهم ناموا واستريحوا وأنبأهم أن ابن الإنسان يسلم إلى أيدي خطاة. ثم قال: قوموا ننطلق هو ذا الذي يسلمني قد اقترب وعبارة مرقس توافق عبارة متى في المعنى.

وأما لوقا فزاد أمرين (أحدهما) أن ملكاً من السماء نزل إلى المسيح يقويه وهو يصلي. (ثانيهما) أنه كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. وأسقط مجيئه إلى التلاميذ المرة الثالثة. وأما يوحنا وهو أحد الثلاثة الذين انفرد بهم يسوع

عن سائر التلاميذ فقد أسقط ذلك كله ولم يذكر شيئاً منه، وهو دليل على عدم حصول شيء من ذلك.

ولعمري إذا كان الملك جاء وهم نيام فما الذي أدراهم به؟ وإذا كان عرقه كأنه قطرات دم وهم نيام في جوف الليل لم يروا شيئاً فكيف يشنون هذا؟

(٤) قال متى وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الكهنة وشيوخ الشعب، والذي سلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو امسكوه. فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام يا سيدي وقبله. فقال يسوع يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه.

وافق مرقس متى في المعنى. وقال لوقا إن المسيح قال له: يا يهوذا أبقبله تسلم ابن الإنسان؟ بدل قوله يا صاحب لماذا جئت وزاد لفظ «والكتب» قبل شيوخ الشعب وأسقط يوحنا «الكتب وشيوخ الشعب» وزاد «الفريسيين» ولم يذكر أن يهوذا قبله أو دل عليه. بل قال إنه كان واقفاً معهم وزاد أن المسيح خرج إليهم وقال لهم من تطلبون؟ قالوا يسوع الناصري فقال لهم أنا هو وأنه لما قال لهم ذلك رجعوا إلى الورا وسقطوا على الأرض. ثم أعاد سؤاله وأعادوا الجواب ثم قال فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون.

(٥) ذكر متى أنهم قبضوا على يسوع ثم إن بطرس استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح برد سيفه إلى مكانه. وقال: أتظن أنني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة فكيف تكمل الكتب؟ إنه هكذا ينبغي أن يكون ثم قال: وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

أما مرقس فقد وافقه في المعنى إلا هرب التلاميذ كلهم وزاد قوله: وتبعه شاب لابساً إزاراً! على عريه، فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب عرياناً - وهو يريد بذلك الشاب يوحنا ذلك الغلام الذي كان المسيح يحبه - وأما لوقا فلم يذكر من ذلك كله سوى أن بطرس ضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح بأن يغمد سيفه. وانفرد عن الجميع بأن المسيح لمس أذنه وأبرأها. وأما يوحنا فلم يزد شيئاً بل نقص جملاً وانفرد بذكر اسم العبد الذي قطعت أذنه أن اسمه «ملخس».

(٦) أن المحاورة التي قصها يوحنا بين المسيح وطالبه وقوله لهم: من تطلبون؟ وقولهم: يسوع الناصري، ورجوعهم وسقوطهم - بعد قوله لهم أنا هو - تدل دلالة

واضحة على أنهم رجعوا بالمطلوب! ومن جهة أخرى تفيد أن، أنا هو، فأمسكوا به فإنهم لا يشكون في يوحنا لم يذكر تقبيله إياه ولا تسليمه لهم. بل المسيح هو الذي دلهم على نفسه إن كان هو الذي قبض عليه!

(٧) يقول يوحنا: إنهم ذهبوا للقبض عليه، وجاء «يهوذا» إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح.

وقد انفرد يوحنا بذلك عن الثلاثة وذلك معقول لأن الوقت كان ليلاً وهم لا يعرفون المسيح، ولذلك استأجروا «يهوذا الأسخريوطى» للدلالة عليه، وهو لم يدلهم عليه ولم يشر إليه حسب رواية يوحنا. وكل من تعرض - صادقاً أو كاذباً - وقال أنا يسوع فهم مصدقوه وآخذوه! ولا سبيل إلى التحقق من شخصيته ما دام يهوذا ساكتاً والليل يساعد على ذلك!.

(٨) انفرد لوقا بأن رؤساء الكهنة كانوا قد ذهبوا للقبض عليه.

بعد القبض على يسوع

يقول متى - ص ٢٦ (٥٧) والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى «قيافا» رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (٥٨) وأما بطرس فتبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة فدخل إلى داخل وجلس بين الخدام لينظر النهاية (٥٩) وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه (٦٠) فلم يجدوا. ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا ولكن أخيراً تقدم شاهدا زور (٦١) وقالوا: هذا قال إنني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه (٦٢) فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هذان عليك (٦٣) وأما يسوع فكان ساكتاً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله (٦٤) قال له يسوع أنت قلت. وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء (٦٥) فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً قد جدف. ما حاجتنا بعد إلى شهودها قد سمعتم تجديده (٦٦) ما ترون فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت (٦٧) حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه. وآخرون لطموه (٦٨) قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك. (٦٩) أما بطرس فكان جالسا خارجا في الدار. فجاءت إليه جارية قائلة وأنت كنت مع يسوع الجليلي (٧٠) فأنكر قدام الجميع قائلاً لست أدري ما تقولين (٧١) ثم إذ خرج إلى الدهليز رآته أخرى فقالت للذين هناك وهذا كان مع يسوع الناصري (٧٢) فأنكر أيضاً بقسم أنني لست أعرف الرجل (٧٣) وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقاً أنت أيضاً

منهم فإن لغتك تظهرك (٧٤) فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنني لا أعرف الرجل . وللوقت صاح الديك (٧٥) فتذكر بطرس كلام يسوع الذي قال له إنك قبل أن يصبح تنكرني ثلاث مرات . فتخرج إلى خارج وبكى بكاء مرأً.

(٩) يقول متى: إن الذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى «قيافا» رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ ووافق على ذلك مرقس ولوقا وأما يوحنا فقال إنهم أوثقوه وذهبوا إلى «حنان» حما «قيافا» فخالف الثلاثة في ذلك .

(١٠) ذكر متى: أن بطرس تبع يسوع من بعيد إلى دار رئيس الكهنة ووافقه مرقس ولوقا، وأما يوحنا فخالفهم وذكر أن بطرس تبع يسوع هو والتلميذ الآخر «يعني يوحنا» .

(١١) ذكر متى أن بطرس كان خارج الدار، فجاءت إليه جارية وقالت وأنت كنت مع يسوع الجليلي؟ فأنكر قدام الجميع . ثم إذ خرج إلى الدهليز رآته أخرى فقالت وهذا كان مع يسوع الناصري فأنكر بقسم إني لست أعرف الرجل، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقاً أنت أيضاً منهم . فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف الرجل، وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذي قال له إنك قبل أن يصبح الديك تنكرني ثلاث مرات فخرج إلى خارج وبكى بكاء مرأً.

وأما مرقس فقد ذكر هذه الحادثة ولكنه جعل بطرس داخل الدار يستدفئ فقالت له الجارية ذلك وأنكر، وأنها هي بنفسها التي رآته في الدهليز وقالت للحاضرين إنه منهم وليست جارية أخرى - كما زعم متى - وأن الديك صاح عقب المرة الأولى لا بعد المرات الثلاث، وأنه في المرة الثالثة صاح الديك مرة واحدة عند متى بعد إنكار بطرس ثلاث مرات! وصياحه عند مرقس مرتين!

وجعل عبارة المسيح له «أنت تنكرني ثلاث مرات قبل أن يصبح الديك مرتين» . وأما لوقا فجعل سؤال الجارية له مرة واحدة هي الأولى فأنكر، وأن سؤاله في المرتين الأخيرتين كان من رجلين لا من جارية ورجال، وزاد قوله: فالتفت الرب ونظر إلى بطرس فتذكر كلام الرب .

وأما يوحنا فقال إن دخول بطرس كان برجاء الغلام «يوحنا» للبوابة التي قالت لبطرس: أأنت أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟ قال ذاك لست أنا. وأن الغلام كان معروفاً عند رئيس الكهنة ودخل مع يسوع أول الأمر ثم رجا البوابة في إدخال بطرس، وأن المصطلين قالوا له أيضاً: أأنت أنت من تلاميذه؟ فأنكر وقال له واحد من عبيد رئيس

الكهنة - وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه - أما رأيك أنا معه في البستان؟ فأنكر أيضاً وللوقت صاح الديك.

فانظروا هداكم الله إلى هذه المسألة الصغيرة القصيرة كم فيها من التناقض؟

(١٢) ذكر متى أن رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه فلم يجدوا، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا! انظروا إلى هذا الكلام القلق المتناقض كل التناقض! إذا كانوا طلبوا شهود زور فلم يجدوا.

فكيف يقول بعد ذلك «مع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا؟» أكتب الكاتب هذا الكلام ومعه عقله؟ إن المرء ليستحي أن يكتب مثل هذا! أما مرقس فكان أكثر حذقاً وأوفر لباقة إذ قال: وكان رؤساء الكهنة والجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا! لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتفق شهادتهم.

والعجب العاجب من أمر إنجيل متى إذ يقول «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه!» كأنهم إذا وجدوا شهادة حق بإدائته لا يقبلونه لأنها شهادة حق! وهم لا يطلبون إلا شهادة الزور!

(١٣) المفهوم صراحة - من عبارة كل من متى ومرقس - أن المحاكمة والمناقشة بين الكهنة ورئيسهم من جهة وبين يسوع من الناحية الأخرى كانت ليلاً عقب القبض عليه ووصوله إلى دار رئيس الكهنة، ولكن لوقا ويوحنا جعلوا المحاكمة صباحاً.

(١٤) ذكر متى أن يسوع مضوا به إلى دار رئيس الكهنة (قيافا) ومرقس وافقه على ذلك إلا أنه خالفه بعدم ذكره اسم «قيافا» ولوقا لم يوافقهما على ذلك بل ذكر أن الرؤساء سلموه إلى الخدام ومكث الليل كله معذباً بأيديهم إلى الصباح، وبعد اجتماع مشيخة الشعب أصدعوه إلى مجمعهم. وقال يوحنا: إنهم أخذوه أولاً إلى دار «حنان» ثم إلى دار «قيافا» رئيس الكهنة موثقاً.

(١٥) يقول متى. ولكن أخيراً تقدم شاهدا زور وقالوا هذا قال: إني أقدر أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه! فقام رئيس الكهنة وقال أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد هذان عليك، وأما يسوع فكان ساكناً، فأجاب رئيس الكهنة وقال أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: أنك قلت وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون

ابن الإنسان جالساً على يمين القوة وآتياً على سحاب السماء! فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً: قد جدف ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها قد سمعتم تجديفه! ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت. حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه وآخرون لطموه قائلين: تنبأ أيها المسيح من ضربك؟

وقد خالف مرقس متى فزاد في شهادة الشهود عليه قول الشاهدين: إني أنقض هذا الهيكل المبني بالأيدي وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد. وقول رئيس الكهنة: أنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو... الخ فخالف متى في هذه المواضع الثلاثة وقوله «المبارك» يريد «داود».

وأما لوقا فقد ضرب صفحاً عن طلب شهود زور على المسيح ولم يذكر سوى قول مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة «إن كنت المسيح فقل لنا. فقال: إن قلت لكم لا تصدقون وإن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني! منذ الآن تجدون ابن الإنسان جالساً على يمين قوة الله. فقال الجميع أفأنت ابن الله؟ فقال لهم أنتم تقولون ذلك» فخالف بذلك كلاً من سابقيه! ومن المفارقات قول لوقا إنهم قالوا له «أفأنت ابن الله» مع أنه لم يدع أنه ابن الله بل عبر بلفظ «ابن الإنسان».

وأما يوحنا فقد ألغى شهادة الزور وشهوده، وألغى محاكمة الكهنة والشيخ والكتبة له، ولم يذكر من ذلك شيئاً أصلاً، وهو من أصحاب المسيح - وقد شهد ما لم يشهده متى - لأنه كان معروفاً من رئيس الكهنة ودخل داره مع يسوع - كما نص على ذلك يوحنا في إنجيله مكذباً مرقس الذي يقول إنه فر عرياناً - وبعد هذا فشهادة من شهدوا مسألة نقض الهيكل ليست شهادة زور فقد جاء في يوحنا ص ٢٠ (١٩) انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه فكيف يصح أن يقال إنهم شهدوا زوراً؟

وبعد هذا كله فإن الكهنة ورئيسهم لم يقولوا إن سبب الموت هو ما ذكر من هدم الهيكل وبناءه! بل حين قال لهم إنه المسيح - على رأي مرقس - وأنه سيكون على يمين قوة الله! ومع هذا فلم يرفعه إلى الوالي بشيء من هذا بل قالوا إنه يفسد الشعب ويقول إنه ملك اليهود.

(١٦) قال متى ص ٢٧: ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى «بيلاطس» النبطي الوالي، ووافقه مرقس غير أنه لم يذكر صفة «بيلاطس» ولا جنسيته. واختصر لوقا وقال في ص ٢٣ (١٠) فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى «بيلاطس» وقال يوحنا في ص ١٨ (٢٨) ثم

جاءوا بيسوع من عند «قيافا» إلى دار الولاية وكان صبح ولم يدخلوا دار الولاية لكيلا يتنجسوا فيأكلون الفصح وهذه العبارة انفرد بها يوحنا دون الثلاثة!

(١٧) قال متى: حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف ثم مضى وخلق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم! فتشاؤروا واشتروا بها «حقل الفخاري» مقبرة للغرباء، لهذا سمي ذلك الحقل «حقل الدم» إلى هذا اليوم. حينئذ تم ما قيل بأرمياء النبي القائل وأخذوا الثلاثين من الفضة من ثمن المثلث الذي ثمنوه من بني إسرائيل وأعطوها عن «حقل الفخاري» كما أمرني الرب.

هذا التقرير قد أسقطه أصحاب الأناجيل الثلاثة وخالفه مؤلف «الأبركسيس» أعمال الرسل ص ١ (١٨) فإن هذا - أي يهوذا - اقتنى حقلاً من أجرة الظلم وإذا سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلوماً عند سكان «أورشليم» حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم «حقل دما» أي حقل دم. فالفرق بين تقرير متى وتقرير سفر الأعمال ظاهر. وإذا أخذنا بأحدهما وجب أن يكون الآخر كاذباً.

وعبارة سفر الأعمال تفيد أن مؤلفه ليس عبرانياً بدليل قوله «في لغتهم» وبعد هذا فقد نسب متى إلى رؤساء الكهنة شراء «حقل الفخاري» بالفضة. وحينئذ تم ما قيل بأرمياء . . الخ.

ونسب القول إلى أرمياء غلط، فإن هذا القول لا يوجد في كتب أرمياء: فذكر متى لاسم أرمياء غلط يقيناً، وإنما هذا القول في سفر زكريا عليه السلام ونصه «فقلت لهم إن حسن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا وزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة فقال لي الرب إلقها إلى «الفخاري» الثمن الذي ثمنوني به فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى «الفخاري» في بيت الرب ثم قصفت عصاي الأخرى» وبعد هذا فهذا الكلام الذي في زكريا لا تعلق له بالمسيح أصلاً وليس في شأنه، ولكن القوم يتصيدون كل الكلام ويلحقونه بكتبهم المقدسة ليقيموه دليلاً على أن الحادثة قد تنبأ بها الأنبياء من قبل، وهي بعيدة من غرضهم بعد السماء من الأرض.

وقد علق صاحب «الفارق» على هذه العبارة بكلام طويل في صفحة ٢٤٨ من الجزء الأول وما بعدها فليرجع إليه من أراد المزيد.

(١٨) اختلفت الأناجيل الأربعة في بسط السبب الذي بنى عليه الوالي صلب المسيح

وكل واحد يخالف الآخر. وإذا قلنا الوالي فلا نعني بذلك أنه دان المصلوب أو وجده مذنباً، فإن كل أناجيل القوم مصرحة بأنه لم يجد فيه علة تستوجب الموت. قال متى: فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلاً: أنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع أنت تقول. وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء فقال له «بيلاطس» أما تسمع كم يشهدون عليك، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة فتعجب الوالي جداً! وقد وافقه مرقس.

وأما لوقا فأثبت ما لم يثبتته متى ومرقس. فقال ص ٢٣ (٢) وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: إنا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك! فسأله بيلاطس أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول. وبديهي أن هذا ضد ما قاله متى من أنه لم يجب بشيء حتى تعجب الوالي.

والمطلع على الأنجيل يعلم فساد تلك الدعاوى بما أثبتته أصحابه من قوله: اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ومن هربه ممن أرادوا المنادة به ملكاً. فلو أنه المسيح نفسه لتبرأ من مقالاتهم واستشهد على نقض دعواهم. ولكنه المسكين «يهوذا الأسخريوطي» الذي دهش للقبض عليه وارتبك عقله واستغرق في التأمل فيما هو قادم عليه من أهوال الموت فأنساه ذلك الجواب.

وقد انفرد بإحياء «هيرودس» الذي أثبت موته من قبل وذكر أن «بيلاطس» أرسل إليه يسوع وكان هيرودس الميت من زمن مديد يتمنى رؤية المسيح وأرادوا أن يصنع أمامه آية فلم يجبه بشيء. وكيف يجيبه أو يصنع آية وليس هو المسيح صاحب الآيات وإنما هو يهوذا؟

وأما يوحنا فقد خالف الثلاثة في ١٨ (٢٨ - وما بعدها) إذ قال إنهم لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فخرج إليهم بيلاطس وقال آية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟ فأجابوا وقالوا لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك، فقال بيلاطس: خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً. ليتم قول يسوع الذي قاله مشيراً إلى آية مية كان مزمناً أن يموت.

فعلم أنهم لم يذكروا الأسباب التي بنوا عليها طلب قتله، وهو بذلك يخالف لوقا الذي جعل تلك الأسباب (١) الإفساد في الأرض (٢) ادعاء الملك (٣) التحريض على عدم أداء الجزية لقيصر. وزاد عن الثلاثة قوله: ليتم قول يسوع .. الخ.

(١٩) يعلم من متى ص ٢٧ (١٨ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤) أن بيلاطس كان يعتقد براءة

المسيح وأنهم أسلموه جسداً وأنه لا شر فيه، وأنه غسل يديه قدام الجميع قائلاً. إني بريء من دم هذا البار فكيف يصح مع هذا أن يقال إنه جلده وأسلمه ليصلب كما يقول متى؟ وقد وافقه مرقس في المعنى مع هذا التناقض. وأما لوقا فخالفهما في الجلد فلم يذكر أن بيلاطس جلده ولم يذكر أنه غسل يده براءة من دمه. وأما يوحنا فوافق ثلاثتهم على اعتقاد الوالي براءة يسوع وجلده، ولم يذكر غسل يده.

(٢٠) ثابت من الأناجيل الأربعة أن اليهود طلبوا صلب المسيح وإطلاق مجرم لهم اسمه «باراباس» وقد اختلفت صفتهم لباراباس. قال متى: إنه كان أسيراً عند بيلاطس. وقال مرقس ولوقا: إنه كان في فتنه حصل فيها قتل. وقال يوحنا وكان باراباس لصاً.

(٢١) قال متى ص ٢٧ أخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتبية، وعروه وألبسوه رداء قرمزيًا وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه. وكانوا يجثون قدامه ويستهنئون به قائلين السلام يا ملك اليهود! وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه. وبعد ما استهنؤوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب.

وقد وافقه مرقس على ما ذكره إلا في شيئين: التعرية ولون اللباس؛ فقد جعله أرجوانياً لا قرمزيًا.

وأما لوقا فلم يجعل الاستهزاء بالمسيح في دار الولاية كما فعل متى ومرقس، ولم يقل إن العسكر المستهنئون. بل ذكر أن الشعب هو الذي كان يهزأ به عند موضع الصلب، ولم يذكر تعرية ولا رداء قرمزيًا ولا أرجوانياً. نعم إنه جعل «المرحوم هيرودس» هو الذي ألبسه رداء لامعاً.

ويوحنا جعل أن العسكر - أي الفتوات - هم الذين ضفروا له إكليل الشوك وألبسوه أرجواناً، ولم يذكر تعرية كما قال متى. وزاد يوحنا: أن بيلاطس أعاد عليه السؤال فلم يعطه يسوع جواباً، وقال له أما تكلمني؟ وكان بيلاطس يطلب أن يطلقه لولا تحكم اليهود.

(٢٢) يقول متى ص ٢٧ (٣٢) وفيما هم خارجون وجدوا إنساناً قيروانياً^(١) اسمه

(١) الصواب «قورينا» نسبة إلى «قورين» كما تقدم في صفحة ٤٩١.

«سمعان» فسخره ليحمل صليبه. وزاد مرقس كنيته فقال «أبو الكسندرس وروفس» ووافق لوقا متى. وقد ناقض يوحنا الثلاثة وكذب مسألة «سمعان القيرواني» ص ١٩ : ١٧ وذكر أنهم مضوا به وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له «جمجمة».

(٢٣) ذكر متى أنهم لما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها، ولم يبين من هم الذين اقتسموا ثيابه بطريق القرعة. ومثل ذلك في مرقس، ونسي لوقا مسألة اللباس والقرعة فلم يكتبها بتدقيق. وأما يوحنا فقد ذكر أن العسكر هم الذين اقتسموا ثيابه بلا قرعة، وأما قميصه فاقترعوا عليه.

(٢٤) قال متى ص ٢٧ (٢٣) ولما أتوا إلى موضع يقال له «جلجثة» وهو المسمى موضع الجمجمة أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرّب ولما ذاقه لم يرد أن يشرب. وقد خالفه مرقس فقال أعطوه خمراً ممزوجة بمر ليشرّب فلم يقبل. وأما لوقا فقال - عن العسكر الذين استهزؤا به - إنهم كانوا يقدمون له خلاً. ولم يقل إنه ممزوج بمرارة كما قال متى. وأما يوحنا فقد أسقط العبارة من أصلها.

(٢٥) انفرد لوقا بقوله وتبعه جمهور كبير والنساء اللواتي كن يلطنن أيضاً وينحن عليه فالتفت إليهن يسوع وقال يا بنات «أورشليم» لا تبكين علي. بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن. لأنه هو ذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع. حينئذ يبتدئون يقولون للرجال اسقطي علينا وللأكام غطينا لأنهم كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس؟ ولم يذكر ذلك متى ولا مرقس ولا يوحنا!

(٢٦) اتفق الأربعة أصحاب الأناجيل على أن المسيح صلب وصلب معه اثنان آخران. قال متى ومرقس: إنهما لصان. وقال لوقا: وجاء باثنين آخرين مذنبين ليقتلا معه. وقال يوحنا: وصلبوا اثنان آخرين معه. ولم يذكر وصفهما.

(٢٧) ذكر متى: أن المجتازين والكتبة والكهنة والشيوخ كانوا يجدفون عليه ويستهزؤون به، وأن اللصين اللذين سمرا وصلبا معه كانا يعيرانه، ووافقه على ذلك مرقس. وذكر لوقا: أن المعير أحدهما فقط، وأن الثاني كان ينهيه وانتهره قائلاً: أولاً تخاف أنت الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه! ثم قال ليسوع اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك. فقال يسوع الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس. وأما مرقس فأسقط استهزاء اللص واللصين به.

(٢٨) لم يحدد كل من متى ولوقا ويوحنا وقت الصلب في أية ساعة ابتداء؟ ولكن حدده مرقس الساعة الثالثة.

(٢٩) اجتمع الثلاثة من أصحاب الأنجيل على أنه عند الساعة السادسة كانت على الأرض ظلمة إلى الساعة التاسعة. وخالفهم يوحنا فلم يذكر ظلمة على الأرض أصلاً.

(٣٠) اختلف أيضاً أصحاب الأنجيل في الكلمات الأخيرة للمسيح. فقال متى ص ٢٧ (٤٦) ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقنتني! أي إلهي إلهي لماذا تركتني ^(١) فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيلياء، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلا وجعلها على قصبه وسقاه، وأما الباقون فقالوا اترك لنرى هل يأتي إيلياء يخلصه؟ فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح.

وقد خالف مرقس فقال: إنه قال الوي الوي لما شبقنتني، ولم يقل إيلي إيلي - كما يقول متى - وخالفهما لوقا فقال: إنه نادى بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يدك استودع روحي، ولما قال هذا أسلم الروح وخالفهما في مسألة سقيه الخل. وخالف الثلاثة يوحنا فلم يذكر للمسيح كلاماً سوى أنه كانت أمه والغلام الذي يحبه واقفين مع بعض النساء بقربه، فقال لأمه: يا امرأة هو ذا ابنك، ثم قال للتلميذ هو ذا أمك.

وخالف يوحنا الثلاثة فذكر أن سقيه الخل بعد أن طلب الشرب وقال أنا عطشان. والثلاثة جعلوا ذلك من الساقى ابتداء ولم يذكر شيئاً من قوله: إيلي أو إلوي.

(٣١) قال متى ص ٢٧ (٥٠) فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، ووافق مرقس. وقال لوقا: إنه قال ونادى بصوت عظيم يا أبتاه في يدك استودع روحي، ولما قال هذا أسلم الروح. وقال يوحنا: فلما أخذ يسوع الخل قال قد أكمل ونكس رأسه وأسلم الروح.

(٣٢) قال يوحنا ص ١٦ (٢٥) وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه «مريم زوجة كلوبا» و «مريم المجدلية» فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة هو ذا ابنك ثم قال للتلميذ: هو ذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.

وقد انفرد يوحنا بذكر هذه العبارة فلم يذكرها سواه، وقد قال بطرس عن التلاميذ:

(١) في الأنجيل اليونانية «إيلي إيلي لما سبخنتني» فإذا وضعنا «شينا» موضع السين المهملة ووضعنا «كافاً» موضع الخاء - كما تقتضيه طريقة تعريب العبري - كان اللفظ هكذا «الهي الهي لم شبقنتني» أي أوقعنتني في شبكة ومحال على المسيح أن يقول ذلك لربه! وهذا قرينة على أن المصلوب غيره.

إنهم حين القبض على يسوع هربوا وكان منهم غلام يريد يوحنا يلبس رداء على عريه فأمسكه جندي فترك له الرداء وهرب عرياً! فكيف طوعت له نفسه أن يعود ليرى يسوع مصلوباً وقد هرب لمجرد القبض عليه؟ وعبرة يوحنا تفيد أن هؤلاء الواقفات كن قريبات منه وهو مصلوب.

وأما لوقا فلم يذكر قرب أحد من معارفه إليه ولم يشر إليهم بكلمة بل قال: وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك. ولم يذكر مرقس أحداً من معارفه نظر حادثة الصلب من قريب. بل قال: وكانت أيضاً نساء ينظرون من بعيد بينهن «مريم المجدلية» و «مريم أم يعقوب الصغير» و «بوسي» و «سالومة» اللواتي أيضاً تبعنه من الجليل. وأخر كثيرات اللواتي صعدن معه إلى اورشليم.

وعبرة متى توافق عبارة مرقس.

فهذه الأناجيل لم تتفق حتى في هذا الموقف الجلي! وعلى كل فلم يكن أحد من معارف يسوع على قرب من موضع الصلب.

(٣٣) ذكر متى ص ٢٧ (٥١) أن حجاب الهيكل قد انشق إلى نصفين اثنين من فوق إلى أسفل حين أسلم المسيح الروح، والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين.

وأما مرقس فقد أهمل هذا القول كله ولم يذكر منه شيئاً وتواضع لوقا قليلاً فقال ص ٢٣ (٤٥) وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه. ولم يذكر زلزلة ولا تشقق الصخور ولا تفتح القبور ولا قيام الأموات! وقد ذكر: قبل إسلام الروح، خلافاً لمتى!

وأما يوحنا وهو الذي يزعمون أنه كان حاضراً صلب المسيح فلم يذكر شيئاً من ذلك كله!

(٣٤) اتفق متى ومرقس ولوقا على أن الذي تسلم جسد المسيح ولفه في ثياب كتان ودفنه هو «يوسف» وصفه متى بأنه كان غنياً ومشيراً صالحاً. وانفرد متى بأنه كان تلميذاً ليسوع ومنتظراً ملكوت الله. وخالفهم يوحنا فأشرك معه «نيقوديموس».

أراني قد مللت جداً من إيراد الأقوال المتخالفة في هذا الشأن من شؤون المسيح - بين هذه الأناجيل وبعضها الآخر - وأظن أن القارئ قد مل كما مللت وسئم كما سئمت. ولو ذهبت في هذا الشوط أعدد هذا التضاد بين الأناجيل لأضعت وقتاً ثميناً.

أقول: إني أعتمد على فطنة القارىء وأحيله على خاتمة هذه الأناجيل ليرى تخالفها أيضاً واضحاً في مسألة قيام المسيح من الأموات وصعوده إلى السماء، فإنه - إن شاء الله - لا يجد رجلاً واحداً يذكر له أنه رآه قد قام من القبر وخرج منه وصعد إلى السماء وهو ناظر! وإنما سيجد «مريم المجدلية» و«مريم» الأخرى قد أتتا بحنوط وطيب لتحنطاً وتطيباً جسده يسوع فلم تجدها. ولا تسئل عن تخالف الأناجيل في هذه النقطة! وهكذا.

وبعد كل ما قدمنا فهل يظن ظان أن «محمداً» ﷺ هو الذي ابتدع مسألة نفي صلب المسيح وقلته من تلقاء نفسه؟ إن «محمداً» ﷺ لم يكن له غاية يريد إدراكها من نفي صلب المسيح وقلته! بل إثباته لذلك أدخل في الباب الذي طرقة كثيراً - من أن اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق - فحادثة المسيح أدل على ما يدعيه إذا كان قد قتل حقيقة، ولكنه ما كان ينفي أو يثبت الشيء من تلقاء نفسه وكما يشتهي ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وإذا نظرنا إلى مسألة صلب المسيح وقلته لم نجد لها عند المسيحيين مسألة إجماعية. بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل فمن القائلين بذلك «الساطرينوسيون» و«الكاربوكراتيون» و«المركيونيون» و«البارديسيانيون» و«التاتيانيسيون» و«البارسكاليونون» و«البوليسيون» وهؤلاء مع كثيرين غيرهم لم يسلموا بوجه من الوجوه: أن المسيح سمر فعلاً ومات على الصليب وما ذكر هنا مقرر في تاريخهم «موسيهيم» الذي يدرس في مدارس اللاهوت الإنجيلية.

ومن القائلين بأن الشخص المصلوب غير عيسى قطعاً وأنه لم تسلط عليه أيدي مضطهديه بل رفع إلى السماء: طوائف «الدوسيتية» - «المريسيونية» - «الفلنطينائية». وهنا شهادات من علماء النصرانية تفيد المطلع بصيرة:

الأولى - قال المسيو «أرادوارسيوس» الشهير أحد أعضاء «الانستودي» «فرانسي» في باريس المشهور بمعارضة المسلمين في كتابه «عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية» صفحة (٤٩) أن القرآن ينفي قتل عيسى وصلبه ويقول بأنه ألقى شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه. وما قاله القرآن موجود عند طوائف منهم «الباسيليديون» كانوا يعتقدون بغاية السخافة أن عيسى وهو ذاهب لمحل الصلب ألقى الشبه على «سيمون» السيرناني تماماً وألقى شبه «سيمون» عليه. ثم أخفى نفسه ليضحك على مضطهديه «اليهود» الغالطين - ومنهم «السرنتيون» فإنهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل عيسى. وقد عثر على فصل من كلام الحواريين وإذا كلامه كلام «الباسيلديين» قد صرح إنجيل «القديس» برنابا باسم الذي صلب بدل عيسى أنه «يهودا» انتهى.

الثانية - قال «الهر آرست دي بونس» الألماني في كتابه «الإسلام أي النصرانية الحقّة» في صفحة ١٤٢ ما معناه: أن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات «بولس» ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح لا من أصول النصرانية الأصلية.

الثالثة - قال «ملمن» في الجزء الأول من كتابه المسمى «تاريخ الديانة النصرانية» إن تنفيذ الحكم كان في وقت الغلس وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم، كما اعتقد بعض الطوائف وصدقهم القرآن انتهى.

تراجع ص ٢٨١ و ٢٨٢ من كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق».

قيام المسيح من القبر

قال متى في ص ٢٨ : (١) وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظر القبر (٢) وإذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه (٣) وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج (٤) فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كالأموات (٥) فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا أنتما. فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب (٦) ليس هو ها هنا. لأنه قام كما قال. هلما انظرا الموضع الذي كان الرب مضطجعا فيه (٧) واذهبا سريعا وقولا لتلاميذه إنه قام من الأموات. ها هو يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه. ها أنا قد قلت لكما (٨) فخرجتا سريعا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه (٩) فيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه. إذا يسوع قال لهما سلام لكما. فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له (١٠) فقال لهما يسوع لا تخافا اذهبا قولوا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني (١١) وفيما هما ذاهبتان إذا قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان (١٢) فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة (١٣) قائلين قولوا إن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام (١٤) وإذا سمع ذلك عند الوالي فنحن نستعطفه ويجعلكم مطمئنين (١٥) فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم (١٦) وأما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل حيث أمرهم يسوع (١٧) ولما رأوه مجدوا له ولكن بعضهم شكوا (١٨) فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض (١٩) فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس (٢٠) وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر آمين.

١ - علم من أقوال متى أن امرأتين ذهبتا إلى القبر عند فجر أول الأسبوع فقط لتنظرا القبر .

وأما مرقس فخلط في الوقت فقال إن الذهاب كان باكراً جداً ثم قال إذ طلعت الشمس وجعل من ذهب إلى القبر ثلاث نسوة . (١) مريم المجدلية (٢) ومريم أم يعقوب (٣) وسالومة وقال إنهن ذهبن ليدهن بالحنوط الذي اشترينه .

ولعمري من أين اشترينه واليهود لا يبيعون ولا يشترون في السبت؟

وأما لوقا . فجعل شراء الحنوط قبل الدخول في السبت وأن الذهابات هن نساء كن حضرن مع يسوع من الجليل ومعهن أناس لم يبين عددهم وهل كانوا رجالاً أو نساء؟ لم يبين ذلك وجعل منهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويونا . فزاد على المسمين «يونا» وأنقص سالومة التي أثبتتها مرقس .

وخالف يوحنا فجعل الذهابة إلى القبر مريم المجدلية وحدها . وأن الظلام كان باقياً ولم يذكر أن الشمس كانت أشرقت كما قال مرقس .

٢ - علم من متى أن المرأتين أتتا إلى القبر والحجر مطبق على بابه وأن الملك نزل من السماء أمامها على الهيئة التي وصف .

وخالفه مرقس فقال إن اللائي ذهبن إلى القبر تطلعن إلى القبر فوجدن الحجر قد دحرج .

وأما لوقا فوافق مرقس في أن النساء وجدن الحجر مدحرجاً عن القبر قبل أن يأتين إليه .

وأما يوحنا - وهو الذي قال إن الذي ذهب إنما هو مريم المجدلية وحدها - فقال إنها نظرت الحجر مرفوعاً عن القبر .

٣ - يستفاد من متى أن الملك أخبر المرأتين بأن يسوع قام من الأموات وأنه يطلب لقاء تلاميذه بالجليل ، وأنهما نظرتا إلى المكان الذي كان مضطجعاً به . وخالفه مرقس فلم يذكر ملكاً وقال إنهن رأين في القبر شاباً جالساً في القبر عن اليمين .

وخالفهما لوقا إنهن دخلن القبر ولم يجدن جسد يسوع ، وفيما هن متحيرات إذ وقف بهن رجل بثياب براقه وأنه قال لهن لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟ وأنه في الجليل .

وخالف يوحنا جميع هذه الأناجيل وقال إن مريم المجدلية رأت الحجر مرفوعاً فعادت بسرعة إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الذي كان يسوع يحبه وأخبرتتهما قائلة أخذوا السيد من القبر!

٤ - يعلم من متى أن المرأتين لما انطلقنا لإخبار التلاميذ لقيهما يسوع وقال سلام لكما . . . الخ: وخالف مرقس. فذكر أنهن خرجن سريعاً وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة أخذتاها ولم يقلن لأحد شيئاً لأنهن كن خائفات. وأنه ظهر أولاً لمريم المجدلية وحدها فذهبت وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون، فلما سمعوا أنه حي وقد نظرته فلم يصدقوا.

وخالف لوقا فقال إنهن ذهبن وأخبرن الرسل فلم يصدقوهن، وانفرد لوقا بأن بطرس ركض إلى القبر وانحنى ونظر إلى الأكفان وحدها فتعجب بما كان. وأما يوحنا فجعل وصول الخبر إلى التلاميذ على لسان مريم المجدلية وحدها، وأن من ركض إلى القبر اثنان: بطرس والتلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه. وقد سبق هذا صاحبه فنظر إلى الأكفان في القبر ولم يدخل ودخل بطرس بعد أن جاء إلى القبر، ثم بعد ذلك دخل التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر ورأى فأمن.

ثم أتى يوحنا بمريم المجدلية إلى القبر مرة ثانية وأنها كانت واقفة تبكي ثم انحنى ونظرت في القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحداً عند رأسه والآخر عند رجله، وسألاها عن بكائها فقالت إنهم أخذوا سيدي ولا أعلم أين وضعوه، ولما قالت ذلك التفتت فرأت يسوع ولم تعلم أنه هو وظنته البستاني وقالت له: يا سيد إن كنت حملته فقل لي أين وضعته وأنا أخذه؟ وأن يسوع قال لها: يا مريم! فالتفتت وقال له «ربوني» الذي تفسيره «يا معلم».

٥ - ذكر مرقس أنه ظهر لاثنتين بهيئة أخرى فأخبر التلاميذ فلم يصدقوا، وذكر لوقا أن اثنتين كانا منطلقين إلى بلدة «عمواس» فاقترب إليهما يسوع وهما يتحاوران فيما كان من حادثة صلب المسيح وقتله وقيامه من الأموات وقد أمسكت أعينهما عن معرفته، فقال لهما ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟ فأجاب أحدهما الذي اسمه «كليوباس» وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟ فقال لهما: وما هي؟ فقال: المختصة بيسوع الناصري - الذي كان إنساناً نبياً مقتدرأ في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب - كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ونحن نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدوث ذلك، بل بعض النساء منا حيرنا إذ كن باكراً عند القبر ولما لم يجدن جسده أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي! ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت النساء! وأما هو فلم يروه فوبخهما قائلاً

أيها الغيبان والبطيثا القلوب بجميع ما تكلم به الأنبياء. وفسر لهما الأمور الغامضة من موسى وجميع الأنبياء وأنها شددوا عليه في أن يميل معهما ففعل ولما اتكأ أخذ خبزاً وكسره وناولهما فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما.

وقد انفرد لوقا بهذه الحكاية وهي تؤيد ما قاله أهل الإسلام ونطق به القرآن.

وجاء في إنجيل برنابا أن المسيح شبه لليهود وتغيرت هيئته حتى خفي عن «كليوباس» ورفيقه ولم يعرفاه حتى كسر الخبز وناولهما فأكلاه فانفتحت عيونهما.

من ذلك كله لا نجد شاهداً واحداً من الرجال ولا من النساء - سواء أكان موافقاً للمسيح أو منافياً له - قد شاهد المسيح وهو في القبر وشاهده يخرج منه. وإنما يقول الذين يزعمون أنهم شاهدوه أنهم رأوه خارج القبر، وهو يشهد لأهل الإسلام أن الذي قتل سواء، وأما هو فقد ظل سليماً معافى مبرأ من الوقوع في أيدي أعدائه. وأقتصر على هذا القدر تاركاً ما بقي من التضاد بين الأناجيل في المحسات وحسي الله وكفى.

المسيح عيسى ابن مريم

عبدالله ورسوله

جاء في القرآن الكريم أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس هو الله ولا ابناً لله.

اقرأوا هذه الآيات: -

سورى البقرة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمٍّ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴿١٥٧﴾﴾.

ومنها أيضاً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ لَمْ وَلَدٌ لَّمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ فَيَسْخَرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

ومنها أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُوا ﴿٧٥﴾﴾.

سورة الأنعام: ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَا لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

سورة مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

سورة الفرقان: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

سورة الزخرف: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وَإِنَّهُمْ لَوَالِمٌ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴿٦١﴾﴾.

سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِلْ وَلَدًا وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

هذا بعض ما جاء في القرآن الكريم وكله ناطق بما قلت في صراحة لا تحتمل التأويل.

وقد جاء مثل ذلك في الأناجيل وكتب العهد الجديد كما سيأتي.

أما جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هي أن الله مركب من ثلاثة أقانيم: الأب والإبن والروح القدس. وهذه كلها واحد. فانحدر الله الذي هو الأب أو الإبن - على اختلاف أقوالهم - وحل في مريم وتجسد إنساناً وولد منها وهو «يسوع» إلى آخر ما يقولون.

وهذا الكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به، ولكن المسيحيين لما أذاعوا المسيحية بين الوثنيين - الذين كانوا يدينون بالأقانيم وتجسد الآلهة والصلب والفداء ودخلوا في المسيحية حاملين لتلك العقيدة - أحبوا أن يوفقوا بين ما ألفوه من عقيدة وبين هذا الدين الجديد، وأخذوا يؤلهون المسيح ويقولون إن الله انحدر منه «أقنوم الإبن» المتحد مع «الأب» و«الروح القدس» وتجسد في رحم «مريم» ثم خرج إنساناً إلهاً. ولهم في هذا الباب أقوال لا يقولها سواهم. فهذه هي العوامل التي آلت بهم إلى عبادة المسيح - رغم أنفه - وقد جاء في القرآن كثير في الآيات في الرد عليهم.

اقرأوا الآيات الآتية:

سورة النساء: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا ۖ﴾ (٧٧).

سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾ (٧٧).

ومنها أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ بُيُوتًا تَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۖ﴾ (٧٧).

ومنها أيضاً: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ

صِدِّيقُهُ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبَّيْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ .

سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَلِّهِمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

ومنها أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَضَّلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّبُوَّةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٠﴾﴾ .

يقولون هذا في حين أن المسيح يرفض ذلك ويعترف أنه عبد يعبد الله تعالى، ويفعل مشيئته وهذه الأناجيل التي صنعوها والرسائل التي كتبها قديسهم تنطق عليهم بالحق وتثبت أنه عبد رسول وإليك الشواهد على ذلك:

(١) في يوحنا ص ١ (٥١) من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة السماء يصعدون وينزلون على ابن الإنسان - فاعترف بأنه ابن إنسان وليس ابناً لله ولا هو الله .

(٢) يوحنا ص (٦) يسوع قد تعب من السفر . ومحال أن يتعب الله الذي بقوته قامت السموات والأرض وما فيها!

(٣) يوحنا ص ٣ (٢٦) فجاءوا إلى يوحنا المعمدان وقالوا له: يا معلم هو الذي كان معك في عبر الأردن . الذي أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون إليه وأجاب يوحنا وقال لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطي من السماء أنتم أنفسكم تشهدون لي أنني قلت لست أنا المسيح بل أني مرسل قدامه .

فأنتم ترونه قد شهد على المسيح بأنه إنسان، وأنه لا يقدر أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطي من السماء، وبأنه المسيح. وقال عنه في ٣٠: ينبغي أن ذلك يزيد وأنا أنقص. ومعلوم أن الإله لا يزيد ولا ينقص.

(٤) يوحنا ص ٣ (٣٤) لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله لأنه ليس بكييل يعطي الله الروح. فأنتم ترون أن يحيى جعل المسيح رسولا لله يتكلم بكلام الله.

(٥) يوحنا ص ٤ (٣٤) قال لهم يسوع طعمامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله وهنا شهد بأنه رسول يعمل مشيئة الذي أرسله.

(٦) يوحنا ص ٤ (٤٤) لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه - وهذا صريح في نبوته وأنه كسائر الأنبياء لا يلقون الكرامة في أوطانهم وإنما يقوم بنصرهم البعداء.

(٧) يوحنا ص ٤ (١٩) قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي (٥٢) أنا أعلم أن مسياً الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شيء قال لها يسوع أنا الذي يكلمك هو - وذلك يثبت أنه نبي وأنه المسيح الذي وعد به.

(٨) يوحنا ص ٥ (١٩) لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الأب يعمل - وهذا مثل ضربه لعلمه الذي يأتي به وأثبت به أنه لا يقدر أن يعمل عملاً إلا ما علمه الله أن يعمل.

(٩) يوحنا ص ٥ (٢٤) الذي يراني ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية فاعترف بأنه يرى. ومعلوم أن الله لا يرى واعترف بأنه رسول.

(١٠) يوحنا ص ٥ (٣٠) أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً: لا أطلب مشيئتي في مشيئة الأب الذي أرسلني.

(١١) يوحنا ص ٥ (٤٤) كيف تقدر أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجد بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تقبلونه.

(١٢) يوحنا ٦ (١٤) إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم.

(١٣) يوحنا ص ٦ (٢٩) أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.

(١٤) يوحنا ص ٦ (٢٨) لأنني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة

الذي أرسلني وهذه مشيئة الأب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً، بل أقيمه في اليوم الأخير لأن هذه هي مشيئة الله الذي أرسلني.

(١٥) يوحنا ص ٦ (٤٤) لا يقدر أحد أن يقبل إلى أن لم يجتذبه الأب الذي أرسلني - فتبين من هذه العبارة أنه يقول إن الهداية إنما تكون من الله وإني عبد رسول ليس لي من الأمر شيء.

(١٦) يوحنا ص ٧ (١٦- ١٨) أجابهم يسوع وقال تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.

(١٧) يوحنا ص ٧ (٢٨) فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً تعرفوني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق.

(١٨) يوحنا ص ٧ (٣٣) فقال لهم يسوع أنا معكم زماناً يسيراً بعيداً ثم أمضي إلى الذي أرسلني.

(١٩) يوحنا ص ٧ (٤٠) وكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي. آخرون قالوا هذا هو المسيح - والمسيح لم يهدم إلى الصواب بأنه الله أو ابن الله.

(٢٠) يوحنا ص ٧ (٥١) فتش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل. فرؤساء الكهنة والفريسيون ينكرون عليه ما يدعيه من أنه نبي.

(٢١) يوحنا ص ٨ (٢٦) الذي أرسلني هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم.

(٢٢) يوحنا ص ٨ (٨) ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي والذي أرسلني هو معي.

(٢٣) يوحنا ص ١١ (٤٢) ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني.

(٢٤) يوحنا ص ١٢ (٢٨) أيها الأب نجني من هذه الساعة - والإله لا بد أن يكون تام القدرة ومن العجز أن يطلب النجاة من سواه بل طالب النجاة مقر بالعبودية والافتقار إلى من ينجي.

(٢٥) يوحنا ص ١٣ (٤٩) لم أتكلم من نفسي بل الأب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.

(٢٦) يوحنا ص ١٣ (١٦) ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله.

(٢٧) يوحنا ص ١٤ (١٦) وأنا أطلب من الأب فيعطيك «معزياً» آخر وفي النسخة المطبوعة في لندن سنة ١٨٤٤ وأطلب من الأب فيعطيك «فارقليطا» آخر.

حجة المسيحيين في إلهية المسيح

يتمسك المسيحيون بأن المسيح إله وابن إله بالفاظ وردت في بعض الأناجيل التي صنعوها مثل إطلاق لفظ «ابن الله» عليه وهو دليل واه واهن لأن هذا الإطلاق معارض بإطلاقه «ابن الإنسان» على نفسه وإطلاق «ابن داود» على نفسه أيضاً، فلا بد من حمل هذا الإطلاق على معنى لا يتنافى مع ما ثبت من جلال الله وتنزهه عما لا يليق به.

معلوم أن لفظ «الابن» بمعناه الحقيقي باتفاق لغات أهل العالم أنه المتولد من نقطة «الأب» الملقحة لبيضة «الأم» وذلك محال على الله أن تكون له صاحبة أو يوجد له ولد يتولد من نطفته - تعالى عما يقولون - فلا بد من الحمل على معنى مجازي يناسب شأن المسيح عيسى ابن مريم بحيث لا يحط من قدر الله ولا يرفع المسيح فوق قدر نفسه.

(١) ومن قارن بين ص ١٥ (٩) مرقس - ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صريح هكذا وأسلم الروح قال حقاً كان هذا الإنسان باراً - علم أنهم كانوا يطلقون على «البار: ابن الله» بلا فارق بين المسيح وغيره.

وقد كانوا يستعملون لفظ «ابن الله» في حق الصالح كما يطلقون ابن «إبليس» على الطالح.

(٢) متى ص ٥ (٩) طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون (٤٥) باركوا لأعينكم أحسنوا إلى مبغضيك صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (٤٦) لكي تكونوا أبناء إبيكم الذي في السموات.

(٣) وفي يوحنا ص ٨ (٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله (٥٢) فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني (٤٤) أنتم من أب هو «إبليس» وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق، متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بماله لأنه كذاب وأبو الكذب - وهو إنما يريد أنتم عاصون لله مطيعون للشيطان.

(٤) الرسالة الأولى ليوحنا ٣ ص (٩) كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لأن زرعته ثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله (١٠) بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس.

(٥) ص ٤ (٧) كل من يحب فقد ولد من الله.

(٦) ص ٥ (١) كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله وكل من يحب الوالد يحب المولود عنه (٢) بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه. (٧) يوحنا ص ٢٠ (١٧) لا تلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم. (٨) يوحنا ص ١٤ (٢٨) إن أبي أعظم مني.

(٩) متى ص ٨ (٢٠) فقال يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.

(١٠) متى ص ٩ (٦) ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض لكي يغفر الخطايا.

ولو كان كل من يسميه الله ابناً يحمل على النبوة الحقيقية ويكون إلهاً مستوجباً للعبادة. لكان كل بني إسرائيل آلهة لأن الله أطلق على شعب إسرائيل قول ابني. ص ٤ خروج (٢٢) وتقول له هذا ما يقول الرب ابني بكري إسرائيل (٣٣) فقلت لك اطلق ابني ليعبدني.

مزمور ٨٨ (٢٠) وجدت داود عبدي فمسحته بدهن قدسي (٢٦) وهو يدعوني أنت أبي وإلهي وناصر خلاصي (٢٧) وأنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من كل ملوك الأرض. أرمياص ٣١ (٩) إني صرت أباً لإسرائيل وأفرام هو بكري.

صمويل ثان ص ٧ قول الله في حق سليمان «وأنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً». وإني أقتصر على ذلك وأورد هنا ما ورد في دائرة المعارف للبستاني في ثلاث كلمات هن أساس العقيدة المسيحية وهن لفظ «الثالث» ولفظ «روح» ولفظ «ابن» ليتبين القارئ، أن العقيدة التي كان يعتقد بها المسيح كانت توحيداً صرفاً مبرأ عن عقيدة التثليث وعن ادعاء الإلهية.

الثالث

كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهوت تعرف «بالآب

والابن والروح القدس» وهذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت - إلا ما ندر - والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون إلى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس. وقد أضاف «اللاهوتيون» إليه شروحاً وإيضاحات اتخذوها من تعاليم المجاميع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام. وهي تبحث عن طريقة «ولادة الأقيانوم الثاني وانبثاق الأقيانوم الثالث» وما بين الأقيانيم الثلاثة من النسبة وصفاتهم المميزة وألقابهم.

ومع أن لفظة «الثالوث» لا توجد في الكتاب المقدس - ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث - قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية في اللاهوت. ولكن إذ كانت تلك الآيات قابلة لتفسير مختلفة كانت لا يؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث. بل كرموز^(١) إلى الوحي الواضح الصريح الذي يعتقدون أنه مذكور في العهد الجديد وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لإثبات هذا التعليم: (أحدهما) الآيات التي ذكر فيها «الآب والابن والروح القدس» معاً. (والآخر) التي ذكر فيها كل منهم على حدة. والتي تحتوي على نوع أخص صفاتهم ونسبة أحدهم إلى الآخر.

والجدال عن الأقيانيم في اللاهوت ابتدأ في العصر الرسولي: وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين. فإن «ثيوفيلوس - أسقف أنطاكية» في القرن الثاني استعمل كلمة «ثرياس» اليونانية. ثم كان «ترتليانوس» أول من استعمل - كلمة «ترينيتاس» المرادفة لها ومعناها «الثالوث» وفي الأيام السابقة للمجمع النيقاوي حصل جدال مستمر في هذا التعليم وعلى الخصوص في الشرق، وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها «أرثيكية»^(٢) ومن جملتها «الأبيونيين» الذين كانوا يعتقدون أن المسيح إنسان

(١) تناقض واضح إذ كيف يكون «رمزاً» ثم صريحاً؟.

(٢) متطرفة أو الحادية.

مسائل

(الأولى) جاء في التقرير الثاني وهو الذي كتبه اللجنة الثانية. مسألة صاحب موسى وهل هو شعيب أو غيره؟ وقد أخذت اللجنة على أي جعلت شعيباً بعد زمن موسى.

أقول: إن الواجب إسقاط هذه المسألة لأنني قد أصلحت ذلك القول إذ نبهني عليه الأستاذ «الشيخ عبد الفتاح خليفة» فعمدت إلى الملزمة التي فيها هذا الكلام فأعدت طبعها بعد أن أصلحت الكلام على صاحب موسى الذي صاهره، وقلت إن الفضل في ذلك للشيخ عبد الفتاح خليفة - فقد دخلت هذه المسألة في خبر كان ولم يبق لها أثر من قبل أن يظهر نقدهم.

(الثانية) جاء في ذلك التقرير ما نصه: «رابعاً: تجويزه أن تكون ولادة عيسى من مريم بصورة تؤدي إلى أن له أباً» إلخ ثم نقلوا كلامي من صفحة ٣٧١ أقول: ما كنت أظن أن يدور في خلدي أنني سأحتاج إلى أن أشرح لحضرات أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة «من هو الأب» فالأب عند كل الناس: هو الذكر البالغ من بني آدم الذي غشي امرأة قد بلغت الحيض، وعمل معها العمل الجنسي، واستقر منه في رحمها، وتخلق من ذلك المني - بواسطة التلقيح لبويضات تلك المرأة - إنسان. فإذا تمت أيامها وجاءت بذلك الولد كانت هي أمأ له، والذي فعل معها العمل الجنسي يكون أبأ له. فإذا كان متزوجاً منها من قبل ذلك أو لم يكن متزوجاً منها وإدعاه - وهي فارغة - فهو الأب عرفاً وشرعاً وإذا كان غير متزوج منها ولم يدعه كان أبأ له في الواقع وإن لم يكن أبأ شرعياً! فهل ادعيت أن مريم قد غشيتها رجل وهي بالغ وأقر منه في رحمها وتخلق من ذلك عيسى؟ كلا! ومع ذلك فقد أقررت أعينهم وحذفت تلك العبارة.

(الثالثة) ما نقلته في صفحة ٣٨٢ من كتابي عن «إنجيل برنابا» من أن يوسف النجار كان عشييراً لمريم من غير سوء، وقلت إن ذلك غير مخالف للقرآن.

أقول: إن هذا القول جاء في كتاب كله دفاع عن مريم عليها السلام وعن المسيح وعن الإسلام من قبل أن يوجد الإسلام، فصاحبه حريص كل الحرص على كرامة مريم، واتخاذ العشير قبل الزواج أمر موجود بين اليهود إلى اليوم، وهو الخطيب الذي يعاشر المرأة بدون اتصال جنسي، حتى إذا رضيته ورضيها عقد بينهما الزواج، وهذا شيء لا ضرر منه ولا يوجب هجنة على الرجل ولا على المرأة ولا على أهلها وعشيرتها، لأن ذلك لا يكون في الخفاء بل يكون ظاهراً أمام الناس.

وقد عابت اللجنة أنني أقررت هذه القصة التي اعتبرت مثاراً لاتهام اليهود. أقول: عجباً! إن اليهود إذا رأوا ذلك لا يتهمونها، بل هذه المسألة من دواعي التخفيف عنها إذ لا أسهل عليها من أن تدعي أنها تزوجته وإني أتحدى حضراتهم أن يأتوني من القرآن بما يثبت أن مريم لم تخطب لأحد أصلاً قبل أن تأتي بعيسى! فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فلا حق لهم في الاعتراض علي.

بما قدمته من الرد على مسألة من المسائل التي تعلقت بها اللجنة يعلم أن الكتاب صحيح لا مؤاخذه علي فيما نصصته فيه. وأنهم لم يكونوا على صواب في حكمهم بإعدام كتابي مادياً وإعدامهم لي أدبياً بقولهم.

«نرى أن هذا الكتاب بحالته هذه لا يصح تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم» والسلام على فضيلتكم ورحمة الله ٣١ - ١ - ١٩٣٤.

أعضاء

رئيس اللجنة

عيسى منون/ محمد العزبي/ رزق محمود أبو دققة

إبراهيم الجبالي

فقد استبان إن الكتاب لم يتضمن خطأ بل كله صواب، يشهد له أهل العقول الراجحة والأفكار القويمة ممن قرأه أنه أبدع كتاب وجد في باب قصص الأنبياء إلى اليوم، وأنه لا شبيه له في باب.

الخاتمة

الآن وقد انتهيت مما أردته من دفع كل انتقادات اللجنة على كتابي وتبين للقارئ الكريم أن اللجنة لم توفق إلى إيراد مطعن صحيح على ذلك الكتاب يستحق أن يؤبه له، واستبان أن كتابي صحيح لا غبار عليه، وأني كنت أسير في كتابتي له على النهج الواضح والسبيل السوي، ولم أحد فيه عن الصراط =

محض «والسابلين» الذين كانوا يعتقدون أن «الآب والابن والروح القدس» إنما هي صورة مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس «والآريوسيين» الذين كانوا يعتقدون أن «الابن» ليس أزلياً كالآب، بل هو مخلوق منه قبل العالم ولذلك هو دون الآب وخاضع له «والمكدونيين» الذين أنكروا كون الروح القدس أقنوماً.

وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ للميلاد. ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأن «الابن والروح القدس» مساويان للآب في وحدة اللاهوت، وأن «الابن» قد ولد منذ الأزل من الآب وأن «الروح القدس» منبثق من الآب. ومجمع طليطلة المنعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن «الروح القدس» منبثق من الإبن أيضاً!

وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها. وأما الكنيسة اليونانية - فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتة لا تقاوم - قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة. وعبارة «ومن الإبن أيضاً» لا تزال من جملة الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية والكاثوليكية.

وكتب اللوثريين والكنائس المصلحة أبقّت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير. ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة - كالسوسيليانين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم - حاسبين ذلك مضاداً للكتب المقدسة والعقل. وقد أطلق «سويدنبرغ» الثالوث على أقنوم المسيح معلماً بـ«الثالوث»، ولكن لا «الثالوث الأقانيم بل «الثالوث الأاقنوم». وكان يفهم

= المستقيم، فلا أريد أن ألقى من يدي حتى أعلن شكري لأعضاء اللجنة الموقرة فقد قاموا بما أمروا به خير قيام، ولم يدخروا وسعاً في تسوئة كتابي والتشهير بي.

وقد كانت مهمتهم شاقة كلفتهم من كل شيء يملكونه، ليصلوا إلى الغاية التي رسمت لهم وإذا كانوا لم يصلوا إلى شيء يعتبره العقلاء شيئاً يوجب المؤاخذه علي. فلم يكن ذلك عن هواة أو تقصير في أداء هذه المأمورية، إذ ليس الوصول إلى شيء بملكهم.

وأني لا أنكر أن لهم فضلاً علي في توجيه أنظار العالم إلى الوقوف على كتابي، وقد كنت أساعف الناس أيام كان موجوداً منه نسخ، أما الآن فإني أسف كل الأسف لأنني لا أجد ما أساعفهم به - هذا أولاً.

ثانياً - كان لهم الفضل علي لأنهم بتقريرهم وبعبارة أخرى بنقدهم هذا قد حفزوني على المطالعة والدرس فازددت رسوخاً في كل المعاني التي أوردتها في كتابي ووثوقاً بما ضمتها ذلك الكتاب.

ثالثاً - إنهم بنقد كتابي قد أتاحوا لي أن أرد على نقدهم بما قدمت. فأننا الآن بكتابي أوثق وسأحلي جيد طبعته الثانية بانتقاداتهم واعتراضاتهم وأزيتها بردي على حضراتهم وإبطال مدعياتهم، وحيث أن تقدم إلى العالم الإسلامي مرفوع الرأس، وأمد يدي إليهم بنسخته الثانية قائلاً: «هَآؤُمُ أَقْرَأُ كِتَابِي» [الحاقة: ١٩].

تحريراً في يوم الخميس الموافق ١٢ محرم سنة ١٣٥٣ - ٢٦ إبريل ١٩٣٤. عبد الوهاب النجار

بذلك أن ما هو إلهي في طبيعة المسيح هو «الآب» وأن الإلهي الذي اتحد بناسوت المسيح هو «الإبن» وأن الإلهي الذي انبثق منه هو «الروح القدس».

انتشار مذهب العقلين - في الكنائس اللوثرية والمصلحة - أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين.

وقد ذهب «كنت» إلى أن «الآب والإبن والروح القدس» إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت وهي «القدرة والحكمة والمحبة» أو على ثلاثة فواعل «وهي الخلق والحفظ والضبط» وقد حاول كل من «هيجين، وشلنغ» أن يجعلوا لتعليم الثالث أساساً تخيلياً! وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية! وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحي لا يتمسكون بتعليم استقامة الرأي الكنائسية بالتدقيق - كما هي مقررة في معجمي نيقية والقسطنطية المسكونيين - وقد قام محامون كثيرون في الأيام المتأخرة لعضد آراء «السايبيلين» على الخصوص.

ابن

هي بالإنكليزية «سن» وبالفرنسوية «في» وهي لفظة إضافية تطلق على الولد الذكر لأب أو أم يقال: ابن فلان كما يقال ابن فلانة، قيل معناه: أنه يبنى على ما بنى أبوه، شبه الأب بالأس والإبن بما يبنى عليه، ويستعار الإبن في كل شيء صغير فيقول الشيخ للشاب الأجنبي يا ابني، ويسمى الملك رعيته الأبناء، وكان الأنبياء في بني إسرائيل يسمون أمهم أبناء، والحكماء والعلماء يسمون المتعلمين منهم أبناءهم، وكذا خدمة الدين عند أكثر الأمم يسمون قومهم بالأبناء، وقد يكنى بالإبن في بعض الأشياء لمعنى الصاحب كابن عرس وابن مائن على الاستعارة والتشبيه، ويقال أيضاً لكل ما يحصل من جهة شيء أو تربيته أو كثرة خدمته أو قيامه بأمره أو توجهه إليه أو إقامته عليه هو ابنه، كما يقال أبناء العلم وأبناء السبيل وأبناء الدنيا وهلم جراً.

روح

وقال «بوسوي: الكاثوليكي الروماني» عن الروح القدس: إن الروح القدس المنبثق من «الآب والإبن» هو من نفس جوهرهما؛ فهو معهما إله واحد (راجع ثالث) واعترض كثيرون من الأريوسيين والمكدونيين وغيرهم على لاهوت روح القدس. واختلفت الآراء وتباينت من «جرى» التعليم بلاهوته - وقال «الأريوسيون والمكدونيون» والذين ذهبوا مذهبهم: إن الروح القدس إنما هو مخلوق كالملائكة ولكنه أرفع درجة منهم وقال «ملر أتونيوس» إن روح القدس مستعمل مجازاً يكنى به عن أفعال الله - وسمي أصحاب هذا

القول في الكتب الدينية بالمجازين . ولم يسموا الروح القدس «الله» وجعلوا له صفات الإلهية - وقال «كلارك» وهو من العلماء الحديثين: إن الروح القدس لم يدع «الله» في الكتب المنزلة !! وقال «أثناسيوس» إن كلمة الروح القدس استعملت اسماً لله . وبالعكس نسب إلى الروح ما لا ينسب إلا إلى الله كتقديس الأنفس ومعرفة جميع الحقائق . وغير ذلك . وبين أن القول بالمجاز في غير محله .

وأما السوسينيون أو «البوسينيانيون» فقالوا إن الكنيسة لم تعتقد ألوهية الروح القدس قبل المجمع القسطنطيني الذي شجب المكدونيين سنة ٣٨١ ورد عليهم بقول «ماريوسينيانوس» في القرن الثاني: إننا نعبد الإله الحقيقي الآب والإبن والروح «النبوي» وبما كتبه «اكليمنضس الاسكندري» في القرن الثالث خاتماً به كتابه لتهديب الأولاد وتعليمهم - وهو التضرع إلى الأقانيم الثلاثة - وقالوا: إن جميع معلمي الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى اعتقدوا ألوهية الروح القدس . وجمع «مارباسيليوس» شهادتهم بذلك في كلامه على الروح القدس . وذكر اعتقاد ألوهيته في «الدسولجيا» - وهي ترنيمة قديمة العهد تاريخ نظمها مجهول - ويستدل عليها بالتغطيس ثلاث مرات في المعمودية . وباستهزاء الأمم الوثنية القديمة بالمسيحيين لاعتقادهم الثالوث .

وقال «مولت» لفيلوباترس على سبيل الانتقاد أن الإله الحقيقي عند النصارى هو في ثلاثة والثلاثة في واحد - الإله السائد، وابن الأب، والروح الذي ينبثق منه - وهكذا كان الوثنيون يهتمون النصارى بعبادة ثلاثة آلهة .

واعترض بعض العلماء على ألوهية الروح القدس؛ بالقول «أن اعتقادها لا يقبله العقل» (فقال المكدونيون) لا ندرك ما هو الروح القدس في الجوهر الإلهي؛ فلا بد أن يكون مولوداً أو غير مولود . فإذا لم يكن مولوداً فما الفرق بينه وبين الأب؟ وإذا كان مولوداً فماذا يمتاز عن الإبن فقالوا بأنه مولود من الابن فقط (فرد عليهم ماراثناسيوس) بأنه لم يدع الروح القدس في الكتب المنزلة «ابنا» ولكنه دعي «روح الآب وروح الإبن فقط» والإدراك البشري يعجز عن كشف أكثر من ذلك . وقال: من المحال أن نعتبر الروح القدس مخلوقاً، لأننا نجعله باعتباره كذلك شيئاً غير مساو للآب والابن متحداً معهما . ولا نسلم أن التوليد هو الوساطة الفريدة للانبثاق من الآب والابن، ونسلم بجهل الفرق بين التوليد والانبثاق من الأب والابن، ونسلم بجهل الفرق بين التوليد والانبثاق . ولكن التوليد والانبثاق أبديان لازمان . ولا يأتيان بشيء من غير الجوهر المولد والباقي فلا ينبغي أن نخلطهما بالاعتقاد كالفلاسفة القدماء من جهة صدور الأرواح .

وفي دستور الإيمان على رأي المجمع القسطنطيني إن الروح منبثق من الأب . وبعد سنة ٤٤٧ قالت كنيسة «أسبانيا» ثم «الغلية» أي فرنسا ثم جميع الكنائس اللاتينية أنه منبثق من الأب والإبن . وهذه الإضافة من الأسباب التي جعلت البطريرك «فوتيوس ٨٦٦» والبطريرك «ميخائيل كرولاوريوس - سنة ١٠٤٣» يروجان انفصال الكنيسة اليونانية الشرقية عن اللاتينية أي الغربية .

وقال الروم الأرثوذكس وغيرهم : إن رؤساء الكنائس اللاتينية غيروا تعاليم المجمع القسطنطيني واتهموها بالتزوير وأوسعوها طعناً وقذفاً (فأجابت) أنها غيرتها جهاراً للتوضيح . والخصام الناشئ عن ذلك قديم العهد فترى آثاره في المجمع الذي عقد سنة ٧٦٧ وبحث عنه في مجمع «أكس لاشابل : سنة ٨٠٩» وتجدد في المجمع «اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥» وفي مجمع «لون الثاني سنة ١٢٧٤» وفي مجمع «فلورنسا سنة ١٤٧٩» .

وأما الروم الأرثوذكس فقالوا : إنهم حافظوا على القديم ورفضوا الحديث . ويسمى «الروح القدس» غالباً في العهد القديم أي التوراة : روح الله وروح الله القدس كما في «مز ٥١ : ١١ وأشعيا ٥٨ : ١٠ و ١١» أو روح الرب الصالح «مز ١٤٣ : ١٠ ونحميا ٩ : ٢٠» وفي الإنجيل الروح أو روح القدس أو روح الله أو روح الرب أو روح يسوع المسيح كما في «متى ٣ : ١٦ وأعمال ٩ : ٥ وفيلبي ١ : ١٩» وغيرها . . . الخ .

موقف للمسيح لم يذكر في القرآن

ومما يتعلق بقصص المسيح موقف لم يذكر في القرآن الكريم وإنما ذكر في الأناجيل . قال متى ص ٢١ (١) ولما قربوا من أورشليم وجاء إلى بيت «فاجي» عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلاً لهما اذهبا إلى القرية التي أمامكما فليلوقتا تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها» فحلاهما وأتيا بهما وإن قال لكما أحد شيئاً فقولوا الرب محتاج إليهما فليلوقتا يرسلهما . فمن هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل «قولوا لابنة صهيون : هو ذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان» فذهب التلميذان وفعلاً كما أمر يسوع وأتيا بالأتان والجحش ووضعوا عليهما ثيابهما فجلس عليهما ، والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق ، وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق ، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : أوصنا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب أوصنا في الأعالي .

المتأمل فيما جاء بإنجيل متى هذا وما جاء في الأناجيل الأخرى يرى تناقضاً ظاهراً . (١) يقول متى إنه أرسل تلميذين فأتياه بجحش وأتان وألقى التلميذان عليهما ثيابهما

فجلس عليهما - وأنا لا أدري ولا مؤلف الإنجيل المذكور يدري ولا المنجم يدري - كيف يركب المسيح الأتان والجحش معاً؟ ويتنظهما في جلسة واحدة.

(٢) أما مرقس. فكان ذا لباقة وكياسة. فقد كذبه وقال إنه أرسلهما ليأتياه بجحش فقط فأتيا به ووضعاً ثيابهما عليه وجلس عليه ودخل أورشليم.

(٣) كان لوقا كمرقس فذكر أنه إنما ركب جحشاً بعد أن أرسل تلميذين فأحضراه.

(٤) وأما يوحنا؛ فإنه كذب الأناجيل الثلاثة في أنه أرسل واحداً إلى القرية ليأتيه بالأتان والجحش كما زعم متى، أو بالجحش كما ذكر كل من مرقس ولوقا - بل قال إنه وجد جحشاً فركبه ودخل به أورشليم.

(٥) عبارة لكي يتم ما قيل بالنبي القائل «قولوا لابنة صهيون» الخ التي جاءت في متى لم يذكرها من بقية الأناجيل سوى يوحنا بعبارة تغاير عبارة متى ونصها «لا تخافي يا ابنة صهيون هو ذا ملكك يأتي جالساً على جحش أتان».

فاختلاف الأناجيل في هذه الحادثة القصيرة هذا الاختلاف وتناقضها فيه يدعو القارىء إلى اعتقاد أحد أمرين؛ إما أن تكون هذه المسألة لم تحصل - فلا المسيح أرسل إلى أتان وجحش ولا إلى جحش ولا ركب على شيء من ذلك - ولكن المسيحيين رأوا هذه العبارة في كتاب نبي من الأنبياء فأتوا بها ليدلوا على أن المسيح تكلم عنه الأنبياء بشيء، وتم بما أخبروا به على الوجه الذي نصوه. وأما أن يكون المسيح قد صنع الأمر على وجه من تلك الوجوه التي ذكروها ويكون أحد الإنجيليين المتناقضين كاذباً والآخر صادقاً.

وبعد هذا فمن هو النبي الذي جاء في كتابه هذه العبارة «قولوا لبنت صهيون الخ»؟ والجواب: أن النبي - الذي ذكر هذه العبارة في كتابه - هو زكريا عليه الصلاة والسلام في ص ٩: ٩ «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتي إليك، هو عادل ومنصور ووديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان» وبعد ذلك كله فمن هو الملك الذي جاء إلى أورشليم؟ ودخلها منصوراً وكان عادلاً ومتواضعاً وراكباً على جحش ابن أتان؟

وهل بدخول المسيح أورشليم على الوجه الذي ذكرته الأناجيل تكون النبوة قد تحققت؟

والجواب: أن النبوة لا تحقق إلا بوجود رجل له صفة الإمرة قد قهر أعداءه ودانوا له بالطاعة وعلى أثر ذلك أتى إلى أورشليم بهيئة المتواضع راكباً حماراً لا كالمملوك الجبارين.

والمسيح لم يدخل أورشليم على هذا الوجه فليس له صفة الإمرة على أهلها وليس له كلمة نافذة فيهم. فهو فرد من أفراد الرعية الرومانية لا أكثر ولا أقل. وقد علم الخاص والعام ما صنعه معه أهل أورشليم بعد ذلك بأيام قليلة فليس هو الذي تنبأ عنه زكريا، ولا تتحقق نبوة زكريا بدخول أورشليم على جحش! ولا على أتان وجحش!

وأما الشخص الذي تحققت به هذه النبوة بالفعل فهو «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه إذ خرج من المدينة راكباً على حمار حتى وصل إلى معسكر الإسلام بالجابية، فخرج إليه أهل أورشليم واعتقدوا، منه صلحاً، وبعد تمام الصلح دخل إلى أورشليم راكباً حماره الذي أتى عليه من المدينة وهو صاحب الأمر والنهي في «صهيون وأورشليم» والكلمة العليا بعد الله له والطاعة طاعته. وأما وداعة عمر وعدله وتواضعه فهي مضرب المثل إلى اليوم، وبدخوله تحققت نبوة زكريا عليه السلام.

جاء في «الطبري» في أنباء سنة ١٥ هجرية بصفحة ١٥٨ من الجزء السابع ما نصه: وجميع ما خرج عمر إلى الشام أربع مرات؛ فأما الأولى: فعلى فرس. وأما الثانية: فعلى بعير وأما الثالثة: فقصر عنها أن الطاعون مستعر. وأما الرابعة: فدخلها على حمار. فاستخلف عليها وخرج ومعلوم أن عمر لم يكن يدري ما قاله زكريا ولا علم له به، وإنما جاء لغرض معاونة «عمرو بن العاص» على فتح تلك البلاد التي تعذر عليه فتحها، فخرج من المدينة على حماره إلى فلسطين غير متعمد لذلك. ولم يقصد تفسير نبوة زكرياء.

والذين حضروا أيام الحرب العظمى يعلمون أن «اللورد ألباني» أمر بجمع الحمر الجيدة في مصر وذلك حين أشرف على فتح بيت المقدس ليمثل هو وضباطه دخول المسيح إلى بيت المقدس على حمار.

وأما اليهود فإنهم ينتظرون مسيحاً - أي ملكاً - يأتي إلى أورشليم على حمار ويعيد لهم ملك داود وسليمان تبتهج به أورشليم وصهيون.

وأما المسلمون فينتظرون مسيحاً دجالاً خرافياً يكون أعور وله حمار عجيب ما بين أذنيه أربعون ذراعاً أو سبعون ذراعاً وفي يده جنة ونار ويدعي الإلهية ويدعو الناس إلى عبادته ويفتنهم عن دينهم، ويدخل كل بلد وكل مدينة إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، ويفعل خوارق العادات وتتم له ويحارب المهدي المنتظر وينزل عيسى في تلك الأيام من السماء ويقتل الدجال بعد ذلك بمعاونة عيسى للمهدي الخ.

أما أنا فأرى أن الدجال رجل يقيمه اليهود «مسيحاً» أي ملكاً يرجون أن يعيد لهم مملكة

داود وسليمان، يركب حماراً ليدخل عليه أورشليم ليكون ذلك محققاً لنبوة زكريا، وأن الحال الحاصلة في فلسطين اليوم إنما هي جزء أولى من فتنة الدجال الذي ينتظره اليهود. وأن الله لا يمكن أن يخرق العادة لرجل يدعي الألوهية لأن ذلك تصديق له والله لا يصدق الكذاب.

موقف المسيح في اليوم الآخر

ذكر القرآن موقفاً للمسيح عليه السلام في اليوم الآخر يوم القيامة، ولما كان ذلك متحقق الوقوع متى حضر وقته؛ فقد عبر فيه بلفظ الماضي. ذلك أن الله تعالى يسأله وهو أعلم بالواقع عن ضلال أمته فيه وفي أمه؛ إذ بعضهم قد عبده وحده، وبعضهم عبده وأمه، واتخذوهما إلهين من دون الله، ليقيم الحجة على ضلال ما عمل أتباعه من بعده، فيجيبه منكرًا ذلك خاضعاً له مقررًا أنه في حياته إنما دعا إلى الله وحده وعبادته دون سواه، وأنه كان يراقبهم ويسددهم بالنصائح إلى وفاته. وبعد ذلك كان الله الرقيب عليهم وهو الشهيد على كل شيء وأن أمر عباده إليه إن شاء عذب وإن شاء رحم.

اقرأوا هذه الآيات:

سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِثْلَ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

يلاحظ القراء أنني لم أعقد باباً لقصص رسول الله (محمد) ﷺ وهو خاتم النبيين - ألا فليعلموا أنني كتبت سيرة رسول الله (محمد) ﷺ في كتاب على حدة - فإذا كان في عمري مهلة فإنهم سيرون هذا الكتاب ويقرأونه إن شاء الله وكل آت قريب.

والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه

من النبيين والمرسلين وعلى

آله وصحبه أجمعين

فهرس الكتاب

٦٢	تنبيه	٣	مقدمة الطبعة الأولى
٦٣	قصة الطوفان في أساطير الثقافة الوثنية الهندية	٦	مقدمة الطبعة الثانية
٦٤	عمر نوح	٧	كيف قابل الناس كتاب قصص الأنبياء حين ظهرت الطبعة الأولى
٦٥	قبيلتا عاد وثمود	١٢	ملاحظتان
٦٦	هود عليه السّلام وشأنه مع قبيلة عاد	١٣	آدم عليه السلام
٦٨	مساكن عاد	١٤	خلق آدم من طين
٦٨	عبادتهم	١٤	وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس عن السجود تكبراً
٧٥	صالح عليه السلام	١٤	محااجة إبليس لله في مخالفته عن أمره بالسجود
٧٥	نسب صالح وثمرود	١٥	إنظار إبليس إلى يوم الدين
٧٥	مساكن ثمود	١٥	استخلاف الله آدم في الأرض
٧٧	دين أهل ثمود	١٦	تعليم الله آدم أسماء المسميات التي تقع تحت حسه
٧٧	(رأي اللجنة)	١٧	سكنى آدم وزوجته الجنة وخروجهما منها بسبب إغواء إبليس لهما
٧٩	(شيء آخر)	١٨	مسائل: نحب أن نعرض لها في هذه القصة ونجيب عنها
٨٨	كلمة أخيرة	١٩	أين توجد الجنة؟
٨٩	إبراهيم عليه السلام	٢٠	نكتة ظريفة
٩٩	قصة إبراهيم	٢١	قصة آدم في سفر التكوين
٩٩	تبنت إبراهيم الشر للأصنام	٢٩	العظة في قصة آدم
١٠٠	المحاكمة	٣٥	قاييل وهايل ولدا آدم
١٠١	محااجة إبراهيم للملك	٣٦	إدريس عليه السلام
١٠١	تعدد مواقف إبراهيم	٣٨	ذكر بعض ما سنه لقومه المطيعين له
١٠٢	إخفاق إبراهيم في هداية قومه	٤١	ذكر ما أمر به من القرابين
١٠٣	رحلته إلى أور الكلدانيين ثم حاران أو «حران»	٤٢	صورة هرمس الهرامسة وهو «إدريس»
١٠٣	رحلته إلى فلسطين	٤٤	نوح عليه السّلام
١٠٣	رحلته إلى مصر	٤٦	(١) قوم نوح
١٠٧	رد المؤلف على نقد اللجنة	٤٦	(٢) إرسال الله نوحاً إلى قومه
١١٥	دخول إبراهيم بهاجر	٤٧	(٣) اجتهد نوح في دعوته
١١٥	ولادة إسماعيل بن إبراهيم من هاجر	٤٨	(٤) يأس نوح من هداية قومه
١١٦	سنة الختان	٤٨	(٥) نوح يصنع السفينة
١١٦	إبراهيم والملائكة	٤٩	(٦) إتمام نوح سفينته
١١٦	دفاع إبراهيم عن لوط ابن أخيه	٤٩	(٧) استشفاع نوح في ابنه
١١٦	مجادلة إبراهيم عن قوم لوط	٥٠	مسائل
١١٧	البشرى بإسحاق	٦١	قصة نوح في التوراة
١١٨	حب الاستطلاع في إبراهيم	٦٢	ملاحظة
١٢٠	إسحاق عليه السّلام رزق أبيه به		
١٢٠	تغرب إبراهيم في أرض أبي مالك .. «ملك جرار»		
١٢٢	مسألان		

١٨١	موسى عليه السلام	١٢٣	إسماعيل عليه السلام وإقدام أبيه على ذبحه
١٨٣	ولادته وإرضاعه	١٢٥	رحلة إسماعيل وهاجر إلى وادي مكة
١٨٥	تربية موسى في بيت فرعون	١٢٨	بناء البيت
١٨٩	خروج موسى من مصر إلى أرض مدين، وسببه	١٣٠	استطراد
١٩١	أرض مدين ونزول موسى بها	١٣١	أولاد إسماعيل
١٩٤	مصاهرة موسى للشيخ	١٣٢	عمر إسماعيل ووفاته
١٩٥	من هو صهر موسى؟	١٣٢	بقية أولاد إبراهيم غير إسماعيل وإسحاق
	قضاء موسى مدة استئجاره موسى بالوادي	١٣٢	وفاة إبراهيم
٢٠٠	المقدس بعثته عليه السلام	١٣٢	قصة إسحاق
٢٠٧	عودة موسى إلى مصر ودعوته لفرعون	١٣٣	زواج إسحاق
٢٠٩	تذكير فرعون موسى - تربيته في بيت فرعون	١٣٤	تغرب إسحاق
٢١٠	موسى يحاج فرعون في ربوبية الله تعالى	١٣٤	موت إسحاق
	فرعون يتجاهل الله ويدعي الإلهية ويأمر ببناء	١٣٥	لوط عليه السلام
٢١٣	صرح يصعد به إلى السماء	١٣٥	أهل سدوم
٢١٥	معجزة العصا واليد	١٣٨	مسألة
٢٢١	تمادى فرعون وقومه في إصرارهم على الكفر	١٣٩	مسألة أخرى
٢٢٢	الاتئام بموسى وقتله	١٣٩	مكان العبرة في قصة إبراهيم وما معها
٢٢٤	فرعون يستخف بموسى	١٤٣	يعقوب عليه السلام
	آيات الله على فرعون وقومه لما كذبوا موسى	١٤٣	يوسف عليه السلام
٢٢٥	عليه السلام	١٤٤	أولاد يعقوب عليه السلام
٢٢٩	انطلاق بني إسرائيل	١٤٤	يوسف عند أبيه
٢٣٠	رأي في فرعون صاحب موسى	١٤٦	يوسف عند سيده
	سوء حال فرعون وقومه يوم القيامة وما أعد الله	١٤٧	محنة يوسف
٢٣٨	لهم من الخزي والنكال	١٤٩	يوسف وامرأة العزيز
	لصوق الوثنية بقلوب فريق من بني إسرائيل على	١٥٠	لطيفة
٢٣٩	عهد موسى	١٥٠	شيوخ الخبر في المدينة وتحدث النساء به
٢٤٢	ذهاب موسى عن بني إسرائيل لميقات ربه	١٥٢	يوسف في السجن يدعو لدينه
	وكتابة الله تعالى له ألواحاً متضمنة الوصايا التي	١٥٢	الفرج ليوسف
٢٤٢	يطلب إلى بني إسرائيل العمل بها	١٥٥	يوسف بحضرة الملك
٢٤٩	اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه	١٥٦	إخوة يوسف في مصر يمتارون
	ما حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل - ومن	١٥٧	إخوة يوسف عند أبيهم
٢٥٠	هو السامري	١٥٩	حيلة يوسف في إبقاء بنيامين عنده
	أمر الله بني إسرائيل على لسان موسى بدخول	١٦٢	يوسف يتعرف إلى إخوته
٢٥٨	الأرض المقدسة	١٦٣	الأخلاق التي تستفاد من قصة يوسف وإخوته
٢٦١	تنق الجبل فوق بني إسرائيل	١٦٩	فضيلة الشكر
٢٦٨	بنو إسرائيل ومسألة البقرة	١٧٠	العظة البالغة
٣٠٧	«قياس الانفعالات النفسية عن طريق الجلد»	١٧١	شعيب عليه السلام
٣١١	الرئيس ابن سينا أسبق الجميع	١٧١	قومه ومكانهم
	قصة قارون وموقف موسى بإزائه إيذاء إسرائيل	١٧٢	تهديد شعيب والمؤمنين بإخراجهم من القرية
٣٢٢	لموسى - إظهار الله تعالى براءته	١٧٤	زمن شعيب
٣٣٥	اختيار موسى سبعين رجلاً	١٧٥	بنو إسرائيل بمصر
٣٣٧	العبد الصالح صاحب موسى	١٧٨	وفاة يعقوب
٣٣٨	ما اسم العبد الصالح	١٧٩	ثم ماذا؟
٣٣٩	تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم		

٤٢٨	حمل مريم بالمسيح وولادتها إياه	٣٤١	موت هارون ثم موسى
٤٣٣	إنباء الملاك جبريل يوسف بحبل العذراء مريم	٣٤١	موقف لبني إسرائيل بعد موسى
٤٣٤	مريم تفكر في أمرها	٣٤٢	ثناء الله تعالى على موسى وهارون
٤٣٦	خنان المسيح	٣٤٢	العظاظ التي تستفاد من قصة موسى
٤٣٧	المجوس ويسوع	٣٤٤	استطراد
٤٣٧	ذهاب يوسف ومريم بالمسيح إلى مصر	٣٤٦	داود عليه السّلام
٤٣٨	يسوع يحتاج العلماء	٣٤٦	تمهيد
٤٣٨	بعد رجوعه إلى «اليهودية» ويلوغه اثني عشر عاماً	٣٥٠	رجع الكلام إلى داود
٤٣٨	من العمر	٣٥٣	نعم الله على داود
٤٣٩	كيف ابتدأت نبوة المسيح	٣٥٥	موقفان لداود
٤٤٠	يسوع وهو ابن ثلاثين	٣٥٩	الزبور
٤٤٠	يتلقى على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك	٣٥٩	هبة سليمان لداود
٤٤٠	جبريل	٣٥٩	حكمة داود
٤٤٠	نبوة المسيح على رأس ثلاثين سنة	٣٥٩	تسبيح الجبال والطير معه واشتغاله بعمل الدروع
٤٤١	معنى كلمة الإنجيل	٣٦٠	ما يتعلق بالفتنة من القرآن
٤٤٣	المهمة التي جاء لها المسيح	٣٦٠	مكان العبرة من قصص داود
٤٥١	الأنجيل الموجودة الآن	٣٦١	سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام
٤٥٥	إنجيل برنابا	٣٧٧	السادس - إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام
٤٥٨	الحواريون	٣٧٨	السابع - تسخير الجن لسليمان
٤٥٩	وهذه أسماء التلاميذ الإثني عشر عند متى	٣٧٩	الثامن - سليمان ومملكة سبأ
٤٥٩	وهذه أسماء التلاميذ الإثني عشر عند برنابا	٣٨٢	النملة وسليمان
٤٦٠	تتيه	٣٨٣	موت سليمان عليه الصلاة والسلام
٤٦١	معجزات عيسى عليه السلام	٣٩٧	أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَام
٤٧٧	خاتمة أمر المسيح	٣٩٨	ملاحظات
٤٨١	دقيقة ينبغي التنبيه لها	٤٠١	يونس عليه السّلام
٤٨٢	الشبه والاشتباه	٤١١	يونس عليه السلام عند أهل الكتاب
٤٨٦	اليهود وصلب المسيح	٤١٢	آيات عامة بما نزل - على الأمم الخالية - من
٤٨٧	خاتمة شأن المسيح عند النصارى	٤١٢	العذاب لما كذبوا رسلهم
٤٨٨	عقيدة الصلب والفداء: وثنية	٤١٤	آيات عامة ذكر فيها بعض أسماء الأنبياء
٤٨٩	الأنجيل وصلب المسيح	٤١٤	والمرسلين إجمالاً
٤٩٥	بعد القبض على يسوع	٤١٦	زكريّا عليه السّلام
٥٠٦	قيام المسيح من القبر	٤١٨	يحيى عليه السّلام
٥٠٩	المسيح عيسى ابن مريم عبدالله ورسوله	٤٢٠	عيسى عليه السّلام
٥١٥	حجة المسيحيين في إلهية المسيح		جدول أرقام الآيات التي ذكر فيها سيدنا عيسى
٥١٦	الثالوث	٤٢١	عليه السلام
٥٢٠	ابن	٤٢٣	نسب المسيح عند النصارى
٥٢٠	روح	٤٢٣	نسب المسيح في إنجيل متى
٥٢٢	موقف للمسيح لم يذكر في القرآن	٤٢٣	نسب المسيح في إنجيل لوقا
٥٢٥	موقف المسيح في اليوم الآخر	٤٢٤	مريم بنت عمران
	والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين	٤٢٦	تبشير مريم بعيسى
٥٢٦	اصطفى		